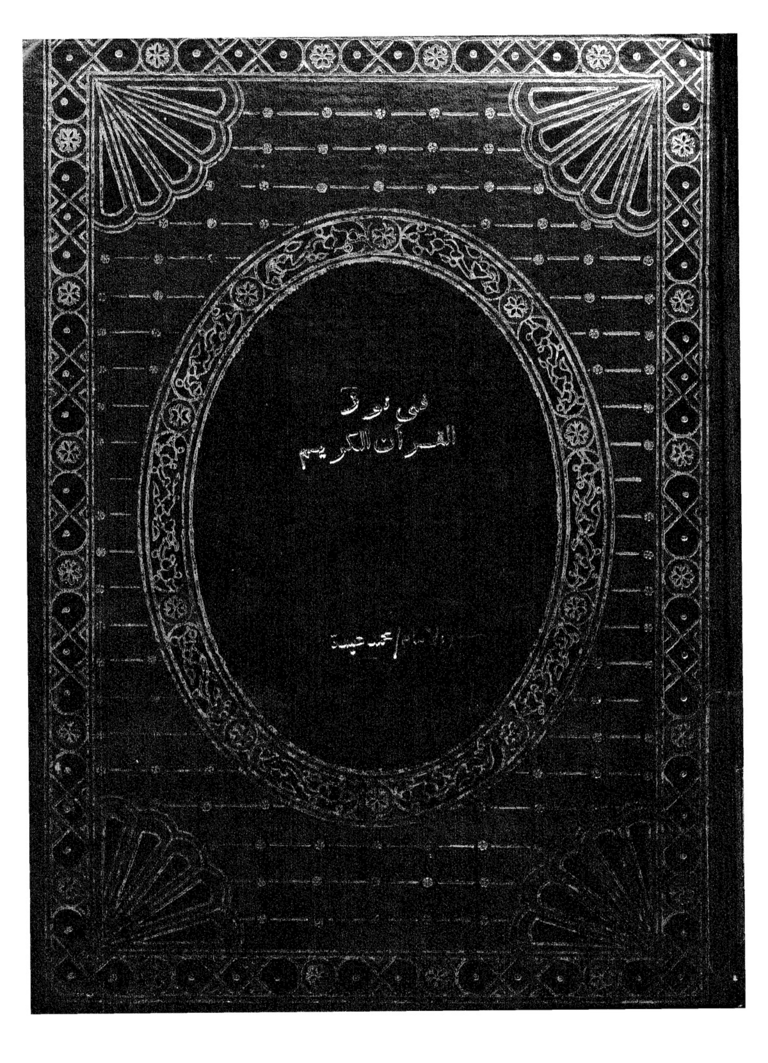
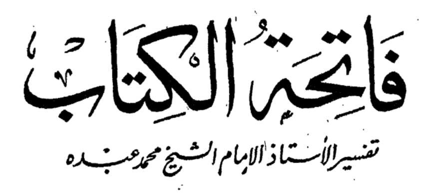
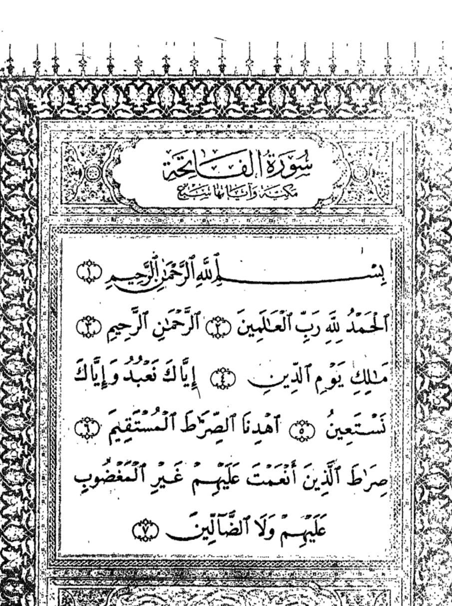

في نور
القرآن الكريم
الإمام / محمد عبده

كتاب التحرير
١



طبع بالقاهرة
١٣٨٢ هـ



سُورَةُ الفَاتِحَة
مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سَبْع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

مقدمة

فهم القرآن بالتعقل والتدبر . للتفسير وجوه شتى . القرآن حجة قائمة إلى يوم القيامة ولابد لكل مسلم أن يكون له من فهمه نصيب بقدر طاقته واستعداده . مراتب التفسير . ما الذى يجب على الناس من التفسير . التفسير فرض كفاية . الحاجة الشديدة إلى التفسير اليوم وفيما بعده . جاهلية الناس اليوم أعرق فى الجهل من الجاهلية الأولى . تأثير القرآن العظيم واعتناء العلماء الأولين باللغة العربية

التكلُّم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب الأمور وأهمِّها ؛ وما كلُّ صعب يُترك ، ولذلك لا ينبغى أن يمتنعَ الناسُ عن طَلبِه . ووجوهُ الصعوبة كثيرةٌ ، وأهمّها أن القرآنَ كلامٌ سماوىٌّ تنزَّل من حضرةِ الربوبيّة ، التى لا يُكتنَهُ كنهها ، على قلب أكمل الأنبياء . وهو يشتمل على معارفَ عالية ، ومطالبَ سامية ، لا يُشرِفُ عليها إلا أصحابُ النفوسِ الزاكيةِ والعقولِ الصافية . وإن الطالبَ له يجد أمامَهُ من الهيبة والجلالِ ، الفائضينِ من حضرة الكمال ، ما يأخذ بتلبيبه ، ويكاد يَحُولُ دونَ مطلوبه . ولكنَّ اللهَ تعالى خفَّف علينا الأمرَ بأن أمَرَنا بالفهم والتعقُّلِ لكلامِهِ ، لأنه إنما أنزل الكتابَ نورًا وهدًى ، مبيِّناً للناس شرائعَهُ وأحكامَهُ ، ولا يكونُ كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه .

والتفسيرُ الذى نطلبه هو فَهْمُ الكتاب من حيثُ هو دِينٌ يُرشِدُ الناسَ إلى ما فيه سعادتُهُمْ فى حياتِهِم الدنيا وحياتِهِمُ الآخرةِ ، فإن هذا هو المقصِد الأعلى منه وما وراءَ هذا من المباحث تابعٌ له أو وسيلةٌ لتحصيله .

التفسير له وجوه شتى :

أحدها – النظرُ فى أساليبِ الكتابِ ومعانيه وما اشتمل عليهِ من أنواعِ البلاغةِ ليُعرَفَ به عُلُوُّ الكلامِ وامتيازُهُ على غيره من القول . سلك هذا المسلكَ الزمخشرى ، وقد أَلَمَّ بشيءٍ من المقاصد الأُخرى ، ونحا نحوه آخرون .

ثانيها – الإعراب . وقد اعتنى بهذا أقوامٌ توسَّعُوا فى بيانِ وجوهِهِ وما تحتملُهُ الأَلفاظُ منها .

ثالثها – تَتَبُّعُ القَصَصِ . وقد سلك هذا المسلكَ أقوامٌ زادوا فى قَصَصِ القرآنِ ما شاءُوا من كتبِ التاريخِ والإسرائيليات ، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم ، بل أَخذوا جميعَ ما سَمِعوه عنهم من غيرِ تفريق بين غثٍّ وسمينٍ ، ولا تنقيحٍ لما يخالفُ الشرعَ ولا يطابقُ العقل .

رابعها – غريبُ القرآن .

خامسها – الأَحكامُ الشرعيةُ ، من عباداتٍ ومعاملاتٍ ، والاستنباطُ منها .

سادسها – الكلام فى أُصول العقائد ومُقارعة الزائغين ومحاجّة المختلفين . وللإمام الرازى العناية الكبرى بهذا النوع .

سابعها – المواعظ والرقائق ، وقد مزجها الذين وَلِعوا بها بحكاياتِ المتصوّفةِ والعُبَّادِ ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التى وضعها القرآن .

ثامنها – ما يسمونه بالإشارةِ . وقد اشتبه على الناس فيه كلامُ الباطنيةِ بكلامِ الصوفيةِ . ومن ذلك التفسيرُ الذى ينسبونه للشيخ الأَكبرِ محيي

الدين بنِ عربى ، وإنما هو للقاشانى الباطنىِّ الشهير ، وفيه من النزعات ما يتبرأُ منه دينُ اللهِ وكتابُهُ العزيز .

وقد عَرَفْتَ أن الإكثارَ فى مقصِدٍ خاصٍّ من هذه المقاصدِ يَخْرُجُ بالكثيرينَ عنِ المقصودِ من الكتابِ الإلهىِّ ويذهبُ بِهِ فى مذاهبَ تنسيهِ معناهُ الحقيقىَّ ، لهذا كان الذى نُعنَى به من التفسيرِ هو ما سبقَ ذكرُهُ ، ويتبعه بلا ريب بيانُ وجوهِ البلاغة بقدر ما يحتملُهُ المعنى وتحقيقُ الإعرابِ على الوجهِ الذى يليقُ بفصاحةِ القرآنِ وبلاغتِهِ .

ويمكنُ أن يقولَ بعضُ أهلِ هذا العصر : لا حاجةَ إلى التفسيرِ والنظر فى القرآن لأن الأئمةَ السابقينَ نظروا فى الكتابِ والسُّنَّةِ واستنبطوا الأحكامَ منهما ، فما علينا إلا أن ننظرَ فى كُتبِهِمْ ونستغنىَ بها . هكذا زعم بعضُهم ، ولو صحَّ هذا الزعمُ لكان طلبُ التفسيرِ عَبَثًا يضيع به الوقت سُدًى ، وهو — على ما فيه من تعظيم شأن الفقه — مخالفٌ لإجماع الأُمَّةِ من النبى صلى الله عليه وسلم إلى آخر واحد من المؤمنين . ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم !

الأحكامُ العمليةَ التى جَرَى الاصطلاحُ على تسميتها فقهاً هى أقلّ ما جاء فى القرآنِ . وإن فيه من التهذيبِ ودعوةِ الأرواحِ إلى ما فيه سعادتُها ورفعُها من حضيضِ الجَهَالةِ إلى أَوْجِ المَعرفَةِ ، وإرشادِها إلى طريقةِ الحياةِ الاجتماعيَّةِ ، ما لا يَستَغنِى عنهُ مَنْ يُؤْمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وما هو أجدرُ بالدخولِ فى الفقهِ الحقيقىِّ ، ولا يُوجَدُ هذا الإرشادُ إلا فى القرآنِ .

وفيما أُخذ منه — كإحياءِ العلوم — حظٌّ عظيمٌ من علم التهذيب . ولكنْ سلطانَ القرآنِ على نفوسِ الذينَ يفهمونَهُ ، وتأثيرَهُ فى قلوب الذينَ يتلونَهُ

حقَّ تِلاوتِه ، لا يساهمه فيه كلامٌ ؛ كما أن الكثيرَ من حِكَمِهِ ومعارفِه لم يُكشَفْ عنها اللثام ، ولم يُفصِحْ عنها عالِمٌ ولا إمامٌ . ثُمَّ إن أَئِمةَ الدِّينِ قالوا إن القرآن سيبقى حجةً على كلِّ فردٍ من أَفرادِ البشر إلى يوم القيامة لحديث « والقرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عَلَيْكَ » . ولا يُعقَلُ هذا إلا بفَهمِه والإصابةِ من حكمته وحكمِهِ .

خاطَبَ اللهُ بالقرآن مَنْ كان فى زمنِ التنزيلِ . ولم يُوجِّه الخطابَ إليهم لخُصوصيَّةٍ فى أَشخاصهم ، بل لأَنهم من أَفرادِ النوعِ الإنسانى الذى أُنزلَ القرآنُ لهدايتِهِ . يقول اللهُ تعالى : « يا أَيُّهَا الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » ، فهل يُعْقَلُ أَنَّهُ يرضَى منا بأَلَّا نفهمَ قولَهُ هذا ونكتفىَ بالنظر فى قول ناظرٍ نظرَ فيهِ لم يأْتِنَا من اللهِ وحىٌ بوجوبِ اتباعِهِ لا جمْلةً ولا تفصيلاً ؟ كلا ، إنه يجبُ على كلِّ واحدٍ من الناسِ أَن يفهمَ آياتِ الكتابِ بقدرِ طاقته ، لا فرقَ بين عالِمٍ وجاهلٍ ، يكفى العامىَّ من فَهْمِ قولِهِ تعالَى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فى صَلَاتِهِمْ خاشِعُونَ . والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أَزْواجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ » ، ما يعطيهِ الظاهرُ منَ الآياتِ ، وأَنَّ الذين جُمِعَتْ أَوصافُهُمْ فى الآياتِ الكريمةِ لهم الفوزُ والفلاحُ عندَ اللهِ تعالى . ويكفى فى معرفةِ الأَوصافِ أَن يعرفَ معنَى الخشوعِ والإعراضِ عن اللَّغْوِ وما لا خيرَ فيه ، والإقبالِ على ما فيه فائدةٌ له دُنيويةٌ أَو أُخرويةٌ ، وبذلِ المالِ فى الزكاةِ ، والوفاءِ بالعهدِ وصدقِ الوعدِ والعفةِ عن إتيانِ الفاحشةِ ، وأَنَّ مَن فارقَ هذه الأَوصافَ إلى أَضدادِها فهو المُتَعَدِّى حُدودَ اللهِ المتعرضُ لغضبِهِ ، وفهمُ

هذه المعانى مما يَسْهُلُ على المؤمنِ منْ أىِّ طبقةٍ كانَ ومنْ أهلِ أىِّ لغةٍ كان . ومن الممكنِ أن يتناولَ كلٌّ أحدٍ من القرآنِ بقَدْر ما يجذِبُ نفسَهُ إلى الخيرِ ويصرِفُها عنِ الشَّرِّ ، فإنَّ اللهَ تعالى أنزلَهُ لِهِدايتِنَا ، وهو يعلَمُ منَّا كلَّ أنواعِ الضَّعفِ الذى نحنُ عليه .

وهناكَ مرتبةٌ تعلو على هذه ، وهى من فروضِ الكِفايةِ .

* * *

وللتفسيرِ مراتبُ ، أدناها آن يبيِّنَ بالإجمالِ ما يُشرِبُ القلبَ عظمةَ اللهِ تعالَى وتنزيهَهُ ، ويصرِفُ النفسَ عن الشرِّ ، ويجذبُها إلى الخير ؛ وهذه هى التى قلنا إنها متيسرةٌ لكلِّ أحد .

وأما المرتبة العليا فهى لا تتمُّ إلا بأمور :

أحدها – فَهْمُ حقائقِ الألفاظِ المفرَدَةِ التى أودعَهَا القرآنَ بحيثُ يحقِّقُ المفسرُ ذلك من استعمالاتِ أهلِ اللغةِ غيرَ مكتفٍ بقول فلانٍ وفهم فلان ، فإن كثيرًا من الألفاظِ كانت تُستعملُ فى زمن التنزيلِ لِمَعَانٍ ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك لفظُ « التأويلِ » ، اشتُهِرَ بمعنى التفسيرِ مطلقاً أو على وجْه مخصوصٍ ، ولكنَّهُ جاء فى القرآنِ بمعانٍ أُخرى كقوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » ، فما هذا التأويل ؟ يجبُ على مَن يريدُ الفهمَ الصحيحَ أن يتتبعَ الاصطلاحاتِ التى حدثتْ فى المِلَّةِ ليفرِّقَ بينها وبين ما وردَ فى الكتابِ ، فكثيرًا ما يفسِّرُ **المفسِّرون** كلماتِ القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى المِلَّةِ بعد القُرون الثلاثة الأُولى فعلى المدقِّقِ **أن** يفسِّرَ القرآنَ بحسَبِ المعانى التى كانت مُستعْمَلةً فى عصرِ

نَزولِهِ ، والأحسنُ أن يَفهَمَ اللفظ من القرآنِ نفسِهِ بأن يَجمعَ ما تكرر فى مواضعَ منه ويَنظُرَ فيهِ – فربما اسْتُعْمِلَ بمعانٍ مختلفةٍ كلفظ الهداية وغيره – ويُحَقِّقَ كيف يتفق معناهُ مع جملةِ معنى الآيةِ ، فيعرفَ المعنى المطلوبَ من بينِ معانيه . وقد قالوا إن القرآنَ يُفسِّرُ بعضُهُ ببَعْضٍ ، وإن أفضلَ قرينةٍ تقوم على حقيقةِ معنى اللفظِ موافقتُهُ لما سبق له من القول ، واتفاقُهُ مع جملةِ المعنى ، وائتلافُه مع القصد الذى جاء له الكتابُ بجملته .

ثانيها – الأساليبُ ، فينبغى أن يكونَ عندَهُ من عِلْمِها مايَفْهَمُ به هذه الأساليبَ الرفيعةَ ، وذلك يحصُلُ بممارسةِ الكلامِ البليغ ومزاولَتِهِ مع التَّفَطُّنِ لِنُكَتِهِ ومحاسِنِهِ ، والعنايةِ بالوقوفِ على مُرادِ المتكلِّم منهُ . نعم إننا لا نتسامَى إلى فهمِ مرادِ اللهِ تعالَى كلِّهِ على وجهِ الكمالِ والتمام ، ولكن يمكِنُنَا فهمُ ما نهتدِى به بقدر الطاقةِ . ويُحتاجُ فى هذا إلى علم الإعرابِ وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ، ولكنَّ مجرَّدَ العلمِ بهذه الفنون وفَهمِ مسائِلِها وحفظِ أحكامها لا يفيدُ المطلوبَ . تَرَوْنَ فى كُتُبِ العربيةِ أنَّ العربَ كانوا مُسَدَّدِينَ فى النطقِ ، يتكلمونَ بما يوافق القواعِدَ قبلَ أن تُوضَعَ . أتحسبونَ أن ذلك كان طبيعيًّا لَهُمْ ؟ كلا ، وإنما هى مَلَكَةٌ مُكتَسَبَةٌ بالسَّماع والمحاكاة ، ولذلك صار أبناءُ العَرَبِ أشدَّ عُجْمَةً من العَجَمِ عندما اختلطوا بهم ؛ ولو كان طبيعيًّا ذاتيًّا لهم لما فَقَدُوه فى مدةِ خمسينَ سنةً من بعدِ الهجرة .

ثالثها – علمُ أحوالِ البَشَرِ ، فقد أنزلَ اللهُ هذا الكتابَ وجعله آخرَ الكتب ، وبيَّنَ فيه ما لم يُبَيِّنْهُ فى غيرِهِ . بيَّنَ فيهِ كثيرًا من أحوالِ الخَلْقِ وطبائِعِهِ والسُّنَنِ الإلهيةِ فى البَشَرِ ، وقصَّ علينا أحسنَ القَصَصِ عن الأممِ وسِيَرِهَا الموافقةِ لسُنَّتِهِ فيها : فلا بدَّ للناظرِ فى هذا الكتاب من النظرِ فى أحوالِ

البَشَرِ فى أطوارِهِمْ وأدوارِهِمْ ومناشِيءِ اختلَاف أَحوالِهِمْ من قوة وضَعْفٍ ، وَعِزٍّ وذُلٍّ ، وعِلْمٍ وجَهْل ، وإيمانٍ وكُفْر ؛ ومن العلم بِأَحوالِ العالَمِ الكبيرِ عُلويِّهِ وسُفليِّهِ . ويُحتاجُ فى هذا إلى فنونٍ كثيرةٍ من أَهمِّها التاريخُ بِأَنواعِهِ .

وأَنا لا أَعقِلُ كيفَ يُمكِنُ لأَحَدٍ أَن يُفسِّرَ قولَهُ تعالَى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو لايعرف أَحوالَ البشر ، وكيف اتَّحَدُوا وكيف تفرَّقُوا ، وما معنى تلك الوَحْدَةِ التى كانوا عليها ، وهل كانت نافعةً أَو ضارَّةً ، وماذا كانَ من آثار بَعْثِهِ النبيينَ فيهم .

أَجملَ القرآنُ الكلامَ عن الأُمم وعن السُّنَنِ الإلهيةِ وعن آياتِهِ فى السمٰواتِ والأَرضِ وفى الآفاق والأَنفُسِ ، وهو إجمالٌ صادرٌ عمَّن أَحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً ، وأَمرنا بالنظرِ والتفكُّرِ والسَّيْرِ فى الأَرضِ لنفهمَ إجمالَهُ بالتفصيلِ الذى يَزيدُنا ارتقاءً وكمالًا ؛ ولو اكتفينا من علم الكَوْن بنظرةٍ فى ظاهرِهِ لكنَّا كمنْ يعتَبِرُ الكِتابَ بِلَوْنِ جِلْدِهِ لا بما حَوَاهُ من عِلْمٍ وحِكْمةٍ .

رابعها ــ العلمُ بوَجْهِ هدايةِ البَشَرِ كلِّهم بالقرآنِ ، فيجب على المفسِّرِ القائم بهذا الفَرْضِ الكِفائِيِّ أَن يَعْلَمَ ما كان عليهِ الناسُ فى عصرِ النُّبُوَّةِ من العربِ وغيرِهِمْ ، لأَنَّ القرآنَ يُنَادِي بِأَنَّ الناسَ كُلَّهُمْ كانوا فى شَقَاءٍ وضلالٍ ، وأَنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بُعِثَ بهِ لِهِدايَتِهِمْ وإسعادِهم . وكيف يَفهمُ المفسِّرُ ما قبَّحَتْهُ الآياتُ من عوائدِهِمْ على وجه الحقيقةِ

أو ما يقرُبُ منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه . هل يُكْتَفَى من علماء القرآنِ – دُعاةِ الدين والمناضلينَ عنه – بالتقليد ، بأن يقولوا تقليدًا لغيرِهِمْ إنَّ الناسَ كانوا على باطِل وإن القرآنَ دَحَضَ أباطيلَهُمْ فى الجملة ؟ كلاَّ .

خامسها – العِلْمُ بسيرةِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلّم وأصحابِهِ وما كانوا عليه من عِلْم وعَمَلٍ وتصرُّفٍ فى الشُّئونِ دُنْيَوِيِّهَا وأُخْرَوِيِّهَا .

فَعُلِمَ مِمَّا ذكرْنَا أن التفسيرَ قسمانِ :

أَحَدُهُمَا جافٌّ مُبْعِدٌ عنِ اللهِ وكتابِهِ ، وهو ما يُقْصَدُ به حَلُّ الألفاظِ وإعرابُ الجُمَلِ وبيانُ ما تَرمِى إليه تلْكَ العباراتُ والإشاراتُ من النُّكَتِ الفنيةِ . وهذا لا ينبغى أن يُسَمَّى تفسيرًا ، وإنما هو ضَرْبٌ منَ التمرينِ فى الفنونِ كالنَّحوِ والمعانى وغيرِهما .

وثانيهما – وهو التفسيرُ الذى قلنا إنه يجبُ على الناسِ على أنَّهُ فَرْضُ كِفاية – هو الذى يَسْتَجْمِعُ تلك الشروطَ لأَجْلِ أن تُسْتَعْمَلَ لغايتِها ، وهو ذَهَابُ المفسِّرِ إلى فَهْمِ مُرَادِ القائلِ منَ القَوْلِ وحكمةِ التشريع فى العقائدِ والأخلاقِ والأَحكامِ على الوجهِ الذى يجذِبُ الأَرواحَ ويسوقُها إلى العملِ والهدايةِ المُودَعَةِ فى الكلامِ ليتحقَّقَ فيهِ مَعْنى قولِهِ «هُدًى ورَحْمَة» ونحوهما من الأَوصافِ . فالمَقْصِدُ الحقيقىُّ وراءَ كلِّ تلك الشروطِ والفنونِ هو الاهتداءُ بالقرآن ، وهذا هو الغرضُ الأَولُ الذى أَرمى إليه فى التفسير .

ومَثَلُ الناطقينَ بالعربيةِ الآن – من العراقِ إلى نهايةِ بلاد مُرَّاكُش – بالنسبة إلى العربِ فى لغتِهِمْ كمثلِ قومٍ من الأَعاجم مخالِطينَ للعربِ وُجِدَ فى كلامهم بسببِ المخالطةِ مُفرداتٌ كثيرةٌ من العربيةِ ، فهؤلاء

الأقوامُ أشدُّ حاجةً إلى التفسيرِ وفَهْمِ القرآنِ من المسلمينَ الأولينَ ، لاسيما مَنْ كانوا فى القرنِ الثالثِ حيثُ بُدِئَ بكتابةِ التفسير وأحسَّ المسلمون شِدَّةَ حاجتِهِمْ إليهِ . ولا شكَّ أن من يأتى بعدَنا يكونُ أحوجَ منا إلى ذلك إذا بقينا على تقهقُرِنا ، ولكن إذا يسَّرَ اللهُ لنا نهضةً لإحياء لغتِنا ودينِنا فربما يكونُ مَنْ بعدَنا أحسنَ حالاً مِنَّا .

التفسيرُ عند قومِنا ، اليومَ ومِن قبلِ اليومِ بقرون ، هو عبارةٌ عن الاطلاعِ على ما قالهُ بعضُ العلماءِ فى كتبِ التفسيرِ ، على ما فى كلامِهم منَ اختلافٍ يتنزَّهُ عنهُ القرآن «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا» . وليْتَ أهلَ العنايةِ بالاطلاعِ على كتبِ التفسيرِ يطلبونَ لأنفُسِهمْ معنىً تستقرُّ عليهِ أفهامُهُمْ فى العلم بمعانى الكتابِ ، ثم يبثُّونه فى الناسِ ويحملونَهُمْ عليه . لَمْ يطلُبوا ذلك ، وإنما طلبوا صناعةً يفاخرونَ بالتفنن فيها ويمارون فيها مَنْ يباريهم فى طلبها ، ولا يخرُجُون لإظهارِ البراعةِ فى تحصيلها عن حدِّ الإكثار من القولِ واختراعِ الوُجوهِ من التأويلِ والإغرابِ فى الإبعادِ عن مقاصدِ التنزيل . إن اللهَ تعالى لا يسألُنا يومَ القيامةِ عن أقوالِ الناسِ وما فهموه ، وإنما يسألنا عن كتابهِ الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا ، وعن سنة نبيِّهِ الذى بَيَّنَ لنا ما نُزِّلَ إلينا «وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» . يسألُنا : هل بَلَغَتْكُمُ الرسالة ؟ هل تدبَّرتُمْ ما بُلِّغْتُم ؟ هل عَقَلْتُمْ ما عنه نُهيتُم وما به أُمِرْتُم ؟ وهل عَمِلْتم بإرشاد القرآن واهتديتم بهدْى النبيِّ واتبعتم سُنَّتَهُ ؟

عجباً لنا ... ننتظرُ هذا السؤالَ ونحنُ فى هذا الإعراضِ عن القرآن وهَدْيِهِ ! فيا لَلْغَفْلَةِ والغرُور !

معرِفَتُنَا بالقرآن كمعرِفَتِنا باللهِ تعالى . . . أولُ ما يُلَقَّنُ الوليدُ عندنا من معرفةِ اللهِ تعالى هو اسمُ «الله» تبارك وتعالى ، يتعلَّمُهُ بالأَيْمانِ الكاذبةِ كقوله : «واللهِ لقد فعلتُ كذا وكذا ! والله ما فعلت كذا !» . وكذلك القرآنُ ، يَسمعُ الصبيُّ ممن يعيشُ معهم أنه كلامُ اللهِ تعالى ، ولا يعقِلُ معنى ذلك ، ثم لا يعرِفُ مِن تعظيمِ القرآن إلا ما يعظِّمه به سائرُ المسلمينَ الذين يتربَّى بينهم ، وذلك بِأَمْرَيْنِ :

أحدهما — اعتقادُ أن آيةَ كذا إذا كُتِبَتْ ومُحِيَتْ بماءٍ وشربَهُ صاحبُ مرضٍ كذا شُفِيَ . وأنَّ مَنْ حملَ القرآنَ لم يَقْرَبْهُ جنٌ ولا شيطان ، وبُورِكَ له فى كذا وكذا ، إلى غير ذلك مما هو مشهورٌ ومعروفٌ للعامةِ أكثرَ مما هو معروفٌ للخاصَّة . ومع صَرْفِ النظرِ عن صحةِ هذا وعدمِ صحتهِ نقول إنَّ فيه مبالغةً فى التعظيم عظيمةً جدًا ، ولكنها — ويا للأسف ! — لا تزيدُ عن تعظيمِ الترابِ الذى يُؤْخَذُ من بعضِ الأَضْرِحَةِ ابتغاء هذه المنافعِ والفوائدِ نفسِها . ونحوُ هذا ما يُعَلَّقُ على الأَطفالِ من التعاويذِ والتناجيسِ ، كالخِرَقِ والعظامِ والتمائمِ المشتملةِ على الطِّلَّسْماتِ والكلماتِ الأعجميةِ المنقولةِ عن بعضِ الأُمم الوثنية . هذا الضربُ من تعظيمِ القرآنِ نُسَمِّيهِ — إذا جَرَيْنَا على سُنَّةِ القُرآنِ — عبادةً للقرآن ، لا عبادةً للهِ بهِ .

ثانيهما — الهِزَّةُ والحركةُ المخصوصةُ ، والكلماتُ المعلومةُ التى تصدُرُ ممن يسمعونَ القرآنَ إذا كانَ القارئُ رخيمَ الصوتِ حسنَ الأَداءِ عارفاً بالتطريب على أُصولِ النَّغَمِ . والسببُ فى هذهِ اللذةِ والنشوةِ هو حُسْنُ الصوتِ والنَّغَمِ ، بل أقوى سببٍ لذلك هو بُعدُ السامعِ عن فهمِ القرآنِ . وأعنى بالفهمِ ما يكون عن ذوقٍ سليمٍ تصيبه أساليبُ القرآنِ بعجائبِها ،

وتملكه مواعظها ، فتشغَلُهُ عما بينَ يديهِ مما سواه . لا أَريدُ الفَهْمَ المأْخوذَ بالتسليمِ الأَعمى من الكُتُبِ أَخذًا جافًا لم يَصْحَبْهُ ذلكِ الذوقُ وما يتبعُهُ من رقَّةِ الشعورِ ولُطْفِ الوِجدانِ اللذَيْن هما مدارُ التعقُّلِ والتأَثُّرِ والفَهْمِ والتَّدَبُّرِ . لهذا كلِّه يمكننا أَن نقولَ إِن الجاهِلِيَّةَ اليومَ أَشدُّ مِنَ الجاهليةِ الأُولى ، والضالينَ اليومَ أَمْعَنُ فى الضَّلالِ مِنَ الضَّالِينَ فى زَمَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ،لأَنَّ مِنْ أُولئِكَ مَن قالَ اللهُ تعالى فيهِمْ : «يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » ، ومعرفَةُ الحقِّ أَمرٌ عظيمٌ شريفٌ . نعم ، ربما كان إِثمُ صاحِبِها مع الجحودِ أَشَدَّ ، ولكنَّهُ يكونُ دائماً مَلُوماً مِنْ نفسِهِ على الإِعراضِ عن الحقِّ ، وهذا اللومُ يُزَلْزِلُ ما فى نفسِهِ من الإِصرارِ على الباطِلِ .

كان البدويُّ راعى الغنمِ يسمَعُ القرآنَ فَيَخِرُّ له ساجدًا لما عندَهُ من رِقَّةِ الإِحساسِ وَلُطْفِ الشُّعور ، فهل يُقاسُ هذا بأَىِّ متعلِّمٍ اليومَ ؟ أَرأَيتَ أَهلَ جزيرةِ العربِ كيفَ انْضَوَوْا إِلى الإِسلامِ بجاذبيةِ القرآنِ لما كان لهم من رقَّة المدارك التى كانت سببَ الانجذابِ إِلى الحقِّ ؟ قالَ الأَصْمَعِىُّ : سَمِعْتُ بنتاً مِنَ الأَعرابِ ، خُمَاسِيَّةً أَو سُدَاسِيَّةً ، تُنْشِدُ :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَنْبِى كُلِّهْ ... قَتَلْتُ إِنساناً بغيرِ حِلِّهْ
مثل غزالٍ ناعمٍ فى دَلِّهْ ... وانتصفَ الليلُ ولم أُصَلِّهْ

فقلتُ لها : قاتَلَكِ اللهُ ما أَفصحَكِ ! فقالت : وَيْحَكَ ! أَيُعَدُّ هذا فصاحةً مع قولِهِ تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلىَ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » فجمعَ فى آيةٍ واحدةٍ بينَ أَمْرَينِ ونهيَيْنِ وبِشَارَتَيْنِ ؟

لَمَّا رأى علماءُ المسلمينَ فى الصدرِ الأَوَّلِ تأثيرَ القرآنِ فى جذبِ قلوبِ الناسِ إلى الإسلامِ ، وأَنَّ الإسلامَ لا يُحْفَظُ إلا بهِ ، ولما كان العربُ قد اختلطوا بالعَجَمِ ، وفَهِمَ مَنْ دَخَلَ فى الإسلامِ مِنَ الأعاجمِ ما فَهِمَهُ علماءُ العَرَبِ ، أَجْمَعَ كُلٌّ على وجوبِ حِفْظِ اللغةِ العربيةِ ، ودوَّنُوا لها الدواوينَ ووضعوا لها الفُنونَ .

نعم إنَّ الاشتغالَ بلغةِ الأُمَّةِ وآدابها فضيلةٌ فى نفسِهِ ومادةٌ من موادِّ حياتها ، ولا حياةَ لأُمَّةٍ ماتتْ لغتُهَا ، ولكنْ لم يكن هذا وحدَهُ هو الحاملُ لسلَفِ الأُمَّةِ على حِفْظِ اللغةِ بمفرداتها وأساليبها وآدابها ، وإنما الحاملُ لهم على ذلك ما ذكرنا .

أَلَّفَ العلَّامةُ الاسفَراينىُّ كِتاباً فى الفِرَقِ خَتَمَهُ بذِكْرِ أهلِ السنةِ ومزاياهُمْ ، وعَدَّ من فضائِلِهِمْ التى امتازوا بها على سائِرِ الفِرَقِ التبريزَ فى اللغةِ وآدابها ، وبيَّنَ ذلك بأَجلى بيان . فأَينَ هذه المزايا وأَين آثارُها فى فَهْمِ القرآنِ ، بل فَهْمِ ما دونَهُ من الكلامِ البليغِ ؟ وقد بيَّنَّا وجهَ الحاجةِ فى التفسيرِ إلى تَحْصِيلِ مَلَكَةِ الذَّوْقِ العَرَبِىِّ ، وإلى غيرِ ذلكَ من الأُمورِ الَّتى يَتَوَقَّفُ عليها فَهْمُ القُرآن .

الفاتحة

سُمِّيَت الفاتحةُ فاتحةً لأَنها أَولُ القرآن فى هذا الترتيب . وتُسمَّى أُمّ الكتابِ . وقالوا إن حديثَ النَّهْى عن تسمِيَتِها هذا الاسمَ موضوعٌ .

ويتكلمونَ عندَ الكلامِ عن السُّوَرِ على المكىِّ والمَدَنىِّ ، وهو يُفيدُ فى معرفَةِ الناسِخِ والمنسوخِ ، وليس فى الفاتحةِ ناسخٌ ولا منسوخٌ .

وهى مكيةٌ خلافاً لمجاهد ، فالإجماعُ على أَنَّ الصلاةَ كانتْ بالفاتحةِ لأَول فَرْضِيَّتِهَا ، ولا رَيْبَ أَنَّ ذلك كان فى مكَّةَ .

وقالوا هى المرادُ بالسبعِ المثانى فى قوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِى والقُرْآنَ الْعَظِيمَ» . . وهو مكى بالنَّصِّ .

وقالَ بعضهم إنها نزلتْ مَرَّتَينِ : مرةَ بمكةَ عندَ فرضيةِ الصلاةِ ، وأُخرى بالمدينةِ حينَ حُوِّلَتِ الْقِبْلَةُ ، وكأَنَّ صاحبَ هذا القولِ أَرَادَ الجمعَ بينَ القولَيْنِ ، وليس بشئٍ . وقال كثيرون إنها أَولُ سورةٍ أُنْزِلَتْ بتمامِها .

والأَرْجَحُ أَنها أَوّلُ ما نُزِّلَ على الإطلاق ، ولا أَستثنِى قولَهُ تعالى : «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ» . ومن آيةِ ذلك أَن السُّنَّةَ الإِلهيةَ فى هذا الكون – سواءٌ كان كونَ إيجادٍ أَو كونَ تشريع – أَن يُظْهِرَ سُبحانَهُ الشىءَ مُجْمَلًا ثم يُتْبِعَهُ التفصيلَ بعدَ ذلك تدريجًا . وما مَثَلُ الهداياتِ الإلهيةِ إلا مَثَلُ البِذْرَةِ والشَّجرةِ العظيمةِ ، فهى فى بدايتها مادةُ حياةٍ تحتوى على جميعِ أُصولِها ، ثم تنمو بالتدريجِ حتى تَبْسُقَ فروعُها بعد أَن تَعظُمَ دوحَتُها ثمَّ تجودَ عليكَ بثمرِها .

والفاتحةُ مشتمِلةٌ على مُجْمَلِ ما في القرآنِ ؛ وكل ما فيهِ تفصيلٌ للأصولِ التي وُضِعَتْ فيها . ولستُ أَعْنِي بهذا ما يعبِّرونَ عنه بالإشارةِ ودَلَالةِ الحروفِ ، كقولهم إن أَسرارَ القرآنِ في الفاتحةِ ، وأَسرارَ الفاتحةِ في البسملةِ ، وأَسرارَ البسملةِ في الباءِ ، وأسرارَ الباءِ في نقطتِها ... فإنَّ هذا لم يثبُتْ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وأَصحابِهِ عليهم الرِّضوان ، ولا هو معقولٌ في نفسه ، وإنما هو من مختَرَعاتِ الغُلاة الذينَ ذهبَ بهم الغُلُوُّ إلى إعدامِ القرآنِ خاصَّتَهُ ، وهي البيان .

وبيانُ ما أُريدُ أَنَّ ما نُزِّلَ القرآنُ لأَجلِهِ أُمورٌ :

أَحدها ـ التوحيدُ ، لأَنَّ الناسَ كانوا كلَّهم وَثَنِيِّينَ وإن كان بعضُهم يدَّعي التوحيد .

ثانيها ـ وَعْدُ من أَخَذَ بهِ وتبشيرُهُ بحُسْنِ المثوبةِ ، ووعيدُ من لم يأْخذْ بهِ وإنذارُهُ بسوءِ العُقُوبةِ . والوعْدُ يشملُ ما للأُمَّةِ وما للأَفرادِ ، فيعمُّ نِعَمَ الدُّنيا والآخِرَةِ وسعادَتَهما . والوعيدُ كذلك يشملُ نِقَمَهُمَا وشقاءَهُما ؛ فقد وعدَ اللهُ المؤمنينَ بالاستخلافِ في الأَرْضِ والعِزَّةِ والسُّلْطانِ والسِّيادةِ ، وأَوْعَدَ المخالِفِين بالخِزْيِ والشقاءِ في الدنيا ، كما وعد في الآخرة بالجنة والنعيم ، وأَوعد بنار الجحيم .

ثالثها ـ العبادةُ التي تُحيي التوحيدَ في القلوب وتُثَبِّتُهُ في النُّفوسِ .

رابعها ـ بيانُ سبيلِ السعادةِ وكيفيةِ السيرِ فيه الموصِّلِ إلى نِعَمِ الدُّنيا والآخِرَةِ .

خامسها ـ قِصَصُ مَنْ وقفَ عندَ حدودِ اللهِ تعالى وأخذَ بأحكامِ دينِهِ ، وأخبارُ الَّذينَ تَعَدُّوا حدودَهُ ونبذوا أحكامَ دينِهِ ظِهْرِيًّا ، لأجلِ الاعتبارِ واختيار طريقِ المحسنين .

هذه هي الأمورُ التي احتوَى عليها القرآنُ ، وفيها حياةُ الناسِ وسعادَتُهُمْ الدنيويَّةُ والأخرويَّةُ . والفاتحة مشتملةٌ عليها إجمالاً بغيرِ ما شَكٍّ ولا ريب .

فأما التوحيدُ ففي قولِهِ تعالَى : «الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لأنه ناطقٌ بأنَّ كلَّ حمدٍ وثناءٍ يَصْدُرُ عن نعمةٍ مّا فهو له تعالَى ، ولا يصِحُّ ذلك إلا إذا كانَ سُبحانَهُ مصدَرَ كلِّ نعمةٍ في الكون تستوجِبُ الحمدَ ، ومنها نعمةُ الخلقِ والإيجادِ والتربيةِ والتنميةِ .

ولم يَكْتَفِ باستلزامِ العبارة لهذا المعنى فصرَّحَ بهِ بقولِهِ «رَبِّ الْعَالَمِينَ» . ولفظُ «رَبِّ» ليس معناهُ المالكَ والسيدَ فقط ، بل فيهِ معنى التربيةِ والإنماءِ . وهو صريحٌ بأَنَّ كلَّ نعمةٍ يراها الإنسانُ في نفسِهِ وفي الآفاقِ منه عزَّ وَجَلَّ ، فليس في الكونِ متصرِّفٌ بالإيجادِ والإشقاءِ والإسعادِ سِواهُ .

التوحيدُ أهمُّ ما جاءَ لأَجْلِهِ الدِّينُ . ولذلك لم يَكْتَفِ في الفاتحةِ بمجرَّد الإشارة إليه بل استكملَهُ بقوله : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ، فاجتثَّ بذلكَ جُذورَ الشِّركِ والوثنيةِ التي كانت فاشيةً في جميع الأُمم ، وهي اتخاذُ أولياءَ من دونِ اللهِ تُعتقدُ لهم السلطَةُ الغيبيةُ ، ويُدْعَوْنَ لذلك مِن دونِ اللهِ ، ويُستعانُ بهم على قضاءِ الحوائجِ في الدُّنيا ويُتَقَرَّبُ بهم إلى اللهِ زُلْفى . وجميعُ ما في القرآنِ من آيَاتِ التوحيدِ ومقارعةِ المشركينَ هو تفصيلٌ لهذا الإجمالِ .

وأَمَّا الوعدُ والوعيدُ فالأَولُ منهما مطويٌّ في «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» . فذِكْرُ الرحمةِ في أَوَّلِ الكتاب ـ وهي التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ ـ وعدٌ بالإحسان ،

لا سيما وقد كرَّرها مرةً ثانيةً تنبيهًا لنا على أنَّ أمرَهُ إيانا بتوحيدِهِ وعبادتِهِ رحمةٌ منهُ سبحانَهُ بنا لأنه لمصلحتِنا ومنفعتِنا . وقولُهُ تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » يتضمَّن الوعدَ والوعيدَ معًا ، لأَنَّ معنى الدِّينِ الخضوعُ ، أى إنَّ له تعالى فى ذلكَ اليومِ السلطانَ المطلقَ والسيادةَ التى لا نزاعَ فيها لا حقيقةً ولا ادّعَاءً ، وأن العالمَ كلَّهُ يكونُ فيه خاضعًا لعظمتِهِ ظاهرًا وباطنًا يرجو رحمتَهُ ويخشى عذابَهُ ، وهذا يتضمَّنُ الوعدَ والوعيدَ . أو معنى الدين الجزاءُ ، وهو إمَّا ثوابٌ للمحسِنِ وإمَّا عقابٌ للمُسىءِ وذلك وعدٌ ووعيدٌ . وزدْ على ذلك أنه ذَكَرَ بعدَ ذلك « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » ، وهو الذى مَنْ سَلَكَهُ فازَ ، ومَنْ تنكَّبَهُ هَلَكَ ، وذلك يستلزِمُ الوعدَ والوعيدَ .

وأما العبادةُ فبعدَ أن ذُكِرَتْ فى مَقامِ التوحيدِ بقولِهِ : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » أوضحَ معناها بعضَ الإيضاحِ بقولِهِ تَعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » ، أى إنه قد وضعَ لنا صراطًا سَيُبَيِّنُهُ ويحدِّدُهُ ويكونُ مَناطَ السَّعادةِ فى الاستقامةِ عليهِ والشقاءِ فى الانحرافِ عنه ، وهذه الاستقامةُ عليه هى هدايةُ العبادةِ ؛ ويشبه هذا قولَهُ تعالى : « وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » ، فالتَّوَاصِى بالحقِّ والصبرِ هو كمالُ العبادةِ بعدَ التوحيدِ .

والفاتحةُ بجُملتها تنفخُ روحَ العبادةِ فى المُتَدَبِّرِ لها . وروحُ العبادةِ هى إشرابُ القلوبِ خَشْيَةَ اللهِ وهيبتَهُ والرجَاءَ لفضله ، لا الأَعمالُ المعروفةُ من فعل وكفٍّ وحركاتٍ باللسانِ والأَعضاءِ ؛ فقد ذُكِرَت العبادةُ فى الفاتحةِ قبلَ ذِكْرِ الصَّلاةِ وأحكامِها والصيامِ وأيامِهِ ، وكانت هذه الروحُ فى المسلمينَ قبلَ أن يُكَلَّفُوا هذه الأَعمالَ البدنيةَ وقبلَ نزولِ أَحكامِها التى

فُصِّلَتْ فى القرآنِ تفصيلًا مَّا ، وإنما الحركاتُ والأَعمالُ مما يُتَوَسَّلُ بِهِ إلى حقيقةِ العبادةِ . ومُخ العبادةِ الفِكْرُ والعِبْرةُ .

وأَمَّا الأَخبارُ والقصَصُ ففِى قولِهِ تعالى : «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» تصريحٌ بأَن هنالك قومًا تقدَّمُوا ، وقد شرعَ اللهُ شرائعَ لهدايتهم ، وصائحٌ يصيحُ أَلا فانظروا فى الشؤونِ العامَّةِ التى كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيِّهِ يدعوه إلى الاقتداءِ بمن كانَ قبلَهُ من الأَنبياءِ : «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» ، حيثُ بيَّنَ أَن القَصَصَ إنما هو للعظةِ والاعتبارِ . وفى قولِهِ تعالى : «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ» تصريحٌ بأَنَّ مَن دونَ المنعَمِ عليهم فريقان : فريقٌ ضلَّ عن صراطِ اللهِ ، وفريقٌ جاحَدَهُ وعانَدَ مَن يدعُو إليهِ ، فكانَ محفوفًا بالغَضَبِ الإلٰهِىِّ والخِزْىِ فى هذه الحياةِ الدُّنيا . وباقى القرآنِ يفصِّلُ لنا فى أَخبار الأُمَمِ هذا الإجمالَ على الوجْهِ الذى يفيدُ العِبْرَةَ ، فيشرحُ حالَ الظالمين الذين قاوموا الحقَّ ، وحالَ الذين حافظوا عليه وصَبَروا على ما أَصابهم فى سبيلِهِ .

فتبيَّنَ من مجموعِ ما تقدَّمَ أَنَّ الفاتحةَ قد اشتملتْ إجمالًا على الأُصولِ التى يُفَصِّلها القرآنُ تفصيلًا ، فكان إنزالُها أَوَّلًا مُوافِقًا لِسُنَّةِ اللهِ تعالَى فى الإبداعِ . وعلى هذا تكونُ الفاتحةُ جَديرةً بأَن تُسَمَّى «أُمَّ الكِتابِ» ، كما نقولُ إنَّ النواةَ أُمُّ النخلةِ ، فإِنَّ النواةَ مُشْتَمِلَةٌ على شجرةِ النخلةِ كلِّها حقيقةً ، لا كما قال بعضُهم إن المعنى فى ذلك أَنَّ الأُمَّ تكونُ أَوَّلًا ويأْتى بَعْدَها الأَوْلادُ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

القرآنُ إمامُنا وقُدْوَتُنا ، فافتتاحُهُ بهذِهِ الكَلِمَةِ إرشادٌ لنا بأَن نفتتحَ أَعمالَنا بها . فما معنى هذا ؟

ليسَ معناهُ أَن نفتتحَ أَعمالَنا باسْمٍ مِن أَسماءِ اللهِ تعالَى بأَن نذكُرَهُ على سبيلِ التَّبَرُّكِ أَو الاستعانةِ بهِ ، بل أَن نقولَ هذه العبارة «بِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» ، فَإِنَّها مطلوبةٌ لذَاتِهَا .

عندما تقولُ إنني أَذكرُ اسمَ اللهِ تعالَى - كالعزيز والحكيم - لا تَعْنِي أَنكَ تذكُرُ لفظَ «اسم» . فلو كان قولُهم إنَّ المرادَ من الابتداءِ بالكلمةِ «بِسْمِ اللهِ» التبرُّكُ باسم اللهِ هو الصوابُ ، لكانَ ينبغى أَن يكونَ قَولُكَ «باللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» مثلَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» وقولِهِ تعالى : «بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» . وقد قال بعضُهم إن الإضافةَ هُهُنا للبيانِ ، أَى أَفْتَتِحُ كلامى باسمٍ هو اللهُ ، ولكنَّ هذا يَقتضى أَن يكونَ لفظُ الرحمٰنِ الرَّحيمِ واردًا على اللفظِ ، وهو غيرُ صحيحٍ . وإرادةُ أَنَّ الأَسماءَ الثلاثَةَ هى المبيِّنَةُ لِلَفْظِ الاسمِ تَمَحُّلٌ ظاهرٌ ، فما المقصودُ إذن مِنْ هذا التعبيرِ ؟

مِثْلُ هذَا التعبيرِ مأْلوفٌ عند جميعِ الأُممِ ، ومنهم العربُ ، وهو أَنَّ الواحدَ منهم إذا أَراد أَن يفعلَ أَمرًا مّا لأَجْلِ أَميرٍ أَو عظيمٍ بحيثُ يكونُ متجرِّدًا من نسبتِهِ إليهِ ومُنْسَلِخًا عنه يقولُ أَعمَلُهُ باسمِ فلانٍ ، ويذكُرُ اسمَ ذلكَ الأَميرِ أَو السلطانِ ، لأَنَّ اسم الشىءِ دليلٌ وعنوانٌ عليه .

فإذا كنتُ أعملُ عملًا لا يكونُ لهُ وجودٌ ولا عنهُ أثرٌ ، لولا السلطانُ الذى بهِ أمرَ ، أقولُ إن عملى هذا باسمِ السلطانِ ، أىْ أنهُ مُعَنْوَنٌ باسمِهِ ، ولولاهُ لَمَا عَمِلتُه . فمعنى أبْتَدِئُ عَمَلِى « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » أنّى أعمَلُ بأمرِهِ ، ولهُ لا لى ، ولا أعمَلُهُ باسمى مُستقِلاً به علَى أننى فلان . فكأنّى أقولُ إنَّ هذا العملَ للهِ لا لحظِّ نفسى .

وفيهِ وجهٌ آخَرُ ، وهو أنَّ القدرةَ التى أنشأْتُ بها العملَ هى من اللهِ تعالى ، فلولا ما منحنى منها لم أعمَلْ شيئًا . فلم يصدُرْ عنّى هذا العملُ إلّا باسمِ اللهِ ولم يكن باسمى ، إذ لولا ما آتانى من القوةِ عليه لم أستطعْ أن آتِيَهُ ، وقد تمَّ هذا المعنى بلفظِ «الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» كما هو ظاهر .

وحاصلُ المعنَى أننى أعمَلُ عملى مُتَبَرِّئًا مِنْ أن يكونَ باسمى ، بل هو باسمِهِ تعالَى ، لأننى أستمِدُّ القُوَّةَ والعِنايةَ منهُ ، وأرجو إحسانَهُ عليه ، فلولاهُ لم أقدِرْ عليهِ ولم أعمَلْهُ ، بل ما كنتَ عاملًا له على تقديرِ القُدرة عليه لولا أمرُهُ ورجاءُ فضلِهِ .

فلفظُ الاسمِ معناهُ مرادٌ ، ومعنى لفظِ الجلالةِ مرادٌ أيضًا ، وكذلكَ كلٌّ من لفظ الرحمٰن والرحيم .

وهذا الاستعمالُ معروفٌ مألوفٌ فى كلِّ اللغاتِ ، وأقربُهُ إليكُم اليَومَ ما ترَوْنَهُ فى المحاكِمِ النظاميةِ حيثُ يبتدئونَ الأحكامَ قولًا وكتابةً باسمِ السلطانِ فلانٍ أو الخديو فلانٍ[1] .

ومعنى البسملةِ فى الفاتحةِ أنَّ جميعَ ما يُقرَّرُ فى القرآنِ مِنَ الأحكامِ والآياتِ وغيرِها هوَ للهِ ومنه ، ليس لأحدٍ غير اللهِ فيهِ شىءٌ .

(١) « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » . (صدق الله العظيم) (كتاب التحرير)

والرَّحْمٰنُ وَالرَّحِيمُ مشتقان من الرحمةِ ، وهى معنًى يُلِمُّ بالقلبِ فيبعث صاحبَهُ ويحمِلُهُ على الإحسانِ إلى غيرِهِ ، وهو محالٌ على الله تعالى بالمعنى المعروفِ عندَ البشرِ ، لأَنهُ فى البَشَرِ أَلَمٌ فى النفسِ شِفاؤُهُ الإحسانُ ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عنِ الآلامِ والانفعالاتِ . فالمعنى المقصودُ بالنسبةِ إليه مِنَ الرحمةِ أثرُها وهو الإحسانُ . وقد مَشَى الجلالُ فى تفسيرِهِ ، وتَبِعَهُ الصبَّانُ ، على أن الرحمٰنَ والرحيمَ بمعنًى واحدٍ ، وأَنَّ الثانى تأْكيدٌ للأَولِ . ومِنَ العجيبِ أَنْ يصدُرَ مِثْلُ هذا القولِ عن عالِمٍ مُسْلِمٍ ، وما هى إلا غَفْلَةٌ نسأَلُ اللهَ أن يسامحَ صاحِبَها .

وأنا لا أُجيزُ لمُسْلِم أَن يقولَ فى نفسِهِ أَو بلسانِهِ إنَّ فى القرآنِ كلمةً تغايرُ أُخرى ثم تأْتى لمجرَّدِ تأْكيدِ غيرِها بدونِ أَن يكونَ لها فى نفسِها معنى تستقلُّ به . نعم قد يكونُ فى معنى الكلمةِ ما يزيدُ معنى الأُخرَى تقريرًا أو إيضاحًا ، ولكنَّ الذى لا أُجيزُهُ أَن يكونَ معنَى الكلمةِ هو عينُ معنى الأُخرى بدونِ زيادة ، ثم يُؤْتى بها لمجرَّدِ التأْكيدِ لا غيرَ ، بحيثُ تكونُ مما يُسَمَّى بالمُتَرَادِفِ فى عُرفِ أَهلِ اللغةِ ، فإنَّ ذلكَ لا يقعُ إلا فى كلامِ مَنْ يرمِى فى لفظِهِ إلى مجرَّدِ التنميقِ والتزويقِ ، وفى العربيةِ طرقٌ للتأْكيدِ ليسَ هذا منها . وأَما ما يُسَمُّونهُ بالحرفِ الزائدِ الذى يأْتى للتأْكيدِ فهو حرفٌ وُضِعَ لذلك ، ومعناهُ هو التأْكيدُ وليسَ معناهُ معنى الكلمةِ التى يُؤَكِّدُها . فالباءُ فى قولِهِ تعالى : «وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا» تؤَكِّدُ معنى اتصالِ الكِفايةِ بجانب اللهِ جلَّ شأْنُهُ بذاتِها ، ومعناها الذى وُضِعَتْ لهُ ومعنى وصفِها بالزيادةِ أَنها كذلك فى الإعرابِ . وكذلك معنى مِنْ فى قولِهِ : «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ» ونحو ذلك . أَمَّا التَّكرارُ للتأْكيدِ أَو التقريعِ أَو التهويلِ

كتب كهذه ... بعثت أوربا من العدم

عندما كان يهز أوربا مخاض النهضة ظهرت فى مختلف بلادها ظاهرة تستوقف الأنظار ، هى كتيبات سميت حينا " Paunflettis " ، وحينا " Panfletos " ، وحينا " Paunflets " وحينا " Pamflets " ثم قر قرارها فى الانجليزية على لفظ " Pamphlets " ويعنون بها الكتيبات لا يزيد حجم الواحد منها على « كتاب التحرير » ، ولا يزيد عدد صفحاتها على عدد صفحاته ، ولا يضيق بثمنها الغنى ولا الفقير .

ملأت هذه الكتيبات ربوع أوربا بعد اختراع فن الطباعة بما لا يزيد على ربع قرن من الزمان . فما كاد جوتنبرج يضع حجر الأســاس فى صرح فن الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر حتى رأينا هذه الكتيبات تملأ آفاق ألمانيا والأراضى المنخفضة وفرنسا وسويسرا وايطاليا واسبانيا وانجلترا ، وغيرها من بلاد أوربا .

وقد حفظت لنا المكتبات والمتاحف ودور الآثار كثيرا من نسخ هذه الكتيبات ، فرادى ومجموعات ، حتى ليستطيع الباحث ، اذا تتبعها ، أن يرى على صــفحاتها آثار اقدام تاريخ أوربا الفكرى من منتصف القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر . وفى المتحف البريطانى مجموعة واحدة ، من مجموعات كثيرة ، تضم ٢٢٫٢٥٥ كتيبا ، تقع فى أكثر من ألفى مجلد ، تؤرخ الحركة الفكرية فى الفترة الواقعة بين عامى ١٦٤٠ و ١٦٦١ !

حملت هذه الكتيبات رسالة نشر الفكر الدينى والسياسي والعلمى والثقافى فى جميع الطبقـات ، ودبج صفحاتها رجال الاصلاح الدينى من أمثال ارازمس ولوثر وكالفن وسير توماس مور (١) .

وعلى هذه الصفحات لمع ـ أول ما لمع ـ مفكرون ومصلحون وكتاب اشتهروا فيما بعد ، من أمثال هوتن وميلانشتون وفرجيرس وكيريونى وفرانكوفتز وجــون ملتون ومونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو وهلفتيوس وميرابو ودالمبير ودولباخ ومدام دى ستايل وشاتوبريان وفكتور هيجو (٢) .

هؤلاء الأعلام لم يستأثر بقراءة آثارهم الذهنية واقتناء انتاجهم الفكرى طبقة معينة ، بل كان كل ما يكتبونه مشاعا ـ مثل الماء والهواء ونور الشمس ـ بين أبناء الأمم الأوربية . وقد لا يكون هناك سبب يعدل هذا السبب لما بلغته أوربا من تقدم .

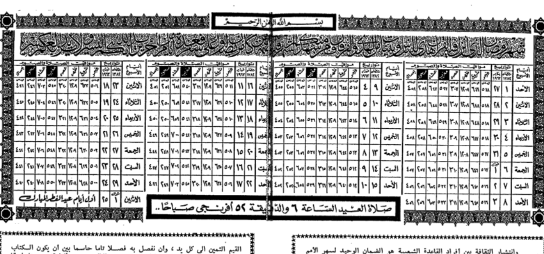
فالعلم اذا شاع فى أمة قرب بين أفرادها ، وأذاب الفروق بين طبقاتها ، وأتاح فرصة العمل المثمر للجميع .

والديموقراطية الصادقة غاية لا تتحقق فى مجتمع ارتفع فيه ثمن المعرفة .

---

(١) آرازمس ، هولندى ، ولد عام ١٤٦٧ وتوفى عام ١٥٣٦ ـ لوثر ، ألمانى ، ولد عام ١٤٨٣ وتوفى عام ١٥٤٦ ـ كالفن ، فرنسى ، ولد عام ١٥٠٩ وتوفى عام ١٥٦٤ ـ سير توماس مور ، انجليزى ، ولد عام ١٧٧٩ وتوفى عام ١٨٥٢ .

(٢) هوتن ، ألمانى ، ولد عام ١٤٨٨ وتوفى عام ١٥٢٣ ـ ميلانشتون ، ألمانى ، ولد عام ١٤٩٧ وتوفى عام ١٥٦٠ ـ فرجيرس ، ايطالى ،ولد عام ١٤٩٨ وتوفى عام ١٥٦٥ ـ كيريونى ، ايطالى ، ولد عام ١٥٠٣ وتوفى عام ١٥٦٩ ـ فرانكوفتز ، ألمانى ، ولد عام ١٥٢٠ وتوفى عام ١٥٨٥ ـ جون ملتون ، انجليزى، ولد عام ١٦٠٨ وتوفى عام ١٦٧٤ ـ مونتسكيو ، فرنسى ، ولد عام ١٦٨٩ وتوفى عام ١٧٥٥ ـ فولتير ، فرنسى ، ولد عام ١٦٩٤ وتوفى عام ١٧٧٨ ـ روسو ، فرنسى ، ولد عام ١٧١٢ وتوفى عام ١٧٧٨ ـ ديدرو، فرنسى ، ولد عام ١٧١٣ وتوفى عام ١٧٨٤ ـ هلفتيوس ، فرنسى ، ولد عام ١٧١٥ وتوفى عام ١٧٧١ ـ ميرابو ، فرنسى ، ولد عام ١٧١٥ وتوفى ١٧٨٩ ـ دالمبير، فرنسى، ولد عام ١٧١٧ وتوفى١٧٨٣ ـ دولباخ ، فرنسى ، ولد عام ١٧٢٣ وتوفى عام ١٧٨٩ ـ مدام دى ستايل ، فرنسية ، ولدت عام ١٧٦٦ وتوفيت عام ١٨١٧ ـ شاتوبريان ، فرنسى ، ولد عام ١٧٦٨ وتوفى عام ١٨٤٨ ـ فيكتور هيجو ، فرنسى ، ولد عام ١٨٠٢ وتوفى عام ١٨٨٥ .



بسم الله الرحمن الرحيم

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر

أيام الأسبوع	رمضان ١٣٨٢	يناير/فبراير ١٩٦٣	الفجر	الشروق	الظهر	العصر	المغرب	العشاء	السحور	الإمساك
الأحد	١	٢٧	٥١٨	٦٤٩	١٢٠٨	٣٠٧	٥٢٧	٦٤٧	٢٥٨	٤٠٨
الاثنين	٢	٢٨	٥١٨	٦٤٨	١٢٠٨	٣٠٧	٥٢٨	٦٤٨	٢٥٨	٤٠٨
الثلاثاء	٣	٢٩	٥١٨	٦٤٨	١٢٠٨	٣٠٨	٥٢٩	٦٤٩	٢٥٨	٤٠٨
الأربعاء	٤	٣٠	٥١٨	٦٤٧	١٢٠٨	٣٠٩	٥٣٠	٦٥٠	٢٥٨	٤٠٨
الخميس	٥	٣١	٥١٧	٦٤٧	١٢٠٨	٣٠٩	٥٣١	٦٥١	٢٥٧	٤٠٧
الجمعة	٦	فبراير ١	٥١٧	٦٤٦	١٢٠٩	٣١٠	٥٣١	٦٥١	٢٥٧	٤٠٧
السبت	٧	٢	٥١٦	٦٤٥	١٢٠٩	٣١٠	٥٣٢	٦٥٢	٢٥٦	٤٠٦
الأحد	٨	٣	٥١٦	٦٤٥	١٢٠٩	٣١١	٥٣٣	٦٥٣	٢٥٦	٤٠٦
الاثنين	٩	٤	٥١٥	٦٤٤	١٢٠٩	٣١٢	٥٣٤	٦٥٣	٢٥٥	٤٠٥
الثلاثاء	١٠	٥	٥١٥	٦٤٤	١٢٠٩	٣١٣	٥٣٥	٦٥٤	٢٥٥	٤٠٥
الأربعاء	١١	٦	٥١٤	٦٤٣	١٢٠٩	٣١٤	٥٣٦	٦٥٥	٢٥٤	٤٠٤
الخميس	١٢	٧	٥١٣	٦٤٢	١٢٠٨	٣١٤	٥٣٧	٦٥٦	٢٥٣	٤٠٣
الجمعة	١٣	٨	٥١٣	٦٤٢	١٢٠٨	٣١٥	٥٣٧	٦٥٦	٢٥٣	٤٠٣
السبت	١٤	٩	٥١٢	٦٤١	١٢٠٨	٣١٥	٥٣٨	٦٥٧	٢٥٢	٤٠٢
الأحد	١٥	١٠	٥١٢	٦٤٠	١٢٠٩	٣١٦	٥٣٩	٦٥٨	٢٥٢	٤٠٢
الاثنين	١٦	١١	٥١١	٦٣٩	١٢٠٨	٣١٦	٥٤٠	٦٥٩	٢٥١	٤٠١
الثلاثاء	١٧	١٢	٥١٠	٦٣٩	١٢٠٨	٣١٧	٥٤١	٦٥٩	٢٥٠	٤٠٠
الأربعاء	١٨	١٣	٥١٠	٦٣٨	١٢٠٩	٣١٨	٥٤١	٦٥٩	٢٥٠	٤٠٠
الخميس	١٩	١٤	٥٠٩	٦٣٧	١٢٠٩	٣١٨	٥٤٢	٧٠٠	٢٤٩	٣٤٩
الجمعة	٢٠	١٥	٥٠٨	٦٣٦	١٢٠٩	٣١٨	٥٤٣	٧٠١	٢٤٨	٣٤٨
السبت	٢١	١٦	٥٠٧	٦٣٥	١٢٠٩	٣١٩	٥٤٤	٧٠٢	٢٤٧	٣٤٧
الأحد	٢٢	١٧	٥٠٦	٦٣٤	١٢٠٩	٣٢٠	٥٤٥	٧٠٣	٢٤٦	٣٤٦
الاثنين	٢٣	١٨	٥٠٦	٦٣٣	١٢٠٨	٣٢٠	٥٤٥	٧٠٣	٢٤٦	٣٤٦
الثلاثاء	٢٤	١٩	٥٠٥	٦٣٢	١٢٠٩	٣٢٠	٥٤٦	٧٠٤	٢٤٥	٣٤٥
الأربعاء	٢٥	٢٠	٥٠٤	٦٣١	١٢٠٩	٣٢١	٥٤٧	٧٠٥	٢٤٤	٣٤٤
الخميس	٢٦	٢١	٥٠٣	٦٣١	١٢٠٩	٣٢٢	٥٤٨	٧٠٦	٢٤٣	٣٤٣
الجمعة	٢٧	٢٢	٥٠٢	٦٣٠	١٢٠٩	٣٢٢	٥٤٨	٧٠٦	٢٤٢	٣٤٢
السبت	٢٨	٢٣	٥٠١	٦٢٩	١٢٠٨	٣٢٢	٥٤٩	٧٠٧	٢٤١	٣٤١
الأحد	٢٩	٢٤	٥٠٠	٦٢٨	١٢٠٨	٣٢٣	٥٥٠	٧٠٨	٢٤٠	٣٤٠
الاثنين	شوال ١	٢٥	أول أيام عيد الفطر المبارك							

صلاة العيد الساعة ٦ والدقيقة ٥٢ أفرنجي صباحًا..

وانتشار الثقافة بين افراد القاعدة الشعبية هو الضمان الوحيد لسهر الامم على حضاراتها .

وقد مرت مصر بتجربة مريرة على عهد محمد على ، حين أوفد الى ربوع اوربا افرادا من ابناء الشعب أذهل ذكاؤهم علماء الغرب ، فلما عادوا الى أرض الكنانة عزلهم عن القاعدة الشعبية ما استطاع ، وامتص رحيق علمهم وخبرتهم فى مناصب تتفق مع اغراضه الشخصية . فلما قضوا ذوى علمهم كما تذوى الشموع .

وفى التاريخ الحديث تجربة اخرى تثبت ان سلامة القاعدة الشعبية كفيلة بأن تقيل الأمم من أعتى العثرات وأعمق المهاوى . فالمانيا التى منيت بهزيمتين ساحقتين فى اقل من ثلاثين عاما ، استعادت سلامتها حتى ليتساءل الانسان اليوم : الى اى مدى كان يمكن ان يصل هذا الشعب لو انه كان قد انتصر !

كتاب التحرير

فى الوطن العربى اليوم حركة ثقافية كبيرة ، اسهمت فيها « دار التحرير للطبع والنشر » ، منذ قيامها ، بما تصدر من صحف ومجلات وكتب ومطبوعات . وهى اليوم تصدر « كتاب التحرير » اداء للأمانة التى القاها الله عليها ، ونهوضا برسالة التنوير التى حملت لواءها .

ولكتاب التحرير رسالة نسأل الله ان يبلغها ، هذه الرسالة هى ان يصل الكتاب القيم الثمين الى كل يد ، وان نفصل به فصلا تاما حاسما بين ان يكون الكتاب « الرخيص » فى ثمنه ، رخيصا فى موضوعه . ولذلك سترون أننا قد رسمنا طريقا سويا قويما لن ننحرف عنه ، فنحن لا نبغى بكتاب التحرير ربحا ولا تجارة ، بل اننا نتوجه به الى الله ، ونبغى به وجه العلم والثقافة والمعرفة .

وكتاب التحرير الأول فى غنى عن الوصف ، حيث انه بين يديك .

والكتب التالية التى ستصدر خلال شهر رمضان المبارك (١٣٨٢) هى أجزاء كتاب « اسباب النزول » للسيوطى ، جمع فيه مؤلفه كل ما قيل فى أسباب نزول آى الذكر الحكيم سورة سورة . ولا يخفى ما للعلم باسباب النزول من أهمية فى تعميق فهمنا لكتاب الله العزيز ، ومد الآفاق امامنا للتفكر والتدبر فى محكم آياته .

قال الواحدى : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها . وقال ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن . وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب .

الأغانى

وسنقدم بعد ذلك « الاغانى » لابى الفرج الاصفهانى . والأغانى من أمهات الكتب العربية ، جمعه ابو الفرج الاصفهانى فى خمسين سنة ، واهداه الى سيف

الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار . وبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة ، وانه ليستحق أضعافها ... ولقد اشتملت خزانتى على مائة الف وسبعة عشر ألف مجلد ما فيها سميرى غيره .

وكان ابن عباد يستصحب فى أسفاره حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ، فلما وصل اليه هذا الكتاب لم يكن بعد ذلك يستصحب غيره لاستغنائه به عنها .

وقال عنه ابن خلدون : لعمرى انه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التى يسمو اليها الأديب ويقف عندها ، وأنى له بها !

العلم للجميع

ان لمن اقتصرت معرفته على اللغة العربية لعذرا اذا ظن ان مطابع الغرب لاتصدر الا الكتب الأدبية ، منعلوم انسانية الى قصص ومسرحيات وما الى ذلك ، لاقتصار حركة الترجمة العارمة فى عصرنا هذا على أمثال تلك الموضوعات ، ولسنا نود ، بطبيعة الحال ، أن نفض من شأن هذه الفروع الجليلة من فروع المعرفة ، ولكننا نود أن ننوه كذلك بفرع اغفلناه حتى اليوم هو الثقافة العلمية أو « التكنولوجية » .

ولو قومت مكتبات اللغات الحية فى عصرنا هذا لفجعنا بنتيجة التقويم ، ذلك أن مكتبتنا العربية ستكون ، دون نزاع ، أفقر المكتبات الى لون المعرفة الذى يمثل حضارة العصر ، وهو العلوم التطبيقية والصناعية .

واذا كنا قد أقدمنا اليوم على الصناعة هذا الاقدام العظيم ، فان ثبات أقدامنا فى هذا الميدان يدعونا الى السهر على نتائجه . والسهر على الحضارات لا يأتى ، كما قدمنا ، الا من القاعدة الشعبية . فلو تركنا العلوم والصناعات للمتخصصين يتعلم الواحد منهم فرعا من فروعها فى ديار الغربة ، ثم يعود فيقتصر علمه على اداء وظيفته ، لعدنا الى عهد محمد على !

أما اذا انتشرت بيننا الثقافة العلمية والصناعية ، وتكونت فى مجتمعنا بيئة علمية بالمعنى الحديث للعلم ، فاننا نكون قد اتخذنا للمستقبل عدته ، وضمنا سلامة القاعدة المتشبعة بروح العلم ، التى سيخرج منها العلماء والباحثون والمخترعون .

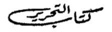
لمثل هذا سنصدر سلسلة « العلم للجميع » .

والعلم للجميع موسوعة علمية فنية تطبيقية اشترك فى وضعها ما يزيد على مائة من رجال العلم والصناعة فى العالم الغربى ، جمعوا فيها تاريخ جميع العلوم والصناعات منذ العصر الحجرى حتى عصرنا الحالى .

والكتاب يشرح لك ــ شرح علم وخبرة ــ كيف يصنع كل ما يحيط بنا من مظاهر الحضارة . وهو لا يقفز الى النتائج قفزا ، بل يسرد لك سردا تاريخيا كيف ضل الذهن البشرى وتخبط ، وكيف اهتدى ورشد ، حتى بلغنا اليوم ما نحن فيه من قدرة وسيطرة على كثير من فروع العلم والصناعة . ويروى لك ، كذلك ، كيف اننا لا نزال نقف عاجزين أمام أمور تدعونا الى بذل الجهود حتى نذلل عاصيها . وعلمنا بالمنهج العلمى الذى ذلل عقبات الماضى ، هو السبيل الوحيد لقدرتنا على تذليل عقبات المستقبل .

اخى فى الله وفى المعرفة ...

احرص على هذه الكتب من البداية ... فمثلها قد بعث قارة من العدم ...



فأمرٌ سائغٌ فى أبلغِ الكلامِ عند ما يظهرُ ذلك القَصدُ منهُ ، كتَكرارِ جُملةِ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» ونحوِها عُقَيْبَ ذكرِ كلِّ نِعْمَة . وهى عندَ التأَمّلِ ليستْ مكرَّرةً ، فإن معناها : أَفَبِهَذِهِ النِّعْمَةِ تكذِّبانِ ؛ وهكذا كلُّ ما جاءَ فى القرآنِ على هذا النحوِ ؛

والجمهورُ على أنَّ معنى «الرَّحْمٰنِ» المنعِمُ بجلائلِ النِّعَمِ ، ومعنى «الرَّحِيمِ» المنعِمُ بدقائقها . وبعضُهُمْ يقولُ إنَّ «الرَّحْمٰنَ» هو المنعِمُ بِنِعَمٍ عامَّةٍ تَشْمَلُ الكافرين مع غيرهِم ، و «الرَّحِيمَ» المنعمُ بالنِّعم الخاصَّةِ بالمؤْمِنينَ . وكلُّ هذا تحكُّمٌ فى اللغةِ مبنِىٌّ على أنَّ زيادةَ المَبْنَى تدلُّ على زِيادةِ المَعْنَى ، ولكنَّ الزيادةَ تدُلُّ على زِيادةِ الوصفِ مطلقًا . فصفةُ الرحمٰنِ تدلُّ على كثرةِ الإحسانِ الذى يعطيهِ سَواءٌ كان جليلاً أو دقيقًا ؛ وأما كونُ أفرادِ الإحسانِ التى يدلُّ عليها اللفظُ الأكثرُ حروفًا أعظمَ من أفرادِ الإحسانِ التى يدلُّ عليها اللفظُ الأقلُّ حروفًا فهو غيرُ معنِىٍّ ولا مُرادٍ . وقد قاربَ مَنْ قال إنَّ معنى «الرَّحْمٰنِ» المحسِنُ بالإحسانِ العامِّ ، ولكنهُ أخطأَ فى تخصيصِ مدلولِ الرحيمِ بالمؤْمنينَ . ولعلَّ الذى حملَ من قال إن الثانى مؤَكِّدٌ للأَوَّلِ على قَولِهِ هذا هو عدمُ الاقتناعِ بما قالوهُ من التَفرِقَةِ مع عدمِ التَفَطُّنِ لما هو أَحسنُ منهُ .

والذى أقولُ : إنَّ صيغَةَ فَعْلَانَ تدلُّ على وصفٍ فِعْلِيٍّ فيه معنى المُبالغةِ كفَعَّال ، وهو فى استعمالِ اللغةِ للصفاتِ العارضةِ كعطشانَ وغرثانَ وغضبانَ ؛ وأما صيغةُ فَعِيلٍ فإنها تدلُّ فى الاستعمالِ على المعانى الثابتةِ كالأخلاقِ والسجايا فى الناسِ كعليمٍ وحكيمٍ وحليمٍ وجميلٍ . والقرآن لا يخرُجُ عن الأُسلوبِ العربىِّ البليغِ فى الحكايةِ عن صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ التى تعلو عن

مماثلةِ صفاتِ المخلوقينَ . فلفظَ الرحمٰنِ يدلّ على من تصدُر عنهُ آثارُ الرحمة بالفعلِ ، وهي إفاضةُ النِّعمِ والإحسانِ ؛ ولفظُ الرحيمِ يدلُّ على مَنْشَإِ هذه الرحمةِ والإحسانِ ، وعلى أنها من الصفاتِ الثابتةِ الواجبةِ . وبهذا المعنى لا يُسْتَغْنَى بأَحَدِ الوصْفَيْنِ عَنِ الآخَرِ ، ولا يكونُ الثانى مُؤَكِّدًا للأَوَّلِ . فإذا سَمِعَ العربىُّ وصفَ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ بالرحمٰنِ وفَهِمَ منهُ أنهُ المفيضُ للنعمِ فِعْلًا ، لا يعتقدُ منه أَنَّ الرحمةَ من الصفاتِ الواجبةِ لهُ دائماً ، لأَن الفِعْلَ قد ينقطعُ إذا لم يكنْ عن صفة لازمة ثابتةٍ وإن كان كثيرًا ؛ فعندما يَسْمَعُ لَفْظَ الرَّحيمِ يكمُلُ اعتقادُه على الوجهِ الذى يليقُ باللهِ تعالى ويُرضيه سبحانَه ، ويعلم أَن للهِ صفةً ثابتةً هى صفةُ الرحمةِ التى عنها يكون أثرُها ، وإن كانت تلك الصفةُ على غيرِ مِثالِ صفاتِ المخلوقينَ ، ويكون ذكرُها بعدَ الرحمٰنِ كذكرِ الدليلِ بعدَ المدلولِ ليقومَ برهانًا عليهِ .

« الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ »

تعلمونَ أَنَّ معنى «الْحَمْدِ» الثناءُ الجميلُ باللسانِ ، وقيَّدوه بالجميل لأَن كلمةَ «ثناء» تُستعمَلُ فى المدحِ والذمِّ جميعًا . يقال أثنى عليهِ شرًا كما يقالُ أثنى عليهِ خيرًا . ويقولونَ إن «ال» التى فى «الْحَمْدِ» هى للجنسِ فى أىِّ فردٍ من أفرادِهِ لا للاستغراقِ ولا للعهدِ المخصوصِ ، لأنه لا يُصارُ إلى كلٍّ منهما فى فَهمِ الكلامِ إلا بدليل وهو غيرُ موجودٍ فى الآيةِ .

ومعنى كونِ الحمدِ للهِ تعالى بِأَىِّ نوع مِنْ أنواعهِ هو أَنَّ أَىَّ شىءٍ يصِحُّ الحمدُ عليهِ ، فهوَ مَصْدَرُهُ وإليهِ مَرْجِعُهُ ، فالحمدُ لهُ على كلِّ حال .

وهذه الجملةُ خَبَرِيَّةٌ ، ولكنها استُعْمِلَتْ لإنشاءِ الحمدِ .

فأمَّا معنى الخبرية فهو إثباتٌ أن الثناءَ الجميلَ ، فى أىٍّ أنواعِهِ تحقَّقَ ، فهو ثابتٌ لهُ تعالى وراجع إليهِ لأنَّهُ مُتَّصِفٌ بكلِّ ما يَحْمَدُ عليهِ الحامدون ، فصفاتُهُ أجملُ الصِّفَاتِ ، وإحسانُهُ عَمَّ جميعَ الكائناتِ ؛ ولأنَّ جميعَ ما يصِحُ أن يتوجَّهَ إليهِ الحمدُ مما سِواهُ ، فهو منهُ جلّ ثناؤهُ ، إذ هو مَصْدَرُ الكَوْنِ كلِّهِ ، فيكونُ له ذلك الحمدُ أَوَّلًا وبالذات .

والخلاصةُ أن أىَّ حمدٍ يتوجَّهُ إلى محمودٍ مَّا فهو للهِ تعالى سواءٌ لاحَظَهُ الحامدُ أو لم يلاحظْهُ .

وأما معنى الإنشائيةِ فهو أنَّ الحامدَ جَعَلَها عِبارةً عمَّا وجَّهَهُ من الثناءِ إلى الله تعالى فى الحالِ .

« رَبِّ الْعَالَمِينَ » . يُشْعِرُ هذا الوصفُ ببيان وجْه الثناءِ المُطْلَق . ومعنى الربِّ السيدُ المربى الذى يسوسُ مسودَهُ ويَرَبِّيه ويُدَبِّرُهُ . و « الْعَالمينَ » جمعُ عالَمٍ ، جَمَعَهُ جَمْعَ المذكَّرِ العاقِلِ تغليبًا وأرادَ به جميعَ الكائنات الممكنة ، أى أنهُ رب كلِّ ما يدخُلُ فى مفهومِ لفظِ العالَمِ . وما جَمَعَت العربُ لفظ العالَمِ هذا الجمعَ إلا لنكتَةٍ تلاحظُها فيهِ ، وهى أنَّ هذا اللفظَ لا يُطْلَقُ عندَهم على كلِّ كائنٍ وموجودٍ كالحجرِ والتراب ، وإنما يطلقونَهُ على كلِّ جملةٍ متمايزةٍ لأفرادِها صفاتٌ تقرِّبها من العاقل الذى جُمعت جَمْعَهُ إن لم تكنْ منهُ ، فيقال عالَمُ الإنسانِ وعالَمُ الحيوانِ وعالَمُ النباتِ . وأنتم تَرَوْنَ أن هذه الأشياءَ هى التى يظهرُ فيها معنى التربيةِ الذى يُعطيهِ لفظُ ربّ ، لأن فيها مبدأَها وهو الحياةُ والتغذى والتوالُدُ . وهذا ظاهرٌ فى النباتِ لاسيما لمنْ يقرأُ شيئًا من علمِهِ ، كما هو ظاهرٌ فى الحيوان . والحيوانُ شجرةٌ قُطِعَتْ رِجْلُها من الأرضِ فهى تمشِى ، والشجرةُ

حيوانٌ ساخَتْ رِجْلاهُ فى الأَرْضِ فهو قائمٌ فى مكانِهِ يأْكلُ ويشربُ وإن كان لا ينامُ ولا يَغْفلُ .

« الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » تقدَّمَ معناهُما وبَقِىَ الكلامُ فى إعادَتِهما . والنُّكْتَةُ فيها ظاهرةٌ ، وهى أَنَّ تربيتَهُ للعالَمينَ ليستْ لحاجةٍ بهِ إليهم ، كجَلْبِ منفعةٍ أَو دَفْعِ مضَرَّةٍ ، وإنما هى لعمومِ رحمتِهِ وشمولِ إحسانِهِ . وثَمَّ نُكْتَةٌ أُخرى ، وهى أَن البعضَ يفهَمُ من معنى الربِّ الجبروتَ والقَهْرَ ، فأَرادَ اللهُ تعالى أن يُذَكِّرَهُمْ برحْمَتِهِ وإحسانِهِ ليجمعوا بينَ اعتقادِ الجلالِ والجمالِ ، فذكر الرحمٰنَ وهو المُفيضُ للنِّعَمِ بسَعَةٍ وتجددٍ لا مُنْتَهَى لهما ، والرحيمَ وهو الثابتُ له وصفُ الرحمةِ لا يُزَايِلُهُ أَبدًا . فكأَنَّ اللهَ تعالى أَرادَ أَن يتحبَّبَ إلى عبادِهِ فعرَّفَهُمْ أَنَّ رُبوبيَّتَهُ لَهُمْ رُبوبيَّةُ رحمةٍ وإحسان ليعلموا أَنَّ هذه الصفةَ هى التى ربما يرجِعُ إليها معنى الصفاتِ ، وليتعلَّقوا بهِ ويُقْبِلوا على اكتسابِ مرضاتِهِ مُنْشَرِحَةً صُدُورُهُمْ ، مُطْمَئِنَّةً قلوبُهُمْ . ولا ينافى عمومَ الرحمةِ وَسَبْقَها ما شرَّعَهُ اللهُ من العُقوباتِ فى الدنيا وما أَعدَّهُ مِنَ العذابِ فى الآخِرَةِ للذين يتعدَّوْنَ الحدودَ وينتهكونَ الحُرُماتِ ؛ فإنه وإن سُمِّىَ قَهْرًا بالنسبةِ لصورتِهِ ومَظْهَرِهِ فهو فى حقيقتِهِ وغايَتِهِ منَ الرحمةِ ، لأَنَّ فيهِ تربيةً للناسِ وزجْرًا لهم عن الوقوعِ فيما يخرُجُ عن حدودِ الشريعةِ الإلٰهيةِ ، وفى الانحرافِ عنها شَقاؤهم وبلاؤهم ، وفى الوقوفِ عِنْدَها سعادتُهم ونعيمُهم ؛ والوالدُ الرَّءوفُ يُربِّى ولَدَهُ بالترغيبِ فيما ينفعُهُ ، والإحسانِ عليهِ إذا قام به ، وربما لجأَ إلى الترهيبِ والعقوبةِ إذا اقتضتْ ذلك الحالُ ... ولله المثلُ الأَعلى لا إلٰه إلاَّ هوَ وإليهِ يُرْجَعُون .

« مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ »

فى الآيةِ قراءتان . فمِنَ القرَّاءِ مَنْ قرأ «مَالِكِ» ، ومنهم مَنْ قرأ «مَلِكِ» . وقالَ بعضُهم إنَّ قراءةَ «مَلِكِ» أبلغُ ، لأَنَّ هذا اللفظَ يُفْهَمُ منه معنى السُّلْطَانِ والقُوَّةِ والتدبيرِ ، وقال آخرون إن القراءةَ الأُخرى أبلغُ ، لأن المالِكَ هو الذى يدبِّرُ أعمالَ رَعِيَّتِه العامَّةَ ولا تصرُّفَ له بشىءٍ من شُؤُونِهم الخاصةِ . وإنما تظهرُ هذه التفرقة فى عبدٍ مملوكٍ فى مملكةٍ لها سُلْطانٌ ، ولا ريبَ أَنَّ مالِكَهُ هو الذى يتولَّى جميعَ شُؤُونِهِ دونَ سُلطانِهِ .

و«الدِّين» يُطْلَقُ فى اللغةِ على المكافأَةِ ، وورد «كما تَدِينُ تُدَانُ» ، وقالَ الشاعرُ :

ولم يَبْقَ سِوَى العُدْوَا نِ ، دِنَّاهُمْ كما دَانُوا

ويُطْلَقُ «الدِّين» كذلك على الجزاءِ ، وهو قريبٌ من معنى المكافأَةِ ، وعلى الطاعةِ وعلى الإخضاعِ وعلى السياسة ، يقال «دَيَّنَ فلانٌ فلانًا» ، أى تولى سِيَاسَتَهُ ، وهو قريبٌ من معنى الإخضاعِ ، وعلى الشريعةِ وما يُؤْخذُ العبادُ به من التكاليفِ . والمناسبُ هنا من هذه المعانى الجزاءُ والخضوعُ .

وإنما قال : «يَوْمِ الدِّين» ولم يقلْ «الدِّين» لتعريفِنا بأَن للدِّين يومًا ممتازًا عن سائر الأَيام ، وهو اليومُ الذى يلقى فيه كلُّ عامل عَمَلَهُ ويُوَفَّى جزاءَهُ . ولسائل أَن يسأَلَ : أَليستْ كلُّ الأَيامِ أيامَ جزاءٍ ، وكلُّ ما يلاقيهِ الناسُ فى هذه الحياةِ من البؤْسِ هو جزاءٌ على تفريطِهم فى أَداءِ الحقوقِ والقيامِ بالواجباتِ التى عليهم ؟ والجوابُ : بَلَى ، إن أَيامَنا التى نحنُ فيها قد يَقَعُ فيها الجزاءُ على أَعمالِنا ، ولكنْ ربما لا يظهرُ لأَربابِهِ إلا على بعضِها دونَ جميعها . والجزاءُ على التفريطِ فى العملِ الواجبِ إنما يظهرُ فى الدنيا)

ظهورًا تامًا بالنسبةِ لمجموعِ الأُمةِ لا لكلِّ فردٍ من الأَفرادِ . فما من أُمةٍ انحرفتْ عن صِراطِ اللهِ المستقيمِ ، ولم تراعِ سُنَّتَهُ فى خليقتِهِ ، إلا أحلَّ بها العدلُ الإلٰهىُّ ما تستحقُّ منَ الجزاءِ كالفَقْرِ والذُّلِّ وفَقْدِ العزَّةِ والسلطةِ . وأَما الأَفرادُ فإننا نرى كثيرًا منَ المسرفين الظالمين يقضُون أعمارَهم منغمِسين فى الشهواتِ واللذاتِ . نعم إن ضمائرَهُم توبِّخُهم أَحيانًا ، وأنهم لايسلَمون من المنغِّصاتِ ، وقد يصيبُهم النقصُ فى أَموالِهم وعافيةِ أَبدانِهم وقوَّةِ عقولِهم ، ولكنَّ هذا كلَّهُ لا يقابِلُ بعضَ أعمالِهم القبيحةِ ، لا سيما الملوكُ والأُمراءُ الذين تشقى بأَعمالهم السيئةِ أُممٌ وشُعوبٌ ... كذلك نرى من المُحسِنينَ فى أَنفسِهم وللناسِ مَن يُبتَلَى بهضمِ الحقوقِ ولا يَنالُ من الجزاءِ على عَمَلِهِ شيئًا مما يستحقُّهُ وإن كان قدينالُ من الجزاءِ رِضا نفسِهِ وسلَامَةَ أخلاقِهِ وصحةَ مَلَكاتِهِ ، ولكن ذلك ليس كلَّ ما يستحقْ . وفى ذلك اليومِ يوفَّى كلُّ فرْدٍ من أَفرادِ العاملينَ جزاءَهُ كاملًا لا ينقصُهُ شيءٌ منه كما قال اللهُ تعالى : «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ» .

عَلَّمَنَا اللهُ تعالى أَنهُ رحمٰنٌ رحيمٌ ليجذِبَ قلوبَنَا إليه ، ولكنْ هل يشعرُ كُلُّ عِبادِهِ بهذه المِنَّةِ فينجذبوا إليه الانجذابَ المطلوبَ ؟ كلا ، أليس فينا مَن يسلكُ كُلَّ سبيلٍ لا يُبالى بمستقيمٍ ومُعْوَجٍّ ؟ بلى ، ولهذا أعقبَ سُبْحَانَهُ ذكرَ الرحمةِ بذكرِ الدِّينِ ، فعرَّفَنَا أَنه يَدينُ العِبادَ ويُجازيهم على أعمالِهم ، فكان من رحمتِهِ بعبادِهِ أَن ربَّاهم بنوعَى التربية كليهما : الترغيبِ والترهيبِ كما تشهدُ بذلك آياتُ القرآنِ الكثيرةُ «نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ» .

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »

ما هي العِبادةُ ؟ يقولون هي الطاعةُ مع غايةِ الخضوعِ . وما كلُّ عبارةٍ تمثِّلُ المعنى تمامَ التمثيلِ ، وتُجَلِّيهِ للأفهامِ واضحًا لا يقبلُ التأويلَ ؛ فكثيرًا ما يفسِّرونَ الشيءَ ببعضِ لوازمِهِ ويعرِّفونَ الحقيقةَ برسومِها ، بل يكتفونَ أحيانًا بالتعريفِ اللفظيِّ ويبيِّنُونَ الكلمةَ بما يقرُبُ من معناها ، ومن ذلك هذه العبارةُ التي شرحوا بها معنى العبادةِ ، فإنَّ فيها إجمالاً وتساهُلًا . وإننا إذا تتبَّعنا آيَ القرآنِ وأساليبَ اللغةِ واستعمالَ العربِ لعَبَدَ وما يماثلها ويقاربُها في المعنى — كخضعَ وخَنَع وأطاع وذَلَّ — وجَدْنا أنه لا شيءَ مِنْ هذه الألفاظِ يُضَاهي « عَبَدَ » ويَحُلُّ محلَّها ويقعُ موقِعَها ، ولذلك قالوا إن لفظَ « العِبَادِ » مأخوذٌ من العِبادةِ ، فتكثر إضافتُهُ إلى اللهِ تعالى ، ولفظَ « العبيدِ » تكثرُ إضافتُهُ إلى غيرِ اللهِ تعالى لأنه مأخوذٌ من العبودية بمعنى الرِّقِّ ؛ وفرقٌ بينَ العبادةِ والعبوديةِ بذلك المعنى . ومن هُنا قال بعضُ العلماءِ إن العِبادَةَ لا تكونُ في اللغةِ إلا للهِ تعالى ، ولكنَّ استعمالَ القرآنِ يخالفُهُ . يَغْلُو العاشقُ في تعظيمِ معشوقِهِ والخضوعِ لهُ غُلُوًّا كبيرًا حتى يفنَى هواهُ في هواهُ ، وتذوبَ إرادتُهُ في إرادتِهِ ، ومع ذلك لا يُسَمَّى خضوعُهُ هذا عبادةً بالحقيقةِ . ويبالغُ كثيرٌ من الناسِ في تعظيمِ الرؤساءِ والملوكِ والأمراءِ فترى من خضوعِهِم لهم وتحرِّيهِم مرضاتَهُمْ ما لا تراهُ من الْمُتَحَنِّثِينَ القانِتِينَ فضلًا عن سائرِ العابدِينَ ، ولم يكن العربُ يُسَمُّونَ شيئًا من هذا الخضوعِ عبادةً ؛ فما هي العبادةُ إذن ؟ تدلُّ الأساليبُ الصحيحةُ والاستعمالُ العربيُّ الصُّراحُ على أنَّ العبادةَ ضربٌ من الخضوعِ بالغٌ حَدَّ النهايةِ ناشئٌ عن استشعارِ القلبِ عظمةً للمعبودِ لا يعرفُ منشأَها ، واعتقادِهِ بسلطةٍ له لا يدركُ كنهَهَا

وماهيَّتها ، وقُصارَى ما يعرفُهُ منها أنها محيطةٌ به ولكنَّها فوقَ إدراكه .
فَمَنْ يَنتهِي إلى أقصى الذلِّ لملِكٍ من الملوكِ لا يقالُ إنَّهُ عبدهُ وإن قبَّلَ مواطئَ أقدامِهِ مادام سببُ الذلِّ والخضوعِ معروفًا ، وهو الخوفُ من ظلمِهِ المعهودِ ، أَو الرجاءُ بكرمِهِ المحدودِ ، اللَّهُمَّ إلا بالنسبةِ للذينَ يعتقِدونَ أن الْمُلْكَ قوةٌ غيبيةٌ سماويةٌ أُفيضَتْ على الملوكِ من الملإِ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاءِ على سائرِ أهلِ الدنيا ، لأنهم أطيبُ عنصرًا ، وأكرمُ جوهرًا ؛ وهؤلاءِ هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقادُ إلى الكفرِ والإلحادِ ، فاتخذوا الملوك آلهةً وأربابًا ، وعَبَدُوهم عبادةً حقيقيةً .

للعبادةِ صُوَرٌ كثيرةٌ فى كلِّ دِينٍ من الأديان ، شُرعتْ لتذكير الإنسانِ بذلك الشعورِ بالسلطانِ الإلهىِّ الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها . ولكلِّ عبادة من العباداتِ الصحيحةِ أثرٌ فى تقويمِ أخلاقِ القائمِ بها وتهذيبِ نفسِهِ ؛ والأثرُ إنما يكونُ عن ذلك الروحِ والشعور الذى قُلْنَا إنهُ منشأ التعظيمِ والخضوعِ . فإذا وُجدَتْ صورةُ العبادةِ خاليةً من هذا المعنَى لم تكنْ عبادةً ، كما أن صورةَ الإنسانِ وتِمْثالَهُ ليسَ إنسانًا .

خُذْ إليكَ عِبادةَ الصَّلاةِ مثلا ، وانظرْ كيف أمَرَ اللهُ بإقامَتِها دُونَ مُجَرَّدِ الإتيانِ بها . وإقامةُ الشيءِ هى الإتيانُ به مُقَوَّمًا كامِلًا يَصْدُرُ عن علتِهِ وتَصْدُرُ عنهُ آثارُهُ . وآثارُ الصلاةِ ونتائِجُها هى ما أنبأَنا اللهُ تعالى بها بقولِهِ : « إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ » ، وقولِه عَزَّ وَجَلَّ : « إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هلُوعًا . إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وإذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إلَّا الْمُصَلِّينَ » . وقد تَوَعَّدَ الذينَ يأْتونَ بصورةِ الصلاةِ منَ الحركاتِ والألفاظِ مع السَّهْوِ عن معنَى العِبادَةِ فيها وسرِّها المؤدِّى إلى غايَتِها بقولِهِ :

«فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» ، فسمَّاهُم مُصَلِّينَ لأنهم أَتَوْا بصورةِ الصَّلَاةِ ، ووصَفَهم بالسَّهْوِ عن الصلاةِ الحقيقيةِ التى هى توجُّهُ القلبِ إلى اللهِ تعالى المذكِّرُ بخشيتِهِ والمُشعِرُ للقلوبِ بعظيمِ سُلطانِهِ ، ثم وَصَفَهُمْ بأَثَرِ هذا السَّهْوِ وهو الرِّياءُ ومنعُ الماعونِ . والرياءُ ضَرْبانِ : رِياءُ النفاقِ وهو العملُ لأَجلِ رؤْيةِ الناسِ ، ورياءُ العادةِ وهو العملُ بحُكْمِهَا من غيرِ مُلاحظةِ معنى العَمَلِ وسرِّهِ وفائدتِهِ ، ولا مُلاحظةِ من يَعْمَلُ له ويَتَقَرَّبُ إليهِ به ، وهو ما عليه أَكثرُ الناس ، فإن صلاةَ أَحدِهِم فى طَوْرِ الرُّشْدِ والعقلِ هى عينُ ما كان يُحاكِي به أَباهُ فى طَوْرِ الطُّفوليَّةِ عندما يراهُ يُصَلِّى — يستمرُّ على ذلك بحكمِ العادةِ من غيرِ فَهْمٍ ولا عقلٍ ، وليس للهِ شيءٌ فى هذه الصَّلاةِ . وقد وردَ فى أَحاديثَ كثيرةٍ أَنَّ مَنْ لم تَنْهَهُ صَلاتُهُ عن الفحشاءِ والمُنْكَرِ لم يزدَدْ من اللهِ إلَّا بُعْدًا ، وأَنها تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوبُ البالى ويُضرَبُ بها وجهُهُ . وأَما الماعونُ فهو المعونةُ والخيرُ الذى تَقَدَّمَ فى الآيةِ الأُخرى أَن من شأْنِ الإنسانِ أَن يكونَ منوعًا له إلا المصلين .

والاستعانةُ هى طلبُ المعونةِ ، والمعونةُ هى سدُّ العَجْزِ والمساعدةُ على إتمام العملِ الذى يعجَزَ عنهُ المستعينُ بنفسِهِ .

وقد أَمَرَنا اللهُ تعالى بأَلَّا نعبدَ غَيرَهُ ، لأنّ السلطةَ الغيبيةَ التى هى وراءَ الأَسبابِ ليستْ إلا لهُ دونَ غيرِهِ ، فلا يشارِكُهُ فيها أَحَدٌ فيعظِّمَ تَعْظِيمَ العبادةِ ، وأَمرنا بأَلا نستعينَ بغيرِهِ أَيضًا ، وهذا يحتاجُ إلى البيانِ لأَنه أَمَرَنَا أَيضًا فى آيات أُخرى بالتعاونِ «وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى» — فما معنى الاستعانةِ بهِ مع ذلك ؟

الجوابُ أَن كلَّ عملٍ يعمَلُهُ الإنسانُ تتوقفُ ثمرتَهَ ونجاحُهُ على حصولِ الأَسبابِ التى اقتضتْ الحكمةُ الإلٰهيةُ أَن تكونَ مُؤَدِّيةً إليه ، وانتفاءِ الموانعِ التى مِنْ شأْنِها بمقتَضَى الحكمةِ أَن تَحُولَ دونه . وقد مكَّنَ اللهُ تعالى الإِنسانَ بما أَعطاهُ مِنَ العِلْمِ والقُوَّةِ مِنْ دفعِ بعضِ الموانعِ وكسبِ بعضِ الأَسبابِ ، وَحَجَبَ عنهُ البعضَ الآخَرَ ؛ فيجبُ علينا أَن نقومَ بما فى استطاعَتِنَا من ذلك ، ونبذُلَ فى إتقانِ أَعمالِنَا كُلَّ مانستطيعُ من حَوْلٍ وقُوَّةٍ ، وأَن نتعاونَ ويساعدَ بعضُنا بعضًا على ذلك ، ونفوِّضَ الأَمر فيما وراءَ كسبنَا إلى القادرِ على كلِّ شىءٍ ، ونلجأَ إليهِ وَحْدَهُ ونطلبَ المعونةَ المتمِّمةَ للعملِ والموصِّلةَ لثمرتِهِ منهُ سُبْحانَهُ دونَ سِواهُ ، إذ لا يقدِرُ على ما وراءَ الأَسبابِ الممنوحةِ لكلِّ البَشَرِ على السَّواءِ إلَّا مُسَبِّبُ الأَسبابِ وربُ الأَربابِ ؛ فقولُهُ تعالى : «وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» متممٌ لمعنى قولِهِ : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» ، لأَن الاستعانةَ بهذا المعنى فَزَعٌ من القَلْبِ إلى اللهِ وتعلُّقٌ من النفسِ بهِ ، وذلك من مُخِ العبادةِ ، فإذا توجَّهَ العبدُ بها إلى غيرِ اللهِ تعالى كانتْ ضَرْبًا مِنْ ضُروبِ العبادةِ الوَثَنِيَّةِ التى كانتْ ذائِعةً فى زَمَنِ التنزيلِ وقبلَهُ ، وخُصَّتْ بالذكرِ لئلا يَتَوَهَّمَ الجُهَلاءُ أَنَّ الاستعانةَ بمن اتخذوهُمْ أَولياءَ مِن دُونِ اللهِ واستعانوا بهم فيما وراءَ الأَسبابِ المكتسبةِ لعامةِ الناسِ هى كالاستعانةِ بسائرِ الناسِ فى الأَسبابِ العامَّةِ ، فأَراد الحقُ جلَّ شأْنُهُ أَن يرفعَ هذا اللبسَ عن عبادِهِ ببيانِ أَن الاستعانةَ فيما هو فى استطاعةِ الناسِ بالناسِ إنما هى ضربٌ من استعمالِ الأَسبابِ المسنونةِ ، وما منزلَتُها إِلَّا كمنزلةِ استعمالِ الآلاتِ فيما هى آلاتٌ لهُ .. بخلافِ الاستعانةِ فى شُؤُونٍ تفوتُ القَدَرَ والقُوَى المعروفةَ فى مُتَناوَلِ الفهْمِ ، كالاستعانةِ على شِفاءِ المرضِ بما وراءَ الداوءِ ، وعلى غلبةِ العَدُوِّ

مما وراءَ العِدّةِ والعُدّةِ ، فإنّ ذلك مما لا يجوزُ الفَزَعُ بهِ لغيرِ اللهِ تعالى صاحب السلطانِ الأعظمِ على ما لا يصلُ إليه سلطانُ أحدٍ من العالَمِ .

فالزّارعُ مثلًا يبذلُ جَهدَهُ في الحَرْثِ والعَزْقِ وتسميدِ الأرضِ وريِّها ، ويستعينُ باللهِ تعالى على إتمامِ ذلك بمنعِ الآفاتِ والجوائحِ السماويةِ أو الأرضيةِ . والتاجرُ يحذِقُ اختيارَ الأصنافِ ويمهَرُ في صِناعةِ الترويج ، ثم يتّكلُ على اللهِ فيما بعدَ ذلك . ومن هنا تعلمون أنّ الذين يستعينونَ بأصحاب الأضرحةِ والقبورِ على قضاءِ حوائجهم وتيسيرِ أمورهم وشفاءِ أمراضِهم ونَماءِ حرثِهم وزرعِهم وهلاكِ أعدائهم وغير ذلك من المصالحِ ، عن صراطِ التوحيدِ ناكبون ، وعن ذكرِ اللهِ مُعرِضون .

أرشدَتْنا هذه الكلمةُ الوجيزةُ « وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » إلى أمْرَيْنِ عظيمين هما معراجُ السعادةِ في الدّنيا والآخِرَةِ .

أحدُهُما ـ أن نعملَ الأعمالَ النافعةَ ، ونجتهدَ في إتقانِها ما استطعنا ، لأنَّ طلبَ المعونةِ لا يكونُ إلا على عملٍ بَذَلَ فيهِ المرءُ طاقتَهُ فلمْ يُوَفِّهِ حَقَّهُ ، أو يخشى ألّا ينجح فيهِ فطلبَ المعونةَ على إتمامِهِ وإكمالِه . ومَنْ وقعَ منْ يدِهِ القلمُ على المكتَبِ لا يطلبُ المعونةَ من أحَدٍ على إمساكِهِ ، ومن وقع تحتَ عِبْءٍ ثقيلٍ يعجَز عن النهوضِ بهِ وحدَهُ يطلبُ المعونَةَ من غيرِهِ على رفعِهِ بعدَ استفراغِ القُوَّةِ في الاستقلالِ به ؛ وهذا الأمرُ هو مِرقاةُ السعادةِ الدنيويةِ ، وركنٌ من أركانِ السعادةِ الأُخروية .

وثانيهما ـ ما أفادَهُ الحَصْرُ من وجوبِ تخصيصِ الاستعانةِ باللهِ تعالى وحدَهُ فيما وراءَ ذلك ، وهو روحُ الدِّينِ وكمالُ التوحيدِ الخالِصِ الذي يرفعُ نفوسَ معتقديهِ ويخلِّصُها من رِقِّ الأغيارِ ، وَيَفُكُّ إرادَتَهُمْ من أَسْرِ الرؤساء

الروحانيين والشيوخِ الدجّالين ، ويُطلقُ عزائِمَهُمْ من قيدِ المُهَيْمِنِين الكاذبين من الأَحياءِ والميِّتينَ ، فيكونُ المؤْمِنُ معَ الناسِ حُرًّا خالصًا وسيِّدًا كريمًا ، ومع الله عبدًا خاضعًا ، «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا» .

«ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ»

الهِدَايَةُ لُغَةً هيَ الدّلالةُ بلُطْفٍ على مايوصِّلُ إلى المطلوبِ . وقد منحَ اللهُ تعالَى الإنسانَ أَربعَ هِداياتٍ يَتَوَصَّلُ بها إلى سعادتِهِ :

أُولاها ــ هدايةُ الوِجدانِ الطبيعيِّ والإِلهام الفِطريِّ ، وتكونُ للأَطفالِ منذُ ولادَتِهِمْ ، فإن الطفلَ بعدَ ما يُولَدُ يشعُرُ بأَلمِ الحاجةِ إلى الغِذاءِ ، فيصرُخُ طالبًا له بفطرتِهِ ، وعند ما يصلُ الثَّدْيُ إلَى فِيهِ يُلْهَمُ التقامَهُ وامتصاصَهُ .

الثانية ــ هدايةُ الحواسِّ والمشاعرِ ، وهي مُتَمِّمَةٌ للهدايةِ الأُولى في الحياةِ الحيوانيةِ ، ويشارِكُ الإنسانَ فيها الحيوانُ الأَعجَمُ ، بل هو فيهما أَكملُ من الإنسانِ ؛ فإنَّ حواسَّ الحيوانِ وإلهامَهُ يَكمُلانِ له بعدَ ولادتِهِ بقليلٍ ، بخلافِ الإنسانِ فإنَّ ذلك يكمُلُ فيهِ بالتدريجِ في زمنٍ غيرِ قصيرٍ . أَلا تراهُ عُقَيْبَ الوِلادَةِ لا تظهَرُ عليهِ علاماتُ إدراكِ الأَصواتِ والمرئياتِ ، ثم بعدَ مدةٍ يُبْصِرُ ، ولكنَّهُ ــ لِقِصَرِ نظرِهِ ــ يجهلُ تحديدَ المسافاتِ ، فيحسَبُ البعيدَ قريبًا فيمدُ يديه إليهِ ليتناوَلَهُ وإن كان قَمَرَ السماءِ ، ولا يزالُ يغلطُ حِسهُ حتى في طورِ الكمالِ ؟

الثالثة ــ هدايةُ العقلِ . خُلِقَ الإنسانُ ليعيشَ مُجتمِعًا ، ولم يُعْطَ من الإِلهامِ والوِجدَانِ ما يكفي مع الحِسِّ الظاهِرِ لهذِهِ الحياةِ الاجتماعيةِ كما أُعطِيَ النَّحلُ والنملُ ، فإنَّ اللهَ قد منحها من الإلهامِ ما يكفيها لأَن تعيشَ

مجتمِعةً يُؤَدِّى كُلُّ واحدٍ منها وظيفةَ العملِ لجميعِها ، ويُؤَدِّى الجميعُ وظيفةَ العملِ للواحدِ ، وبذلك قامتْ حياةُ أنواعِها كما هو مُشَاهَدٌ .

أما الإنسانُ فلم يكنْ من خاصّةِ نوعِهِ أَن يتوافَرَ له مثلُ ذلكِ الإلهام ، فحباهُ اللهُ هدايةً هى أعلى من هدايةِ الحِسِّ والإلهام ، وهى العقلُ الذى يصحِّحُ غَلَطَ الحواسِّ والمشاعِرِ ، ويُبيِّنُ أَسبابَهُ ؛ وذلك أَنَّ البَصَرَ يرى الكبيرَ على البُعْدِ صغيرًا ، ويرى العودَ المستقيمَ فى الماءِ مُعْوَجًّا ، والصفراوىُّ يذوقُ الحُلْوَ مُرًّا ، والعقلُ هو الذى يحكُمُ بفسادِ هذا الإدراك .

الهداية الرابعة ــ الدِّينُ . يغلَطُ العقلُ فى إدراكِهِ كما تغلَطُ الحواسُّ . وقد يُهْمِلُ الإنسانُ استخدامَ حواسِّهِ وعقلِهِ فيما فيهِ سعادتُهُ الشخصيةُ والنوعيةُ ، ويسلُكُ بهذهِ الهداياتِ مسالكَ الضلالِ فيجعلُها مُسَخَّرَةً لشهواتِهِ ولذَّاتهِ حتى تُورِدَهُ مواردَ الهَلَكَةِ ؛ فاذا وَقَعَتِ المشاعرُ فى مَزالقِ الزَّلَلِ ، واسْتَرَقَّتِ الحظوظُ والأَهواءُ العقلَ فصار يَسْتَنْبِطُ لها ضُروبَ الحِيَلِ ، فكيفَ يتسنَّى للإنسانِ مع ذلكَ أَن يعيشَ سعيدًا ؟ وهذه الحظوظُ والأَهواءُ ليس لها حدٌّ يقفُ الإنسانُ عندَهُ ، وما هو بعائشٍ وَحْدَهُ ، وكثيرًا ما تتطاولُ به إلى ما فى يدِ غيرِهِ ؛ فهى لهذا تقتضى أَن يَعْدُوَ بعضُ أفرادِهِ على بعضٍ فيتنازعوا ويتدافعوا ويتجادلوا ويتواثبوا ويتناهبوا حتى يُفْنِىَ بعضُهم بعضًا ولا تُغنى عنهم تلك الهداياتُ شيئًا ، فاحتاجوا إلى هِدَايةٍ تُرشِدُهُم فى ظُلُماتِ أَهوائِهم إذا غَلَبَتْ على عقولِهِمْ ، وتُبَيِّنُ لهم حدودَ أَعمالِهِمْ ليقفوا عندَها ويَكُفُّوا أَيدِيَهُمْ عمَّا وراءَها . ثم إن مما أُودِعَ فى غرائزِ الإنسانِ الشعورَ بسلطةٍ غيبيَّةٍ متسلِّطةٍ على الأكوانِ يَنْسُبُ إليها كلَّ ما لا يعرِفُ له سببًا ، لأنها هى الواهبةُ كلَّ موجودٍ ما بهِ قِوامُ وجودِهِ ، وبأَنَّ

له حياةٌ وراء هذه الحياة المحدودةِ ، فهل يستطيعُ أن يصِلَ بتلك الهدايات الثلاثِ إلى تحديدِ ما يجبُ عليه لصاحبِ تلك السلطةِ الذى خلقَهُ وسوَّاهُ ووهبَهُ هذه الهداياتِ وغيرَهَا ؛ وما فيه سعادتُهُ فى تلك الحياةِ الثانيةِ ؟ كلَّا ؛ إنه فى أشدِّ الحاجةِ إلى هذهِ الهدايةِ الرابعةِ ـ الدِّينِ ـ وقد منحهُ اللهُ تعالى إياها .

أشار القرآن إلى أنواع الهدايةِ التى وهبها اللهُ تعالى للإنسانِ فى آيات كثيرة ، منها قولُهُ تعالى : «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» أى طريقى السعادةِ والشقاوةِ ، والخيرِ والشرِّ . وهذه تشملُ هدايةَ الحواسِّ الظاهرةِ والباطنة ، وهدايةَ العقلِ وهدايةَ الدِّينِ . ومنها قولُهُ تعالى : «وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى» ، أى دَلَلْنَاهُمْ على طريقَى الخير والشرِّ فسلكوا سُبُلَ الشرِّ المعبِّرِ عنهُ بالعَمَى .

ولكنْ بَقِيَ معنا هدايةٌ أُخرى ، وهى المعبَّرُ عنها بقولِهِ تعالَى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» ، فليسَ المرادُ مِنْ هذهِ الهدايةِ ما سبقَ ذِكرُهُ ، فَالهدايَةُ فى الآياتِ السابقةِ بمعنى الدَّلالةِ ، وهى بمنزلةِ إيقافِ الإنسانِ على رأسِ الطريقَيْنِ ، الْمُهْلِكِ والْمُنْجِي ، مع بيانِ ما يُؤَدِّى إليهِ كلٌ منهما ، وهى مما تَفَضَّلَ اللهُ به على جميعِ أفرادِ البشَرِ . أما هذه الهدايةُ فهى أخصُّ مِنْ تلكَ ، والمرادُ بها إعانَتُهم وتوفيقُهُمْ للسيرِ فى طريقِ الخيرِ والنجاةِ مع الدَّلالةِ ، وهى لم تكنْ ممنوحةً لكلِّ أحد كالحواسِّ والعقولِ وشرعِ الدينِ .

ولما كانَ الإنسانُ عُرْضَةً للخطإِ والضلالِ فى فَهْمِ الدِّينِ وفى استعمالِ الحواسِّ والعقلِ على ما قدَّمنا ، كانَ مُحتاجًا إلى المعونةِ الخاصَّةِ ، فأَمَرَنا

اللهُ بطلبِها منهُ فى قولِهِ : «ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ» ، فمعنى «ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ» دلَّنَا دَلالةً تصحَبُها معونةٌ غَيبيةٌ من لَدُنْكَ تحفَظُنا بها من الضَّلالِ والخطإِ . وماكان هذا أَوَّلَ دعاءٍ علَّمنا اللهُ تعالى إياهُ إلَّا لأَنَّ حاجَتَنَا إليهِ أَشدُّ من حاجَتِنَا إلى كلِّ شيءٍ سواهُ .

والصِّراطُ هُوَ الطَّريقُ ، ويُقرأُ أَيضًا «السِّراط» بالسين المهملة ، والمستقيمُ ضِدُّ المُعْوَجِّ . وليسَ المرادُ بمقابِلِ المستقيمِ المُعْوَجَّ ذا التَّمَعُّجِ والتعاريج ، بل المرادُ كلُّ ما فيهِ انحرافٌ عن الغايةِ التى يجبُ أَن ينتهىَ إليها . والمُستقيمُ فى عُرْفِ الهندسةِ أَقربُ موصِّلٍ بينَ طرفين ، وهذا المعنى لازمٌ للمعنى اللُّغوىِّ كما هو ظاهرٌ بالبَداهةِ ؛ وإنما قلنا إن المرادَ بمقابِلِ المستقيم كلُّ ما فيهِ انحرافٌ لأَن كلَّ مَنْ يميلُ وينحرفُ عن الجادَّةِ يكَونُ أَضلَّ عن الغايةِ ممن يسيرُ عليها فى خطِّ ذى تعاريجَ ، لأَن هذا الأَخيرَ قد يصلُ إلى الغايةِ بعدَ زمن طويلٍ ، ولكنَّ الأَولَ لا يصلُ إليها قطُّ ، بل يزدادُ بُعدًا كلما أَوغلَ فى السيرِ وانهمكَ فيهِ .

وقد قالوا إن المرادَ بالصِّراطِ المستقيم ، الدينُ أو الحقّ أَو العدلُ والحدودُ . ونحن نقولُ إنهُ جملةُ ما يُوصِّلُنا إلى سعادَتَى الدُّنيا والآخرةِ من عقائدَ وآدابٍ وأَحكامٍ وتعاليمَ .

لِمَ سُمِّى الموصِّلُ إلى السعادةِ من ذلك صراطًا وطريقًا ؟ خذ الحقَّ مثلًا – وهو الاعتقادُ الصحيحُ باللهِ وبالنبوةِ وبأَحوالِ الكَوْنِ والناسِ – ترَ معنى الصِّراطِ فيه واضحًا ، لأَن السبيلَ أَو الصراطَ هو ما أَسلُكُهُ وأَسيرُ فيهِ لبلوغِ الغايةِ التى أَقصِدُها . كذلك الحقُّ الذى يبيِّنُ لى الواقعَ

فى العقيدةِ الصحيحةِ هو كالجادَّةِ بينَ السُّبُلِ المتفرِّقةِ المضلّةِ ؛ فالطريقُ الواضح للحِسِّ ، يشبهُ الحقَ للعقلِ والنفسِ ، سَيْرٌ حِسِّىٌ وسيرٌ معنوىٌ .

كذلك إذا اعتبرتَ المعنى فى الحدودِ والأَحكامِ وَجَدْتَهُ واضحًا . قُسِّمَتْ أَحكامُ الأَعمالِ إلى واجبٍ ومندوب ومُبَاحٍ ومحرَّمٍ ومكروهٍ ، فكان هذا مُرِيحًا لنا من تمييزِ الخيرِ من الشرِّ بأَنفسِنا واجتهادِنا . فبيانُ الأَحكام بالهدايةِ الكُبرى ـ وهى الدِّينُ ـ كالطريقِ الواضحِ يُسلَكُ بالعمل .

ومع هذا تجدُ الشهواتِ تتلاعَبُ بالأَحكامِ وتُرْجِعُها إلى أَهوائها ، كما يصرِفُ السفهاءُ عقولَهُمْ وحواسَّهُمْ فيما يُرْدِيهِمْ ؛ وهذا التلاعبُ بالدِّين إنما يَصْدُرُ من عُلَمَائِهِ . وأَضربُ لذلك مثلًا أَحدَ الشيوخِ الْمُتَفَقِّهِينَ سرقَ كتابًا من وَقْفِ أَحدِ الأَرْوِقَةِ فى الأَزهرِ مُسْتَحِلًّا له بحُجَّةِ أَنَّ قَصْدَ الواقفِ الانتفاعُ به ، وهو يحصُلُ بوجودِ الكِتابِ عندَهُ ، وقد يفوتُ النفعُ بِبَقَائِه فى الرِّواقِ حيثُ وَضَعَهُ الواقفُ !

واستحلالُ المحرَّماتِ بمثلِ هذا التأْويلِ ليس بقليل ، ولذلك كانَ الإنسانُ مُحتاجًا أَشدَّ الاحتياجِ إلى العنايةِ الإلٰهيةِ الخاصّةِ لأَجلِ الاستقامةِ والسيرِ فى تلك الهداياتِ الأَربعِ سيرًا مستقيمًا يوصِّلُ إلى السعادةِ . لهذا نبَّهَنَا اللهُ جلَّ شأْنُهُ إلى أَن نلجأَ إليهِ ونسأَلَهُ الهدايةَ ليكونَ عونًا لنا ينصُرُنا على أَهوائنا وشهواتِنَا ، وأَن تكونَ استعانَتُنَا فى ذلك بهِ لا بسواهُ ، بعد أَن نبذُلَ ما نستطيعُ من الفكرِ والجهادِ فى مَعْرِفَةِ ما أَنْزَلَ إلينا من الشريعةِ والأَحكامِ ، وأَخْذِ أَنفُسِنَا بما نعلمُ من ذلكَ . وهذا أَفضلُ ما نطلبُ فيه المعونةَ منهُ جَلَّ شأْنُهُ لاشتمالِهِ على خيرَى الدُّنيا والآخِرَةِ ؛ فهو بهذه الآيةِ يعلِّمُنَا كيفَ نستعينُ بعدَ أَن علَّمَنَا اختصاصَهُ بالاستعانَةِ فى قولِهِ «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» .

«صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ»

الصِّراطُ المستقيمُ هو الموصِّلُ إلى الحقِّ ، وإنما بَيَّنَهُ بإضافتِهِ إلى مَنْ سَلكَ هذا الصِّراطَ كما قال : « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » . والفاتحةُ مشتمِلَةٌ على إجمالِ ما فُصِّلَ فى القرآنِ حتى من الأَخبار التى هىَ مُثُلُ الذِّكرى والاعتبار ، ويَنْبوعُ العظةِ والاستبصارِ ؛ وأَخبارُ القرآنِ كلُّها تنطوِى فى إجمالِ هذهِ الآيةِ .

فسَّرَ بعضُهم الْمُنْعَمَ عليهِم بالمسلمينَ ، والمغضوبَ عليهِم باليهودِ ، والضَّالِّينَ بالنصارَى . ونحن نقولُ إن الفاتحةَ أَولُ سورةٍ نزلت كما قال الإمام علىٌّ رضى اللهُ عنه ، وهو أَعلمُ بهذا من غيرِهِ ، لأَنَّهُ تربَّى فى حِجْر النبىِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بهِ . وإن لم تكنْ أَولَ سورةٍ على الإطلاقِ فلا خِلافَ فى أَنها من أَوائلِ السُّوَرِ كما مرَّ فى المقدِّمةِ . ولم يكن المسلمون فى أَوَّلِ نزولِ الوحى بحيثُ يُطْلَبُ الاهتداءُ بهداهُمْ ، وما هُداهُمْ إلَّا من الوحىِ ، ثم هم المأْموزون بأَن يَسأَلوا اللهَ أَن يَهدِيَهُمْ هذا السبيلَ ، سبيلَ من أَنعمَ اللهُ عليهِمْ ، فأُولئك غيرُهُمْ . وإنما المرادُ بهذا ما جاءَ فى قولِهِ تعالَى : «فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» ، وهم الذين أَنعمَ اللهُ عليهِمْ من النبيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين من الأُممِ السالفةِ . فقد أَحالَ على معلومٍ أَجملَهُ فى الفاتحةِ وفصَّلَهُ فى سائرِ القرآنِ بقدرِ الحاجةِ ؛ فثلاثُة أَرباعِ القرآنِ تقريبًا قَصَصٌ وتوجيهٌ للأَنظارِ إلى الاعتبارِ بأَحوالِ الأُممِ فى كُفْرِهِم وإيمانِهم ، وشقَاوَتِهِمْ وسعادَتِهِمْ ؛ ولا شىءَ يَهدِى الإنسانَ كالْمَثُلاتِ والوقائعِ . فإذا امْتَثَلْنَا الأَمرَ والإرشادَ ، ونظرْنا فى أَحوالِ الأُممِ السالفةِ ، وأَسبابِ علمِهِمْ وجهلِهِمْ ، وقوَّتِهِمْ وضعفِهِمْ ، وعِزِّهِمْ

وذُلِّهِمْ ، وغيرِ ذلك مما يَعْرُضُ للأُمَمِ ، كان لهذا النظرِ أثرٌ فى نفوسِنَا يحمِلُنَا على حُسْنِ الأُسْوَةِ والاقتداء بأَخيارِ تلك الأُممِ فيما كان سببَ السعادةِ والتمكنِ فى الأَرضِ ، واجتنابِ ما كانَ سببَ الشقاوةِ أو الهلاكِ والدَّمار .

ومن هنا ينجلى للعاقِلِ شأْنُ عِلْمِ التاريخِ وما فيهِ من الفوائدِ والثمراتِ ، وتأْخذُهُ الدَّهشَةُ والحَيْرَةُ إذا سَمِعَ أَنَّ كثيرًا مِنْ رجالِ الدِّينِ من أُمَّةٍ هذا كتابُها يُعادُونَ التاريخَ باسم الدِّينِ ، ويرغبونَ عنهُ ويقولون إنهُ لا حاجةَ إليهِ ولا فائدَةَ لهُ . وكيف لا يَدْهَشُ ويَحارُ والقرآنُ يُنادِى بأَنَّ معرِفَةَ أَحوالِ الأُممِ مِنْ أَهمِّ ما يدعو إليه هذا الدِّينُ « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ » .

وههنا سؤَالٌ وهو : كيف يأْمُرنا اللهُ تعالَى باتباعِ صراطِ مَنْ تقدَّمَنَا وعندَنا أَحكامٌ وإرشاداتٌ لم تكنْ عندَهُمْ ، وبذلك كانتْ شريعَتُنا أَكملَ مِن شرائِعِهِمْ وأَصلَحَ لزمانِنا وما بعدَهُ ؟ والقرآنُ يبيِّن لنا الجوابَ ، وهو أنه يصرِّحُ بأَنَّ دِينَ اللهِ فى جميعِ الأُممِ واحدٌ ، وإنما تختلفُ الأَحكامُ بالفُروعِ التى تختلفُ باختلافِ الزمانِ ، وأَما الأُصولُ فلا خلافَ فيها . قال تعالَى : « قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » . وقالَ تعالى : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » . فالاعتِقادُ باللهِ وبالنُّبُوَّةِ وبتَرْكِ الشَّرِّ وبعملِ

البِرِّ والتَّخَلُّقِ بالأخلاقِ الفاضلةِ مستوٍ فى الجميعِ . وقد أمَرَنا اللهُ بالنظرِ فيما كانوا عليهِ والاعتبارِ بما صاروا إليه ، فنقتدى بهم فى القيامِ على أُصولِ الخيرِ ؛ وهو أمرٌ يَتَضَمَّنُ الدَّليلَ على أَنَّ فى ذلك الخيرَ والسعادةَ على حَسَبِ طريقةِ القرآنِ فى قَرْنِ الدَّليل بالمدْلولِ ، والعلَّةِ بالمعلولِ ، والجمعِ بينَ السببِ والمُسَبَّبِ . وتفصيلُ الأَحكامِ التى هذهِ كُلِّيَّاتُهَا بالإجمالِ نعرِفُهُ من شرعِنا ونبيِّنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ .

وأَمَّا قولُهُ تعالَى : « غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِم » ، فالمغضوبُ عليهم هم الذين خرجوا عن الحقِّ بعدَ عِلْمِهِمْ بهِ ، والذينَ بلغهم شرعُ اللهِ تعالَى ودينُهُ فرفضوه ولم يتقبَّلوه انصرافًا عن الدليلِ ، ورضًا بما وَرِثوهُ من القيلِ ، ووقوفًا عندَ التقليدِ ، وعكوفًا على هَوًى غيرِ رشيدٍ . وغضبُ اللهِ عقوبَتُهُ وانتقامُهُ .

وقولُهُ «وَلَا الضَّالِّينَ» : قَرَنَ المعطوفَ فيهِ بلا لما فى «غَيْر» من معنى النَّفى ، أى وغيرِ الضَّالين ، ففيهِ تأْكيدٌ للنفىِ . وهو يدُلُّ على أَنَّ الطوائفَ ثلاثٌ : المُنْعَمُ عليهِم ، والمغضوبُ عليهِم ، والضالون . ولا شكَّ أَنَّ المغضوبَ عليهِم ضالُّونَ أيضًا ، لأَنهم بنبْذِهِم الحقَّ وراءَ ظهورِهم قد استَدْبَرُوا الغَايَةَ واستقبَلُوا غيرَ وِجْهَتِهَا ، فلا يَصِلُونَ إلى مطلوبٍ ، ولا يهتدونَ إلى مرغوبٍ . ولكنَّ فرقًا بينَ من عَرَفَ الحقَّ فأَعْرَضَ عنهُ على عِلْمٍ ، وبَيْنَ مَنْ لم يظْهَرْ لهُ الحقُّ فهوَ تائِهٌ بينَ الطُّرُقِ لا يَهْتَدِى إلى الجادَّةِ فيها ، وهم من لم تَبْلُغْهُمْ الرِّسالةُ أَو بَلَغَتْهُمْ على وَجْهٍ لم يتبيَّنْ لهم فيهِ الحقُّ ؛ فهؤلاءِ هم أَحقُّ باسمِ الضَّالِّينَ ، فإن الضالَّ حقيقةً هو التائهُ الواقعُ فى عَمَايَةٍ

لا يهتدى معها إلى المطلوب ، والعماية فى الدين هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطإ .

والضالون على أقسام :

الأول ـ من لم تبلغهم الدعوة إلى الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر ؛ فهؤلاء لم يتوافر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل ، وحرموا رشد الدين ، فإن لم يضلوا فى شؤونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها فى الحياة الأخرى . على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة معًا ؛ فمن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والاضطراب فى أعماله المعاشية ، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة ... سنة الله فى هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلا . أما أمرهم فى الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين فى منازلهم ، وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد .

القسم الثانى ـ من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر فساق همته إليه واستفرغ جهده فيه ، ولكن لم يوفق إلى الاعتقاد بما دعى إليه وانقضى عمره وهو فى الطلب . وهذا القسم لا يكون إلا أفرادًا متفرقة فى الأمم ، ولا يعم حاله شعبًا من الشعوب فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة وما يكون لها من سعادة وشقاء فى حياتهم الدنيا . أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى . وينقل صاحب هذا الرأى مثله عن أبى الحسن الأشعرى . وعلى رأى الجمهور فلا ريب أن

مُؤَاخَذَتَهُ أَخَفُّ من مُؤَاخَذَة الجاحدِ الذى استعصَى على الدليلِ ، وكَفَرَ بنعمةِ العقلِ ، وَرَضِيَ بحظِّهِ من الجهلِ .

القسمُ الثالث - من بَلَغَتْهُم الرسالةُ وصدَّقُوا بها بدونِ نظرٍ فى أدلَّتِها ولا وقوفٍ على أُصولِها ، فاتبعوا أَهواءَهُم فى فَهْمِ ما جاءَتْ به فى أُصولِ العقائِد ؛ وهؤُلاءِ هم المُبْتَدِعَةُ فى كلِّ دِين ؛ ومنهم المُبْتَدِعُونَ فى دِينِ الإِسلامِ ، وهم المُنْحَرِفُونَ فى اعتقادِهم عما تدلُّ عليهِ جُملةُ القرآنِ وما كانَ عليهِ السلفُ الصالحُ وأهلُ الصدرِ الأَول ، ففرَّقُوا الأُمَّةَ إلى مشاربَ يَغَصُّ بمائها الواردُ ولا يَرْتَوِى منها الشاربُ . وإِنِّى أُشيرُ إلى طَرَفٍ من آثارِهم فى الناسِ : يـأْتى الرَّجُلُ إلى دوائرِ القَضَاءِ فَيُسْتَحْلَفُ باللهِ العلىِّ العظيمِ أَو بالمصحفِ الكريم - وهو كَلَامُ اللهِ القديمُ - أَنهُ ما فعلَ كذا فيحلِفُ وعلامةُ الكَذِبِ باديةٌ على وجهِهِ ، فيأْتيهِ المُسْتَحْلِفُ من طريقٍ آخَرَ ويحمِلُهُ على الحَلِفِ بشيخٍ من المشايخ الذين يعتقِدُ بهم فيتغيرُ لونُهُ وتضطربُ أَركانُهُ ، ثم يرجع فى أَلِيَّتِهِ ويقولُ الحقَّ ويُقِرُّ بأَنَّهُ فعلَ ما حلَفَ عليهِ أَوَّلًا أنه لم يفعلْهُ تكريمًا لاسم ذلكَ الشيخِ ، وخوفًا منه أَن يَسلُبَ عنهُ نِعْمَةً أَو يُحِلَّ بهِ نِقْمَةً إذا حَلَفَ باسمِهِ كاذِبًا ؛ فهذا ضلالٌ فى أُصولِ العقيدةِ يرجعُ إلى الضَّلَالِ فى الاعتقادِ باللهِ وما يجبُ لهُ من الوَحدانيَّةِ فى الأَفعال . ولو أَردنا أَن نسرُدَ ما وقعَ فيه المسلمون من الضلالِ فى العقائدِ الأَصليَّةِ بسببِ البِدَعِ التى عَرَضَتْ على دينِ الإِسلام لطال المقالُ ، واحتيجَ إلى وضعِ مجلَّداتٍ فى وجوهِ الضَّلالِ .

ومن أشنعها أثرًا وأشدها ضررًا خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر، والاختيار والجبر، وتحقيق الوعد والوعيد، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد.

إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها فيه أولًا، ظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين. وأما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرناها فيه أولًا فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان، فلا يدرى ما هو الموزون من الموزون به. أريد أنه يجب أن يكون القرآن أصلًا تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين، لا أن تكون المذاهب أصلًا والقرآن هو الذى يحمل عليها ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخذولون وتاه فيه الضالون.

القسم الرابع ـ ضلال في الأعمال وتحريف للأحكام عما وضعت له، كالخطإ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات. والخطإ في فهم الأحكام التي جاءت في المعاملات. ولنضرب لذلك مثلًا الاحتيال في الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول، ثم استرداده بعد مضي قليل من الحول الثاني حتى لا تجب الزكاة فيه، وظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركنًا من أهم أركان دينه، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضًا وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره، وهو محال عليه جل شأنه.

ثلاثة أقسام من هذا الضلال، أولها وثالثها ورابعها، يظهر أثرها في الأمم فتختل قوى الإدراك فيها، وتفسد الأخلاق، وتضطرب الأعمال، ويحل

بها الشقاءُ عُقوبةً منَ اللهِ لا بدَّ من نزولها بهم ـ سُنَّةَ اللهِ فى خلقِهِ ولنْ تَجِدَ لِسُنَّتِهِ تَحْوِيلًا .

ويُعَدُّ حُلُولُ الضعفِ ونزولُ البلاءِ بأمة من الأُمَمِ من العلاماتِ والدلائلِ على غضبِ اللهِ تعالى عليها ، لما أَحدَثَتْهُ فى عقائِدِها وأعمالِها مما يخالِفُ سُنَنَهُ ولا يُتَّبَعُ فيه سَنَنُهُ . لهذا علَّمَنا اللهُ تعالَى كيفَ ندعُوهُ بأن يهدِيَنا طريقَ الذينَ ظهرَتْ نعمتُهُ عليهِم ، بالوقوفِ عند حدودِهِ ، وتقويمِ العقولِ والأعمالِ بفَهْمِ ماهدانا إليه ، وأن يجنِّبَنا طُرُقَ أُولئك الذين ظهرَتْ فيهم آثارُ نقمِهِ بالانحرافِ عن شرائعِهِ ، سَوَاءٌ كان ذلك عَمْدًا وعِنادًا أو غَوايةً وضلالًا .

واعلموا أن الأمَّةَ إذا ضلَّتْ سبيلَ الحقِّ ، وَلَعِبَ الباطِلُ بأهوائها ، ففسَدَتْ أخلاقُها ، واعْتَلَّتْ أعمالُها ، وقعتْ فى الشقاءِ لا محالةَ ، وسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهَا مَنْ يَسْتَذِلُّها ويستأْثِرُ بشُؤُونِها ، ولا يؤَخِّرُ لها العذابَ إلى يومِ الحسابِ ، وإن كانتْ ستُلاقى نصيبَهَا منهُ أيضًا . فإذا تمادَى بها الغَيُّ وصلَ بها إلى الهَلاكِ ومُحِيَ أَثَرُهَا من الوُجودِ . لهذا علَّمَنا اللهُ تعالى كيف ننظُرُ فى أحوالِ من سَبَقَنَا ومَنْ بقِيَتْ آثارُهُمْ بينَ أيدينا من الأُمَمِ لنعتَبِرَ ونميِّزَ بينَ ما بهِ تَسْعَدُ الأَقوامُ وما بهِ تَشْقَى .

أما فى الأفرادِ فَلَمْ تَجْرِ سُنَّةُ اللهِ بلزومِ العُقُوبةِ لكلِّ ضالٍّ فى هذهِ الحياةِ الدُّنيا ، فقد يُسْتَدْرَجُ الضَّالُّ من حيثُ لا يَعْلَمُ ، ويُدْرِكُهُ الموتُ قبلَ أنْ تزولَ النِّعْمَةُ عنهُ ، وإنما يلقَى جزاءَهُ « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

طبع بالقاهرة
بشركة الإعلانات الشرقية
مؤسسة الطباعة
لدار التحرير للطبع والنشر

كتاب الشعب

القرآن الكريم

جزء تبارك

تفسير

المرحوم الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي
نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة سابقاً

مطابع الشعب

صدرت هذه الطبعة ضمن سلسلة « كتاب الشعب » باذن خاص من وزارة التربية والتعليم . وقد أخذت عن طبعة المطبعة الأميرية (عام ١٣٦٦ هجرية ـــ ١٩٤٩ ميلادية) التى قام بتصحيحها والتعليق عليها ، بتكليف من الوزارة ، الأستاذ الشيخ على محمد حسب الله ، أستاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك ربنا منزل القرآن ، بحقائق الايمان ، وجليل العبر . وملهم الأذهان ، نواصع البيان ، ودقيق النظر . ونصلي ونسلم على سيدنا محمد المبعوث بأكرم الأديان ، وقاطع البرهان ، من ولد مضر . صلاة وسلاما يتجددان ماتجدد الزمان ، وتعاقب الملوان ، ولاح قمر .

أما بعد ، فان جزأى « عم » و « تبارك » من أكثر الأجزاء شيوعا بين طلاب المدارس ، وتداولا بين عامة المسلمين وأيدى صغارهم . وآياتهما أشد علوقا بالنفس ، وترديدا في الأفواه من سائر آيات الكتاب . فمن ثم كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيرا حسن الوضع ، صحيح الأسلوب ، يقرب من أذهان العامة ، ولا تتجافى عنه عقول الخاصة . فيقتصر فيه من القول على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة والاعراب ، ثم يشرح فيه المعنى المتبادر شرحا وسطا مجردا عن التنطع بالمشاغبات ، وايراد الخلافات والخرافات .

وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله — تفسيرا لجزء « عم » توخى فيه هذا النمط والأسلوب ، فجاء من خير الكتب وفاء بالغرض ، واصابة لمواضع الحاجة . فلا غرو اذا تناولته الألسنة بالثناء ، وتلقته القلوب بالقبول .

وقد رغب الى بعض الفضلاء في أثناء اقامتي بمصر بين سنتي ١٣٢٣ و ١٣٢٧ هـ (١٩٠٥ — ١٩٠٨ م) أن أضع تفسيرا لجزء « تبارك » أتوخى فيه طريقة استاذنا الجليل فيما علقه على جزء « عم » من جهتي الصحة في التعبير ، والاقتصار على المفيد من القول ، فقلت له : بلغني أن الأستاذ رحمه الله قد فسر جزء « تبارك » وهو مازال في تساويد مبعثرة محفوظة عند صديقه المرحوم « حسن باشا عاصم » .

وبعد البحث عن تلك التساويد ، علمنا أن الأستاذ لم يشرع في تفسير جزء « تبارك » بالفعل ، وانما كان هيأ صحائف بيضا رقم في رءوسها آيات ذلك الجزء ، وتركها غفلا من الكتابة ، على أمل أن يصطحبها معه في بعض أسفاره ، ويملأها تفسيرا وتعليقا ، كما كان من أمره في تفسير جزء « عم » الذى ألفه في غضون سفره الى البلاد المغربية ، لكنه اخترمته منيته ، قبل أن تتحقق أمنيته .

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارني أو صادفني سألني عن التفسير والح على بالشروع فيه .

فكنت أعتذر اليه بنقص الكفاية ، وصعوبة الأمر ، وفقد الأداة اللازمة لسلوك هذا الطريق الوعر ، ولا سيما أن تفسيرى لجزء « تبارك » لاينظر اليه الناظرون لذاته ، ومن حيث نسبته الى صاحبه ، وانما تتعمد فيه الموازنة بينه وبين ماكتبه الأستاذ على جزء « عم » فينحط قدره في عيون القراء ، وينسخ ظلامه بالضياء ، وبضدها تتميز الأشياء .

ثم ضرب الدهر ضربانه ، فكان من أمره أن نزلت دمشق أول سني الحرب الأولى نزولا حسبته لماما ، فاذا هو قد استتلى شهورا وأعواما . فتجددت لي وأنا فيها دواع حفزتني لتحقيق الأمل ، ومباشرة ماكلفت من العمل . فوضعت هذا التفسير مستعينا بحول الله وقوته ، وأكملته على مثال تفسير شيخنا وطريقته .

بيد أنى رأيت أن أتوسع قليلا في التعليق والتفسير ، والاستشهاد والتنظير — ولا سيما في المباحث اللغوية — بأكثر مما فعله الأستاذ رحمه الله في تفسير جزء « عم » ، مراعيا في ذلك حال قراء جزء « تبارك » ، ومقدرا في نفسي أنهم سيكونون أكبر سنا ، وأتم استعدادا ، وأشد اهتماما بالتحصيل من قراء جزء « عم » .

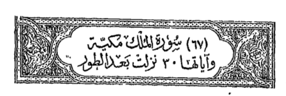
وقد قمت في تفسيرى هذا بفعل ما أطيق وأملك : من تحرى الحق والصواب فيما أولت وفسرت ، وبسط العبارة وتهذيبها فيما أنشأت وحررت ، وتصحيح النية وجعلها خالصة لوجهه الكريم فيما اخترت ورجحت .

أما قبوله تعالى لعملي ، وعفوه عن قصورى وزللي ، ورواج تفسيرى بين القراء كما هو قصدى وأملي — فان هذا لا أملكه ولا أطيقه بقوتي ، ولا يدخل تحت مقدورى ومكنتي ، وانما أكل الأمر فيه الى الله ، فهو المسئول أن يتولاه بعنايته ، ويجعله قرين التوفيق بفضله وكفايته .

وقد عنيت وزارة المعارف المصرية بهذا التفسير ، وأحالته على لجنة من خيرة رجالها المختصين ، فراجعته ، وأشارت بطبعه ونشره ، تعميما لفائدته في معاهد العلم المختلفة ، وبين جمهور المسلمين في بقاع الأرض .

والله المسئول أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع به ، فانه الموفق الى الخير ، والهادى الى سبيل الرشاد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

عبد القادر المغربي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ

جميع سور هذا الجزء انزلت بمكة اى قبل الهجرة . ومن ثم كان الخطاب الالهى فيها موجها الى المشركين . وهو فى الأغلب يدور حول اثبات وجود الله تعالى والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات ، ثم اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانه صادق فى دعوى الرسالة والوحى ، ثم تقريع المكذبين وتخويفهم مابين أيديهم من هول الحشر والحساب ، وأن هذا الحشر ممكن وسيقع بالفعل ، فيلقى كل فريق من الجاحدين والمؤمنين جزاءه اللائق به ، فى داره المعدة له . ووصف هاتين الدارين وصفا بدعا فى أسلوبه ، عجيبا فى نسقه وتركيبه . ويتخلل الآيات تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه الشريف ، وحثه على الصبر والتجلد والتأسى باخوانه الأنبياء الذين تقدموه ، ولقوا من أممهم مثل ما لقى او اشد .

وقد افتتحت هذه السورة بتمجيد الله تعالى المالك لكل شىء ، والذى خلق البشر واختبرهم باحيائهم واماتتهم ، وخلق السموات على نظام محكم ، وزينها بالنجوم ، كما جعل تلك النجوم من جهة ثانية رجوما للشياطين الخ .

(تبارك) فى مادة البركة معنى الزيادة والنماء والدوام : فمعنى تبارك الله تعاظم وجلت صفاته ، وتعالى عن مشابهة المخلوقين تعاليا دائما لايعتوره نقص ولا انقطاع .

(بيده الملك) اى ان التصرف المطلق فى هذه الكائنات له تعالى لا لغيره . ويراد من ذكر اليد فى مثل هذا الاستعمال افادة معنى التمكن من الشىء والاستيلاء التام عليه .

(ليبلوكم) اى ليختبركم ويمتحنكم .

استهل الكلام بأن له تعالى التصرف فى كل شىء والقدرة على كل شىء . ثم ذكر مثالا من امثلة تصرفه وقدرته ، فقال : انه تعالى قدرعلى البشر موتاوحياة . والمراد بالموت الحالة التى يكون فيها الانسان عناصر متفرقة ، لا حياة فيها ولا شعور . ثم بعد ذلك يسلط الله على تلك العناصر من نواميس قدرته ، المنطبقة على سابق مشيئته ــ ما يجعلها حية مدركة ذات ارادة واختيار . ولماذا هذا ؟ لانه تعالى يريد ان يختبر الانسان : اى يعامله معاملة المختبر المجرب ، فيظهر امره ، ويعرف مقدار طاعته وميله الى الفضيلة ، ومبلغ عصيانه وجنوحه الى الرذيلة . وانما قلنا فى معنى الابتلاء هذا لانه تعالى يعلم أمر الانسان من دون اختبار ، ولكن الانسان نفسه والناس لا يعلمون ذلك ، حتى اذا علموا حقت الكلمة ، وقامت الحجة ، وانقطعت المعاذير .

ويروى انه صلى الله عليه وسلم تلا هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى : **(ايكم احسن عملا)** فسره بقوله : « ايكم احسن عقلا ، واورع عن محارم الله ، واسرع فى طاعة الله » . فالمفاضلة فى حسن العمل انما هى فى ان يكون المؤمن أتم تعقلا لأوامر الله ، وتفهما لأسرار مشيئته فيما أوحاه الى نبيه . فيورثه ذلك التفهم الكف عن المحارم ، والمسابقة الى ممارسة الطاعات . حتى اذا فرط مفرط فى جنب الله وخالف امره ، وتمادى فى غيه وضلاله ــ لا يعجزه تعالى أن يجازيه على سوء صنيعه ، لانه تعالى **(العزيز)** الذى لايغلب ولا يسبق ، كما أنه تعالى **(الغفور)** الذى يعفو عمن تاب واصلح وكف عن المحارم .

ثم ان للموت والحياة كنها يصعب تعقله على كل المخاطبين ، وليس فى طاقة معظمهم سهولة الانتقال منه الى اثبات وجود الله تعالى . لذلك عدل الوحى الالهى الى مافيه يسر وسهولة عليهم ، وهو النظر فى هذه السموات المرئية ، وعجائب الصنع والتكوين فيها فقال **(الذى خلق سبع سموات الخ)** (١)

(طباقا) مصدر طابق النعل خصفها وجعل كل

---

(١) هكذا يقول المؤلف فى بيان وجه الانتقال من ذكر الموت والحياة الى ذكر طبقات السماء . ونرى أن ماذكره لايصلح وجها لذلك ، لأن الله تعالى حين يطالب الناس بالنظر فى أمر الموت والحياة لا يطلب منهم معرفة حقيقة يعجزون من ادراكها ، بل يطلب منهم الاستدلال بتواردهما على الأجسام ، وهو مايراه الناس جميعا ، ويعرفون من امره بالحس مايكفى فى الاستدلال ، وما لايعرفون مثله من طبقات السماء ، التى لا يعرفها العلماء الا بعد دراسة شاقة .

فالأمثل فى وجه الانتقال أنه بعد أن ذكر آية فى الانسان انتقل الى ذكر آية فى الآفاق المحيطة به ، على حد قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » اهـ مصححه

طبق منها حذو الطبق الذى يليه ، او هو جمع طبق كجبل وجبال ، او جمع طبقة مثل رحبة بالتحريك وهى الساحة اذ يقال فى جمعها رحاب . **(تفاوت)** اختلاف واضطراب وخلل فى الخلقة **(فارجع البصر)** اى انظر مرة اخرى نظر متفحص متأمل ، فقد تكون نظرتك الأولى مجردة عن ذلك **(فطور)** جمع فطر ، وهو الشق والصدع فى الشيء . والمراد هنا الخلل وعدم التلاؤم بين اجزاء السموات **(كرتين)** مرتين . والمراد بالتثنية التكثير : كأنه يقول : ثم رد بصرك المرة بعد المرة ، بدليل السياق، اذ يقول تعالى : **(ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير)** والبصر لا يكل بمجرد النظر مرتين اثنتين ، وانما يكل ويتعب بترديد النظرات الكثيرة . وهذا مثل قولهم : لبيك وسعديك ، فان التثنية فيهما لافادة التكثير **(خاسئا)** اسم فاعل من خسيء بمعنى تباعد بذلة وصغار . ومنه قولهم للكلب : اخسأ ، فاذا تكررت النظرات ولم تجد خللا رجعت بعيدة عن نيل غرضها ، واصابة ملتمسها : كأن عليها آثار الذلة والصغار **(حسير)** كليل معيى من كثرة مابحث عن الفطر والتفاوت فلم يجدهما .

هذه الآية مثال ثان من أمثلة سعة ملكه ، وشمول قدرته . ذكر فى صدر السورة أنه تعالى بث الحياة فى البشر بعد أن كانوا عناصر ميتة لا شعور فيها . ثم ذكر هنا من مظاهر القدرة أنه تعالى خلق سبع سموات يعلو بعضها بعضا ، وأنك لاترى عند التأمل خللا فيها ، ولا تشاخسا (١) بين اجزائها . فحقق النظر اليها ، وتأمل تأمل متفحص هل تجد فيها خللا ؟ ثم اذا لم تطمئن للنظرة الأولى التى ربما كانت حمقاء فأعد نظراتك مرارا . فلا جرم أن يكل اذ ذاك بصرك ، ويخيب بحثك ، ولا تظفر بمطلوبك من وجود الخلل والفطر . والخطاب فى قوله (ماترى) (فارجع) (ثم ارجع) لكل امرىء يتأتى منه الريب والشك فى مبلغ القدرة الالهية ، لا لواحد بعينه . وقد أيدت تجارب العلماء الباحثين فى المادة ونواميسها ، والكائنات وسننها ــ مضمون هذه الآية ، فانهم قرروا ــ بعد النظر الدقيق ــ أن العالم جميعه ــ من أصغر ذرة فى فضائه ، الى اكبر جرم فى سمائه ــ خاضع لناموس واحد ، ومتماسك بنظام عام شامل : لايمكن حصول خلل فيه ، ولا طروء شذوذ عليه الا ان يشاء الله . فتبارك الله أحسن الخالقين .

والسموات السبع هى طرائق السيارات ومداراتها (٢) . ولا ريب أن هذه المدارات طبقات : طبقة أدنى من طبقة ، وفلك فوق فلك . وانما اقتصر الوحى من ذكر السموات على سبع ــ مع أن العلم اثبت انها أكثر من ذلك ــ لأنه تعالى انما يخاطب القوم وقت البعثة بما عرفوا من أمر الأفلاك وكواكبها . وقد أحالهم على النظر والتأمل فى تكوينها وأوضاعها ، ليتنبهوا الى كمال احكامها ، وليحدث الخطاب فى نفوسهم عبرة واذعانا وفضل تأثر ، وليكون ذلك آية لهم على وجود الله وكريم صفاته . وهذا هو جل القصد من ذكر السموات فى القرآن . وليس القصد من ذكرها تقرير حقائق فى علم الهيئة . وسكوت الوحى عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفى وجود الزيادة . والحكمة فى هذا السكوت أن المخاطبين فى ذلك العهد ما كانوا مقتدرين على النظر والتفكير فى غير السموات السبع أو السيارات السبع التى عرفها الأوائل ، واشتهر أمرها عند عامة الناس يومئذ . اما النجوم الثوابت الأخر فلم يكن يتيسر لهم أو ينتظر منهم أن يرجعوا البصر فيها ليروا ما فيها من تفاوت او احكام ، وذلك لبعدها الشاسع عن متناول الحس ، وعدم معرفة الأوائل ما عرفه المتأخرون من طبائعها وأحوالها . وأما فلكا « أورانوس » و « نبتون » فلم يكونا اكتشفا بعد فى ذلك العهد ، فلو أحال الله البشر فى قرآنه على ما لم يمكنهم النظر فيه ، والاحاطة علما بأمره من النجوم الثوابت والفلكين المذكورين ــ لكانت احالته عبثا ، وتكليفه محالا . وقد أبى الله سبحانه وتعالى لنا ذلك فى منزل وحيه ، ومحكم شرعه ، تفضلا منه ورحمة . وسيأتى زيادة بيان لهذا البحث فى سورة نوح فانتظره .

(الدنيا) تانيث الأدنى ، وهى صفة للسماء ، أى السماء التى هى أقرب الينا من سائر السموات . **(بمصابيح)** جمع مصباح ، وهو السراج . وقد اراد بها النجوم التى تضيء نواحى السماء على طريقة التمثيل . ونكر المصابيح تفخيما لشأنها ، وتعجيبا من أمرها ، وأنها قد بلغت من الاضاءة والجمال حدا دونه مصابيح الناس وسرجهم المعهودة .

ولا يقال ان معظم النجوم التى نراها فى السماء الدنيا هى نجوم ثوابت مقرها فوق السموات جميعها ، لأننا نقول : ان تلك النجوم الثوابت هى من كواكب السماء الدنيا وزينتها فى بادىء النظر ، وان كان مركزها حيث ذكر ، فلا منافاة بين كونها فوق السموات وبين جعلها زينة للسماء الدنيا .

(رجوما للشياطين) . الرجم : فى الأصل مصدر رجمه اذا رماه بنحو حجر ، ثم سمى الشيء الذى يرجم به (رجما) تسمية بالمصدر ، وجمع على (رجوم) مثل ما مر فى جمع فطر على فطور . و (الشياطين) طائفة من المخلوقات الشريرة . لانعرفها بأعيانها ، وانما نعرفها بآثارها . ومن جملة تلك الآثار خواطر السوء ، ونزوع أنفسنا الى الشرور . وهذه المخلوقات الغيبية هى مايفهم فى الأعم الأغلب من اطلاق لفظ الشياطين . والا فان الشيطان اسم لكل متمرد عات ، سواء أكان انسانا أم جنا أم دابة . ومن ذلك قوله تعالى : (واذا خلوا الى شياطينهم) اى رؤسائهم من الانس . وفى الحديث «لاتصلوا فى مبارك الابل ، فانها من الشياطين» قال بعض شراحه : انها من الشياطين حقيقة ، لان الشيطان اسم لكل متمرد عات كما قلنا . وقال آخرون : ان الابل تشبه شياطين الجن فى النفور والتهويش على المصلين .

(واعتدنا لهم عذاب السعير) اى وأعددنا لأولئك الشياطين عذابا تسعر فيه النار ، اى توقد أشد ايقاد .

---

(١) شخس الأمر كمنع وتشاخس : اضطرب وتفرق ، فهو شخيس

(٢) قال ابن سيده الأندلسى فى مخصصه (ج ١٦ ص ١٨١) ما نصه (والسماء والسماوة مدار النجوم) المؤلف .

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ

ذكر فى الآية السابقة السموات واحكام صنعها ، وذكر هنا مافيها من النجوم المتلألئة ، وقال ان تلك النجوم خلقت زينة للسماء ورجوما للشياطين . ولا ينافى هذا أن تكون النجوم خلقت لمصالح اخر ; ككونها علامات يهتدى بها المسافرون فى ظلمات البر والبحر ، اذ ليس فى الآية مايستدعى الحصر .

ومعنى جعل النجوم رجوما أنها سبب للرجوم ، ومصدر لها . والا فان النجوم اجرام كبيرة ثابتة فى مراكزها وتسمى ثوابت، أو متحركة فى أفلاكها وتسمى سيارات . ولا يمكن حسبما عرف من السنن والنواميس التى قيدها بها خالقها ومبدعها أن تدع مراكزها أو تخرج عن مداراتها وهى بحيث وصفنا من كبر الحجم فتنبعث وراء الشياطين . وانما تكون تلك النجوم منشأ للرجوم ومصدرا لها . فالرجوم ، وهى الشهب ، أجرام صغيرة مضيئة منفصلة عن النجوم وسابحة فى الفضاء ، حتى اذا اقترب منها واحد من تلك الأرواح الشريرة المسماة شياطين ــ انقضت عليه بهيئة شعلة نارية وأحرقته . ولا يقتصر فى التنكيل به على ذلك ، بل قد هيىء له فى الآخرة (عذاب السعير) جزاء تصديه لاستراق خبر السماء .

ويقول العلماء المتأخرون فى سبب انقضاض هذه الرجوم المسماة فى اصطلاحهم « نيازك » انها بعد انفصالها عن الأجرام السماوية بسبب من الأسباب تبقى سابحة فى الفضاء ، حتى اذا اتفق اقترابها من كوكب آخر أو من كوكبنا الأرضى ودخلت فى منطقة نفوذه ــ جذبها اليه بسرعة هائلة ، فتحترق وتتلاشى هباء منثورا ، أو تبقى منها بقية تسقط على سطح الارض ، وهى مايسمونه « الحجر النيزكى » .

وما قلناه من أن الرجوم شهب منفصلة عن النجوم لا النجوم نفسها صرح به فى الكشاف قال : « ومعنى كون النجوم مراجم للشياطين ان الشهب التى تنقض لرمي المسترقة من الشياطين منفصلة من نار الكواكب لا انهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارة فى الفلك على حالها . وما ذاك الا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة كاملة لا تنقص » اهـ

او يقال : ليس المراد بالمصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا النجوم انفسها ، بل المراد بها كل ما استنار فى افق السماء بحيث تراه العين فى الليل الدامس متلألئا مضيئا كمصباح ، فيدخل فى ذلك النجوم كما تدخل الشهب التى هى الرجوم ، فقوله تعالى **(وجعلناها)** اى وجعلنا بعض تلك المصابيح او نوعا منها ، وهو الشهب التى ترى فى السماء كمصابيح ، رجوما للشياطين .

ونحن معشر المسلمين نعتقد بظاهر ما ورد فى القرآن الكريم من أن النجوم قد ينفصل عنها رجوم تتبع الشياطين . واذا لم يفهم العلم الطبيعى هذه القضية ، فذلك لأنه لم تتوفر له أسباب الفهم اليوم . ويكفينا فى صحة الايمان بها على ظاهرها أن العقل لايجعلها من المحالات العقلية .

ولبعضهم فى تأويل جعل النجوم رجوما للشياطين كلام جدير بالقبول وهو : أن الرجوم واحدها الرجم مصدر رجم وهو أن يتكلم المرء بالظن والتخمين . ومنه قوله تعالى (رجما بالغيب) فالرجوم هنا بمعنى الظنون، أما الشياطين فهم شياطين الانس ،أعنى المنجمين الذين اتخذوا من النظر فى نجوم السماء والتكهن عن أمور المستقبل بما يبدو لهم من طوالعها وقراناتها ــ صناعة لحمتها الرجم، وسداها الوهم ، فالله تعالى يقول : انه خلق النجوم فكانت زينة للسماء ، اما الشياطين من الكهان فقد اتخذوها وسائل للتنجيم واضلال الناس ، فلا بدع اذا اعدت لهم النار يصلون سعيرها .

ومعنى كونه تعالى جعلها ظنونا للمنجمين أن ذلك كان من نتائج خلق النجوم ، وقد حصل بارادته ، لا انه تعالى شرعه ورضى به كما رضى بأن تكون النجوم زينة ومصابيح للسماء .

وسنزيد هذا البحث ايضاحا فى سورة الجن عند قوله تعالى : (وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا) .

ربما أوهم قوله فى الآية السابقة (واعتدنا لهم الخ) أن عذاب السعير ما أعد الا للشياطين خاصة ، فنفى ذلك هنا بقوله **(وللذين كفروا بربهم الخ)** اى ان عذاب جهنم للكافرين جميعهم : شياطين كانوا أو غير شياطين، و **(المصير)** المرجع والمآل : من صار امره الى كذا : آل اليه ورجع ، والمخصوص بالذم محذوف كأن يقول وبئس المصير عذاب جهنم ، و **(الشهيق)** الصوت الذى يتردد فى صدر المرء وهو يبكى ، ويخرج من الجوف بشدة، ولذلك يسمي نهيق الحمار شهيقا أيضا ، **(تفور)** تغلى كما تغلى القدر **(تميز)** أصله تتميز اى تتفرق اجزاؤها وتتقطع من شدة غيظها وحنقها على أولئك الكافرين الذين القوا فيها ، وهذا كما يقال فى وصف الحزين : « يكاد يتفطر قلبه من شدة الحزن » والشهيق والغيظ جمعا فى آية واحدة فى سورة الفرقان فى وصف

جهنم أيضا (اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) و (الزفير) هوالشهيق أو قريب المعنى منه.

ومعنى الآيات ان أولئك الكافرين حينما يلقون فى جهنم يسمعون لها صوتا شديدا وهى تغلى ، ويكاد الرائى لها من شدة غليانها وحسيسها المنكر يحسبها غضبى على الكافرين بحيث يوشك أن تتقطع أوصالها من فرط غيظها عليهم ، وهل هذا الصوت صوت جهنم نفسها بمعنى ان المواد التى تلتهب فيها يسمع لها هذا الصوت ؟ أو هو صوت أهلها الذين ألقوا ويلقون فيها ؟ لم يكلفنا الشرع تعيين أحد الأمرين ، كما لم يكلفنا ان نعرف جهنم نفسها والجنة وسائر شئون عالم الغيب معرفة كنه وتحديد ، وانما كل ما على المؤمن أن يعتقد أنه تعالى أعد دارا للأشرار تسعر فيها النار وتفور ويسمع لها صوت على المعنى الذى يريده سبحانه وتعالى . أما ما وراء ذلك من اعتقاد أن مواد جهنم وعناصرها وطبائعها وغليانها وحسيسها من جنس ما نعرفه فى الدنيا أو لا — فهذا مما لم نكلفه رحمة بنا ، اذ القصد أن يؤدى علمنا بالنار الى الخشية والازدجار ، وهذا يحصل بمجرد ما قصه الله علينا من أمرها وان الداخل اليها يشعر من الألم بأقصى ما يعهده فى دار الدنيا .

واما أن الغيظ والغضب يكاد يقطع أوصال جهنم ، فهو تمثيل وتصوير لهول أمرها ، وفظاعة خطبها ، قلما يجهل حسنه من أوتى حظا من علم الأدب ، وتذوق بشىء من خصائص لغة العرب .

الكلام متصل بما قبله ، فبعد أن وصف دار العذاب جاء هنا يصف لنا أطوار المعذبين فيها ، (**فوج**) جماعة من الجاحدين ، (**خزنتها**) هم الموكلون بها ، ويسمون الزبانية ، (**نذير**) رسول من قبل الله ينذركم بطشه ، ويحذركم عقابه ، (**بلى**) حرف تصديق يقع بعد النفى فيفيد اثبات المنفى ، وفى الآية لم يكتف بما تفيده (**بلى**) من الاثبات ضمنا ، بل جىء به صراحة ، اذ قيل (**قد جاءنا نذير**) ولو لم يصرح به لفهم ، و (**الضلال الكبير**) هو ان يبعد المرء عن الحق بعدا شاسعا ومفعول (**نسمع أو نعقل**) محذوف اى ماكنا نسمع ولا نعقل كلام الرسل ولا انذارهم ولا تحذيرهم . والمراد بنفى السماع والعقل نفى الاجابة والتلبية ، لأن القوم لم يكونوا صما ولا مجانين ، وهذا الاستعمال شائع فى كلام العرب . قال شاعرهم :

دعوت الله حتى خفت الا   يكون الله يسمع ما أقول

اى حتى خفت ألا يكون الله يريد اجابة دعائى ، وتلبية ندائى ، و (**السعير**) من أسماء جهنم وهو من سعرت النار فهى مسعورة وسعير ، مثل مقتولة وقتيل ، اى أوقدتها ايقادا شديدا ، (**سحقا**) بعدا وهلاكا ، وهى من كلمات الدعاء والتقريع مثل تبا وجدعا ، ويقال فى ضدها سقيا ورعيا ، واصل معنى (سحقا له) أسحقه الله سحقا ، اى ابعده من رحمته ابعادا ، ومن السحق بمعنى البعد قولهم «مكان سحيق» اى بعيد و « نخلة سحوق » اى طويلة ، ومعنى الآيات انه كلما القى فى جهنم جماعة من المكذبين سألهم القائمون عليها سؤال توبيخ وتقريع : ألم يرسل الله اليكم رسولا ؟ فيقولون : بلى ! أرسله الينا فكذبناه وأفرطنا فى التكذيب حتى جحدنا الوحى السماوى وقلنا ما أنزل الله شيئا مما تدعونه أيها الرسل ، ثم ذهبنا فى الجحود والعناد والجراة على الله كل مذهب ، فقلنا للرسل (**ان أنتم**) اى ما أنتم معشر الرسل الا بعيدون عن الحق والصواب اشد بعد . ثم قال المسئولون لأولئك السائلين مقال النادم الآسف : لو كنا سمعنا كلام الرسل سماع اصغاء وقبول ، وعقلناه عن تفكر وتدبر — لكنا آمنا بهم وبالحق الذى جاءوا به ، وما كنا الآن فى عداد زوار جهنم نقاسى حرها ونصلى سعيرها . ثم قال تعالى فانظر كيف اعترف هؤلاء القوم بذنوبهم فى وقت لاينفعهم فيه الاعتراف . ومن كان هذا شأنه فى العناد ومقاومة الحق لا ينبغى الرأفة به ، ولا العطف عليه ، وانما يحسن تقريعه وتوبيخه والدعاء عليه بالسحق والهلاك . وفى تكرير تلقيبهم بأصحاب السعير من النعى عليهم والهزء بهم ما لا يخفى وقعه وحسن ايراده .

وانما سألهم زبانية جهنم هذا السؤال وهو قولهم لهم (**ألم ياتكم نذير**) مع أنهم ربما كانوا عالمين بما كان منهم فى دار الدنيا — ليكون ذلك أشد نكاية فى تعذيبهم ، واكثر ايلاما لنفوسهم ، فانه لا يرمض قلب المرء شىء مثل أن يقال له فى حين ظهور خطئه ، ومقاساته عاقبة ماجنته يداه : انك انت الجانى على نفسك ، أنت الذى فرطت بما تيسر لك من أسباب النجاة والسعادة فشقيت .

قلما يصف القرآن ما أعده الله للمكذبين فى الدار الآخرة من أنواع العذاب الا اعقبه بذكر ما اعده للمؤمنين من منازل الكرامة وصنوف النعيم ، وهذا هو معقد الاتصال بين هذه الآية (**ان الذين يخشون ربهم الخ**) وسابقتها ، على ان لها بها اتصالا آخر ادق والطف : ذلك أن المكذبين لما وردوا جهنم ورأوا ماهالهم أمره من أحوالها ، وسئلوا عن سبب ورودها — أجابوا بأنهم كانوا يكذبون اقوال الرسل ، وينكرون الوحى وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد . وحجتهم فى ذلك أنهم يستبعدون وجود تلك الدار وهم لم يروها ، فمهما وضحت لهم صحة الرسالة وقامت القرائن على صدق الرسول فى دعواه ، اتخذوا عدم رؤيتهم لما بشر وأنذر به من عالم الغيب والنشأة الثانية ذريعة الى تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، وعدم الاعتداد بقوله ، فكان أمر الغيب اكبر عقبة فى طريق ايمانهم . أما أولئك (**الذين يخشون ربهم**) اى يخافون عذابه (**بالغيب**) اى حال كون ذلك العذاب غائبا عنهم ولم يعاينوا منه اثرا — فانهم جديرون بأن تكون (**لهم مغفرة**) وعفو من الله عن ذنوبهم (**واجر كبير**) اى عظيم اذا قيس بلذائذ الدنيا الصغيرة الحقيرة .

بعد أن انذر تعالى المكذبين وبشر المصدقين عاد فنبههم جميعا الى أنه عالم بما يكون منهم من ايمان وكفر ، ولا فرق عنده بين السر والجهر . والخطاب فى قوله : (**وأسروا قولكم**) — وان كان موجها الى

اجهروا بهۦٓ إنهۥ عليم بذات الصدور ﴿١٣﴾ الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿١٤﴾ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقهۦ وإليه النشور ﴿١٥﴾ ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ﴿١٦﴾ أم أمنتم من فى السماء أن

الفريقين المصدقين والمكذبين ـ كان سببه صادرا عن المكذبين وهم المشركون ، فانهم كانوا يوصى بعضهم بعضا بالا يجهروا بما يدور بينهم من الحديث ، لئلا يطلع عليه النبى صلى الله عليه وسلم . و **(ذات)** بمعنى صاحبة للمؤنث كما ان (ذو) بمعنى صاحب المذكر . واذا قال العرب (ذات الخدر) أرادوا المرأة صاحبة الخدر الملازمة له . وكذلك هم يريدون **(بذات الصدور)** الخواطر التى تلازم الصدور فلا تبرحها وتبقى مخفية فيها . و **(من خلق)** يمكن تطبيقه فى الاعراب النحوى على وجهين : اما أن نجعل **(من)** فاعلا ليعلم : كأنه يقول : الا يعلم الخالق؟ ويصح أن يكون مفعولا به ليعلم ويكون فاعله ضميرا راجعا الى الله : كأنه يقول : الايعلم الله تعالى مخلوقاته؟ و **(اللطيف)** فيه معنى الدقة وصغر الحجم (لطف الشىء) صغر ودق حجمه ، فهو لطيف . واذا وصف به ذو العلم والقدرة كان معناه انه مطلع على الأمور الدقيقة التى قلما يفطن لها . والله سبحانه وتعالى لطيف أى أنه عالم بدقائق شئون البشر مطلع على غوامض مصالحهم . وهو يسلك فى تمهيد طريقها بين أيديهم مسلك الرفق والرحمة . ولذلك يقولون : (هو لطيف بعباده ، وان لطفه بعباده عجيب) يريدون عنايته تعالى بكشف الضر عنهم ، وايصال الخير اليهم من حيث يخفى ذلك عليهم ، ولا يقع تحت مشاعرهم .

والآية على وجازة لفظها تتضمن قضايا ونتائج آخذ بعضها برقاب بعض ، فهو تعالى يقول للقوم المخاطبين : انه لا فرق عنده بين أن تسروا حديثكم بينكم أو تجهروا به وتسمعوه للملأ ، لأنه تعالى يعلم خواطر قلوبكم ، ومايدب من الأسرار فى صدوركم ، ولو لم تنوطوا بها أجراس الالفاظ فكيف لا يعلم الألفاظ المهموس بها همسا ؟

ثم انتقل الى الاحتجاج على من عساه ينكر ان يكون الله تعالى عالما بالضمائر ، وخفى السرائر ، فنبهه الى أنه تعالى هو الذى خلق البشر وأوجدهم من العدم ، والخالق يعلم البتة ، كيف لا وعلمه قد نفذ الى أسرار المعلومات ، وتبطن غوامض الأمور ؟. هذا اذا جعلنا **(من خلق)** فاعلا ليعلم . فاذا جعلناه مفعوله كان المعنى : كيف لايعلم تعالى الهواجس التى تحيك فى نفوس البشر وهو الذى خلق هذه النفوس

الشىء ؟

بعد أن ذكر تعالى فى الآية السابقة انه لطيف خبير ذكر هنا مثالا من امثلة ذلك اللطف العجيب ، فهو تعالى خلق البشر ، وعلم دقائق طبائعهم ، وغوامض استعداداتهم ، فأمدهم من صنوف النعم بما يلائم حالهم ، ويسهل عليهم البقاء فى هذه الدار الدنيا . الا يكون هذا الامداد ، وذاك اللطف المشاهدة آثاره بأم العين ـ باعثا على خشية الخالق وتصديق رسله ، والايمان بالغيب الذى أخبر به ؟؟

اصل **(الذلول)** الدابة اللينة السهلة الانقياد . مشتق من الذل بكسر الذال بمعنى اللين ، وهو ضد الصعوبة . والوصف منه ذلول . اما الذل بضم الذال فهو أن يهون أمر الرجل ، ويصغر شأنه بين الناس . وضده العز . والوصف منه ذليل . و **(المناكب)** جمع منكب على وزان مجلس وهو الناحية من كل شىء : فمناكب الأرض اطرافها وجوانبها . ومنكبا الرجل جانباه . والمنكب ايضا فى البعير والانسان اسم للموضع الذى يلتقى فيه عظم عضده بكتفه . وهما منكبان ، فيحتمل أن يكون المراد بمناكب الأرض جبالها وآكامها ، وتكون سميت بذلك لشخوصها وارتفاعها كارتفاع المناكب فى الانسان . وخص الجبال بالذكر فى قوله : **(فامشوا فى مناكبها)** لافادة ان الأرض غاية فى السهولة والانقياد للانسان بحيث يتسنى له الانتفاع بوعورها وحزونها ، فكيف يكون مقدار انتفاعه بسهولها وأريافها المنبسطة ؟ يروى ان بشير ابن كعب العدوى قرأ هذه الآية **(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها)** فقال لجارية له : (ان دريت ما مناكبها فأنت حرة لوجه الله) فقالت : « مناكبها جبالها » فكأنما سفع فى وجهه ، أى كأن لاطما لطمه على وجهه ، خشية ان تكون الجارية اصابت فى تفسير المناكب ، فتعتق عليه ، وتخرج من ملكه ، وهو ضنين بها . فسأل ، فمن قائل عتقت ، ومن قائل لم تعتق . ثم سأل ابا الدرداء الصحابى الجليل رضى الله عنه ، فقال له : « ان الخير فى طمأنينة ، وان الشر فى ريبة ، فدع مايريبك الى ما لا يريبك » . ومعنى هذا ان خيرا للانسان أن يكون فى حالة طمأنينة وهدوء نفس ، وأن شرا له أن يكون حاله على العكس ، وأن الجارية يحتمل ان تكون أصابت وأن تكون أخطأت ، فبقاؤها فى ملك سيدها مدرجة للشيطان بالوسوسة الى نفسه ، فالأحسن له أن يعتقها ثم يتزوجها ان شاء وشاءت هى . و **(النشور)** مصدر نشر الميت ينشر من باب دخل عاش بعد الموت . ومعنى كون النشور الى الله أن البعث ومرجع الانسان فى نشأته الأخرى اليه تعالى ، فليس من يحاسبه على أعماله سواه .

قلنا آنفا ان هذه الآية تتضمن مثالا من امثلة لطفه تعالى بالبشر مذ جعل الأرض صالحة لسكناهم فيها ، على أن الآية ربما كانت مسوقة لتهديد المكذبين وتذكيرهم بأن من يسر لهم اسباب البقاء فى هذه الأرض قادر على سلبهم اياها ، فهو يقول لهم :

احذروا هذا التمادى والتكذيب للرسل ومحاولة اخفاء سرائركم ، واذكروا انه تعالى جعل لكم الأرض سهلة لينة منقادة انقياد الدابة الذلول ، فدعوا اذن العناد والتكذيب جانبا وحافظوا على هذه النعمة ، وامشوا فى الارض مشى المستثمر المستفيد ، وانتفعوا بما هيأه لكم فيها من انواع الرزق واصناف القوت . ثم لا تركنوا الى هذا العيش الهنيء ، فتستسلموا الى اهوائكم ، ووساوس نفوسكم ، بل تيقنوا أنكم سوف ترجعون بعد النشور من قبوركم الى الله ، فيحاسبكم وينتصف منكم .

وانقياد الأرض للانسان ظاهر بالأكثر فى الأمم الحية التى عرفت كيف تنتفع بقوى نفوسها ومدارك عقولها الممنوحة لها من قبل العزة الالهية . فهى لم تدع ضربا من ضروب الانتفاع بهذه الأرض الا تناولته ، ولا طريقا من طرق الاستفادة من خيراتها الا سلكته : حللت العناصر وركبتها . صهرت المعادن وطبعتها . عرفت طباع الحيوانات وسخرتها . فقهت خصائص النباتات واستنبتتها . اكتشفت نواميس المادة واخضعتها . اكتنهت أسرار الكائنات واستخدمتها . غاصت فى أعماق الماء . طارت فى أجواز السماء . اذا اعترضتها شوامخ الجبال نادتها بالبخار من تحتها ، أو توقلت بسلالم سكك الحديد من فوقها . وبالجملة فان فى بلوغ البشر هذه الدرجة من الرقى مصداقا لامتنان البارى تعالى عليهم بجعل الأرض ذلولا لهم يمشون فى مناكبها ، ويأكلون من رزقها ، حتى يأتيهم أليوم المقدور ، ثم الى الله يكون النشور .

وقد يقال فى تصوير كون الأرض ذلولا لنا معشر البشر اننا لعيش محمولين على ظهرها ، وهى تسير بنا الهوينا فى فلكها حول الشمس : لاتبطىء ولاتسرع باكثر مما تستدعيه حال سكانها ، ولاتصادم نجما أو ذنبا لذوات الأذناب السابحة فى الفضاء . فكانت الارض لنا نعمت المطية المدربة ، والذلول المجربة .

لحاق هذه الآية بما قبلها يؤيد ان الأولى واردة مورد التحذير والتهديد كما سبقت الاشارة اليه :

و (**من فى السماء**) هو الله تعالى . ولكن قام البرهان العقلى على أن الاله الأزلى خالق الكل ، وضابط الكل ، لايتصور أن يكون مستقرا فى مكان . فوجب اذن صرف الآية عن ظاهرها ، وحملها على معنى يلتحم مع ما أثبته العقل ، وقام عليه البرهان . والقرآن يفسر بعضه بعضا : فآية (**وهو الله فى السموات وفى الأرض**) تنفى أن تكون ذات الله فى السموات وفى الأرض ، اذ كيف يعقل أن تكون الذات الواحدة فى مكانين فى آن واحد ؟ لاجرم أن يكون المراد بكونه تعالى فى السماء وفى الأرض أن مشيئته وحكمه نافذ فيهما ، وسلطانه وقهره غالب عليهما . والذى يساعد على هذا التأويل ماجرت به عادة البشر حتى الضالين منهم ، فانهم ينتظرون وصول النعم اليهم ، ويحذرون حلول النقم بهم من جانب السماء ، فهى قبلة خوفهم ومحراب رجائهم . وصاروا يفهمون من كون الله فى السماء عند الاطلاق أن السماء مصدر تصرفه ونفوذ مشيئته فى العالم .

وذهب أبو مسلم الأصفهانى (1) الى أن العرب لما كانوا يقرون بوجود الله تعالى ويزعمون أنه فى السماء ـ خوطبوا فى الوحى على حسب اعتقادهم ، فقيل لهم : (**أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ؟**) اى أأمنتم أيها القوم ذاك الاله العظيم الذى تعتقدون أنه موجود فى السماء أن يهلككم ؟ هذا ماقاله أبو مسلم وهو دقيق جدا . وربما ورد فى القرآن امور لم تذكر على جهة التقرير والتشريع وارادة حمل المخاطبين على اعتقادها ، وانما تذكر على سبيل الفرض ، وارخاء العنان لهم فى اعتقادها اعتمادا على نصوص أخر بينت فساد هذا الاعتقاد . وقد قال الامام الشاطبى فى موافقاته : ان القرآن لايذكر أمرا باطلا ما لم ينبه على بطلانه وفساد أمره .

و (**خسف**) المكان خسوفا غاب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا غيبه فيها .

و (**تمور**) تضطرب وتتحرك بشدة حركة أفقية أى يمينا وشمالا وهى أشد حالات الخسف هولا وتخريبا .

وقوله (**أم أمنتم الخ**) اضراب عن التخويف الأول وهو الخسف بهم ، وانتقال الى تخويف أقرب وقوعا، وأكثر حصولا ، وهو ارسال الحاصب ، و (**الحاصب**) ريح شديدة تثير الحصباء وهى الحصى . و (حصبت الرجل) رميته بالحصباء . و (**نذير**) أصله نذيرى بياء المتكلم ، لكنها حذفت ليشابه الوقوف عليها بالسكون خواتيم الآيات المتقدمة عليها والمتأخرة عنها ومعنى (نذيرى) انذارى ، وهو اسم مصدر لأنذر ، أما المصدر فهو الانذار .

ذكرهم تعالى بنعمة صلاحية الأرض لمعيشتهم فيها ، ليبعث هذا التذكير فى نفوسهم فضل خشية، وزيادة اتعاظ . ثم حذرهم عاقبة التمادى فى الجحود ، وأنه ليس من اللائق بهم أن يأمنوا زوال النعم عنهم ، ويذهلوا عن أن الذى أعطاهم هذه النعم وهو الله تعالى قادر على أن يسلبهم اياها . فبعد أن تكون الأرض ذلولا صالحة للانتفاع بها ، تصبح كالفرس الجموح ، أو البعير الصعب ، فلا يعود يمكنهم القرار عليها ، فترجف وتضطرب اضطراب خسف وزلزال وتبتلعهم . ولا ينتهى التنكيل بهم عند هذا الحد ، بل تأخذ بعد ابتلاعهم فى المور والاهتزاز الشديد ، فيكون هذا أدعى لتراكم الأنقاض عليهم ، وصعوبة خلاصهم والخلوص اليهم . وكأن المخاطبين استبعدوا وقوع الخسف بهم لقلة حدوثه ولا سيما فى جزيرة العرب ، فأضرب تعالى عن تهديدهم بالخسف الى تهديدهم بعذاب آخر أقرب حصولا ، وأكثر حدوثا فى جزيرتهم ، وهو ارسال ريح شديدة عليهم تحمل الحصى وصغار الحجارة وتصكهم بها صكا ، فتهلكهم وتستأصل شأفتهم .

ولما كان من المحتمل أن يبقوا على عنادهم واصرارهم بحيث لاتنفعل نفوسهم للتخويف بالخسف والريح الحاصب أيضا ـ سكت عن كل ذلك ، ثم أحالهم

---

(1) المتوفى سنة ٣٢٢ فى تفسيره المسمى (جامع التأويل لمحكم التنزيل) .

يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

على المستقبل ، فانه وحده الحكم فى هذه المسألة . وفيه يتبين أكان انذار الله لهم وتهديده اياهم بالخسف والريح صادقا أو غير صادق . وهـذا مغزى قوله تعالى : **(فستعلمون كيف نذير)** أى سوف يتجلى لكم أيها المكذبون الحق وصدق الانذار ان بقيتم فى عتوكم وبعيد ضلالكم .

مهما ذكر رجال العلم الطبيعى للخسف والزلزال وهبوب الرياح الزعازع عللا وأسبابا ، فان ذلك لا يمنع أن يهلك الله بها أقواما عصوا أمر الله وكذبوا رسله . فاذا هلك قوم بزلزال شديد وكانوا طغـاة فاجرين نقول ان الله أهلكهم بالزلزال لسوء صنيعهم ، وقـد نشأ الزلزال نفسه عن انفجار أبخرة وغازات كانت متجمعة فى تجاويف الأرض ، أو نشأ عن انخساف احدى طبقـات الأرض المكونة من صخور هشـة رخوة ، فتداعت الطبقـات العليا المتراصة فوقها ، فحدث الزلزال ، فتهدمت البيوت وهلك الناس .

ويمكن أن يتصور المرء هذه المسألة تصورا جليا بمـا نورده له من هـذا المثال التاريخى ، وهو أن المنصور العباسى كان نقم من عم له خرج عليه ، وهو عبـد الله بن على ، وأراد أن يقتله غيلة لا كفاحا ، خشية غضب من شفع به من سائر عمومته ، فبنى له بيتا جعل اساسه من قطع الملح وسـجنه فيه أياما ، ثم سلط المـاء على الملح فذاب وتداعى البناء وانقضت الجدران وخر السقف على الرجل فمات ، وأشاعوا أن موته كان بانهدام السجن عليه . فالذى أهلكه هو المنصور العباسى ، لكنه توسل الى غرضه بسقوط الحجارة الثقيلة عليه ، وتوسل الى سقوطها بانحلال الملح من تحتها ، وتوسـل الى انحلال الملح بتأثير المـاء فيه . فاذا قال قائل أن الرجـل مات لأسباب طبيعيـة حـدثت فى أساس البنـاء يكون صـادقا . واذا قال آخر أن الرجل مات لأنه غاظ المنصور ومرق من طاعته فأهلكه يكون صادقا ايضا ، وهكذا نقول فيما ورد فى القرآن من أن الله تعـالى أهلك الأمم الجاحدة بالريح أو الزلزال أو الطوفان أو انبثاق السد أو غير ذلك . ولله المثل الأعلى .

كان الخطاب فى الآيات السابقة للمشركين أنفسهم من عند قوله **(وأسروا قولكم)** الى قوله **(فستعلمون)** ثم التفت فى هذه الآية : **(ولقد كذب الخ)** الى خطاب النبى صـلى الله عليه وسـلم وتحديثه عن أولئك المشركين الذين كان يخاطبهم وتسليته بأنه سينالهم اذا بغوا على تكذيبهم مانال مكذبى الأمم الذين كانوا قبلهم . و **(نكير)** أصله نكيرى بيـاء المتـكلم لكنهـا حذفت لموافقة رءوس الآيات الأخرى كمـا حذفت من (نذير) . و (النكير) اسم مصدر لتنكر تنكرا . ومعنى تنكر تغير : يقال تنكر الملك لوزيره اذا تغير قلبه عليه ، وتنكر الصديقان اذا نفرا وانتقـلا من حال تسر الى اخرى تسوء ، وتنكر لى فلان لقينى لقـاء بشعا . فمعنى التنكر قريب من معنى الحقد والسخط على شخص بعد الرضى عنه . ومن تسخط عليـه تنتقم منـه ، وتنزل به العقاب . فالتنكر فى جانب الله لا يصح ان يراد منه انفعال النفس ، وانما يراد به لازمه ، وهو الاهلاك وانزال العـذاب ، ومن ثم قال أبو مسلم الأصفهانى : النكير عقاب المنكر . وهكذا يقال فى مكر الله بهم ، وغضب عليهم ، ورضى عنهم ، وضحك اليهم .

يقول تعالى لا تأس يا محمد مما ترى من عقوق قومك وجحودهم وتكذيبهم لك ، فقد كان هذا دأب الأمم الذين قبلهم : كذبوا أنبياءهم ، وتمادوا فى غيهم وعنادهم ، فتنكرت لهم ، وغضبت عليهم ، وانزلت بهم العـذاب . ولا تزال اخبـارهم وهول ما لقـوا متعالمـا متـداولا بينكم . فكيف كان تنكرى لهم ، وتغيرى عليهم ؟ أى فـكيف كان غضـبى عليهم ، واخذى لهم ؟ ألم يكن غضبا شديدا ، واخذا وبيلا ؟

والآية لم تصرح باسم هؤلاء الأقوام الذين اخذهم الله بذنوبهم وجعلهم مثلا وعبرة لمشركى مكة . لكن قوله **(فكيف كان نكير)** يشـعر بان منازل بأولئك الأقوام كان معروفا للمخاطبين ، اذ كيف يسـألهم عن خبر ماحل بهم ، ويطلب منهم المصـادقة على هول ما اصابهم وهم لا يدرون من امرهم شـيئا ؟ فاذا لم نقل فى تعيين أولئك الأقوام الهالكين انهم عاد وثمود انفسـهم نقول انهم من أمم تعرفها العـرب طغوا وبغوا فأخذهم الله بذنوبهم ، واصبحوا عبرة للمعتبرين بهم .

كان المشركون يكذبون النبى صلى الله عليه وسلم ارتيـابا بقوله ، واسـتخفافا بمـا كان يوعدهم به ، فـكانت الآيات تنزل تترى فى الاحتجـاج عليهم ، وتسفيه آرائهم وحضهم على التصديق ، وتخويفهم العذاب ان هم أصروا وكابروا . وكان معظم السبب فى اصرارهم ونكولهم ظنهم أن لا شىء مما أوعدوا به يمكن أن يلحقهم . فاحتج عليهم سبحانه بمـا صـنع بالأمم التى كانت قبلهم وقد كذبت فأهلـكها . ثم أخذ فى هذه الآية **(أو لم يروا الى الطير الخ)** والتى تليها ينبه المشركين الى شمول قدرته ، ويدعوهم الى التفكير فى أنه تعالى قادر على الحاق العذاب بهم ، فان من عجـائب قدرته ما يرونه فى كل وقت وآن من تحليق الطيور فوق رءوسهم ، واستعلائها فى طبقات الهواء ، مع أنها أجسام ضخمة كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمـادة أن تسقط على الأرض . ولكنه تعالى بباهر قدرته ، وعجيب صنعه وحكمته ــ خالف فى أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس اخرى لائقة بها ، بحيث يمكنها معها

أن تستعلي في الهواء من دون أن تسقط . من فعل هذا ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟ ما أمسكها الا الرحمن ، الذي رحم هذه الحيوانات فيسر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان الى مكان ــ ما حفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها .
ولا بدع ، فهو تعالى (**بكل شيء بصير**) ، يعطي كل شيء من خلقه القوى والسنن اللازمة له ، والمتوقف عليها بقاؤه . وقد ذكر علماء هذا العصر أن أكبر طير يعيش اليوم على وجه الأرض يسمى « الكندر » ثقله سبعة عشر رطلا ، والبعد بين جناحيه اذا صفهما أي بسطهما يبلغ عشر أقدام .

والقصد من هذه الآية تنبيه المشركين المكذبين الى عجيب قدرته تعالى ، وأن من له هذا التدبير في تكوين خلقة الطير لا يعجزه أمرهم ، ولا يفوته بلوغ مايريد من انزال العذاب بهم .

بقي هنا شيء : وهو لماذا قال (**صافات ويقبضن**) ولم يقل (صافات قابضات) أو (يصففن ويقبضن) ، أي لماذا عبر عن الصف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

صف الطائر بسط جناحيه في الجو وهو يطير ، وقبضهما اذا ضمهما وضرب جنبيه ، والأصل الذي يساعد الطير على الطيران انما هو الصف وبسط الجناحين ، واذا ضمهما أحيانا عاد فبسطهما للحال ، فهو لا يمكنه أن يبقى قابضا لهما وهو يطير ، بخلاف البسط ، فانه يبقى ملازما له ساعات كثيرة ، فما كان الأصل في الطيران وهو الصف جيء به على صيغة الاسم ، فقيل (صافات) لافادة أن الصف هو شأن الطيور الذي تثبت عليه ، وصيغة اسم الفاعل تفيد الدوام والاستمرار ، ولكنها « أي الطيور » في بعض الأحيان يطرأ عليها وهي طائرة مايدعوها الى قبض جناحيها من حيث أنه يساعدها على البسط والتحريك . فلما كان القبض أمرا طارئا وعارضا في الطيران جيء به في الآية بلفظ الفعل المضارع الذي يفيد التكرر والتجدد ، فقيل (يقبضن) ، ويكون مؤدى المعنى هكذا : ان الطيور صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة . أو يقال : ان النكتة في التعبير عن القبض بالفعل المضارع هي تصوير الحالة لأذهان المخاطبين وزيادة تعجيبهم منها ، فانهم حين نقول لهم انظروا الى الطير صافات يعجبون من أمرها ، ثم يخف العجب حينما يقع في نفوسهم أنها عند بسط أجنحتها يكون قد دعمها الهواء من تحتها كما يدعم الأجسام الرقيقة المنبسطة فيه ، فاذا نبهناهم الى أن الطير قد يقبض جناحيه في أثناء الطيران ولا يقع تكون قد زدنا في عجبهم ، وهجنا من دهشتهم . والفعل المضارع بما فيه من معنى التجدد والحدوث والزمن يساعد على تصوير الحالة واحضارها في ذهن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلك من تفطن لأساليب العرب ، وتأمل في ملاحن كلامهم .

هذا وان طيران الطيور لم يزل من المشكلات التي لم يحلها العلم الحديث على طول باعه في الاكتشافات ، والوقوف على أسرار خلقة الكائنات . وقد عدوا من أبعد الأمور عن التعقل استمرار الطيور طائرة وأجنحتها مصفوفة موازية للأفق وهي لاتتحرك . وأعلن بعض علماء أوربا منذ سنين أنه اكتشف الناموس الذي به يتمكن الطائر من الطيران ، لكنه لم ينشر تفصيل ماعرفه من أمر هذا الناموس . غير أن العلماء اتفقوا على أن السبب في استمرار الطيور طائرة يرجع الى تقعر أجنحتها وتحدبها وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في طيران الانسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكي أجنحة الطيور وأوضاعها .

ربما يخطر في البال بعد طيران الانسان أن طيران الطيور لم يعد محلا للعجب ، ولا دلالة فيه على القدرة التي أراد الله الاحتجاج بها على المشركين ، ولكني أقول ان طيران الانسان قد يكون أكثر دلالة على قدرة الله تعالى من طيران الطير ، ولو كان الانسان قد اهتدى في عصر النبوة الى الطيران لعجب الوحي المشركين من تحليق الطيارة في جو السماء ، كما عجبهم من سير الفلك على وجه الماء ، مذ عده نعمة على البشر ، وآية على قدرة الله . ولعمري انه لا فرق بين طيران الطير وطيران الانسان في أن كلا منهما أثر من آثار قدرة الله ، وعجيب صنعه في خلقه : طار الطائر بقوى ونواميس كامنة في تركيب جسمه وهي من الله ، وطار الانسان بقوى عقله وعمله ودقة ملاحظته ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول الى غرضه ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لاله آخر غير الهنا ، وانما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، آمنا بالله وما أنزل الينا من عند الله .

قوله (**أمن هذا الذي الخ**) مقابل لقوله قبله (**أولم يروا الى الطير فوقهم صافات**) ، كأنه يقول أولم ينظروا الى عجيب صنع الله في خلق الطير فيعرفوا مبلغ قدرته تعالى على انزال العذاب بهم ؟ أم انهم تعاموا عن ذلك اعتدادا بأن لهم من غير الله قوة تحميهم ان أراد اهلاكهم ، وترزقهم ان أمسك الرزق عنهم . فالقوة الحامية لهم في زعمهم هي جندهم وسلاحهم ، والقوة الرازقة هي آلهتهم وأصنامهم ، وهذا هو شأن المشركين في زمن البعثة : كان صلى الله عليه وسلم اذا خوفهم البطشة الكبرى ذكروا له من منعتهم ، ونصرة جندهم . واذا حذرهم القحط وأنه تعالى قادر على أن يحبس عنهم المطر ويمنع وسائل الرزق ــ اظهروا التجلد والاستغناء ، وزعموا أن أصنامهم تمدهم من صنوف الرزق بما شاءوا . فوبخهم الله على الأمرين ، وأبطل لهم كلا الزعمين : فلا الأعوان الذين لديهم بقادرين على أن يحموهم ان أراد هو اهلاكهم ، ولا الأصنام التي يعبدونها بالتي يمكنها أن ترزقهم اذا أراد أمساك الرزق عنهم .

والاشارة الى الجند والأوثان ، بكلمة (**هذا**) الدالة على القرب مما يفيد في هذا المقام تحقير المشار اليهم

ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

وانحطاط شأنهم ، كما أن التعبير بذلك الدال على البعد يفيد التعظيم ورفعة الشأن أحيانا نحو قوله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه) .

والجند العسكر والأعوان : معناه جمع ولفظه مفرد . وقوله فى صفته (**ينصركم**) مراعى فيه جانب اللفظ لا المعنى . وكلمة (**دون**) مقلوبة فى الأصل على (دنو) ومعناه القرب . استعملت فى المكان القريب . ومن كان فى مكان قريب منك كان بالضرورة مغايرا لك . ومن ثم كثر استعمال دون ايضا بمعنى (غير) ، فمعنى من ينصركم (**من دون الرحمن**) من يقدر أن ينصركم نصرا واصلا اليكم من غير الرحمن . ويمكن أن نبقى (دون) على معناها الأصلى وهو المكان القريب ، ويكون حل المعنى هكذا : من يمكنه أن يمدكم بالنصر من مكان قريب من الله ، ولاريب أن كل الأمكنة قريبة منه تعالى : أى انه تعالى عالم بالأمكنة وبمن حل فيها . وليس اقترابه منها كاقتراب بعض الأجسام من بعض ، فكل أحد اذن عاجز عن نصرة المشركين لأن الله ناظر الى من ينصرهم عن كثب متمكن من قهره آخذ بناصيته .

والاستفهام فى قوله (**أمن هذا الخ**) ينتهى عند قوله (**الرحمن**) .

وقوله (**ان الكافرون الا فى غرور**) بمنزلة الجواب لذلك الاستفهام : اى لا جند لهم فى الواقع ونفس الأمر قادر على نصرتهم . فليس الكافرون اذن الا قوما مغرورين مخدوعين ، فتكون (ان) نافية بمعنى ليس ، وكذا يقال فى الاستفهام الآخر أعنى قوله (**أمن هذا الذى يرزقكم**) فانه ينتهى عند قوله (**رزقه**) .

وقوله (**بل لجوا فى عتو ونفور**) قام مقام الجواب : كانه يقول كلا لا احد غير الله يرزقهم . ولم يذعنوا هم لهذا الأمر الجلى بل تمادوا فى تمردهم وكبرهم وما اتى به من القول الصدق .

(**كبه**) على وجهه صرعه وقلبه . والرجل الذى انقلب يقال عنه انه اكب . فالمكب اذن هو الذى يعثر فى مشيه عثار وسقوط من وقت الى آخر ، اما لضعف فى بصره ، او وعورة فى طريقه . وعكسه (**السوى**) وهو الذى يمشى مستوى القامة ، ثابت القدم . و (**أهدى**) أفعل تفضيل أى اشد هداية واقرب وصولا الى حيث يقصد .

والكلام تمثيل لحالة أولئك الذين وصفهم بالعتو والنفور فى الاية السابقة مع مقارنتهم بالمؤمنين الذين اذعنوا للحق : قال من الأولين انهم تمادوا فى تمردهم ونفورهم . والمتمرد اذا نفخ الشيطان فى انفه ضل وعمى عن القصد واعتسف الطريق اعتسافا . وهكذا كان شأن المشركين ، فهم كالماشى المكب الذى يقع على وجهه فى كل خطوة يخطوها . اما المؤمنون فكانوا كالذى يمشى منتصب القامة فى طريق لاحب : لاصخور فيه ولا عواثير . فأى القبيلين اشد هداية ، واقرب وصولا الى الغاية ؟!

اذا كان حال المشركين على ما وصف فى الآية السابقة من ركوب التعاسيف والضلال عن طريق الحق كانوا ملومين اشد اللوم ، وذلك لأنه تعالى خلق لهم الحواس والمشاعر ، ومتعهم بالعقل والمنطق ، ويسر لهم وسائل النجاة ، واسباب الهداية . فلم ينتفعوا بشىء من ذلك ، ولم يشكروا الله على هذه الوسائل والأسباب ، فيستعملوها فيما خلقت لأجله بل ضلوا وحادوا عن طريق الهدى ، الى طريق الردى .

فقوله (**قل**) أى يامحمد فى تبكيت اولئك الذين عتوا وتورطوا فى الضلال : الم تعلموا ان الله الذى يدعوكم للايمان (**هو الذى انشأكم**) خلقكم وجهزكم بأسباب الرشد والهداية من أسماع وأبصار وافئدة اى قلوب . فلم صممتم عن المواعظ ؟ وعميتم عن الآيات ؟ وأعرضتم عن النظر والتفكير ؟ لا جرم أنكم تعلمون أن الله فاعل جميع ذلك ، لكنكم قوم لاتشكرون ، وبنعم الله تكفرون .

والقلة كثيرا ما تستعمل فى كلام العرب ويراد بها عدم الفعل ونفيه من أصله لا انه يقع على وجه الندور . ومثل له الجاحظ فى كتاب الحيوان (جزء ٢ ص ٨٣) بقولك « فلان قليل الحياء » قال : وانت لست تريد أن هناك حياء البتة ، فهم يضعون (القليل) فى موضع (ليس) أى فى موضع النفى ، ومنه الحديث الشريف «كان صلى الله عليه وسلم يقل اللغو » أى انه لا يلغو ابدا .

واراد (**بالأفئدة**) العقول والمدارك ، لأن العرب كما يسمون العضو ذا الشكل الصنوبرى قلبا وفؤادا يسمون العقل اعنى القوة المدركة قلبا وفؤادا ايضا ، تسمية للحال باسم المحل ، ذهابا منهم الى ان العضو المذكور هو مقر العقل والادراك . والوحى يخاطب العرب بما الفوه واعتادوه من أساليب التخاطب بينهم . وهذا كانزال القرآن بأصل اللسان العربى لأجل أن يفهموا ،

ولو انزل أعجميا لكان لهم الحجة . وقد اعترف لهم بذلك القرآن نفسه في قوله تعالى : (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته : أأعجمي وعربي ؟) اى أيكون القرآن بلغة أعجمية ومحمد الذى أنزل عليه ذلك القرآن عربيا ؟ امكن هذا ؟ فانظر كيف أن الله تعالى جعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أعجميا.

وقال صاحب الصحاح في مادة (عبقر) : هو موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنة نسبوا اليه كل شيء تعجبوا منه : ثوب عبقرى وبساط عبقري لما فيه أصباغ ونقوش ، وظلم عبقرى ورجل عبقرى ، ومنه الحديث « فلم أر عبقريا يفرى فريه » ثم خاطبهم الله بما تعارفوا فقال (وعبقرى حسان) .

وقد اشرنا الى هذا أيضا في غير ما موضع من هذا التفسير اهتماما به ، وحرصا على فائدته ، ولكونه يحل مشاكل كثيرة في تفسير معاني الوحى الالهى .

قال المفسر الطبرى في قوله تعالى واصفا حال المعذب المخلد فيجهنم (ثم لايموت فيها ولا يحيى) — : « قيل ذلك لأن العرب كانوا اذا وصفوا الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا (لاهو حي ولا هو ميت) فخاطبهم الله بالذى جرى به ذلك من كلامهم » انتهى قول الطبرى ، وقد عزاه الى طائفة من اهل العلم في تفسير الآية المذكورة . وقال بعض العلماء في قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) : انما نزل هذا في العرب بناء على عادتهم ، وهى أنهم كانوا اذا أخصبوا تحاربوا ، والى هذا يشير قائلهم :

قوم اذا نبت الربيع بأرضهم   نبتت عداوتهم مع البقل

أمر تعالى نبيه في الآية السابقة أن يذكر المشركين بما أنعم عليهم من قوى النفس ، ومشاعر الحس . ثم ارتقى في التذكير الى ماهو الأصل في كل نعمة ، وأساس كل موهبة : أعنى نعمة الخلق والايجاد والتكاثر وتمهيد سبل الاستعمار أمام هؤلاء المخلوقين، فكانوا كثيرين متفرقين في جنبات الأرض .

و (الذرء) الخلق . وهو أيضا التكثير : يقال « ذرا الشيء » اذا كثره . ومنه (الذرية) وقد تركت همزتها ، ومعناها النسل الكثير . على أن الذرء اذا ذكر وأريد به المعنى الأول أعنى الخلق كان مرادا به المعنى الثانى وهو الكثرة أيضا ، فليس معنى **(ذرأكم)** خلقكم فقط ، بل هو أيضا مشوب بمعنى الكثرة ، اى خلقكم وكثركم . ومناط الامتنان على البشر انما هو التكاثر في الخلق لا الخلق المجرد ، لانه تعالى لو خلق البشر جماعات قليلة ، ولم يودع نوعهم قوة النمو والتكاثر المفضى الى الانتشار في جنبات الأرض والى احيائها — لعدت عليهم العوادى : من قحط ووباء وزلزال ، أو طاردتهم الضوارى : من ضبع ونمر وأسد رئبال ، فهلكوا وبادوا . لكنه تعالى خلقهم وجعلهم يتكاثرون ويتوزعون قبائل وشعوبا تتسابق في مضمار الحياة ، وتتبارى في استعمار الارض ، واستدرار خيراتها ، واستدفاع آفاتها . وهذا هو السر في قيام مدنيات الأمم ، وارتقاء عمران العالم .

أما ختم الآية بقوله **(واليه تحشرون)** فذلك لأن السورة كلها انما أنزلت لاثبات الحشر ، وتحقيق يوم الحساب ، وحمل أهل مكة المكذبين على التصديق به .

فقد أشار تعالى في فاتحة هذه السورة الى أنه تعالى خلق موت البشر وحياتهم لأجل أن يختبر امرهم ويعرف المطيع من العاصى منهم . ولا تكون نتيجة ذلك الا اثابة المطيع ومجازاة العاصى في الدار الآخرة ، فأول ماقررته السورة اذن انما هو تنبيه المشركين الى الايمان بتلك الدار . ولما كان القوم مصرين على جحودها واستبعاد حصول العذاب فيها — تضمنت السورة ضروبا من التذكير بنعم الله تعالى على المكذبين، وانواعا من الحجج والبراهين على قدرته ، وأنه تعالى لا يعسر عليه ايجاد دار لتعذيب المجرمين ، والتنكيل بالمكذبين . فكان كلما ذكر شيئا من تلكالنعم ، وعدد طائفة من هذه الحجج — عاد فقرر أمر الآخرة ، أو قبه اليها تنبيها . وهكذا حتى آخر السورة .

وان آيات هذه السورة ، بل آيات سور القرآن بجملتها كشذور الذهب ، وقد ألف بينها بلحام من المناسبات غاية في الدقة واللطف . وأقرب مانستشهد به على ذلك قوله تعالى هنا (واليه تحشرون) ، فان هذه الجملة لحام دقيق يصل بين الآيات . وبيان ذلك أنه تعالى لما أراد ختم السورة حسن أن يأتى على ذكر الموضوع الذى أشار اليه في أولها ، وهو انكار المشركين للبعث والحساب، وأنه لم يبق لهم عذر في النكول والجحود بعد ما مر من آيات الاحتجاج عليهم . فذكر بالموضوع اذ قال : **(ويقولون متى هذا الوعد)** ، لكنه كيف ينتقل اليه مع أن الكلام الذى قبله في صدد بيان قدرة الله على خلق البشر وتسليحهم بقوى المشاعر والحواس ؟ انتقل اليه على هذا الأسلوب : عبر عن الخلق بالذرء ، والذرء كما قلنا آنفا فيه معنى النمو والتكاثر ، ففعل (ذرأكم) يشير الى أن البشر خلقوا متكاثرين ، وانتشروا في جنبات الأرض ، وتفرقوا في أربعة أقطارها . هنا تتساءل النفس: هل في قدرة الله أن يجمع البشر ليوم الحساب وهذا شأنهم من التفرق والانتشار في الأرض ؟ فقال تعالى في جواب هذا السؤال : (واليه تحشرون) فهو قد مهد لذكر الحشر بذكر الذرء ، كما مهد بذكر الحشر لقوله **(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟)** اى ان هؤلاء المكذبين كانوا يسألون سؤال تعنت واستهزاء : متى يقع هذا الحشر والعذاب الذى تعدوننا به أيها المهددون — النبى وصحابته — ان كنتم صادقين في تهديدكم ، وتصدقون الحقيقة في وعدكم لنا ووعيدكم ؟

كان المشركون يسألون النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام عن يوم القيامة الذى كانوا يوعدونهم به . وسؤالهم هذا لم يكن الا سخرية وتهكما . ولكن الله تعالى أمر نبيه في قوله **(قل انما العلم الخ)** أن يجيبهم على سؤالهم ، ويرد عليهم تهكمهم ، بما يفيد الجد في القول ، والاعراض عن اللغو . وان الرد عليهم بهذا الأسلوب لأشد نكاية ،وأبلغ في حملهم على الاصغاء والتدبر .

صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

طلبوا أن يعرفوا الوقت الذى يحاسبون فيه على اعمالهم ، فاجيبوا بانه ليست وظيفة النبى سوى تخويفكم عذابا محقق الوقوع فى ذلك اليوم . واذ كان الأمر محققا كان الواجب عليكم الاذعان والتصديق وترك العناد . اما معرفتكم زمن وقوع العذاب فهذا لا دخل له فى التخويف والانذار . علمك بأن القصاص لابد أن ينالك اذا أذنبت هو الذى يأخذ بحجزتك عن الوقوع فى الذنب ، فاذا تحققت القصاص ، بل اذا ظننته ظنا لاق بك أن ترعوى وتكف . اما تساؤلك عن الوقت الذى يقع فيه القصاص فلا يكون لائقا بك ، بل لايكون من اللازم تعيينه لك ، لأن التعيين لغو ، والسؤال عنه مخرقة أو مشاغبة ، أو خروج عن الصدد كما يقولون . وكان رؤساء المشركين يقصدون من وراء هذه المشاغبات تضليل افكار العامة وضعفاء العقول من اهل مكة ، فيتوهم هؤلاء أن العلم بوقت حلول العذاب شرط للتصديق به ، فلا يعودون يخافون العذاب ، ولا يؤمنون بيوم الحساب . فجاء الوحى رادا عليهم ، مبطلا حجتهم ، مشيرا الى أن التصديق بالعذاب لايتوقف على معرفة الوقت الذى يقع فيه ذلك العذاب .

(ازدلفوا) و (تزلفوا) اقتربوا بعد أن كانوا متباعدين . و (الزلفى) على وزن (حبلى) بمعنى الازدلاف . ومثل الزلفى (**زلفة**) على وزان غرفة . والضمير فى (**رأوه**) يرجع الى اليوم المتحدث عنه . وكان الظاهر أن يضع الوصف موضع المصدر فيقول « فلما رأوه مزدلفا » أى مقتربا منهم ، لا (زلفة) أى اقترابا . نعم هذا هو الأصل فى التعبير ، ولكن العدول الى المصدر كثيرا ما أفاد المبالغة والتأكيد ، فان قولك « زيد عدل » أبلغ وآكد من قولك « زيد عادل » . والتعبير بزلفة فى الآية يفيد اشتداد قرب يوم القيامة ، وانه دان من مواقع أبصارهم .

و (**سىء**) مجهول ساء . والسوء القبح ، يستعمل لازما ومتعديا . مثال اللازم أن يقال « ساء طبعك » و « ساءت أحوال البلاد » أى صارت سيئة قبيحة .

ومثال المتعدى أن تقول « ساءنى سلوكك أن تفعل كذا » و « ساء الناس ظلم حاكمهم » . ويقال فى تحويله سيئوا . واصل الكلام فى الاية هكذا « ساء قرب يوم القيامة وجوههم » ، أى أن قربه ألقى عليها سواد الحزن وآثار الهم والقلق . ومعنى قوله (**سيئت وجوه الذين كفروا**) حصل لها ذلك . وخص الوجوه بالذكر لأن آثار الانفعالات النفسية من حزن وكمد وقلق انما تظهر عليها . والدال فى (**تدعون**) مشددة . من الدعاء بمعنى الطلب والنداء . وقرىء أيضا (تدعون) بتخفيف الدال : أى تطلبون وتسألون : كما يقال « تذكرون وتذكرون » بتخفيف الذال وتشديدها . بقى أن فعل (دعا) بمعنى طلب وسأل يتعدى بنفسه لا بالباء : فيقال « دعا حصول يوم العذاب » ولا يقال « دعا بحصوله » ولكن من الملاحظ انه يقال « أهاب به وهتف به » بمعنى دعاه وناداه لا يشك فى جواز أن يقال « دعا به » اذا ناداه وطلب حضوره . على انه لا مانع من جعل (**تدعون**) المشددة فى الآية من الادعاء الذى اسم مصدره دعوى ، وتعديته بالباء يساعد على ذلك ، كأنه يقول : هذا هو يوم القيامة الذى كنتم أيها المشركون تدعون به ، أى تدعون بطلانه ، وتزعمون أنه لا يأتيكم . فها أنتم أولاء ترونه زلفة أى قريبا منكم .

والأفعال الثلاثة فى هذه الآية وهى (رأوه) و (سيئت) ، و (قيل) ــ قد جاءت بلفظ الماضى مع ان المتبادر فيها ان تكون بلفظ المستقبل . لأن يوم القيامة الذى ستقع فيه هذه الأفعال مستقبل لا ماض ، لكنه عدل بها الى الماضى جريا على أسلوب من أساليب بلاغة اللغة العربية ، وطريق من طرق التأكيد والمبالغة فيها . كأنه تعالى يقول : ان هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضيه ، فأنا اخبر عنها بصيغة الماضى اشارة الى ذلك . ومثل هذا التعبير كثير الوقوع فى القرآن وفى كلام العرب . وقال أبو مسلم : معنى (فلما رأوه زلفة) فمتى رأوه زلفة .

أصل معنى (**أرأيت**) (1) الاستفهام عما اذا كان المخاطب رأى أولم ير ؟ ثم سار يستعمل فى مقام (اخبرنى)

كان النبى صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين من عذاب يوم القيامة ، ويهددهم احيانا بوقوع العذاب عليهم فى دار الدنيا كما وقع بالامم المكذبة قبلهم . فكانوا هم تارة يحاجونه ويستهزئون به ويشاغبونه ، وآونة باللغو واللغط يقاطعونه . أما هو فكان لايثنيه شىء عن النصح لهم ، وتبليغ أمر ربه اليهم . وكان هذا الثبات منه فى دعوتهم يبرمهم ويحرج صدورهم ، فكانوا لايجدون تفريجا لكربتهم سوى الدعاء عليه بالهلاك ، أو ان يقول بعضهم لبعض : اطيلوا بالكم عليه فهو لايلبث ان ينفد عمره ، ويأتيه أجله ، فنستريح منه ومن لجاجته . فالله تعالى فى هذه الآية يشدد عزيمته ، ويلقنه حجته ، ويقول له : قل لأولئك القوم : أخبرونى اذا استجاب الله دعوتكم فى وفى صحابتى فأماتنا او رحمنا فأخر موتنا الى اجل ــ فماذا يفيدكم

(1) فى مثل قوله تعالى (أرأيت ان كذب وتولى) ومثله فى خطاب الجمع هنا (**أرأيتم ان أهلكنى**) .

ينجيكم من العذاب ؟ أو هل ثم من يدخلكم فى جواره فتخلصوا من الهول ومناقشة الحساب ؟

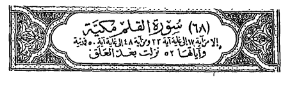
وهذا طريق تان من الطرق التى علمها الله نبيه فى الرد على المشركين الذين كانوا يدعون عليه بالهلاك تارة ، وينتظرون موته نافدى الصبر تارة أخرى . فهو يقول له : قل لهم يا محمد ان هذا الاله الذى ادعوكم الى عبادته والايمان به رحيم بخلقه ، فهو تعالى لم ينزل عليكم الوحى عبثا ، ولم يرسلنى اليكم سدى ، بل فى ذلك كله مصلحة لكم وطريق لخلاصكم ، فكيف يجيب دعوتكم فى ، فيهلكنى أنا ومن معى قبل أن تنفذ مشيئته ، وينتشر دينه ، وتعلو كلمته . ولا سيما انا قد آمنا به تعالى ، فلم نشرك به احدا ، وتوكلنا عليه وحده ، فلم نطلب من غيره معونة ولامددا . فهل اذا كنا كذلك يكون من الرحمة اهلاكنا ، واجابة دعوتكم فينا ، وترك العالم على ما ترون من شيوع الكفر والفساد فيه ؟ .

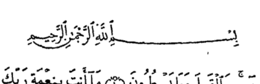
كلا ! لا يتصور أن يهلكنا الله لأجل دعوتكم ، بل هو بالغ أمره فى خلقه . وستعلمون من منا الذى حاد عن طريق الهداية ، وابتعد عن مواقع الحق ابتعادا ظاهرا . وذلك حينما تتم لنا الغلبة عليكم ، وتعلو كلمة الاسلام فى أرضكم .

(غورا) مصدر غار الماء نضب وذهب فى الأرض . وكان الظاهر ان يقول : ان اصبح ماؤكم غائرا ، لكنه وصف بالمصدر للمبالغة كما مر بيانه عند قوله (زلفة) و **(ماء معين)** أى جار على وجه الأرض منظور بالعين ووزنه (مفعول) من عانه اذا نظره بعينه أو (فعيل) من معن الماء فى جريه اذا اطرد وتسلسل ، فكان ذلك أعون على نقائه وطهارته ، وتخليصه من الشوائب .

لم يشأ تعالى أن يختم آيات التهديد والانذار التى خاطب بها المشركين المكذبين بغير كلمة تذكير يستميل بها قلوبهم ، ويستلين عرائكهم ، فهو يمن عليهم بالماء الذى جعله يجرى تحت مواقع أبصارهم ، وعلى مقربة من متناول أيديهم . هذا الماء خرج من تحت الأرض وسال على ظاهرها بمحض قدرة الله ومحكم تدبيره ، فلو أراد الله تعالى أن يغيض ذلك الماء ويذهب فى الأرض بحيث لا يمكنهم أن يتوصلوا اليه ــ فمن يقدر على ايجاد ماء لهم يسقى زروعهم ويطفىء عطشهم ؟ وقد مهد لذكر هذه النعمة بذكر الرحمة والتوكل فى الآية السابقة ، فقد ذكر فيها أنه تعالى رحمن ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته يتوكلون فى أمورهم وسائر تكاليف حياتهم عليه تعالى ، فمن رحمته تسهيل أمر السقيا عليهم بخلق الماء وسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم خروجه وجريانه على وجهها .

وكما أن الماء الذى هو مادة حياة البشر ، مثال من امثلة رحمته تعالى ــ هو أيضا مثال مما يتوكل النبى والصحابة عليه تعالى فى تناوله من مجاريه ، والانتفاع به عن كثب ، فلا جرم أن ينتبه المشركون الى ذلك ، فيتوكلوا على الله تعالى أيضا فى سائر مرافق حياتهم ، كما يتوكل النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، فان ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون .





المراد من **(ن)** أحد حروف الهجاء : افتتح تعالى هذه السورة بحرف النون ثم أقسم بالقلم . كما افتتح سورة أخرى بحرف القاف ثم أقسم بالقرآن مذ قال تعالى :(ق والقرآن المجيد) والدليل على أن المراد بالنون هنا حرف الهجاء المعروف لا مسمى آخر كالحوت أو الدواة ــ كتابتها بصورة الحرف هكذا «ن» وسكون آخرها ، فلم يقل (نونٌ أو نونا أو نونٍ) بالتنوين .

ولو كان المراد بها الحوت أو الدواة ، لكتبت بالحروف هكذا (نون) ولدخلت عليها علامات الاعراب كما دخلت على **(والقلم)** المجرورة بحرف القسم . وحجة من قال : أن المراد بنون فى الآية (الدواة) ــ أن النون ذكر مع القلم والتسطير به ، فمذ أقسم البارى سبحانه بهما أى (بالقلم وبما يسطرون) ناسب أن يقرن بهما ثالثهما الذى هو الدواة . أما النون بمعنى الحوت فيبعد أن يكون مرادا من النون فى الآية ، اذ لا نسب بينه وبين القلم والتسطير ، ولا علاقة له بهما . غير أن المفسر النيسابورى روى عن بعض الثقات أن أصحاب السحر (١) يستخرجون من بعض الحيتان شيئا أسود كالنقس (أى الحبر) أو أشد سوادا منه يكتبون به ، فيمكن أن يكون المراد من (نون) فى الآية ذلك الحبر (٢) الاسود المستخرج من الحوت المذكور (وقيل هو الاخطبوط) وخصه بالذكر من بين سائر أنواع الحبر المعروفة يومئذ لشدة سواده أولا ولمراعاة رءوس الآى ثانيا .

ويقال فى تأويل (نون) ــ مرادا بها حرف الهجاء

---

(١) أراد بهم رجال الصناعة أو علماء الكيمياء كما نسميهم اليوم .

(٢) واذا أريد من (النون) الحبر على تأويل الحوت جاز أن يراد من الحبر الدواة كما ذهب اليه الحسن البصرى . وقد جاء فى تعريفات السيد الجرجانى ما نصه « النون هو العلم الاجمالى يريد به الدواة ، فان الحروف التى هى صور العلم موجودة فى مدادها اجمالا وفى قوله تعالى (ن والقلم) هو العلم الاجمالى فى الحضرة الاحدية ، والقلم حضرة التفصيل » وهذا ما جعل المستشرق كازيمرسكى مترجم القرآن يفسر فى معجمه العربى الفرنسى النون بقوله : (Résumé de toute les sciences) أى خلاصة جميع العلوم . اهـ . المؤلف .

بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾

المعروف ــ ما قيل فى تأويل سائر حروف الهجاء التى افتتحت بها بعض السور ، واحسن الاقوال فيها انه تعالى ذكرها لتنبيه المشركين الى أن القرآن انما الفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم ، أى من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم والتى تتلقنها صبيتهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة فى حروفها ، مباينة للمالوف فى مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا عن الاتيان بمثله ؟ وكاعوا (١) عن تركيب جمل كجمله؟ لا جرم أن يكون تعديد حروف الهجاء على هــــذه الصورة فى فواتح السور من ابلغ الاساليب فى التحدى والمنازلة ، وأعجبها فى التقريع والمعاتبة .

والأصل فى القسم أن يكون لتاكيد الخبر فى نفس المخاطب ، وازالة الريب الذى يوشك أن يكون خامره فى صدق الحالف ، هذا هو الاصل فى القسم ، ولكنه قد يتضمن احيانا تنبيه المخاطبين الى شرف المقسم به ، وما لهم من ضروب النفع فيه ، واكثر ما يكون هذا المعنى فى الأقسام الواردة فى كلام الله تعالى ، ففى سورة العصر حلف بالعصر وهو الوقت تنبيها للبشر الى عظم فائدته ، وانه مما لايحسن التفريط فيــه باضاعته فى البطالة واللهو . ومثل ذلك حلفه تعالى بالقرآن ، والسماء ، والليــــل ، والنهار ، والفجر ، والضحى .

قال استاذنا الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعــالى (والنازعات غرقا) « اذا رجعت الى جميــع ما أقسم الله به وجدته اما شيئا انكره بعض الناس ، أو احتقره لغفلته عن فائدته ، أو ذهل عن موضـــع العبرة فيه ، وعمى عن حكمة الله فى خلقه ، أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق الذى قرر الله شأنه عليه ، فيقسم الله به اما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه فى نفس من يحتقره ، أو تنبيه الشعور الى مافيه عنــد من لايذكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضــــله الوهم ، أو خانه الفهم اهـ » .

أما الحلف بالقلم فهو حلف بأعظم نعمة انعم الله بها على نوع الانسان ، بعد نعمة النطق والبيان : نعمة افراده انواع الشرائع ، وحقائق المعلومات ، فلولا القلم لم يقم دين ولا كان عمران ، واذا اردت أن تقيس حالة جماعات البشر من حيث الرقى فى معارج المدنية فلا مقياس ادق من انتشار فن الكتابة بينهم ، فهو الذى يحدد درجة كل شعب من الحياة الاجتماعية، ويضعه موضعه اللائق به فى مصاف الامم الحية .

وليس المراد من القلم فى الآية الأداة المعروفة من حيث ذاتها ، بل من حيث عملها والأثر الذى ينشــأ عنها ، اعنى نقل الأفكار والمعانى من نفس شخص الى نفس شخص آخر . يدل على هذا قوله تعالى **(وما يسطرون)** بعد قوله **(والقلم)** ؛ كأنه يقول أحلف بالقلم وبالتسطير الذى يفعله الكاتبون . فما فى قوله **(وما يسطرون)** مصدرية . فهو تعالى يحلف بفن الكتابة التى تعددت وسائطها ، فكان منها القلم والات الطباعة وسائر ادوات الكتابة ، كالنساخة المعروفة باسم « تايب رايتر » ، وكل ما يمكن ان يخترعه البشر ويستعملوه فى الوصول الى هذا الغرض . ولا نزاع فى ان هذه المدنية العبقرية والعمران العجيب الذى توصلت اليه الامم فى عصرنا الحاضر ، انما هو نتيجة من نتائج فن الطباعة واستعمال المطابع المدهشة فى سرعتها ، واتقان صنعها .

فانظر الى قوله تعالى (وما يسطرون) ما احسنه ! وما الطف ايراده فى هــذا المقام ! ! وهو فى الحسن يشبه قوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) بعد قوله : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) . فهو تعالى يمن على البشر ان هداهم الى وسائط النقل ؛ فذكر الوسائط الحيوانية المعروفة لديهم فى عهد التنزيل ، ثم اشار الى ان هناك وسائط اخرى يخلقها ولم يعلمها البشر بعد ، فكان من هذه الوسائط السكك الحديدية والاوتوموبيلات وسائر ضروب السيارات ، ولا تنس ادوات النقل التى تسير على وجه المــــاء ، كالسفن والوابورات ، أو تخترق طبقات الهواء ، كالمناطيـــــد والطيارات . وما يدرينا ان سيخلق الله وسائط أخرى للنقل غير ماذكر ، يهدى اليها البشر ، وتكون أعجب من تلك واعجل ، وادق فى الصنع وأمثل .

هذه السورة أنزلت فى مكة . وآياتها الأول من اول ما انزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة (اقرأ باسم ربك) .

لما نزل جبريل على النبى فى غار حراء وقال له : اقرأ ، قال : ماأنا بقارىء ، ثم لقنه سورة (اقرأ باسم ربك الذى خلق) فخف بها الى خديجة رضى الله عنها فأخذته الى ابن عمها ورقة بن نوفل فقص عليه ماجرى له ، وشاع أمر دعواه فى مكة ، وان ورقة قال له : ان هذا الذى كلمك هو النـــاموس الذى كان ينزل على الأنبياء قبلك ، وتمنى ورقة لو يطول عمره فيعزره وينصره ــ لما كان كل ذلك ... أخــذ كفار قريش يقولون انه صلى الله عليه وسلم مجنون ، يريدون بذلك صرف القلوب عنه ، وتزهيد الناس فيه ، فلا يسمعون قوله ، ولا يتدبرون ما أتاهم من عند الله به ،

(١) أى تقهقروا ونكصوا .

بفضل الله عليه .

وقوله (**بنعمة ربك**) مثل (بفضل الله) فيما اذا قلت لآخر أنت بفضل الله غير محتاج الى أحد . والمعنى أن وصف الجنون منتف عنك يامحمد بسبب انعام الله عليك بالأخلاق الحسنة ، ولطفه بك مذ رباك تربية حميدة . وكيف يصح فى العقل أن يكون صلى الله عليه وسلم مجنونا وهو ليوم خروجه من مكة مهاجرا الى المدينة كانت لديه أمانات وودائع لأولئك الذين كانوا يصفونه بالجنون ، وقد خلف سيدنا عليا كرم الله وجهه فى مكة ليؤديها الى أربابها . فهل يكون مجنونا ذاك الذى لم يجدوا من يأتمنونه على ذخائرهم سواه ؟ نفى الله عن نبيه الجنون واثبت له أمرين يستحيل أن يكون معهما مجنونا : احدهما اتصافه بالخلق العظيم والطبع الكريم ، والمجنون لايكون كذلك . وثانيهما الأجر والثواب الذى اعده الله له يوم القيامة، وقال ان ذلك الثواب (**غير ممنون**) اى غير مقطوع ولا منقوص . كما قال تعالى فى محل آخر (عطاء غير مجذوذ) اى غير مقطوع . ومن كان له يوم القيامة اجر على مساعيه وأعماله وتحمله المشاق فى سبيل الدعوة الى الله كيف يكون مجنونا ؟ والثواب انما يعتمد العقل ، لأن الثواب يكون على العمل ، والعمل المثاب عليه يعتمد الارادة والاختيار ، والمجنون لا ارادة له ولا اختيار ، وليس هو بمكلف ليثاب أو يعاقب .

وبالجملة فان دعوى اهل مكة انه صلى الله عليه وسلم مجنون دعوى باطلة لا اساس لها ، ولا حجة تعتمد عليها . وهنا امر جدير بالذكر والتدبر : ذلك انه صلى الله عليه وسلم كان أميا ، لايقرأ ولا يكتب ، وامره فى ذلك متعالم بين قومه مشهور فيهم . ثم لما انزل عليه الوحى كان اول الآيات نزولا عليه آية (اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم) وآية (والقلم وما يسطرون) والآيتان وردتا مورد الامتنان على الامم بما وهبهم الله من نعمة الخط وصناعة القلم ، والشأن فى من لم تكن له تلك الموهبة أن يكون منتقصا بين قومه مفضولا فيهم ، فهل يعقل أن يفترى محمد صلى الله عليه وسلم على الله بادعاء النبوة ثم يفجأ قريشا قبل كل شىء بما ينبههم الى نقص يحسبونه فيه ، وعيب يعدونه عليه ؟ لا جرم أنه صلى الله عليه وسلم مدفوع الى اعلان ما اتى به من الدين والوحى بسائق سماوى لا يقوى على رده ، ولا طاقة له بكتمانه . ثم لايعزب عن فكر الفطن أن جهل الخط والكتابة ان كان نقصا فى غيره صلى الله عليه وسلم فهو فيه محمدة ومزية وآية كبرى على صحة دعواه الرسالة ، كما اشار تعالى الى ذلك بقوله (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) .

قد يلحق قلب النبى صلى الله عليه وسلم شىء من التأثر والوجد على أولئك المكذبين الذين يصفونه بالجنون ، كما يخيل الى هؤلاء المكذبين انهم بهذا البذاء والنيل من الرسول ، قد فازوا عليه ، وكفوا مؤونة الاذعان له ، والاهتمام بأمر دعوته . فقال تعالى مسليا له صلى الله عليه وسلم ومذكرا ، ومهددا

يرى أولئك الذين وصفوك بالجنون — عاقبة أمرك وأمرهم ، وتعلمون جميعا أى الفريقين منكم هو المصاب بالجنون واختبال العقل فى الواقع ونفس الأمر . والعاقبة المنتظرة هى ما يكون للمؤمنين من الفوز والغلبة والفتح ، وما يلحق المشركين من الخذلان والاستسلام . وقد صدق الله وعده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

ومعنى قوله (**بأيكم المفتون ؟**) من منكم هو المجنون ؟ ولكن الوصول الى هذا المعنى يكون بأحد طريقين : اما بجعل الباء صلة زائدة كما هى فى قوله تعالى (وهزى اليك بجذع النخلة) وقول امرىء القيس « هصرت بغصن ذى شماريخ ميال » وقول الأعشى « ضمنت برزق عيالنا أرماحنا » وتكون كلمة المفتون اسم مفعول من فتن اذا أصيب بفتنة أى محنة وبلاء : من ذهاب عقل أو مال أو موت ولد أو حميم . فالمعنى هنا ستروون أيكم الذى فتن وابتلى بالجنون وذهاب العقل . واما بجعل الباء أصلية ومعناها الالصاق ، والمفتون مصدر بمعنى الفتون أى الجنون . وقد ورد المصدر بصيغة اسم المفعول فى ألفاظ قليلة ، كالمعقول والميسور والمجلود بمعنى العقل واليسر والجلادة . أى ستروون بأى الفريقين — منا ومنكم — الجنون ؟

ولما كانت زيادة الباء وورود المصدر بصيغة اسم المفعول أمرين نادرين ، كان القولان المذكوران فى تفسير الآية موضعا للنظر . ومن ثم ذهب آخرون الى جعل الباء أصلية بمعنى فى ، وابقاء المفتون بمعنى اسم المفعول ، ويكون حل المعنى هكذا : ستروون المفتون والممتحن بالجنون فى أى الفريقين ؟ فى فريق المؤمنين أو فى فريق المشركين . ويكون الكلام مبنيا على التعريض بالمشركين بأن المجنون فيهم ، لا يعدوهم الى غيرهم . ووصفه تعالى لهم بالجنون مشاكلة لوصفهم له صلى الله عليه وسلم بذلك ، والا فهم ليسوا مجانين حقيقة ، بل وصفوا به من حيث اعراضهم عن الحق ، واتباعهم الهوى .

وهذه الآية أيضا من قبيل التعريض بالمشركين الذين آذوا النبى صلى الله عليه وسلم ووصفوه بما هو موصوف بضده من كمال العقل وسلامة الشعور ، فلا يمكن لأحد أن يعلم من صفات البشر وأطوار نفوسهم مايعلمه موجدهم الذى خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، فهو تعالى يعلم الذين حادوا عن سبيل رضاه ، كما يعلم الذين سلكوا هذا السبيل وهدوا من صالح أمرهم الى الصراط المستقيم .

ولا ريب أن المكذبين هم الذين حادوا عن سبيل الهدى ، ووقعوا مهاوى الردى ، فما أشبههم أن يكونوا هم المجانين ، لا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم الذى هداه ربه الى حميد الخصال ، وطبعه على مكارم الأخلاق .

مر آنفا أن هذه السورة من أوائل ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من سور القرآن ، وكان صلى الله عليه وسلم اذ ذاك لا ناصر له سوى الله ، ولا مؤنس

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

سوى الحق ، ولامشايع سوى نفسه . وكان المشركون في معظم كثرتهم واوج عزتهم ، وكانوا مع ذلك يتمنون لو يخضع لهم في القول ، ويصانعهم في ترك بعض مايدعوهم اليه ، وعبادة بعض ماكانوا يعبدون من الطواغيت ، وهم في مقابل ذلك يثبتون على مصانعته والادهان له في بعض مايكلفهم اياه ، ويدعوهم اليه . وهكذا يبنون أمرهم معه على مواطأة وطباق ، ويديلون النفاق من الشقاق .

وقوله (**فيدهنون**) مرفوع على الاستئناف ، اى فهم يدهنون له مذ الآن ، وينتظرون منه أن يدهن لهم جزاء ادهانهم . ولو نصب فقيل (فيدهنوا) كان المعنى : ودوا أن يدهن لهم فيكافئوه على ادهانه بادهان مثله . وليس هذا المعنى مرادا في الآية .

وقد كان المتفائلون من المشركين يتوقعون فيه صلى الله عليه وسلم الميل الى هذا الرأى من أمر المداهنة والمصانعة وحل المشكلة بينه وبينهم على هذا الوجه . غير انه خاب ظنهم ، وكذب فالهم ، فان الأمر ليس كما يظنون ، وللانقلابات الدينية الكبرى أسرار لايعلمها الا الله والراسخون . ولكن مايدرينا أن تكون تسويلات المشركين وتمويهاتهم قد ألقت في نفسه صلى الله عليه وسلم بردا من الأمل ، وحببت اليه موافقتهم في بعض العمل ، فجاءت هذه الآيات تذكى نار همته ، وتشحذ من غرار عزيمته ، فذكره الله في فاتحة السورة بما كان يصفه به أولئك المتملقون من الجنون واختلال الشعور ، ثم ذكره ثانية بأن القوم يقولون عنه انه كاذب ، فكيف مع هذا يصح منه أن يطيعهم فيما اقترحوه ، ويطمئن الى وعدهم بأنهم يؤمنون ببعض ماجاءهم به . فهذا الاقتراح منهم ليس سوى مراوغة وخداع ، لا جرم أن يبقى موقف النبي صلى الله عليه وسلم ازاءهم — وهذه حالهم — موقف المتشدد في دعوتهم ، الملح بطلب الايمان منهم . والا فان التساهل معهم يغريهم به ، ويزيدهم جراة في الاقتراح عليه ، وبهذه الصورة يتملصون من الدعوة شيئا فشيئا ، وينفض أشياعه من حوله حالا فحالا ، فلا يعود يستوثق للرسالة أمر ، ولا ترسخ للاسلام قدم .

ومن ثم نهاه الله عن اطاعتهم ، ونبهه الى أنهم ينتظرون منه أن يخون او يتسامح لهم في تبليغ بعض ثم يفسد الأمر عليه أخيرا ، فليكن على حذر من ذلك . وهذا التعليم القرآني من أحسن مايستفاد منه زعماء الأمم حنكة وتيقظا لما عساه يعترض سيرهم من عوائير التعلات والأماني . فالقرآن يرشدهم الى وجوب التنحي عنها وعدم الانخداع بها .

اما قوله تعالى (**تدهن فيدهنون**) فهو من الادهان بمعنى المداهنة المعروفة ، وهى ضرب من الخيانة : قال المبرد : « ادهن الرجل في دينه وداهن في أمره اذا خان فيه واظهر خلاف مايضمر » . اما اشتقاقه فمن الدهن . والدهن البل ، يقال : دهن المطر الأرض اذا بلها بلا يسيرا ، فلما كان الدهن وهو البل يلين الشيء بعد يبسه صح أن تشبه المصانعة ولين القول بالدهن والبل ، فان الدهن يلين اليابس ، والمصانعة تلين نفس من تريد خداعه ، وتكفكف من جماحه ونفوره . وربما كان الادهان والمداهنة من الدهن والدهان بمعنى الصبغ والصباغ ، فان الملاينة وكلمات المصانعة جميلة انيقة في ظاهرها ، ولكن ليس تحتها حب صميم ، ولا اخلاص صحيح ، فهى مثل دهان تصبغ به الشيء وتلون ظاهره بما يجعله مونقا معجبا في باديء النظر ، ثم لايكون كذلك في الواقع ونفس الأمر .

نهى الله نبيه في الآية السابقة عن اطاعة المكذبين فيما اقترحوه عليه من مصانعتهم وملاينتهم ، وان يقبل منهم التصديق ببعض مايدعوهم اليه دون البعض الآخر مما لايوافقهم ، ولا يلائم اذواقهم . وقد ذكر تعالى هؤلاء المكذبين ثمة بعنوان عام . اما في هذه الآية فقد نهى الله نبيه عن اطاعة واحد منهم بعينه تجمعت فيه خصال عشر غاية في القبح والبشاعة ، معرضا بذلك الشخص تعريضا ، مدخلا له في كل من كان مثله في استجماع الخصال المذكورة . ولما كان من المستبعد أن تجتمع هذه الخصال جميعها في أشخاص كثيرين فان الذهن ينتبه بالضرورة الى أن المقصود واحد بعينه اتفق اتصافه بتلك الخصال وان كانت قضيته مسورة بالسور الكلى ، اعنى كلمة (كل) في قوله (**كل حلاف**) .

وان ايراد الكلام على هذا الأسلوب ، وافراغ التعريض في هذا القالب لهو من الحسن والوصول الى الغرض بمكان .

وقد اختلف المفسرون في الشخص الذى اريد التعريض به ، والأكثرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي(1) .

كان هذا الرجل من رجالات قريش وسادتهم ، وكان في سعة من المال وكثرة من الولد ، وكان يقول لاولاده وابناء عشيرته ، كلما آنس منهم ميلا الى النبي : « لئن تبع دين محمد منكم أحد لا انفعه بشيء ابدا » فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الايمان به صلى الله عليه وسلم .

---

(1) وسيأتى في سورة المدثر آيات في صفات الوليد هذا ، اولها . « ذرنى ومن خلقت وحيدا » . فالمراد بالمخلوق فيها الوليد بن المغيرة نفسه . المؤلف

من النبى أن يتنازل لهم عن بعض مايكلفهم من امور الدين ، فحذر الله نبيه الوقوع فى أشراكهم عامة ، وأشراك الوليد خاصة ، لأن ما فى الوليد من الأخلاق والأطوار مظنة أن يؤثر فى نفسه صلى الله عليه وسلم انخداعا أو مصانعة ، ولذلك أسهب الوحى فى التعريف بالوليد ، ووصف أحواله ، وتصوير مستبشع خصاله بحيث أبرزه للعيان لؤما مجسما ، وشيطانا باللعنات مسوما . تلك الخصال أو اللعنات العشر :

١ ـ كثرة الحلف بالله تعالى . وسيأتى من جملة خصاله الغيبة والنميمة ، فيبعد الا يكون متصفا بالكذب ، والكذب اخوهما الشقيق . فوصف الله الوليد بأنه **(حلاف)** قد يكون المراد منه أنه كذاب ، وانه من الكذب فى اقبح حالاته ، فهو يكذب ويدعم كذبه بالحلف بالله ، ويروج باطله بذكر اسمه تعالى ، وهو استخفاف منه بمقام الألوهية ، وجهل بعظمة الله تعالى ومايجب لاسمه الكريم من التوقير والتعظيم ، ولا يكثر الحلف عادة الا من عرف أن الناس لايصدقونه فيما يقول ، فهو يحلف لهم ليصدقوه . فكثرة الحلف مظنة الكذب . قال الشاعر :

واكذب ما يكون ابو المثنى اذا آلى يمينا بالطلاق

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون اولادهم اذا سمعوهم يحلفون تعويدا لهم وتقويما لأخلاقهم .

٢ ـ ومن صفات الوليد أنه **(مهين)** والمهانة الحقارة ، وليست حقارته فى نفسه وانحطاط شأنه فى قومه ، وانما هى حقارة الرأى ، وضعف التمييز ، وقلة التدبر فى عواقب الأمور . ولو كان جيد الرأى ، وافر التدبر ما آل أمره الى الجحود والكفر ، أو ما كان كاذبا ، ثم يقيم دليلا على كذبه كثرة حلفه ، واستخفافه باسم ربه .

وانما قلنا ان المراد من المهانة مهانة الرأى لا مهانة الشأن والمكانة ، لأن من جملة خصال الوليد الآتى ذكرها أنه يكثر الوقيعة فى الناس ويظلمهم ، ويعاملهم بالقسوة والعنف ، وانه كثير المال والولد ، ومن كان هذا شأنه كان مهيبا مرعى الجانب موفور الحرمة فى قومه ، لا محقرا وضيع القدر فيهم . وقد يقال ان الظالم العاتى كثير المال والولد يكون رفيع المنزلة عظيم الخطر فى نفوس الجهال والعامة ، أما عند أرباب الفضل والعقل والدين ، فمنزلته منحطة ، وقدره مهين ، فلا جرم أن يكون الوليد مهينا بهذا المعنى ايضا .

٣ ـ ومن خصاله العشر انه **(هماز)** ، والهمز فى اللغة النخس ، ومنه المهماز للدابة . وهو ايضا الضرب والعض والضغط . قالوا لأعرابى « أتهمز الفأرة » يريدون اتنطق بها مهموزة ؟ فحسبهم يقولون : أتعضها وتضغط عليها ؟ فأجابهم : « الهر يهمزها » . ثم استعمل الهمز فى الطعن فى الناس والغض منهم ، وذكرهم بالمكروه ، وهو اللمز ايضا : يقال هو « همزة

امرهم كثيرة متشعبة : يهمزهم الهماز لحين العداوة وثورة الحقد ، أو وقت الهزل والسخرية ، يهمزهم فى دينهم واخلاقهم ، أو فى هيئاتهم ومختلف اطوارهم ، يهمزهم فى حضورهم ، أو وقت غيابهم ، يهمزهم بلسانه ، أو يشير اليهم برأسه أو عينه وبنانه ، كل هذا يدخل تحت الهمز ، ويقال لفاعله انه هماز .
وقد روى أن الوليد المذكور من أكبر الهمازين ، فقد كان يهمز النبى صلى الله عليه وسلم ويذكره بالسوء فى غيبته ، ويطعن عليه فى حضوره ، وكان يلقب الناس بألقاب السوء كما يفعل السفهاء والتحوت (١) .

٤ ـ ومن خصال الوليد ايضا أنه **(مشاء بنميم)** ، أى يمشى بين الناس بالنميمة ، فينقل حديث بعضهم الى بعض بقصد افساد ذات بينهم ، واثارة الأحقاد والعداوات فى صدورهم .

٥ ـ ومن خصاله الملعونة انه **(مناع للخير)** ، أى يحول بين الناس وبين فعل مايريدونه من عمل الخير ، والمراد من الخير كل عمل صالح : ايمان بالله ، أو اسداء صنيعة ، أو انفاق فى وجه من وجوه البر (١) .
وقد يكون المراد بالخير الذى يمنعه الوليد ايمان بنيه وبنى عمه وعشيرته ، فقد ذكرنا آنفا أنه كان يقول لهم : « لئن تبع دين محمد منكم أحد لا انفعه بشىء أبدا » .

٦ ـ ومن خصاله أنه **(معتد)** ، أى يتعدى حدود العدل والانصاف فى معاملة الناس ، فيظلمهم ويجور عليهم ، ويهضم حقوقهم .

٧ ـ ومن أوصافه انه **(أثيم)** ، أى كثير الاثم ، والاثم الذنب وأن يعمل المرء ما لا يحل عمله .

٨ ـ ومن ذميم أوصافه ايضا أنه **(عتل)** ، والعتل بضم العين والتاء وتشديد اللام الأكول الشروب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة ، وقيل هو الأكول المنوع ، وقيل هو الجافى الغليظ . أو يقال هو الضخم فى جسمه ، والشره فى اكله ، الفظ فى طبعه ، اللئيم فى نفسه ، السيىء فى معاملته ، وبالجملة هو الذى لايطاق ولا يحتمل ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه : « العتل كل رغيب الجوف ، وثيق الخلق ، اكول شروب ، جموع للمال ، منوع له » اهـ . ورغيب الجوف : واسعه .
وربما كانت كلمة (العتل) اجمع كلمات اللغة العربية لمساوى الاخلاق ، حتى أن اللؤم نفسه أصبح معنى من معانيها ، ولطخة من مخازيها .

٩ ـ ومن خصال الوليد **(بعد ذلك)** أى وراء كل ماتقدم من خصاله القبيحة أنه **(زنيم)** و (الزنيم) هو الذى يندس فى القوم ويستلحق بهم فى النسب ولا يكون منهم ، فهو معلق بهم كالزنمة فى عنق العنز ، والزنمة هنة تنتأ فى جلد العنز وتتدلى من عنقها كالقرط ، وهو خلقى فيها ، أما هو فى الضائنة والناقة فليس خلقيا ، وانما هو فيهما أن تقطع من أذنيهما جليدة فتترك معلقة لتكون علامة تميز بها النعجة الكريمة أو الناقة الكريمة عن سائر النعاج والنياق .

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟

وقد ذكروا أن الوليد لم يكن ذا نسب صحيح في قريش ، وانما استلحقه أبوه بعدمضي ثماني عشرة سنة من عمره ، فهو اذن زنيم دعي ملصق . ومن معاني (الزنيم) الرجل الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره ، فهو ممتاز فيهم بصفاته هذه كما تمتاز الشاة عن بقية أخواتها بزنمتها المتدلية في أذنها ، فمعنى كون الوليد زنيما على هذا أنه مشهور في قومه باللؤم والشر . وربما كان تفسير كلمة زنيم في القرآن بهذا المعنى أشبه به ، وانزه له .

١٠ ــ بقي من خصال الوليد الخصلة العاشرة ، وهي استخفافه بآيات الله ، وتسميته لها (**أساطير الأولين**) ، أي أكاذيب يتداولها الناس بينهم من أخبار الأقدمين ، ليست صحيحة ولا تحدث في النفس أثرا ، وانما تقال تفكهة وتسلية . وقد كان الوليد بن المغيرة كلما تليت عليه آيات القرآن رجاء النظر فيها والايمان بها ــ سخر منها وقال : انها (أساطير الأولين) .

وقوله تعالى : (**أن كان ذا مال وبنين**) علة لما قاله الوليد ، أي انما قال الوليد هذا القول المنكر في القرآن لفرط غروره بأمواله وأولاده ، فان المتقوي بماله ورهطه يطغى ويبغي ، ويتجاوز الحدود في الكفر والجحود ، وهكذا كان شأن الوليد .

ويحتمل أن يكون المعنى على العتاب المشوب بشيء من التوبيخ والتقريع ، كأنه تعالى يقول : أمن أجل أن كان الوليد منعما عليه من قبلنا بالمال والبنين أخذ يفتري على آياتنا كلما تليت عليه ويقول عنها انها أساطير الأولين ؟ أهذا جزاء الاحسان ؟

واظلم خلق الله من بات حاسدا
لمن بات في نعمائه يتقلب

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (ان كان ذا مال وبنين) متعلقا بما قبله ، وهو قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف) الخ وليس متعلقا بما بعده وهو قوله تعالى : (اذا تتلى عليه آياتنا قال) . وحل الآية على تعلقه بما قبله : لا تطع يا محمد من كان متصفا بهذه الأخلاق الرذلة ، مراعاة لكثرة ماله ،وتعدد ولده ، فان اتصافه بما ذكر من الأخلاق يستدعي النفرة منه ، والزراية عليه ، مهما أوتي من المال والولد ، لا المراعاة له ، والمجاملة الى حد الاطاعة .

وبعد أن عدد الوحي مثالب هذا الجاحد المعاند على الخرطوم) .

(الوسم) هو أن تضع علامة على الشيء تميزه بها عن غيره ، و (الخرطوم) الهنة المستطيلة في موضع الأنف من الفيل ، وتقوم له مقام اليد يتناول بها حاجاته . ويطلق الخرطوم أيضا على مقدم أنف الخنزير ، وربما كان استعمال الخرطوم في الآية بمعنى الأنف منقولا عن المعنى الثاني أعني خرطوم الخنزير ، تحقيرا لذلك الجاحد وتهكما به ، كما تهكم هو بآيات الله مذ وسمها بأساطير الأولين . (والوسم) على الخرطوم كناية عن الاذلال والخذل . قال المتلمس وهو من أقدم شعراء الجاهلية :

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي
جعلت لهم فوق العرانين ميسما

أي أذللتهم وقهرتهم . وانما خصوا الأنف بالذكر دون سائر الأعضاء لكونه موضع ظهور أثر العزة والحمية والشمم ، فاذا أرادوا أن يصفوا انسانا بذلك قالوا : « فلان شامخ العرنين » ، « وحمي أنف فلان » أي غضب وتعزز . واشتقوا من الأنف (الأنفة) بمعنى العزة والاستنكاف . واذا أرادوا أن يصفوا أحدا بالذلة والمهانة عكسوا وقالوا : « فعلت ذلك على الرغم من أنفه » أي قهرا عنه . و « ارغم فلان أنف فلان » أذله وقهره . وأصل معناه أن يلصقه بالرغام وهو التراب و « جدع أنف فلان » دعاء عليه أو اخبار عنه بالذلة والمهانة . والجدع القطع . ويقولون « فلان وسم فلانا ميسم سوء » اذا سبه مسبة قبيحة باقية بحيث تلصق به ، وتصبح كالسمة له .

ومعنى الآية أن الوليد بن المغيرة بما كان منه من التكذيب وايذاء النبي صلى الله عليه وسلم ، والتمادي في قبيح الخصال ــ استحق أن نسمه على خرطومه أي نلحق به ذلا وعارا يلزمه لزوم السمة في خرطوم الخنزير ، ويجعله مذكورا بهذا الوصف القبيح على ألسنة الأنام ، مدى السنين والأعوام .

وقد تحقق قول الله ، ونفذت مشيئته في الوليد ، فان اسمه سيبقى مقرونا بالخزي والعار على كر الأيام والسنين ، وما تليت تلك الآيات التي سماها أساطير الأولين .

ومغزى الآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمله على اليأس من ايمان هؤلاء المكذبين لا سيما الوليد ، وتنبيهه صلى الله عليه وسلم الى أن من كان كالوليد في قبيح خصاله ، وسيىء فعاله ــ يصبح من المعذر انتظار الايمان منه ، ورجاء الخير فيه . فلا تشغل قلبك أيها الرسول الكريم بمثله ، واتكل على معونة الله وفضله .

الضمير في (بلوناهم) يرجع الى أهل مكة الذين سماهم الله المكذبين في قوله (فلا تطع المكذبين) وذكر من أوصاف أحدهم وهو الوليد ماذكر ، ومن أوصافه المقوتة أنه كان يسمي آيات الله (أساطير الأولين) كبرا وعتوا واعتدادا بكثرة ماله وولده . والمال والولد نعم أنعم الله بها عليه ، وكان من حقها أن تورث نفسه

اخباتا وخضوعا ، وتقوده الى الاسلام بزمام الشكر ومعرفة الجميل ، لكنها على العكس كانت سبب كفره وجحوده ، وتماديه فى غيه وضلاله .

الوليد بن المغيرة وأمثاله من سادات مكة الذين أنعم الله عليهم بالنعم المختلفة فقابلوها بالجحود والكفران ، وبادروا نبيه بالتكذيب والاستخفاف والعصيان ، حتى كان هذا منهم سببا لسلخ النعم عنهم ، وانزال النقم بهم – يشبه حالهم حال أصحاب الجنة ، ويصح أن يضرب غرور أصحاب الجنة مثلا لهم . والمراد من الجنة هنا معناها اللغوى ، وهو الأصل فيها ، أعنى البستان كثير الزروع والأثمار والأغصان الملتفة . والناس فى زماننا اذا أرادوا هذا المعنى سموه بستانا أو جنينة ، ويخصون الجنة بفراديس النعيم الأخروى ، وهى أكثر ما تطلق على ذلك فى نصوص الدين .

وتعريف الجنة واضافة الأصحاب اليها يشعر بأنها وأصحابها معهودة للمخاطبين ، وأن حكايتها وحكايتهم مستفيضة فيهم .

ولما أراد الله أن يذكر أهل مكة بما كان من اسباغه النعم عليهم ، وما كان منهم من التكذيب فى مقابل هذه النعم ثم زوالها عنهم – ضرب لهم مثلا قصة أصحاب البستان المتداولة بينهم فى ذلك العصر ، ليكون ذكرها أتم فى التصوير ، وأبلغ فى التذكير والتأثير . وسواء أكانت قصة أصحاب الجنة مما حدث فى زمن العرب أم فى زمن غيرهم من أهل الكتاب ، فذلك ما لا تهم معرفته مادام القصد من سرد القصة مغزاها وأحداث الوعظ والتذكير بها . على أن بعض المفسرين روى ان أصحاب الجنة هؤلاء كانوا أناسا من الحبشة من أهل الكتاب ، وكان أبوهم شيخا صالحا ، وله جنة فيها نخل وزروع ، فكان يمسك قوت سنته ، ويطعم منها المساكين ويتصدق بالفضل ، فكان بنوه ينهونه عن ذلك فلا يلتفت اليهم . فلما مات قالوا : والله أن كان أبونا لأحمق حين يطعم المساكين ، وان لنا عيالا كثيرين ، والمال قليل ، فلو فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا العيش . ثم كان منهم ما قصه الوحى علينا فى هذه الآيات مذ قال **(انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة)** .

والبلاء والابتلاء الاختبار والامتحان ، فاذا نسب الى غير الله تعالى كان المراد أن يعرف المبتلى (بكسر اللام) ما جهل من امر المبتلى (بفتح اللام) ، واذا نسب الى الله كان المراد كشف الأمر واظهاره للذين يجهلونه ويمارون فيه .

وابتلاء الله البشر قد يكون باغداق النعم عليهم ، فيكفرون أو يشكرون . وقد يكون بانزال المصائب بهم ، فيجزعون أو يصبرون . ويسمى هذا الابتلاء أيضا امتحانا وفتنة ، ويسمى فى الأسفار المقدسة تجربة وتجارب . وقد ورد فى أدعية تلك الأسفار خطابا لله تعالى « لا تدخلنا فى تجربة » . ومن استعمال الفتنة فى القرآن قوله تعالى : (ا لم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) . وابتلاء الله لكفار قريش كابتلائه لأصحاب البستان ، فانه تعالى أغدق على الفريقين صنوف نعمه ، فكفروا بها ، ولم يرعوها حق رعايتها .

قلنا ان أصحاب الجنة قوم كانت لهم أرض ذات نخل وزرع وريع ، فلما حان صرامها (بفتح الصاد وكسرها وقت جنى ثمرها) ، تواطئوا فيما بينهم ، واقسموا الا يصرموا الجنة ولا يجنوا ثمارها ، الا فى صباح اليوم التالى . والكلام فى أسلوبه هذا يشعر بأن قوما آخرين ينازعون أصحاب البستان ، ويريدون أن يشاركوهم فى قطف ثماره وتناول شىء من خيراته ، وبذلك اضطروا أصحابه الى أن يتواصوا هذا التواصى ، ويعقدوا العزم بينهم على الذهاب الى بستانهم فى وقت لا يتيسر لأولئك المنازعين أن يصحبوهم فيه ، وهذا الوقت هو وقت الصباح ، وقت استغراق الناس فى نومهم . ويستدل من قول أصحاب الجنة الآتى : (لايدخلنها اليوم عليكم مسكين) على أن هؤلاء المنازعين الذين يخفى الصرام عنهم ، هم المساكين .

ويفهم من تقاسم أصحاب البستان ، وتعيينهم وقت الصبح لمباشرة عملهم – أن للمساكين شأناخاصا فى ذلك البستان ، والا لم يحتج الامر الى أن يتعاهد أصحابه على صرم أثماره المملوكة لهم خفية ، اذ كيف يسوغ لأحد أن يعارض آخر فى ملكه ، ويحول بينه وبين الانتفاع بثمره – لو لم يكن لذلك المعارض حق أو شبه حق فى هذا الثمر ؟

أما الحق أو شبه الحق الذى كان للمساكين فهو أن صاحب الجنة ومالكها قبل أصحابها هؤلاء ، كان قد جعل فى ثمارها نصيبا مفروضا لأولئك المساكين الذين يعيشون معه فى القرية ، فكان بذلك يكسب ثناءهم ، ويستل سخائمهم ، ويكف يدهم عن العدوان بالسرقة على بستانه وبساتين أهل القرية ، ويكون من جهة ثانية قد قام بالشكر الواجب لله تعالى على ما أنعم من الرزق الطيب والعيش الهنىء . ولا جرم أن يكون هذا الصنيع منه مدعاة المزيد ، ووسيلة الى دوام النعم واستمرارها ، وعدم وجود منغص لها . أما خلفاء هذا المحسن البار على تلك الجنة فانهم لم يطيقوا أن يجعلوا للمساكين حظا فى جنتهم ، ولم يفعلوا ما كان يفعل سلفهم من اعلان وقت الصرام ، ليقبل المساكين ، ويتناولوا حصتهم ، بل رأوا فى ذلك مضيقا لرزقهم ، مقللا من انصبائهم ، وغفلوا عن أن زكاة المال تطهره وتزيده نماء ، وتطيل مدة التمتع به . فهم من أجل ذلك عقدوا النية على حرمان المساكين ، ومنعهم ما كانوا يتبلغون به من ذلك البستان ، ورأوا أن يتوصلوا الى ذلك بمباشرة صرم ثمرات النخيل وقت السحر ، اذ يكون أولئك النفر من المساكين مستغرقين فى نومهم ، مستسلمين الى غفلتهم .

هذا معنى **(اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين)** ، ومعنى قوله تعالى : **(ولا يستثنون)** – أنهم كانوا يحلفون على مباشرة الصرم وحرمان المساكين ، واثقين من مواتاة الأقدار لهم ، غافلين عن قدرة الله تعالى ، فكانوا لايستثنون فى اليمين ، ولا يقولون الا أن يشاء الله . وهذا منهم دليل الغفلة والغرور ، وترك التفكير

مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ

في عجائب المقدور ، والاستثناء في اليمين ان تقول : « لافعلن كذا الا ان يشاء الله » وهو آية من آيات الايمان بالله تعالى ، ودليل الثقة بقدرته وتفويض المشيئة اليه (١) .

لما وطن اصحاب البستان نفوسهم على منع المساكين حقوقهم في ذلك البستان ، واكدوا الايمان فيما بينهم على ذلك غير مستثنين ، ولا حاسبين حسابا للاقدار وتصاريفها وحكمة الله وتعاجيبها — ذهبوا الى مضاجعهم وهم ينوون التبكير الى الجنة ، واذا (**طائف من ربك**) اي بلاء عظيم حصل بمحض قدرة الله من دون دخل للبشر فيه ، طاف عليها ليلا ، وتتبع اشجارها ، فأتلفها واحرق عذوقها ، وافسد اثمارها ، بحيث يحسبها الناظر اليها (**كالصريم**) اي كالبستان الذي صرم اصحابه ثمره ، وقطعوا عذوقه ، ولم يبقوا على شيء منه . وهذا الطائف الذي الم بالجنة ليلا فأتى عليها ، هو من قبيل الآفات السماوية التي تأتي الاغراس والمزروعات في بعض السنين فتتلفها، وتلحق الخسار باصحابها . ولا يلزمنا ان نعين جنس ذلك الطائف ، وانما نقول ان استئصاله لثمار الجنينة وافساده فيها كان بالغا حده بحيث يحكم المتأمل فيه انه حصل بصورة خارقة للعادة من شأنها ان تحدث في النفوس الغافلة الرهبة والازدجار .

ومعنى (طاف عليها طائف) طرقها في الليل من امر الله حادث . ولا يكون الطائف في كلام العرب غالبا الا ليلا كالطارق . ومنه الطائف المس . ومعنى (**الصريم**) المصروم ثمره أي المقطوع المجذوذ . وللصريم معان اخر : منها الليل المظلم البهيم ، والأرض السوداء لاتنبت شيئا ، والقطعة من معظم الرمل ، وكلها تصلح في تفسير الآية . ومن شبهها بالليل جعلها بعد ان احترق نباتها ، وتسودت اوراقها ، وزالت خضرتها — سوداء كالليل البهيم .

لما افاق اصحاب البستان من نومهم جعل بعضهم ينادي بعضا قائلين : هلموا الآن ؛ اي في وقت الصبح الذي لا يبكر في مثله المساكين عادة ، فاذهبوا الى بستانكم ان كنتم تريدون صرم ثماره من دون ان يشهد صرمكم احد من اولئك المساكين .

(والحرث) الزرع ، والمراد به موضع الزرع وهو البستان حيث الأثمار والأعناب ، فهو كقوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم) اي موضع حرث .

(والغدو) يتعدى بالى من حروف الجر . يقال : « غدا الى موضع شغله » ، اي ذهب اليه وقت الغداة . لكنه عداه هنا بعلى مضمنا له معنى اقبل كانه يقول : « اقبلوا على حرثكم » .

وقد وصف في قوله تعالى (**فانطلقوا وهم يتخافتون ...**) حالة خروجهم الى الجنة ، كما وصف في سابقتها حالة نهوضهم من النوم ، اي اتخذوا طريقهم الى الجنة وهم يتكلمون بكلام خافت مهموس لئلا يسمعهم المساكين فيتبعوهم ، يقول بعضهم لبعض : لن ندع احدا من اولئك المساكين يدخل جنتنا ، ويشاركنا في رزقنا ونعمتنا .

وقوله (**وغدوا على حرد قادرين**) اي وظلوا بعد ان قالوا ما قالوا جادين في سيرهم ، حاسبين في نفوسهم انهم قادرون على حرد ، اي منع اولئك المساكين نصيبهم من ثمرات الجنة ، فقوله (على حرد) متعلق بقادرين مقدم عليه . و (قادرين) حال من فاعل (غدوا) لا خبر لغدوا : لأن (غدا) هنا فعل تام بمعنى ذهب وقت الغداة ، لا فعل ناقص بمعنى صار او اصبح .

و (الحرد) له معان كثيرة ، انسبها هنا ماذكرناه ، وهو المنع . يقال : « حرد زيدا » اذا منعه و « حارد فلان » اذا كان يعطي ثم منع . و « حاردت الناقة » منعت لبنها . و « حاردت السنة » منعت مطرها .

ورجح بعضهم ان يكون (الحرد) هنا بمعنى القصد . يقال « حردت حردك » ، اي قصدت قصدك . ومنه قول الشاعر :

اقبل سيل جاء من امر الله يحرد حرد الجنة المغلة

اي يقصد قصد الجنة ذات الغلة ، وجهتها . ويكون الحرد في الآية بمعنى القصد المعزوم عليه في النفس ، فيصير المعنى : ان هؤلاء القوم جاءوا جنتهم غدوة النهار على امر قصدوه واعتمدوه وبيتوه فيما بينهم ، شاعرين من انفسهم القدرة على انفاذه .

والحاصل ان القوم بيتوا النية ليلا على منع المساكين ، وهبوا من نومهم صباحا وهم يتحاضون على الثبات في هذه النية ، ثم ساروا الى الجنة وهم يتهامسون بلزوم انفاذ ما صمموا عليه ، شاعرين

(١) يصح ان يكون المعنى : « ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعل ابوهم » ولعله المتبادر . المصحح

من انفسهم بالقدرة على هـذا الانفاذ . وما علموا ان الله الذى لم يشكروا نعمه ، ولم يرحموا عياله ــ من ورائهم محيط ، وعلى احباط كيدهم قادر .

ان القـوم بقوا مصممين النيـة عـلى الحـرد ، حتى وصلوا الى الجنــة التى طاف عليهـا طائف الآفة السماوية فأحرقها ، وصوح نبتها (**فلما رأوها**) على هذه الحالة عرفوا أنهم كانوا على ضلال من جهتين : من جهة منعهم المساكين حقوقهم ، ومن جهة غفلتهم عن قدرة الله ، وسرعة انتقامه ممن نابذ أوامره الالهية وخالف سننه الكونية .

وبعد أن سجلوا على انفسهم الضلال ، وحكموا عليها بالغفلة ــ ذهبوا فى الحكم عليها الى ابعد من هذا ، فعلموا ان المساكين الذين ارادوا حرمانهم من الرزق ليسوا فى الحقيقة محرومين ما داموا فى رحمة الله ، وتحت كلاءته ، وانما هم المحرومون على مايظهر، لانهم استحقوا مقت الله وغضبه بخروجهم عن سننه، وقسـوة قلوبهم على عباده ، ولذلك أتلف جنتهم ، وأفسد عليهم معيشتهم . ويحتمل أن يكون المراد من حكمهم على أنفسهم بالضلال ، ضـلال الطريق الى جنتهم مـذ رأوها محترقة لا نبت فيهـا ولا ثمر ، ولا أثر من آثار الحيـاة ، مع انهم تركوها بالأمس مثمرة مورقة وارفة الظل ، فحسبوا أنهـا غيرها ، وانهم اخطأوا طريق الوصول اليها . ثم بعـد هنيهة تبين لهم انها هى هى ، فأضربوا عن ظنهم الاول قائلين : (**بل نحن محرومون**) ، أى لم نضل طريق جنتنا ، وانما حرمنا الله اياها بشؤم طالعنا ، وتغير نيتنا .

لما ظهر لاصحاب الجنة خطؤهم ، وأنهم فى ضلال من سعيهم ــ انبرى واحد منهم كان وعظهم من اول الأمر ، ونصح لهم أن يرعووا ويكفوا ويراقبوا الله : فلا يجحدوا فضله ، ولا يكفروا نعمتـه ، ولا يمنعوا المساكين حقهم ، فلم يبالوه ولم يكترثوا له ، فأخذ الآن يذكرهم بما كان من نصيحته لهم ، ويؤنبهم على ما كان منهم من المخالفة والعناد والكفران . وكان هذا الناصح أوسط رفاقه ، أى خيرهم واعدلهم رأيا ، وامثلهم طريقة ، وأسرعهم رجعة الى الله . والوسط من كل شىء خيره واعدله . ومنه قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

(**قال**) لهم (**أوسـطهم : ألم أقل لكم الخ**) اى اتذكرون أننى كنت حذرتكم عاقبة الجحود، وحضضتكم على تسبيح الله ، اى تنزيهه من كل سوء . وتنزيهكم له يكون بالاستثناء ورد المشيئة اليه تعالى ، وأنتم لم تستثنوا مذ عزمتم على صرم جنتكم ، وانما صممتم عليه ، غافلين أو متغافلين عن عجيب قدرة الله تعالى . ويكون التنزيه أيضا بالايمان بالله والخوف من بطشه ، واعتقاد انه تعالى يغار على خلقه الذين هم عياله ، فلا يرضى أن يبخسوا حقوقهم . فأنتم لما لم تؤمنوا به ، ولم تخافوا بطشه ، ولم تحسنوا معاملة خلقه ــ كنتم معتقدين فيه تعالى العجز والضعف والخرق ، فلم تكونوا مسبحين ولا منزهين له عن صفات النقصان . وكان خطيبهم وهو يامرهم بهذا يلح عليهم فى طلب التسبيح ، لانه استعمل كلمه (لولا) وهى مثل (هلا) فى افادة الحض والحث .

ويظهر ان هذا الخطيب لما نصح لهم فلم يقبلوا نصحه ، فضل أن يبقى فى جملتهم ، ومشاركا لهم فى عملهم ، على حد قول دريد بن الصمة :

وهـل أنا الا من غزية ان غـوت
غويت وأن ترشـد غزية أرشـد

وكذلك لما ظهر للقوم خطؤهم فى مخالفة خطيبهم عاتبهم بقوله (**ألم أقل لكم لولا تسبحون**) . فكان هذا القول منه على حد ما قاله دريد أيضا فى عتاب قومه فى القصيدة نفسها :

محضتكمو نصحى بمنعرج اللوى
فلم تستبينوا الامر الا ضحى الغد

وقد يكون للعقـلاء الناصحين مأرب فى بقائهـم مشاركين لقومهم فى عمل مانهوهم عنه ، مثل اجتناب التفرق والانشقاق الذى يعقبه الفشل وطمع العدو ، ومثل ان يأخذ أولئك العقـلاء الناصحون بحجزات قومهم وقت التهور واشتداد الازمات ، ومثـل أن ينبهوهم الى سوء صنيعهم ونتيجة مخالفتهم وقت الوقوع فى الهلكات ، فيكون تذكيرهم لهم اذ ذاك أشد تأثيرا فى نفوسهم ، واعون على تقويم اعوجاجهم ، ولم شعثهم . اعتبر هذا فيما كان من اصحاب البستان اذ (**قالوا**) فى جواب أوسطهم الذى كان نصح لهم : (**سبحان ربنا انا كنا ظالمين**) . فانظر كيف اعترفوا من فورهم بظلمهم للمساكين ، وتركهم رد المشيئة الى الله ، وجأروا بتسبيحه تعالى وتنزيهه ، ولـكن بعد حلول الدبرة ، وخراب البصرة .

ثم بعـد أن اقر القوم بذنوبهم ، ورجعـوا الى الصواب فى تنزيه خالقهم ــ أقبل كل واحد منهم على صاحبه يلومه ، ويزعم أنه هو الذى اغراه بالعصيان ، وحثه على التمادى فى مخالفة الناصح أو عدم الاعتداد بحقوق المساكين ، وترك اطعامهم من جنتهم . فيقول أحدهم : انت أشرت علينـا بهـذا الرأى المعكوس ، ويجيبه الآخر : بل أنت خوفتنا الفقر وعاقبة الانفاق على المعوزين ، ويقول الثالث : أنتم الذين لم تسمعوا قولى ولم تصغوا الى نصحى، وهذا معنى (**يتلاومون**) . ثم أنهم لم يكتفوا باستقباح عملهم ، والوقوف به عند حد الاقرار بالخطأ والتلاوم ، بل جعلوا يدعون على انفسهم بالويل والهلاك ، وصرحوا بأنهم جـديرون بذلك ، لما انهم كانوا (**طاغين**) ، بل متجاوزى الحد فى المخالفة والعصيان ، وهذا هو معنى الطغيان .

وهذا السخط على أنفسهم ، واعلانهم فظـاعة عملهم ، وتصريحهم بأنهم ظلموا وتجاوزوا كل حد ــ انما ارادوا به التوصل الى استنزال عفو الله والتعرض لنفحاته ، وان يعوضهم خيرا مما فقـدوه ، ولذلك نسمعهم يقولون فى ختـام حديثهم (**عسى ربنـا أن يبدلنا خيرا منها**) ، اى نرجو الله ان يعوضنا جنـة تكون خيرا من تلك الجنة التى بارت وتصوحت ، ثم قالوا انهم لا ملجأ لهم ولا مستغاث الا الله ، وهـذا معنى قولهم (**انا الى ربنا راغبون**) ، لأن فعل (رغب)

أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن

اذا تعدى (بفى) كان معناه ارادة الشيء ، والطمع فى الحصول عليه ، واذا عدى (بعن) كان معنـــاه على العكس أى الكراهة للشيء والنفرة منه ، واذا عـــدى (بالى) كان معناه الضراعة والابتهال . وهنا قـــدم الجار والمجرور على الفعل فافاد الحصر . ويكون المعنى اننا مبتهلون ضارعون فى قضاء حاجتنا ، وفى ان يبدلنا خيرا من جنتنا ــ الى ربنـــا لا الى غيره . ويكون هذا منهم منتهى التسبيح والايمان ، بعد ذلك الجحود والكفران . وهل يعتبر قولهم هـــذا توبة نصوحا ينالون بها من الله العفو والصفح والتعويض عن جنتهم ؟ لايعلم كيف كان أمرهم فى ذلك . وقد سئل قتادة عنهم : أمن اهل الجنة هم أم من اهـــل النار ؟ فقال للسائل : « لقد كلفتنى تعبا » يريد ان الأفضل التوقف فى أمرهم . ويمكن أن يقال أن الآية التى ختم الله بها القصة تشعر بالتهديد والوعيد مما يدل على أن فى توبتهم شائبة رياء ونفاق .

فقوله : **(كذلك العذاب)** معناه ان العذاب الذى ترسله فى دار الدنيا على الطاغين المخالفين ، والذى من شانه أن يؤثر فى النفوس ازدجارا واتعـــاظا ــ انمـــا يكون مثل ذلك العذاب الذى نزل بأصحاب الجنـــة فاهلك حرثهم ، وأباد خضراءهم ، ونغص حياتهم . على ان عذاب الآخرة المعد لكل من طغى وبغى اشـــد وأعظم من عذاب الدنيـــا ، فياليت الطاغين ــ ومن جملتهـــم مشركو مكة ــ يعلمـــون ذلك فيزدجـــروا ويتعظوا . وهذا معنى قوله : **(ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)** .

ومغزى هـــذه الآية أو القصة التى تضمنتهـــا أن الله تعالى عامل كفار قريش معاملة المبتلى المختبر ، ليظهر خالهم ، ويكشف عن عوارهم . فهو تعالى قد امدهم بالنعم ، ويسر لهم اسباب الخفض والدعـــة وليان العيش ، فطغوا وبغوا وغفلوا عن القيام بواجب الشكر نحو مفيض هـــذه النعم عليهم ، فـــكان ذلك حالتهم حالة اصحاب الجنة حذو القذة بالقذة .

وقد ذكروا ان الوليد بن المغيرة الذى نزلت فيه هذه الآيات كان فى ســـعة من العيش والرزق حتى كانت له البساتين من مكة الى الطائف ، ومن جملتها بستان لاينقطع نفعه شتاء ولا صيفا ، ثم ذهب كل ذلك كأمس الدابر جزاء كفره .

اما البلاء الذى نزل بأهل مكة فهو الجوع والقحط الذى دام فيهم سبع سنين حتى أكلوا العظام والجيف. ومن البلاء أيضا مانزل بهم فى وقعـــة بدر من الأذى والقتل والأسر والتصفيد (وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد) .

(المتقون) هم المـــسلمون الذين اذعنوا لأمر الله ونهيه ، واتقوا عقوبته باجتنـــاب معـــاصيه ، واداء فرائضه . اما فريق **(المجرمين)** فهم الذين خالفوا الفريق الأول ، فلم يذعنوا ، ولم يتقوا ، بل جحدوا وكذبوا ، واستكبروا عن اتباع الرسول وأبوا . وهم الذين سماهم المكذبين ، ونهى نبيـــه عن اطاعتهـــم والخضوع لما داوروه عليه من ادهانهم ومصـــانعتهم .

هؤلاء المجرمون المكذبون من صناديد قريش كانوا يسلكون فى مقاومة البعثة وافساد الأمر على المسلمين كل طريق : طورا بالشدة ، وطورا باللين . تارة بالجد والتحكم ، وتارة بالهزل والتهكم . من ذلك قولهـــم للمسلمين : ان صـــح اننا نبعث فى دار ثانيـــة كمـــا تقولون ــ فلن تكون حالـــكم وحظـــكم فى تلك الدار باحسن من حالنا واوفر من حظنا فى هذه الدار . فان الذى فضلنا عليكم فى هذه الدنيا ، وجعل حظوظنـــا خيرا من حظوظكم فيها ــ هو الذى بيـــده الأمر فى الآخرة ، فيفعل كذلك او يساوينا بكم على الأقل . يقولون هذا مذ يرون ماهم فيه من البلهنية والغنى وسعة الرزق ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم من القلة والشظف وضيق العيش . وهذا القول منهم بالهزل والمغالطة ، اشبه منه بالجد والمناقضة (اى رد الحجة بالحجة) ، والا فان دار الدنيا ليست دار ثواب وجزاء . وانما هى دار عمل وابتـــلاء . يعرف فيها المطيع المتقى من المجرم الشقى . فمن شـــغله اجرامه عن طاعة الله وممارسة الفضيلة ، والعمـــل الطيب فى هذه الدار ــ فهو محارف محروم فى الدار الآخرة مهما كان مجدودا موسع الرزق فى الدنيـــا . ولا يضر المتقين المطيعين ان يكونوا منقوصى الحظوظ من حطام الدنيا ، لأن تحصيل حطامها يكون باسباب وطرائق كثيرا ماتيسرت للمـــكذبين العاصـــين الذين يمارسونها ، وتعسرت على المتقـــين الطائعين الذين يعرضون عنها . والفوز برضاء الله وحلول دار كرامته فى النشأة الآخرة انما طريقه العمل الصالح وممارسة الفضائل والطاعات فى هـــذه الدار ، ولا يكون بسعة الرزق وكثرة الحطام وكنز النضار .

وهذا معنى قوله تعالى **(ان للمتقين)** الآية ، اى ان للمتقين المسلمين لا لغيرهم من المـــكذبين الجـــاحدين جنات النعيم . تلك الجنات الكاملة فى نعيمهـــا والتى اشرف احوالها ، واكرم صفاتها ، انها عند الله وبالقرب

منه سبحانه . فمهما كان في هذه الجنات الاخروية من صنوف النعيم التي قد تشبه من بعض الوجوه نعيم دنياكم أيها المكذبون ـ فان قربها من الله سبحانه، وكونها في جواره الأقدس ـ يجعلها ممتازة على غيرها، وجديرة بأن تكون للذين اتقوه وأطاعوه وآمنوا برسوله.
فهل يتصور أو يجول في نفس عاقل أن يجعل الله جنات قربه ، ومنازل كرامته ـ للمكذبين الجاحدين ، ويحرم منها المتقين المسلمين ، أو يجعلهم في حظوظها شرعا متساوين ؟ كلا ! ما الله بفاعل ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : **(افنجعل المسلمين كالمجرمين)** ، يعني في الحظ والقسمة والكرامة والقرب منه تعالى .

ثم عاد فأثار خامد العقل في نفوسهم بأسلوب آخر قائلا : **(مالكم كيف تحكمون ؟)** اي اين ذهب بكم ، وكيف ضل ضلالكم حتى حكمتم هذا الحكم الغريب ، فجعلتم الأعداء كالأولياء ، وأحللتم الفجار ، منازل الأبرار .

يظهر من سياق هذه الآيات وتلوين الخطاب في الرد على المجرمين ، وتخطئتهم في زعمهم ـ من ان لهم حظا من جنات النعيم مثل او اوفر من حظ المتقين ـ ان أولئك المجرمين كانوا متشددين في حكمهم ، مصممين في رأيهم ، ولذلك وبخهم الوحي اشد توبيخ، ورد عليهم أبلغ رد .

(تدرسون) من درس الكتاب ، اذا أقبل عليه يقرؤه ويتفهم مافيه . وكان حق همزة **(ان)** في قوله **(ان لكم)** الفتح لكونها واقعة في مفعول تدرسون ، لكنها كسرت لدخول اللام في خبرها . و **(تخيرون)** أصله تتخيرون . من تخير الشيء واختاره بمعنى اخذ خيره وأحسن مافيه ، كما يقال تنخله وانتخله ، بمعنى أخذ منخوله وصفوته .

وقوله : **(ام لكم أيمان علينا)** ، اي أم عندكم الايا وعهود ومواثيق ثابتة علينا ، كنا قدمناها لكم بدخولكم جنات النعيم مع المتقين؟ يقال : «لفلان على يمين بكذا» اذا كنت ضمنته له ، وحلفت له على الوفاء به . وقوله **(بالغة)** اي مغلظة مؤكدة متناهية في الشدة ، او المعنى ان تلك الأيمان تبلغ يوم القيامة كاملة وافرة بحيث يقع البر بها من دون أن يحنث بشيء منها . وجواب هذا القسم المحكي أعني **(أيمان علينا)** هو قوله **(ان لكم لما تحكمون)** ومن ثم كسرت همزة **(ان)** على ان وقوع اللام في خبرها مما يقتضي كسرها أيضا كما قلنا في **(ان)** السابقة .

وقوله **(الى يوم القيامة)** متعلق ببالغة او بالظرف المستقر ، أعني متعلق علينا ، اي أيمان استقرت وثبتت علينا الى يوم القيامة .

و **(زعيم)** بمعنى كفيل . والزعيم عند العرب هو الضامن للشيء المتكفل به ، ويكثر استعماله في الذي يتكلم عن القوم ويحتج لهم ، ويحامي عن حقوقهم ومصالحهم ضامنا لهم النجح والغلبة . يقول تعالى : أعندكم أيها المكذبون الزاعمون ان حظوظكم من دار الكرامة يوم القيامة مثل حظوظ المتقين ان لم تكن اوفر ـ كتاب سماوي أو غير سماوي يطمئن القلب الى صحته ، فانتم تقرءون فيه هذه البشارة ، من ان لكم أن تختاروا من حظوظ دار الآخرة ماتحبون ، وتحلون من بحابحها ومنازل كرامتها حيث تشتهون ؟ وهذا كقوله تعالى : (أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم) ، وكقوله : (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) .

بل اذا لم يكن لديكم مثل هذا الكتاب فهل كنا اقسمنا لكم قسما نحن مطالبون بالوفاء به اليوم ويوم القيامة ، وهو أن يكون لكم حكمكم يومئذ فنعطيكم ما تتمنونه وتحكمون به لأنفسكم من مساهمة المتقين في انصبائهم ، ومزاحمتهم في دار ثوابهم وجزائهم ؟

(سلهم) يامحمد **(أيهم بذلك زعيم)** : من منهم الزعيم والمدرة الذي يمكنه أن يحتج علينا بأنا كنا اقسمنا لهم على تلك المزاعم التي زعموها ، وأعطيناهم العهود والمواثيق على الوفاء بها .

لم يدع الخطاب الالهي لهؤلاء المكذبين الجاحدين دليلا الا نقضه ، ولا متكأ يستندون عليه في مزاعمهم الا قوضه ، فنفى أولا أن يكون لهم دليل عقلي على صحة ماذهبوا اليه ، فقال لهم : **(افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ؟)** . ففي هذا القول رجوع الى العقل وتحكيمه في المسألة ، ولاجرم أن العقل لايحكم بأن المسلم كالمجرم ، وأن العاصي لله بمنزله المطيع له في الثواب والزلفى منه تعالى . ثم نفى الخطاب الالهي أن يكون لهم دليل نقلي بذلك فقال : (أم لكم كتاب فيه تدرسون ، أن لكم فيه لما تخيرون) . والقوم لم يكن أنزل عليهم كتاب يعتقدون صحته ، يبشرهم بأن لهم من منازل الكرامة وبحابح السعادة مااختاروا وأحبوا ، فاذا لم يكن هناك دليل عقلي ولا نقلي بقي الظن في أنه تعالى تألى لهم واقسم ان يعطيهم يوم القيامة مايحكمون ويشاءون . وهذا أيضا لم يقع لأن رب العزة ذاته سبحانه ينفى أن يكون وقع ذلك منه ، واذا كانوا يدعون وقوعه فمن من زعمائهم يجرؤ على اثباته والاحتجاج له ؟

ولم يبق للقوم من عذر سوى قولهم : أن **(لهم شركاء)** يشهدون لهم ، ويذهبون مذهبهم في أن لهم نصيبا مفروضا من جنات النعيم كما للمتقين .

والمراد بهؤلاء الشركاء : اما الأصنام والطواغيت التي يعبدونها من دون الله ، وهذه خشب مسندة لاتنطق ولا تعرف كيف تثبت وجودها ، بل لاتعرف أنها موجودة فضلا عن أن تشهد لغيرها ، واما أن يكون المراد بالشركاء عقلاء البشر ممن درس الحكمة وتلقى تعاليم الأديان القديمة فتتبع آثارها ، واستبطن أسرارها ـ يأتون يشهدون للمشركين من قريش بأنهم ناجون عند الله ، وان لهم حظا من جنات النعيم .

فالله تعالى يقول لأولئك المشركين : ان كان لكم شركاء يشهدون لكم هذه الشهادة فأتوا بهم أن كنتم صادقين في أنهم لديكم . لاجرم أن المشركين لا شهداء لهم من هذا القبيل ، وبذلك تكون قد بطلت حججهم ، وانقطعت معاذيرهم ، وحقت الكلمة عليهم .

(يوم) ظرف متعلق بقوله قبله (فليأتوا بشركائهم) اي اذا كان لدى أولئك المشركين المكذبين شركاء يشهدون لهم بأنهم ممن يدخل جنات النعيم مع المتقين فليأتوا

سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ

بهم فى ذلك اليوم ، وهو يوم كشف الساق ، اى يوم القيامة . وهذا تهكم بالمكذبين واشارة الى ان معاذيرهم وشفعاءهم غير نافعتهم فى ذلك اليوم شيئا .

او أن الكلام لاتعلق له بالاتيان بالشركاء ، وانما هو كلام مستأنف يتهدد الله به المكذبين المجرمين الذين ذكر نموذجا منهم الوليد بن المغيرة ، ووصفه بقوله : (ولا تطع كل حلاف مهين) وذكرنا ثمة ان الوليد كان يقول لبنيه وعشيرته كلما آنس منهم ميلا له صلى الله عليه وسلم وارتياحا الى دعوته : « لئن تبع دين محمد منكم أحد لا انفعه بشىء ابدا » مدلا بثروته وسعة رزقه . فهذا وامثاله يذكرهم الله تعالى بذلك اليوم ، يوم كشف الساق واهواله العظام .

و (كشف الساق) فى كلام العرب يراد به اشتداد الهول وعظم الأمر . والأصل فى ذلك أن المرء اذا نزلت به نازلة ، أو اهتم لمباشرة امر من الأمور والمضى فيه ـ شمر عن ساعديه ، أو ادار ذلاذله (اطراف ثوبه المتدلية) فى وسطه ، ومنه قولهم : « فلان كميش الازار » أى مشمره ، قالوا : وهو مثل فى الجد والمضاء وقوة الارادة . يفعلون ماذكر من التشمير عن السواعد والسوق عند الشروع فى العمل الجد ، ومباشرة مايهم من الأمر ، ولا سيما ما فيه مخاطرة بالنفس ، كمنازلة بطل ، أو مصارعة أسد ، أو اطفاء حريق ، أو انتشال غريق . وقد يفعلونه يوم الخوف والذعر والهزيمة . قال ابن قيس الرقيات يصف شدة :

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى
عن خدام العقيلة العذراء

والخدام بكسر الخاء : الخلاخيل ، واحدها خدمة . فالعذراء انما تكشف عن ساقها فى ذلك الوقت ليكون مساعدا لها على التملص والفرار .

اما المعنى الأول فهو الأعم الأغلب فى استعمالهم ، فيقولون : « قامت الحرب على ساق » أى اشتدت وتعاظمت ، وقال حاتم :

اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها
وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

اى : وأن اشتد هول الحرب شمر لها ، واصطلى نارها . وقال سعد بن مالك جد طرفة بن العبد فى ابياته المشهورة :

والحرب لايبقى لجا حمها اليخيل والمراح
الا الفتى الصبار فى الـ نجدات والفرس الوقاح

الى ان قال :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

فالأصل فى هذا التعبير ـ اعنى كشف الساق مرادا به الشدة والهول ـ أن يكشف عن الساق بالفعل عند الخطب واشتداد النازلة ، ثم كثر واستفاض حتى صار يفهم منه اشتداد الأمر ، واستفحال الخطب ، ولو لم يكن ثمة ساعد ولا ساق ، ولا كشف ولا تشمير .

وكذلك الشأن فى كل ما ذهب مثلا من الجمل والتراكيب ، كقولهم : « فلان يده مغلولة » كناية عن كونه ممسكا شحيحا ، ومنه قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) ، اى لاتمسكها عن الانفاق كل الامساك ، واصله اعتقال اليد بالغل وهو القيد ، فلا تنطلق فى العمل ، ولاتتصرف فى بذل المال ، لكن هذا التركيب (اعنى مغلول اليد) يستعمل فى وصف البخيل ولو كان اقطع لا يد له ، ولا غل يغلها ، ومثل ذلك ماحكى الوحى عن اليهود من قولهم (يد الله مغلولة) اى مقبوضة عن ادرار الرزق عليهم ، وهو كناية عن وصفهم له بالبخل تعالى وتقدس .

وهكذا استعمال (كشف الساق) فى هول يوم القيامة ، يراد به الهول وفظاعة الأمر ، وان لم يكشف عن السوق بالفعل ، فان يوم القيامة ـ وان تكن فيه سوق ـ لا ثياب تلبس ولا ذلاذل تكشف فى ذلك اليوم العصيب ، كما ورد الحديث فى وصفه : « يحشرون حفاة عراة غرلا » .

وانما اطلنا الكلام فى هذا تنبيها الى ان أفضل مايحمل عليه كلام الله المعجز من الأساليب ماعرف عند بلغاء العرب وتداولته السنتهم ، وشاع استعماله بينهم . والعدول عن هذا المعنى الكنائى الى غيره ـ كالقول بأن المعنى : يكشف عن ساق (الرحمن) تعالى وتقدس ، اعتمادا على بعض الآثار الواردة فى ذلك ، او عن ساق (العرش) ، او ساق (ملك مهيب) من الملائكة ـ كل ذلك لا حاجة اليه بعد الشواهد التى ذكرناها من أقوال فصحاء العرب ، ومختلف أساليبهم فى بليغ تراكيبهم ، مما يدل دلالة واضحة على ماقلناه . ويكفى شاهدا نقليا عليه ان ابن عباس كان يقول فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يكشف عن امر عظيم ، الا تسمعون العرب تقول : « وقامت الحرب بنا على ساق » وتقول « كشف هذا الأمر عن ساقه » اذا صار الى شدة .

بقى أن يقال : وما ذلك اليوم الذى يكشف فيه عن ساق وقد خوف الله به المكذبين ؟ أيوم القيامة هو ؟ أم يوم من ايام الدنيا ؟ والمتبادر من الكلام والمفهوم من السياق انه يوم القيامة ، وأى يوم يوصف بأنه يكشف فيه عن ساق ، وان ابصار الجاحدين فيه خاشعة ، وترهقهم فيه ذلة ـ غير يوم القيامة ؟؟

وذهب ابو مسلم الأصفهانى مذهبا فى تفسير هذه الآيات لا أراه بالبعيد ، فقد قال : ان ذلك اليوم فى الدنيا ، لأن الله تعالى قال فى وصفه : **(ويدعون الى السجود فلا يستطيعون)** . ويوم القيامة لايدعى فيه

الى عبادة ، ولا يكلف احد سجودا ، فلا جرم ان يكون ذلك اليوم الذى يكشف فيه عن ساق هو أيام العجز والشيخوخة ، أو ساعات النزع والحشرجة التى تلم بأولئك المكذبين على حد قوله تعالى (فلولا اذا بلغت الحلقوم) . هذا ماقاله ابو مسلم .

وحل معنى الآية على قوله هذا : اذكروا ايها المعاندون المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم يوم الهول العظيم الذى ينزل بكم عند آخر يوم من أيام حياتكم : يوم يعول ذووكم ، وتندب نساؤكم ، فيمزقن ثيابهن ، ويقطعن شعورهن ، اذكروا انكم اذا دعيتم فى تلك الساعة الى الايمان بالله والسجود له ، وقد ظهرت لكم امارات القيامة وصدق نبيكم الذى كنتم تكذبون به فى حال صحتكم - فلا تستطيعون السجود ، لما نزل بكم من الموت ، وحل بجسمكم من الوهن والضعف . فى ذلك اليوم تضعف أبصاركم عن الحركة فتخشع ، ويغشى وجوهكم الذل فتسفع . فى ذلك اليوم تتذكرون انكم كنتم تدعون الى السجود وانتم صحيحون قادرون فتأبون وتستكبرون ، فذوقوا اليوم ماكنتم به تكذبون .

فانت ترى أن حل الآيات على هذه الصورة لا مانع منه ، ولا منافى له ، لا من السياق ، ولا من اللحاق .

اما حلها على ان المراد به يوم القيامة ، فالأمر فيه ظاهر ايضا . ويكون المعنى هكذا : على هؤلاء المكذبين ان يذكروا ذلك اليوم العظيم الذى يشتد فيه الكرب ، ويفدح الخطب ، يوم يوبخون على مافرطوا فى جنب الله ، وكذبوا من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لهم : هاكم قد تبين لكم صدق الرسول ، وما دعاكم اليه ، فقوموا فاسجدوا لله ربكم ، ان كنتم فاعلين !! ومن اين لهم الاستطاعة يومئذ على السجود وقد حيل بينهم وبينه بما علموا أن هذا غير نافع فى ذلك اليوم ، ولا الوقت وقته ، وان طلب السجود منهم انما هو طلب توبيخ وتعنيف لا طلب تشريع وتكليف . فتخشع اذ ذاك أبصارهم فلا تعود ترفع ، ويغشى سواد الذل وجوههم بعد أن كانت بوميض العظمة والكبرياء تضىء وتلمع ، ويذكرون انهم **(كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون)** خالون من مثل هذه الموانع التى اعترضتهم يوم القيامة فيستكبرون ، وبكتاب الله يكذبون ، فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ؟

كان صلى الله عليه وسلم يضيق صدره احيانا من عناد المشركين وتكذيبهم له وصدهم الناس عن الدخول فى الاسلام ، كما مر عن الوليد بن المغيرة الذى ذكر التنزيل طرفا من عناده وصده وسوء أخلاقه . وكثيرا ماشغل قلبه الشريف بالفكر فيهم ، والتمنى لو أن الله يكفيه شرهم ، ويكف عنه عاديتهم . فكان الله تعالى يحض نبيه على الصبر والثبات ، ويذكره بما انعم الله به عليه من صنوف النعم وعظيم الآلاء ، ويصف له ماسوف يلاقيه اولئك المشركون من شديد العذاب على تكذيبهم له واعراضهم عن الاسلام ، ويضرب له مثلا اخوانه من الأنبياء والمرسلين وما لاقوا من عناد أممهم ، وكيف كانت العاقبة لهم ، مسليا له ، وملقيا روح الرجاء والأمل فى قلبه الشريف .

ومن ضروب التسلية قوله فى هذه الآية - وكأنه قد آنس منه شيئا من القلق واضطراب القلب بشأن اولئك المكذبين وفرط مقاومتهم له - **(فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث)** .

و (الحديث) القرآن والوحى والآيات التى كان يتلوها صلى الله عليه وسلم على المشركين مذكرا ومحذرا . ومعنى (فذرنى ومن يكذب) دعنى وأياه ، وثق بى ، وفوض امر الانتقام منه الى ، فانى كافيك ذلك ، وقادر عليه ، وعالم بطريق الوصول اليه . فارح نفسك من جهته ، ولا تشغل قلبك به . وفى هذا الأسلوب من تهديد المكذبين وتخويفهم ما فيه .

وكان قائلا يقول : وما انت صانع بهم يارب ، وعلى اى طريقة من طرائق الأخذ والنكال تسير بهم ؟ فقال : **(سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم .. الخ)**

و (الاستدراج) أن تنزل بالمرء درجة فدرجة الى حيث تريد به . فقوله (سنستدرجهم) سننتقل بهم من طور الى طور ، ومن حالة الى حالة يعجبهم ظاهرها ، ثم لايشعرون بما خبىء لهم فى طيها ، حتى يردوا العذاب ، ويتورطوا فى الشقاء .

وقوله **(وأملى لهم)** اى امهلهم وأؤخرهم ، فيكون مشتقا من (الملاوة) وهى البرهة من الدهر ، ويكون المعنى : انى افسح لهم فى أعمارهم ، وانسأ فى آجالهم برهة من الزمن ، ثم انزل بهم انتقامى اخيرا .

ويحتمل ان يكون معنى (املى لهم) ارخى لهم العنان : يسرحون ويمرحون كما يشاءون ، ثم لايشعرون بأنفسهم الا وهم فى العذاب والبلاء متورطون ، فيكون (املى) على هذا مشتقا من (الملا) وهو المتسع من الأرض . يقال : امليت للبعير اذا وسعت له فى قيده أو زمامه ، وارخيته له بحيث يسهل عليه الرعى أنى شاء .

وكلا التعبيرين (الاستدراج) و(الاملاء) ، تمثيل لتأخير انتقام الله من اولئك المكذبين ، وتمتيعه اياهم بالصحة والبنين والرزق ورغد العيش والوان النعم ، فيشغلهم كل ذلك عن النظر فى آيات الله واتباع الرسول والايمان به . وقد قامت لديهم الأدلة وتكاملت حجج الله على صدقه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم تمادوا فى غفلتهم هذه حاسبين أن تأخير العذاب عنهم ، وانساء حلول البلاء بهم ، لمزية فيهم اقتضت ذلك ، بل ربما ظنوا - كما أشار الله فى الآيات السابقة - أن سيكون لهم يوم القيامة نصيب من بحابح الجنان كما يكون للمسلمين المتقين ، بحجة أن هؤلاء لا يفضلونهم بشىء ، وأنهم هم لو لم يكونوا على خير وزلفى من الله لما متعهم بصنوف النعم ، ورغد العيش ، والمد فى العمر . ويبقون هكذا فى غرورهم ، وغفلتهم عن سنن الله فى خلقه ، ومثلاته فى الأمم قبلهم حتى تنزل بهم أشباه تلك المثلات بغتة وهم لايشعرون ولا ينتظرون ، وهذا معنى قوله (من حيث لايعلمون) .

إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن

وهكذا كان شأن مشركى العرب الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وجحدوا نبوته ، فانهم ما زالوا فى غيهم ، وفرط عنادهم ، حتى نزل بهم البلاء ببدر وبقية المواطن ، ثم كان الفتح وظهور الاسلام .

وقد سمى الله تعالى تأخير العذاب عنهم ، وتمتعهم بالصحة والرزق وطول العمر - وهو فى طى ذلك قد قدر عليهم الشقاء ، وارصد لهم الانتقام - سماه (كيدا) لمشابهته الكيد فى الظاهر ، والا فان الكيد من صفات العاجز الذى يحتال على عدو له قوى لا يقدر على مباداته بالبطش ، ولا مصارحته بالانتقام ، فيظهر له رفقا ، ولين جانب ، وهو فى خلال ذلك ينصب حبائل الشر حتى يقع فيها . هذا هو الكيد ، والله تعالى منزه عنه ، وانما الكلام تمثيل ، وتسمية للشيء باسم ما يشبهه ، وما هو فى صورته .

(المغرم) و (الغرامة) ان يلتزم الانسان أداء ما ليس عليه ، فيعطيه وهو كاره ، (واثقله) حمله شيئا ثقيلا ، والمراد من (الغيب) ما ثبت فى الغيب وقدر فى علم الله ، وقوله (**يكتبون**) أى يكتبون من ذلك المقدر فى الغيب ، وينسخون منه ، ويقرؤه بعضهم على بعض احتجاجا به واستنادا اليه ، و **(أم)** للاضراب والانتقال من حديث الى حديث آخر يجدر بالمخاطب أن يفكر فيه ، ويهتم به اشد من اهتمامه بالحديث الأول ، كأن المحدث يقول : دع هذا الذى حدثتك به واسمع ماهو أعجب ، وأغرب واولى بالاهتمام .

والخطاب الالهى بعد ان هدد المشركين المكذبين ذلك التهديد المخيف مذ قال تعالى : (فذرنى ومن يكذب) أصبح من المحتمل او المنتظر أن يكون قد خامر أولئك المكذبين خوف أو خشية مهدت فى نفوسهم طريقا لقبول الحق ، وموضعا للتأثر بالوعظ والارشاد ، فرجع الوحى الى الانة القول لهم بما يشبه العتاب ، لتحريك عاطفة التناصف فى قلوبهم ، فقال تعالى : (أم تسألهم الخ) اى بل الأعجب من كل ذلك يا محمد أن القوم يأبون قبول ما اتيتهم به من الحق والهداية حتى كأنك تطلب منهم عليهما أجرا يبهظهم ، ويثقل عواتقهم .

ثم عجب من حالهم بأسلوب آخر فقال : (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) ، أى اذا كانوا لم يظنوا أنك تتقاضاهم أجرة باهظة ، فلم يعاندون كل هذا العناد لا اعندهم اطلاع على علم الغيب ، وما أثبت فى اللوح المحفوظ ، فهم ينسخون عنه من ضروب الحجج ما يساعدهم على النجاة والتفلت من التبعة ، ويضمن لهم الفوز ودخول جنات النعيم مع المتقين !!

والى هنا يكون قد انتهى الكلام مع أولئك الجاحدين بما يفحمهم ، ويقطع حجتهم ، ويجعل الحوار معهم ضربا من العبث واللغو ، فلم يبق الا تثبيت قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمله على الصبر والاعتصام بالله فى انجاز وعده ، واتمام امر دعوته ، فلا يمل ولا يضجر ولا يكون منه ما كان من سيدنا يونس النبى عليه الصلاة والسلام . وقد قص الوحى علينا فى هذه السورة موجزا من خبره فقال: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) الاية .

(حكم الله) الذى طلب تعالى من نبيه أن يصبر عليه هو الاملاء للمكذبين وتاخير انزال العقوبة بهم حسبما اشار اليه بقوله (سنستدرجهم) (واملى لهم) . وقيل ان ثقيفا لما آذوه صلى الله عليه وسلم ، وسلطوا عليه عبيدهم واشرارهم ، أراد ان يدعو عليهم ، فانزل الله عليه (**فاصبر لحكم ربك**) اى لاتعجل فى الدعاء على القوم بالعذاب ، واصبر حتى يحين وقته المقدر .

وذهب جمع من المفسرين الى أن (حكم الله) الذى كلف تعالى نبيه (الصبر عليه) ما كان من رماة النبل فى وقعة احد : من مخالفة امره صلى الله عليه وسلم وانكشاف آخرين عنه ، حتى هم من اجله بالدعاء عليهم ، فنهاه ربه قائلا له : (فاصبر لحكم ربك) ، فان مافعلوه حكم قضاه ربك تعالى ، وفى طى فعلهم حكم واسرار ، فاصبر ولا تعجل . غير أن قوله تعالى لنبيه : (**ولا تكن كصاحب الحوت**) وهو يونس النبى عليه السلام ربما ايد القول الأول ، من أن المراد بحكم الرب هو عناد المشركين ، وتكذيبهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتاخير نصرته عليهم . وأن خبر يونس مع قومه ، ومغاضبته بسببهم ، وضيق صدره من عنادهم ، وعدم نزول العذاب بهم - يشبه بعض الشبه أمر نبينا صلى الله عليه وسلم مع قومه . فانهم لجوا فى مقاومته ، واكثروا من مكايدته ، والتهكم بما كان يوعدهم به من العذاب . فكان صلى الله عليه وسلم يرى أحيانا أن قد حان الوقت لحلول عقوبة بهم تفسح الطريق أمام الدعوة وانتشار الاسلام ، وآونة كان يضيق صدره الشريف من تأخر ذلك عنهم ، غير أن الحق تعالى قال له أولا : ذرنى واياهم، وثق بأنى قادر على اهلاكهم ، فارح قلبك من هذا القبيل ، وقال له ثانيا : ان لربك سننا حكيمة لاتتغير فى أمثال هؤلاء الأمم المكذبة ، فاصبر لحكمها يا محمد ولا تعجل ولا تغضب ولا تكن كالنبى يونس . ثم وصف تعالى لنبيه ماوقع ليونس مع قومه قائلا : (**اذ نادى وهو مكظوم**) ، أى لاتكن مثله فى الضجر والمغاضبة وقت أن رفع صوته بالدعاء على قومه ، وهو مغموم مملوء غيظا منهم ، وهذا معنى قوله (مكظوم) ، فانه اسم مفعول من كظم غيظه اذا رده وحبسه ، واصله من كظم السقاء اذا ملأه .

ثم أن الله أخبر بأن يونس (تداركه) فى آخر الأمر **(نعمة من ربه)** ، وهى لطفه به مذ وفقه الى التوبة والانابة ، فعفا عنه ، واستخلصه لنفسه ، وقال : انه لو لم تتداركه تلك النعمة **(من ربه لنبذ بالعراء)** وهى الأرض الفضاء لا ساتر فيها **(وهو مذموم)** ، أى ملوم على ما كان منه ، لكنه لما تاب نبذه الحوت بالعراء من دون أن يكون مذموما . وقد قال تعالى فى سورة الصافات بشأن يونس أيضا (فالتقمه الحوت وهو مليم) ، أى التقمه وهو متلبس بما يلام عليه . وقال فى سورتنا هذه لولا أنه تاب (لنبذ بالعراء وهو مذموم) فأفاد أنه حينما نبذه الحوت لم يكن مذموما، وهو بمعنى لم يكن مليما أى لم يكن مستحقا للوم . فهو صلوات الله عليه دخل بطن الحوت ملوما ،وخرج منه غير ملوم ولا مذموم ، فالعمدة فى جواب قوله (لولا أن تداركه نعمة) ليست هى قوله (لنبذ بالعراء) اذ لو كان النبذ بالعراء هو العمدة لأفاد أنه لم ينبذ مع أنه نبذ بالفعل ، وانما العمدة فى الجواب هى الجملة الحالية ، وهى قوله : (وهو مذموم) ، فالنبذ فى العراء حصل ، ومداركة النعمة ليونس كانت فى توبته مذ كان ببطن الحوت بحيث كان وقت أن نبذه الحوت غير مذموم ولا ملوم .

ولفظ **(النعمة)** تأنيثه غير حقيقى ، وقد فصل بينه وبين فعله بضمير المفعول ، ولذلك جاز تذكير فعله فقيل (تداركه) . على أن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما قرآها (تداركته) بالتاء .

وقوله : **(فاجتباه ربه فجعله من الصالحين)** معناه انه تعالى بعد أن تداركه بنعمته اصطفاه لنبوته، وجعله من الصالحين أى الأنبياء المرسلين العاملين بما أمرهم ربهم ، والمنتهين عما نهاهم عنه .

قلنا ان الوحى قص علينا خبر يونس فى هذه السورة بموجز من القول ، لكنه فى مواضع أخر من القرآن ذكره بأكثر اسهاب ، وها نحن نورد الخبر بأطرافه مقتصرين فيه على ما ثبت وصح فى النصوص من دون حكاية ما زاده القصاص :

انفصل نبى الله يونس عن قومه مغاضبا ظانا أن الله غير مؤاخذ له ، وظل سائرا كهيئة الهارب حتى بلغ شاطىء البحر ، فركب سفينة مشحونة للسفر . وفى أثناء مخر هذه السفينة فى البحر جرى من الأمر ما أدى الى الاقتراع والمساهمة بين ركابها ، فوقعت القرعة على يونس ، فألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه أحد حيتانه ، ولم يخبرنا الوحى عن سبب خروجه من قومه مغاضبا ، وانما أشار تعالى بقوله : (فظن أن لن نقدر عليه) الى أن غضب يونس لم يكن مرضيا لله تعالى .

أما الاقتراع بين ركاب السفينة الذى ألجأ يونس الى القائه نفسه فى البحر ، فسببه ــ والله أعلم ــ اكتظاظ السفينة بركابها وأثقالها ، وغلبة العواصف واعتلاج الأمواج عليها ، فرأى أهلها أن يخففوا عنها فألقوا أثقالها ، ثم لما لم يف ذلك بالحاجة ، اضطروا أن يلقوا بعض الركاب أيضا، ورأوا من العدل أن يقترعوا بينهم على من يلقونه ، فأصابت القرعة يونس ، فألقى نفسه مكرها أو مختارا . ولم يكن وقوع القرعة عليه من دون سائر رفاقه ، والتقام الحوت له ــ أثرا من آثار الاتفاق المحض ، وانما هو لعمرى أثر من آثار المشيئة الالهية : ليكون ذلك جزاء لمغاضبته ، ومنبها له على فعلته . ثم ان يونس لما استقر فى بطن الحوت ، وتجرد بالكلية عن عالم الأسباب الى عالم الملكوت ، وشعر بخطر ما هو فيه ، وخطأ ماكان منه، انتبه الى وجوب الرجوع الى ربه بالتوبة والانابة ، فرفع صوته فى تلك الظلمات قائلا : (لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) . وكأن المعنى فى هذه الاستغاثة : انى يا رب قد ظلمت مذ غفلت عن بعض سننك الكونية فى ايمان الأمم وجحودها ، وانحطاطها وصعودها ، وانتعاشها وخمودها ـ فسألتك لأمتى « أهل نينوى » مالم تجر عادتك به ، وما هو مدابر لسننك الحكيمة ، ومشيئتك القديمة ، فسقتنى يا رب الى هذه الظلمات ، وجعلتنى فى هذا القبر المتحرك قبل ابان الممات ، منبها لى بذلك الى أن تأخير انتقامك من قومى لم يكن ضعفا منك ، ولا عجزا عن تبديل السنن والنواميس الكونية ، وانما هو اطراد لها ، فلا يختل نظام الكائنات ، وتنبيه للبشر الى لزوم مراعاتها ، فلا يعتسفون المتاهات ، أو يقعون فى الضلالات . وانك يا رب اذا شئت غيرت سنن الكون ونواميسه ، كما غيرت نواميس الهواء والحياة والتنفس ودورة الدم فى الجسد ، مذ حفظت على حياتى ، ودبرت لى معيشتى وأنا فى بطن الحوت.

فلا غرو أن تكون تلك التسبيحة من سيدنا يونس ، وهذا الاعتراف بأنه كان من الظالمين ، خير وسيلة لقبول توبته وعفو الله عنه .

وقد ذكر الله فى كتابه فى تتمة خبر يونس هذا : أنه تعالى لبى دعوته ، وقبل توبته ، ولولا ذلك لبقى فى بطن الحوت الى يوم القيامة .

وقد ألهم تعالى ذلك الحوت فنبذ يونس الى أرض فضاء لا سترة فيها سوى شجرة من فصيلة النباتات التى لا ساق لها مما يمتد على وجه الأرض : كالقثاء والبطيخ والقرع ، وهو الذى غلب عليه فى أيامنا اسم اليقطين ، فالله أعلم اية ذلك كانت تلك الشجرة اليقطينية . غير أن قوله تعالى (وانبتنا عليه) يشعر بأن تلك الشجرة قد تعرشت على قائم شاخص، كجذع شجرة مثلا بحيث أمكن ليونس أن يأوى اليها ، ويستقر تحتها . ويشير السياق الى أنه قد انتفع بها . ولم يصرح الكتاب بأية الطرائق كان ذلك الانتفاع . ولعل قوله (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) يشير الى أن الانتفاع كان علاجا لسقمه . ثم أن يونس رجع بعد ذلك الى قومه الذين فارقهم مغاضبا، فآمنوا به ، وتلقوا الهداية عنه ، حتى أذن الله بانقراضهم .

هذا هو خبر سيدنا يونس حسبما أخذناه من النصوص الصحيحة ، وليس فيه ما يستبعد وقوعه،

رَبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

اللهم الا التقام الحوت له ، ومكثه فى بطنه حينا من الزمن حيا يرزق ، ثم نبذه فى ذلك الفضاء .

على أنه ان حق لأهل القرون الماضية ان يستبعدوا خبرصاحب الحوت ، فلا يحق لابناءعصرنا ذلك الاستبعاد ، بعد أن راوا باعينهم سبح الكثيرين منهم فى بطون الغواصات اياما متطاولات ، تحت البحار الطاميات ، وطيرانهم مثل ذلك فى اجواز السموات . فالاله الذى خلق العقل البشرى ، ومهد له سبيل الوصول الى مثل هذه العجائب ، الا يكون قادرا على أن ييسر حصول مثله لعبده يونس ببعض الأسباب التى لم تزل مجهولة لنا لا ؟

هذا ما نقوله للمتسائل المتعجب . اما نحن معشر المسلمين فنؤمن بما ورد فى الكتاب مادام انه غير محال فى العقل ، ونرى ان الارتياب فيه لمخالفته نواميس المادة المعروفة اليوم لا يليق بمسلم يعتقد بخالق هذه المادة ، ومبدع تلك النواميس .

أما ما روته الأسفار القديمة من خبر يونس الذى تسميه « يونان » فهو أنه من بنى اسرائيل من قرية « مشهد » على مقربة من الناصرة ، قد ارسله الله الى الأشوريين فى نينوى نحو سنة ٨٢٥ قبل المسيح، يدعوهم الى عبادة الله وحده ، فتقاعس يونس عن الذهاب اليهم ، بغضا فيهم ، وذهب الى يافا ، فركب سفينة مسافرة الى طرسوس « ترسيس » ، فاثار الله عليه انواء البحر قصاصا له . فلما القى النوتية القرعة ليعرفوا من هو السبب فى هذه المصيبة وقعت القرعة على يونس، فاعترف بذنبه ، وقال لهم القونى، فالقوه ، فابتلعه حوت ، وصلى وهو فى جوفه صلاته المعروفة ، وبعد ثلاثة أيام قذفه الحوت الى البر ، وكرر الله عليه الأمر بالذهاب الى نينوى وانذار اهلها، فذهب اليهم ، وانذرهم الهلاك بعد اربعين يوما ، فآمنوا وتابوا، فمنع الله عنهم الهلاك الموعود ، فغضب يونس لظنه ان ربه جعله كاذبا فى نظر الأشوريين ، او لأنه تعالى عفا عن القوم ولم يعذبهم ، وخرج يونس من نينوى ، واتخذ لنفسه مظلة جلس تحتها ريثما يرى ماذا يصيب المدينة ، فانبت الله يقطينة عرشت على المظلة ، ووقته حر الشمس ، فسر يونس بها لكنها لما يبست ، ولذعه الحر ، تمنى لو مات واستراح ، فأوحى الله اليه : « يا يونس ! اشفقت على اليقطينة ، التى لم تربها ، ولم تتعب عليها ، وهى بنت ليلتها ، أفلا اشفق أنا على بيوت المدينة العظيمة التى فيها اثنتا عشرة ربوة (١) من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم ، عدا ما فيها من البهائم الكثيرة » ! ! ! فخجل يونس من هذا التأنيب ورجع الى بلاده ، فاعتزل مع امه فى محل قريب من « صور » حتى مات ، وبين بيروت وصيدا اليوم مزار يقال له « النبى يونس » وعلى مقربة من نينوى تل يسمى « تل النبى يونس » و « تل التوبة » .

قالوا : واما الحوت الذى ابتلعه فلا يعرف نوعه ، وذهب الكثيرون الى انه من النوع المسمى كلب البحر ، وقد عثر على واحد من هذا النوع عند رأس بيروت طوله عشرون قدما كما عثر على واحد آخر فى جزيرة القديسة « مرغريت » فى فرنسا وفى بطنه فرس كامل الأعضاء . فلا يستغرب اذن ان يبلع الحوت المذكور يونان النبى ا هـ .

وفيما ذكرته هذه الاسفار من خبر يونس ما لا يجوز لنا معشر المسلمين التصديق به مثل امتناعه عليه السلام عن تبليغ الرسالة الى الاشوريين بغضا فيهم ، ومثل غضبه على ربه لانه عفا عنهم .

(ان) هذه هى المؤكدة ، كانت مشددة فخففت ، وبعد التخفيف بطل عملها وبقى تأكيدها . واللام فى **(ليزلقونك)** هى اللام الفارقة الدالة على كون (ان) هذه مؤكدة لا نافية .

ومعنى (يزلقونك) يجعلونك تزلق وتزل : زلقت قدمه زلت ، وزلقه غيره وازلقه ازله ، والموضع الذى تزلق فيه القدم وتزل يسمى « زلقا » و « زلا » . و (ليزلقونك) قرىء ثلاثيا ورباعيا . وهما بمعنى واحد كما قلنا . وازلق فلانا ببصره نظر اليه نظر متسخط كاره ، كانه من شدة التحديق اليه وفرط القاء النظر الشزر عليه يكاد يزلق قدمه ويرميه ، فتلك النظرات المعنوية اصبحت لشدتها وحدتها كانها مادية محسوسة ، تصيب الشخص فتدفعه دفعا ، ثم تصرعه صرعا . ومنه قول الشاعر :

يتقارضون اذا التقوا فى موطن
نظرا يزل مواطىء الاقدام

والضمير فى **(سمعوا)** يرجع الى الكافرين المكذبين المتحدث عنهم من اول السورة . و **(الذكر)** هو الوحى والقرآن ، وسمى ذكرا لتضمنه موعظة وتذكيرا وارشادا .

---

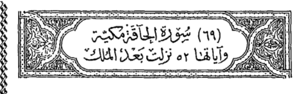
(١) الربوة بكسر الراء الجماعة العظيمة من الناس نحو عشرة آلاف . أما الربوة بفتح الراء فهى فى اصطلاح الحساب اليوم عشر كرات . والكرة عندهم مائة الف . المؤلف .

أمر الله نبيه بالصبر ، وانتظار حكم الله فى أعدائه الذين يبغون به العنت ، ويتقولون عليه الاقاويل ، ووعظه بألا يكون كصاحب الحوت فى الضجر وحب الانتقام من قومه . ولما جاء الى ختم السورة ختمها بما يذكر بفاتحتها ، ويربط نهايتها ببدايتها ، فكانت هذه الخاتمة كفذلكة الحساب ، تجمل ما تقدمها من التفصيل والاسهاب .

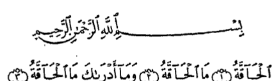
وبيان ذلك أن الله تعالى نفى فى أول السورة عن نبيه ما يرميه به مشركو مكة من الجنون والفتون ، حينما يسمعون منه تقبيح عبادتهم ، والتهكم بآلهتهم ، وما كان ينفرهم به من البعث والحساب ، والجنة والنار ، وغريب أوصافهما . فكانوا يثيرون عليه صلى الله عليه وسلم جلبة وضجيجا ، ويصفونه بما هو براء منه ، لتنصرف قلوب الناس عنه ، ولا يألون فى تكذيبه وانكار ما أتاهم به من الوحى والقرآن . وكانت جميع آيات هذه السورة حوارا وجدالا مع أولئك المكذبين ، وقد تضمنت من أساليب التذكير أبلغها ، ومن الأمثال أغربها وأعجبها ، كقصة أصحاب الجنة : ضربهم الله مثلا للمكذبين الذين كفروا نعمة الله عليهم ، وكخبر صاحب الحوت : ضربه الله مثلا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، يحذره فيه أن يفعل فعله .

ثم عاد فحقق أصل الدعوى ، وأتى بنتيجة مافصل من المقدمات ، فقال : (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك) الآية . والمعنى أن المكذبين انما يبغضونه صلى الله عليه وسلم ويحسدونه على ما اختصه الله به من الوحى ، وآثره من النبوة والكرامة . فهم حينما يسمعون منه الذكر ، وهو القرآن يتلوه عليهم منذرا ومحذرا ، كانوا يوجهون اليه من شدة الغيظ والحنق نظرات أصبحت من حدتها وقوتها بحيث تكاد تصرعه صلى الله عليه وسلم ، وتلقيه على الأرض . وهذا من أبلغ مايقال فى وصف نظر الغيظ والحقد .

وقوله تعالى **(ويقولون انه لمجنون)** أى يحسدون محمدا صلى الله عليه وسلم على ما أوتى من فضيلة الوحى ، وكرامة النبوة ، وهم مع هذا يقولون عنه انه مجنون ، وهذا القرآن الذى جاءنا به من الهذيان الذى يهذى به فى جنونه ، فكيف يتفق هذا القول مع نظراتهم الدالة على شدة غيظهم ، وفرط حنقهم ؟!! وهل تشغل النفوس بالحقد والحسد ، وتسجر القلوب بنار الغيظ والحرد على المجانين الى هذا الحد ؟ . كلا ! ماهو عليه الصلاة والسلام بمجنون ، وما قرآنه والوحى المنزل عليه بهذيان ولا فتون ، **(وما هو الا ذكر للعالمين)** . والمشركون يعلمون ذلك ، لكنهم من فرط حسدهم وعداوتهم وحيرتهم يريدون أن ينفروا الناس منه صلى الله عليه وسلم ، ويصرفوهم عن الاصغاء الى ما أتى به من الحكمة والهدى والحق ، فلم يجدوا أسهل من أن يقولوا : انه ـ وحاشاه ـ مجنون .



(٦٩) سُورَةُ الحَاقَّةِ مَكِّيَّة
وآياتها ٥٢ نزلت بعد الملك



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)

(الحاقة) تأنيث الحاق ، اسم فاعل من حق فلان الأمر بمعنى حققه وأوجبه وأثبته . واذا كان معنى (الحاقة) ماذكرنا كان لها موصوف ومفعول محذوفان. والتقدير الساعة الحاقة لأمور الحساب ، ولما يتلو ذلك من الثواب والعقاب . فتلك الساعة ـ وهى يوم القيامة ـ تحقق كل ذلك وتثبته بحيث لا يعود يقع فيه ريب للمرتابين ، ولا تعلة للمكذبين . ويقول الرجل لأصحابه اذا بلغهم خبر فلم يستيقنوه : « انا أحق لكم هذا الخبر » ، أى أعلمه لكم ، وأقف على حقيقته .

وكما أن (حق) الثلاثى يكون متعديا بمعنى حقق يكون لازما بمعنى وجب وثبت وتحقق فى نفسه ، ومنه (حقت كلمة ربك) و (حقت عليهم كلمة العذاب) أى وجبت وثبتت . ويجوز تفسير (الحاقة) فى الآية بذلك ، ويكون معناها الساعة الثابتة المتحققة الوقوع.

وقد أصبحت (الحاقة) اسما من أسماء يوم القيامة ، ولم يعد يلاحظ فيها موصوفها ، كما أن (القارعة) و (الواقعة) و (الطامة) و (الصاخة) كذلك ، فكل هذه الأسماء كانت أوصافا ، ثم غلب استعمالها أسماء بل أعلاما ليوم القيامة .

وقوله **(ما الحاقة ؟)** استفهام يقصد به تهويل تلك الساعة التى سميت الحاقة ، كأنها لغرابة أمرها ، وفظاعة هولها أصبحت النفس من دهشتها تتساءل عنها قائلة : « ماهى تلك الحاقة ؟ » ، وهذا كما اذا فاجأ المرء مصاب فادح ، فانه يلتفت الى جليسه قائلا : ما هذا ؟ مع أن المصاب يكون معلوما لهما ، بل يكون أحيانا تحت مواقع أبصارهما .

وكان الظاهر أن يقول «ماهى ؟» مكان (ما الحاقة ؟) لكنه عدل عنه الى الاسم الظاهر لزيادة التهويل به فوق التهويل بالاستفهام . أما اعرابه : فالحاقة مبتدأ، وقوله (ما الحاقة) ما استفهامية خبر مقدم والحاقة مبتدأ مؤخر ، والجملة منهما خبر للحاقة الأولى ، والحاقة الثانية بمنزلة الضمير والكناية عن الحاقة الأولى ، كأنه يقول « الحاقة ما هى ؟ » كما يقال : « زيد ما زيد ؟ » أى أن أمره عجيب ، ومثل الآية فى العدول الى الظاهر قول أم زرع فى حديثها المشهور : « أبو زرع وما أبو زرع » ، « أم أبى زرع فما أم أبى

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾

زرع ؟ » ، « ابن أبى زرع فما ابن أبى زرع ؟ » وهكذا، والمعنى أن أمر ذلك عجيب ، وشأنه مستغرب .

ثم عاد الوحى فاستفهم معجبا من أمر الحاقة على اسلوب أبلغ فقال : **(وما أدراك ما الحاقة ! !)** كأنه يقول : انه لا أحد يدرى امرها ، أو يقدر ان يحيط وهمه بما هى عليه من الفخامة ، وجلالة الشأن . واذا كان الخطاب فى (وما أدراك) لمطلق انسان ، الشامل للمكذبين للقيامة ــ يكون فيه تعريض بالمكذب ، وانه يكذب بما لايعلمه ، ولا يقدر على اكتناه أمره . والاستفهام فى هذا الأسلوب جار على عادة العرب فى التخاطب ، والا فان العليم الخبير سبحانه وتعالى لا يجهل حتى يستفهم .

قبل أن يأتى الوحى على وصف تلك الساعة واخبارها ، وما يكون فيها لفريقى الأبرار والفجار ــ ذكر للمخاطبين موجزا من أخبار بعض الامم الماضية الذين كذبوا بها فهلكوا ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين بها من مشركى العرب ، فقال : **(كذبت ثمود وعاد بالقارعة)** ، وكان الظاهر ان يقول مكان (بالقارعة) : (بها) ، أى بالحاقة ، لأن الحديث عنها ، وتكذيب عاد وثمود انما هو بها ، لكنه عدل عن ضميرها الى اسمها الظاهر توصلا الى نعتها بوصف آخر غير (الحاقة) وهو أنها (القارعة) التى تقرع القلوب بهجومها ، ومفاجأة اهوالها .

و (القرع) ضرب الشىء الصلب والنقر عليه بشىء مثله ، يقال : قرع الباب والناقوس ، وقرع رأسه بالعصا ، وقرع السهم الهدف ، وهكذا ، واذا فجأ الهول القلب اضطرب ووجب كأن قارعا قرعه . على أن الساعة كما تقرع القلوب والنفوس بالافزاع ،تقرع الأرض والسموات بالدك والنسف والانصداع ، فهى القارعة بالمعنى الأعم الأشمل .

و (ثمود) و (عاد) من قبائل العرب البائدة ، وكل هذه القبائل عند العرب من نسل ارم ، فهم ارميون أى آراميون كما نسميهم اليوم . ويقولون «عاد ارم» و « ثمود ارم » تمييزا لهم بهذا الوصف عن غيرهم ، أو كشفا لهم ، فتعرف به نسبتهم .

وفى التوراة ان عادا وثمود تنتسبان الى آرام بن سام بن نوح عليه السلام ، فثمود جد قبيلة ثمود هو ابن « جاشر بن آرام » ويسميهما مؤرخو العرب « كاشر بن ارم » ، وعاد جد قبيلة عاد هو ابن « عوص ابن آرام » .

وكانت القبيلتان تسكنان اليمن ، ثم ان ملوكها الحميريين طردوا ثمود منها فسكنت الحجر من بلاد الحجاز فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى الى مكة، وتمر بها السكة الحجازية ، وهى مدائن صالح المشهورة ذات البيوت المنحوتة فى الجبال نحتا فى غاية الاحكام وحسن الصنعة ، وكان اليهود يسكنونها قبل ظهور الاسلام .

وقد أرسل الله الى قوم ثمود سكان هذه المدائن نبيا منهم ، وهو سيدنا صالح عليه السلام . وكان صالح فيما يقال على طريقة سيدنا المسيح ، يمشى حافيا ، ولا يتخذ حذاء ، ويعيش متقشفا فلا يتبوأ مسكنا ولا بيتا ، ثم ان قومه كذبوه ، وعقروا ناقته ، واغرقوا فى الكفر والجحود حتى اهلكهم الله . وقد قص تعالى علينا اخبارهم فى غير موضع من كتابه ، وذكر فى هذه السورة موجزا من طريقة هلاكهم .

اما ابناء عمهم (عاد) فكانوا يسكنون الأحقاف من بلاد اليمن . والحقف فى اللغة الرمل المستطيل المعوج، وهذه الأحقاف كانت ممتدة فى بلاد حضرموت بين عمان شرقا ، وبلاد اليمن غربا ، وساحل بحر العرب جنوبا . ويوجد فى تلك البلاد على كثرة رمالها جبال واودية من اخصب بلاد الله ، ذات مياه واشجار وزروع ، لاسيما فى نواحى حضرموت والشحر من بلاد اليمن ، وكانت « عاد ارم » تسكن فى تلك الجهات، وكانوا فيما يقال نحو ثلاث عشرة قبيلة فطغوا وبغوا ، فأرسل الله اليهم هودا عليه السلام ، فحذرهم وانذرهم ، فكذبوه وتمردوا عليه ، ثم كان من امر هلاكهم اخيرا ماقصه الله علينا فى هذه السورة .

ويقول علماء الآثار اليوم (١) ان مؤرخى اليونان ذكروا فى جملة قبائل اليمن حوالى ميلاد المسيح قبيلة يكتبونها بلفتهم هكذا (Adramutai) أى العادراميون ، ولا غرو أن يكون العادراميون هؤلاء هم الذين سماهم العرب « عاد ارم » أو «عاد آرام ».

قالوا : واما قبيلة ثمود فذكرت فى جملة البلاد التى غلبها « سرجون » ملك اشور سنة ٧١٥ قبل المسيح ، وكانت بجوار مكة فى الجهة الجنوبية من مدائن صالح ، وذكر مؤرخو اليونان ثمود حوالى زمن المسيح وبعده ، وجعلوا منازلها المدائن المذكورة ، ويسمونها ثمودينى (Thamudini) .

ودخلت « مدائن صالح » فى حوزة ملوك بطرا « أو البتراء وهى وادى موسى » قبل المسيح ، وقد وجد على اطلال المدائن كتابات ونقوش تدل على هذا المعنى ، ودونك هذا المثال من تلك الكتابات بالحرف النبطى وتاريخه حوالى عهد المسيح :

« هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهن وذريتهن ، فى شهر طيبة من السنة التاسعة للحرث ملك النبطيين ، محب شعبه ، فعسى ذو الشرى وعرشه (؟) واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه او يخرج منه جثة أو عضوا اويدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها ، ومن يخالف

(١) ملخص من كتاب (العرب قبل الاسلام)

ما كتب عليه فليلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها الف درهم حارثى ، الا من كان بيده اذن من يد كمكم او كليبة ابنتها بشأن هذا القبر ، والاذن المذكور يجب أن يكون صحيحا ، صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة اهـ » .

واللغة المنقوشة على أطلال مدائن صالح آرامية مثل لغة « بطرا » النبطية ، وكأن ثمود سكان هذه المدائن كانوا يستعملون لغة سادتهم النبطيين وكتابتهم احيانا ، والا فان لغة ثمود الأصلية هى لغة بلادهم « اليمن » التى هاجروا منها ، أعنى اللغة الحميرية،وكتابتهم بالحرف المسند الحميرى لا النبطى.

وقد عثروا على فروع من القلم المسند فى عدة أماكن من بلاد الحجاز ، أهمها ماوجد فى « العلاء » جنوبى مدائن صالح ، أوائل الميلاد . من ذلك :

١ - كتابة سموها « لحيانية » مذ راوا فيها أسماء ملوك لحيان الذين يظن أنهم بقايا قبيلة ثمود .

٢ - كتابة سموها « ثمودية » وهى تختلف عن « اللحيانية » بعض الاختلاف .

٣ - كتابة سموها « صفوية » وهى التى وجدوها فى جبل الصفا بحوران .

(**الطاغية**) من الطغيان : الافراط ومجاوزة الحد وهى صفة لمحذوف . كأنه يقول : أخذوا بأخذة من اخذات العذاب جاوزت كل حد فى عنفها وشدتها .

وقد كانت تلك الأخذة صيحة من السماء : امتلخت (١) قلوبهم ، واهمدت نفوسهم ، بدليل ماجاء فى سورة هود (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ويعنى بالذين ظلموا قوم صالح عليه السلام . والكتاب لم يعين هذه الصيحة ، ولم يفصل امرها باكثر من وصفها بالطغيان ومجاوزة الحد ، كما قال فى آيتنا التى نفسرها . وقد قال فى سورة الشعراء (فأخذهم العذاب) ، وفى سورة الفجر (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ، وفى سورة الشمس (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) ، ومعنى (دمدم عليهم) أهلكهم ، ومعنى (فسواها) سوى قبيلة ثمود بالأرض ودمرها ، أو سوى بين آحادها فى لحاق العذاب بهم ، فلم يفلت منهم أحد .

اما السبب الذى اخذ به قوم صالح هذه الأخذة فهو تكذيبهم لنبيهم ، ومخالفتهم أمر الله فيما امتحنهم به ، من أمر الناقة . فقد امرهم أن لايمسوها بسوء ، ثم يكون لهم شرب ، اى يوم يشربون فيه من المورد كفايتهم ، ولها هى يوم تشرب فيه وحدها ، على ان يملئوا فى يومها كل وعاء واناء لهم من لبنها .

ثم ان جهلة القوم برموا بالناقة وشربها، وحرمانهم الماء فى يومها ، فانبعث أشقاهم فعقرها ، ولم يأخذ قومه على يده ويمنعوه من جرمه ، فنسب العقر اليهم كلهم ، لرضاهم به وسكوتهم عليه ، فعمهم العذاب ، واخذوا بهذه الأخذة الطاغية التى جاوزت الحد المعتاد فى القوة والاشتداد ، كما جاوزوا هم الحد فى المخالفة والعناد .

(١) (امتلخت) انتزعت .

هذا ذنب ثمود وعذابهم . (**وأما**) أبناء عمهم **(عاد)** - وهم الذين يسمون أيضا « عاد ارم » و « **ارم ذات العماد** » ، والعماد الأبنية الرفيعة ، وسيأتى وصف أبنيتهم ، أو هو كناية عن قوتهم ومنعتهم وعلو جانبهم ، وقلنا أن مساكنهم الأحقاف من بلاد حضرموت - فقد وصف الله فى غير ما موضع من كتابه مبلغ طغيانهم وفجورهم وتكذيبهم لنبيهم هود عليه السلام ، واستخفافهم به ، وبالأوامر الالهية التى كان يبلغهم اياها ، وهم الذين كانوا يقولون له : (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) مذ كان يقول لهم : (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) .

وقد انضم الى كفرهم هذا بالله مآثم ومناكر غاية فى البشاعة : من ذلك أنهم كانوا يبنون قصورهم على قارعة الطريق وفوهات المعابر ، وكانوا يتنافسون فى بناء تلك القصور وتشييدها حتى يصبح القصر آية وعلامة على عظمة صاحبه ومبلغه من الغنى والثروة ، وتفوقه على أبناء عشيرته. فكانت تلك القصور وسيلة للمباهاة والتفاخر وتأريث الفتن والعداوات ، ولم يكن لهم فى تلك القصور عمل سوى العبث واللعب والافساد فى الأرض . فكان بعضهم يتخذ فى أعلاها أبراجا للحمام ويضيع الوقت سدى فى اطارته ، وايذاء الجيران به . وكان آخرون يطلون من قصورهم على الغادين والرائحين ، من تجار وأكارين ، فيعبثون بهم ، ويدبون بالأذى اليهم . وكان بعضهم يرصد الذين يفدون على نبيهم هود للايمان به ، وتلقى الهداية من قبله ، فيتناولونهم بأنواع السباب والشتائم ، ويحولون بينهم وبين مايريدون من الايمان بهود عليه السلام .

وكل ماذكرنا هو عبثهم الذى كان يوبخهم عليه سيدنا هود مذ يقول لهم : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) ثم يقول : (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) ، أى تبنون المبانى المتينة من دور وقصور وحصون وصهاريج للماء ، حاسبين أنكم تعيشون الى الأبد ولا يدركم الموت وانتم فى تلك القصور المشيدة ، وتنجون من عذاب الله على فظائعكم وآثامكم ؟؟ وأشد ماكان يوبخهم عليه نبيهم أنهم كانوا اذا غضبوا على أحد من الناس بادروا الى تعذيبه ، والايقاع به ، قتلا بالسيوف او جلدا بالسياط ، من غير تفكير ولا تدبر فى العواقب ، وقد لايكون للمسكين ذنب يستحق عليه كل هذا العقاب ، فكان نبيهم هود يقول لهم معددا فظائعهم (واذا بطشتم بطشتم جبارين) .

هذا ما قصه الله علينا من خبر هذه الأمة العاتية . فلا بدع اذا أنزل بها شديد عقابه ، وأليم عذابه ، مذ قال تعالى واصفا ذلك فى كتابه (**وأما عاد فاهلكوا**) الآية . و (الصرصر) وصف للريح يجمع بين شدة صوت هبوبها فى الآذان ، وشدة لذع بردها على الأبدان ، فان من معانى هذه المادة (الصر) الصوت الشديد . يقال : (صر صرا وصريرا) ، والبرد الشديد. يقال (ريح صر) اذا كانت شديدة باردة . وقوله (**عاتية**) العتو فى الرجال : مجاوزة الحد فى الكبر والبطش وقسوة القلب . والعتو فى الرياح : مجاوزة

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَالْمُؤْتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ

الحد فى العصف والهبوب وقهر من أراد التوقى منها بحيلة ما : فهى تدمر عليه مكمنه ، او تنتزعه منه بلا رحمة ، وفوق ذلك هى عقيم ، لاتلقح شجرا ، ولا تبقى ثمرا .

هذه الريح التى ارسلها الله على عاد **(سخرها عليهم)** اى سلطها وجعلها مسخرة لامره فى ابادتهم ، والانتقام منهم مدة **(سبع ليال وثمانية أيام حسوما)**.

و (الحسم) فى اللغة يدور حول ثلاثة معان :

١ ـ القطع باستئصال . يقال (احسم العرق) اى انزعه من اصله ، ثم اكوه لئلا يسيل دمه .

٢ ـ الشؤم الذى لايكون معه خير . ومنه (ايام حسوم) اى تحسم الخير والبركة عن اهلها ، وهو يرجع الى المعنى الأول .

٣ ـ الدؤوب فى العمل والأخذ فيه من دون فتور ، وهو يرجع الى المعنى الاول ايضا ، لان الذى يريد حسم العرق مثلا يتابع العمل ويعيد الكى على العرق المرة بعد المرة حتى ينحسم .

وقد وصفت تلك الريح بكونها (حسوما) وفسروها بكل هذه المعانى ، فهى قد استأصلت القوم وابادت خضراءهم ، وكانت شؤما عليهم مـذ استأصلتهم ، وكانت فى الحاحها فى عملها وابادتها دائبة متتابعة لم يعترها فتور ولا ونى .

ولفظ (حسوم) اما مصدر كجلوس ، وهو راجع الى الريح او الى الايام والليالى ، ويكون التقدير : بريح ذات حسوم ، أو أيام وليال ذوات حسوم . أوهو جمع حاسم كجلوس وشهود جمع جالس وشاهد ، فيكون حينئذ من صفة الليالى والأيام .

ويقال : ان هذه الأيام هى المعروفة الى اليوم بأيام العجوز ، تأتى فى أواخر فصل الشتاء ويشتد فيها البرد : أربعة من آخر شباط (فبراير) ، وثلاثة من اول آذار (مارس) . سميت بذلك ـ فيما زعموا ـ لأن عجوزا من قوم عاد المذكورين توارت من خوف الهلكة فى سرب فانتزعتها الريح الصرصر فى اليوم الثامن فأماتتها .

وقيل ان اسمها (ايام العجز) اى ايام آخر الشتاء ، فان عجز الشىء مؤخره . ثم حرفوها وقالوا (ايام العجوز) قال صاحب التاج : والصحيح انها (عجوز) بالواو كما فى دواوين اللغة قاطبة .

و **(صرعى)** مطروحين على الأرض . و **(اعجاز النخل)** اصولها وجذوعها . و **(خاوية)** نخرة فارغة تأكل جوفها وبلى وتفتت ، فما اسرع ان سقطت على الأرض .

هذه الجذوع النخرة الممددة هنا وهناك هى مثال طبق لقوم عاد ، مذ صرعتهم الريح الصرصر فى افنية دورهم ، وعراص مساكنهم ، مبعثرين مبددين . وانك لو طفت معابدهم ، وجست خلال دورهم ، بعد ان فعلت الريح بهم مافعلت ـ **(فهل)** كنت **(ترى لهم من باقية)** ، اى بقية افلتت من الهلاك ؟ او المعنى هل كنت ترى لهم نفسا باقية لم يشملها الهلاك ؟ ؟

قوله : **(وجاء فرعون)** معطوف على قوله تعالى : (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) . بعد ان وصف الوحى موجزا من هلاك عاد وثمود ذكر طوائف من امم قديمة اخرى كان من خبرها وتكذيبها مثل ما كان من خبر عاد وثمود ، فعد منها (فرعون) ويعنى فرعون وقومه ، وقد اجتزأ عن ذكرهم بذكره ، اذ كان رئيسهم ، وولى امرهم ، كما اقتصر عليه ايضا فى قوله : **(هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود)** . ولو قال قائل : ان المراد بفرعون الفرعونيون اى المصريون القدماء المنسوبون اليه ـ ماكان مباعدا ، كتميم مثلا فانه فى الأصل اسم لجد القبيلة ، ثم غلب عليها كلها .

وقوله : **(ومن قبله)** قبل بفتح القاف وسكون الباء ، اى وجاء ايضا من الأمم من كان قبل فرعون وسبقه فى الزمن . ولم يعين الكتاب لنا هذه الأمم السابقة ، وما علينا الا نعلمهم ونعنى بتعيينهم . وقد مثل لهم بعض المفسرين بقوم نوح وقوم نمرود .

وقرأ بعض القراء (ومن قبله) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى جاء فرعون والذين هم عنده وجهته ، يعنى جنوده واتباعه المقيمين حيث اقام ، والراحلين حيث رحل . يقال (اتانى من قبل فلان رسالة) اى من عنده او من جهته . و (لى قبل فلان دين) اى عنده . ويشهد لهذه القراءة قراءة عبد الله بن مسعود وابى بن كعب (وجاء فرعون ومن معه) ، ولا يكون معه الا جنوده واتباعه ، وهو معنى (ومن قبله) . ويشهد لها ايضا قراءة ابى موسى الأشعرى (وجاء فرعون ومن تلقاءه) . و (تلقاء) بمعنى (لقاء) فى الأصل ثم توسع فيها فصارت بمعنى (عند) و (جهة) .

(والمؤتفكات) جمع المؤتفكة اى المنقلبة ، وموصوفها محذوف ، اى القرى المنقلبات او الأراضى المنقلبات . يقال ائتفكت البلدة بأهلها اذا انقلبت ، ومنه الافك بمعنى الكذب لأن الكاذب يقلب الحقيقة ، ويظهرها فى غير صورتها الصحيحة . والمراد بالمؤتفكات مدن قوم لوط التى انقلبت عليهم ، وصار عاليها سافلها ، بما

كانوا يرتكبون من الفجور والمنكر. والذى جاءبالخاطئة أهل المؤتفكات لاهى ، لكن تجوز بها عنهم اعتمادا على فهم السامع على حد قوله تعالى (واسأل القرية) أى أهلها .

ويقال ان البحيرة التى تسمى اليوم بحيرة لوط والبحر الميت ــ تغمر الأماكن التى كانت قائمة فيها قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم ، وعمورة ، وادمة ، وصبوييم ، وبالع وتسمى صوغر . ولما أراد الله اهلاك هذه القرى أمطرت بحمم النار والكبريت ، وتغشتها سحب من الأبخرة المنبعثة من جوف الأرض، ثم تحللت تلك الأبخرة الى ماء كريه الطعم ، استنقع فى ذلك الغور ، وتكونت منه تلك البحيرة .

و **(الخاطئة)** صفة لمحذوف ، اى بالفعلة الخاطئة ، او الأفعال الخاطئة ، اى ذات الخطيئة والاثم والذنب . يقال : خطىء ،اذا اثم واذنب فهوخاطىء ، وقال بعض أهل اللغة : لا يكون ذلك الا عن عمد وتصميم ، بخلاف أخطأ فهو مخطىء ، فانه الذى يفعل الشر غير متعمد له . والخطأ من أخطأ ، والخطيئة من خطىء .

وقوله **(أخذة رابية)** اى شديدة زائدة فى شدتها: من ربا اذا زاد ونما وتضاعف عدده أو حجمه ، فهذه الأخذة التى نزلت بقوم فرعون مذ أغرقوا فى اليم ، وبقوم لوط مذ قلبت بهم قراهم،وتراكمت عليها الحمم وحجارة الكبريت وسحب الأبخرة ــ كانت ولا ريب اخذة زاد فيها العذاب ونما ، واشتد بها الكرب على الفريقين وطما .

ولا حاجة الى ذكر ماجاء به قوم فرعون وقوم لوط من الخطايا والآثام ، وعصيان موسى ولوط عليهما السلام ، ووصف ما كان من امرهم ، والعذاب الذى نزل بهم ، فهو على الاجمال معروف ، وقد ذكر فى التنزيل اكثر من مرة . غير انا نذكر موجزا من تاريخ حياة (لوط) حسبما ورد فى الأسفار القديمة : قالوا :

هو ابن حاران أخى ابراهيم الخليل عليه السلام ، وقد هاجر مع عمه ابراهيم من بلاد مابين النهرين الى أرض الميعاد (فلسطين) ، وبعد رجوع ابراهيم من مصر كانت مواشيه ومواشى لوط قد ازدادت جدا ، وكثر الخصام بين رعاتها ، فاقترح ابراهيم على لوط أن يفترقا منعا للنزاع والخصام ، وخير ابراهيم لوطا فى الأرض التى يريدها ، فاختار دائرة نهر الأردن بقرب سدوم وعمورة . ثم غزا (كدر لاعومر) ملك عيلام هذه المدن ، وأذل ملوكها ، واسر طائفةمن سكانها ، كان فيهم لوط عليه السلام ، وافلت من القوم من أخبر سيدنا ابراهيم بهذه النازلة ، فأسرع بثلاثمائة وثمانية عشر من أهله وحشمه عدا خلفائه الأموريين وجد فى اثر الغزاة حتى أدركهم بالقرب من بانياس فى قضاء القنيطرة من ملحقات دمشق ، فنازلهم وشتت شملهم ، ثم تبعهم الى (صوبا) فى محل قرية (المزة) على مقربة من دمشق كما حققه بعضهم، وهناك استرد الأسلاب ، وأنقذ الأسرى ولوطا ابن أخيه ، ثم كان ماكان من أمر القرى الخمس وتدمير الله لها ، فانتقل لوط الى جبال (موآب) فتوطنها ، ثم كانت من بعده لنسله الموآبيين والعمونيين .

قص الوحى علينا اخبار الأمم المكذبة المذكورة ، وحلول العقوبة الالهية بها ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين من قريش . وقد قدم هذه الأخبار بين يدى ذكر يوم القيامة ، وما يحدث فيه من الأهوال ، بعد أن افتتح السورة بوصف يدل على هول ذلك اليوم ، وعظم أمره . وكانت تلك الأخبار تذكر على نسق واحد ، لكنه لما انتهى الحديث الى خبر أمة نوح عليه السلام وهلاكها بالطوفان خالف فى الأسلوب ، ولون الخطاب بلون آخر ، وبدل أن يقول مثلا : ان قوم نوح كذبوا فأغرقوا بالطوفان ــ وجه الخطاب الى مكذبى قريش الذين هم من سلالة الناجين من الغرق مع نوح ، مذكرا لهم بنعمته على آبائهم . ويكون فى ايراده الكلام على هذا الأسلوب قد جمع بين خبر الفجار المغرقين ، وخبر الأبرار الناجين ، كما قرن بين تحذير مكذبى قريش أن يصيبهم ما أصاب أولئك المغرقين ، وبين الامتنان عليهم بحمل آبائهم فى السفينة ، فكان ذلك سببا لنجاتهم ، وانتشارهم فى الأرض ، وبثهم ذرياتهم فى جنباتها . وكان مكذبو قريش المخاطبون ــ من هذه الذريات ، أفما كان الواجب عليهم أن يدعوا العناد والتكذيب ، ويشكروا الله الذى مهد لهم سبيل الوجود بهذا التدبير العجيب ؟ وقد خالف فى أسلوب الكلام على هذه السورة لينتقل بذلك الى البعث وأحواله ، ووصف يوم القيامة وأهواله .

ومعنى **(طغى الماء)** : طما وارتفع وتجاوز حده المعروف ، وطاف على الأرض اليابسة فغمرها ، وكان منه الطوفان الذى أباد الله به أهل ذلك الزمان .

وقوله **(حملناكم)** أى أنتم يامعشر قريش المخاطبين اليوم ، وانما جعل حمل أجدادهم حملا لهم ، لأن أولئك الآباء كانوا جرثومة لهؤلاء الأبناء ، ففى حفظ الجرثومة حفظ لقوتها النامية بل حفظ لما فى طيها من الذرارى الكامنة ، وهذه الذرارى العاقلة يجب عليها أن تشكر للذى حفظ أصلها ، وصان جرثومتها من الضياع والفناء ، فكان ذلك سببا لوجودها وتمتعها بالحياة والنماء ، و **(الجارية)** السفينة .

وقوله **(لنجعلها)** اى لنجعل السفينة ، وقصتها العجيبة ، أو لنجعل تلك الفعلة ، وهى نجاة الأبرار ، وهلاك الفجار ، **(تذكرة)** عبرة وعظة تحملكم أيها المكذبون على التوبة والانابة وترك التكذيب . **(وتعيها أذن واعية)** ، اى ولأجل أن تحفظ تلك التذكرة وما تتضمنه من الموعظة والعبرة ــ اذن حافظة لها . والمراد بحفظها تعقلها وتدبرها والانتفاع بها فى اجتناب الفسوق والعصيان ، واتباع سبيل أهل التقى والايمان . وقد أراد بالاذن صاحبها لا الجارحة نفسها ، ونكرها وجعلها واحدة للاشارة الى أن الآذان التى تعى الحكم والمواعظ وعى تدبر وانتفاع ــ قليلة النسبة الى التى لاتعى ولا تتدبر . على أن فى تنكيرها المفيد لتقليلها ايذانا بتعظيم شأن تلك الآذان القليلة وتفخيم امرها ،

فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

وانها على قلتها هي الكثيرة الطائلة والقوة العاملة ، على حد قول القائل :

يا خالدا يا خالدا الفـا وتدعى واحدا

هذا هو وصف يوم القيامة الموعود به ، والمرموز اليه من أول السورة بقوله تعالى (الحاقة ما الحاقة) والذى كذبت به تلك الأمم ، فأهلكها الله جزاء تكذيبها، وحذر قريشا أن تسلك مسلكها فى التكذيب ، فيصيبها ما أصابها .

و (النفخ فى الصور) فى لسان الشرع : قد يكون تمثيلا وتصويرا لبعث الأموات وانبعاثهم من ارماسهم بسرعة تحكى سرعة المجتمعين وقد هتف بهم من بوق عظيم ، وهذه (النفخة الواحدة) هى النفخة الثانية أو الدعوة الثانية التى يكون من أثرها صعق الخلائق وخمود حياتها ، وخراب الكائنات ووقوف حركاتها (١) ، والا فانه يسبقها نفخة أولى أو دعوة أولى يكون من أثرها ذعر الخلائق واضطرابهم ، واختلاط حابلهم بنابلهم . ونحن نؤمن بذلك كله حسبما ورد فى الشرع . أما التعمق والتطلع لمعرفة ما وراءه فهذا ما لم تكلفه رحمة بنا ، وان البحث فيه مضلة ، والسؤال عن كنهه مخرقة .

(وحملت الأرض والجبال) اى رفعتا وسيرتا ، كما قال تعالى فى سورة التكوير : (واذا الجبال سيرت) .

والتثنية فى قوله (دكتا) باعتبار أن (الأرض) و (الجبال) مجموعتان متمايزتان : مجموعة الأراضى المنبسطة التى هى السهول ، ومجموعة الأراضى المرتفعة التى هى الجبال والحزون . فقوله (دكتا) أى هاتان المجموعتان ، سهولا وحزونا ، هدتا وسويتا على تسطيح واحد .

(والدك) والدق متقاربان ، غير أن الدك أبلغ ، وهو أن تأتى الى حائط أو كومة مرتفعة مختلطة بحجر ومدر وتراب مثلا فتضربها بعضها ببعض ، وترصها رصا منكرا بحيث يتكون منها بقعة ممهدة السطح : لا تضاريس فيها ولا اعوجاج، ولا ارتفاع ولا انخفاض. واحسب أن الباعة والتجار كانوا يفعلون ذلك من التسوية والرص والدك فى البقعة التى يفرشون عليها بضائعهم فى جنبات الطريق ، يعرضونها تحت انظار المارة والمشترين ، وكانوا يسمونها دكانا ، ثم شاعت هذه الكلمة حتى صارت تطلق على المكان الذى يبيع فيه التاجر اشياءه ولو لم يكن للدك فيه أثر .

وقوله **(دكة واحدة)** اى اصبحت الأرض والجبال بعد دكهما كتلة واحدة لا ميزة فيها لأرض على جبل ، ولا لجبل على ارض . أما هذان : الرفع والدك اللذان وصفناهما فبأية قوة كانا ؟ لم يذكر الله فى كتابه الا انهما حصلا ، وبديهى أن ذلك يكون بقدرة الله مباشرة من غير سبب ظاهر ، أو بواسطة سبب أو ناموس . الله اعلم بما يكون من ذلك .

وقوله : **(فيومئذ وقعت الواقعة)** ، اى ويوم ان يقع ماذكر من النفخ والحمل والدك ــ تكون قد وقعت الواقعة وحقت الحاقة ، وقامت القيامة التى كنتم تكذبون بها ايها المكذبون .

ثم ذكر الوحى بقية مايقع فى ذلك اليوم من تخريب العالم العلوى بعد ان ذكر تخريب العالم السفلى فقال : **(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية)** . وانشقاقها كناية عن انصداعها ، وتبدل اوضاعها، وذلك بأن يسلب الله منها ذلك الناموس الأعظم الذى كان يمسكها ، ويربط بين اجزائها ، فلا يبقى جزء منها مستقرا فى مكانه ، ولا كوكب من كواكبها على المعهود من حركته ودورانه ، وهذا معنى (واهية) : بالية متداعية لاتماسك فيها .

واذا كانت ارضنا على صغرها وحقارة أمرها بالنسبة الى العالم العلوى ــ قد خلق الله فيها أنواعا من المخلوقات ، وصنوفا من الأحياء التى ارقاها الانسان ــ أفيدع سبحانه تلك السموات العلى مجردة عن خلائق يذرؤهم فيها ، يصلون له ، ويمجدون اسمه ؟ كلا ، وقد ورد الشرع بتسمية هذه الخلائق السماوية (ملائكة) .

فكيف تكون حال هذه الملائكة فى ذلك اليوم : يوم القيامة ، وقد انشقت السماء التى تقلهم ، وتقطعت أوصال الأجرام التى تضمهم ؟ ؟ قال تعالى : **(والملك على أرجائها)** .

(١) روى عن ابن عباس أن المراد بهذه النفخة ، النفخة الاولى التى يكون عندها خراب العالم ، ومن ابن المسيب ومقاتل : انها النفخة الآخرة . وقد اقتصر ابن جرير على الاول ، ورجحه الفخر الرازى والآلوسى : قال الآلوسى : « والأول أولى ، لانه المناسب لما بعد ، وان كانت الواو لا تدل على الترتيب ، لكن مخالفة الظاهر من غير داع مما لا حاجة اليه » . وقال الفخر الرازى: « فان قيل : لم قال بعد ذلك : يومئذ تعرضون ــ والعرض انما يكون عند النفخة الثانية ــ قلنا : جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ، فلذلك قال : يومئذ تعرضون ، كما تقول : جئته عام كذا ، وانما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته » . وقد جرى المؤلف فى كلامه على اعتبار النفخات ثلاثا ، وسيأتى الكلام فيه . المصحح .

وقوله : (**والملك**) اى جماعة الملائكة ، فال فيــه للاستغراق . وضمير (**ارجائها**) يرجع الى السماء التى قد تصدعت وتشققت . والمعنى أنه اذا لم تعد السماء بعد وهيها وانشقاقها صالحة لأن تكون مثابة وامنا لأولئك الملائكة ــ انتشروا هنا وهناك ، وانضووا الى ارجاء السماء أى اقطارها وجوانبها . وخراب المكان وتزعزع أركانه لا يستلزم الا تبقى له ارجاء ، فان (الرجا) الناحية والجانب ، وهو لازم للمكان من حيث هو مكان .

لاتكاد نفس السامع تصل الى هذه النقطة مــن وصف خراب العالم ، وانتكاث فتله ، وتعاظم هوله ــ حتى يتمثل لعينيه مبلغ السلطان الالهى ، وعظمة ذى الجبروت الأزلى ، فيشهد اذ ذاك أنه الأول والآخر ، والباطن والظاهر ، وانجميع ماتتابع على مسرح الوجود من هذه الخلائق لم تكن سوى خيال ، أو ظلال تقلصت اثر ظلال . والى هذا يشير تعالى فى قوله : (**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**) .

وضمير (فوقهم) يرجع الى الملك الذى قلنا أنه ان كان مفردا فى لفظه فهو جمع فى معناه .

وهل المراد من كلمة (فوق) العلو والارتفاع ، أى أن ثمانية يحملون عرش الرب تعالى فى مــكان فوق مكان الملائكة الذين على ارجاء السماء الواهيــة ؟ أم معنى (فوقهم) زيادة عليهم : كما تقول لآخــر وقد اعطيته مئة درهم : (لك عندى فوقها مئة أخرى) ، وقد تقول (لك عندى وراءها مئة أخرى) ، وكلاهما بمعنى غيرها وزيادة عليها ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يحمل عرش الرب يومئــــذ ثمانيــة هم غــير الملائكة الذين على الأرجاء وزيادة عليهم (١) .

أو ضــمير (فوقهم) يرجع الى الثمانية الذين يحملون العرش ، وهو متأخر فى اللفظ لكنه متقدم فى الرتبــة ، ويكون المعنى حينئذ : ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية فوقهم ، فهم يحملونه فوق رءوسهم أو على ظهورهم ، وليس معلقا فى ايديهم مثلا .

والمراد من الثمانيــة مســكوت عنه ، فهم ثمانية ملائكة ، أو ثمانية صــفوف منهم ، أو ثمانية قوات الهية أخرى تحمل عرش الرب فوق رءوس ملائــكة الأرجاء ، أو تحمله زيادة عليهم ، بحيث يكون الجميع مشتركين فى الحمل ــ كل ذلك يحتمله لفظ الآية . فلا يحسن القطع بشىء منه .

أما (العرش) فى اللغة العربية فله معان غير السرير الذى تجلس عليه الملوك : منها العز والملك والسلطان، ومنه قولهم « فلان ثل عرشه » يريدون زال ملــكه ، وذهب سلطانه . وقال الشاعر : « تداركتما عبســا وقد ثل عرشها » ، أى ذهب عزها ، وضــعف أمرها ، كما يقولون فى عكس ذلك « فلان توطد عرشه » ، أى استقر ملكه فى البلاد ، ورسخ سلطانه على العباد .

وحمل عرش الرب فى الآية قد يكون تمثيلا لــكمال عزته سبحانه ، وانفراده بالجلالة والعزة والملك فى ذلك اليوم ، وأن تأثير هيبته سبحانه وتعالى فى القلوب فى ذلك اليوم يحكى تأثير ملوك الدنيا ــ وهم على عروشهم التى تحف بها جلة وزرائهم وكبار قوادهم ــ فى قلوب رعيتهم المستعبدين لهم . وأين هــذا من ذاك ، ولله المثل الأعلى ، وانما هو تنزل لأفهام المخاطبين ، وافراغ للمعانى الغيبيــة فى قوالب ما الفوه من تراكيب لغتهم العربية ، واصطلحوا عليه من أساليب التخاطب بينهم فيها . والا فان خالق الكون تقدست أسماؤه ليس جسما يحمل على العروش ، ولا مخلوقا تزدهيه الزخارف والنقوش .

وكل ماذكر فى هذه الآية من أمر تخريب الــكائنات يوم القيامة ، ووصف أهواله ، وأحوال الملائكة فيه ، وما ينسب الى الذات المقدسة الالهية فى ذلك اليــوم من الأوصاف والأطوار ــ نؤمن بما ورد منه فى القرآن، وعلى لسان نبينا عليه الصلاة والسلام ، بعد التحقق من صحته ، من دون زيادة عليه ، ولا تفنن فى ايراده ، حســبما دل ظاهره ، ونكل أمر كنهه وحقيقته الى قائله ومنزله سبحانه ، ونجتهد فى أن نربى انفسنا التربية الدينية التى يرمى اليها الوحى السماوى والوعظ الالهى ، فنشعر قلوبنا الايمان والتقوى ، ونتمسك فى حب الخير والفضيلة وتجنب الشر والرذيلة بالسبب الأقوى ، مراقبين فى جميع أحوالنا جلال الله وعظمته ، محاذرين عقوبته وسطوته ، فى يوم تعرض فيه الخلائق ذلك العرض العظيم ، (يوم لاينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم) .

(**يومئذ**) ، أى فى ذلك اليوم الذى سبق وصفه . وانما أعاد ذكر كلمة (يومئذ) المرة بعد المرة خــلال سرد أحوال ذلك اليوم ــ زيادة احضار له فى أذهان المخاطبين ، وتصويرا لهوله فى نفوسهم حتى كأنه ماثل أمام أعينهم .

(**تعرضون**) ، أى على ربكم أيها البشر للحساب ، وتوفية كل عامل جزاءه من خير وشر . ومن جملة البشر المخاطبين بهــذا الخطاب أولئك المعاندون من مشركى مكة الذين ينكرون الرسالة ، ويكذبون بيوم الدين .

وهذه الآية كما قلنا لبيان الحساب والشروع فى اعمــاله بعد أن استوفت الآيات الســابقة ذكر قيام الســاعة ، وخراب العــالم . وظاهر السياق أن كلا الأمرين ــ خراب الكون وعرض الخلائق للحســاب ــ يقعان فى يوم واحد ، لكن هناك مايدل على أن العرض للحساب ومباشرة أعماله يكون وقته بعد الوقت الذى يحصل فيه خراب الكون بالنفخة الثانية ، فهما وقتان أو يومان ، فالنفخات ثلاث :

١ ــ نفخة الفزع الأكبر ، وقد أشير اليها فى آية النمل وهى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) .

٢ ــ نفخة الصعق ، وهى التى يكون بها موت الخلائق وخراب الكون ، والوقت خلال هاتين النفختين

---

(١) لا وجه لهذا القول فيما نرى ؛ فان اضافة عدد معلوم الى عدد مجهول يبقى معه المجموع مجهولا ، وحينئذ يخلو ذكر عــدد الثمانية من الفائدة . المصحح .

﴿ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ

من يوم القيامة ، وقد تكفلت الآيات السابقة ببيان ما يحصل في هذا الوقت بضرب من الايجاز اعتمادا على آيات اخرى أتت على وصفه بأوفى بيان .

٣ ــ نفخة البعث والنشور ، وقوله تعالى هنا (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) هو بيان لذلك وشروع في وصف ما يقع بعد تلك النفخة الثالثة من العرض والحساب (١) .

ولم تذكر هذه النفخة صراحة لعلم المؤمن بها من آيات وأحاديث اخر . على أن الوقت منذ النفخة الأولى الى دخول اهل الجنة الجنة ، واهل النار النار ــ يعتبر احيانا كيوم واحد ، من حيث اتساق احواله ، وتسلسل اهواله .

و **(العرض)** هنا معلوم المعنى ، وهو من عرض الجند على الأمير اذا مروا أمامه فتعهد أمرهم وتفقد احوالهم .

وقوله **(خافية)** ، اى حالة خافية كنتم تسترونها عن الناس أيها البشر ، فهو سبحانه وتعالى لا تخفى عليه ، وانما هو عالم بأحوالكم ، محص لجميع اعمالكم ،

(١) ماذهب اليه المؤلف : من عد النفخات ثلاثا ــ هو اختيار ابن العربى ، ونقل الآلوسى من القاضى عياض أنها اربع ، واختار بعضهم أنها اثنتان ، ثم اختلف هؤلاء فى نفخة الفزع : الاولى هى ام الثانية ؟

ونقول : انه لم يتعرض لعد النفخات فى الكتاب الكريم الا قوله تعالى (٦٨ : الزمر) : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ، ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون) وهو قاطع فى وقوع النفخ مرتين : مرة واحدة للصعق ، ومرة واحدة اخرى للبعث . وامور الآخرة مما لايثبت بغير دليل قاطع . فلا وجه للقول بنفخة ثالثة هى نفخة الفزع . وقوله تعالى (٨٧ : النمل) : (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله) ــ ليس المراد به نفخة ثالثة ولا احدى النفختين السابقتين ، بل المراد به كل منهما ، فان النفخة الاولى تفزع الناس وتصعقهم ، والنفخة الثانية يقوم الناس بها من قبورهم مذعورين ، فالفزع واقع فى النفختين ، ولذلك عبر فى آية الفزع بالمضارع الذى يدل على تكرر الوقوع ، فهو يقول : « حين ينفخ فى الصور يفزع الناس » . وانما قال فزع بصيغة الماضى للاشارة الى تحقق الفزع كلما حصل نفخ فى الصور . والله اعلم . اهـ : المصحح .

فيجازى كلا منكم بحسب عمله : ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . وقد فصل ذلك بقوله : فاما من أوتى ... الآيات .

قوله : **(فاما الخ)** تفصيل لنتيجة العرض والحساب اللذين ارسلا مجملين فى الآية السابقة ، وقوله : (من اوتى) كناية عن المؤمن الناجى ، و **(كتابه)** صحيفة عمله التى اثبت فيها ما قدم فى حياته الأولى من خير وعمل صالح ، واعطاؤه كتابه بيمينه كناية عن فوزه فى الحساب ونجاته يوم العرض .

و **(اليمين)** هى اليد اليمنى ، لكن العرب تكنى بها عن اليمين والخير والبركة والنجح فى الأمور . واصل ذلك أنهم كانوا يستخيرون بزجر الطير واثارتها من وكناتها ومواقعها ، فاذا طار الطائر واخذ ذات اليمين تفاءلوا وتيمنوا ومضوا فى اعمالهم التى كانوا فيها مترددين ، وسموا ذلك الطائر سانحا ، واذا طار الى جهة الشمال تشاءموا وتطيروا واحجموا عن العمل ، وسموا ذلك الطائر بارحا . ولقد توسعوا فى هذا الاستعمال حتى سموا العمل نفسه باسم الطائر ومنه قوله تعالى : (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه) اى عمله ، فهو مطوق به يوم القيامة ، ولا طائر ثمة ، ولا طيران .

وكما كانوا يتيمنون باليد اليمنى والجهة اليمنى كانوا يتشاءمون باليد اليسرى وجهة اليسار والشمال ، بل سموا اليد اليسرى والرجل اليسرى ــ شؤمى ، فيقولون : « مضى فلان على شؤمى يديه » اى من جهة الشمال ، و « اعتمد على رجله الشؤمى » اى وقف عليها .

وكل هذا من مسالة السانح والبارح فى زجر الطير والتكهن عن المستقبل بواسطته . ومن هذا الاستعمال قوله تعالى : (فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة ؟) : فالمشأمة والتشاؤم ماخوذ من اليد الشؤمى ، اى اليسرى ، كما ان الميمنة والتيامن من اليد اليمنى . والمراد من اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة : فريقا السعداء الميامين على أنفسهم ، والأشقياء المشائيم عليها .

وعلى هذا فقوله تعالى هنا (فاما من أوتى كتابه بيمينه) معناه اما من كان من فريق اهل السعادة ، وقوله فى الآية الآتية **(واما من أوتى كتابه بشماله)** معناه اما من كان من فريق اهل الشقاوة .

ومن قبيل اعطاء الكتاب بالشمال الدال على الشقاوة والخسران ــ اعطاء الكتاب من وراء الظهر فى آية **(واما من أوتى كتابه وراء ظهره)** . وللظهر استعمالات مجازية جرى عليها التخاطب بين اهل اللسان كما قلنا فى اليمين والشمال : من ذلك قولهم « لاتجعل حاجتى منك بظهر » اى لا تنسها . وقوله تعالى : **« فنبذوه وراء ظهورهم »** ، اى اهملوا الميثاق ، ولم يفوا به .

ولا يخفى ان الوحى انما هو خطاب الله للعرب مباشرة . ولا يصح أن يسمى خطابا لهم الا اذا كان واردا على أسلوبهم ، ومناحى كلامهم ، والا فلهم ان

يقولوا له صلى الله عليه وسلم : مافهمنا ماتقول ، ولا ماتدعونا اليه ، ثم وجدوا من ذلك سبيلا الى الطعن فيه وفي رسالته. ولم ينقل الينا انهم طعنوا في القرآن من جهة عدم فهمه ، وغموض اساليبه ، فدل هذا على ما قلنا . ونقل الاصمعي عن العرب انهم يقولون : « فلان عندنا باليمين » اى بالمنزلة الحسنة ، و « فلان عندنا بالشمال » اذا خست منزلته . وقال الشاعر :

ابيني : أفي يمنى يديك جعلتني
فأفرح ام صيرتني بشمالك ؟

وسئل نفطويه عن قول جرير :

واني لعف الفقر مشترك الغنى
سريع – اذا لم ارض داري – احتماليا
وباسط خير فيكمو بيمينه
وقابض شر عنكمو بشماليا

فقال : ان العرب تنسب كل خير لليمين وكل شر الى الشمال ، ثم استشهد على ذلك بهذه الآية (فأما من أوتي الخ) .

وقول جرير (احتماليا) يريد به سفره وتنقله الى دار اخرى يرضاها ، وهو فاعل لقوله (سريع) .

اما أن الانسان يأتي يوم القيامة واعماله محصاة عليه في كتاب لايغادر منها صغيرة ولا كبيرة بحيث يضطر الى الاعتراف بها – فهذا مالا ريب فيه . وهو من عقائد الاسلام ، لكنا لانكلف معرفة ما اذا كان الكتاب على مثال اللوح او الورق او الرق او غير ذلك ، وما اذا كانت الكتابة بمداد وقلم او بأداة اخرى ، وما اذا كان الخط بنقوش وحروف ، أو بتجلي الأعمال للعاملين ، وظهورها لهم ظهورا بينا كأنها مثبتة في ضمائرهم ، ومنقوشة على الواح نفوسهم : بحيث لا يقدرون على انكارها ، والتملص من تبعتها ، وهو المعنى الذي فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) – كل ذلك لا يكلفه المسلم ، وانما يكلف اعتقاد صدق الخبر اجمالا ، ثم تفويض امر تفصيله الى الله تعالى .

وقوله (**هاؤم**) اسم فعل امر بمعنى خذوا خطابا للجمع ، وتقول لمفرد المذكر (هاء) بفتح الهمزة ، وللمؤنثة (هاء) بكسرها ، وللمثنى (هاؤما) ، وللنسوة (هاؤن) والهاء في (**كتابيه**) و (**حسابيه**) و (**ماليه**) و (**سلطانيه**) هاء السكت ، فيرتاح القارىء في انقطاع نفسه عندها . ولا كذلك اذا وقف على ياء المتكلم مفتوحة ، لاسيما والآيات مراعى فيها الازدواج مع كلمات (راضيه) و (عاليه) و (خاليه) التي هاآتها هاآت تأنيث لا هاآت سكت .

وكان حق هاء السكت أن تحذف من الآيات حين الوصل ، لكنهم يؤثرون النطق بها فيه ايضا ، لكونها ثابتة كتابة في المصحف الامام .

ومعنى (**ظننت**) هنا علمت وتيقنت ، اذ لايكتفى من المؤمن بالله أن يظن ملاقاته للحساب ظنا ، وانما يجب عليه أن يعتقده اعتقادا ، ولعل النكتة في العدول عن التعبير بالعلم الى التعبير بالظن ، هي افادة أن مجرد الظن بيوم الحساب كاف في حمل العبد على الايمان والطاعة ، فما بالك اذا كان يعلمه علما . ومن الظن بمعنى العلم قوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) .

وقد يقال : كيف تكون (العيشة راضية) ؟ وكيف يصح أن يتصور وقوع الرضا منها ؟ واجيب بأن (راضية) بمعنى مرضية ، وانه اسم مفعول بصيغة اسم الفاعل . وقالوا ان اكثر من يستعمل ذلك من احياء العرب سكان الحجاز فيقولون « ماء دافق وسر كاتم » اى مدفوق ومكتوم ، وقيل هو من باب قولهم « لابن وتامر » ، يعني أن صيغته هذه صيغة نسبة من دون الحاق يائها ، فمعنى « لابن » ذو لبن و « تامر » ذو تمر ، و « دارع » ذو درع ، و « نابل » ذو نبل . وهذا بدل أن تقول لبني وتمري ودرعي ونبلي . و (**راضية**) بمعنى ذات رضا ، اى ان الرضا واقع عليها لا منها .

والمحققون على ان (الراضية) هي العيشة نفسها ، وان نسبة الرضا اليها مجاز معهود مثله في كلام العرب من حيث يقصد به المبالغة في رضا صاحبها ، وان الرضا تمكن من نفسه حتى انتقل أثره الى عيشته نفسها فأصبحت راضية ايضا .

و (**جنة عالية**) اى مرتفعة ارتفاعا حسيا ، فيكون ذلك أطيب لها واكرم . أو المراد بعلوها علو شأنها ، وارتفاع قدرها ، وتنزهها عن النقص والسوء ، او عن المشابه والنظير .

وقوله (**قطوفها دانية**) اى لا حائل يحول بين ثمار تلك الجنة وبين جانيها كارتفاع وشوك مثلا ، وانما هي مهدلة قريبة من متناول الأيدي . و (**القطوف**) جمع قطف بكسر القاف : الثمر الذي نضج وحان زمن قطفه ، وقيل هو الثمر ساعة قطف.

والقارىء يفهم من سياق قوله (**كلوا واشربوا الخ**) ان قائلا يقول لهم ذلك يمتن به عليهم ، ويذكرهم بحسن صنيع الله بهم ، او انهم انفسهم يقول بعضهم لبعض ذلك تلذذا وتباهيا . ولا يخفى أن (من) في قوله (فأما من أوتي) لفظه واحد لكن المراد به جماعة الناجين ذوي العيشة الراضية .

على انه ليس المراد ب (كلوا واشربوا) امر اهل الجنة بالأكل والشرب فقط ، وانما هو اسلوب بليغ يقصد به الاباحة للمأمور أن يمرح في النعيم ويتمتع بما فيه ، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه من دون معارض . الا ترى انك تعطي ابنك المطيع لك مالا وقصورا ودورا وحدائق ثم تقول له « اذهب يا بني فكل واشرب وكن قرير العين بما اعطيتك جزاء برك بي ، وطاعتك لي » . وانت لاتريد بأمره بالأكل والشرب الا اطلاق يده ، وتذكيره بالنعمة ، وطلب دوام شكره عليها . ويؤيد ذلك قوله بعده : (**بما أسلفتم في الأيام الخالية**) اى تمتعوا بما اعطيتم بسبب ما كان منكم في ايام حياتكم الماضية في الدنيا. فباء (بما) متعلقة (بكلوا واشربوا) ، والمعنى تمتعوا

كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ

وتلذذوا بالنعم الالهية التى من اجلها واعظمها القرب منه تعالى ، ورؤية وجهه الكريم . والا فان مجرد الاكل والشرب لا يرضي بهما الكريم ثوابا لمن قام بما امره به ، واجتنب ما نهاه عنه . ولعمرى ان الاكل والشرب فى الجنة من اقل ما يحتفل به فى مكافاة اهلها ، واثابتهم على ايمانهم وطاعتهم وحسن اعمالهم ، واذا لم ينتظر العاملون من دخول الجنة الا ان ياكلوا ويشربوا فما اخس جنتهم ! ! وما اخسر صفقتهم ! ! فعلى المؤمن المحمدى ان ينتبه لما قلنا ، وينسج على منواله فى فهم ماوردت به النصوص من هذا القبيل ، وتفسيره تفسيرا يلتحم مع ماتقرر فى الشرع وايدته علوم الحقيقة ، وصرح به كبار علماء الاسلام كالغزالى : من ان المؤمن فى الجنة تتغلب فيه الروحانية على الجسمانية ، والنورانية على الظلمانية ، ويكون اكبر حظوظه وقتئذ التمتع بمعانى الاحدية ، والتلذذ بجمالها ، والاستغراق فى سبحات الذاتية ، والتخشع لجلالها ، والا فكيف يتمكن من الطيران ، ويدنو له البعيد ،ويختصر له الزمان، ويفعل مايريد. آمنا بالله ، وتقدست اسماء الله . وسياتى لهذا البحث زيادة تفصيل فى الكلام على الآيات التى تصف نعيم الجنة واسباب اللذوى فيها من سورة « هل اتى » .

ثم انتقل الى بيان ما يكون من نصيب الجاحد المكذب بعد حسابه وعرضه على ربه . وشأنه على العكس من شأن المؤمن . فهو ممن يؤتى كتابه بشماله، اى يكون من اهل الشقاء والخسران . وما قلناه فى تفسير (أوتى كتابه بيمينه) يقال فى تفسير **(أوتى كتابه بشماله)** . وهذا المكذب لا يلبث اذا علم انه من فريق الأشقياء أن يحزن ويتحسر ويقول **(ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه)** كأنه يتمنى الا يكون من فريق الاشقياء ، أو يتمنى الا يكون خلق ولا حوسب ، ولا أوتى كتابا ، ولا درى حسابا . على حد قوله فى آية اخرى (ياليتنى كنت ترابا) .

والضمير فى **(يا ليتها)** يرجع الى الموتة التى ماتها فى الدنيا ، فهو يسخط عليها لكونها لم تكن قاضية عليه الى الأبد ، فلا يحيا بعدها فى جهنم هذه الحياة المرة ، التى يموت فيها كل يوم الف مرة . ويحتمل ان يرجع الضمير الى الحالة السيئة التى اصبح فيها بعد البعث والحساب ، فهو يتمنى لو أن ماهو فيه من الشقاء والآلام يقضى عليه فيرتاح : يعنى انه يتمنى الموت فى ذلك الوقت مع ان الموت كان أكره شيء عليه فى الحياة الدنيا .

ثم يتذكر ذلك المعذب من امر دنياه ورغده فيها ما يزيده حسرة وكآبة فيقول **(ما اغنى عنى ماليه)** ، فهو ينفي ان يكون ماله قداغنى عنه شيئا ، اويستفهم استفهاما . والقصد منهما كليهما اظهار التاسف واللوعة ، وان كنوزه التى جمعها فى دار الدنيا ، ولم يقم بحق الله فيها ــ لم تدفع عنه من امر الله شيئا .

(هلك عنى سلطانيه) السلطان مصدر بمعنى السلطة ونفوذ الأمر ، كالغفران والرجحان . ومعنى (هلك عنى) غاب عنى وزال عنى . يقول ان ملكه وتسلطه الذى كان فى دار الدنيا ضل عنه وذهب فهو يتحسر ويتحزن ، لانه شغل بملكه وسعة سلطانه عن طاعة ربه ، والعمل لآخرته .

وكان قتادة ينكر ان يكون تفسير الآية ما ذكر ويقول : « اما والله ما كل من دخل النار كان امير قرية يجبيها » ، يريد ان قوله تعالى (هلك عنى سلطانيه) هو من مقول المكذبين سواء اكانوا سلاطين ام غير سلاطين . وغير السلاطين من سائر الناس لا يمكن ان يقولوا (هلك عنى سلطانيه) بمعنى الملك والتسلط على الرعية ، وانما السلطان هنا القدرة والطاقة او الحجة والبينة ، ولا جرم ان كل واحد من فريق اهل الشقاء يقول هذا القول ويتحسر لبطلان حجته التى كان يحتج بها فى الدنيا وعدم نفعها فى درء العذاب عنه فى ذلك اليوم .

وقد يقال : قلما يوجد فى الدنيا من لم يكن له شيء من السلطة على غيره ولو على زوجته وولده كما قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، فالمعذب فى الآخرة يتذكر انه كان ذا سلطة يمكنه ان يستعملها فى الخير والطاعة ورضاء الله عز وجل ، لكنه بالعكس استعملها فى الشر والفساد ، فهو يحزن ويتحسر لذلك .

يحكى أن عضد الدولة بن بويه نظم شعرا جاء فيه قوله فى صفة نفسه :

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

ثم أصيب بعد بشيء من الخبل والوسواس وفساد المزاج ، فكان لاينطلق لسانه الا بقوله : « ما اغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » وجعل يرددها الى ان مات سنة ٣٧٢ هـ .

وكما يقال لفريق السعداء اصحاب العيشة الراضية من الكلام ما تطيب به انفسهم ، وتهنأ معه معيشتهم مثل (كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم فى الأيام الخالية) ــ يقال لفريق اهل الشقاء من كلم التحقير والتعيير ما يزيد به شقاؤهم ، ويعظم معه بلاؤهم : من ذلك أن يقول قائل على مسمع من أحدهم : **(خذوه فغلوه)** اى ضعوا فى يديه ورجليه

الغل ، والغل مايكبل به الاسير من القيود والسلاسل.

و (**الجحيم**) أشد اماكن النار تأججا . و (**صلوه**) بفتح الصادمن التصلية ، وهي حرق الشيء على النار: اى اجعلوه في الجحيم يصلاها : اى يحترق بهـا ، ويقاسي حرها . و (السلسلة) هنا هي الغل ، والمراد من كونها سبعين ذراعا انهـا طويلة جـدا . وعـدد (السبعين) يستعمل في كلام العرب عند ارادة الكثرة، وعليه قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقـوله (**فاسلكوه**) اى فأدخلوه بين ثناياها واطوائها . وانما قال ذلك لأن السلسلة لطولها والتواء بعض اطرافها على بعض تكون كأنها وعاء يدخل فيه ذلك المعذب . وسلك الشيء في الشيء : ادخله فيه كما تدخل اليد في الجيب ، والخيط في خرم الابرة .

وقدم (الجحيم) عـلى (صلوه) و (في سلسلة الخ) على (فاسلكوه) لمراعاة الفواصـل ، أو لارادة الحصر : كأن المعنى انكم أيها المأمورون بعـذاب ذلك الجاحد لا يسمح لكم أن توردوه من طبقات النار الا اشدها حرا ، وأقواها اشتعالا ، ولا أن تعذبوه مـن آلات العذاب الا بأعظمها هولا ، وأبينها طولا .

قالوا : و (ثم) في الآية ليست لافادة الترتيب في الزمان ، وانما هى لافادة التفاوت في المرتبة فيستفاد منها ان المتأخر في الذكر اهم واكمل في نوعه مما قبله.

ولنا ان نقول ان سلكه في السلسـلة هـو نفس تغليله في الغل ، فما القصد من التكرير ؟ وقد يجاب بانهم امروا اولا بسوقه الى الجحيم مغلولا وهنـاك يعاد تكبيله بكبل اطول واعظم ، وعلى هذا لايبعد ان يكون قد لوحظ في (ثم) افادة التراخي الزماني : فهو يغل أولا ويقاد الى الجحيم فتمر عليه وهـو يقـاد اليها مدة يظنها لطولها سنين ، ثم اذا ورد الجحيم تمر عليه مدة طويلة ايضا قبـل أن يكبل بالسلسلة فيحسب أن ماهو فيه من العذاب آخر ألوانه . حتى اذا سلكوه في تلك السلسلة عرف ان هناك أنواعا منه اشد هولا ، فيشتد حزنه ويعظم كربه .

وبعد فان ما اتى على ذكره كتاب الله من وصف دار النعيم والمنعمين،ودار العذاب والمعذبين ــ انما هو تنزل في الخطاب الىماعتدناه من الأساليب ، وتقريب لحقائق الغيب في مألوف التراكيب ، والا فان افهامنا ذلك بالكنه والحقيقة متعذر مادام العـالم الأخـروى مباينا لعالمنا في سننه ونواميسه وطبيعته التى ركبها الله فيه ، وكما يستحيل على الكاتب ــ مهما تفنن في الوصـف ــ أن يفهم غلاما فاقدا احدى المـلذوذات الجسدية حقيقة تلك اللذة قبل بلوغه زمنها ، كذلك يستحيل علينا أن نفهم حقيقة نعيـم الدار الآخـرة وعذابها قبل بلوغنا زمنهما .

ثم ان عجزنا عن تعقـل الجنـة والنـار بكنههمـا وحقيقتهما لايستلزم انتفاء وجودهمـا مادام الوارد بشأنهما غير محال عقلا ، اذ كم من امر ثابت الوجود في دنيانا هذه ، بل يكون علمنا به بديهيا احيانا ــ لانقدر أن نتعقله بكنهه ، وانما نتعقله بأثره الصادر عنه والدال عليه . لا نمثل لك بالكهربائية والأثير والمادة واجزائها الفردة التى تتركب منهـا مما لايزال مجهول الحقيقة في العلم الطبيعي ، وانما نحيلك على نفسك التى بين جنبيك ، فانك بالطبع تعترف بأنها موجودة ، لكنك تعجز وتفحم اذا قلنا لك صفها لنا وصفا يوصلنا الى كنه أمرها ، وحقيقة سرها . وكل ما تقـدر عليه من التعريف بها ،هو قولك انى أريد وأفعل ، واهم وأعمل، وانسى واتذكر ، وأفكر واتصور ، وكل ذلك لايكون الا بقوة موجودة بالفعل في بدني ــ تصـدر عنهــا تلك الآثار الموجودة ، اذ لايصدر موجود عن معدوم ، ولا سيما أن تلك القوة اذا زايلت بدنى لم تعد تلك الآثار تصدر عنها ، مع أن البدن سالم لم ينقص منه شيء . تأمل يا أخى هذا ! ثم اعترف معى بأن للدين مجهولات كما أن للعلم مجهولات ، وانه ليس من الانصـاف أن نطاطىء رءوسنا بين يدى الثانية ، ثم نشمخ بأنوفنـا أمام الأولى .

قوله (**انه كان لايؤمن بالله**) الخ استئناف واقع في جواب سؤال مقدر ــ كأن قائلا يقول : ولم استحق كل هذا العذاب يارب ؟ قال : (انه كان لايؤمن ... ولا يحض ..) الخ ..

والايمان بالله اصل في سلامة العقـائد ، كمـا أن العطف على المساكين ومواساتهم بفضل المال اصل في سلامة الاخلاق . ومن ثم قرن الله بين الأمرين في هذه الآية ، وقال ان السبب في تعذيب ذلك المعـذب هـو كفره وشحه : خلو نفسه من التصديق والايمـان ، وخلو قلبه من الرحمـة والحنان ، وهـذا كمـا قرن الكتاب مرارا بين الصلاة والزكاة ، فان الصـلاة مـن اكبر آيات الايمـان ، كمـا أن الزكاة مـن أكبر آيات الرحمة وحب الاحسان .

ولم يعذب الله هذا المعذب بتركه اطعام المساكين ، بل بتركه حض الآخرين على اطعامهـم . فانظر كيف ان الاسلام لم يكتف من المؤمنين بأن يحبوا المساكين ، ويعطفوا عليهم ، ويحسنوا اليهم فقط، بل هو يأمرهم بأن يأمروا غيرهم أيضا ، ويحضوا المتقاعدين عن ذلك حضا .

ومن مظاهر الحض وصوره أن يدعو المسلم اخوانه المؤمنين اليه ، ويكلفهم مساعدته فيما يبغيه : مـن العناية بالفقراء ، وازاحة عللهـم ، وتيسـير أسبـاب المعيشة عليهم،وتمهيد طرق الحياة الطيبة بين ايديهم . فان الكتاب ان كان اقتصر من ضروب العناية بالفقراء على ذكر الطعام وحده ، فانما ذكره كنموذج ومثـال، والا فالاسلام يأمر بايوائهم والباسهم ، وقاية لهم مـن اذى البرد، ويأمر بتعليمهم وارشادهم الى مابه صلاح دينهم ودنياهم من علم وصناعة. يدلك على هذا ماقاله المفسرون في قوله تعالى : (واما السائل فلا تنهر) : ان السائل يشمل سائل العلم المحتاج الى المعرفة كمـا يشمل سائل الصدقة ، بل خصه بعضهم بطالب العلم

بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾

وقال : (اما انه ليس بالسائل المستجدى ، ولكن طالب العلم اذا جاءك فلا تنهره) .

واذا دعا المؤمن اخوانه المؤمنين الى ماقلنا من التعاون فى شأن الفقراء والمساكين على الوجه الذى يكون فيه سداد من عوز أبدانهم ونفوسهم — كانت دعوته هذه هى الحض الذى اوعد الكتاب على تركه هذا الوعيد الشديد .

ثم اذا دعا وأجابه اخوانه وعملوا باشارته من التزام العناية بالفقراء آنا فآنا — كانت عنايتهم هذه واجتماعهم عليها هى ما يسميه اهل هذا العصر (الجمعيات الخيرية) و (جمعيات البر والاحسان) و (جمعيات التعاون) . فاذا قلنا لاخواننا المسلمين : ان كتابنا السماوى يرصد لنا الوعيد على تركنا تأليف (جمعيات زكاة) يمكننا بواسطتها انتشال اخوتنا الفقراء من مهاوى التعاسات — لم نرد أن القرآن وضع لذلك قانونا سرد فيه الأعمال مادة مادة ، وانما أردنا أنه رمز وأشار ، وأمر بالقياس والاعتبار ، وأن نراعى فى أعمالنا ومساعينا اختلاف الاعصار والامصار .

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا
واللحن يفهمه ذوو الألباب

وأن الناقص الايمان ، الذى كان من آيات نقص ايمانه قسوته على المساكين ، واهمال أمرهم ، وتركه الحض على مواساتهم وسد خلتهم — لجدير بمقت الله وغضبه ، وأن تسوء والعياذ بالله عاقبته ، فلا يكون له فى النشأة الأخرى (**حميم**) أى قريب أو صديق يهتم بأمره ، أو يدفع عنه ، أو يغيثه مما هو فيه من البلاء والشقاء ، ليكون ذلك جزاء له من مثل عمله : تخلى عن اخوانه الفقراء فى دنياه ، فتخلى اخوانه عنه فى آخرته . تصام عن سماع شكوى أولئك الفقراء فى هذا اليوم ، فتصام أخلاؤه عن شكواه يوم دنياه ، فحرمه الله شهى الطعام فى آخرته — فلم يكن له (**طعام**) يومئذ (**الا من غسلين**) . قال قتادة : « هو شر الطعام واخبثه وابشعه » . ولعله انما سمى بذلك من الغسل ، لان شر الطعام واقذره هو البقية التى تعلق فى صحاف الموائد بعد الفراغ من اكل ماكان فيها ، فتسمى تلك الفضلة ، وتغسل منها الصحاف . فهذه الفضلات الخبيثة التى تشمئز منها النفوس الكريمة ، هى التى يستحق أن يطعمها ذلك الباخل على الفقراء بالطعام ، حتى اضطرهم الجوع الى ارتكاب الشرور والآثام . وطعامه هذا (**لا يأكله الا الخاطئون**) المذنبون قساة القلوب أمثاله . و (الخاطىء) متعمد الخطيئة وهى الاثم والذنب ، بخلاف (المخطىء) فانه من الخطأ . وليس الخطأ بإثم ولا ذنب ، وانما هو ماعفا الله عنه ، وقد مرت الاشارة الى الفرق بينهما .

و (طعام) فى قوله (ولا يحض على طعام المسكين) اسم مصدر من قولك اطعمه اطعاما وطعاما ، كما يقال اعطاه اعطاء وعطاء . اما (طعام) فى قوله (ولا طعام الا من غسلين) فهو نفس ما يؤكل ، وانما قلنا أن (اطعام المسكين) بمعنى اطعام ، لان الحض انما يكون على الفعل لا على الاسم ، فتقول (احضك ناهدا على اطعام المسكين) ولا تقول (احضك على رغيف المسكين) الا على تقدير مضاف ، والاصل عدم التقدير .

ومن لطيف آداب العرب انهم كانوا يستبشعون الحدة والنزق وشكاسة الأخلاق الا فى الحض على الاستعداد للضيوف وتهيئة الطعام للعفاة والمساكين ، فان الحدة وشراسة الاخلاق تكون اذ ذاك محمودة ، ومن ذلك قول شاعرهم :

اذا نزل الأضياف كان عزورا
على الحى حتى تستقل مراجله

يقول : ان ذلك السيد يكون وقت نزول الأضياف به غضوبا شرسا سيىء الأخلاق على رجال الحى : يحضهم على تهيئة مايلزم لهؤلاء الضيفان ومداركة أسباب راحتهم ، وتعجيل الطعام اليهم ، لئلا يكونوا جياعا فيمنعهم الحياء عن طلبه . ولا يزال ذلك السيد فى غضبه وحدته حتى تستقل قدوره ، أى تعلو ، وتقوم على مواقد النيران ، وهناك يهدأ باله ، ويسكن غضبه .

ومما يروى عن السلف من الرقائق والتأدب بآداب القرآن ، أن أبا الدرداء الصحابى الجليل رضى الله عنه كان يحض امراته على الاستكثار من مرق الطعام ليوسع به على المساكين ، ويقول لها : (آمنا بالله فخلعنا نصف السلسلة الطويلة التى قال الله انها معدة للذين لا يؤمنون بالله العظيم ، أفلا نخلع نصفها الآخر بالحض على طعام هؤلاء المساكين ، فنخرج من عداد الذين لايحضون على طعام المسكين ؟ ؟) .

ثم شرع فى تقريع مشركى العرب على تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : اخبرناكم اولا خبر

الأمم القديمة التى كذبت بالحاقة ويوم العرض والحساب فأهلكناها واذقناها وبال امرها ، ثم قفينا على ذلك بحبر يوم الحساب نفسه ، ووصف هوله ومايكون فيه لفريقي الأبرار والفجار من النعيم والعذاب المقيم ، ويوشك أن يكون كل ماقلناه غير بالغ مبلغه فى قلوبكم ، ولا مؤثر اثره فى نفوسكم ، عنادا منكم لنبيكم، ولجاجا فى مقاومته وتكذيبه ، قائلين عنه تارة انه شاعر ، وطورا أن قوله قول كاهن . (**فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون انه لقول رسول كريم الخ**) .

وقد مر فى (ن . والقلم) بيان الحكمة فى ان الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته ، ونسمعه هنا يقول جل وعز : (فلا اقسم) فكيف ذلك ؟ يقول بعضهم : ان المنفى (بلا) ليس القسم ، وانما المنفى محذوف مفهوم مما سبق : تقديره (فلا) معنى لتكذيبكم بالقرآن ، ولا الأمر ماتقولونه عن محمد صلى الله عليه وسلم انه شاعر او كاهن ، ثم استانف فقال : (اقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) . وعلى هذا يكون افضل للقارىء ان يقف على (فلا) وقفة خفيفة ليشعر السامع بما ذكرنا من المعنى . وذهب المحققون الى ان (لا) نافية للقسم ، وانه تعالى يخبرنا بأنه لايحلف بما ذكر : كأنه يقول : ان القضية المتنازع فيها - وهى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما ادعى من النبوة والوحى - هى من الظهور والثبوت بحيث لاتحتاج الى الحلف عليها . وهذا الأسلوب مالوف حتى فى تخاطب اهل زماننا ، فيقول احدهم للاخر فى امر مهم يريد أن يثبته له : لاحاجة للحلف او لا لزوم للحلف ، ثم يستانف فيقول : ان الأمر كيت وكيت .

اما قوله (ما تبصرون وما لاتبصرون) فالاقرب ان تكون المراد به ماترون ويقع تحت ابصاركم من عالم الشهادة ، ومالا ترون ولا يقع تحت ابصاركم من عالم الغيب ، فهو تحقيق لعالم الغيب ، وتعظيم لشانه . وفى القسم بالأمرين معا اشارة الى ان كل ماخلق الله وما لم يخلق ، مما نرى وما لانرى ، هو عظيم الخطر جليل الشأن ، حقيق بالتامل فيه ، واذا كان المتكلم يدخل فى عموم كلامه كما ذهب اليه بعض الأصوليين ، تكون الذات الأحدية داخلة فى عموم ما لانبصره من عالم الغيب ، ويكون تعالى قد اقسم لنا بذاته العلية على رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وصدق دعواه .

(**انه**) اى القرآن (**لقول رسول**) اى قول محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى انه قوله ، انه قاله بلسانه لكم مبلغا . بعد أن ألقى فى روعه وحيا ، والا فان القرآن كلام الله . وفى اضافة القول اليه صلى الله عليه وسلم بعنوان انه رسول لا باسمه العلمى وهو محمد - ما يدفع الشبهة المذكورة ، وذلك لان قول الرسول هو فى الواقع ونفس الأمر قول صادر عن مرسله ، وانما الرسول مبلغ له .

وقد نفى الكتاب ان يكون القرآن (قول شاعر) او (قول كاهن) .

و (الشاعر) معروف . اما (الكاهن) فهو الذى يخبر عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومطالعة الغيب ، ورجل مثل هذا اعتاد أن يطيل الفكر والاستغراق ، ويكثر التطلع الى ما وراء عالم الحس - قد تبرق له بارقة خيال من ذلك العالم ، فيقرن بها أمثالها ويقيس عليها أشباهها ، ثم يخبر بها ، فيرى احيانا فى اخباره وميض من الحق ومسحة من الصدق . هؤلاء الكهان وجدوا فى بلاد العرب قبل البعثة ، ولكن كانت اخلاقهم واطوارهم وهموم انفسهم ليست على شيء من الطهارة والنزاهة، وحب الخير وممارسة الفضيلة وامحاض العبادة ، وتبليغ الخلق وحيا قامت التجربة على نفعه فى تحسين حال الجماعات البشرية ، وتاثيره فى نقلهم من طور الهمجية الى اعلى أطوار المدنية . وانما كل مايصدر عن احد اولئك الكهان سجعات ظاهرة الركاكة والتعسف ، تتضمن معانى بادية التصنع والتكلف ، فما ابين بطلان ما كان يقوله المشركون من انه صلى الله عليه وسلم كاهن ! وما اوهن الاحتجاج به !

اما قولهم عنه انه شاعر فبطلانه اظهر ، وبهتانهم فيه اكبر ، لأن اخلاق الشعراء وأساليبهم فى كلامهم ، ومراميهم فى حياتهم - تنم عنها أشعارهم وقصائدهم ومعلقاتهم ، فلا غرو ان يوبخ الكتاب اولئك الزاعمين هذه المزاعم فيه صلى الله عليه وسلم ، ويقول لهم : (**قليلا ما تؤمنون ... قليلا ما تذكرون**) اى انتم قوم أصحاب عناد وباطل: ماتت عاطفة الفكر والذكر من قلوبكم ، فلا تؤمنون بالله ، ولا تحدثون فى انفسكم ذكرى تؤدى بكم الى الاعتبار والاتعاظ . فقوله (قليلا) و (قليلا) لافادة نفى اصل الايمان ، ونفى اصل التذكر ، وكثيرا ماتكون (القلة) فى كلام العرب بمعنى العدم المحض . وفى الحديث « انه كان يقل اللغو » اى لا يلغو صلى الله عليه وسلم اصلا . وشاهد ذلك قولهم « قل رجل يقول ذلك الا زيدا » اى ما رجل يقوله الا هو ، فلو لم تكن (قل) بمعنى النفى المحض ما صح الاستثناء منها ، فان الاستثناء معيار العموم كما تقرر فى علم الأصول .

واذا لم يكن القرآن قول شاعر ولا قول كاهن ، فهو (**تنزيل من رب العالمين**) اى وحى منه تعالى انزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فبلغكم اياه بقوله ولسانه . واشار بقوله (رب العالمين) الى أن الاله الذى ربى البشر ، وأمدهم بضروب عنايته ، وغذاهم بصنوف نعمته - حقيق بأن يتعهدهم بوحيه على لسان رسله ، كى يبلغوا بهم غاية كمالهم ، وبحابح سعاداتهم .

(**ولو تقول علينا**) . التقول : تكلف القول ، ويراد به التكذب والافتراء ، لأن القول الذى يكذب به قائله يتكلف له ، ويتصنع فى ايراده .

و (**الأقاويل**) جمع أقوال ، واقوال جمع قول ، فهى جمع الجمع ، وغلب استعمالها فى الأقوال الكاذبة التى لا أصل لها . وجعلها بعضهم جمع (اقوولة)

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

وان كانت (اقوولة) لم تستعمل. وهذه الصيغة اعنى (افعولة) يراد بها صغر مسماها وحقارته غالبا ، مثل اضحوكة واكذوبة واسطورة واعجوبة وانشودة ، جمعها اضاحيك واكاذيب واساطير واعاجيب واناشيد ومثلها (اقاويل) .

و (اليمين) : اليد اليمنى . ويكون الاخذ بيمينه صلى الله عليه وسلم كناية عن التمكن منه ، والقدرة عليه ، فان من يضبط انسانا من يده اليمنى التى هي آلة بطشه يكون قادرا على منعه من الحركة والصيال . أو المراد باليمين القوة مرادا بها قوة الله وقدرته تعالى ، ويكون معنى (**لأخذنا منه باليمين**) لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا . و (**الوتين**) قال ابن سيده : « هو عرق لاصق بالقلب من باطنه اجمع ، يسقى العروق كلها الدم ، ويسقى اللحم ، وهو نهر الجسد » . وقال غيره : « هو نياط القلب وهو حبل الوريد ، اذا قطع مات صاحبه » فمعنى (**لقطعنا منه الوتين**) لعاجلناه بالعقوبة ولم ندعه حيا . وخص الوتين بالذكر من بين سائر اعضاء الجسد وعروقه لان طريقة الاماتة بقطعه أسرع الطرق واشدها اجهازا على الحياة .

وقوله (**حاجزين**) ، اى مانعين وحامين وحائلين بيننا وبين ما نريد منه . وكان الظاهر ان يقول : فما منكم من احد أيها الناس عنه حاجزا ومانعا ، لانه صفة لأحد وهو مفرد . لكن لما كانت (من احد) نكرة مستغرقة فى العموم صارت بمعنى الجمع فوصفت بصفته .

ومعنى الآية انه تعالى يقول فى تبرئته نبيه صلى الله عليه وسلم مما رماه به المشركون ، وفى دحض دعواهم انه ــ وحاشاه ــ كذاب مفتر على الله : لو تعمد محمد كذبا علينا لكنا قادرين على أن نتمكن منه فضل تمكن ، ولكنا اهلكناه وقضينا عليه من وقته ، وما وجد أحد فى البشر يقدر على أن يحول بيننا وبين انفاذ مشيئتنا فيه .

لا يقال : انه قام فى ازمنة التاريخ المختلفة متنبئون لم يهلكهم الله ، بل بقيت اكاذيبهم ، وانتشرت اضاليلهم ــ لانا نقول : انه قلما ظهر متنبىء كذاب الا سلط الله عليه من قتله واخمد انفاسه ، كما فعل فى مسيلمة الكذاب واضرابه . وان بقيت لاحدهم دعوة فى الارض فانما تبقى محصورة فى جهة منها وبين اقوام قليلين تعوزهم الأدلة والبراهين على صحة ما اتى به متنبئوهم لتكون مقبولة فى نفوس ذوى العقول السليمة . أما « بوذه » و « كنفوشيوس » و « زرادشت » الذين انتشرت تعاليمهم فى معظم آسيا ، واتبعهم نيف وسبعمائة مليون من اهلها ، اى نحو نصف العالم الانسانى ــ فقد يكونون انبياء صادقين، ولم يرد فى الشرع نص صريح ينفى نبوتهم. واذا كان فى اديانهم المنسوبة اليهم اليوم ما هو ظاهر الوضع والبطلان فيكون مما دس عليهم ، واخترعته مخيلات اتباعهم ، ولم تسلم من مثله الأديان السماوية المشهورة .

ويمكن أن يقال : ليس معنى (اخذنا منه باليمين . وقطعنا منه الوتين) تعجيل العقوبة له صلى الله عليه وسلم والقضاء على حياته ، وانما المراد انه لو كان كاذبا لكنا عجلنا له عقوبة امثاله من المتنبئين الكاذبين، فنميت ذكره ، ونطفىء دعوته ، ونلاشى ما اتى به . ولا ريب أن معاجلته بالعقوبة على هذه الصورة هو قضاء عليه ، واهلاك له . لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن كذابا ولا مفتاتا على ربه ، فمن اجل ذلك لم يضع ذكره بل رفعه ، ولم يحرج صدره بل شرحه ، ولم يمت دعوته بل احياها ، ولم يلاش امته بل نماها، حتى كان لها من حظ الانتشار والعزة ما لم يكن لسواها .

ان دعوة رجل واحد يهتف بها فى منقطع العمران، فيلبيها ملايين وملايين من البشر ، ويكون من أثرها قيام دين كريم ، ونهوض ملك عظيم ، ونشوء حضارة لم تزل معالمها ناطقة بمجدها الى اليوم ــ دعوة هذا شأنها لايتصور فى العقل ان تكون كاذبة مفتراة على الله . ولو كانت كاذبة كما يقولون ما استتب لدعوة سماوية غيرها أن تثبت وجودها ، وتبرهن على صدقها . اذ لم نر لدعوة أخرى سواها من الأثر فى تربية الأمم ، ونشر العلم والحض على العمل الصالح، والتزام العدل المطلق ــ ما رايناه لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام . فهل يتمخض الباطل عن نتائج خير من نتائج الحق ؟ ويثمر الكذب من النمو الطيب ما لا يثمره الصدق ؟ ؟

أما اذا قيل انه قد قامت فى العصور المتأخرة مدنيات عظيمة فى قوتها ، عظيمة فى اعمالها ، عظيمة فى آثارها ، لم تقم بعنوان اسلامى، ولا هى مما اسس على الدعوة المحمدية ، وقد قضت هذه المدنيات الحديثة على الجماعات الاسلامية ومدنياتها المتوارثة حتى غشاها من امرها ماغشى ــ فانى أقول : لو قام اليوم من تحت الأرض قائم كريم ، ثم طاف معالم المدنيات الاسلامية ، ومساكن الأمم المنسوبة الى الاسلام ــ لانكرها كلها ، اللهم الا كلمة الشهادة ، ومراسم العبادة. ولو طاف هو نفسه المدنيات الحديثة ،

ومساكن أهلها ـ لاعترف بها كلها ، اللهم الا ما ظهر بطله ، واستبان فحشه ، ويفكر أهله أنفسهم فى النزوع عنه ، والتخلص منه .

ولو هبط هابط من فوق السماء ، ثم طاف مدنيات الأمم المنسوبة اليه ، وتأمل فى أصول حياتها المادية الجديدة المؤسسة على الحرص وادخار المال والتمتع بلذائذ العيش ـ لأنكر كل شىء ينسب اليه الا الاسم، وما عرف من تعاليمه وشرائعه التى كان أتى بها الا الرسم .

جعل ختام السورة كنتيجة للكلام السابق ، مرتبطة به أشد ارتباط ، فهو يقول : اذا ثبت أن القرآن وحى من الله ، لم يتقوله محمد صلى الله عليه وسلم على ربه ـ كان هذا القرآن تذكرة وعظة ينتفع بها المتقون ، فضمير **(وانه)** يرجع الى القرآن الذى ان لم يتقدم له ذكر صريح فقد تقدم مايعينه ،ويومىء اليه ، فان قوله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) لم يرد به الا القرآن الذى كان يزعم المشركون أنه أقاويل وأساطير ، والله نفى ذلك واحتج على كذبهم ، وصدق القرآن .

وقوله **(للمتقين)** يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم عن كدورات الأوهام ، وخلصت من شوائب الجمود والتقليد ، ومالت بفطرتها الى قبول الحق والاذعان له ، تتقى بذلك سخط خالقها وتحذر عقابه. أمثال هؤلاء هم الذين استعدت نفوسهم لقبول القرآن والاستهداء به ، أما أولئك المكذبون الجامدون على ماورثوه من آبائهم ، فان الله توعدهم بقوله : **(وانا لنعلم ان منكم مكذبين)** . وليس المراد به افادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط ، بل المراد أنه تعالى محيط بهم ، راصد لهم ، غير تارك عقابهم . فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة : يقال « انا أعرف المحسن منكم والمسىء » أى لايخفى على ذلك منكم ، ولا أغفل عن مقابلة كل بما يستحقه ، ومنه قول ابن الفارض « روحى فداك عرفت أم لم تعرف » أى كافيتنى بالحسنى أم لم تكافنى .

فهؤلاء المكذبون الذين يعلمهم الله وهو من ورائهم ، كيف يكون حالهم فى مستقبل الأيام : فى الدنيا اذا أظهر الله نبيه ، ونصر حزبه ، وفى الآخرة اذا أزيح الستار ، وبطلت الأعذار ؟ لا جرم أن تكذيبهم سيكون عليهم حسرة ، وهذا معنى قوله تعالى **(وانه لحسرة على الكافرين)** . فضمير (انه) يرجع الى التكذيب المفهوم من قوله : (المكذبين) ، ومراده (بالكافرين) نفس المكذبين المذكورين قبله ، وكان الظاهر الاضمار أى أن يقول « وانه لحسرة عليهم » ، لكنه أتى بالاسم الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهؤلاء المكذبين وهوكونهم كافرين . ويحتمل أن يرجع ضمير (وانه) الى القرآن ، أى ان القرآن سيكون حسرة على المكذبين : فى الدنيا اذا ظهرت تعاليمه ، وانتشر فى الخافقين نوره ، أو فى الآخرة اذا رأوا نجاة المصدقين به ، المتمسكين بحبله . وعود ضمير (وانه لحسرة) على القرآن أنسب ، وبذلك ينتظم شمله مع ضمير (وانه لتذكرة) الذى قبله ، وضمير (وانه لحق اليقين) الذى بعده ، فانهما للقرآن .

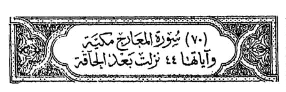
ومعنى **(وانه لحق اليقين)** أن القرآن هو اليقين ، أى الحق الثابت الذى لا شبهة فيه ولا ريب . والجملة من مقوله تعالى ، يثبت بمضمونها قلب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يلين فى الدعوة ، ولا يضعف عزمه لتكذيب أولئك المكذبين ، ورميهم له بمختلف التهم ومختلق الدعاوى .

ومعنى **(فسبح باسم ربك العظيم)** اذا كان من عاقبة المكذبين ما ستعلمه يا محمد وسيعلمونه هم ، وكان القرآن وحيا من الله يقينا ـ لم يبق الا ثباتك فى أمرك ، ومضيك فى ماندبت له من تبليغ رسالتك ، واستعن على مهمتك هذه بتسبيح ربك ، والشكر له على أن اختصك بكرامة النبوة ، وعلو المرتبة . فهو ربك الذى حاطك بعنايته ، والعظيم الذى يصغر كل شىء اذا قيس بعظمته ، وهو تعالى وحده الذى يجب أن تسبحه وتشكر له ، وترجوه وتخافه ، ودع عنك أولئك المكذبين جانبا .

و (الاسم) هو مايعرف به المسمى ويتميز عن نظائره ، واسم الله وأسماؤه صفاته التى عرفناه معشر البشر بها ، والا فان المدارك تعجز دون الوصول الى كنه ذاته (فالتسبيح باسم الرب) الذى أمر الله نبيه به هو عبارة عن تنزيه صفاته تعالى أن تكون مشابهة لصفات المخلوقين .

أو تقول : ان المراد (باسم الرب) هو الكلمات الدالة على ذاته كالله ، وصفاته كالرحمن والرحيم ، فاذا أمر الله تعالى بتنزيه هذه الكلمات ، وتمجيد شأنها ـ كان ذلك مستلزما لتنزيه الذات المدلول بها عليها ، أو المراد بتنزيه أسماء الله تنزيها عن أن تطلق أو تستعمل فى مسميات أخر كما يفعل المشركون من تسمية (اللات) فانها مؤنث (الله) سموا بها الاهة من آلهتهم ، وسموا الاهة أخرى (العزى) تأنيث الأعز ، والأعز والعزيز من صفاته أو أسمائه تعالى ، فمعنى قوله (سبح باسم ربك) نزهه فلا تسم به الا اياه سبحانه وتقدس .

وفعل (سبح) يتعدى بنفسه فيقال (سبح اسم ربك) ، وبالباء كما فى آيتنا هذه ، ومثله « ألقى الكتاب من يده » و « ألقى به من يده » ، و « أخذ الشىء وأخذ بالشىء » ، قال تعالى (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وقال أيضا (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه) .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾

كان المشركون يستهزئون بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويستخفون بما يوعدهم من العذاب وانه آتيهم لامحالة ، فكانوا يقولون : واين هذا العذاب ؟ اما آن وقت مجيئه ؟ بل قال اخبثهم طريقة فى تكذيب الوحى ، وهو « النضر بن الحرث » ما قصه الله علينا فى آية اخرى من كتابه : (ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم). وكان صلى الله عليه وسلم يقلق لتهكمهم هذا ، ويود احيانا لو يعجل اليهم بشىء من العذاب ، فيرعووا او يؤمنوا ، فافتتح الله تعالى هذه السورة حاكيا ما يقوله النضر او غيره ممن يسأل سؤاله ، وحاضا نبيه على الصبر وحسن الانتظار .

و (السؤال) اذا كان بمعنى طلب الشىء واستدعائه يعدى بالباء ، يقال « سأل بالعذاب أن ينزل به » ، كما يقال : سأل العذاب . والنضر بن الحرث دعا بالعذاب طالبا له مذ قال (ائتنا بعذاب اليم) ، فيكون المراد (بالسائل) فى الآية هو النضر ، ونكره تحقيرا له ، وتهاونا به .

أما اذا كان (السؤال) بمعنى الاستخبار عن الشىء اهتماما به ، وتفحصا عن حاله ، فيتعدى بعن تارة ، وبالباء تارة اخرى ، فيقال « سألت عنه وعن حاله » ، كما يقال « سألت به وبحاله » ومنه قوله تعالى : (فاسأل به خبيرا) ، اى اسأل عن هذا الأمر الذى تهتم له خبيرا به ، ومنه قول عاتكة بنت عبد المطلب :

سائل بنا فى قومنا وليكف من شر سماعه

أى سائل عنا وعما كان منا فى تلك الحرب ، حرب الفجار ، من النجدة والبسالة .

ويحتمل أن تكون (سأل) فى الآية بهذا المعنى وهو الاستخبار والتفحص ، ويكون المراد (بالسائل) النضر او غيره ممن كان يسأل سؤاله ، ويكون المعنى : سألك يامحمد سائل عن خبر عذاب طالما حدثتهم به ، وحققت لهم انه واقع بهم . وقد انتهى السؤال عند قوله (واقع) فأجاب تعالى على سؤال هذا السائل ، او على دعائه على نفسه بقوله (**للكافرين ليس له دافع من الله**) فهو استئناف واقع فى جواب سؤال السائل [illegible] (للكافرين) متعلقة بمحذوف [illegible] العذاب [illegible] مهيأ ومرصد للكافرين [illegible] يستعجلوا هم ، ولا تضجر انت يا محمد .

وجملة (ليس له دافع) خبر بعد خبر ، اى هو مخبوء لهم ، وليس له دافع يدفعه عنهم .

وقوله (من الله) متعلق (بدافع) على تضمينه معنى المنع والوقاية : اى ان العذاب مهيا لهم ، وليس له دافع ومانع وواق من الله ، بل ستكون مشيئته تعالى فى تعذيبهم نافذة السنة .

ويحتمل أن يكون المراد بالسائل الذى سأل هو النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قلنا انه احيانا كان يتمنى لو ينزل بهؤلاء المكذبين عذاب يزحزحهم عن طريق الدعوة الاسلامية ، فتنتشر وتتلقى بالقبول ، ويكون تنكيره صلى الله عليه وسلم لتعظيمه أو لتعيينه، فأجابه ربه على سؤاله قائلا : ما تطلبه وتستعجله مرصد ومهيا للكافرين . ثم ختم الآية بقوله مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : (فاصبر صبرا جميلا) اى صبرا لا قلق معه ولا جزع ، وهكذا يكون الصبر الجميل .

وقد وصف الله نفسه بقوله : (**ذى المعارج**) ، وهو من العروج اى الصعود والارتقاء . واسم الآلة منه « معرج » و «معراج» وجمعها « معارج » و «معاريج» فالمعارج فى معناها كالمصاعد والمراقى والسلالم والدرج والدرجات . فقوله تعالى : (ذى المعارج) مرادف لقوله فى سورة المؤمن ، واصفا نفسه . « رفيع الدرجات) .

و « المعارج » و « الدرجات » اذا نسبت الى ذاته تعالى كان المراد بها الرفعة والعلو اللائقين به تعالى . فذو المعارج وذو الدرجات نعت له سبحانه بعلو الذات وتنزهها عن النقصان . وليس نعتا له بعلو الذات وارتفاعها فى المكان .

اتبعته فكرتى حتى اذا بلغت
غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما
رأيت موضع تكييف وتحديد

و (الملائكة) من عالم الغيب الذى نؤمن به ، ولا نكلف انفسنا عناء ما لم يكلفنا اياه الشرع من البحث عنه ، والتفكير فى حقائقه ، فان هذا غير مستطاع لنا ما دمنا فى هذه الدار الدنيا .

أما (الروح) فيراد به جبريل نفسه ، وهو احد هذه الملائكة ، ويكون فى ذكره معهم باسم له خاص زيادة تعظيم له .

ويقول بعضهم : ان (الروح) طبقة من الملائكة كطبقة الخاصة فى البشر بالنسبة الى عامتهم ، فالروح على هذا جمع لا مفرد ، كما يقال احيانا « الملك » ويراد به الملائكة .

أما معنى (**تعرج الملائكة والروح اليه**) اى الى الله ، فهو عروجها وصعودها الى حيث يفاض عليها من انوار قدسه ، وتجليات امره ونهيه ــ ما يتعلق بتدبير العالم ، وتدبير الكائنات ، واعدادها فى الأطوار المختلفة لما خلقت له .

فضمير (اليه) يرجع الى الله تعالى باعتبار مكان تجليه ، ومصادر امره ونهيه ، لا باعتبار ذاته ، ومكان وجوده ، فانه تعالى ليس له مكان ، كما مرت الاشارة اليه آنفا .

وقوله : (**فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة**) . هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا وليس التحديد مرادا كما يأتى بيانه . قال أبو مسلم الأصفهانى : ولا يلزم منه ان يصير وقت القيامة معلوما ، لانا لاندرى كم مضى وكم بقى . والمراد باليوم فى هذه الآية مطلق الوقت ، وهو استعمال كثير الشيوع فى كلام العرب ، قال فى المصباح : « والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهارا كان أو ليلا ، فتقول ذخرتك لهذا اليوم ، اى لهذا الوقت الذى افتقرت فيه اليك » اهـ . فالملائكة تعرج فى مدة الدنيا منذ أول نشأتها الى حين اندثارها ، ومعنى أنها تعرج فى ذلك اليوم انها تتردد بين الرب وبين هذه الأكوان بما يريده منها ، ويقضيه فيها .

ولا نقدر ان نفهم من هذا الا أن الله الذى خلق هذا الكون ، اراد أن يدبره ويبلغه كماله بوسائط خلقها وسماها ملائكة (١) ، كما شاء لنا نحن فى حياتنا الدنيوية أن نتخذ وسائط فى قضاء اعمالنا ، وتوفير مصالحنا . اما انه لماذا اتخذ سبحانه هذه الوسائط ؟ ولماذا لايفعل ويدبر مباشرة ؟ فهذا ذهول من السائل عن نفسه ، واستغراق فى طينة حسه ، كدعموص (٢) فى حمأة يتطاول الى درس أرقى مدنيات العالم ، والى فقه أسرارها ، ودقائق اختراعاتها .

اما وجه ارتباط خبر عروج الملائكة فى الدنيا بما قبله من سؤال السائل عن العذاب وانه مهيأ للكافرين ــ فيفهم من اعمال المقارنة بين هذه الآية وبين آيتين اخريين وردتا بهذا المعنى ، وهما قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، وقوله : (يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون) .

فالآيات الثلاث بعضها يفسر بعضا ، وهى متواردة على افادة معنى أو معنيين تقريبا . ومحصل ذلك ان الله تعالى اجاب المكذبين بأن ذلك العذاب الذى يستعجلونه واقع بهم لا محالة ، وانه لا احد يقدر على دفعه عنهم ، ومنع ما يريده تعالى بهم . ثم نبههم بقوله (تعرج الملائكة الخ) الى أن ذلك العذاب انما يرونه بعيدا لطول مدة الدنيا ، فهى فى نظرهم ، وباعتبار مقاييس ازمانهم طويلة جدا كألف سنة أو خمسين الف سنة ، مع أنها ليست عنده تعالى وبالنسبة الى الأحقاب التى تربط الأبد بالأزل سوى يوم ، أى زمن قصير تعرج فيه الملائكة مترددة بين الخالق وبين الخلائق : تدبر أمرهم ، وتمدهم من العناية الالهية بما فيه صلاحهم . فما لهؤلاء المكذبين يستعجلون العذاب ؟ ويستبطئون الحساب ؟ وهو منهم على قاب ؟ ولما أراد أن يصف سنى عمر الدنيا بالكثرة عبر عنها فى آية بألف سنة ، وفى أخرى بخمسين الف سنة . ولم يرد سبحانه التحديد والتعيين ، وانما اراد المبالغة فى وصف المدة بالطول بالنسبة الى البشر . وقد جرى فى ذلك على ما اعتادوه فى أساليب كلامهم فى مثل هذا المقام ، فهم اذا ارادوا تكثير مرات فعل من الأفعال قالوا : جئت أو فعلت سبعين مرة ، اما اذا أرادوا الاخبار عن زمن أنه طويل جدا ، فمرة يقولون : لو عاش فلان ألف سنة ، ومرة يقولون : لو عاش خمسين الف سنة ، وفى كلا التعبيرين لايريدون الا المبالغة بطول المدة . وقد ذكر القرآن فى حادثة واحدة ــ وهى وقعة بدر ــ ان الله أمد المؤمنين بألف (١) من الملائكة وبثلاثة آلاف وبخمسة آلاف ، ولا مفهوم فيه للعدد كما قلنا . وذكر بعض علماء الحديث بمناسبة قوله صلى الله عليه وسلم « ان القرآن أنزل على سبعة أحرف » ــ أن العرب يذكرون السبعة فى الآحاد ، والسبعين فى العشرات ، والسبعمائة فى المئات ، ولا يريدون بها تعيين العدد وانما يريدون افادة الكثرة . وحمل بعضهم (اليوم) فى آيتنا التى نفسرها ــ على يوم القيامة ، وقال ان المراد بالآية تهويل أمر ذلك اليوم ، وتعظيم شأنه فى نفوس المشركين المكذبين الذين يستعجلون العذاب ، فهو تعالى يقول : ان ذلك العذاب يقع فى يوم يطول عليكم أيها المكذبون الى حد أن تحسبوه خمسين الف سنة ، وما هو بالنسبة الى اللانهاية الا كيوم واحد .

وسواء أردنا باليوم يوم الدنيا ، أو يوم الآخرة ، فليس المراد بالخمسين ألفا تعيين عدد السنين ، وانما المراد وصف ذلك اليوم بالطول .

وكان السلف الصالح يكرهون التقصى فى البحث ، والالحاف فى السؤال عن مثل هذا ، وكيف يكون اليوم تارة ألف سنة ؟ وتارة خمسين الف سنة ؟ فقد سأل رجل ابن عباس رضى الله عنه عن معنى قوله تعالى : (فى يوم كان مقداره ألف سنة) ، فلم يجبه ابن عباس عن سؤاله ، وانما وجه اليه سؤالا بمعنى سؤاله قائلا : « ما يوم كان مقداره خمسين الف سنة ؟ » فقال له الرجل : « انما سألتك لتخبرنى » ، فأجابه ابن عباس : « هى أيام سماها الله ، وهو أعلم بها كيف تكون ، واكره أن أقول فيها ما لا علم لى به » .

هذا ، وفى الآية وجوه أخرى تتعلق بمعناها واعرابها اقتصرنا منها على مارأيناه أحجى بالقبول ، وأحظى لدى العقول .

---

(١) كما سماها (المدبرات) فى سورة النازعات . مذ قال تعالى : (فالمدبرات أمرا) .

(٢) الدعموص : دويبة أو دودة سوداء ، تكون فى المياه الراكدة وتندس فى وحلها .

(١) ففى الأنفال (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف) ، وفى آل عمران (لن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف) . وفيها أيضا (يمددكم ربكم بخمسة آلاف) .

فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰ (١٨) * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩)

قوله **(انهم يرونه الخ)** أى ان المشركين المستبطئين يوم الدين يرون العذاب الذى أوعدوا به فيه بعيدا ، لأنهم كانوا لا يصدقون به . ويقول سبحانه انه هو جلت عظمته يرى ذلك العذاب الواقع فى يوم القيامة الذى تكون فيه السماء كالمهل ــ قريبا ، أى واقعا محقق الحصول . وعبر عنه بالقرب مشاكلة ومقابلة لقوله **(بعيدا)** .

وقوله تعالى **(ونراه قريبا يوم تكون الخ)** انتقال وخلوص من الرد على المكذبين بيوم العذاب الى وصف ذلك اليوم الذى فيه **(تكون السماء كالمهل)** .

(والمهل) مائع الزيت ، ومائع الفلز المذاب: كالنحاس والحديد والفضة ، مع ملاحظة ان يكون للمائعين المذكورين اللون الخاص الذى يعهده فيهما كل من رأى معدنا يصهر ويذاب ، أو رأى دردى الزيت وعكره يصب ويكال . هذا اللون الأكدر الضارب الى الحمرة أو الزرقة أو الخضرة هو لون السماء يوم تقوم القيامة ويأذن الله بخراب هذا العالم .

(وتكون الجبال كالعهن) . (العهن) الصوف المصبوغ الوانا من أصفر وأحمر وأخضر ، وقد وصف هذا الصوف فى سورة القارعة بأنه « منفوش » . والجبال اذا بست يوم القيامة ، وتفتتت اجزاؤها ــ وهى بالطبع مركبة من أتربة ومعادن مختلفة اللون ــ كانت ذراتها المنبثة فى الفضاء منفوشة غير متلبدة ، وذات الوان مختلفة : كألوان الصوف المصبوغ تهاويل ، لا ذات لون واحد .

هذه هى حال السماء والأرض فى ذلك اليوم . اما حال الخلائق فهى كما قال تعالى : **(ولا يسأل حميم حميما)** حميم المرء : قريبه وصديقه الذى يهتم بأمره ، فمن شدة ما ينزل بهم جميعا من الهول والفزع يتناكرون ويتدافعون يمينا وشمالا ، مشتغلا كل منهم عن حميمه بنفسه ، وتلمس طريق الخلاص لها ، وينحصر همه فى ذلك بحيث لا يعود يسأل حميمه : ما شأنك ؟ وكيف حالك ؟ وهل تطلب منى معونة ؟ وهذا كما قال تعالى فى سورة عبس : (يوم يفر المرء من اخيه ، وامه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

يقول قائل : ان الحميم قد لايكون ابصر حميمه فى ذلك الوقت ليسأله ، فقال تعالى **(يبصرونهم)** وهو مضارع مجهول من التبصير ، وضميره المرفوع ــ وهو نائب الفاعل ــ يرجع الى (حميم) المرفوع ، وضميره المنصوب يرجع الى (حميما) المنصوب . وانما أتى بالضميرين بلفظ الجمع لما فى المرجعين من العموم وان كانا مفردين .

يقول : ان الأقارب والأصدقاء لا يسأل بعضهم بعضا عن حاله فى ذلك اليوم مع كونهم قد جعل الله بعضهم يبصر بعضا ، ويعرفه أنه هو ، ولم تكن ثمة حواجز تحول دون رؤية أحدهم والاخر ، وانما يمنعهم عن المساءلة تشاغل كل بحويصلة نفسه .

قوله **(يود المجرم الخ)** هذا ترق فى وصف هول ذلك اليوم ، يقول : لايقتصر الأمر فى ذلك اليوم على وقوع التناكر والتدابر بين الأحماء والأهل والاصدقاء، بل الأمر افظع من ذلك ، اذ (يود المجرم) ــ وهو مرتكب جريمة الجحود والتكذيب ــ **(لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه الخ)** ، اى يتمنى لو تقبل منه فدية ، فيقدم فداء عن نفسه أقرب الناس اليه ، والصقهم به ، واعزهم عليه : من ابن وزوج وأخ وأبناء عشيرة كان يأوى اليها ، ويتكل فى نوائبه عليها ، بل يتمنى لو تقبل منه فدية فيفتدى بـ **(من فى الارض جميعا)** من البشر وغير البشر ، **(ثم ينجيه)** ذلك الفداء وينقذه من الكرب ، وفادح الخطب . و (صاحبة) الرجل امرأته ، وقد تقول المرأة عن زوجها انه صاحبها ، لكنه قليل ، قالت ليلى الأخيلية :

لنا صاحب لاينبغى ان نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل

و (فصيلة) الرجل : عشيرته ورهطه الادنون ، الذين انفصل عنهم بالولاد ، وبقى يأوى اليهم بالنسب والنصرة فى الأيام الشداد .

ولما كان قبول الفداء منه يومئذ بعيد الحصول ، ونجاته من العذاب بهذا الطريق غير مأمول ــ عطف فعل (ينجيه) على (يفتدى) (بثم) (التى تستعمل فى التراخى والبعد الزمانى او الاعتبارى كما هنا ، كأنه يقول : يود ان يفدى نفسه بهؤلاء المذكورين وهيهات أن ينجيه ذلك .

(كلا) كلمة زجر وتعنيف ، يصدع بها المخاطب صرفا له عن اعتقاد أو رأى أو عمل غلا فى التمسك به، والتعصب له ، فيكون معناها ليس الأمر كما زعمت أو عملت بأهذا ، وانما هو كيت وكيت . والمكذبون بيوم الدين المستبعدون لوقوع العذاب فيه غلوا فى عنادهم وتكذيبهم بعد أن وضح الأمر لهم ، وقامت الحجة

عليهم ، حتى كأنهم من فرط العناد ، وقيام الحجة ، يعللون انفسهم بالأماني ، ويتمسكون بأوهى الأسباب من مثل استنقاذ انفسهم بفدية ما ــ فكذبهم الوحي في ظنهم هذا ، ثم زجرهم عنه ، وردعهم عن التمادي فيه قائلا : (**كلا انها لظى الخ**) ، اى دعوا أيها المجرمون المكذبون هذه التعلات ، والأماني الكاذبات ، فان الأمر ليس كما تزعمون من انه تعالى لايخلق دارا يعذب فيها الفجار ، او انه اذا خلقها فقد يتلمسون فيها طريقا للخلاص بفداء ونحوه . (انها لظى) ، ان تلك الدار ، او ان تلك القصة الهائلة التي تمارون فيها ، هي لظى كما اخبركم بها نبيكم صلى الله عليه وسلم ، لا ريب فيها ، ولا منجى منها .

و (اللظى) اسم للنار ذات اللهب ، و (الشوى) كل مالم يكن مقتلا من الأعضاء : كاليدين والرجلين والأطراف ، يقال : « رمى فلان فلانا فأشواه » ، اى اصاب أطرافه ، ولم يصب منه مقتلا ، ويقال في ضده « رماه فأصماه » اذا أصاب مقتلا له فأرداه . والمعنى أن تلك النار من فرط تلظيها تنزع أطراف المعذب وجوارحه نزعا شديدا مبالغا فيه ، أو نزعا متكررا يحصل مرةبعد مرة ، وكأنهخص الأطراف بالذكر دون الأعضاء الرئيسية التي اذا نزعت مات صاحبها ــ للاشارة الى ان تعذيبهم بتلك النار المتلظية لايسلبهم حياتهم ، فهم في النار دائما احياء يعذبون ، ويكون حفظ الحياة ودوامها اذ ذاك بمحض قدرة الله تعالى .

وقال بعضهم أن (الشوى) هنا جمع شواة وهي جلدة الرأس ، وتسمى « فروة الرأس » ايضا ، وان النار يوم القيامة تنزع من المكذبين الجاحدين جلدات رءوسهم المرة بعد المرة ، كلما نزعت أعيدت زيادة في التنكيل والتعذيب .

وقوله (**تدعو من أدبر وتولى**) اى تنادى وتهتف بالذي أدبر واعرض عن الايمان . وقال (تدعو ، لأن تهيؤ جهنم ، وتبرجها للمعرضين عن الايمان ، وتفتح ابوابها لدخولهم ــ كأنه في المعنى هتاف بهم ، ودعاء لهم ، وهو مايسمونه « لسان الحال » كما أن الدعاء بالقول « لسان المقال » . وهذا الضرب من التعبير كثير الشيوع في كلام العرب واشعارهم ، لاسيما اذا ارادوا الحكاية عن شيء لا يعقل ووصف احواله ، ومنه قوله :

شكا الى جملي طول السرى
يا جملي ليس الى المشتكى
صبرا جميلا فكلانا مبتلى

والجمل لايمكن أن يشكو بلسان مقاله ، وانما يشكو بلسان حاله ، فان آثار الأين والكلال والحفاء البادية عليه ، كأنها السنة تنطق بالشكوى الى صاحبه .

وقال أبو النجم الرجاز المشهور يصف روضة :

« تقول للرائد اعشبت انزل »

اى أنها لاستجماعها مايلزم للقوم المسافرين من مرعى وماء وظل اذا وصل اليها رائدهم يبتغي لهم مكانا للنزول استوقفته تلك الروضة بحيث لايمكنه تجاوزها دون النزول فيها بقومه ، فهي كأنها تقول له : « أعشبت » اى اصبت عشبا ، « فانزل » على الرحب والسعة .

ومثله قول الراجز الآخر :

امتلأ الحوض وقال قطني
مهلا رويدا قد ملأت بطني

فهذا مايسمونه لسان الحال . وله شواهد كثيرة جدا في القرآن والحديث ، وقد غفل عنه الكثيرون فحملوه على الحقيقة ، وجعلوه من الخطاب بلسان المقال ، ولاحجة لهم الا أن الله تعالى قادر على كل شيء . ومن ذا الذي ينكر قدرته تعالى ، ولكننا نرى أن حمل هذه الآية ونظائرها على التمثيل كما ذكرنا عن أهل اللسان في الحكاية عما لا يعقل ــ امثل بل ابلغ من حملها على الحقيقة ، ولا داعي عقلي او شرعي للحمل عليها . على ان مفسرا لغويا (1) جعل (تدعو) هنا على حد قولهم «دعا الله فلانا بما يكره» اى أنزل به مايكره ، فمعنى دعوة جهنم اياهم أنها تفعل بهم الأفاعيل .

قلنا ان جهنم في ذلكاليوم تهتف بأبنائها أن يسرعوا اليها ، ومن هم أبناؤها ؟ (من ادبر وتولى) اى أعرض عن الايمان بالله ، وقبول ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام من الهدى ودين الحق ، وكذلك هي تدعو اليها ايضا من تكالب على الدنيا ، (**وجمع**) من حطامها (**فأوعى**) ، اى خبأه وكنزه في الخزائن والصناديق والأوعية ، يقال « أوعى الشيء » اذا حفظه ، وأوعى الزاد والمتاع اذا جعله في الوعاء . وأوعى أيضا جمع وشح ، ومنه الحديث « لاتوعى فيوعى الله عليك (2) »

وفي الآية وعيد شديد لمن يبخل بالمال ، ويحرص على جمعه ، فلا ينفقه في سبيل الخير ، ولا يخرج حق الله فيه . وقد جعل الكتاب كانز المال ، الشحيح به ، الذي يمنعه مستحقه ــ بمنزلة المعرض عن الحق ، المكذب للدعوة ، الجاحد للرسالة ، كما جعلهما في قرن واحد ايضا مذ قال تعالى : (انه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) . وقد مر الكلام على هذه الآية مستوفى في سورة الحاقة .

وان الباحث المفكر ليقف موقف الحيرة في معرفة اية الخصلتين اشد محقا للأمم ، واجهازا على حياتها ؟ آلكفر بالله ؟ أم الشح ؟ أعني ترك بذل المال فيما يجب فيه البذل . ويظهر من آيات الكتاب المتكررة ــ ولا سيما في الآيات الآتية قريبا ــ أن الخصلتين سواء في ذلك . أعاذنا الله من المهالك .

وما وصفه الله من هول الساعة ، ولون السماء ، وحالة الجبال ، وتقاطع الاحماء المحشورين في عرصات القيامة ، ثم ما يكون للمكذبين في جهنم من العذاب والنكال ، بالسلاسل والأغلال ، ومايكون للمؤمنين في

(1) ص ١٣٣ ج ٢ : المخصص

(2) اى لاتجمعى وتشحى بالنفقة فيجازيك الله بتضييق رزقك . المصحح

إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾

الجنة من الجزاء والثواب ، بالطعام والشراب ، وصنوف اللبوس والثياب ــ كل ذلك نعتقده من دون زيادة او نقص ، ونكل امر حقيقته وكنهه الى الله تعالى ، كما كان يفعل سلفنا الصالح فى فهم ذلك ، وفى تربية أولادهم عليه .

روى الامام احمد فى مسنده ان سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه سمع ابنا له يدعو ويقول : « اللهم انى اسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحو ذلك ، واعوذ بك من النار وسلاسلها واغلالها » فقال له ابوه : « لقد سألت الله خيرا كثيرا يابنى ، وتعوذت به من شر كثير ، لكنك تعديت الحد الذى نهى الله عن تعديه فى قوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية . انه لايحب المعتدين) » اى المتجاوزين فى الدعاء. ثم علمه الأدب فى ذلك فقال له : حسبك أن تقول : « اللهم انى اسألك الجنة وماقرب اليها من قول وعمل . واعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » .

وروى ابو داود فى سننه عن عبد الله بن مغفل انه سمع ابنه يقول : « اللهم انى اسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها » ، فقال له : « يا بنى ، سل الله الجنة ، وتعوذ به من النار ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء » . والاعتداء فى الطهور المبالغة فى الوضوء والغسل والنظافة بما يؤدى الى الوسوسة .

فاذا كان السلف رضوان الله عليهم لم يرضوا ان يعين الداعى ويخصص ويغلو فى دعائه ــ وليس الدعاء سوى طلب وتمن من الله ــ فكيف يرضون أن يضع الرواة فى أوصاف الجنة والنار واطوارهما واحوال المنعمين والمعذبين فيها ــ بزعم الترغيب والترهيب ــ ما لا أصل له فى الدين ، بل ربما مهد الطريق أمام تشكيك المشككين ، وزعزعة عقائد المؤمنين .

ولما ختم الآيات السابقة بوصف لظى التى يستبطئها المكذبون ، وذكر أنها تدعو اليها من كان منهم معرضا عن الحق ، مكبا على جمع المال وكنزه ــ تطرق من ذلك الى ذكر خلق فطر البشر عليه ، وكان سببا فى معظم الشقاء الذى يصيبهم ، ثم استثنى منهم أولئك الذين قدروا على تطهير نفوسهم من ذلك الخلق بممارسة الفضائل الدينية .

اما الخلق الذى فطر عليه الانسان فهو ماعبر عنه بقوله تعالى : **(ان الانسان خلق هلوعا)** ، واراد بالانسان كل افراده لا واحدا منه بدليل استثناء (المصلين) منه ، والاستثناء معيار العموم .

اما (الهلوع) فقد فسره الكتاب نفسه بقوله : **(اذا مسه الشر الخ)** ، والمعنى ان الله خلق الانسان وغرس فى نفسه منذ اول نشأته هذا الخلق الذى هو (الهلع) ، فهو (اذا مسه الشر) ، ونزل به المكروه من فقر أو مرض او خوف ــ كان **(جزوعا)** ، فيستولى عليه اليأس والقنوط ، ويحسب ان مانزل به غير مقلع عنه : فالفقر لا يعقبه غنى ، والمرض لاتخلفه صحة ، والخوف لا ينسخه امن . وكثيرا ما قاده يأسه هذا الى ارتكاب معصية او منكر وقتل نفسه أحيانا ، **(واذ مسه الخير)** ، وتيسرت له اسباب الرغد وغضارة العيش ، فأصبح غنيا موسعا عليه فى الرزق ، صحيح الجسم معافى ، موفور الجانب ، نافذ الكلمة ، ذا جاه ومنصب ــ كان اذ ذاك **(منوعا)** يمنع الناس رفده ومعونته والانتفاع بجاهه . فهو من غلبة هذا الخلق عليه يحسب ان ما أوتيه من الخير والرزق والنعمة لم يؤته الا لكونه مستحقا له بذاته لا بفضل الله ، فيطغى على الناس ، ويكفر النعمة ، فلا يشكر الله عليها بوضعها فى مواضعها ، بل قد يستخف بها أحيانا فيحسب انه مستحق لأكثر منها . وربما تدرج من هنا الى ايذاء خلطائه والبغى عليهم ، وغمط حقوقهم . وهذا هو البطر ، وصاحبه هو (المنوع) الذى حكى الله عنه فى هذه الآية .

خلق الله الانسان منذ اول نشأته مفطورا على (الهلع) ، لكنه تعالى لطف به ، فخلق فى نفسه فى جانب هذا الهلع مواهب سامية : كالعقل ، وغريزة التدين ، وكآيات الوحى التى كان يتلقاها الأنبياء فيعالجون بها ضعف الانسان ، ويلطفون من سورة هلعه ، ومن ذلك الصلاة التى هى عماد التدين ، واكبر مظهر من مظاهر عاطفته . وهذا معنى قوله **(الا المصلين)** ، استثناهم من أفراد الانسان الملوثين بالهلع . فالمصلون بما واظبوا على صلواتهم ، وتعرضوا لنفحات ربهم وهم يناجونه فيها ــ استفادوا فرط ثقة به ، ورضى بقضائه ، وعرفان ان كل خير وشر بتقديره ، فلا يجزعون اذا مسهم الشر ، ولا يمنعون اذا مسهم الخير . ومثلهم فى ذلك المزكون **(الذين فى اموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم)** .

و (السائل) الفقير الذى يتكفف فيعطى ، و (المحروم) الذى يتعفف فيحرم ، أو هو الذى أصيب بآفة سماوية اجتاحت ماله ، فوجم لذلك وافتقر ، وانف ان يسأل الناس ، أو هو الذى كلما طلب الدنيا ادبرت عنه ، ويسمى المحدود « بالحاء المهملة » ، والمحارف ايضا . وضده المجدود « بالجيم » وهو المبارك الميمون النقيبة . والاسم من المحارف « الحرفة » بضم الحاء . ومنه قول الشاعر :

ما فيـــه لو ولا ليت تنقصـــه
وانمــا ادركتــه حــرفة الادب

اى حرمان الادب وشؤمه .

فالموسرون الذين يجعلون فى اموالهم قدرا معينا من المال ، ويرون ذلك حقا واجب الأداء للفقراء ، سواء أطلب الفقراء منهم ذلك أم تعففوا فلم يطلبوا . . . هؤلاء المذكورون جديرون ــ بما مارسوا من الصلاة ، وما انفقوا من الزكاة ــ ألا يعدوا من أفراد الانسان الهلوع الذى وصفه الوحى ، وشهر به ، ومقت فعله .

قوله **(والذين يصـــدقون الخ)** يعنى بهـم الذين آمنوا بالغيب وبيوم الحساب ، وصدقوا بجميع ماأتى به الوحى على لسان الرسل من أمر الثواب والعقاب ، فأصبحوا ــ وقد مازج هذا التصديق قلوبهم ــ خائفين أن يحاسبوا ، مشـــفقين أن يعذبوا ، ولا سيما أنهم يعلمون أن العذاب غيرمأمون ، والخلاص غير مضمون ، فيزيدهم ذلك اقبالا على الله وعلى ممارسة الأعمـال الصالحة ، كمـا أن ثقتهـم بوعد الله بالثـواب تثلج صدورهم ، وتشحذ عزائمهم ، وبذلك يبقون مترجحين بين الرجاء والخوف : لاغلبة رجاء تحملهم على الكسل وتسويف العمل ، ولا شدة يأس تسلمهم الى الخطل ووسوسة الخبل .

أن مثل هؤلاء المصدقين المشفقين ، قلما تزدهيهم الدنيا ، أو يبطرهم نعيمها ، او يجزعون لما فاتهم مــن حطامها : فسواء عليهم أصحوا فى الدنيا أم سقموا ، خسروا فى حظوظها أم غنموا . اذ ان لديهم من الفكر فى جلال ربهم ، وذكر معادهم ــ ما يشغلهم عن الجزع اذا مسهم الشر ، ويربأ بهم عن المنع اذا مسهم الخير . فشر الدنيا وخيرها الى فناء وانصرام ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام .

ثم ذكر الفريق الخامس من الموفقين الذين قدروا أن يحفظوا نفوسهم من وصمــة (الهلع) الممقــوت ، ويحفظوا موازنتها ، ويضبطوا ميولها ، فلا تستسلم للجزع والوسوسة ، ولا تسترسل فى المنع والغطرسة ، واولئك هم الأعفاء الذين قال الكتاب عنهم انهم **(لفروجهم حافظون)** (١) : فلا يرتكبون المحارم ، ولا يتلوثون بالمآثم ، يعرفون غير أزواجهم ، أو مملوكات أيمانهم ، يعنى الرقيقات . فالذين يقتصرون على ما أحله الله لهم مواتاة لناموس الفطرة الالهية ، وتكثيرا لسواد الأمة بوفرة النسل والذرية ــ يكونون **(غير ملومين)** ، بل غير مبخوسين حقهم من الأجر فى هذه النية . أما الذين يبتغون من الشهوات ، والفواحش والمنكرات ــ **(وراء ذلك)** ، اى وراء ما احـله الله **(فأولئك هم العادون)** ، اى الذين تعدوا حدود الله ، وخالفوا الناموس الآمر بالاعتدال فى مطامح النفس ، وتكاليف الحياة .

والرق كان فاشيا قبل البعثة المحمدية فى العرب واليونان والرومان على أبشع صورة وأنكرها . ثم جاء الاسلام فضيق دائرته ، وحصره فى أسرى الحرب ، وأمر اتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرتهم ، فقال : « اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، والبسوهم مما تلبسون » ، فكان الرقيق فى الاسلام رقيقا ظاهرا ، أخا باطنا . والاسترقاق على هذه الصورة وسيلة من وســائل نشر الاسلام ، وتعميم تعاليمه ، وتكثير سواد أهله ، فهو يشبه مايسمونه اليوم بلسان السياسة : التجنس بالجنسية والالتحاق بالتابعية .

ومع هذا فان الدين الاسلامى كان يعتـبر الرق والحرب الموصلة اليه كليهما ضرورة ينبغى تجنبهــا ما وجدنا الى ذلك سبيلا . ومن ثم كان ينهى عن تمنى لقاء العــدو اى عــن تمنى الحــرب ، وذلك بأن تفض مشاكل الخلاف بين الأمم من دونها ، كما يحض على عتق الرقيق وهو أســير الحرب ، ويرغب فى اعطائه حريته ويتوسل الى عتق العبد بمختلف الوســائل ، ومتعدد الوسائط : كما اذا حلف سيده وحنث ، فان من كفارات يمينه أن يعتق رقبته .

أما اليوم ، وقد اخذت اصول الحرب بين أمم العالم شكلا جديدا ، وكان مــن تلك الأصــول ابطال أمــر الاسترقاق ــ فلم يكن الدين الاســلامى ليــأبى ذلك لموافقته أصل الأصول عنده : أعنى الرحمة والرفق بالانسان ، والمبادرة الى عتق الرقيق ، على أن الاسترقاق اليوم أصبح من المتعذر ايقاعه حسب الشروط التى اشترطها الاسلام ، والأحوال التى قررها الشارع ، فكان على البشر اهماله وترك العمل بشريعته .

تنقسم أصول الشرائع التى يكلفها المرء فى دنيــاه ثلاثة اقسام كبرى :

(القسم الأول) ماكان بين العبد وربه من عقــائد وعبادات محضة .

(القسم الثانى) ماكان بين العبد واخــوانه ممــا التزموه بينهم من العهود والمعاملات المحضة .

(القسم الثالث) ماكان متــوسطا بين القســمين المذكورين وله شبه بهما كليهما .

وقد انطوى تحت القسم الأول أربع طوائف مــن

---

(١) جعل المؤلف « الحافظين لفروجهم » فريقا خامسا ، وهذا يدل على أنه يعد المحافظين على الصــلاة فــريقا ، والمؤدين للزكاة فريقا آخر . . . وهكذا ، وسيصرح بهذا قريبا . ولعل الذى ساقه اليه تكرار اسم الموصول « الذين » وليس بسديد ، بل المراد بالمصلين المؤمنون ، كنى عنهم بالصلاة التى هى عماد الدين ، ثم ذكر اوصافهم المختلفة التى لايغنى بعضها عن بعـض فى تحقيـق الايمان ، بل تتآزر كلها على اصلاح المؤمن فى نواحيه المختلفة ، وكل وصف منها له اثر كبير فى مقاومة الهلع . وانما تكرر الموصول لبيان مزيد اختصاص المؤمنين بما تضمنته الصلات من صفات ، كمــا تقول حينما تريد أن تصف انسانا بعدة صفات ، وتدل على مزيد ارتباطه بها ــ : محمد هو الذى يقوم بشعائر دينه ، والذى يكرم ضيوفه ، والذى يخلص فى خدمة وطنه . . . وهكذا ، كأنك تريد أن هذه الصفات لا تكون الا له . اهـ : المصحح .

وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا

الذين وفقهم الله الى تطهير نفوسهم من خلق (الهلع) المذموم (١) وهم :

١ ـ **(الذين يصدقون بيوم الدين)** (اى يوم الحساب ، لكن هؤلاء قد لايحملهم تصديقهم على الاشفاق والخوف من العذاب ، فيسترسلون فى المعاصى والشرور ، فخص المشفقين من المصدقين وجعلهم فريقا ثانيا فقال :

٢ ـ **(والذين هم من عذاب ربهم مشفقون)** .

ثم ذكر أن أعظم مظهر من مظاهر الاشفاق ، وأكبر معوان على جعل ذلك الاشفاق جالبا لرضاء الله ، واقيا من سخطه وعذابه ـ هو الصلاة والالتجاء الى الله ، فخص المصلين من المشفقين ، وجعلهم فريقا ثالثا فقال :

٣ ـ **(الا المصلين الذين على صلاتهم دائمون)** . ومعنى دائمون : يأتون بها فى أوقاتها ، فلا تفوتهم منها فائتة .

لكن هؤلاء قد لايحسنون اداء الصلاة ، فلا تقع بحيث تؤثر فى قلوبهم الأثر النافع ، ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فخص من المصلين المواظبين على الصلاة فى أوقاتها ، المحافظين على سننها وآدابها وشرائطها ، وجعلهم قسما رابعا ، لكنه ذكره فى آخر الأقسام الثمانية اهتماما بالصلاة ، واعادة تذكير بها ، لكونها عرضة للتفريط فيها والتكاسل عنها فقال :

٤ ـ **(والذين هم على صلاتهم يحافظون)** ، اى يلتزمون شرائطها وآدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، والا كانت حركات ساذجة ، لاحاجة لله فيها ، ولا فائدة للعبد منها .

اما القسم الثانى وهو المعاملات فذكر الوحى الذين يراعونها ، ويؤدون ما التزموه منها من الموفقين ، وهم فريقان فقال :

٥ ـ **(والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون)** .

فـ (الأمانات)هى الحقوق المتبادلة بين الناس . و (العهد) يريد به جملة العقود التى تتوثق بينهم ، وتكون اساسا للحقوق والأمانات . وينطوى تحت الأمانات والعقود كل انواع المعاملات ومن جملتها (الشهادة) لدى الحاكم ، بل ان الشهادة اكبر ضمانة لسلامة تلك الأمانات وحفظها ، فاذا وقع التساهل والتفريط فيها بكتمانها او نسيانها ضاعت الحقوق ، وعقمت العقود ، وخزيت الأمانات (١) وفسدت المعاملات . ومن ثم خص الكتاب الشهادة من بين الأمانات والعهود بالذكر ، وجعلها قسما برأسها فقال :

٦ ـ **(والذين هم بشهاداتهم قائمون)** ، اى مؤدون لها على وجهها بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم .

اما القسم الثالث من الأعمال الشرعية المتوسطة بين العبادات والمعاملات ، فهى الزكاة والصدقة وكل صلة مالية اخذ المرء على عاتقه مواساة اخوانه الفقراء بها ، سواء اكانت مما أوجبه الله عليه ، ام مما التزمه هو التزاما . وهذا الفريق ذكره الكتاب بقوله :

٧ ـ **(والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)** وقد مر بيانه .

ومن جملة هذا القسم أمر النكاح والاقتصار فيه على ما حلله الشرع ، ففى هذا الاقتصار والتعفف طاعة لله ، وصيانة للأعراض ، وحفظ للانساب ، وبهذا الاعتبار اشبهت عقود النكاح

---

(١) وهكذا يسترسل المؤلف فى عد الصفات طوائف من الناس ، والصواب ـ بناء على ما قدمنا ـ أن يقول هنا : وقد انطوى تحت هذا القسم اربع من صفات الايمان المطهرة للنفوس . . . الخ .

المصحح

(١) من خزى الرجل كرضى خزيا اذا هان او هلك .

عهود الشرف والكرامة المتبادلة بين أفراد الأمة، فان في انتهاك أعراضها اضاعة لحقوقها وامتهانا لكرامتها . وقد أشار الكتاب الى هؤلاء المتعففين الموفقين بقوله :

٨ ـ **(والذينهم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم الخ))** . ومر تفسير ذلك ايضا في محله .

وبعد أن أتى الكتاب على ذكر هذه الاقسام الثلاثة مما فيه دواء لداء الهلع المقوت ، وذكر ما انطوى تحتها من الأقسام قال :

(أولئك في جنات مكرمون) . (أولئك) اشارة الى ماذكر من الطوائف الثمانية (١) ، فهو يقول ان لهم من الجزاء يوم القيامة على اعمالهم وحسن مساعيهم ، رضاء الله ، والحلول في دار الكرامة .

(الذين كفروا) هم الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا البعث والحساب والعذاب ، وكان أحدهم سأل عن العذاب متى يقع تهكما به ، وتكذيبا له . فبعد ان رد الله عليهم تكذيبهم في فاتحة هذه السورة ، ووصف ما سيلاقونهمن هول العذاب ، ولا سيما من كانمنهم حريصا على جمع المال وادخاره . وبعد أن ذكر أن هذا الحرص ناشيء عن خلق (الهلع) المذموم ، واستثنى أصنافا من الموفقين الذين طهرهم الله من ذلك الخلق ـ عاد الى أولئك المكذبين ، فوصف من خلائقهم ، ومن ذميم أطوارهم فقال : **(فما للذين كفروا قبلك مهطعين ؟)** .

(قبلك) أي جهتكونحوكوالىمجلسك ، (مهطعين) الاهطاع الاقبال والاسراع الى الداعي على حالة خاصة: وهي أن يكون ذلك المقبل المسرع مادا عنقه شاخصا ببصره الى من دعاه . ومن اجاب داعيه على هذه الصورة يكون في الغالب خائفا ، تبدو عليه آثار الذل والخضوع . فالمكذبون من قريش كانوا اذا سمعوا صوته صلى الله عليه وسلم تاليا آيات القرآن ، وفيها من الزجر والوعيد ما يزعج نفوسهم ، ويصدع أعشار قلوبهم ـ أسرعوا الى مجلسهمنذعرينمتلعينبأعناقهم نحوه ، لا يلوون على شيء حتى يصلوا اليه ، واذ ذاك يتفرقون حواليه **(عن اليمين وعن الشمال عزين)** .

(عزين) : أى فرقا فرقا ، وجماعات جماعات ، متحدثين بشأنه ، ومستغربين ماسمعوا منه ، كأنهم في أول الأمر يأتون وعليهم آثار الخبل والدهشة والخوف ، حتى اذا اجتمعوا وتراءوا زالت وحشتهم، وهدأت نفوسهم ، ثمأقبل بعضهم على بعض ،فتحلقوا حوله صلى اللهعليه وسلم حلقاهنا وهناك ، يتساءلون ـ وهم معرضون عنه ، هازئون به ـ ماذا قال ؟ وماذا أوحى اليه ؟

و (عزين) جمع عزة كعدة على خلاف القياس، لانه لايجمع جمع سلامة بالواو والنون الا ماكان علما لمذكر عاقل ، أو وصفا لمذكر عاقل . اما مثل جمع سنة على سنين ،وعضة على عضين ، وكرة على كرين، وعزة على عزين ـ فهو شاذ . و (العزة) العصبة والجماعة . أصلها (عزو) حذفت واوها وعوض عنها التاء . وكأنما سميت العصبة من الناس عزة لأنها تعتزى وتنتسب الى رأى خاص يجمع بين أفرادها . ويستعمل الناس اليوم (العزوة) مكان (العزة) مع أن (العزوة) اسم من الاعتزاء كالنسبة من الانتساب زنة ومعنى : يقال : أن فلانا لحسن العزوة .

فاذا اجتمع هؤلاء المهطعون حوله صلى الله عليه وسلم مجالس مجالس ، في كل مجلس ثلاثة ثلاثة ، او اربعة أربعة ، وقد استأنس بعضهم ببعض ـ عادوا الى استهزائهم وتكذيبهم . ويسمعون في آيات الوحي ذكر ما اعد الله للمؤمنين يوم القيامة من النعيم وصنوف الكرامة ، فيهزون رءوسهم هازئين ، ويقول بعضهم لبعض ساخرين : « ان كان هؤلاء القوم داخلي الجنة ولا بد كما يعدهم محمد فنحن أولاء داخلوها قبلهم » يريدون انهم أحقبها منهم ، لأنهم هم أشراف العرب وسادات قريش ، فقال تعالى مجيبا لهم : **(أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ؟)** . وهذا استفهام انكاري مشوب بالتوبيخ والتقريع ، أي لا يطمعن طامع منهم أن يدخلها يتنعم بها وهو لم يسع لها سعيا .

ثم عاد فكرر زجرهم ، وتفييل رأيهم بأداة الزجر الخاصة به وهي **(كلا !)** : أى ما الأمر كما زعموا ، وليس طمعهم بدخول الجنة في محله.وكأن قائلا يقول: ولماذا يارب ؟ فأجاب **(اناخلقناهم مما يعلمون)**. والشيء الذى خلقوا منه المعلوم لهم ، هو تلك المويهة القذرة . فاذا كان الأمر كذلك وعلموا ممخلقوا ، فما يكون لهم ان يدعوا تلك الدعوى مندخولهم الجنة قبل المؤمنين، فان المؤمنين مثلهم في ذلك ، فلم يبق سبيل للتفاضل بين الفريقين الا بالتقوى والعمل الصالح ، واتباع الحق ، وهو ما عليه المؤمنون ، لا ماعليه هم من التكذيب والجحود والعناد ، فليرتدعوا اذن عن هذا الطمع الباطل في دخول الجنة قبل غيرهم .

وانما رد عليهم هذا الرد ، وأيأسهم من دخول الجنة بهذا الأسلوب ، تذكيرا لهم بأن الذى خلقهم من شيء حقير ـ كهذا الشيء الذى خلقوا منه ـ قادرعلى أن يخلقهم من التراب الذى تحولت أجسامهم اليه بعد الموت ، فما كان ينبغى أن يدعوا دخول الجنة قبل غيرهم ، بل ماكان لهم أنينكروا البعثمنأصله .

فانظر كيف جمع في هذه الكلمات القليلة ماشاء من الاحتجاج على المكذبين ، والتعريض بهم ، والانة القول لهم ، مع النزاهة التامة في التعبير ، وحسن الايقاظ والتذكير . ولا عجب فهو الكلام الالهى الذى تبوأ من البلاغة سنام الاعجاز ، وترك لغيره المتأخر والأعجاز .

(فلا أقسم الخ) : يقال فيهذا القسمالمنفيماقيل في قوله تعالى: (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) وقرىء **(برب المشرق والمغرب)** بالافراد ، أىمشرق

(١) الاشارة ـ بناء على ما قدمنا ـ الى المؤمنين الذين اجتمعت فيهم تلك الصفات . المصحح .

نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

الشمس ومغربها . اما قراءة الجمع فباعتبار ان للشمس مشارق متعددة تختلف باختلاف ايام السنة وفصولها ، كما أن لها مغارب متعددة كذلك . او المراد مشارق الكواكب ومغاربها ، وفى جملتها الشمس . و (رب المشارق) هو الله سبحانه وتعالى . وضمير (منهم) يرجع الى اولئك الذين كانوا يهطعون الى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا بلغوه تفرقواحواليه عصائب عصائبعن اليمين وعن الشمال، ثم يأخذون فى التهكم به وباتباعه المؤمنين .

وقوله : **(وما نحن بمسبوقين)** أى انا اذا اردنا الانتقام من هؤلاء المكذبين ، والأخذ بنواصيهم ، فلا يمكنهم أن يفلتوا منا فيسبقونا هربا ، ويفوتونا طلبا . فمعنى (وما نحن بمسبوقين) هنا كمعنى قوله تعالى خطابا لهم فى غير ما موضع (وما انتم بمعجزين) ، اى : ما انتم بالقادرين على ان تفلتوا منا فنعجزعن الوصول اليكم ، وانزال العذاب بكم .

يقول تعالى : لا حاجة للقسم فالأمر واضح ، انا لفى امكاننا أن نستبدل بكم يامعشر المكذبين المستهزئين قوما يكونون خيرا منكم استعدادا للايمان ، وقبولا للحق ، ومسارعة الى تصديق محمد عليه الصلاة والسلام . ثم لا تحسبوا أنكم قادرون على الهرب والافلات ، فتسبقوننا وتنجون بأنفسكم منا بحيث لا نعود قادرين على انزال العقوبة بكم . كلا ! فكل ما توهمتموه باطل .

ثم التفت الى النبى صلى الله عليه وسلم حاضا له على الثبات والصبر ، ومتوعدا أولئك المكذبين على ماكان منهم من الجحود والكفر ، فقال :

(فذرهم) أى دعهم يامحمد **(يخوضوا)** فيما يعجبهم من لهو الحديث ولغو الكلام . جعل الاستكثار من الحديث الباطل ، والذهاب فيه كل مذهب خوضا على التمثيل . **(ويلعبوا)** ياتوا من الأعمال ، ويرتكبوا ثم لايزالون كذلك فى خوضهم ولعبهم وباطلهم وغفلتهم من الامور ، ماهو لعب وهزؤ لافائدة لهم فيه ولا نفع .

(حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) ، اى حتى يصلوا ويبلغوا يومهم الذى اوعدهم الله بالعذاب فيه ، واذ ذاك يعلمون انهم كانوا على باطل ، ورأى فايل ، وانهم اضاعوا وقتهم ، وخسروا دنياهم وآخرتهم .

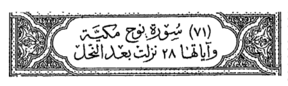
(يوم) بدل من يومهم فى آخر الآية السابقة . يصف من هول ذلك اليوم ، وحالة المكذبين فيه . و **(الاجداث)** القبور . و **(نصب)** وزان عنق مفرد جمعه انصاب . وقيل انه جمع واحده نصاب ككتب فى جمع كتاب . ومعناه على الوجهين كل ما نصب واقيم لاجل أن يعبد من دون الله ، من صنم او غيره . و **(يوفضون)** يسرعون ويستبقون . و **(الخشوع)** فى البصر الغض والكسر ، وفى الصوت الخفض والاخفات ، اما الخشوع فى البدن فهو الذل والتطامن، و **(ترهقهم)** تغشاهم وتعلوهم وتستولى عليهم .

والمعنى أن اولئك المكذبين المستهزئين الذين امر الله نبيه أن يخليهم وشانهم سيلاقون يومهم الموعود عما قليل ، وفى ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مجيبين داعيهم ، مسرعين الى موقف العرض والحساب ، وان حالتهم فى اسراعهم الى ذلك المكان كحالتهم فى الدنيا مذ كانوا ينفرون من مساكنهم فى ايام اعيادهم ومواسمهم متسابقين الى حيث نصبوا اصنامهم وآلهتهم ، ايهم يأتيها اولا ، فيعبدها ويتقرب اليها من دون الله ، وتكون ابصارهم فى ذلك اليوم مغضية منكسرة الى الارض ، وعلى وجوههم آثار الذل والمهانة .

وقوله : **(ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون)** ، اى هذا اليوم هو اليوم الذى كانوا يوعدون به فى دار الدنيا فيمارون فيه ويكذبون ، قد تحقق ورأوه بأعينهم .

وفى تشبيه حالة اسراعهم الى موقف الحساب بحالة اسراعهم وتسابقهم فى دنياهم الى آلهتهم وطواغيتهم ـ تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم ، وتسجيل عليهم بالجهل فى هذا الاسراع الى عبادة غير من يستحق العبادة ، والتقاعد عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى يدعوهم الى الايمان بالله وحده .

وقرىء (كأنهم الى نصب يوفضون) بفتح النون وسكون الصاد مفردا ، وهو العلم المنصوب . والغاية يستبق اليها المتراهنون يوم السباق ، يقول : ان المكذبين يخرجون يوم القيامة مجيبين الداعى كأنهم يسرعون الى راية رفعت لهم ، فهم يبتدرونها ويستبقون اليها . وليس فى هذا المعنى من التوبيخ والتقريع ما فى المعنى الاول ، فيكون الأول هو الأمثل .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ

(أن) فى قوله (أن أنذر) وفى قوله (أن اعبدوا) تسمى أن التفسيرية ، وشرطها أن يتقدمها فعل فيه معنى القول دون حروفه ، وقد تقدم (أن) الأولى الارسال ، وارسال الله النبى انما هو تحميله قولا الهيا يبلغه قومه ، ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : **(انا ارسلنا نوحا الى قومه أنذر قومك)** من دون (أن) على تضمين (ارسلنا) معنى القول ، فكأنه قال « قلنا أنذر » وقد تقدم (أن) الثانيـة قوله (نذير) ، وهو من الانذار الذى معناه التحذير والتخويف بالقـول . ويصح ان تجعـــل (أن) فى الموضعين مصدرية لا تفسيرية،وتكون مجرورةبالباء، والتقدير ارسلناه بأن انذر ، اى بقولنا انذر ، وانى نذير بأن اعبدوا ، اى بقولى لكم اعبدوا .

وقوله (مبين) صـفة النذير من (ابان) اللازم اذا اتضح وانكشف ، فمعنى **(نذير مبين)** نذير بين واضح البرهان لا لبس فى صدق انذاره ، أو من ابان المتعدى اى نذير مظهر لأمره ، وكاشف عن سره ، ومعرب عن نفسه انه نذير صادق مخلص ، وهكذا يقال فى اخواتها الواردة فى القرآن : (عدو مبين) ، (ساحر مبين) ، (ثعبان مبين) ، (خصيم مبين) ، (عربى مبين) ، (افك مبين) ، (غوى مبين) .

وقوله تعـالى : **(يغفر لـكم من ذنوبـكم)** أول ما يتبادر للنفس أن (من) هنا لافادة التبعيض اى يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وقد حمل جمع من المفسرين الآية على هذا المعنى ، لكن يرد عليه أن قوم نوح اذا آمنوا به يغفر الله لهم جميع ذنوبهم لا بعضها ، لأن الاسلام يجبماقبله . وأجيبعنهذا بأن فىالتبعيض ايماء وتنبيها لقوم نوح الى ان مايغفر لهم من الذنوب انما هى الذنوب التى كانت وقعت منهم قبل ان آمنوا أما مايقع بعده فهو لاصق بهم ، وتلزمهم التوبة منه . فالذنوب التى تغفر لهم بالايمان انما هى بعض مـن جملة ذنوبهم الصادرة منهم فى أيام حياتهم ، أو يقال ان الله يغفر لهـم بعض ذنوبهـم وهى التى تتعلق به تعالى ،أما ذنوبهم الأخرىالمتعلقة بحقوق العباد فعليهم الاستحلال من أربابها .

وارى أن (من) متعلقة بيغفر على تضمينه معنى « التحليل » يقال « حلل فلان فلانا» اذا جعله فى حل مما ارتكب وأذنب ، والمعنى هنا أن الله يغفر لقوم نوح اذا اطاعوه جاعلا لهم فى حل مـن ذنوبهـم التى كانوا ارتكبوها .

وليس هذا فقط بل انه تعالى يدرأ عنهم عـذاب الاستئصال كالطوفان ونحوه اذا هم آمنـوا بنـوح ، ويؤخرهم الى حين حلول آجالهم فيمـوتون المـوتة الطبيعية التى كتبها الله على بنى آدم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : **(ويؤخركم الى أجل مسمى)** و (المسمى) المقدر والمقرر فى علم الله تعالى .

و (نوح) عليه السلام أقـدم نبى رسـول ذكره الوحى ووصف جحود قومه وتكذيبهم له وما كابده منهم من العناء والاعنات حتى أغرقهم الله بالطوفان ، ولم يذكر عن نبى قبله ما ذكر عنه من هذا القبيل ، وما ذكر عن أبيه وأبى البشر آدم عليه السلام انمـا هو شرح لكيفية خلقه وعرض أمره على الملائكة وما جرى له ولزوجه فى دار الجنان ، ثم هبوطهما . ولم يذكر لنا الكتاب من اطوار ذريته وأحوالهم من حيث الايمان والجحود والطاعة والمعصية سوى ماكان من منازعة ابنيه قابيل وهابيل ، ثم قتل الأول للثـانى بغيا وحسدا . وقتله له أول مثال من امثلة الظلم وقع فى البشر وقصه علينا الوحى .

وجـاء فى كتب الأوائل أن فى زمن « انوش بن شيث بن آدم » ابتدأتعبادة الأوثان ، وجعل الناس يسـمون المخلوقات آلهة ، فكان « انوش » يجمع أهل بيته وذويه للصلاة والتسبيح وعبادة الله وحده . وفى زمن ادريس عليه السلام ـ وهو أخنوخ بن يارد ابن‌مهلائيل بن قينان بن‌انوش ـ كثرالنفاق ، وانغمس الناس فى الآثام ، فأنزل الله عليه وحيا فى سفر ، هو صحف ادريس المشهورة ، ولم يبق من ذلك السفر سوى فقرة يقولون انها وجدت فى أطواء بعض‌الكتب المقدسة ، وهى : « وقد تنبأ أخنـوخ على هؤلاء الأثمـة فقال : هو ذا الرب يأتى فى ربـوات قدسية لينفذ القضاء عليهم ويبكت جميع المنافقين على‌أعمال نفاقهم » .

اما فى زمن سـيدنا نوح ـ وهـو ابن لامك بن متوشالح بن ادريس ـ فقد شاع الكفر ، واشـتد العصيـان فى البشر ، واكثروا من الظـلم والبـغى والفساد ، فكان من خبرهم مع نبيهم نوح ما قصه الله علينا فى فاتحة هذه السورة وفى غيرها من سـور القرآن .

ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ

وذكر فى الأسفار القديمة ان نوحا ولد لسنة ١٨٢ من عمر أبيه « لامك » ولسنة ١٠٥٦ لجده الأكبر آدم عليه السلام . ومعنى نوح : الراحة والتعزية . وكان عمر نوح ٥٠٠ سنة لما اخذ يلد اولاده ساما وحاما ويافث . وكان عمره ٦٠٠ سنة لما حصل الطوفان (١) . وجميع اجداد نوح ولدوا فى زمن جدهم الاكبر « آدم » . أما هو فلم يولد فى زمنه ، فاجداده المذكورون امكنهم ان يعاشروا جدهم آدم ، ويتلقوا الأخبار الصحيحة منه عن ابداع العالم وما علمه الله اياه . وكثيرون منهم ولاسيما «متوشالح» و « لامك » عاشروا ابنهم « نوحا » سنين متطاولة ، فلقنوه ما تلقنوا هم من جدهم آدم . ولما كان نوح قد عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة امكن حفيده ابراهيم الخليل أن يعيش معه نصف قرن ونيفا ، ويتلقى عنه الأخبار الصادقة ، أو ان ابراهيم تلقى ذلك عن جده سام ان لم يكن تلقاه عن نوح . ولقنه ابراهيم لأولاده اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة متقاربة الحلقات . وبعد ان نجا نوح من الطوفان جعل يحرث الأرض ويغرسها كروما كما كان يفعل آباؤه . اهـ .

هذا منخول ما جاء فى الكتب القديمة من خبر نوح عليه السلام . ونحن ـ معشر المسلمين ـ لانصدقها ولا نكذبها(١) بل نكل أمرها الى العلم الحديث ، فهو الذى يمحصها ويميز غثها من سمينها .

ويظهر من هذه الآيات التى افتتحت بها سورة نوح ، ومما تضمنته من خبره ، ومحاورته لقومه ، وشكايته الى الله من بغيهم وسوء صنيعهم ـ ان دعوته كانت مؤسسة على ثلاثة أركان :

(الركن الأول) ترك عبادة الأصنام (ود) و(سواع) و (يغوث) و (يعوق) و (نسر) التى كان يعبدها اهل ذلك الزمان من دون الله ، فكان نوح يأمرهم **اعبدوا الله)** .

و (الركن الثانى) تقوى الله واجتناب المعاصى والذنوب والفواحش التى تفسد عليهم صحتهم واخلاقهم وآدابهم ، وتفكك روابط الألفة وعرا النظام بينهم ، وهذا معنى قوله **(واتقوه)** .

و (الركن الثالث) اطاعة ولى الأمر فيهم ، وهو نوح عليه السلام نفسه ، وهذا معنى قوله **(وأطيعون)** .

فالدعوة السماوية التى هي اول ما انزل على البشر ، وبلغ اليهم ، هى مطوية فى ثلاث كلمات فقط : ايمان ، تقوى ، طاعة : بالايمان ينتظم أمر عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام ، وبالتقوى ينتظم امر اخلاقها وآدابها فتسلم من السقوط والفساد ، وبالطاعة ينتظم امر اتحاد كلمتها وعلو شأنها فتسلم من الانحلال والضياع .

وما زالت الأمم على سلم هذه الأركان السماوية تعلو فى الحياة الاجتماعية وتسقط ، وترتقى فى العزة والغلبة وتهبط . وآية ذلك التاريخ : فهو الشاهد العدل ، واليه فى هذه المسألة القول الفصل .

ومحصل معنى الآيات : ان الله ارسل نوحا الى قومه ، وكلفه ان يبلغهم امره السماوى ، وان يذعنوا له ، وان لم يفعلوا فان عذابا اليما يوشك ان ينزل بهم . فجاء نوح قومه وبلغهم امر الله بأن يعبدوه وحده ، ويتقوه ، فيدعوا المعاصى ، ويطيعوا رسولهم فيما يأمرهم وينهاهم ، وانهم ان فعلوا ذلك غفر لهم ذنوبهم ، وأخر عنهم العذاب الذى اوعدوا به ـ فيعيشوا اعمارهم ، ويتمتعوا بالحياة الى آجالهم .

وكأن نوحا يعهد من قومه الريب والشك فى ان لهم اعمارا محتومة ، وآجالا لله معلومة يموتون عندها ، ومن ثم اتبع قوله : **(ويؤخركم الى أجل مسمى)** بقوله : **(ان أجل الله)** المسمى والمقدر لكل حى من بنى البشر **(اذا جاء)** وقته وحينه **(لايؤخر)** عنه بل ينفذ طبقا للمشيئة الالهية .

ثم اظهر نوح أسفه من ان قومه غلوا فى الجهل والعناد حتى أنكروا هذه القضية البديهية : وهى ان لكل اجل كتابا فقال : **(لو كنتم تعلمون)** ، اى ليتكم استعملتم عقولكم ، وتدبرتم الأمر بها فاهتديتم الى ما قلت لكم . وفى هذا التعبير من التوبيخ والتعيير ما فيه .

ويصح الا يكون المراد بالأجل فى قوله تعالى : (ان اجل الله اذا جاء لايؤخر) اجل العمر المسمى المذكور قبله ، بل يكون المراد به اجل العذاب المهيأ لهم فيما اذا لم يؤمنوا بنوح ، فان هذا العذاب له اجل ووقت معين لا يتاخر عنه ولا يتقدم ، وهو الذى يجهله قوم نوح ويمارون فيه . أما اجل الموت الطبيعى الذى يدور كأسه على كل واحد من بنى آدم ، فمن المستبعد ان يجهلوه الى حد ان يماروا فيه وفى انه اذا نزل بهم لايؤخر . فيكون معنى قول نوح (لو كنتم تعلمون) لوكنتم تعلمون مالله من نفوذ المشيئة والحول والقدرة فى انزال العذاب بمنكرى وحيه ومكذبى انبيائه .

---

(١) (١) قوله تعالى فى سورة العنكبوت ١٤ (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما فاخذهم الطوفان) يفيد ان الطوفان حدث بعد ان امضى نوح بين قومه ٩٥٠ سنة فالقرآن يخالف فى ذلك ما نقله المؤلف عن الاسفار القديمة .

(مراقبة الثقافة بالأزهر)

الى عبادة الله وتوحيده ، ويعظهم ويخوفهم بأسه وعذابه أن يحل بهم ان هم لم يؤمنوا . وحكى هنا شكايته الى ربه عنادهم وتماديهم في تكذيبهم وجحودهم وقال انه كان يدعوهم (**ليلا ونهارا**) اى مستغرقا جميع الأوقات ، فكان كلما زادهم دعوة وحضا على الايمان ، زادوه (**فرارا**) وهربا وتفلتا منه يمينا وشمالا فلا يصغون اليه ، ولا يجتمعون عليه .

ثم وصف نوح نفورهم ، وصور حالة اعراضهم ابلغ تصوير فقال : انهم كانوا اذا دعاهم الى الاقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته (**جعلوا أصابعهم فى آذانهم**) لئلا يسمعوا قوله . وهذا شأن المكابر المعاند الذى يعلم ان للحق سطوة على الوجدان ، فهو يخشى ان ينفذ منه نور الى قلبه ، فتنزعج منه نفسه ، ويتنغص له عيشه ، ولذلك تراه يجتهد فى ان يبتعد عن الداعى الى الحق . وما كان قوم نوح يكتفون بالفرار منه تارة ، وبسد مسامعهم تارة أخرى ، بل هم أحيانا كانوا اذا راوه (**استغشوا ثيابهم**) ، اى تغطوا بها ، ووضعوا اردانهم وفضول اكمامهم على وجوههم ورءوسهم كيلا يراهم هو فينبرى لهم بالدعوة والنصح ، أو كيلا يروه هم فيتأذوا برؤيته ، وسماع دعوته .

وسين (استغشوا) اما للطلب ، اى طلبوا من ثيابهم ان تغشيهم وتغطيهم ، واما للجعل والصيرورة ، اى جعلوا ثيابهم أغشية وأغطية لهم .

ثم ان نوحا أخبر ان قومه يفعلون ماذكر على وجه الدوام والثبات بحيث لم يعد يرجى منهم أوبة أو توبة ، وهذا معنى قوله : (**وأصروا**) . يقال « أصر على الأمر » اذا لزمه وثبت عليه ، وأكثر مايستعمل فى الاكباب على الشرور وسيئات الأعمال .

اما اباء القوم ، ونفرتهم من نوح وسماع دعوته — فسببه كبرهم وعزتهم وتعاظمهم فى نفوسهم . فهم يرون نوحا دونهم منزلة ومقاما ، فكيف يطيعونه ، ويخضعون له ، ويصبحون فى عداد اتباعه ؟

وقد اشار نوح بتوكيد الفعل بمصدره مذ قال : (**استكبروا استكبارا**) الى فرط كبرهم ، وغلوهم فى عتوهم .

ومن لطيف تعريضه بحالتهم قوله : (**وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم**) . وهو صلوات الله عليه ما كان يدعوهم لأجل المغفرة ، وانما كان يدعوهم لأجل الايمان بالله ، فاذا آمنوا به غفر لهم ذنوبهم ... لكنه طوى ذكر الايمان ، وجعل دعوتهم لمحض مغفرة ذنوبهم ، وفى مغفرة ذنوبهم فوزهم وسعادتهم . فكم تكون الجهالة مستحكمة فى نفوسهم اذا كانوا يسدون مسامعهم ، ويغطون على عيونهم ، كيلا يصلوا الى السعادة ، وهى بين أيديهم وتحت أشعة أبصارهم .

قال نوح فى الآية السابقة : (رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا) وقال هنا : (**ثم انى دعوتهم جهارا**) عاطفا بثم ، فأفاد ان هذه الدعوة الجهرية كانت غير الأولى ، وأن بينها وبينها بعدا وتفاوتا . فاذا تقرر أن الثانية سرية ، فهو يقول : انه فى أول الأمر كان يتكتم فى عرض الدعوة على قومه ، فكان يدلى اليهم بالمناصحة سرا ، مستغرقا فى ذلك جميع وقته ، ليله ونهاره ، كما هو شأن الداعى الحريص على بث دعوته ، الحاذق فى أدائها العالم بطرق تبليغها : يتحين لها الفرص ، ويختار لها الأوثق فالأوثق من الرجال ، ولا يتسرع فى افشائها خشية ان يكاد لها ، وتقام العوائير دونها . ومع كل ذلك لم تنجح دعوة نوح فى القوم لفرط عتوهم ، وتحجر العناد فى نفوسهم ، وهذا ما حمل نوحا على سلوك طريق آخر فى الدعوة وهو مصارحتهم بها ، وتبليغهم اياها جهارا من دون تكتم ولا خوف ولا تقية ، وهو معنى قوله : (ثم انى دعوتهم جهارا) ، اذ ربما كان فرط تكتمه فى أمره ، واستخفائه بدعوته ، يجعلهم يظنونها باطلة ، والا فما الذى يمنعه من الجهر بها ؟ أو يظنون أنه عاجز جبان عن تبليغها ، فهو يكتمها خشية ايقاعهم به ، وهذا مما يزيدهم نفورا وعنادا . ومن ثم قام نوح عليه السلام يصدعهم بدعوته صدعا ، شأن الواثق من صدقها ، المعتمد على ربه فى حياطته وحياطتها ، كأنه يقول : هاكم دعوتى أبلغكموها على رءوس الأشهاد ، فان كان لكم سلطان بين على بطلانها فهاتوه ، أو كنتم تريدون قتلى وصدى بالقوة فافعلوه .

اذا لم يكن لدى الداعى جراة وشجاعة أدبية فى عرض دعوته فان دعوته تموت مهما كان واثقا من صدقها ، بل مهما كانت هى حقا فى نفسها . وكم دعوة حق ماتت فى مهدها ، وكلمة صدق خمدت بعد وقدها (١) — بسبب تهيب الداعى المقاومين له ، وما ينقصه من الشجاعة الأدبية فى تحمل الكوارث والشدائد التى تعترض سيره . ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة الحرية الفكرية ركنا من أركان مدنيتهم ، وعمادا قويا لحضارتهم . ولو قال قائل : ان مدنية الغربيين ، وظهور النوابغ فيهم ، وعروجهم فى العلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم فى العزة والصولة والغلبة الى الأوج الذى وصلوا اليه اليوم — انما هو أثر من آثار الحرية الفكرية . . . ما كان غاليا ولا مبالغا .

ولما صدع نوح قومه بدعوته هذا الصدع ، وباداهم بالنصيحة هذه المباداة — اضطربوا وحاصوا ، وعلموا أن الأمر جد ، وأن نبيهم غير عاجز ولا وكل ، وانه على بينة من أمره ، وقوة فى عزيمته ، وانهم اذا تهاونوا فى شانه ، واستخفوا بدعوته — ربما علقت كلماته بنفوس بعض ابنائهم فيولعون بها ويشبون عليها ، وحينئذ يعظم أمرها ، ويستفحل خطبها . فصاروا يداورون نوحا عليه السلام ، ويحاولون اسكاته وصرفه عن الجهر الى المذاكرة معه فى السر . فلم يأب نوح ذلك عليهم ، وجعل يصف لهم دعوته ، ويبلغهم أمر الله فى مجالس خاصة ، يعقدونها بينهم ، لكنه مع هذا بقى مصرا على الجهر بالدعوة والاعلان بها

---

(١) وقدها : مصدر وقدت النار اشتعلت . وكل شيء يتلألأ فهو يقد ، حتى الحافر اذا تلألأ بصيصه .

لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

فى المجامع ،وحيث يكون الدهماء والجمهور. وهذا هو الطور الثالث من أطوار نوح فى دعوة قومه ، وتبليغه رسالة ربهم اليهم . وقد أشار الى ذلك بقوله : **(ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا)** .

والعطف بثم يشعر بأن الاعلان والاسرار الاخيرين كانا طريقة ثالثة سلكها نوح فى الدعوة ، غير طريقة السر المحضة ، وغير طريقة الجهر المحضة . فكان فى الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الاعلان ، ويسرها لهم أخرى حيثيتوقع نفع الاسرار.

ثم بين ما وعظهم به سرا وعلانية فقال : **(فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفارا الخ)** ، أتاهم من طريق القلب ، وتحريك العواطف ، والتذكير بأن ما هم فيه من انحباس الأمطار ، وما حرموه من الرزق والذرية وجدب الأرض وقحولها ــ انما سببه كفرهم بالله الذى بيده وحده ارسال المطر ، واغداق الرزق ، والامداد بالأموال والبنين ، وأنه لاينبغى لهم أن يكفروا بهذا الاله الذى يقدر أن يمنحهم أمثالهذه النعم ، ويعبدوا آلهة أخرى ، اخترعوها ، لاتضر ولا تنفع . فقوله : (استغفروا ربكم) ، أى آمنوا به ، واطلبوا منه أن يصفح عما فرط منكم . فالأمر بالاستغفار يقتضىأمرا بالايمان ، لأنه لا معنى لأن يطلب الجاحد من الله غفران معاصيه وهو مقيم على كفره ، وتكذيب نبيه . وقد يقال فى معنى (استغفروا ربكم) اطلبوا منه تعالى أن يغفر لكم الذنب الأكبر وهو الشرك به وعبادة غيره ، وليس معنى هذا سوى الايمان بالله وترك الشرك . ويلائم هذا المعنى قوله بعده : (انه كان غفارا) ، أى أن ربكم من صفاته الرحمة فهو يرحمكم ، ويغفر لكم ما مضى من شرككم به وعبادة الآلهة غيره ، وانكم أن تؤمنوا به وتستغفروه **(يرسل السماء عليكم مدرارا)**، و (يرسل) مجزوم جوابا لاستغفروا .

و (السماء) فى قوله(يرسل السماء عليكم)المطر. وهذا الاستعمال معهود متداول لذى أهل اللسان ، المطر عليه. وكل هذا تجوز وتوسع فى كلمة(السماء) التى معناها فى الأصل ما أظل الانسانمن جهة العلو . وقد جاء المعنيان فى قول الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وان كانوا غضابا

فقوله « نزل السماء » أى المطر ، وقوله « رعيناه » أى رعينا السماء بمعنى الكلأ والعشب الناتج عن المطر. واعادة ضمير « رعيناه » على السماء بغير معناها الأول نوع بديعى يسمى الاستخدام . و (المدرار) الكثير الدرور ، الغزير الانسكاب . و (الامداد) الاعانة بالشىء ، والتمتيع به على وجه الافادة والانتفاع . و (الجنات) البساتين ذات الأشجار المظلة ، المثمرة المغلة .

ويفهم مما قاله نوح لقومه أن قومه كانوا مجدبين ممحلين محارفين مشئومين ، وأن فساد أمرهم ، وسوء أخلاقهم ، وغلبة الذنوب عليهم ، واخلادهم الى البطالة والكسل ، وجهلهم بشئون الزراعة والصناعة وأفانين العمل ــ كل ذلك أدى الى حرمانهم مما كان فى طاقتهم ان يحصلوا عليه لو آمنوا وأطاعوا ، واتبعوا الشرائع التى أتاهم بها نبيهم نوح من عند الله ، والتى يصلح بها شأنهم ، وينتظم أمرهم ، وتكثر ذريتهم ، ويستبحر عمرانهم .

فبالايمان بالله ، وبالعمل بشرائعه ، وبطاعة نبيه يتدربون على العمل ، وانشاء البساتين ، وغرس الأشجار ، وحفر الترع والأنهار ... وبذلك تغزر محاصيلهم ، وتكثر أرباحهم ، وتتوفر مكاسبهم ، ويغدودق الرزق والمال بينهم . وبترك المعاصى والفواحش والفجور ــ ينتظم أمر البيوت ، وتتوثق روابط الألفة والمحبة بين أفراد الأسره ، ولا سيما بين الزوجين ، فيطيب اذ ذاك العيش ، وتتوفر دواعى الهناء ، ويبارك الرب سبحانه فى الذرية والبنين .

كانت هذه الأمة التى هى من اقدم أمم التاريخ محرومة من كل هذه البركات ، لكنها كانت شديدة التشوق اليها ، والحرص عليها ــ فجاءها نبيها نوح يرشدها ويعلمها ، ويبلغها عن خالقها ما به صلاحها ونجاح طلبتها ، ويؤكد لها أنها ان اطاعته انتقلت باذن خالقها الى طور فى الاجتماع أكمل ، ودخلتفى دور من ادوار الحياة أفضل وأمثل .

بعد أن أطمع نوح قومه فى الآيات السابقة بالحصول على بركات السماء وخزائن الأرض ان هم آمنوا بالله الذى بيده مفاتيح هذه الخزائن ، ومنه وحده تستمد تلك البركات ــ عاد فهز نفوسهم وعطفها نحو الايمان بأسلوب آخر من أساليب البيان ، فقال : **(مالكم لاترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ؟)** .

والعمدة فى هذا الأسلوب استعمال العقل ، والاستدلال على وحدانية الله تعالى من طريق النظر والتفكير فى خلق أنفسهم ، ثم فى خلق هذه الكائنات

العلوية والسفلية ، كما كان العمدة في اسلوب الآيات الماضية ، هز القلب وتحريك عواطفه نحو شكر المنعم الذي في الشكر له والايمان به استزادة من تلك النعم ، وتعجيل في الوصول اليها .

و (الرجاء) الامل . وقد عطف عليه في قول كعب : « ارجو وآمل ان تدنو مودتها » . وقد تضعه العرب في موضع الخوف اذا صحبه جحد، كما قال ابو ذؤيب « اذا لسعته النحل لم يرج لسعها » . يصف مشتار العسل : يقول انه لايخاف لسع النحل اذا هي لسعته لاعتياده ذلك منها .

والرجاء في لغة هذيل وخزاعة ومضر المبالاة يقولون لم ارج يعنون لم ابل .

و (الوقار) في الانسان الرزانة والحلم . يقال : «وقر فلان» اذا رزن . اما الوقار في جانب الله فبمعنى العظمة . والتوقير التعظيم . يقول نوح لقومه مالكم ايها القوم لاتخافون لله عظمة ، أو لاتبالون عظمة الله فتؤمنوا به ، ولا ترهبون له جانبا فتدعوا عبادة غيره ، وانتم اذا نظرتم في انفسكم وفي الآفاق رايتم من غريب صنعه ، وعجيب ابداعه، مايستدعي منكم تلك المخافة والرهبة .

والمراد (بالأطوار) ما عليه البشر في افرادهم وجماعاتهم من حالات الصلاح والفساد ، والسعادة والشقاوة ، والخير والشر ، والفضيلة والرذيلة : تصنيف الناس الى هذه الأصناف ، وتخصيص كل فريق منهم بحالة دون حالة ، وشان دون شان دليل على وجود اله حكيم مدبر مريد يخص من شاء بما يشاء .

والذي عليه الاكثرون ان المراد (بالأطوار) حالات التخليق غير المستقرة ، التي يتدرج فيها الانسان من حالة الى حالة ، وينتقل من طور الى طور : طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، ثم عظما قسيا ، قد كسي لحما طريا ، ثم بشرا سويا ، وروحا عبقريا — فتبارك الله احسن الخالقين .

نبه نوح قومه الى النظر في انفسهم اولا ، لأنها اقرب اليهم ، والاستدلال بها ايسر عليهم ، ثم امال اعناقهم الى الآفاق ، قائلا : **(الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا)** ، كأنه في هذا الاستفهام يعجبهم من امرهم في تأخر صدور الايمان منهم ، مع انهم سبق لهم أن رأوا السموات ، ووقفوا على شيء من عجيب صنعها ، وتسوية طباقها ، أو انه نزلهم منزلة العميان الذين لم يروا لغلبة الجهل والذهول عليهم .

ونفهم من (السموات) ما كان يفهمه منها المخاطبون الذين نزل القرآن بلسانهم (1) ، وهو ماارتفع فوقهم من الفضاء الأزرق الذي تسبح فيه الكواكب والنجوم في طرائقها ومداراتها . هذه الكواكب والنجوم المشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بواسطة الرصد وادوات المراقبة — لم تكن كلها في رقيع واحد من الفضاء ، بل عرف منذ عهد نوح عليه السلام انها متفاوتة في العلو والارتفاع : بعضها أعلى من بعض ، كما أن بعضها أكبر جرما من بعض . وبهذا الاعتبار كان الفضاء الذي تسبح فيه تلك الأجرام الهائلة طباقا، طبقة فوق طبقة . فالذي يرى السموات يشهد بعينه وعقله انها ذات طبقات متعددة . وقد عرفت الأمم منذ ذلك العهد ان تلك الطبقات سبع ، وان في كل طبقة كوكبا منيرا يدور فيها ، فاصبحت مدارا له ، وفلكا يتجلى فيه نوره . وقد عرف نوح من قومه يومئذ أنهم بلغوا من العلم الى معرفة تلك الكواكب السبعة ، كما عرفوا منازلها وطبقاتها ، وطرائقها ومداراتها .

والرؤية المستفهم عنها في قوله (الم تروا ؟) انما هي الرؤية العلمية التي تكون بالاستدلال والاكتساب، واعمال القياس والحساب ، وليست هي الرؤية البصرية التي تكون بمجرد العين ، فان العين وحدها لا يمكن أن ترى سموات سبعا ، واحدة فوق اخرى ، وانما ترى جلدا واحدا فيه نجوم متعددة .

ومحصل القول ان البشر في زمن نوح — وهو الزمن الذي عاش فيه الكلدانيون المشهورون بعلم الهيئة ورصد الكواكب وعبادة النجوم ، ويسمون الصابئة ايضا — كانوا توصلوا الى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وقد قسموا الفضاء باعتبارها الى طبقات سبع ، وبقيت هذه المعرفة متوارثة في الأمم جيلا بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فخوطبوا عن أمر السماء بما اعتادوا أن يتخاطبوا به فيما بينهم ، وهو أن السموات سبع، وأن طباقها طبقة فوق طبقة . . الى هذا القدر بلغ علم الأمم في الزمن القديم ، ولا يلزم منه أن تكون الكواكب والأجرام السماوية الكبرى في الواقع ونفس الأمر سبعة فقط ، ولا أن يكون الفضاء كذلك سبع طبقات فقط ، بل ان الله عنده من علم السماء وعدد أجرامها وتأليف طباقها مالم يصل اليه علم البشر ، اللهم الا ما علموه في العهد القديم من أمر السموات السبع كما وصفنا ، والا ما علموه في العصر الحديث من وجود بعض الكواكب السيارة الأخرى، وبعض الطبقات والمدارات الأخرى . ولا مانع أن يطلع الله البشر في المستقبل على غير ذلك من الأجرام والطبقات . ولكن خطاب الله للأمم ووحيه اليها انما يكون بما تدركه عقولها ، وتلمسه حواسها ، ويبلغ اليه تصورها في عهد انزال الوحي ، ويكفي في الدلالة على المطلوب .

وقوله تعالى : **(وجعل القمر فيهن نورا)** فيهن اي في السموات السبع ، ولا يضره أن يكون القمر في الواقع ونفس الأمر في ادنى تلك السموات واقرب طبقاتها الينا لا فيها كلها ، لأنه اسلوب عرف التخاطب به بين اهل اللسان ، فهم يقولون : ان فلانا يسكن المدينة الفلانية ، يريدون انه ساكن في حي من احيائها وجهة من جهاتها لا في كل حي وجهة منها . وكذلك هنا لمن قال : ان القمر في السموات اي في مجموعها ، الصادق باستقراره

---

(1) قال ابن سيده في المخصص « جزء ١٦ صفحة ١٨١ » ما نصه : « والسماء والسماءة مدار النجوم » وقد مر مثله .

الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا

فى واحدة منها ، ومثله قوله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) مع أنه انما أنزل فى ليلة واحدة من ليالى رمضان ، وهى ليلة القدر ، لا فى رمضان كله .

ومن مواضع العجب أن الكتاب لم يقل عن الشمس انها جعلت فيهن ، أى فى السموات ، كما قال عن القمر انه جعل فيهن . وقد عرف أخيرا أن الشمس هى مركز النظام الشمسى ، وان السيارات السابحة فى سمواتها ومداراتها تحتف بالشمس ، وتدور حولها من كل جانب ، فلم تعد الشمس بهذا الاعتبار معدودة فى السيارات السابحة فى السموات ، المرتبة طبقات طبقات . اما القمر فمعدود فيها ، وله مركز وموقع من تلك السموات .

و (السراج) آلة الاستصباح المعروفة ، وتسمى الشمس نفسها سراجا لأنها سراج النهار يستصبح بها الناس فيه كما يستصبحون بالسرج والمصابيح فى ليلهم ، ولم يسم القمر بهذا الاسم (أى باسم سراج) لأن الارتفاق بنوره فى الليل أقل بكثير من الارتفاق بنور الشمس فى النهار ، وانما هو نور يستضاء به فى الجملة ، كما يعلم به عدد السنين والحساب . وكما أن التعبير عن الشمس بالسراج أفاد أن نورها أشد وأتم وأكمل فى الانتفاع من نور القمر كذلك قوله تعالى فى الآية الأخرى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ــ أفاد ذلك أيضا ، وذلك لأن الضياء أقوى من النور فى الأعم الأغلب من اطلاق الكلمتين . وهذا قد يؤيد ما تقرر فى علم الفلك من أن نور الشمس ذاتى فيها ونور القمر عرضى مكتسب من نورها .

ثم رجع نوح فأمال أعناق قومه عن السماء الى الأرض ، وحضهم على التفكير فى عجائب ما فيها من الشئون والأطوار . فمن ذلك خلق المخاطبين أنفسهم ، وكيف سلوا من تراب الأرض كما يسل النبات . والأصل فى معنى الانبات اخراج الله النبات من الأرض . أما بنو آدم فيخرجهم خالقهم من بطون امهاتهم أطفالا ، ثم ينشئهم بما يغذيهم من اللحوم والنباتات انشاء يبلغون به أشدهم . لكن لما كان اخراجهم وانشاؤهم بشرا سويا انما يتم بتناول آبائهم وامهاتهم ثم بتناولهم هم بعد الولادة ــ عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض .. كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التى تنمو بامتصاص غذائها من الأرض مباشرة ، فلذا سمى خلقهم وانشاءهم انباتا . وهذا يشير الى وحدة عالمى الحيوان والنبات واشتراكهما فى كثير من النواميس التى تتعلق بالحياة العامة ، كالتلاقح والتوالد والاقتياد والنمو والتنفس ، وتطورات أخرى من هذا القبيل . ومن ثم قال بعض الحكماء : ان الانسان شجر اقتلع بجذره من الأرض فمشى ودلف ، وان الشجر انسان غاص بقدمه فى الأرض فثبت مكانه ووقف .

فمعنى قوله **(والله أنبتكم من الأرض نباتا)** أنكم[1] ان كنتم بشرا فى حقيقتكم فأنتم نبات باعتبار اتكالكم فى حياتكم الحيوانية على عناصر الأرض كاتكال النبات فى حياته النباتية عليها . فالله الذى أنبتكم هذا الانبات ، ويسر لكم من عناصر الأرض الأرزاق والاقوات ، ثم خصكم تفضلا منه وكرما بالحياة الحيوانية ، ثم زادكم كمالا بافاضة الحياة الانسانية ، ثم آثركم بمواهب النفس والعقل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة ... الاله الذى هذا مبلغ عنايته بكم ، وذاك قدر انعامه عليكم ــ يجدر بكم أن تعبدوه وحده ، وترهبوا وعيده ووعده (٢) .

و (نباتا) مصدر (نبت) الثلاثى ، لكنه أقيم مقام مصدر (أنبت) الرباعى ، وجاء تأكيدا له ، فقيل أنبتكم نباتا مكان أنبتكم انباتا . وقال بعض المدققين هو مصدر الثلاثى ، وجعله من نوع الاحتباك البديعى ، وقال ان أصل الكلام هكذا « والله أنبتكم من الأرض انباتا فنبتم نباتا » فهما فعلان لكل مصدره . لكنه حذف المصدر الأول لدلالة فعله عليه ، وحذف الفعل الثانى لدلالة مصدره عليه ، وبذلك جاء الكلام موجزا فى مبناه ، موفرا وافيا فى معناه .

أما وقد ذكر نوح لقومه عجيب صنع الله فى اخراجهم من الأرض اخراج النبات ، فقد تمهد له السبيل الى تذكيرهم بأمر البعث الذى كان القوم ينكرونه فقال :

(ثم يعيدكم فيها) ، أى مقبورين فى الأرض بالممات ، كما أخرجكم منها منشئين بالانبات **(ويخرجكم اخراجا)** أى من الأرض ثانية بالبعث بعد اللبث الطويل فيها .

وأصل النزاع مع المخاطبين فى قضية الايمان بالله التى لا يسلمون بها ، لكن نوحا لما استدل على وجوب الايمان بما كان من غريب صنع الله فى ايجادهم مستلا لهم من الأرض استلال النبات ــ ناسب أن يستدل لهم بهذا الدليل عينه على قضية البعث واحيائهم الحياة الثانية ، فقال لهم : انه تعالى كما أنبتكم من تراب الأرض يعيدكم بالموت الى ترابها ، وسيخرجكم

---

(١) لم أعد أكلف نفسى عناء تصحيح أمثال هذا التركيب (انه وان كان كذا فهو كذا) بعد أن سمعت الجاحظ فى كتابه الحيوان (س ١٤ ص ٤٦ ج ١) يقول (لأنه وان كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة) . على أن النحوى الفطن لا يصعب عليه توجيهه وتطبيقه على القواعد .

(٢) (ووعده) منصوب بفعل محذوف على حد (علفتها تبنا وماء باردا) ، أى وتأملوا وعده .

بعد منها احياء للعرض والحساب، والثواب والعقاب. واذا تأملتم في انباتكم واخراجكم من الأرض للمرة الأولى ، سهل عليكم تعقل اخراجكم من الارض بعد الممات وانباتكم منها بحسب الناموس الذى يضعه الله اذا شاء لهذا الانبات الثاني .

اشرنا آنفا الى أن الانسان اذا كان يشترك مع النبات في بعض الخصائص والأحوال ، فانه يفارقه بالمواهب السامية التى مازه الله بها. ومن تلك المواهب حريته في الانتقال والمشى على سطح الأرض من جهة الى جهة ، ومن رجا الى رجا ، ولم يخلقه سادكا (١) بمكانه كالنبات لايبرحه الى أن يموت . وتشبيهه بالنبات هو الذى وطأ السبيل بين يدى ذكر النعمة الجلى : وهى جعل الله الأرض بساطا للبشر يتقلبون عليها كيفما شاءوا ، ماداموا خلقوا على غير خلقة النبات ، فهم يضربون فيها ذات اليمين وذات الشمال للسياحة والنزهة وطلب العلم وكسب المال .

و (البساط) ضرب من الطنافس معروف ، سمى بساطا لكونه يبسط ويفرش على الأرض فيجلس عليه الجالس كما يطيب له . وهكذا الأرض : بسطها الله للبشر ، ومهدها تحت مواطىء اقدامهم ، لأجل أن يسلكوا منها سبلا فجاجا توصلهم الى أغراضهم ، وقضاء مصالحهم .

و (السبل) جمع سبيل ، وهو الطريق،و(الفجاج) جمع فج ، وهو الطريق الواسع . والفج في أصل معناه أن تباعد الناقة بين رجليها للحلب ، ويباعد الرجل بين رجليه عند ارادة المشى او لأمر آخر . فالطريق الفج كأنه لاتساع ما بين جانبيه قد تفاج كما تتفاج الناقة عندما تحلب، وبهذا الاعتبار صح أن تكون الفجاج صفة للسبل ، كأنه قيل سبلا متسعة متباعدة الأطراف. وجاء في كلامهم : « قطعوا اليك سبلا فجاجا، حتى اتوك حجاجا » . واكثر ما يستعمل الفج في الطريق الواسع بين جبلين ، لظهور التفاج والتباعد بين سفحيهما ، لكنه يستعمل أحيانا في مطلق الطريق الواسع كما ذكرنا ، وعليه ظاهر الآية (٢) .

وصف نوح في الآيات السابقة كيف كان يدعو قومه الى الايمان بالله ، وبأى الأساليب كان يحذرهم وينذرهم ويحتج عليهم ، وكيف كانت أحوالهم ازاء دعوته من الاصرار وسد الآذان واستغشاء الثياب ، مفرغا كلامه في قالب عرض الأمر والشكوى الى الله الذى ارسله بهذه الرسالة اليهم . وقد انتقل في هذه الآيات الى ذكر نتيجة الدعوة وأنها لم تنجح في القوم ، وبيان السبب في عدم نجاحها ، موردا ذلك كله أيضا في ضمن الشكوى الى الله العالم بما كان منه ومنهم ، وبجميع اسبابه وعلله ومصايره . لكن المخاطبين وهم قريش كانوا لايعلمون ، فلهم من خبر هؤلاء القوم وما حل بهم من العقوبة الالهية أكبر واعظ لو كانوا يعلمون .

يقول نوح ان قومه عصوه وانصرفوا عن سماع دعوته الى سماع كلام رؤسائهم فاتبعوهم وأطاعوهم، وعدل عن ذكر هؤلاء الرؤساء المتبوعين بأسمائهم الى الكناية عنهم باسم الموصول وهو (من) ليتوصل بصلته الى بيان سبب مقاومة الرؤساء له ، وتمكنهم من استتباع القوم واضلالهم . ذلك ان أولئك القادة كانوا على جانب عظيم من المال والولد ، فلهم من سعة مالهم ، وعصبية أولادهم قوة يقاومون بها نوحا . وهم يعلمون أن ايمانهم به يجعلهم تابعين له فيأمرهم وينهاهم بما يريد في أموالهم وأولادهم . فالايمان بنوح في زعمهم مضيعة للمال ، ممحقة للعصبية ، ومما يرجعون خولا واتباعا في قومهم بعد أن كانوا سادة متبوعين . وشأنهم في هذا شأن عظماء كل أمة دعاها داعي الحق الى طاعته ، والعمل بنصيحته . هذا هو الخسار الذى قال نوح عليه السلام انه أصاب عظماء قومه . ومنشؤه مالهم وولدهم ، وهم بالمال والولد تمكنوا من صرف قوم نوح عن استماع دعوته، والايمان بما جاء به . كانوا يتهددون أولئك الضعفاء بعصبيتهم ، وأبناء عشيرتهم ، وكانوا يجدون من المال والثراء مايساعدهم على غرضهم ، بل ربما كانوا ينفقون من أموالهم في شراء ذمم أولئك المساكين ، وامتلاك قلوبهم ، فيرشونهم ، ويدلون اليهم بالصلات والهدايا ، ويقيمون لهم الولائم والمآدب . فانظر كيف توسلوا بما أوتوا من المال والولد الى اضلال قومهم والتلعب بعقولهم . لا جرم أنهم ازدادوا بذلك خسارا على خسار ، وأحلوا قومهم وانفسهم دار البوار .

هذه الطريقة التى احتذاها أولئك الرؤساء في مقاومة نوح واضلال قومهم — كانت مكرا وخداعا : مكرا بنوح من جهة انهم ماكانوا يطلعونه على كل مايعملون في السر لمقاومة دعوته، واحباط سعيه ، ومكرا بقومهم من جهة أنهم كانوا يخفون عنهم الحقيقة ، ويحولون بينهم وبين الايمان بنوح والتصديق بما أتاهم به من الوحى ، مظهرين لهم أن الخير كله فيما يشيرون به عليهم ، من ترك عبادة الله والبقاء على عبادة الأصنام التى هي دين آبائهم . وهذا معنى قول نوح عليه السلام : **(ومكروا مكرا كبارا)** ، وأى مكر أكبر مما فعلوا . وهو معطوف على صلة من ، أى اتبعوا من لم يزده ... ، واتبعوا من مكروا ... ، و (كبارا) بمعنى كبير قرئت بتشديد الباء وتخفيفها . وكلما زادت حروف الكلمة زاد معناها عظما أو شدة ، فيقال: مكر كبير وكبار وكبّار ، كما يقال : رجل طويل وطوال وطوّال ، وأمر عجيب وعجاب وعجّاب .

ومن طرق المكر التى كان يسلكها أولئك الرؤساء في اضلال القوم حضهم لهم على الثبات في عبادة معبوداتهم، فكانوا يقولون لهم بهيئة المتنصح المخلص : **(لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)** .

---

(١) سدك به كفرح : لزمه ولم يفارقه ، ومنه قول الحريرى: « فسدكت بمكانى ، وجعلت شخصه قيد عيانى » .

(٢) وفي المخصص (جزء ١٠ صفحة ١٢٦) الفج والجمع الفجاج ربما كان طريقا بين حرفين مشرفين ، وربما كان طريقا عريضا ، وربما كان ضيقا ، واذا لم يكن طريقا كان أرضا كثيرة العشب والكلأ ا هـ . وحرف الجبل أعلاه المحدد .

كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(لا تذرن) لاتدعن ولا تتركن . وكانت للقوم آلهة كثيرة لاتحصى ، اكبرها شأنا ، وأعلاها منزلة ــ هــذه الخمسة : ود وسواع واخواتهما . فــكان الرؤساء يعمون فى النهى عن ترك الآلهة ، ثم يخصون منها هذه الخمسة بالذكر ، وهذا من شــدة كفــرهم ، وفرط تعنتهم فى مكرهم .

والخمسة المذكورة اسماء آلهة او اسماء اصنام او اسماء أسلاف صالحين للقوم كانوا يعبدونهم من دون الله . ولعبادة الأوثان فى الأمم القديمة طريقتان :

(الطريقة الأولى) مذهب الصابئة ، واساس هذا المذهب الاعتقاد بأن فى الأجرام السماوية ارواحا متصلة بعالمنا الدنيوى اتصال عناية وتدبير ، وتبديل وتغيير . ولما كانت الأجرام السماوية مختلفة فى احوالها واشكالها متباينة فى اطوارها واقدارها ، وهى غائبــة عنهــم ، بعيدة عن مواقع انظارهم ، وهم فى كل وقت فى حاجة الى التبرك بها ، واستمداد المعونة من روحانياتها ــ رأوا ان يصطنعوا لكل منها جسما يمثله ويدنيه من متناول الفكر والتصور ... فاتخذوا الأصنام ، ونحتــوا الأوثان ، وعبدوها من دون الله . ويقال ان هذا الدين ــ دين الصابئة ــ هو أقدم الأديان البشرية الباطلة على الاطلاق . وبقى حتى زمن ابراهيم الخليل عليــه السلام ، فقضى عليه شر قضاء ، وعلم بدين آبائه : آدم وادريس ونوح ، وهو عبــادة الله وحــده . ثم انتقل دين التوحيد من نوح الى اولاده ، وبواسطتهم انتشر بين الأمم ، من عرب وعجم . ولعل ودا وسواعا وبقية الخمســة التى عبدها قــوم نوح كانت اصنــاما منحوتة على اسم بعض الكواكب ، فان منها (نسرا) وهو اسم لكوكبين سماويين : يقال لأحدهما « النسر الواقع » وللآخر « النسر الطائر » . وللأشوريين خلفاء قوم نوح اله يسمونه « نسروخ » اى النسر العظيم ، وكان له هيكل فى عاصمتهم « نينوى » ، وانك ترى فى آثارهم اليوم صورة انســان براس نسر وجنــاحيه ، فلعله رمز الى ذلك الاله .

(والطريقة الثانية) لعبادة الأوثان هى قيام أفراد من البشر ينبغون فى نبوة أو كهانة أو حكمة أو بطولة أو خلق من الأخلاق العالية بصورة غــير معهــودة فى الناس الآخرين ، فيفتتن بهم أقوامهم ، ويرون أن هذا التفوق والنبوغ لم يكن الا لحلول روح الهى فيهم ، فيعبدونهم فى حياتهم ، وفى الأعم الأغلب بعد مماتهم ، ثم يتخذون على مثالهم صورا او اصنــاما أو مــواثل اخرى يذكرونهم بها ، ويتقربون بالنــذور والبخــور والصلوات وضروب العبادات اليها على نحو مايفعل الصابئة فى عبادة الكواكب . وقد ضربت عبادة النوابغ بجرانها فى جنبات الأرض ، فلم يعد يقوى على محوها الدين السماوى نفسه ، وقد لايقوى الا بمعونة العلم ، وانفكاك العقل من قيود الوهم . ولعل وثنية قوم نوح وعبادتهم لود وسواع كانت من هذا القبيل . وقد بقى لعبادة هذه الأصنام اثر فى جزيرة العــرب او فى بلاد اليمن خاصة حتى زمن البعثة المحمدية ، فكان (ود) لبنى كلب بدومة الجندل ، وهو على صورة رجل . و (سواع) لهمدان او هذيل ، وكان على صورة امراه . و (يغوث) لمذحج او غطيف من مراد فى سبأ ، وكان على صورة امراة . و (يعوق) لمراد أو لهمدان ، وهو على صورة فرس . و (نسر) لحمير أو لذى كلاع من حمير ، وهو على صورة نسر . وكان العرب يسمون اولادهم بعبد ود ، وبعبد يعوث .

ومن تأمل ماقلناه فى مناشىء ظهور الوثنية فى البشر فهم السر فى كون الدين الاسلامى يحرم اقامة الصور ونصب التماثيل وتشييد القبور وتجصيصها على رمم العظماء . وفى حديث على رضى الله عنه : « أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : « لاتدع صنما الا طمسته ، ولا قبرا الا سويته » ا هـ ، فان الوثنيين كانوا يتخذون من موائل القبور والأصنــام ذكرى لرجالهم الصالحين ، وليست ذكراهم لهم ذكرى عظة واعتبار ، وانمــا هى ذكرى استمــداد اسرار ، واقتباس أنوار ، واستغراق واستحضار ، واسترزاق واستمطار ، والتماس منافع واستكفاء اضرار . فسد دين الاسلام الذريعة بتحريم هذه الموائل خشيــة أن تسترهب ضعفاء العقول وتستهويهم ، ومن مزالق الوثنية تقربهم وتدنيهم . فلله الاسلام ما أعدله فيما شرع وحكم ! وما أوضح نهجه فيمــا خــط لنا مــن الهداية ورسم ! !

وقوله : **(وقد اضلوا كثيرا)** من تتمة كلام نوح عليه الســلام وشكواه الى ربه ما لاقى من اولئــك الرؤساء الــذين مكروا بقومهم ، وزينوا لهم عبــادة الأوثان . فهو يقول : أن هؤلاء الرؤساء يارب كانوا من قبل (قد اضلوا) خلقــا (كثيرا) غير هؤلاء القــوم المساكين الذين ادعوهم الى الايمان اليوم ، أو انه يريد ان اولئك الرؤساء بما توفر لديهم من قوة المال والولد والمكر والتسويل ــ اضلوا وما زالوا يضلون خلقــا كثيرا . وفى جملة من اضلوا قومى هؤلاء .

وكان نوحا عليه السلام انتبه الى ان صدور هذه الشكوى منه الى ربه ربما أوهم غفلته أو ذهوله عن سنن الله ومشيئته فى خلقه ، فختم شكواه بقوله **(ولا تزد الظالمين الا ضلالا)** .

وظاهر قوله : (لا تزد) الدعــاء الى الله أن يزيد الظالمين ضلالا . وهذا مستبعد من نوح ابى الأنبيــاء الذين هم مثال الرفق بالبشر والرحمة لهم والعطف عليهم ، وانما هو فى الظاهر دعــاء وطلب ، وفى المعنى

اخبار عن استمرار مشيئته تعالى فى خلقه عاملة ، وبقاء سننه مطردة شاملة ، لا تشذ ولا تتخلف ، كأنه يقول : انك يارب فى عدم هدايتك قومى الى الايمان بك أنما تتمم مشيئتك القديمة ، وتنفذ سنتك الحكيمة .

فان قومى الذين ظلمـوا بعدولهم عن محجـة الحق سيبقون فى ضلال عنها ما داموا فى ظلمهم وتعسفهم ، بل انهم كلما ازدادوا ايغالا فى هذا الطريق الذى أخذوا فيه ازدادوا ضلالا وبعدا عن محجة الحق شأن الذى ينحرف عن راس الجادة ، فانه كلما أوغل فى الناشطة(١) التى سـلكها ، ابتعـد عـن الطريق الأعظـم حتى يتورد حتفه . فهذا كما ترى سنة الهية ركب الله عليها هذا الكون ، فلا تخالف أمة من الامم أمر الله ، ولا تدابر سننه ، ولا تستخف بنواميسه ــ حتى تضل عن طريق السعادة ثم تهلك . وعلى العكس الامة التى تعمل بأمر الله ، وتراعى سننه ونواميسه . فنوح عليه السلام يأسف لكون أمته من الفريق الاول ، فهو بعد ان وصف حالها ، وندب مآلها ــ عاد فقال : لتـدم مشيئتك يارب ، ولتنفذ ارادتك ، ولتستمر سنتك .

قول نوح فى ختـام الآيات السـابقة : (ولا تزد الظالمين الا ضلالا) يشعر بيأسه من ايمانهم ، واستئناسه منهم التمادى فى الكفر والضلالات ، والاصرار عـلى ارتكاب الخطيئات الى ما شاء الله . وامة هذا شأنها تستحق العقاب الالهى أن يحل بها ، والعذاب السماوى ان يدمدم عليهـا . وهذا معنى قوله تعالى : (**مما خطيئاتهم أغرقوا**) . وهو اعتراض بين قولى نـوح الماضى والآتى . و (من) لافادة التعليل والسببية ، كأنه يقول اغرقوا بخطيئاتهم وبسـببها . و (ما) المتصلة (بمن) هى التى يسمونها الصلة . وزيادتها انما هى باعتبار اللفظ بحيث اذا اسقطت بقى شمل الكلام منتظما . أما باعتبار المعنى فالمقام فى حاجـة اليها ، اذ هى تفيد المبالغة والتأكيد ، كما أفاد ذلك تقديم المتعلق على الفعل ، فهذا التقديم مع وجود (ما) افاد أن كفر القوم وخطاياهم كانت العامل القوى فى اغراقهم ، وأنهم لو لم يرتكبوا هذه الخطايا لكانوا نجوا من الهلاك بارادة الله التى يتجلى لنا أثرها فى هـذا الكون ونواميسه .

وكان أكبر خطيئات القوم الكفر بالله ، لكن انضم الى هذا الكفر ذنوب وآثام زادته غلظا وشـدة ، من ابشعها ايذاؤهم نبيهم نوحا عليه السلام مدة مفرطة فى طولها ، عبر عنها القرآن بقوله (الف سـنة الا خمسين عاما) .

أما الطوفان الذى أغرقوا به فنؤمن به اجمالا تبعا لاجمال ما جاء فى القرآن وهـذا هو : (حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجـين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معـه الا قليل ... وهى تجـرى بهم فى موج كالجبال ... وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سـماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى) .

(١) هى الطريق يتشعب من الطريق الاعظم يمنة او يسرة .

هذه الآية أكثر تفصيلا لحادثة الطوفان من سـائر آيات الكتاب التى أنزلت فى وصفها ، ولا يكلف المسلم أن يعتقد بما وراء ما تضمنته من الحقائق بشأن هذا الطوفان ، وتلك الحقائق هى :

١ ــ أنه قد تقدم الطوفان فوران تنور .
٢ ــ أن نوحا عليه السلام حمل معه فى السفينة أهله والمؤمنين به القليلين وأزواجا من المخلوقات .
٣ ــ أن السفينة جرت بهم فى موج كالجبال .
٤ ــ انها استقرت على الجودى (١) بعد أن اقلعت السماء ، وغاض الماء .
٥ ــ أن نوحا وأهله والمؤمنين به نجـوا ، وهلك الباقون المكذبون ــ بالغرق أجمعين .

أما الروايات والأسـاطير الأخـرى المتعلقة بهـذا الطوفان ، فمما لا يجب علينا الايمان به ايمانا جازما ، وانما نكل أمره الى الله تعالى والى التحقيق العلمى ، حتى أن مسألة شمول الطوفان لجميع أقسام الأرض وعدم شموله ــ لم يرد عنها فى الكتاب نص قطعى .

وكلمة (أرض) فى قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) ليست نصا فى الدلالة على جميع أجزاء سطح الارض ، وانما هى تستعمل أحيانا كثيرة اسـتعمالا فصيحا فى الجهة الواحدة من جهـات الارض ، ففى سورة يوسف : (قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم) . (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء) . والمراد بالارض فى الموضعين أرض مصر لا الكرة الارضية كلها . وليس هذا مماراة منا فى صـلاحية قدرة الله أن يعم سـطح الارض كله بالطوفان ، وانما نحب أن نقف فى العقائد خاصة على ما جاء فى صحيح النقل ، وارتاح اليه صريح العقل .

هذا ولم تنفرد الكتب السـماوية بذكـر حادثة الطوفان ، فقد ورد ذكرها أيضا فى كتب الصين واليونان وهى معروفة عند أميركا الشمالية والجنوبية . وقال بعضهم : انه وجد أثر كارثة الطوفان فى جميع الاقطار وفى جميع تقاليد الامم ، ماعدا السودان فانه ليس فى بلادهم ولا فى تقاليدهم ما يدل على حدوثه . وذكرت الحادثة فى آثار الاشـوريين ، فقد عثر على صـحيفة أشورية تصف تلك الحادثة ، وكأن الكلام فيها وارد على لسان نوح عليه السلام مذ استقرت السفينة على الجودى ، **فأرسل الغراب فلم يعد ، ثم أرسل الحمامة** فعادت مبشرة بانكشاف اليابسـة ، كما جاء مفصلا فى التوراة ، وهاك ترجمة ما قالته الصحيفة الاشورية :

« فى اليوم السابع أرسلت الحمامة ، فغابت ولم تجد مقرا فرجعت ، ثم أرسلت سنونوة فغابت فلم تجد مقرا فرجعت ، ثم ارسلت غرابا فغـاب ورأى انخفاض الماء فأكل وسبح وتاه ولم يعد ، ثم أرسلت الحيوانات الى جهات الرياح الأربع ، وسكبت سكيبة ، ثم بنيت مذبحا على قنـة الجبل ، وقطعت سـبعة

(١) قالوا هذا جبل مطل على جزيرة ابن عمر فى الجانب الشرقى من دجلة . وهو المسمى (اراراط) . وقد ذكر (اراراط) فى التوراة لانه موضع استواء فلك نوح بعد الطوفان (تك ٨ : ٤) .

أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

أعشاب ، وتحتها وضعت صومر(١) وصنوبر وصمقر ، فاجتمع الآلهة عند فوحان الرائحة : اجتمعت كالذباب عند الذبيحة » اهـ

ولا يخفى ما فى الكلام الاخير من المنافاة لآداب الوحى الصحيح .

و (النار) اذا أطلقت معرفة بالالف واللام أريد بها دار العذاب المعدة للاشرار بعد البعث والحساب . فايراد كلمة (نار) فى قوله (**فادخلوا نارا**) منكرة مع عطف الفعل بالفاء التى تفيد التعقيب من دون مهلة ولا تراخ ــ قد يشعر بأن المراد بهذه النار التى ادخلها الله قوم نوح عقب الطوفان ــ ليست هى نار دار العذاب وانما هى نارأخرى قيل هى عذاب القبر . وروى عن الضحاك : أنهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب . أو لعل المراد بالنار التى ادخلوها ، وأسلمهم الغرق اليها ــ نار الخزى والخذلان ، نار الذل والهوان ، نار الم النفس وعذاب الوجدان ، نار تتعذب بها كل امة خالفت أمر ربها ، وتلاعبت بشرائع دينها ، واستمرت فى عنادها وغشمرتها حتى تقلص ظلها ، وتشتت شملها ، واصبحت طعمة للطامعين ، وفقعا (٢) بقرقرة ، يدوسه السيد والقطين . على انه لا مانع من أن يراد بتلك النار نار العذاب الاخروى ، ويكون تنكيرها لتهويل أمرها ، كما يكون التعقيب بالفاء لافادة قرب الادخال وتحققه ، وكل آت مهما بعد قريب . وهؤلاء المكذبون الذين أغرقوا فأحرقوا لم يجدوا لهم انصارا ينصرونهم مما اراده الله بهم من الاغراق والاحراق ، وهذا معنى قوله تعالى : (**فلم يجدوا لهم الخ**) .

ثم ان نوحا عليه السلام لما رأى قومه غرقى وقد خلت منهم الدار وعفت الآثار قال : (**رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا**) .

(ديار) كلمة تقولها العرب فى سياق النفى لافادة تأكيد نفى وجود أحد من الناس . ومثلها قولهم « ما فى الدار صافر ، ولا فيها نافخ ضرمة » . واصل ديار ديوار فيعال : من دار فى الدار اذا ذهب وجاء فيها . يقول ما فيها متجول ، وقيل ان ديارا مشتقة من الدار نفسها ، فمعنى ديار صاحب دار ملازم لها مقيم فيها ، كما يقال مثلا « جمال » لصاحب الجمال و « كرام » لصاحب الكرم .

وقول نوح (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا) يريد (من الكافرين) الذين ساروا على سيرة قومى . فليس المراد الدعاء عليهم بالاستئصال والاجتياح ، كيف وقد اصبحوا صرعى تحت مواقع بصره ؟ وقد اراد بالدعاء هنا ما اراده فى قوله السابق (ولا تزد الظالمين الا ضلالا) . فتكون آية (رب لا تذر الخ) شاهدا مؤيدا للمعنى الذى قلناه فى آية (ولا تزد الخ) من أن نوحا عليه السلام أورد الخبر عما اودعه الله هذا الكون من السنن التى لاتتخلف فى الامم الشاردة عن أمره ــ فى صورة الدعاء . فقوله (لا تزد) و (لاتذر) معناهما لاتفعل يارب الا مامضت عليه سنتك ، وسبقت به مشيئتك ، وهو بذلك يعلن التسليم اليه تعالى ، والاعتراف بأن ماقضاه فى خلقه عدل ، وان ماشاءه فيهم ماض نافذ لامعقب له .

ثم اتبع ذلك ببيان حكمة الله فى اهلاك الكافرين فقال : (**انك ان تذرهم**) اى ان تدع الاشرار يتمتعون بسلطتهم وسطوتهم ، ويتصرفون تصرف المستبد المطلق فى ارتكاب المفاسد والمناكر ، ومخالفة شريعة العدل ، ونواميس الحق ــ (**يضلوا عبادك**) تستشر فتنتهم ، ويعظم فسادهم ، ويسر الى بقية العباد المطيفين بهم ، المخالطين لهم ، فيفسدوا ويضلوا عن امرك ومتابعة وحيك ، ولاسيما اذا تأصل الشر والفساد فى أولئك الاشرار ، واصبح ملكة راسخة فى نفوسهم ، فان خبثهم وفساد أخلاقهم ينتقل بالوراثة الى اولادهم وذراريهم ، فصار من مقتضى حكمتك يارب محقهم واستئصالهم جملة ، فانك ان تركتهم يلدون وينسلون ــ نموا وكثروا (**ولا يلدوا**) اذا ولدوا واعقبوا (**الا فاجرا كفارا**) مثلهم .

و (الفجور) بمعنى الفسوق والعدوان ، وهو تجاوز الشرائع والحدود التى امر الله بالوقوف عندها .

وهنا مسألة ، وهى أن ذرارى قوم نوح الذين غرقوا : هل هلكوا معهم ؟ وكيف أهلكوا وهم لم يجنوا ذنبا ولم يقترفوا خطيئة من خطيئات آبائهم ؟

الظاهر انهم هلكوا معهم ، لأن الكتاب قال فيهم (انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم اجمعين) ، وقال نوح : (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) الآية .

ولو قال قائل : ان هذا التعميم انما هو بالنسبة الى الكبار المكذبين مرتكبى الخطايا ، أما صغارهم فالكتاب سكت عنهم ، فنسكت معه ، ولا نخوض فى امرهم ــ ماكان فى ذلك شاذا ولا نابيا .

وما يدرينا أن يكون تعالى قد أمد أولئك الأطفال بلطفه وتدبيره ، ويسر لهم بعض أسباب النجاة ، وكم

---

(١) شجر له ثمر كالبلوط .

(٢) الفقع ضرب ردىء من الكمأة يكون فى القرقرة (وهى الارض المنخفضة) لا يؤبه به ، ولا يجنيه احد ، وانما تدوسه الاقدام ، فضرب مثلا للمستذل المهتهن من الناس .

لله من أمثالها ، على أنه تعالى ان كان اهلك الأطفال المعصومين ، مع الكبار المجرمين ــ فانه فاعل مختار لا يسأل عما يفعل . نعم قد تخفى علينا نحن الحكمة فى ذلك ، وخفاؤها لاينفى وجودها . وان فى الأوبئة والطواعين التى تلم بالبشر فتستأصلهم مع ذراريهم استئصالا،وفى الزلازل التى تخسف الأرض وتحدذها فتبتلعهم جميعا ابتلاعا ، وفى البراكين التى تثور وتهيج فتقذف الحمم والرماد بحيث تطمر البلاد التى حولها وتدفن تحتها سكانها كلهم كما روى لنا التاريخ عن المدينتين الرومانيتين « بومبى » و « هركليوم » ــ أن فى كل ذلك مشابهة ومحاكاة ، بل نسخة مطابقة لما وقع بقوم نوح كبارهم وصغارهم من الهلاك ، ويقال فى تعليل هلاك هؤلاء ما قيل فى تعليل هلاك أولئك .

على ان النفس قد تتسائل هذا السؤال نفسه فى الصغار الذين يموتون بآجالهم قبل أن يبلغوا سن كمالهم . وقد رأيت يوما امرأة تتحسر على موت صغير لها ، امضها فقده ، واسقمها بعده ، فسمعتها تقول وقد شخصت بعينيها الى السماء مغرورقتين بالدموع : « يارب مادمت تريد ان تسلبنيه قبل أن تمتعنى فيه فلماذا أعطيتنيه ؟ » .

هذا وأمثاله من العقد التى تتعلق بمبتدأ هذه الكائنات ومنتهاها ، والحكمة فى محوها بعد أن خلقها وسواها . بل هو لعمرى من القدر الذى ادبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بترك الخوض فيه . أخرج الترمذى فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه الشريف كأنما فقىء فى وجنتيه الرمان ، ثم قال : ابهذا أمرتم ؟ ام بهذا ارسلت اليكم ؟ انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم الا تتنازعوا فيه » .

وكتب المقتطف (صفحة ٤٩٨ مجلد ٦١) بعنوان « الحكمة الفائقة » جوابا على سؤال جاءه من البرازيل وهو « جاء فى الانجيل انه حينما ولد المسيح طلب الملك هيرودس أن يحضروه اليه ، ولما لم يجده أمر أن يقتل كل الأطفال الذين عمرهم نحو سنة فكان كذلك ، فلماذا لم ينقذهم المسيح ؟ » . فأجاب المقتطف بقوله : « لا نعلم ، وفى الكون أمور كثيرة يظهر فى بادىء الأمر أنها مناقضة لقوانين العدل والاقتصاد حتى كأن الكون متروك لا مدبر له ، فالسمكة تبيض مليون بيضة وقد تنقف كلها ، ولكن لا يعيش من أولادها الا العدد القليل ، وأشجار البرية تبذر الشجرة منها ألوفا من البذور لحفظ نوعها ، وقد لا تزرع واحدة من بذورها ، ولكن اذا امعنا النظر فى تركيب جسم السمكة وأوراق الشجرة وازهارها ــ رأينا من الحكمة الفائقة ما يدهش العقول ، ونضطر ان نسلم بوجود حكمة فائقة فى اكثار بيض السمكة وبذر الشجرة ولو لم يعش منها شىء » اهـ

كأن نوحا عليه السلام يقول : أما وقد أهلكت يارب الظالمين بما كسبوا من الخطيئات ، وكذبوا بآياتك البينات ، وكان اهلاكك لهم عدلا ، وتنكيلك بهم حقا ــ فمن عدلك المنتظر ، وكرمك المؤمل : أن تغفر لفريق المؤمنين الذين أقروا بتوحيدك ، واستمسكوا بعرا دينك .

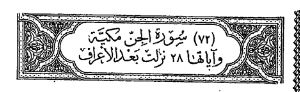
و (الغفر) الستر والصفح عن الذنب ، فالمؤمنون مهما تحروا الحق والعمل الصالح قد يفرط منهم ما يؤاخذون عليه ، فهم يبتهلون الى الله ــ كما وفقهم للايمان والتوحيد ــ أن يغفر لهم ما ربما يبدر منهم مما لا يرضيه تعالى . فبدأ نوح بنفسه ، ثم ثنى بوالديه لعظيم حقهما عليه ، وقد مر أن اسم أبيه « لامك بن متوشالح » ، اما اسم امه فهو « شمخا بنت أنوش » ، ثم ثلث بمن دخل بيته مؤمنا ، وعنى بهم اولاده وأزواج أولاده الذين كانوا يدخلون بيته مشاركين له فى معيشته وعبادة ربه . وفى التوراة أنه لم يكن معه فى السفينة سوى زوجه وأولاده الثلاثة وأزواجهم الثلاث . ثم ختم دعاءه بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات جملة واحدة ، ويومىء هذا من طرف خفى الى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجوا معه فى السفينة . وعلى هذا فالطوفان لم يعم الأرض كلها ، ويكون فى بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يغرقوا ، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين . أو يقال أن المراد بالمؤمنين والمؤمنات فى دعاء نوح من وجدوا فى الماضى أو سيوجدون فى المستقبل متى تناسل أولاده وتكاثروا وانتشروا على وجه الأرض .

ونوح عليه السلام لم ينس أن المؤمنين والمؤمنات عرضة لأن يظلموا ويعتدوا ، ويتجاوزوا حدود الشريعة ، ويعملوا بغير طاعة الله . فهو بعد أن طلب من الله المغفرة لفريق المؤمنين ــ عاد فقال : أما اذا أحد منا معشر المؤمنين ظلم وحاد عن محجة الصواب ، وترك العمل الصالح وعثا فى الأرض فسادا ــ فلا تتركه يارب من معاملتك له بالعدل كما عاملت أولئك المكذبين المغرقين ، فتبره وأهلكه ، بل زده تبارا وهلاكا كما اهلكتهم .

وهذا من نوح عليه السلام ايقاظ وتنبيه لأهله وولده وذويه وسائر من آمن بالله من الناس يحذرهم بطش الله وسخطه ، وانتقامه ممن خالف أوامره ، ونبذ العمل بشرائعه العادلة .

ولا ريب أن اغفال الايمان عن التعهد بالعمل الصالح وممارسة الفضائل يميته من الصدر ويغشى الرين على القلب بالتدريج كما ورد فى الحديث ، فتنخق الكلمة على من هذا شأنه ، فيأخذه الله بالعذاب كما اخذ اولئك المغرقين من قوم نوح . فنوح يقول لقومه : لا تظنوا أن الله نجاكم لذاتكم ، وانما نجاكم لايمانكم وعملكم الصالح ، فاحرصوا عليهما ، واجتهدوا فى تقويتهما وتنميتهما ، والا حل بكم من الهلاك والتبار ، ما حل بأولئك المغرقين الفجار .

و (التبار) من تبر كفرح اذا هلك ، وتبره غيره كضربه ، وتبره أهلكه . فتبار اسم مصدر يقال : تبره تتبيرا وتبارا ، كما يقال كلمه تكليما وكلاما ، وودعه توديعا ووداعا .



بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)

(أوحى) الايحاء فى اللغة أن تلقى الى غيرك ما تريد أن تعلمه اياه بواسطة الايماء او الاشارة او الرسالة أو الكتابة ، ثم غلب استعماله فيما يلقى الى الأنبياء من عند الله . وفى الوحى معنى الاخفاء والسرعة ، فما يلقى وحيا يكون خفيا سريعا .
و (استمع) تكلف أن يسمع ، واصغى اذنه ليسمع .
و (نفر من الجن) : رهط منهم مابين الثلاثة الى العشرة .

ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أصغى اليه هؤلاء النفر ، واستمعوا تلاوته للقرآن ــ لم يكن عالما بهم ، ولا شاعرا بمكانهم ، ومن ثم قال له ربه : **(قل أوحى الى)** أى قل يا محمد لقومك ان الله اوحى اليك **(انه استمع نفر من الجن)** واصغوا الى قراءتك .

وكان من خبر ذلك ، كما فى الترمذى وغيره ، انه صلى الله عليه وسلم انطلق فى نفر من اصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، حتى اذا كانوا بوادى نخلة (موضع على ليلتين من مكة وعلى ليلة من عكاظ) ــ نزل رسول الله فصلى بأصحابه الصبح ، فمر بهم اولئك النفر من الجنة ، وسمعوا رسول الله يقرأ القرآن ، فاستمعوا اليه مصغين متدبرين ، فآمنوا به ، ورجعوا الى قومهم منذرين . وكان اولئك النفر ، فيما روى عن ابن عباس رضى الله عنه ، من جن نصيبين ، وهى مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى بلاد الشام . وقال ابن عباس ايضا : انه صلى الله عليه وسلم ماقرأ على اولئك النفر من الجن ، ولا رآهم يومئذ ، ولا علم بمكانهم ، حتى أوحى الله اليه بأمرهم فى هذه السورة ما أوحى .

وقد قص الله علينا خبرهم ايضا فى سورة الاحقاف مذ قال تعالى : (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه . يهدى الى الحق والى طريق مستقيم) الى آخر الآيات . وفيها حض لقومهم على الايمان بالقرآن كما آمنوا بالتوراة التى انزلت على موسى من قبل ، وانهم ان لم يجيبوا داعى الله ، لايعجز ربهم عن أخذهم بالنكال والعذاب .

وقوله فى سورتنا هذه : **(فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا الخ)** معناه انهم بعد ان استمعوا القرآن وتدبروه رجعوا الى قومهم فقالوا لهم : (انا سمعنا قرآنا عجبا) ، أى موضعا للغرابة والدهشة من جهة مباينته لأمثاله ونظائره من الكتب ، فى حسن نظمه ، وبلاغة اسلوبه ، وما حواه من بديع الحكم ، وبالغ العظات والعبر .

فخبر هؤلاء النفر من الجن فى السورتين متوافق متوارد على شىء واحد ، وهو استماعهم للقرآن ، فاعجابهم به ، فايمانهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فرجوعهم الى قومهم يدعونهم الى الايمان والتصديق .

ويفهم من قول هؤلاء النفر : (تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أنهم كانوا على دين النصرانية ، لأن الاسلام وهو يحاج النصرانية كثيرا مايستند فى محاجتها على نفى الصاحبة والولد .

وقد كبر على عقول بعض ابناء هذا العصر ، الضعيفى الثقة بأمر الغيب وعالم الروحانيات ، أن يفهموا خبر هؤلاء النفر ــ من الجن الذين استمعوا اليه صلى الله عليه وسلم فآمنوا به ــ الا على ضرب من التأويل ــ فقالوا : ان اولئك النفر طائفة من نصارى نصيبين ، وفدوا عليه صلى الله عليه وسلم كما وفد عليه نصارى نجران ، وانهم جاءوه مجتنين مستخفين متنكرين لبعض الأسباب ، فلم يحبوا أن يعلن امرهم أو يراهم أحد من الناس ، وبذلك أمكنهم أن يسمعوا قرآنه ويعقلوا دعوته . أو هم نفر من التجار والأفاقين : قصدوا سوق عكاظ وشهود موسمه ، فمروا به صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، فأصغوا اليه يتلو القرآن من حيث لايشعر بهم ، فلما رجعوا الى بلدهم اخبروا قومهم بخبره ، وعجيب أمره ، ومعجز قرآنه ، فسماهم الوحى السماوى جنا لهذا السبب ، كما سميت الابل فى الحديث جنا . أخرج الامام الشافعى فى مسنده « اذا ادركتم الصلاة فى أعطان الابل فاخرجوا منها فصلوا ، فانها جن خلقت من جن ، ألا ترونها اذا نفرت كيف تشمخ بأنفها » . وفى رواية احمد بن حنبل « الا ترون الى عيونها وهيأتها اذا نفرت » انتهى .

هذا ما قاله اولئكم المعاصرون ، وهو ضيق عطن

منهم ... والا فان وجود قوى روحانية ، وعوالم غيبيـــة ، استترت عن حواسنــا بأعيــانها ، وتجلت لنفوسنا بآثارها ، وما تواتر من أخبارها — أمر محقق لا ريب فيه . ولنضرب لها مثلا القوات الطبيعية التى كانت مجهولة للبشر منـذ أقدم ازمنــة التــاريخ ، كالكهربائية التى لو قص قاص ما سيكون من أمرها وغريب أعمالها ، على البشر وهم فى طور سذاجتهم — لعدوه كذبا حبريتا (١) . وما نعرفه اليوم من خواص الكهربائية قليل بالنسبة الى ماينتظر أن يعرف منها فى المستقبل ، وما يدرينا أن يخلف الكهربائية قوة أو قوات اخــرى اغرب منهــا واعجب . وهــــذا (الراديوم) (٢) عــلى الأبواب ، بل قال « اســـحق نيوتن » أكبر فلاســفة الانجليز : ان البشر اليــوم بالنسبة الى ما اكتشفوه من أسرار الكائنات كأطفال على ساحل الأوقيــانوس ظفروا بودعات براقة ، وشظايا اصداف ملونة لامعة ، فشغلوا بها وحسبوها كل ماعند ذلك الأوقيانوس العظيم ، وما فى اعماقه من الطرف المونقة ، والأعلاق النفيســة ، والــكنوز الثمينة !

واذا كنا لانصدق الا بما نشعر به بحواسنا فهذه ارواحنا التى فى ابداننا لانراها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نذوقها ولا نلمسهــا ، ولكننــا نؤمن بوجودها ، ونعترف بعالمها ، فما عدا مما بدا ؟

وبعد فان عالم الجن ، كعالم الملائكة ، من المغيبات التى أمرنا بالايمان بها ، ولم نكلف رحمة بنا أن نروى من اخبارها وأطوارها أكثر مما ذكره الوحى لنـا . فلنعقل منه ما نعقل ، ولنكل امر ما لا نعقل الى الله ، فهو سبحانه وتعالى القادر على أن يعرفنا فى مستقبل الزمان من أمره ، ويكشف لنا من مكنون سره ، مايكون عقدة اتصال بين العلم الصحيح ، والوحى الصريح .

ومعنى كون القرآن (**يهدى الى الرشد**) — انه يدل على الحق والصواب ، ويوصل اليهما . وقوله (**ولن نشرك بربنا احدا**) معناه أنهم قالوا لقومهم اننا آمنا بالقرآن ، وعملنا بأمره وتعليمه ، فلن نجعل من بعد اليوم شريكا لله من خلقه .

وهمزات (انه) فى قوله (**وانه تعالى جد ربنا**) (وانه كان يقول) (وانا ظننا) الى آخرها — وهى بضع عشرة همزة — كلها مكسورة عطفا على (انا سمعنــا قرآنا عجبا) ، وهمزة (انا) هــذه مكسورة لوقوعها بعد القول : فالمعنى ان أولئك النفر من الجن رجعوا الى عشيرتهم وأبلغوهم جميع هــذه الاخبار معطوفا بعضها على بعض ، وقد أكدت كلها بكلمة (ان) التى هى ام المؤكدات . ومن القراء من فتح هذه الهمزات كلها عطفا على ضمير (به) ، فيصبح المعنى : انا آمنا بالقرآن ، وآمنا بأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وآمنا بكذا وبكذا الى آخر الآيات ، غير أن بعضها لايصلح معه تقدير فعل — آمنا — فيقدر له فعل آخر يناسبه من نحو — صدقنا — و — علمنا — و — عرفنا — و — اعترفنا — و — ألهمنا — و — شهدنا — على حد ماقالوه فى قول الشاعر : « وزججن الحواجب والعيونا » اى وكحلن العيونا ، وقوله « علفتها تبنــا وماء باردا » اى وسقيتها ماء باردا .

ومعنى (جد ربنا) عظمتــه وسلطانه ، أى ان العظمة والجلال الالهى يأبى ويتنزه عن أن يتخــذ لنفسه صاحبة وولدا ، اذ أن مقام الألوهية ينافى هذا الاتخاذ الذى هو أثر من آثار العجز أو الانقســـام والتجزؤ .

يقول العرب : فلان جد فى عين الناس ، يعنون عظم أمره فى صدورهم ، ومنه حديث أنس رضى الله عنه : « كان الرجل منا اذا حفظ سورتى البقرة وآل عمران جد فى أعيننا » ، أى عظم واصبح له مقام ، لما وفق اليه من حفظ هاتين السورتين الطويلتين .

أخذ هؤلاء النفر من الجن يصفون لقومهم ما كان من تأثير الكلام الالهى فى نفوسهم ، وكيف صحح من عقائدهم ، وغير من اوهامهم ، وسردوا على مســامع اخوانهم حقائق استفادوها من جديد ، وقد كانوا عنها عمين ، فذكروا أولا انهم أقروا بتوحيد الله ، ثم قالوا : ان السفيه منهم — اى سفيه كان ، أو المراد بسفيههم الكبير الذى هو زعيمهم وولى أمرهم — كان يقول على الله قولا شططا ، تخطى فيه حد العــدل والحــق . والشطط : عدم الوقوف فى الأمور عند حد الاعتدال . والسفه : خفة وطيش فى المرء تنشأ عن خرق وجهل . فهم يقولون : ان ذوى الرياسة الدينية فيهــم كانوا ينسبون الى الله ما لا يليق بجانب قدسيته ، ويصفونه بصفات ينكرها العقل ، ولا يحملهم على ذلك الا جهلهم وخفة حلومهم . وكان أولئك النفر من الجن وســائر العامة يصدقون أولئك الرؤساء ، ويعتقدون فى الاله سبحانه ما يلقنونهم اياه من الأضاليل ، مسوقين الى التصديق بسائق التقليد والاستهــواء ، أو بســائق الخوف من أولئك الرؤساء . أما وقد سمعوا القرآن واستناروا بنــور هدايتــه ، فما عادوا يصغون الى ما يقوله رؤساؤهم ، ولا ينخدعون به .

ثم انهم اعترفوا أيضا بشىء من غرارتهم وسذاجتهم هم أنفسهم مذ كانوا يظنون أنه لايوجد أحد فى البشر ، انسيا كان أو جنا ، يكذب على الله ، ويأثر عنه من القول ما لم يقله سبحانه . فهؤلاء النفر اعترفوا بأنهم كانوا يصدقون وينخدعون بما يقوله الكذابون على الله مــن الوحى الملفق ، والحديث المزوق ، ظانين صدق القائل ، ومستبعدين صدور الكذب منه . وهذا معنى قولهم : (**وانا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا**) . أما الآن — وقد سمعوا القرآن ، وأشربت قلوبهم حلاوة الايمان — فقد عرفوا أنه يوجد فى الانس والجن كذبة ملبسون ، يجب تحاميهم ، ونبذ دعاويهم ، والاستعاذة بالله من مخازيهم .

---

(١) (كذب حبريت) خالص مجرد لايستره شىء .. ويقــال ايضا : كذب بحريت .

(٢) الراديوم عنصر مكتشف حديثا ذخرت فيه قوة اشعاعية هائلة تفوق قوة الكهرباء اضعافا مضاعفة بحيث يتوقع من وراء اكتشافها والانتفاع بها اعظم الاثر فى مصالح البشر وقوانين حياتهم .

وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

وان لنا معشر الانس مغزى وعبرة من أقوال هؤلاء النفر من الجن : أن ننتبه كما انتبهوا الى انه قام فينا نحن أيضا ملبسون ، يكلفوننا أن نصدق بكل منقول ، ولو كان مما يناقض العقول ، ويخالف ماقرره الاسلام من القواعد والأصول . فلا ينبغي اذن أن يكون أولئك النفر من اخواننا الجن أهدى منا الى صحيح الايمان ، ولا أشد تمسكا بآداب القرآن :

قم فقد قامت الطيور تغنى
لا يكون الحمام أطرب منا

ومما قاله أولئك النفر لقومهم أمر بالغ في الغرابة يتعلق بأوهام الانس في الجن . ذلك أن اناسا منا معشر البشر كانوا يعتقدون سلطة الجن ، وعظيم صولتهم عليهم ، فهم يعوذون بهم ، ويلجأون اليهم مستعطفين ضارعين الا يؤذوهم . فكان الرهط من عرب الجاهلية اذا أمسوا في واد أو قفر وخافوا من الجن — لجئوا الى الاستعاذة بعظيم الجن المسود فيهم ، فيقولون : « نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه » ، ثم يبيتون آمنين . وكانوا اذا أصيبوا بمرض أو آفة ، علقوا على أجسامهم تمائم وتعاويذ يزعمون أنها تقيهم أذى الجن ، وكثيرا مايلطخون تلك التعاويذ بالنجاسة ليبتعد الجن من حاملها ، ويسمون التعويذة اذ ذاك تنجيسا ، ويجمعونها على تناجيس ، ويعلقون على أنفسهم أحيانا ودعا وعظاما . وقد أدرك بعض عقلائهم قبح هذا وسخافته كامرئ القيس الذي يوصي زوجته الا تتزوج — اذا مات وارادت ان تتزوج — احمق معتوها من نمط من ذكرنا فيقول :

أيا هند لاتنكحي بوهة ... عليه عقيقته احسبا(١)

(١) البوهة : الرجل الضاوى ، والطائش ، والاحمق . والعقيقة : خرزة كانوا يزعمون ان من تختم بها سكنت روعته عند الخصام . والاحسب : الأبرص ، ورجل في شعر رأسه شقرة ، ومن ابيضت جلدته من داء ففسدت شعرته فصار أبيض واحمر . القاموس . المصحح .

مرسعة بين أرساغه ... به عسم (١) يبتغي أرنبا
ليجعل في رجله كعبها ... حذار المنية أن يعطبا

يقول : لاتنكحي أحمق مازال شعر رأسه محمرا من آثار العقيقة الباقية فيه — والعقيقة : اسم للشعر الذي يولد به المولود — وان في رسغ ذلك الأحمق فسادا واعوجاجا ، فهو قد شد عليه سيرا للاستشفاء مما عراه ، وهو فوق ذلك يتجول في البرية ليصطاد أرنبا فيجعل كعبها في رجله فلا يموت بتعرض الجن له .

وقوله (**من الجن**) متعلق بمحذوف صفة لرجال ، أي أن رجال الانس يستجيرون برجال صفتهم أنهم من الجن ، كما قلنا آنفا أن أهل الجاهلية كانوا يستجيرون برجال الجن الذين لهم سيادة فيهم .

وقال بعض المفسرين : ان قوله تعالى (من الجن) ليس صفة لرجال ، وانما هو متعلق بفعل (يعوذون) فالمعنى أن رجال الانس يستجيرون من أذى الجن برجال . وهؤلاء الرجال المستجار بهم هم من الانس كالكهان والمنجمين والعرافين وسائر مستطلعي الغيب . فخطباء الجن يقولون لقومهم : أن رجالا من الانس ضعاف العقول يعوذون عند حلول المصائب والشدائد برجال من بني جنسهم الانس ، مستجيرين بهم أن يدفعوا عنهم أذى الجن وغائلة الشياطين بما أوتوا من تجليات الأنوار ، وما استنبطوا من مستودعات الأسرار . وان هؤلاء الرجال من الانس الذين استجير بهم يرونها فرصة سانحة لاستغلال أولئك الحمقى المستجيرين بهم ، واستنفاض ما في جيوبهم . فلا ينهونهم ولا يبينون لهم جهلهم ، بل يزيدون في ايهامهم وتحذيرهم وادخال الرعب في قلوبهم منا معشر الجن والشياطين ، ثم يأخذون في مداواتهم ودفع أذانا عنهم بالطلاسم والأكاذيب ، ومختلف الأساليب . وان هؤلاء الرجال المخرفين ، لهم الجن المؤذون ، لو كان المخدوعون بهم يعلمون .

فهذه كانت حال العرب قبل الاسلام ، وهذا مانبههم اليه القرآن ، وحذرهم منه على لسان اخوانهم من مؤمني الجنة .

وجد الاسلام العرب على عقيدة في الجن وأوهام من أمرهم نزلت بهم الى حضيض البهيمية ، فأعلن أمر الجن بلسان الجن ، وقرر أن استجارة الانس من أذاهم وهم وغي وضلال ، ثم نبه الى أن رجال الانس المستعاذ بهم ، كالكهنة والعرافين والمنجمين ، يزيدون أولئك المستعيذين المساكين (**رهقا**) وعنتا ، ويدخلون على قلوبهم من الرعب والخوف منهم ما لا يطيقونه —

(١) وسع الصبي كمنع : شد في يده او رجله خرزا لدفع العين ، ورسغ كفرح فهو أرسغ ، ورسغ ترسيغا فهو مرسغ ومرسعة أيضا : فسدت اجفانه . والعسم : يبس في مفصل الرسغ تعوج منه اليد او القدم . القاموس .

« به عسم » جملة اسمية و « بين أرساغه » حال مقدمة .
المصحح

كل ذلك ليمتصوا ثروتهم ، ويستثمروا بلاهتهم ، كما تستثمر البقرة الحلوب . وهذا معنى (رهقا) فهو اسم مصدر لأرهقه ارهاقا بمعنى اعنته وكلفه فوق طاقته . ولا جرم أن ضعفاء العقول يتحملون من عبء هذه الأوهام والشعوذات فوق ماتطيقه نفوسهم، وتقوى عليه ملكاتهم ، فيعيشون في الوسوسة والخبل والتعاسة الى ما شاء الله .

وهكذا ضيق القرآن الكريم دائرة الاعتقاد في الجن، ورد البشر في أمرهم الى حد محدود . فكم نجني على انفسنا بل على القرآن نفسه اذا كنا نعتقد في الجن والشياطين اليوم مالايعرفه عرب الجاهلية انفسهم مما لو سمعوه عنا لضحكوا عجبا ، وامعنوا منا هربا .

ثم قال خطباء الجن لقومهم : ان غفلة الانس كغفلتكم انتم يا معشر اخواننا الجن . فهم يظنون كما تظنون أن الله يترك كلا الفريقين — الانس والجن — من رحمته ، فلا يبعث اليهم رسولا يزيح عن أعينهم غشاوات الأوهام ، ويميط عن قلوبهم رين الأضاليل ، ويهديهم الى الصراط المستقيم . وكأنهم يقولون ان ظن الفريقين فيما ذهبوا اليه كاذب ، فهذا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد ارسله الله رحمة للانس والجن ، وانزل عليه القرآن الذى سمعنا آياته ، ودامغ بيناته ، فوجدناه لايتفق مع ما نحن عليه جميعا من العقائد والأوهام ، فأمطناها عن قلوبنا ، وطهرنا من لوثها نفوسنا .

(لمسنا) يراد من اللمس الطلب وان كان اصله المس باليد . وكثيرا مانقول نحن اليوم نلتمس كذا أى نطلبه. ولى عندك التماس أى طلب . وهذا كالجس ، فان اصله تعرف الشيء باليد ، ثم استعملوه في طلب الخبر وتعرفه ، ومنه التجسس والجاسوس . فقولهم (**لمسنا السماء**) يريدون به طلبنا اخبارها ، وحاولنا ان نتعرف أسرارها . و (الحرس) في الأصل جمع حارس ، وهو حافظ الشيء ، ثم استعمل استعمال المفرد ، واصبح اسما للجماعة الذين يحرسون السلطان، ولذا لايقال في واحد حارس ، بل حرسى ، أى منسوب الى الحرس . ولو اعتبر جمعا ما صحت النسبة اليه، لأن الأصل في الجموع ألا ينسب اليها ، ودليل آخر وصفه في هذه الآية بالمفرد وهو (**شديدا**) ، ولو اعتبر جمعا لقيل في وصفه شدادا . و (شهبا) جمع شهاب الشعلة الساطعة من النار ، وهو أيضا اسم لما يرى في سماء الليلة الصحية كأنه كوكب منقض . وقوله (**وانا كنا نقعد الخ**) يريد به انا كنا من قبل نقعد من السماء مقاعد لأجل أن نتسمع اخبارها أى مقاعد قليلة ذات صفة خاصة بحيث يتيسر لنا منها استراق السمع ، ولذلك نكر (**مقاعد**) . وقوله (**يجد له**) أى يجد معدا له ومهيئا في طريقه . ويقال في (رصدا) ماقيل في (حرسا) من أن أصله جمع راصد ثم استعمل استعمال المفرد ، ومن ثم وصف به المفرد فقيل (**شهابا رصدا**) ولم يقل (شهبا رصدا) أى أن ذلك الشهاب مهيأ في طريق ذلك الشيطان المستمع يرقبه لينقض عليه .

وهذه مسألة ثانية من المسائل ذات البال التى قررها القرآن بلسان أولئك النفر من الجن تصحيحا لعقائدنا بشأن جنس الجن ومبلغ سطوتهم على الانس ، فلا نذهب في الأوهام فيهم والمخاوف منهم كل مذهب . قال أولئك النفر في الآيات السابقة انهم استفادوا من سماع تلاوة القرآن أن الجن ليس من مقدورهم أن يؤذوا الانس ، فليطمئن هؤلاء بالا من هذا القبيل . ويقول الجن في هذه الآيات : أنهم يريدون — بالصعود الى السماء — أن يعرفوا الغيب ، ويسترقوا خبر ماقدره الله وأراده في البشر ، لكنهم يطردون منها طردا ، ولا يوفقون الى ذلك ، وانهم كانوا قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم يظفرون بحاجتهم أحيانا ، فيلتقطون من السماء اخبارا ، أما اليوم وقد بعث صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن ، وتقررت فيه الحقائق — فلم يعد للجن نصيب من ذلك : يعنى أن الجن والشياطين كان لهم قبل الاسلام صولة ودولة ، اما بعده فقد سلبوا ما كان لهم من هذا القبيل .

والسماء في عرف جميع الأديان المنزلة ساحة الملكوت الربانى ، ومجلى السر الروحانى ، وفيها عرش السلطان الالهى ، ولوح التقديرات الأزلية المتعلقة بعالم الدنيا . وهى مسكن الملائكة : منها يهبطون ، واليها يعرجون ، ومن ثم كانت قبلة الدعاء ، ومنتهى الرجاء . وكان الكهان والمخرفون ودهاة البشر الذين يريدون التلعب بضعاف العقول واستغلال بلاهتهم — يستخدمون الجن في تعرف خبر السماء ، والوقوف على ما قضاه الله وقدره فيها ، وكثيرا ما ادعوا أن هؤلاء الجن يعلمون الغيب ، وأنهم يأتون به الكهان غضا طريا فيخبرون به الناس .

فانت ترى أن حبائل الكهان في الغواية والاضلال ، ومزالق البشر الى الوهم والوسواس والخبال — كانت منحصرة تقريبا في الجن : من جهة الظن فيهم انهم مسلطون مؤذون ، ومن جهة الوهم فيهم أنهم يعلمون غيب السماء ، وما خبأته العناية الالهية للبشر فيها . وكانت هذه الأضاليل كثيرة الرواج ، شديدة الوطأة على عقول البشر في تاريخهم القديم حتى قبيل البعثة المحمدية ، فوضع القرآن والاسلام حدا لهذه المسألة ، وقرر بلسان الجن أنفسهم (اولا) أن الجن لايؤذون الأذى الذى يخافه ضعاف العقول ، و (ثانيا) انهم لايعلمون الغيب ، وأن الغيوب بشأن البشر في لوح محفوظ في السماء بعيد عن أن يصل اليه أولئك الجن الذين أعد لهم في طريقهم حفظة أشداء وشهب رواصد تمنعهم وتدفع في صدورهم .

ومغزى آيتنا هذه في ازالة الأوهام بشأن الجن ومعرفتهم الغيب هو نفس المغزى في آية سبأ : (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين) . فكل من الآيتين اثبتت جهل الجن ثم جهل الكهنة والعرافين بأمر الغيب وما قدره الله في خلقه . كما أثبت القرآن أن الغيب لله وحده (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو) ، فقد حجبه عن الخلائق أجمعين ، حتى سيد البشر وخاتم المرسلين : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) . نعم

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

لايعلم صلى الله عليه وسلم من الغيب الا مايأتيه به الوحى الصادق .

هذا ما استفاده أولئك النفر من الجن مذسمعوا القرآن ، وهذا ما اعلنوه فى قومهم ، وهـذا ما احبوا ان يعلمه الانس ايضا ، مؤكدين خبرهم واعتقادهم بأبلغ اساليب الخطاب العربى المعهودة فى لسان اهله ، ولا سيما افتتاح كل جملة بكلمـة (ان) التى هى الأصل فى التأكيد .

ثم انهم انهوا الحـديث عن جهل الجن بنتيجـة ينبغى أن يعيها كل انسى وهى قولهم : (**وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا**) ، اى انا معشر الجن الذين تزعمون فينا يامعشر الانس معرفة الغيب واستراقه من السـماء ـ لاندرى ولا نعلم ما الله فاعل فى سكان الأرض ، وماذا قضـاه وقدره عليهم فى لوح تقـديراته : أأراد وقدر شرا أم أراد وقدر رشدا ، أى هداية وتوفيقا . فـلا تظنوا فينا معرفة شىء من ذلك بعد اليوم ، ثم لاتصدقوا الكهان بما يروون لكم عنا . هذا ما قالوه ، لكنه تعالى فى الواقع ونفس الأمر قضى بالشر والشؤم والضلال على بعض من فى الأرض من الأشخاص والأمم ، كمـا قضى بالخير والرشد وسعد الطالع لبعض الأشخاص ولبعض الأمم .

بقى بحث نحب الا يفوتنا ذكره ، وهو ان ظاهر هذه الآيات يفيد أن الجن بعد البعثة المحمدية منعوا من استراق خبر السماء بارسال الشـهب عليهم ، ولما اورد على هذا ان الشهب كانت ترى فى السماء قبل البعثة ـ اجيب بأنها لم تكن من الكثرة الى هذا الحد الذى وقع بعد البعثة بدليل قوله (ملئت) ، وهذا يدل على أن الحادث الجديد هو الملء والكثرة ، وكذلك قوله : (نقعد منها مقاعد) ، أى كنا اولا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، أما اليوم فقـد ملئت المقـاعد كلها كمـا صرح به الفخر الرازى . وقد يقال : ان الشهب كانت منذ خلق الله السموات والأرض ، وستبقى الى ماشاء الله مادامت سننها الالهية ، ونواميسـها الطبيعية قائمة فى هـذا الكون ، غير ان القرآن جعل تلك الشهب بعد البعثـة المحمدية رمزا وتنبيها للبشر الى أن الجن والشياطين لم يعد لهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه وقرآنه ما كان لهم قبل ذلك لدى الأمم القديمة الرائج فيها السحر ـ من السلطة والنفوذ والتأثير فى عقول البشر بواسطة مخرقة الكهان والسـحرة ودعوى الغيب والمزاعم الباطلة .

فالقرآن يهتف من فوق رءوس الأمم والشعوب بأن العقل البشرى تحرر من هذه الاوهام بفضـل القرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام . ولتكن هذه الشهب التى ترونها أيها البشر تنقض فى السماء من وقت الى آخر علامة لكم على ذلك فهى ترمز لكم وتشـير الى ان الشـياطين مطرودون من السماء ، محلئون (١) عن حظائرها برشق نبال تلك الشهب ، فلا تصدقوا من بعد اليوم دعاوى الكهان والسـحرة الذين يكذبون عليكم ، ويتلعبون بعقولكم .

ويشبه هذا ما جاء فى التوراة من أن الله تعـالى وعد نوحا وولده بألا يكون طوفان آخر مثل الطوفان الذى وقع لهم واهلك البشر وكل حيوان ماعدا نوحا واولاده ، وانه تعالى جعل قوس قزح فى الغمام علامة على عهده معهم (٢) . قال مفسرو التوراة : ولا ينتج عن هذا ان قوس قزح لم تكن موجودة قبل الطوفان ، لأن تكونها طبيعى كلما وقعت أشعة الشمس عـلى قطرات المطر ، لكنه تعـالى جعـل ماكان ـ علامة لما سيكون ، ورمزا الى انه تعالى لايسمح من بعد اليوم بحصول طوفان كهذا . ثم ضربوا مثلا لذلك صخرة ملقاة فى أرض منـذ القـديم ، ثم قسـمنا الأرض الى قسيمتين ، وجعلنا تلك الصخرة تخما وعـلامة بين القسيمتين ترمز الى كل فريق أين تنتهى حـدود أرضه .

وهكذا القرآن فانه جعل ارسال الشهب الموجود من قبل علامة على ابطال دعوى الشياطين والسحرة معرفة غيوب السماء بقصد اضلال البشر ، كما جعلت التوراة قوس قزح الموجود من قبل علامة على منـع حصول طوفان آخر يهلك البشر بعـد طوفان نوح عليه السلام .

ثم شرع فى وصـف ماكانوا عليـه من التفرق والانقسام المؤدى الى الضعف والانخزال ، ثم ماصاروا اليه بالايمان والاتفاق على طريقة واحدة يرجى لهم بواسطتها الخير والاسعاد .

وقوله (الصـالحون) صفة لمحـذوف ، أى (**انا منا**) القوم (**الصالحون**) ، وهم الأبرار العاملون بما يرضى الله من اتباع اوامره الالهية ، والتمسـك بسننه الحكيمة ، والعكوف على العمل الصالح .

---

(١) حلأه عن الماء « طرده » .

(٢) وقد ورد مثل هذا فى حديث ابن عباس : « أمان لاهل الأرض من الغرق ـ القوس » وعنى بالقوس قوس قزح . المؤلف .

وقوله (دون ذلك) هو أيضا صفة لمحذوف ، أى (**ومنا**) قوم (**دون ذلك**) ، أى أدنى واحط فى مراتب العمل ومراعاة السنن من اولئك الصالحين . ولم يعلم اكان هؤلاء الادنون المنحطون عن اولئك فريقا واحدا ذا رأى واحد وسيرة واحدة ، أم كانوا على خلاف ذلك — حتى قال : (**كنا طرائق قددا**) ، فأفاد بهذا الاستئناف البيانى انه يتألف من مجموع الفريقين : الصالحين والادنين — طرائق قدد .

و (طرائق) جمع طريقة مؤنث طريق ، وهما اسم للشارع الذى يطرق ويسلك ، ثم غلب استعمال الطريق فى معناه الاصلى ، اعنى الطريق المحسوس المسلوك ، كما غلب استعمال الطريقة فى الطريق المعنوى ، وهو مذهب الانسان وسيرته التى يترسمها فى حياته الى آرابه ومقاصده .

و (القدد) جمع قدة : القطعة ، من قد الشىء اذا قطعه . وطرائق القوم مقدود بعضها عن بعض ، ومقطوع جانب منها عن جانب ، فكل واحدة منحازة عن الاخرى ، مقطوعة عنها .

يريدون بهذا القول تذكير قومهم بما كانوا عليه من الفوضى بسبب تفرق اهوائهم ، وتباين مذاهبهم . وقد ساقهم الى هذا التفرق الأثرة والطمع وحب الرياسة وجلب المنافع الزائلة ، وهذا بالضرورة يؤدى الى الشقاء وسوء الخاتمة . اما التفرق فى الآراء بسائق الاستهداء ، وتلمس السعادة والحصول على نظام كافل للحياة الاجتماعية — فهو تفرق محمود نافع ، تحرص عليه الامم الموفقة ، وترغب فيه ، وتسعى اليه بواسطة الصحافة والاندية ، وعقد المؤتمرات والجمعيات التى يؤدى تفرق الآراء فيها الى معرفة الحقائق والتمسك بها .

فالنفر من الجن الذين خطبوا قومهم ذكروهم بما كانوا عليه من التفرق الممقوت ، ووعدوا انفسهم جميعا — بعد أن سمعوا هدى القرآن وآمنوا به — بانتظام أمرهم ، واتحاد طريقتهم ، والتوفيق بين آرائهم ومذاهبهم ، فتتجه أبدا الى الخير ، وتنصرف عن الشر .

ثم قالوا لهم : (**وانا ظننا**) ، اى علمنا واعتقدنا . والظن كثيرا ما يأتى بمعنى العلم (**أن لن نعجز الخ**) ، اى لن نكون فى الأرض جبابرة أقوياء يعجز تعالى عن اخذنا وانزال قهره بنا . كما لانقدر على الهرب والتفلت فنفوته ثم يعجز عن اللحاق بنا ، والانتقام منا .

يقولون لقومهم : اننا كنا من قبل نعلم ذلك ونعتقده ، ولكن لم يفدنا ذلك العلم ، ولم ينقذنا من بلاء ماكنا فيه من التفرق المشئوم حتى سمعنا القرآن وآمنا به ، وانتفعنا بهديه .

ثم عادوا الى ذكر نعمة الايمان والشكر له تعالى على أن وفقهم اليها . ولا جرم أن فى ذكر النعمة وترديدها على الأفواه عناية بها ، وفى اعلان الحمد والثناء على مسديها استزادة منها . وهذا هو المقصود من قولهم : (**وانا لما سمعنا الخ**) .

ومعنى (**لايخاف بخسا**) اى انتقاصا من حقه فى الثواب فيعطى اقل مما له .

ومعنى (**ولا رهقا**) اى لا يخاف ظلما لا يطاق تحمله ، بأن يحرم الأجر والثواب بالمرة ، او يحمل عليه من سيئات غيره ، وهذا رهق وأى رهق ، لكن المؤمن بربه آمن من ذلك .

وقد سبق التصريح من هؤلاء النفر الذين سمعوا القرآن بأنهم آمنوا به . فقولهم الآن : (**وانا منا المسلمون الخ**) يريدون به تحذير قومهم وايقاظهم ، فادخلوا أنفسهم فى جملتهم ، وقالوا لهم انه سيكون من مجموعنا فريق مسلمون ، وفريق قاسطون . وهذا على حد قوله تعالى : (وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين) ، وهو من أساليب اجتذاب الخصم ، وتلطيف حدته ، واستلانة عريكته . فهم بهذا الاسلوب يحركون من عاطفة قومهم لطرد شيطان التفرقة والاختلاف من بينهم ، وليكونوا يدا واحدة فى الايمان ، واتباع تعاليم القرآن . ويشيرون من طرف خفى الى انه سيكون منهم جميعا أفراد قاسطون ، اى جائرون وحائدون عن سبيل الهدى والرشد ، وهم ضد المسلمين الذين استسلموا لله ، وساروا فى هذا السبيل . فكأنهم يقولون : ليته لم يكن فينا فريق قاسط ، بل نكون كلنا مسلمين ، اذ شتان ما بين الفريقين : من أسلم ومن قسط .

(**فمن أسلم**) واتبع الحق وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم كما فعلنا نحن (**فأولئك تحروا رشدا**) اى طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين مذ اختاروا لأنفسهم طريق الرشد والحق فاستقاموا عليه ، وهو آخذ بهم ان شاء الله الى الجنة . وهذا — وان لم يذكره الكتاب كما ذكر العذاب بحطب جهنم فى جانب القاسطين — مفهوم من ذكر موجبه أعنى تحرى الرشد . والله تعالى أعدل من أن يعذب القاسطين ، ويدع المسلمين من ثوابه .

(**وأما القاسطون**) العادلون عن ذلك الطريق ، (**فكانوا**) بما اختاروه واستمرءوه (**لجهنم حطبا**) وقودا يلقون فيها ، ويصلون سعيرها جزاء وفاقا لأعمالهم ، وسوء اختيارهم . وليس هذا الكلام من اولئك النفر الا ايقاظا لقومهم كما قلنا ، وحضا لهم على النظر والتدبر فى العواقب ، فلا يسلكون الا طريق النجاة والفوز .

و (القاسط) من قسط اذا جار وحاد عن الحق ، ومصدره القسط بفتح القاف . ويكون (قسط) أحيانا بمعنى عدل . يقال : قسط الوالى فى حكمه اذا عدل ، وهو وان كان قليل الاستعمال بهذا المعنى فان مصدره الذى هو القسط بكسر القاف كثير جدا . اما (أقسط) بالهمزة فهو بمعنى عدل ، واسم الفاعل منه مقسط أى عادل . ومنه قوله تعالى : (ان الله يحب المقسطين) ، وكأن همزته للازالة ، فاذا قالوا : « أقسط الوالى فى حكمه » كان معناه أزال القسط بفتح القاف اى الجور والظلم ، فيكون « أقسط » موافقا لقسط قسطا بكسر القاف بمعنى عدل .

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

قوله : (لو استقاموا الخ) . اكثر المفسرين على أنه ليس من مقول الجن لقومهم ، وانما هو من مقول الله موحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو عطف على (أنه استمع نفر من الجن) فى فاتحة السورة . ولعلهم انما جعلوه كذلك لقوله (أسقيناهم) . فالله الموحى يقول : لو استقام أولئك القاسطون على الطريقة المثلى لأسقيناهم ماء غدقا . ولو كان من مقول الجن لقال « لأسقاهم الله ماء غدقا » . وهذا القول ظاهر لاغبارعليه . ومع هذا فانى أرى أن الأليق بالكلام المعجز ، والأكثر محافظة على تناسق جمله ، والتحام أجزائه ــ أن يبقى (وأن لو استقاموا الخ) من مقول الجن ، ومما حذروا به قومهم ، ولا سيما أن بعض المفسرين جعل الآيتين التاليين : (وأن المساجد لله الخ) (وانه لما قام عبد الله الخ) ــ من مقول الجن ايضا ، فكيف يحسن هذا مع جعل (وأن لو استقاموا) من مقول الله لا من مقول الجن ؟ وكيف يحشر حشرا بين اطواء كلامهم وهو غريب عنه (١) ؟

واذا صح جعلنا له من مقول الجن ــ كان قوله : (لأسقيناهم) واردا مورد الحكاية ، وأن الله هو المسقى لا النفر المتكلمون : على معنى أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقاهم ربهم ماء غدقا . لكن المتكلمين عدلوا عن الاسم الظاهر وهو ربهم الى الضمير وهو (نا) حكاية لما يقوله الرب فى وحيه وخطابه عادة للبشر ، فهو كقولك لمن تريد نهيه عن المعاصى « انك اذا تبت الى الله ادخلناك جنة تجرى من تحتها الأنهار » (٢)

تريد انك ايها التائب تكون فى جملة من يدخلون تحت وعد الله لأهل طاعته مذ يقول : ادخلنا وبوانا وانزلنا . وفى الكتاب آيات كثيرة واردة على هذا الأسلوب ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة طه : (قال فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الاولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب . لايضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا . وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى الخ) ، وكان الظاهر أن يقول فأخرج به . ويشبه أن يكون منه قوله تعالى فى سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) . فقوله : (نحن نرزقكم) بضمير المتكلم وارد مورد الحكاية عنه تعالى ، وكان الظاهر أن يقول : « هو يرزقكم » .

وقوله : (لنفتنهم فيه) وارد ايضا مورد الحكاية مع (لأسقيناهم) . ثم رجع الكلام فى قوله بعد ذلك (ومن يعرض عن ذكر ربه الخ) ، (وأن المساجد لله الخ) ــ الى اسلوبه الأول ونسقه السابق .

و « الاستقامة على الطريقة » السلوك فيها بصبر وثبات ودوام . والمراد « بالطريقة » الطريقة الكاملة المرضية عند الله ، وهى طريقة اهل دينه وطاعته ، وسيرتهم التى لايحيدون عنها . والضمير فى (استقاموا) يرجع الى اولئك الذين لم يسلموا ولم يتحروا رشدا ، بل قسطوا وحادوا عن طريق الرشد والحق .

يقول النفر من الجن لقومهم : قد يكون منا فريق لا يسلمون كما اسلمنا ، ولا يسلكون طريق الحق كما سلكنا ، بل يقسطون ويضلون ، ويكونون حطبا لجهنم ، ولو استقام هؤلاء القاسطون على الطريقة المثلى التى يرضاها لهم ربهم : من العمل بطاعته ، واتباع سنته ــ لوسع عليهم الرزق ، والان لهم العيش ، ولكانوا فى جلة الذين يقول فيهم (أسقيناهم ماء غدقا) .

و (الغدق) : الماء الكثير النافع . والماء مادة الحياة ، واصل البركات ، وعلى غزارته وجودته تتوقف صحة الأجسام ، ورفاغة العيش ، وطيب الاقامة . ولم تعمر مدينة من مدن البشر أو يستبحر عمرانها الا لأنها كانت مبنية على نهر متدفق ، أو ينبوع مغدودق . ولا سيما مدن العرب الضاربين فى البوادى ، فان المناهل والغدران غرضهم الأسمى الذى يطمحون اليه ، ويحرصون عليه ، ويكثر بينهم التحاسد والتنافس فيه . وكم من غارة شنت ، ونار حرب شبت ــ من أجل غدير ، أو اغتصاب بير .

وقالوا : قد جننت ، فقلت كلا
وربى ما جننت ولا انتشيت
ولكنى ظلمت فكدت ابكى
من الظلم المبين او بكيت
فان الماء ماء أبى وجدى
وبئرى ذو حفرت وذو طويت

---

(١) ما اختاره المؤلف هنا مبنى على ماذهب اليه بعض المفسرين من أن الآيتين التاليتين من مقول الجن ، وليس بلازم . فعلى قول الجمهور لاتجعلان من مقولهم ، بل يكون الكلام من هنا تقريرا لما ينبغى أن يعرفه الناس ويسيروا عليه بعد أن عرفوا قصة الجن . والكلام على هذا ملتحم الأجزاء ، متناسق الجمل . وعلى الراى الثانى لاتكون الآية محشورة حشرا كما قال المؤلف ، بل تكون اعتراضا حسن الموقع ، لما فيه من التنبيه الى سنة الله الداعية الى الاستقامة على الطريقة المثلى ، وهو المقصود من قصة الجن كلها . المصحح .

(٢) انما يصح هذا التوجيه فى رأيى لو كان المتحدث بمثل هذا الكلام ممن يصح له أن يتحدث عن الله تعالى كما فى الآيتين اللتين استشهد بهما المؤلف بعد . على أن الأبلغ فى العبارة التى ساقها أن يقال : أنك اذا تبت الى الله ادخلك الله الجنة ... الخ باظهار الأسم الكريم بدل اضماره ، لتوكيد نسبة ادخال الجنة اليه تعالى ، فيكون أدعى الى المسارعة فى الامتثال . المصحح .

وإذا أرادوا الدعاء لأحد بالحياة ، ولين العيش ، وسبوغ النعمة ــ قالوا : « سقيا له » ، و « سقاه الله » ، كما يقولون : « طوبى له » و « حياه الله » :

فمعنى قوله : **(لأسقيناهم ماء غدقا)** لوسعنا عليهم الرزق ، وأجزلنا لهم النعم ، وبسطنا لهم الدنيا ، يتقلبون من رغدها وغضارة عيشها فيما شاءوا وأحبوا .

فتوفر أسباب الحياة الطيبة ، ورغد العيش فى الأمم ــ انما هو اثر من آثار تقوى الله ، والعمل بطاعته ، وسلوك طريقته التى يرضاها ، كما قال هؤلاء النفر خطباء الجن لقومهم . غير أن الماء الغدق ، وسعة الرزق ، وبسطة الحياة الدنيا ــ كما تكون ثوابا من الله للأمم على استقامتها ، وحسن طاعتها واستمساكها بحبال سننه تعالى فى خلقه ــ تكون فى الوقت نفسه فتنة تصبح الأمم فيها عرضة للخطر ، ومزلقا تهوى منه الى حضيض الشقاء ، والتعاسة والفناء . وذلك يكون بعدول تلك الأمم عن الطريقة التى استقاموا عليها ، والتى كانت سببا لسعادتهم ، واعتلاء شأنهم .

فالله يرشد الأمم والشعوب الى طريقة مثلى من دينه وحسن طاعته ومراعاة سننه ، فاذا استقاموا افلحوا وسعدوا ، لكنهم ــ وهم فى هذا الفلاح والسعادة ــ بسبيل الغفلة والذهول والزهو والغرور والتنكب عن الطريقة المثلى : طريقة الدين والحق والعدل ، وحسن العمل .

فما أحراهم ساعتئذ باليقظة والانتباه والتدبر ! ما أحراهم بفرط الحذر والاحتياط والاستمساك بحبل النجاة ! ما أحراهم أن يكونوا فى هذه التجربة والمزلق الدحض ذوى أقدام ثابتة ، وحلوم راجحة ، وعزائم متينة ، كى يجتازوا الصراط ، ويتخطوا المزلق ، وينجوا بأنفسهم . اقرأ كتاب الله ، وتصفح التاريخ ، واستعرض أحوال البشر ، وطبق هذا الناموس الالهى عليهم ــ تجده مطردا لا خلف فيه ، محكما لا وهن يعتريه .

ان هذا الدور ، دور الفتنة والتجربة بالتبسط فى افانين النعيم ولذائذ الحياة الدنيا ــ من أرهب الأدوار على الأمم ، وأشدها خطرا على حياتها . والى هذا الدور اشار تعالى مذ قال : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ، وقال : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) .

وكل ماذكر الله فى الكتاب من أخبار الأمم الماضية . . انما ذكره تقريرا لهذا القانون الالهى ، وكشفا عن أمره ، وتحذيرا من غوائله ، بل تنزل الوحى الى ذكر ذلك لنا على لسان اخواننا من الجن ــ كما فى هذه الآية ــ ليكون أدعى الى الانتباه والاتعاظ والاعتبار .

ومحصل معنى الآية أن أولئك النفر من الجن قالوا لقومهم : ان الذين يستقيمون على طريق الحق يصلون الى بحابح السعادة وطيب الحياة،ولكن ليحذروا ــ وقد بلغوا هذا الدور ــ أن يبطروا ويشغلوا بزهرة الحياة الدنيا ولذائذها عن العمل بالحق والعدل وطاعة الله .

فان سعادة الحياة فتنة واختبار ، كما أن شقاءها ومصائبها كذلك ، فكونوا أيها القوم من تلك الفتنة على حذر ، وهذا هو معنى قوله تعالى : **(لنفتنهم فيه)** ولام (لنفتنهم) هى مايسميه النحاة لام العاقبة ، وليست هى لام التعليل ، أى ليس المعنى أن الله يوسع عليهم الرزق ويغدق النعم ــ لأجل أن يفتنهم ، وانما المعنى انه يفعل ذلك بهم جزاء طاعته ، واتباع طريقته ، ثم تكون عاقبة ذلك انتقالهم الى دور خطر ، وموقف حذر ، فيه يفتنون ويجربون : فان أحسنوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ــ نجوا وسلموا ، وان خاسوا بالعهد ، واستخفوا بالوعيد والوعد ــ بادوا وقصموا .

وقد فهم من هذا الشرح معنى قوله تعالى : **(ومن يعرض عن ذكر ربه)** ، أى من يعرض من أولئك الذين أسقيناهم ماء غدقا ــ اثناء اجتيازهم دور الفتنة والاختبار ــ عن وحى ربه ودينه والعمل بطاعته **(يسلكه)** يدخله **(عذابا صعدا)** أى فى عذاب صعد . وفعل (سلك) يتعدى بفى ، قال تعالى : (ما سلككم فى سقر) أى ما أدخلكم فيها ، لكنه هنا عدى الى مفعوله بنفسه حملا له على فعل « دخل » ، يقال : « دخلت السوق » و « أدخلته الخان » من دون «فى» .

و (الصعد) بفتحتين وبضمتين بمعنى الصعود مصدر صعد يصعد ، والصعود أكثر استعمالا منهما . و « العذاب الصعد » : هو العذاب الشديد الشاق ، وأصله من التصعيد فى الجبل ، فانه منصب متعب ، فجعل العرب التصعيد فيه مثلا للمشقة والنصب الذى يلحق المرء من أى شىء كان ، وتقول « تصعدنى الشىء » و « تصاعدنى » اذا شق عليك ، ومنه قول عمر رضى الله عنه : « ما تصعدنى شىء ما تصعدتنى خطبة النكاح » يريد ما شق على ولا غلبنى الا هى . أو هى من الصعود بفتح الصاد العقبة الشاقة ، كما قالوا « تكاءدنى وتكأدنى » من العقبة الكئود ، أى شق على . ومثله قوله تعالى : (سأرهقه صعودا) ، معناه سأسومه عذابا يشقى به كما يشقى المصعد فى الصعود .

والعذاب الذى يعترى الأمم بسبب اعراضها عن أمر ربها ، وعن مراعاة سننه ، والعمل بطاعته ــ من اشد انواع العذاب ،واكثرها حزا فى القلوب ،وارماضا للنفوس .

وقد فسرنا « ذكر الرب » بالطاعة والدين واتباع السنن الالهية ، لأن سعادة الأمم وشقاءها ، وسقوطها وارتقاءها ــ انما يكون بهذا النوع من الذكر ، اعنى العملى ، أما الذكر اللسانى الذى تتغلل به الأمم حين غلبة الجهل والكسل والخمول عليها ، فانه لا قيمة له من دون عمل ، ولا يدفع عنها الخطب اذا الخطب نزل . وقلما نجد فى كلام الله كلمة « الذكر » الا مرادا بها

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)

القرآن والوحى والدين وطاعة الله والخشية منه . أما الحركة العضلية او الميكانيكية فما أبعدها عن مقاصد القرآن ! وما أضعفها أثرا فى نجاة الانسان ! ! !

ومما قاله أولئك الخطباء لقومهم مباهين بما سمعوه واستفادوه من الوحى الالهى **(أن المساجد لله)** . و (المساجد) جمع مسجد . والمراد به مكان السجود ، أو المراد به السجود نفسه . فيكون مصدرا ميميا سميت به الصلاة تسمية للكل باسم الجزء ، كما تسمى أيضا ركوعا لذلك . فالمعنى أن الصلوات كلها التى يصليها اى شخص ، مسلما كان أو غير مسلم ، أو أن المعابد كلها للمسلمين كانت او لغيرهم من أبناء الملل الأخرى ـ هى لله ، اى ينبغى أن تكون خالصة له ، فهو الخالق الحقيقى للبشر ، ولا يحسن منهم أن يجعلوا صلواتهم أو معابدهم لغيره أو باسم غيره ، بل يجب أن يخصوه وحده بها ، ويخلصوا له العبادة فيها .

هذا ما قاله الجن لقومهم ، ثم فرعوا عليه نهيهم لهم عن عبادة غير الله ، فقالوا لهم : **(فلا تدعوا مع الله احدا)** اى اذا كانت المساجد له وحده فلا تعبدوا معه سبحانه احدا من خلقه . فالمراد بالدعاء هنا وفى قوله بعده (يدعوه) العبادة . وقلما ذكر الدعاء فى الكتاب الا اريد به هذا المعنى ، اى العبادة . بل قالوا ان الدعاء مخ العبادة . والدعاء فى الأصل الطلب ، ثم صار يطلق على العبادة ، لأن من شأن العابد أن يطلب من معبوده ما لا يقدر عليه غيره . ومن ثم نهى المؤمن بالله أن يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه الا الله ، لئلا يكون فى طلبه هذا عابدا لذلك المطلوب منه أو كالعابد له . قال تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) .

ولما انهى أولئك النفر من الجن حديثهم احبوا ان يختموه بذكر ما علموه من احواله صلى الله عليه وسلم ، وقيامه بدعوة الناس الى التوحيد ، وما كان من تكذيب الناس له ، وصبره على أذاهم .. فقالوا : **(وأنه لما قام عبد الله يدعوه الخ)** ، وقد سموه صلى الله عليه وسلم باسم (عبد الله) تنبيها لقومهم الى انه مع ماهو عليه صلى الله عليه وسلم من رفعة القدر ، ونباهة الذكر ، واستجماع الكمالات فى ذاته الشريفة ـ ليس من شأنه ان يوسم بغير ميسم العبودة .

لا تدعنى الا بياعبدها فانه أشرف اسمائى

فليس هو صلى الله عليه وسلم الها أو متألها فى الأرض ، ولم يقم ليكون جبارا من جبابرتها ، ولا طاغوتا من طواغيتها . وانما هو كما قال عن نفسه : « عبد ، أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد » . وقد حض أمته على الا يطروه كما تطرى الأمم أبطالها وعظماءها وأنبياءها الى درجة الألوهة ، ولكن ليقولوا عنه : انه عبد الله ورسوله .

فالجن يقولون لقومهم : (انه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يدعو ربه ، ويعبده وحده من دون الأصنام والأنداد التى تعبدها القبائل والأمم فى ذلك العهد ـ هاج هؤلاء الأقوام ، وتألبوا عليه من كل جانب بحيث **(كادوا يكونون)** من فرط كثرتهم وتجمعهم وتعاونهم وازدحامهم **(عليه)** لصده عن دعوته ، واسكاته عن تبليغ رسالة ربه ـ **(لبدا)** ، كاللبد : اى كخيوط الشعر أو الصوف التى تلبدت ولزق بعضها الى بعض . و (اللبد) بكسر ففتح جمع لبدة بكسر اللام ويجوز ضمها فتجمع اذ ذاك على لبد كغرفة وغرف . وهى اسم لكل شعر أو صوف متلبد . وسمى الشعر المتلبد على أكتاف الأسد لبدا لذلك ، ويلقب الأسد به فيقال « ذو لبدة » وفى المثل « هو امنع من لبدة الأسد » .

ثم قال الخطباء : وان عبد الله محمدا صلى الله عليه وسلم لما تألبت عليه القبائل تناصبه وتحاربه ـ لم يقل لهم قول المخبولين الموسوسين ، ولا الجبارين المتكبرين ، بل **(قال)** لهم قول البررة المخلصين : انى ياقوم لم آت امرا منكرا ، ولم افعل ما استوجب به منكم كل هذا الاعراض والنفور والاصفاق على عداوتى ومقاومتى **(انما أدعو)** واعبد **(ربى)** الذى خلقنى وامدنى من ضروب العناية والتربية والتاديب بما صرت به بشرا سويا ، وعبدا بطاعة ربه مليا ، فأنا لا اكفر بكل هذه النعم ، **(ولا أشرك بربى)** وعبادته والاخلاص اليه **(أحدا)** من خلقه : الذين انما قاموا به ، واستمدوا كيانهم منه (١) .

---

(١) اقتصر المؤلف هنا على قراءة « قال » ، وفى تفسير الالوسى . (وقرأ الاكثرون قال على انه حكاية منه تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم للمتراكمين عليه ، او حكاية من الجن عند رجوعهم الى قومهم ... وقراءة الأمر وهى قراءة عاصم وحمزة وابى جعفر ـ اظهر واوفق لقوله سبحانه « قل إنى لا املك لكم ضرا ولا رشدا ») .

ما مر كان آخر حديث أولئك النفر من الجن مع قومهم . ثم انتقل الوحى منه الى الحديث معه صلى الله عليه وسلم معلما له ، ومرشدا الى افضـل الطرق امثلها فى خطاب قومه من قريش ، ومحاجتهم فى الله، تحويفهم عقابه ، جاعلا محاجة الجن لقومهم توطئة تمهيدا ، بل نموذجا ومثالا ، فقال :

(قل) يامحمد فى محـاجة هـذه القبـائل التى ازدحمت عليك للبطش بك ازدحام شعـر اللبـود : **(انى لا املك لكم ضرا)** اى ولا نفعا ـ كما لا املك لكم غيا **(ولا رشدا)** : فحذف « نفعا » مـن الأول لدلالة « ضرا » عليه ، وحذف « غيا » مـن الثـانى لدلالة « رشـدا » عليه ، فهو من جوامع الـكلم الذى كثر ورود امثاله فى الكلام المعجز .

يامر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان ينبه قومه ومقاومى دعوته الى أنه لم يقم فيهم لتكون له سيطرة عليهم ، ولا ليبدل ويغير ماقدره الله وقضاه فيهم من خيروشر ، ونفع وضر ، وغى ورشاد ، واشقاء واسعاد ـ كلا ! فان ذلك كله ليس من مقدوره ، وانما هو بيد ربهم ، واليه مرجعه . وانه هو صلى الله عليه وسلم لم يزد عن كونه واحدا منهم: ارسله الله ليبلغهم وحيه وامره ، ويدلهـم عـلى الطريق التى يريد ربهـم ان يستقيموا عليها . فبقدر ما يكون منهم من الهدى فى تلك الطريق وعدم الانحراف عنها يكون لهم من الضر والنفع ، والغى والرشد ، ثم يكون حسـابهم على الله . بل **(قل)** لهم يا محمد فوق ذلك **(انى)** انا المرسـل بتبليـغ امـر الله اليـكم **(لن يجـيرنى)** أن خالفت ، وأهملت ، او اذنبت ، **(من الله)** ان اراد عقـــابى ، والتنكيل بى **(أحد)** من البشر . **(ولن اجد من دونه ملتحدا)** اى ولن الفى ان هربت من عقاب الله وسطوته ملاذا التجىء اليه ، وآمن فيه مـن العقـاب . سمى الملاذ والملجأ « ملتحدا » من « اللحد » ، وهو فى اصل معناه الميل . يقال . لحد فلان الى فلان اذا مال اليه ، ولحد السهم عن الهدف اذا عدل عنه ، ولحد فى دين الله اذا مال عن صراطه الى مضايقه وبنيانه . ولما كان الملجأ والملاذ يلتحد اليه الهـارب للاعتصـام به سمى ملتحدا . وقد نفى اولا ان يجد صلى الله عليه وسلم مجيرا وناصرا من جنس البشر ، ثم عاد فنفى أن يكون له ملجأ ومعقل يأوى اليه من الأجناس الأخر . فاذا كان هو صلى الله عليه وسلم ـ حبيب الله وصفيه من خلقه ، ومبلغ وحيه وامره اليهـم ـ معرضـا للقهـر والانتقام الالهى ان خالف أو عصى أو قصر فى هـداية أولئك الأقوام المرسل اليهم ـ ! فكيف يكون حالهم هم اذا عصوا وظلموا وتصاموا عن استماع امر ربهـم ، والعمل بما يرضيه ؟ لاجرم أن الأمر الالهى ، والشرع السماوى ـ ناموس عام ، بديع الصنع والاحـكام ، مطبق بدقة على جميع الأنام ، فمن راعاه ، واستمسك بعراه ـ سلم ونجا ، ومن استخف به ، وحاد عنه ـ شقى فى الحياتين ، ثم هوى .

نفى الوحى عنه صلى الله عليه وسـلم فى الآيات السابقة كل طاقة وقدرة تحـول بينـه وبين انفـاذ المشيئة الالهية فيه ، كما نفى عنه أن يكون مالكا لشىء من مصـير الخلق وأمـر ضرهم ونفعهـم ، وغيهـم ورشادهم . لكنه عاد فأثبت له صلى الله عليه وسلم حقا واحدا ، وعملا واحدا ، ووظيفة واحدة يملكهـا باذن الله ، وهى مناولته أولئك القوم المكذبين **(بلاغا)** جاءه **(من الله)** تعالى و « رسـالات » ، وهى سـور القرآن وآياته : أنزلت عليه من الله ليتلوها عليهـم ، فمن سـمع البلاغ ووعاه من المخاطبين ، وتقبـل الرسالات وتدبرها ، وعمـل بمضمونهـا ـ كانت له الجنة خالدا فيها ابدا ، **(ومن يعص الله ورسوله)** ، فيعرض عن سماع البلاغ وتدبر الرسالات والانتفاع بهـا **(فان له نار جهنم)** جزاء وفاقا لتكذيبه واعراضه وسوء صنيعه . وقوله : **(خالدين فيها)** اى لابثين فى العذاب الى غير نهاية ، وانما جمع (خالدين) ميلامع المعنى : وذلك أن (من) لفظها مفرد ، فأعاد عليهـا الضمير مفردا فقال : (فان له) ، أما معناها فعـام شامل لكل عاص ، فلذلك جمع خالدين تمايلا مع ذلك المعنى . وفى الكلام ـ قبل قوله (ومن يعص الله الخ) ـ مقدر اشرنا اليه بقولنا : « فمن سمع البلاغ ووعاه الخ » ، ثم عطفنا عليه قوله تعالى (ومن يعص الله الخ) ومثله كثير فى آيات القرآن ومختلف أساليبه ، ولـو ذكر فيه كل ماحذف منه من هذا القبيل لبلغ حجمه اضعاف ماهو عليه ، فسبحان مـن أنزله ، وبحليـة الايجاز والاعجاز زينه وكمله .

والضمير فى قوله : (حتى اذا رأوا) يرجـع الى (من) باعتبار معناها الجمعى كما قلنا فى خالدين ، وكلمة (حتى) غاية لمضامين الآيات التى وصف فيها اعراض المكذبين وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحيث اشبهوا فى تألبهم وتظاهرهم اللبـد . فالمعنى : سوف يستمـر هؤلاء المعـاندون فى غيهـم وضلالهم ، واستخفافهم برسـول الله وصحابتـه ، واستضعافهم لهم ، **(حتى اذا رأوا ما يوعدون)** اى حتى وقت معاينتهم ما أوعدهم الله به مـن العـذاب والعقوبة : اما فى الدنيا فان مصيرهم فيهـا الخـزى والخذلان والهزيمة وظهور أمر المؤمنين، واما فى الآخرة فان مآبهم فيها الى النار وبئس القرار ، **(فسيعلمون)** عند رؤيتهم ذلك ، وتحققهـم صحتـه **(من أضعف ناصرا)** معينا وحاميا **(وأقل عددا)** نفرا وجندا : هم

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

او محمد عليه الصلاة والسلام . لا ريب انه صلى الله عليه وسلم هو الأقوى ناصرا ، فان ناصره الله تعالى ، وهو الأكثر عددا ، فان جنده الملائكة الأطهار ، والمؤمنون الأبرار .

ويحتمل ان يكون المعنى انهم سيعلمون يوم القيامة ان الله تعالى هو القوى العزيز القادر على التنكيل بهم ، والانتقام منهم ، فلا ينفعهم يومئذ انصارهم وحلفاؤهم شيئا ، ولا يغنى عنهم عددهم وتكاثر حصاهم فتيلا .

كان صلى الله عليه وسلم كلما خوف المكذبين نار جهنم ، وحذرهم اهوال الساعة ـ اظهروا الاستخفاف بقوله ، وسألوه : متى تقوم هذه الساعة ؟ وطلبوا منه أن يعين لهم زمنها ووقت حلولها ، ويتخذون من جهلهم وقتها ، واخفاء الله لها ، سبيلا الى تكذيبها وانكارها بالجملة . ولله فى اخفاء الوقت الذى تخرب فيه الكائنات وتقوم الساعة ـ حكمة هو سبحانه اعلم بها ، وربما كان لذلك تعلق شديد بحياة البشر ، واستتباب أمرهم ، وانتظام مصالحهم . وقد كانوا يلحون عليه صلى الله عليه وسلم فى تعرف أمر الساعة ، فكان احيانا يشاركهم فى الاهتمام بها ، وترديد ذكرها ، حتى عاتبه ربه على ذلك فى سورة النازعات فقال : (يسألونك عن الساعة ايان مرساها فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها) ، يعنى ان أمرها غيب اقتضت الحكمة الالهية الا يطلع عليه احد حتى أنت يامحمد ، فدع عنك كثرة اللهج بها .

وهكذا القرآن : كان كلما ذكر من امر الساعة وتحقيق وقوعها ، أتبع ذلك ببيان أن زمنها مكتوم عن الخلق يجهله كل أحد الا الله .

ولما ختم فى الآيات السابقة الحديث مع قبائل العرب المتألبين عليه صلى الله عليه وسلم ـ بإيعادهم بنار جهنم والخلود فيها ـ كانوا بسبيل ان يسألوه حسب شنشنتهم : متى يكون هذا الذى تعدنا به ؟ قريب هو أم بعيد ؟ فقال الله لنبيه : **(قل)** لهم يامحمد **(ان أدرى)** أى ما أدرى **(أقريب ما توعدون)** من قيام الساعة بحيث أصبح متوقع الحلول ، منتظر الحصول كل وقت وآن ، **(أم يجعل له ربى أمدا ؟)** ، يعنى أم هو غير منتظر الآن وغير متوقع الحصول ، لأن الله جعل له أمدا وأجلا هو بالغه ، فقوله (أمدا) واقع فى مقابل قوله (قريب) كما تقول : أقريبة زيارتك أم لها أجل فهى مؤخرة اليه ؟

ثم وصف تعالى نفسه بقوله : **(عالم الغيب)** . وفى سياق الآيات الماضية أمران اقتضيا وصفه تعالى بذلك :

١ ـ ما ورد على لسان اولئك النفر من الجن : انهم لا يعلمون الغيب ، وأن الله قد حال بينهم وبين معرفة ما قدره فى السماء بشأن الخلائق .

٢ ـ اخفاء الساعة عن متناول علم البشر ، وانه لا معنى لاهتمامهم بها وتساؤلهم عنها من وقت لآخر ، فالغيب بوجه عام ـ وغيب يوم القيامة بوجه خاص ـ مما استأثر الله بعلمه .

(فلا يظهر) (١) أى لايطلع **(على غيبه احدا)** من خلقه .

و (أل) فى (الغيب) للاستغراق ، اى انه تعالى عالم كل الغيوب على اختلاف أنواعها واشكالها . والغيب ما غاب عنا معشر البشر مما لا نهتدى اليه بشىء من حواسنا ومشاعرنا ، أو بشىء من فراستنا وقياسنا واستنتاج عقولنا . وكل ما امكننا علمه والوصول اليه باحدى هذه الوسائل لايكون غيبا ، بل لا يسمى غيبا بالمعنى الذى يشمله قوله تعالى (عالم الغيب) .

والغيوب التى استأثر الله بعلمها أنواع ، لكن منها ما للبشر فيه حاجة ، ولهم بالاطلاع عليه رفق ورحمة وفائدة : كالوحى والشرائع والأوامر والنواهى الالهية المغيبة عنهم ، والتى لايبلغها علمهم ، ولن تهتدى اليها عقولهم . فهذه الشرائع السماوية اذا بقيت مكتومة عنهم ، غير مبلغة اليهم ـ اضر ذلك بهم ، واخل بنظام أمرهم ، وضيع عليهم السعادتين الدنيوية والأخروية .

وقد قام فى البشر حكماء وفلاسفة وكهان ادعوا علم هذا النوع من الغيب المتعلق بمصالح البشر وانتظام أمرهم ، وكانوا يزعمون انهم وصلوا الى شىء منه بعقولهم او رياضاتهم ، أو بواسطة الجن ، فنفى الله ذلك أولا عن الجن بلسان الجن انفسهم ، ونفيه

---

(١) ورد فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم سمع جوارى يغنين فى عرس ويقلن :

واهدى لنا أكبشا تبحبح فى المربد
وزوجك فى النادى ويعلم ما فى غد

فقال صلى الله عليه وسلم : لا يعلم الغيب الا الله . ومعنى تبحبح تتمكن وتجلس مستريحة ، والمربد الحظيرة ـ المؤلف .

قوله « فى النادى » هو كذلك فى الأصل وفى لسان العرب ، ولعله « فى المنتدى » ليستقيم وزن البيت ـ المصحح .

عنهم مستلزم لنفى معرفته عن الكهان بالضرورة . ثم نفى فى هذه الآية امكان اطلاع احد من البشر مهما ارتقى عقله ، وصح حكمه ، وصفا قلبه ، واشرقت نفسه ـ على ما فى غيب الله من الوحى والشرع الذى يتوقف عليه خير البشر وصلاحهم **(الا من ارتضى من رسول)** ـ فانه تعالى قد يرتضى ويصطفى رسلا من خلقه يطلعهم بواسطة جبريل عليه السلام على ذلك الغيب السماوى ، فيبلغهم اياه وحيا : توراة او زبورا او انجيلا أو قرآنا ، متضمنا مايريد انيخاطبهم به مما فيه صلاحهم وسعادتهم ، وانتظام امر معاشهم ومعادهم .

وهذا هو المراد من الغيب الذى قال الله عنه انه يطلع عليه رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام . نقل ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وذهب اليه أيضا ابن جريج ، وزر بن حبيش ، وابن واقد ، وابن زيد ، وقالوا : ان الغيب هنا بمعنى الوحى والشرائع كالغيب فى قوله تعالى : (وما هو على الغيب بضنين) ، اى ما محمد صلى الله عليه وسلم على الوحى والشرع الذى يلقى اليه بمتهم فيغير أو يبدل فيه .

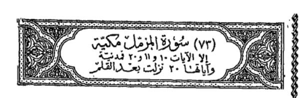
ومما يشهد على ان المراد بالغيب ماذكر ـ قوله تعالى بعده : **(فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم)** .

(سلك واسلك) بمعنى ادخل وارسل وبث ، و (الرصد) مر انه بمعنى الحرس والحفظة ، وضمير (يديه) يرجع الى (من) فى قوله (من ارتضى من رسول) باعتبارلفظها المفرد ، لكن لما كان معناها جمعا : وهو كل رسول يرتضيه سبحانه ويصطفيه لنبوته ـ اعاد عليها الضمير فى (ابلغوا رسالات ربهم) جمعا ، وقد مر نظيره فى قوله : (فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا) .

ومعنى **(ليعلم)** لأجل ان يقع تبليغ الرسالات وينكشفأمره للخلق ، فيتعلق علم الله به واقعا . وقد سمى ذلك الوقوع علما كما سماه كذلك فى آية (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين)،والا فان اطلاع الله رسله على وحيه ، ثم حفظه لهم من نسيان شىء منه ـ ليس لأجل أن يعلم الله هو ذاته ذلك ، كيف وهو يعلمه منذ الأزل وقد قدره وقضاه ؟ وانما يرسل الله الرسل ويعصمهم من النسيان لأجل ان يعقب ذلك انجاز القدر الالهى ، وتعلق العلم القديم، وتكون نتيجته تبليغ هؤلاء الرسل رسالات ربهم ووحيه الى خلقه . فاللام فى قوله (ليعلم) يشبه ان تكون مايسميه النحاة لام العاقبة ، ويمثلون لها بقوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وكما مر فى لام (لنفتنهم فيه) .

فمعنى الآية اذن انه تعالى عالم الغيب كله لايطلع عليه احدا من خلقه ، انسيا كان أو جنيا ، حكيما أو كاهنا ، اللهم الا غيبه الذى فى اطلاع الخلق عليه رحمة بهم واستصلاح لهم ، وهو شرعه السماوى ، وخطابه الأزلى الالهى ، فانه يوحيه بواسطة امين وحيه جبريل الى (من ارتضى من رسول) ، اى الى أى رسول من خلقه ارتضاه واختاره واصطفاه لذلك،فيامره بتبليغه اليهم ، وانه تعالى (يسلك) ، اى يرسل ويبعث ويبث من بين يدى رسله ومن خلفهم (رصدا) على معنى أنه تعالى يحوط رسله من كل جانب برصد من الحراس والحفظة ، وذلك صونا لهم ، وحفظا من الوساوس والتخاليط ، او من الذهول والنسيان ، حتى لايتركوا بعض ما أوحى اليهم ، او يذهلوا عنه ، أو يقصروا فى تبليغه . وهذا كناية عن أنه تعالى ركز فى فطرة انبيائه مقدرة أو صفة بها يطيقون تبليغ رسالاته الى خلقه من دون تفريط فى شىء منها ، كما تقرر فى « علم العقائد » ، ويسمون تلك الصفة « العصمة أو الأمانة » .

ثم ان انزال الوحى ورسالات الكتب السماوية على الأنبياء ، وعصمتهم من التفريط فيها ـ تكون نتيجته ابلاغهم تلك الرسالات الى البشر ، وبذلك تتحقق المعلومات الالهية ، وتتم المشيئة الازلية فى اسعادهم وهدايتهم ، واستصلاح امر دنياهم وآخرتهم . فالمراد من قوله (ليعلم) ليظهر وينكشف ويتحقق كما قلنا آنفا . وقد زاد هذا المعنى وضوحا بقوله بعده **(واحاط بما لديهم)** ، اى انه تعالى احاط علمه بجميع ما لدى الانبياء من الوحى والشرائع والرسالات ، فلن يفوته منها شىء ، ولا يتفلت حرف ، فهو محص لها ، مهيمنعليها : وهو تعالى لم يحط علمه القديم بما لدى رسله فقط بل انه **(أحصى)** ، وعلم علم ضبط واستقصاء وشمول ـ **(كل شىء)** من هذه المخلوقات المنبثة فى الأرضين والسموات **(عددا)** ، اى حالة كون كل واحد من تلك الاشياء معدودا مميزا عن غيره . هذا هو مبلغ علمه سبحانه بتفاصيل الاشياء الكونية وجزئياتها ، فكيف لا يحيط علما بما عند رسله من وحيه ورسالاته التى أمرهم بتبليغها الى خلقه ؟ وكيف يمكن لرسله عليهم الصلاة والسلام ان يفرطوا فى تلك الرسالات ، أو يزيدوا أو ينقصوا ، أو يحرفوا فيها أو يغيروا ، وهو تعالى محيط بها محص لها ؟



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ

فواتح هذه السورة من اوائل ما انزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة (اقرأ باسم ربك) . وكان من خبر ذلك أن العناية الالهية بعدما اعدت نفسه الشريفة لقبول الوحي — وكان في الاربعين من عمره — نزل عليه جبريل وهو في غار حراء ، فالقى عليه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرا وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) ، فكان أمر العلم والتعلم أول ما قرع قلبه الشريف من قوارع الوحي السماوي والتعليم الالهي . واذ لم يكن له صلى الله عليه وسلم عهد بتلقي وحي ومخاطبة ملك — ذعر منه (١)، وظنه مسا او عارضا عرض له . والمرء في مثل هذه الحالة لا يجد مسكنا لروعه ، مخففا لهواجسه — مثل الالتجاء الى بيته ، وبث شكواه الى زوجه . ففعل صلى الله عليه وسلم ذلك . وكأنه خاف أن يفجأه من أمر الملك ثانية ما فاجأه أولا ، فالقى نفسه في فراشه ، وقال للسيدة خديجة زوجه : زملوني زملوني ، اى لففوني بالثياب . فيشبه أن يكون قد اراد بذلك الاستخفاء عن الملك ، واراحة نفسه من عناء الطارىء الجديد ، وما خامر قلبه من الهول الشديد . ولم يدر انه الناموس الذى كان ينزل على اخوانه الانبياء والمرسلين قبله ، او أن طلبه التلفف بالثياب كان لقشعريرة برد شعر بها في جسمه .

ولما عاد اليه الملك مرة ثانية وجده صلى الله عليه وسلم متزملا في قطيفة ، فقال له : (**يايها المزمل . قم الليل الخ**) ، وهي فاتحة سورتنا هذه . ثم جاءه مره اخرى وكان متدثرا ، اى متلفعا كذلك بكسائه ، فقال له : (يايها المدثر قم فانذر الخ) ، وهي فاتحة السورة الآتية . والسبب في الخطاب فيها كالسبب في الخطاب في هذه السورة على ما سيأتي . وفي كلتا الحالتين كان صلى الله عليه وسلم غير متثبت من امر الوحي لأول نزوله عليه ، فكان يريد أن يتجنبه بالتزمل والتدثر ، وعدم التعرض للهاتف ، حتى تحقق الأمر اخيرا ، وعلم انه جبريل عليه السلام : يأتيه بالوحي ويبلغه امر الله . وقد كان للسيدة خديجة رضي الله عنها الموقف العظيم في تثبيت قلبه ، وتهدئة روعه ، وكشف الهواجس عن خلده ، كما هو مبسوط في كتب السير .

و « المزمل » و « المدثر » من « تزمل وتدثر » قلبت تاءاهما زايا ودالا ، وأدغمتا في الزاى والدال الأصليتين ، واجتلبت الهمزة في اول كل منهما لاجل التوصل الى النطق بالساكن ، فقيل « ازمل وادثر » . واسم الفاعل منهما « مزمل ومدثر » .

اما خطاب الملك لنبينا صلى الله عليه وسلم بيايها المزمل ، وتبليغه امر ربه بقيام الليل وترتيل القرآن ، وبقية الاوامر والارشادات التى ستسمعها في هذه السورة — فالقصد منه افراغ الأمة المحمدية في قالب متين من التربيتين الجسمية والروحية . فالشارع الأعظم لم يهملنا من بيان الطرائق التى تؤدى الى توفر هاتين التربيتين فينا . فهو لم يكتف بما كان عند أسلافنا العرب من القوة الفطرية الراسخة في نفوسهم وأبدانهم ، بل شرع لهم من طرقها ووسائلها ما يزيدها رسوخا فيهم ، فيستفيدون من هذه التربية فيما ندبوا له من القيام بالأعمال الجلى . كما أن هذه التربية نفسها تقى أبناءهم الآتين مضرات الترف والدعة وبلهنية العيش التى سيصبحون معرضين لها بسبب الفتح واستبحار العمران ، والتبسط في مناحي الحضارة . فالتكاليف الشرعية المتعلقة بالبدن مثل المحافظة على الصلوات الخمس ، والقيام من آخر الليل لصلاة الفجر ، والوضوء بالماء البارد مرارا ، والاغتسال به أحيانا ، وكالصوم في أيام الحر ، والقيام للسحور من آخر الليل ، وكالحج وتحمل مشقات السفر لأداء فريضته ، والاحرام والسعي والطواف ، وكالجهاد وما ينطوى تحته من ضروب المشقات والأتعاب — كل ذلك يورث ابداننا صلابة ونفوسنا قوة تساعدنا على الثبات في معترك الحياة العام ، وتكون عونا لنا على نشر تعاليم الاسلام بين الأنام . سئل غاندى الزعيم الهندوسي المشهور عن تذكاراته في

(١) وشأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حصول الذعر والاضطراب والغيبوبة له عند نزول الوحي عليه — كشأن جده ابراهيم عليه السلام في ذلك ، ففي قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست في ترجمة ابراهيم الخليل : (ولما كان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة ظهر له الله على اسلوب غريب امتلأ منه رعبا وخوفا وسقط على وجهه) ، (ولما قاربت الشمس الزوال وقع على ابراهيم سبات مصحوب « برعبة مظلمة » وفي خلالها أوحى اليه ببعض الحوادث الخطيرة التى تجرى في مستقبل ايامه ونسله من بعده) اهـ .

السجن فقال: « ان اعظم شيء حصلت عليه في السجن هو تعودي احتمال متاعب الجسد ، فقد كنت أجد ان قوتي الروحية تزداد نشاطا . وانني اعتقد أن الله يقوى ويساعد المظلومين ، وذلك بجعلهم يقاسون الأتعاب الجسدية كامتحان لقواهم الروحية » ا هـ .

فالتكاليف السماوية تقوى الجسم بسبب تمرسه بها ، وتعرضه لها المرة بعد المرة . وتقوى النفس أيضا بسبب أنها تصبح حاكمة على الجسد ، نافذة الارادة فيه ، مصرفة له فيما تريد ، ولا تكون لشياطين الأخلاق الرديئة ـ كالكسل والاسترخاء والجبن والاهمال ـ سلطة عليها . بل ان افتراض الزكاة نفسها فيه تعويد النفس قهر شيطان البخل ، والتفصي من سطوته ، وخفي وسوسته . وبذلك تصبح النفس قوية العزيمة ، نافذة الكلمة في مملكتها البدنية . وفي القرآن الكريم آيات جمة تتضمن الحض على تقوية الجسم والنفس والتمسك بأسبابها . وهذا الحض السماوي يلقى على المخاطبين بأسلوب عجيب لايتفطن له الا بعد تأمل وامعان نظر . وقد يقرأ القارىء آية من القرآن يحسبها ترمي الى ممارسة عبادة ما ، ويكون هناك حكم وأسرار أخرى اعم واشمل واعلق بالتربية الاجتماعية من التربية الجسدية . من ذلك هذه الآيات التي افتتحت بها هذه السورة .

فقوله : **(يأيها المزمل)** ، اى يأيها الذى تلفف بقطيفته ، واضطجع بزاوية بيته ، وقد اشبه في فعله هذا من يؤثر الدعة والسكون ، ويحاول التخلص من صعوبة مايوكل اليه من أمر يعنيه أو مصلحة تهمه : **(قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه)** ، أى دع التزمل والتلفف ، وانشط لصلاة الليل والقيام فيه ساعات . والواجب أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لاتقل عن ثلث الليل ، خشية الا يكون لها تأثير في الجسم والروح ، كما لاتزيد عن الثلثين خشية أن يؤدى القيام الى عكس المراد منه : فيضعف جسمك ، وتتضاءل قوتك ، فلا تعود قادرا على تحمل أعباء التبليغ ، ومعاناة شئون الدعوة . فقوله (قم الليل الا قليلا) معناه لاتقمه كله . ثم فسر ذلك بقوله : نصفه ، أى قم نصفه ، أو اقل من النصف قليلا ، أو اكثر منه ، يعنى قليلا . وهذا هو معنى ماقلناه : أن المكلف به هو ساعات تختلف بين الثلث والثلثين لما بينا من الحكمة في ذلك .

(ورتل القرآن ترتيلا) ، أى اقرأ القرآن أثناء قيامك من الليل قراءة تثبت وتؤدة : آية اثر آية ، كيما يرسخ في نفسك معنى الوحى السماوى ، وتفهم مغزى الخطاب الالهى فهم احاطة واكتناه ، ولا تسرده سردا يضيع معه التدبر وفهم المعنى . يقال كلام رتَل ورتِل اذا كان مرتلا مفصلا ، كما يقال ثغر رتَل ورتِل اذا كان مفلجا مفرجا .

لا جرم انه صلى الله عليه وسلم قد تأدب بأدب القرآن ، وتأسى به أصحابه الأبرار ، فأطاعوا ربهم في احياء الليل ، والتخفف للصلاة ، ومجاهدة النفس ، حتى شحبت ألوانهم ، وذبلت أجسامهم ، وتورمت أقدامهم . وقد رحمهم ربهم فأنزل على نبيه مؤذنا له بأنه بلغ من المجاهدة والعبادة وقيام الليل فوق ماكلفه ، فقال تعالى : (طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى) .

وبعد ان أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم باطراح النوم ، والوثوب الى العمل ، وأن يصلى في الليل ساعات طويلة ، وأن يتفهم الخطاب الالهى المتعلق بهداية المكذبين ومحاجتهم فيما يعبدون من دون الله ـ انتقل الى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة ذات التكليف الشاق ، فقال : **(انا سنلقى عليك قولا ثقيلا)** ، أى اننا سننزل عليك وحيا يتضمن الدعوة الى دين جديد ، وحمل الناس عليه ، وتكليفهم العمل بأحكامه . فهو بالطبع سيكون ثقيلا شديد الوطأة عليهم ، لما فيه من ترك ما الفوه من العقائد ، ونبذ ما ورثوه عن أسلافهم من التقاليد . فأنت يامحمد معرض لمتاعب كثيرة ، وأخطار جمة ، في سبيل هذه الدعوة ، وحمل البشر على قبولها . فكيف يمكنك ان تقوم بهذه المهمة وانت على ماترى من التزمل والتلفف والنوم والعزلة ، وملازمة الراحة والسكون ، والبعد عن المشاق وقهر النفس وحملها على العبادة والمجاهدة الطويلة ، وعدم دراسة الوحى الالهى درس تفهم وتدبر ؟ فانشط من مضجعك اذن ، واسهر معظم ليلك ، وادرس آيات القرآن درسا عميقا ، استعدادا لتحمل مشاق الدعوة ، ومتاعب تبليغ هذا الوحى الشديد ، والدين الجديد .

وكأن هناك سائلا يشك في أن قيام الليل ودرس القرآن مما يساعد على تحمل متاعب الدعوة ، فرجع الخطاب الالهى الى تقرير هذه الحقيقة فقال : **(ان ناشئة الليل الخ)** .

و (ناشئة الليل) : مايحدث فيه ويتجدد من الطاعات والعبادات : من نشأ اذا حدث وتجدد . ومعنى **(أشد وطئا)** أصعب على النفس وأثقل مما لو انشئت في النهار . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشدد وطأتك على مضر » .

والمعنى ان ماينشئه المرء ويحدثه من طاعة وعبادة يقوم لها من مضجعه بعد هداة من الليل : هو ممارسة صعبة ثقيلة عليه ، ومن شأنها أن تقوى النفوس ، وتشد العزائم ، وتصلب الأبدان . ولا ريب أن التمرس بالجاحدين ومصاولتهم وطول النزاع معهم يحتاج الى نفوس قوية ، وأبدان صلبة .

هذا هو تأثير ناشئة الليل في الأجسام والنفوس . أما تأثيرها في تعقل الوحى ، واستبانة معانى الخطاب الالهى ـ فلا يقل عن التأثير الأول . وهذا معنى قوله تعالى : **(وأقوم قيلا)** .

(القيل) مصدر كالقول والقال . و (أقوم) أى أعدل وأبين وأسد وأثبت . والمعنى أن تلاوة القرآن ودراسة الوحى في الليل أو في صلاة الليل ، وتفهمه والتأمل في معانيه ـ أبين وأسد وأتم في الليل منها في

سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا

النهار . فان هدو الصوت فى الليل ، وسكون الحركة فيه ـ اجمع للقلب ، واعون للنفس على التدبر والتفطن والتأمل فى الأسرار والمقاصد . وهذا امر محقق يعرفه كل من امتطى صهوات الليالى ، الى نيل المطامح والآمال .

ثم رجع الوحى الى بيان الحكمة فى تحمل مشقات قيام الليل ودراسة القرآن فقال : (**ان لك فى النهار سبحا طويلا**) . اصل معنى السبح العوم على وجه الماء او المرور السريع فى الماء ، ثم استعير للمرور السريع فى الهواء ، فيستعمل فى الطير والفرس ، ومنه « سبوح لها منها عليها شواهد » . ويستعمل احيانا فى التصرف فى الأشغال ، وسرعة المرور فى الأعمال . وهو المراد هنا ، يقول : أن لك فى النهار تصرفا وتقلبا ، واشتغالا طويلا فى مهمات الوظيفة المقدسة الموكولة اليك ، وهى دعوة المشركين الى دينك ، ومجادلتهم فى بطلان ماهم عليه من الشرك . ومثل هذا العمل الشاق لايقوم به الا من توفرت فيه القوتان : قوة الجسم وقوة النفس . وان ناشئة الليل ، والقيام فيه للعبادة وتلاوة القرآن ـ مما يساعد على ذلك ، ويكسب جسمك صلابة ، ونفسك متانة لممارسة هذا العمل الشاق فى النهار .

قد يعترض معترض بأن قيام الليل وطول التهجد فيه يضعف الجسم عن المقاومة والمكافحة ، فكيف يكون وسيلة للقوة والجلادة ؟ هذا الاعتراض نفسه أورد على سيدنا على بن ابى طالب رضى الله عنه ، واجاب عنه . وهذا نص قوله :

« وكأنى بقائلكم يقول : اذا كان هذا حال ابن ابى طالب (أى من التخشن والتهجد والتقلل من الطعام) فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ، ومنازلة الشجعان . الا وان الشجرة البرية أصلب عودا ، والروائع الخضرة (أى الأعشاب اللينة) أرق جلودا ، والنابتات البدوية اقوى وقودا ، وأبطأ خمودا . وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو ، والذراع من العضد » (أى انه هو وسيدنا الرسول من أصل واحد فى العمل ، والطريقة وأسلوب المعيشة فيكون فى حالته كما كان سيدنا الرسول : شديد البأس قوى العزيمة ، وان كان خشن المعيشة) . ثم قال : « والله لو تظاهرت العرب على قتالى ما وليت عنها . ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها » اهـ . هذا ماقاله على رضى الله عنه ، ومنه تعلم أن الرياضات البدنية : من الصيام والقيام والتقشف ، اذا روعى فيها الاعتدال المشروع ، ادت الى قوه الجسم ومتانة العزم ، لا الى ضعفهما .

وقد تحصل من الآيات السابقة ثلاث مقدمات :

١ ـ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوم والعزلة والتلفف فى الثياب كما يكون من شأن المتراخى المتفصى من التعرض للاخطار فى سبيل القيام بوظيفته .

٢ ـ حضه صلى الله عليه وسلم على قيام الليل الى حد محدود ، ودرس الوحى الذى يلقى عليه درسا عميقا كى يقوى على اداء وظيفته .

٣ ـ بيان صعوبة امر الدين ، وعسر الدعوة اليه ، وأن على الداعى أن يبذل الجهد العظيم ، ويقضى الوقت الطويل فى مصاولة الجاحدين وجدال المبطلين .

وبعد أن قرر الخطاب الالهى هذه المقدمات التى هى بمثابة تمهيد وبساط للدعوة ـ انتقل الى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بها نفسها ، وتعليمه كيفية السير فيها عملا ، بعد ان مهدها له نظرا ، فقال تعالى : (**واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا**) . اى بعد أن يتم لك ما تريد من تقوية بدنك ونفسك بواسطة الطاعات والعبادات الليلية ودرس الخطاب الالهى درسا مدققا ـ باشر وظيفتك النهارية ، وهى دعوة الخلق الى الحق ، والزامهم بخلع الأوثان وما يعبدون من دون الله .

فقوله (واذكر اسم ربك) مثل ما تقول لآخر « سم الله » وأنت تريد حضه على الأخذ بعمل فيه مشقة ، وايذانه بحلول وقته . كأنك تقول له : هيا باشر وظيفتك ، وقم بالعمل الذى أمرت به ، فقد جاء وقت الشروع فيه .

أو المراد بقوله : (واذكر اسم ربك) ارفع صوتك بذكر ربك ، واعلن صفاته الحقيقية بين اظهر المشركين ، وادعهم الى عبادته وحده ، وخلع الأصنام .

ثم علم الله نبيه أن يكون مقبلا على ربه ، منصرف الهمة اليه وحده ، فقال : (وتبتل اليه تبتيلا) . اى انقطع اليه انقطاعا تاما ، وأخلص اليه اخلاصا عاريا من الشوائب ، ولا تدع نفسك تعتمد فى شأن من شئونك على غيره تعالى ، وهذا هو التوحيد الحقيقى . اما اذا شاب الاعتقاد بالله شوب استمداد روحانى من غير الله ـ فانه يكون ولا ريب شوبا من حميم ، ولا يكون صاحبه من أمر عقيدته على الصراط المستقيم .

وأصل معنى البتل : القطع ، كالبت والبتر والبتك ، ثم غلب التبتل على الانقطاع عن الدنيا الى الله ، ومنه « البتول » لقب السيدة مريم ، وقيل سميت به لانقطاعها عن الزواج ، ويقال : بتل الى الله ، كما يقال : تبتل اليه .

وكان الظاهر أن يقول فى تأكيد (تبتل) فى الآية « تبتلا » لا « تبتيلا » ، فان التبتيل مصدر بتّل لا تبتل ، لكن لما كان معنى تبتل : بتل نفسك ـ جاز أن يؤكد تبتل بالتبتيل ، ميلا مع هذا المعنى ، ومراعاة لحق الفواصل . وقد مر مثله فى قوله تعالى : (والله انبتكم من الأرض نباتا) . ومثاله فى كلام العرب قول شاعرهم :

وخير الأمر ما أستقبلت منه   وليس بأن تتبعه اتباعا

فان « تتبعه » من التفعل و « اتباعا » من الافتعال، وكان الظاهر ان يقول « تتبعه تتبعا » .

ثم استدل على وجوب الانقطاع له وحده وترك اشراك غيره به بقوله **(رب المشرق والمغرب)** ، أى هو وحده الذى يربى المشرق والمغرب ويدبر امورهما .

و (المشرق والمغرب) يكنى بهما عن الكائنات كلها والخلائق بجملتهم ، وان التقابل فيهما يشعر بالاحاطة والشمول وارادة الجميع ، كما يقولون : « من الباب الى المحراب » يريدون كل مافى الدار لا بابها ومحرابها وحدهما ، ومحراب الدار صدرها . ومعنى كونه تعالى رب الكائنات انه رباها ومهد لها سبيل النمو والرقى والانتقال فى التكامل من طور الى طور كما يربى الشخص ابنه او فلوه او فسيلته (١) .

وقد يكون فى تخصيص كلمتى (المشرق والمغرب) بالذكر ، وبكونه ربهما ـ اشارة على الاستدلال على وحدانية الله ووجوب الانقطاع اليه بطريق عقلى . كانه يقول : انك أيها الانسان لو تأملت فى الكائنات كلها من شرقها الى غربها ـ وجدتها : من حيث التكوين والتركيب واتساق السنن والنواميس ـ على نمط واحد ، ووتيرة واحدة . ادرس طبيعة الكائنات فى اقصى الشرق ، ثم ادرسها فى اقصى الغرب ـ تجدها خاضعة لنواميس طبيعية واحدة ، وسنن الهية متساوية متقاودة : لا تتبدل ولا تتغير . فخالقها الحكيم الذى ابدعها على هذه الصورة ، وافرغها فى هذا القالب ـ هو واحد لا متعدد . الكائنات فى الشرق والغرب واحدة فى تكوينها فخالقها واحد فى وجوده . الكائنات ذات وحدة فى الطبيعة والتكوين والقوة والجواهر الفردة وتعاور النواميس ، فلا جرم أن تكون تلك الكائنات منبعثة عن اله مختار ذى وحدة حقيقية فى ذاته وصفاته وافعاله ، فيكون فى ذكر (الشرق والغرب) اشارة الى دليل عقلى وطبيعى على ان الخالق لهذه الكائنات : واحد احد ، فرد صمد ، لاشريك له ولا ولد ، فلا يجوز اذن الاستمداد وطلب الاسعاد من غيره تعالى ، ولذلك عقبه بقوله : **(لا اله الا هو فاتخذه وكيلا)** ، اى اعتمد يا محمد عليه وحده فى دعوتك البشر الى الايمان . وهذا الخطاب وان كان موجها اليه صلى الله عليه وسلم ، فان القصد منه التعريض بالمشركين ، واسماعهم ما يجدر بهم ان يفعلوه هم انفسهم الذين يعبدون الأصنام ، ويتوكلون عليها، ويوفضون (١) فى الشدائد اليها ، لا هو صلى الله عليه وسلم .

ظهر مما تقدم كيف انتقل الخطاب الالهى بالنبى صلى الله عليه وسلم من ساحة الاستعداد والتهيئة الليلية الى ساحة العمل وممارسة الدعوة النهارية . وبديهى أنه سيجد أمامه فى الساحة الثانية سدا منيعا من المكذبين المقاومين : كلهم يردون عليه ، ويسفهون رأيه ، ويزعمون فيه المزاعم الباطلة : من مثل انه ـ وحاشاه ـ ساحر او مجنون او طالب رياسة دنيوية فى نظير ذلك ، ولكن الله تعالى رباه التربية المتينة التى تجعله يصبر على هذه المشاغبات والمناقضات .

ولذلك قال له بعد ان أمره بالدعوة النهارية : **(واصبر على ما يقولون)** ، أى اذا دعوتهم فى النهار وعارضوك ، وتقولوا عليك الأقاويل ـ فاصبر عليهم يا محمد ، وتجلد لقولهم ، **(واهجرهم هجرا جميلا)** ، أى أعرض عنهم اعراضا لا يشوبه أذى ولا شتم ولا مقاومة ريثما يتمرن أصحابك بالعبادة والمجاهدة الليلية على المناجزة والمجاهدة النهارية . وتكون بذلك قد تهيأ لك الردء ، واستوسقت العصبية ، وتوفرت أسباب الغلبة والظهور عليهم . أما الآن ، أى قبل أن تصل انت واصحابك الى هذا الطور : طور المقدرة على اعمال السيف والسنان ـ فينبغى الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان .

تقول : ومن اين اخذت هذا المعنى ؟ فأقول : من قوله تعالى بعد ذلك : **(وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدنيا انكالا الخ)** . يقول الله لنبيه : اعمل الآن انت واصحابك بما امرتكم به من قيام الليل ، وترويض النفس بالطاعات ، ومختلف التكاليف الشاقة ، حتى اذا تكاملت تربيتكم الجسمية والنفسية ، وتوحدت طرائقكم الدينية والروحية ، وبقى أولئك المكذبون أعداؤكم منقسمين فى تترفهم وتنعمهم ، منهمكين فى ملذاتهم وشهواتهم ـ فان من شأن حالتهم هذه أن تفسد تربيتهم واخلاقهم ، وتنهك قواهم واجسامهم ، على حين تكونون أنتم بواسطة الرياضة والعبادة والمجاهدة وتحمل المشاق ـ على العكس منهم (٢) ، فحينئذ (ذرنى) ، اى دعنى والمكذبين ، اى أنك لا تحتاج فى نيل الظفر بمرادك ، والانتقام من مكذبيك الا الى أن تتكل على ، وتفوض

(١) الفلو كقنو ، وعدو ، وسمو : الجحش والمهر فطما او بلغا السنة ، والفسيلة : النخلة الصغيرة . القاموس .

(١) يفوضون : يسرعون .

(٢) ويشبه هذا من وقائع التاريخ ما كان من سكان الأندلس (القوط) المترفين الذين استولى العرب الأشداء على بلادهم فما كان منهم الا اللجوء والانحياز الى جبال (استورياس) أو (استوريش) كما يسميها العرب ، وهى جبال شامخة قاحلة واقعة فى الشمال الغربى من اسبانيا ، فاكتسب اللاجئون من بيئتها غلظة ، وقوة وخشونة ، حتى اذا اكتملت لهم هذه التربية فى بضع مئات من السنين ـ انقضوا من قنن جبالهم كالعقبان على أولئك الوادعين المترفين ، فأجلوهم عن صياصيهم ، وطبقوا سنة الله فيهم .

غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾
السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ

الامر الى ، وتدعني وهؤلاء المكذبين ، اطبق عليهم سنتي في خلقي ، وذلك بأن اسلط القوى : وهو انتم على الضعيف : وهو هم ، وامكن اوليائي الذين يعملون باوامري ويراعون سنتي من اعدائي الذين يخالفونها، ثم يحيق بهؤلاء المخالفين العقاب ، ويدخلون بشؤم مخالفتهم دار العذاب . وهذا معنى قوله تعالى : (ان لدينا أنكالا وجحيما) .

و (الأنكال) جمع نكل ــ بكسر اوله ــ وهو القيد الثقيل . و (الجحيم) دار العذاب . و (الطعام ذو الغصة) هو ما أعده الله في تلك الدار من الطعام المنكر البشع الذي ينشب في حلوق آكليه فيغصون به ، ولا يقدرون على اساغته .

ذكر الوحي العذاب المؤلم ومكانه وهو الجحيم ، وآلاته وهي القيود وطعام الزقوم ، وأراد تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى يعاقبهم بذلك كله ان بقوا مستمرين في تكذيبهم ، مستمرئين مرعى غيهم .

روى أن الحسن البصري اتى بطعام فطوره في بعض ايام صومه ، فعرضت له هذه الآية : **(ان لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا اليما)** ، فقال لغلامه : ارفعه ياغلام . ووضع عنده في الليلة الثانية ، فعرضت له فقال : ارفعه يا غلام . وكذلك الليلة الثالثة . فبلغ خبره ثابتا البناني ، ويزيد الضبي ، ويحيى البكاء ــ فجاءوا اليه ، ولم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق .

ولقد تبين من سياق الآيات التي افتتحت بها هذه السورة أن تربية الجسم والنفس بضروب التكاليف والرياضات والعبادات الشاقة ــ هي مما أراده الله لنا وحضنا عليه في الكتاب ، ولم يكن طلبها منا لذاتها ، او لاسترضائه تعالى بممارستها ، ومكابدة اتعابها . كيف وقد قال تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) ، وانما اراد سبحانه بهذه التكاليف والمجاهدات تربيتنا تربية دينية ، تجمع بين قطري القوتين : القوة في الجسم ، والقوة في النفس ، بحيث تفتح امامنا طريق التغلب والتمكن من نشر الاسلام ، كما حصل لأسلافنا مذ عملوا بأصول تلك التربية ، وتحول بيننا وبين الاستكانة والخضوع لغيرنا ، كما حصل منا اليوم مذ اهملنا تلك الأصول وفرطنا فيها ، وقصرنا في تطبيقها ومراعاتها . والأمر لله العلي الكبير .

(يوم) متعلق بمضمون الكلام السابق ، اى ان العقوبة معدة للمكذبين في هذا اليوم الذي فيه **(ترجف الارض والجبال)** ، اى تضطرب وتتزلزل بما عليها زلزلة شديدة ، وذلك يوم القيامة . ولما كانت الجبال صلدة جامدة بالنسبة الى سائر اجزاء الارض ــ خصها بوصف ما ينوبها في ذلك اليوم من التفرق وتناثر الأجزاء فقال : **(وكانت الجبال كثيبا)** تلا من الرمل سائلا متناثرا : من كثب الماء اذا صبه ، وكثب الشيء اذا جمعه . ففي مادة الكثب معنى الصب والجمع ، ومن هنا سمي الكثيب كثيبا ، لأن الرياح تحمل الرمال من ها هنا وها هنا وتصبها في مكان الكثيب، ثم تأخذ الرمال الأخرى تتجمع عليها وحولها حتى يتكون الكثيب . ورمل هذا الكثيب اذا حرك او مس تساقط وتتابع بعضه اثر بعض ، وهذا معنى كونه **(مهيلا)** ، وهو اسم مفعول ، واصله مهيول كمكيل اصله مكيول ، يقال : هلت الرمل فانهال ، اذا حركت اسفله فسال من أعلاه وتتابع ، وما كان اشد تماسكا وكثافة من الرمل ــ كالبناء مثلا ــ فانه يقال فيه هرته ــ بالراء ــ فانهار .

يقع هذا الحادث الجلل في العالم عندما يتأذن الله بخرابه وانقضاء اجله ، ثم يستبدل به عالما آخر أشد احكاما ، واثبت نظاما ، واكمل امنا وسلاما .

ونصوص الكتاب تدل على ان خراب عالم الدنيا يكون بزلزلة الأرض ، وتبدد أجزائها ، وتسيير جبالها بحيث تصبح هذه الجبال كالكثيب المهيل أو العهن المنفوش .

على ان هذا الخراب الذي ينزل بالارض فينسف جبالها ، ويمزق أوصالها ــ ليس خاصا بها وحدها ، بل هو نازل بمجموع عالم الدنيا المنظور الينا : ارضه وسمائه ، وسائر كواكبه وأجرامه ، بدليل آيات الكتاب الأخرى من مثل : (اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت) ، و (اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت) . والله يعلم بأى سبب يحصل ذلك الخراب العام ، وما اذاكان وراء الكواكب المنظورة عوالم وكواكب اخرى يشملها الخراب المنتظر او لا يشملها فتبقى سالمة من مثل ما نزل بعالمنا الى ان يشاء الله خرابها ؟ وهل ينشيء ربنا العالم الأخروى في ساحات العوالم السماوية الأخرى غير المنظورة او ينشئه عالما جديدا ، وكونا مستقلا لا علاقة له بالعوالم الغائبة اليوم عن عيوننا ؟ ــ كل ذلك غيب لا تمكن معرفته ، فنكل امره الى الله سبحانه وتعالى .

يتراوح الوحي الالهي في تخويف المخاطبين بين تذكيرهم بيوم القيامة وما اعده الله فيه للمكذبين ، وتذكيرهم بالأمم التي خلت من قبلهم وكيف عضت

وتمردت فانزل بها من امره ما انزل ، وقد اتى فى هذه الآيات على الأمرين معا .

وقوله : **(رسولا شاهدا عليكم)** يعنى به محمدا صلى الله عليه وسلم ، فانه يشهد بلسان مقاله انه بلغهم امر ربه اليهم ، او انه صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم بلسان حاله . فان من تصفح احواله ، واستقرأ ماجرى له فى حياته منذ ولد فنشأ ، فبعث ، فدعا الناس الى الايمان ، فاستأثر الله به — لم يجد فى ذلك كله الا آية صادقة ، او معجزة خارقة : تثبت انه رسول الله الى الناس ، لم يأل فى تبليغهم ، ولم يتوان فى امحاض النصح لهم . فحاله هذه شاهدة على اولئك المكذبين انه انما يبلغهم ما به نجاتهم فى الدنيا والآخرة ، وانه لم يبغ من وراء ذلك التبليغ جر مغنم لنفسه ، او تأسيس ملك لعقبه ، بحيث يصدق عليه ما وصف به سيدنا على بن ابى طالب نفسه مذ قال : « فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ، ولا ادخرت من غنائمها وفرا ، ولا اعددت لبالى ثوبى طمرا » .

والرسول الذى ارسله تعالى الى فرعون هو موسى الكليم صلوات الله عليه . وقد نكره مذ قال **(رسولا)** لافادة تعظيمه . كأنه يقول : رسولا عظيما من اولئكم الرسل اولى العزم . او انه نكره للاشارة الى انه متعين لا يلتبس بغيره . وقوله **(الرسول)** اى ذلك الرسول : فأل فيه للعهد الذكرى . وأخذ الله لفرعون كناية عن اهلاكه ، و (الوبيل) فى مطلق معناه الثقيل الشديد الضخم . فاذا قالوا : طعام وبيل ، او كلأ وبيل ، او مرعى وبيل — ارادوا انه وخم ثقيل على آكليه : لا يستمرئونه ولا يهضمونه . واذا قالوا : مطر وابل او وبل — ارادوا انه شديد الهمر كبير القطر . والوبيل : العصا الضخمة . وتقول العرب : « لقد اوبلت علىّ شرك » ، اى اغلظته على ، وبهظتنى به ، و « وبل فلانا بالسياط » : تابعها عليه بشدة وعنف . وكل هذه المعانى تقال تقريبا فى (الوبال) ، فقوله تعالى : (ذاقوا وبال امرهم) ، وقوله هنا **(اخذناه اخذا وبيلا)** — الكلمتان فيهما منحوتتان من بعة واحدة . ولا جرم ان اهلاك الله لفرعون وقومه بالغرق كان باهظا لهم ، ملحا عليهم بحيث لم يفلت منهم احد .

بعد ان ذكر الله اخذه لفرعون فى دار الدنيا ، وان ملكه وجبروته لم يمنعاه من ذلك الأخذ — عاد فذكر مكذبى قريش — الذين ضرب فرعون لهم مثلا — بيوم القيامة ، وانهم غير معجزى الله فى ذلك اليوم ، ولا مفلتون منه بأنفسهم كما لم يفلت فرعون مما فعل به ، فقال لهم :

(فكيف تتقون) ، اى تحذرون وتخافون **(ان كفرتم)** ، اى اصررتم على الكفر — **(يوما)** ، وهو يوم القيامة وعذابه الشديد بل الأشد وبالا وغلظا من عذاب الله لفرعون فى دار الدنيا ، فيوما مفعول به لتتقون على معنى تحذرون وتخافون كما قلنا ، يقال « اتقى الله » ، و « اتقى عذاب الله » اى حذره وخافه ، و « ما اتقى فلانا لله » . اى ما أخوفه واخشاه له . وأصل معنى اتقى العذاب ، او الأسد ، او البرد : اتخذ لنفسه وقاية من العذاب او الأسد او البرد ، ثم كثر حتى صار بمعنى خاف وحذر ، ونصبوا به المفعول . والمعنى هنا : كيف يصح أن تكونوا حذرين خائفين يوم القيامة ، او كيف يصح أن تعدوا انفسكم حذرين خائفين ذلك اليوم ان بقيتم هكذا متمادين فى كفركم ، مقيمين على ضلالتكم ؟

ثم وصف ذلك اليوم بأنه **(يجعل الولدان شيبا)** ، والولدان جمع وليد ، كما ان الأولاد جمع ولد ، (شيبا) جمع اشيب وهو من ابيض شعر راسه . ولا مانع من ان يكون الرعب او الغم سببا فى حدوث الشيب فى الرأس ، ولو فرضنا أن هذا لم يثبت فنا ، فيكون الكلام واردا على ماجرى به العرف بين العرب منذ القديم ، يقولون : « يوم يشيب نواصى الأطفال » ، فخوطبوا فى القرآن بما ألفوا ، وما زال العرف به الى يومنا هذا : قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة
ويشيب ناصية الصبى ويهرم

على ان الهول والغم ان كانا يشيبان الكبير لاضطراب قلبه وتأثر عصبه من شدة وقعهما ولذع المهما — فما بال الصبى الغافل ؟ وكيف يمكن ان يبلغ الحزن او الخوف من نفسه الى حد ان يشيب ناصيته ، وينغص عليه حياته ، ولا سيما اذا لاحظنا أن الولدان غير مكلفين ولا مؤاخذين فلا يلحقهم رعب ولا ذعر يوم القيامة ؟ فلم يبق الا أن المراد من الآية المبالغة فى وصف اشتداد الكرب ، وتفاقم الخطب .

وهول يوم القيامة ان كان يؤثر هذا الأثر فى نواصى الولدان فيشيبها ويغير لونها — فلا عجب ، اذ ان هناك ما هو اقوى جسما ، واضخم جرما من لم الولدان وشعر رءوسهم وهو **(السماء)** ، اى بناء السماء وسقفها المرفوع فوق رءوسنا ، فانه **(منفطر)** ، اى متصدع ومتشقق **(به)** اى بهول ذلك اليوم الذى يجعل الولدان شيبا . فالتغير والتحول والتأثر بهول ذلك اليوم ، وعظم مايقع فيه — عام شامل : يتناول ادق المواد والينها والطفها ، كما يتناول اشد المواد واصلبها واضخمها . و (انفطار) السماء : انصداع أجرامها ، وتبدل أوضاعها ، فلا يعود حالها على ماهى عليه اليوم . وذكر فعل السماء فقال (منفطر) ، ولم يقل (منفطرة) كما هو الاستعمال الشائع — تمايلا الى ارادة البناء والسقف فى معناها . على ان (السماء) وردت فى كلام العرب مذكرة ، قال شاعرهم :

فلو رفع السماء اليه قوما
لحقنا بالسماء مع السحاب

فالسماء فاعل (رفع) ولم يقل رفعت . يريد الشاعر ان السماء لو كان من عادتها ودابها ان ترفع اليها قوما لفضلهم وعزتهم ومجدهم — لرفعتنا اليها ، ولكنا مقيمين فيها مع سحابها . او يقال ان السماء مؤنث غير حقيقى ، ويجوز فى مثله تأنيث فعله وتذكيره

وقوله : **(كان وعده مفعولا)** تحقيق وتأكيد لما وعد

تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ * إِنَّ رَبَّكَ
يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ
وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ
الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا

الله به : من وقوع ذلك اليوم ، ولن يخلف الله وعده ، مهما طال أمده وتنوسى ذكره . فلينتبه اليه الغافل ، وليعمل للخلاص من هوله العامل .

وضمير (وعده) يرجع الى الله وان لم يجر له ذكر فيما تقدم من الكلام ، لما أن المقام يعينه . أو هو التفات من المتكلم فى قوله (فأخذناه) الى الغيبة فى (وعده) . وكان الظاهر أن يقول : (وعدنا) ، فعدل الى ضمير الغائب تفننا فى الكلام ، وتطرئة للاسلوب . ويحتمل ان (وعده) من اضافة المصدر الى مفعوله ، ويكون الضمير راجعا الى اليوم المتحدث عنه . والمعنى كان وعد الله بذلك اليوم مفعولا ، وأمره كائنا لا محالة .

(هذه) اشارة الى الآيات السابقة ونظائرها مما فيه تخويف المكذبين من يوم القيامة وأهواله ، أو تخويفهم من أن يأخذهم الله فى عاجل دنياهم كما أخذ فرعون بعذابه ونكاله . **(تذكرة)** : عظة وعبرة تذكر الناسى فيذكر ، وتتلتل الغافل فيعتبر . **(فمن شاء)** من الغافلين الناسين أن يستفيد من هذه التذكرة قبل الفوت **(اتخذ الى ربه سبيلا)** ، اى سلك الطريق المؤدية الى رضاء ربه ، فعمل بطاعته من دون مطال ولا تسويف . فان الأسباب ميسرة ، والسبل الى العمل الصالح مشرعة ، والاختيار من الله للعبد موهوب ، وكل من الخير والشر مقدور ومكسوب . قال تعالى : (وهديناه النجدين) اى رفعنا امام عينى كل واحد منكم أيها البشر طريقى الخير والشر ، ودللناه عليهما بما وهبناه من نعمتى الوحى والعقل، فما عليه الا الاستعانة بنا فى الوصول الينا ، وأن يختار ما هو الأجمل به ، والأصلح له . فليرتد امرؤ لنفسه ، قبل حلول رمسه، وتحول غده الى أمسه . روى عن الحسن البصرى أنه قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيها الناس ، انهما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر . فما الذى جعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير ؟

قوله : **(ان ربك يعلم الخ)** له اتصال بأول هذه السورة مذ قال تعالى : (قم الليل الا قليلا : نصفه او انقص منه قليلا) . وقد قلنا ثمة : ان الوحى الالهى كلفهم أن يقوموا ساعات من الليل طويلة : لا تقل عن ثلثه ، ولا تزيد على ثلثيه . فان قيام الليل على هذه الصورة ، واحياءه بالطاعات المختلفة : من ذكر ، وصلاة ، وقراءة قرآن — يقوى أبدانهم ونفوسهم معا، ويعودهم الخشونة فى العيش ، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة والرخاوة والانغماس فى الملذات الى حد ان تضعف هممهم ، وتنصرف نفوسهم عن جسام الأمور الى دنياتها ومحقراتها. كلفهم ربهم ذلك العمل الليلى تقربا اليه ، واستعدادا للدعوة ، وقرع الرءوس العاتية بها .

والخطاب فى فاتحة السورة للنبى صلى الله عليه وسلم وحده مرادا به أمته معه بدليل قوله هنا : **(وطائفة من الذين معك)** ، فان صحابته رضوان الله عليهم قاموا قيامه ، وساهموه صلاته وصيامه ، ولبثوا فى ذلك عشر سنين ، وقيل أقل من ذلك ، وهى مدة كافية لحصول أثرها من الاعداد والتهيئة واستجمام التربية الدينية التى أرادها ربهم لهم . وبعد مضى عشر السنين المذكورة نزل الوحى خطابا له صلى الله عليه وسلم ولصحابته القائمين معه فى الليل بهذه الآية : (ان ربك) يامحمد (يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) .

لايشتبه أحد من المخاطبين فى أنه تعالى يعلم ذلك ، فلم يكن المراد منه افادة أنه تعالى عالم به ، بل افادة أنه وقع منكم ذلك ، وبلغتم به رضاه ، والحد الذى أراده ورسمه لكم . فهو مجازيكم عليه ، موفقكم الى نيل الغرض الذى قمتم وتعبتم من أجله . واستعمال العلم بهذا المعنى مثله فى قوله تعالى : (وانا لنعلم ان منكم مكذبين) . فليس المراد به افادة العلم بتكذيبهم ، بل افادة أنه تعالى مرصد لهم العقوبة على تكذيبهم .

وقوله : (أدنى من ثلثى الليل) — (الأدنى) فى أصل معناه : الأقرب مسافة ، لكن لما كان البعد الأقرب مسافة أقل أحيازا ومقاييس ، سموا الأقل أدنى . وقيام النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته تارة أقل من ثلثى الليل ومرة نصفه وأخرى ثلثه — هو معنى ما قلناه فى (قم الليل الا قليلا الخ) . انهم أمروا بأن يتراوح قيامهم بين الثلث والثلثين ، فهو تعالى يقول : فعلتم ما أمرناكم به من قيام الثلث الى الثلثين ، والغاية غير داخلة كما دل عليه قوله (أدنى) .

وقوله : (وطائفة) بالرفع عطف على ضمير تقوم . وجاز ذلك للفصل بينهما . يعنى تقوم أنت يامحمد ، وتقوم طائفة من صحابتك الذين معك ، ويمشون على أثرك فيما آمركم به جميعا وأنهاكم .

وجعلهم طائفة لأنه أراد بهم أولئك السابقين فى الايمان ، الذين هم أول من كلفوا هذا التكليف الشاق .

أما وقد تم ما أراد الله بهم ، ورضيه لهم : من تمحيصهم وتقويتهم ، وتربيتهم التربية الدينية

بواسطه ماشرعه لهم من قيام الليل فى هذه السنين العشر ـ وقد كان فى خلالها انضم اليهم ودخل فى دينهم من لا يصبر صبرهم ، ولا يطيق ما أطاقوا من المجاهدة والقيام والتبتل ـ فقد خفف عنهم ذلك ؛ وردهم الى مايطيقون من العمل وقيام الليل ، باعتبار مجموعهم لا باعتبار كل فرد منهم ، وان كان بعضهم قد يطيق البقاء والدوام على ما كلفه أولا . لكن الخطاب الالهى والتكاليف الشرعية ، انما يراعى فيها مجموع المخاطبين ، وعامة المكلفين ، لا الآحاد منهم .

وهذا معنى قوله تعالى : **(علم أن لن تحصوه)** ، أى علم أنكم لا تطيقونه بمجموعكم، وقد ظهر عليكم ـ بعد ان دخل فى الاسلام منكم داخلون آخرون ـ شىء من الضعف والفتور ، والعجز عن القيام بما قام به اخوانكم الأولون ، فطلبتم التخفيف والتيسير لمجموعكم . وهذا الطلب حق لكم بحسب الطبيعة البشرية الغالبة ، واجابتكم عليه مما تقتضيه رحمة ربكم وعدله، **(فتاب عليكم)** ، أى رجع عليكم بالتيسير والتخفيف مذ رجعتم اليه بالشكوى والطلب والدعاء ، **(فاقرأوا)** من بعد اليوم فى قيام الليل وأنتم فى صلاة أو غير صلاة **(ماتيسر من القرآن)** ، وسهلت عليكم تلاوته وتدبره ، وهو القليل من آياته مما لا يستغرق الثلثين ولا النصف ولا الثلث .

وقيل ان المراد بأمرهم بقراءة القرآن ـ الصلاة نفسها ، لأن القراءة من أعظم اركانها ، كما يعبر عنها احيانا بالركعة والسجدة وسيأتى ، أى فصلوا ماتيسر وخف عليكم من صلاة الليل .

والعلم فى قوله (علم أن لن تحصوه) مراد به أيضا ظهور عدم الاحصاء منهم ، ووصولهم الى دور تحقق فيه عجز مجموعهم عنه ، فتجلى ذلك لكل احد،وتعلق علم الله تعالى به بعد وقوعه .

وقوله (فتاب عليكم) . التوبة هنا بمعنى الرجوع وليس المراد بها الصفح والعفو عن الذنب لأن الصحابة لم يذنبوا ، ولم يخالفوا ربهم فيما أمر ، وانما امرهم على العكس : أطاعوا وقاموا بما كلفوه خير قيام .

و (الاحصاء) فى الأصل : التقصى والمبالغة فى عد الشىء ، ويستعمل كثيرا فى معنى الطاقة والضبط . يقال : « هذا شىء لا أحصيه » ، أى لا اطيقه ولا أضبطه ، وفى الحديث : « خصلتان لا يحصيهما رجل مسلم الا ادخلتاه الجنة » ، أى لايطيقهما ولا يقدر عليهما .

اشرنا فى غضون كلامنا السابق الى أن هناك آحادا من الصحابة كانوا يشعرون من أنفسهم الطاقة على قيام الليل كما أمر الله ورسم ، وربما احزنهم أن ردهم الله الى الأخف الأيسر من العمل وقيام الليل مع بقية اخوانهم المؤمنين الذين يتألف منهم سواد الأمة،وتمنوا أو تساءلوا : لماذا لم يكن الليل اطول مدة وأوفر ساعات مما هو عليه ، كى يتسع لذكره تعالى ، والتلذذ بتلاوة كلامه ؟ فقال تعالى كاشفا عن حكمته فى ذلك : (والله يقدر الليل والنهار) . وقد تخلل بهذه الجملة بين الثناء عليهم بما كان منهم من قيام الليل حسب أمره الاول وبين ظهور عجز الكثيرين منهم أخيرا عن المثابرة عليه ، والمضى فيه ، منبها لهم الى أنه تعالى هو الذى قدر الليل والنهار ، أى جعل لكل منهما قدرا معينا ، وحدا محدودا : لايتجاوزانه مهما اختلفا وتعاقبا(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) . وقد دبر ذلك على حسب مصالح البشر ، وبقدر ما يحتاجون اليه فى سكون ليلهم للنوم والراحة ، وحركة نهارهم للسعى وطلب المعاش . ولو تحولت تلك المقادير الى غير ماقدره الله ودبره فى خلق الليل والنهار ـ لاختل امر البشر ، أو كان لهم نظام فى الحياة غير ماهم عليه الآن . فالواجب عليهم اذن أن يرضوا بما قدره لهم ودبره: من نواميس عالمهم هذا ، ويطيعوه فيما رسمه من الحدود والأحكام .

وعدل عن الماضى وهو (قدر) الى المضارع فقال (يقدر) تنبيها الى صنعه العجيب فى تدبير أمر الليل والنهار ، وتصويرا له فى أذهان المخاطبين .

ومحصل معنى الآيات أنه تعالى كلف الصحابة فى بدء الاسلام قيام ساعات طويلة من الليل ، فاستمروا على ذلك حينا من الدهر ، ثم لماكثر المسلمون ، ودخل فى عدادهم شيوخ ونساء ، ومن لا يطيق قيام الثلث الى الثلثين من الليل ـ رسم لهم من القيام والعبادة وقراءة القرآن مايطيقونه ، ويتحمله طورهم الجديد.

ذكرنا فيما مضى أن تبدل الحكم فى أمر الصلاة وقيام الليل ، ناشىء عن تبدل الحالة والزمن ، وتكاثر المسلمين فى غضون عشر السنين التى قضاها المسلمون السابقون يحيون معظم ساعات الليل فى الصلاة وقراءة القرآن وصنوف العبادات .

وقد صنف الوحى فى هذه الآيات المسلمين الى أصنافهم التى حدثت فيهم ، وكانت سببا لتغير حكم صلاتهم ، مبينا الحكمة فى ذلك فقال تعالى :

(علم أن سيكون منكم مرضى) . هذا هو الصنف الأول الذى علم الله وجوده فى المسلمين علما تابعا لتقديره الالهى : من ان البشر ـ وفى جملتهم المسلمون ـ يطرأ عليهم أمراض وعلل يتعذر عليهم معها قضاء معظم ساعات الليل فى التهجد والذكر وقراءة القرآن .

(وآخرون يضربون فى الأرض الخ) . هذا هو الصنف الثانى ، وهم التجار والمسافرون فى البلاد يطلبون الرزق وكسب المال مما هو فضل من الله ونعمة ، فان هؤلاء ايضا قد تحول أسفارهم والمشاق التى تلحقهم فى خلالها نهارا دون القيام الطويل فى صلاة الليل وقيامه .

(وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) ، وهذا هو الصنف الثالث ، وهم الذين يعملون على نشر دين الاسلام ، والدعوة اليه ، ومحاربة من يتصدى لمنعهم ومقاومتهم . هؤلاء أيضا يتعذر عليهم احياء الليل تهجدا وقياما ، وقد قتلوا النهار حربا وصداما .

وفى جعل المتاجرين الذين يبتغون الكسب فى مقابلة المجاهدين الذين ينشرون الدعوة ـ تنويه بالتجارة وعلو

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

شأنها فى نظر الشارع ، لانها من اقوى العوامل فى اعزاز الأمم ، وثبات أمرها ، وانتشار تعاليمها . وربما كان معظم السبب فى انتشار الاسلام فى اطراف المعمور ــ ولا سيما أفريقيا وشرق آسيا ــ راجعا الى رواد الكسب ، ووراد مناهل الربح . فقد كان هؤلاء التجار يحملون متاجرهم الى بلاد الوثنية ويخالطون اهلها ، فيعرضون عليهم بضائعهم مقرونة احيانا بعرض دينهم وتقاليدهم . والتجار اليوم عند دول الاستعمار آلة من آلات الفتح والتغلب : يرسلونهم الى البلاد النائية ، ويجعلونهم طلائع للدعاة والمبشرين ، ثم يتلو هؤلاء دعاة الفتح ، وبغاة التسلط والاستعمار .

علم الله وجود تلك الأصناف الثلاثة ، ونشوءهم فى المسلمين ، وربما كان يوجد أصناف اخر غيرهم ، لكن الوحى اقتصر على ذكر ما كان اكثر وجودا من سائر الأصناف ــ فاقتضت حكمته تعالى التيسير والتخفيف ، فعاد الى ذكر ما قاله اولا ، زيادة فى تقرير الحكم ، ولتثبيته فى نفوس المكلفين ، فقال : **(فاقرأوا ماتيسر منه)** ، اى من القرآن . وقوله : **(واقيموا الصلاة)** عطف مغاير ، فيكونان شيئين : قراءة قرآن ، وصلاة ذات ركوع وسجود . او هو من قبيل عطف التفسير ، ويكون المراد بقراءة القرآن الصلاة نفسها ، لأنهم كانوا اذا صلوا أطالوا صلاتهم ، وقرأوا فيها ماشاء الله أن يقرأوا ، وهذا هو المعبر عنه احيانا كثيرة بقيام الليل . فكانوا يفهمون من صلاة الليل ، ومن قيام الليل ، ومن قراءة القرآن فى الليل ــ شيئا واحدا تقريبا .

والقصد من ذلك ان قيام الثلث الى الثلثين من الليل فى الصلاة وقراءة القرآن ــ اصبح شاقا عليكم معشر المؤمنين بعد أن كثرتم ، ووجد فيكم مرضى ومسافرون ومجاهدون ، فاقتصروا بعد اليوم من فريضة الصلاة وقراءة القرآن على الصلوات الخمس : التى يقع بعضها فى أول الليل ، ومعظمها مفرق فى سحابة النهار ، لكن عليكم ان تأتوا بهذه الصلاة على وجهها الشرعى : من الخشوع واستحضار القلب ومراعاة الآداب والسنن ، وهذا هو معنى الاقامة فى قوله تعالى (اقيموا الصلاة) . وقلماذكر الأمر بالصلاة فى القرآن الا ذكر معه الامر بالزكاة ، ولا غرو ، فان الصلاة عماد الأمر بين المرء وربه ، كما أن الزكاة عماد الأمر بينه وبين بنى جنسه .

والمراد بالزكاة زكاة الأموال الواجبة بناء على ان آخر هذه السورة مما نزل فى المدينة حيث فرضت الزكاة ، وقيل السورة مكية كلها ، والزكاة هنا زكاة الفطر .

وقوله : **(واقرضوا الله قرضا حسنا)** ــ حض على انفاق المال فى رضاء الله ، ووجوه المبرات بأبلغ أسلوب . وذلك أن الغنى لا يتأخر عادة عن قرض اخوانه مبالغ كبيرة من ماله . وربما كان مصير هذا القرض التلف والضياع عليه ، فكيف يحسن منه البخل فى ان يقرض الله تعالى بالانفاق على عباده الفقراء والمعوزين ، وقرضه هذا مضمون مصون عند الله لايضيع منه مثقال ذرة ؟ بل هو يرد عليه يوم القيامة اضعافا مضاعفة .

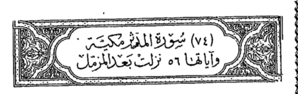
حث المكلف اولا على اخراج الزكاة المفروضة عليه ، ثم اخذ بضبعه الى مستوى أرفع ، فحضه على بذل المال فى وجوه البر ولو لم يكن ذلك مفروضا عليه ، فانه اذا بذله فى سبيل الخير كان كأنه أقرضه الله ، لكن بشرط أن يحسن النية فى هذا القرض ، فيبتغى من ورائه رضاء الله لا طلب التعويض من الخلق ، أو الشهرة فيهم ، او التوصل الى غرض دنيوى قد يكون حقيرا تافها ، وهذا معنى قوله : **(قرضا حسنا)** .

ثم ارتقى بالانسان الى بحبوحة الاحسان المطلق ، فحضه على عمل الخير ، وفعل البر ، وممارسة الفضائل والكمالات الانسانية مهما كان جنسها : بذلا أو غيره من ضروب الأعمال النافعة التى يتوصل بها المؤمن الى رضاء ربه ، أو خدمة نوعه ، فقال :

(وما تقدموا لانفسكم) ، وتفعلوا ايها البشر **(من خير)** ، اى خير كان **(تجدوه)** : تلقوا ذلك الخير الذى قدمتموه فى دنياكم **(عند الله)** يوم معادكم **(هو خيرا)** . (خيرا) مفعول به ثان لتجدوه ، و (هو) ضمير فصل بين المفعولين ، وضمير الفصل من عادته أن يقع بين المبتدأ والخبر ، ومفعولا (وجد) أصلهما مبتدأ وخبر . والمعنى تجدوا ما فعلتموه يوم القيامة خيرا لكم منه : يعنى انكم تجدون ثواب الله عليه ، وذلك الثواب المعد لكم خير واكرم وافضل من صدقتكم التى انفقتموها ، أو طاعتكم التى مارستموها فى دار الدنيا (فخيرا) الثانية أفعل تفضيل ، بخلاف (خير) الأولى فانها اسم بمعنى الاحسان والبر والعمل الصالح .

ثم فسر « خيرا » بقوله : **(واعظم اجرا)** ، يعنى ان الأجر الذى تجدونه اذا قيس بالعمل الذى قدمتموه وجدتموه أعظم وافضل من عملكم ، فان عملكم فان بائد ، اما الأجر عليه فباق خالد .

وقد ختم السورة بارشاد المنفقين المحسنين الى ان يطلبوا من الله الصفح والمغفرة ، اذ ربما كانوا لم يخلصوا النية فى الانفاق ، او لم يحسنوا العمل فى الاقراض ، فيضعوا النفقة فى غير مواضعها ، او ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة ، فاذا **(استغفروا الله)** من ذلك غفر لهم ، (فانه) سبحانه وتعالى **(غفور رحيم)** من شأنه الغفران والرحمة .



(٧٤) سُورَةُ المدَّثِّر مكيّة وآياتها ٥٦ نزلت بعد المزمّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

كلمة (المدثر) فى احوالها الصرفية كالمزمل ، وقد تقدم بيان ذلك . و (المدثر) مشتق من الدثار ، وهو اسم الثوب الذى يلبس فوق الشعار ، والشعار الثوب الذى يلى شعر الجسد ، ومعنى (المدثر) المتلفف فى دثاره . ويقال فى سبب خطاب الملك له صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب ماقيل فى سبب خطابه له بـ (يأيها المزمل) ، ومن ثم قال بعضهم ان اوائل هذه السورة اول ما انزل عليه صلى الله عليه وسلم . وبيان ذلك أن جبريل بعد أن لقنه سورة « اقرأ باسم ربك » و (يأيها المزمل قم الليل الا قليلا) الى آخر الآيات ، وحصل له صلى الله عليه وسلم من التأثر ما حصل ــ تخلف عنه الملك زمنا طويلا كى يهدأ روعه ، ويستجم نشاطه ، وليعود صلى الله عليه وسلم الى ذكرى الوحى ، ويتطلب تلك المناجاةالسماوية برغبة وشوق وحنين . ثم عاد الملك فتجلى له ثانية مخاطبا مشجعا ، فعراه صلى الله عليه وسلم ايضا شىء مما كان عراه فى المرة الأولى ، فجاء بيته وقال لأهله : « دثرونى دثرونى » ، وبينا هو متدثر جاءه الملك فخاطبه قائلا : **(يأيها المدثر)** الذى اشتمل بدثاره داخلا فيه كمن لايهمه أمر ولا يعنيه شأن **(قم)** وانشط من مضجعك هذا ، ، واربأ بنفسك أن تنزلها هذه المنزلة من الوحشة والعزلة . فان العناية الالهية قد رشحتك لمقام سام ، ونشر دين عام ، **(فانذر)** الناس بذلك الدين ، وخوفهم العاقبة ان هم اعرضوا عنه ، وكذبوا به .

وفعل (أنذر) يتعدى الى مفعولين ، يقال : « أنذر قومه عذابا شديدا » مثلا ، لكن لما كان الوحى الالهى انما يريد منه صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر أن يقوى على الانذار ويتصدى له بهمة ونشاط ــ حذف مفعولى أنذر لعدم تعلق الغرض بهما ، وتعلقه بأصل الانذار ، اذ كان هو أهم شىء بالنسبة اليه صلى الله عليه وسلم مادام لا يعلم بعد من هذا الذى يخاطبه ؟ وماذا يريد من غشيانه له المرة بعد المرة ؟ وقول القائل ان أوائل هذه السورة أول ماانزل على النبى صلى الله عليه وسلم ــ يراد به انه اول ما انزل عليه بعد سنتين أو اكثر من انقطاع الوحى عنه . وقال بعضهم : لم يكن السبب فى تدثره صلى الله عليه وسلم ما لحقه من خطاب الملك ومفاجأة الوحى ، بل كان السبب فيه سوء معاملة قومه له ، وتهكمهم به عند قيامه بالدعوة ومباشرة امرها . فكانوا كلما تصدى لهم أو عرض شيئا من الوحى عليهم أسمعوه مايكره مما لم يعتد سماعه من أحد . وكانوا يقولون له : يا ساحر ، يامجنون . وقد القوا عليه يوما سلى جزور ، فنجسوا ثيابه ، ولوثوه بالدم . فاغتم صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وشق عليه ، ورجع الى بيته مكتئبا حزينا . والمرء فى مثل هذه الحالة تطيب له العزلة والتلفف بثوب أو قطيفة ، مفكرا فى أمره ، مستطلعا طلع مصيره . وهذا ما كان منه صلى الله عليه وسلم : فانه لما وصل الى بيته تدثر وجعل يفكر فى عبء الرسالة ، وصعوبة أمر الدعوة ، ولا سيما بين قوم كقريش فى أعلى ذروة من السؤدد والمجد ونفوذ الكلمة فى العرب . وكان من أخص خلائقهم الكبر والخيلاء والجبروت والتمسك بتقاليد الآباء ، فكيف ينتظر أن يخضعوا لشاب منهم : جعلته أخلاقه الفطرية ، وفضائله النفسية ــ فى معزل عنهم ، ولم يضمهم به يوما مجلس قمار أو خمر أو لهو ، ولم يروه مشاركا لهم فى أعيادهم ، أو السجود لأصنامهم ، أو ممارسة عبادة من عباداتهم . مما من شأنه أن يؤلف بين القلوب ، ويغرس الميل والثقة فى النفوس ؟

كان صلى الله عليه وسلم فى مثل ماذكر من ضروب الهواجس والأفكار ، واذا الملك يهتف به قائلا : (يأيها المدثر) المستغرق فى هواجسه وهموم نفسه ، (قم) نشيطا ، ولا تجعل لليأس اليك سبيلا ، (فانذر) قومك وادعهم وخوفهم مهما تجهموك وأسمعوك وآذوك ، وامض فى دعوتك قدما من دون أن تباليهم أو تخشى جانبهم . فان انسلالك من بين أيديهم ، ونومك فى بيتك منعزلا عنهم ــ لايفيدك شيئا ، بل ربما أغراهم بك ، وجرأهم عليك ، وحال بينك وبين ما أنت بسبيله من نشر التوحيد والاسلام ، وابطال عبادة الطواغيت والأصنام .

وسواء أقلنا أن تدثره عليه السلام وانزواءه عن الناس فى بيته كان تهيبا للوحى ، وتفصيا من ضغطته ، أم تجنبا لأذى قومه ، وتفكيرا فى مصيره معهم ــ فان الوحى السماوى لم يعذره فى أى الأمرين كان ، بل حضه على الهبوب من المضجع ، والتشمير للدعوة ، والجد فى اداء الوظيفة التى اختارته لها العناية الأزلية . وبديهى أن قيامه صلى الله عليه وسلم بدعوة جبابرة عتاة الى خلع دينهم ، وما ورثوه عن أجدادهم ــ يحتاج الى سلاح ماض يتحصن به فى أثناء المقارعة والمصاولة ، فما هذا السلاح ؟ وما هى تلك القلاع الشاهقة ؟ والجيوش المتلاحقة ؟ والأعتد والآلات المهلكات المبيدات ، التى استعان بها صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى ربه ، ومحاربة الشرك وحزبه ؟ لم يكن شىء من ذلك كله ، ولم يكن معه مساعد غير الوعد

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾

الالهى ، وغير ما فى هذه الآيات الآتية من الوصايا التى امره ربه أن يتدرع بها ، ويروض نفسه عليها ، وهى قوله تعالى :

(وربك فكبر الخ) ، والفاء فى (فكبر) لافادة معنى الشرط ، فهى فاء الجواب ، كانه يقول : ومهما قام فى وجهك من العقبات فلا تدع تكبير ربك ، وكذا يقال فى فاءات الجمل الآتيــة . ومعنى (كبر ربك) أختصه بالكبرياء ، وأفرده بالعظمة والمجد ، وارفعــه عن ان يكون له شريك من معبودات المشركين وآلهتهم . ففى هذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الاوهام وعبادة الخيال .

هذا هو السلاح الأول ، اما السلاح الثانى فهــو تحرير النفس من سوء الأخلاق ، وردىء الخصال ، وهو ما اراده تعالى بقوله :

(وثيابك فطهر) . لاشىء يلازم الانسان فى مختلف حالاته ، ويصاحبه فى جميع ادوار حياته : منذ ولادته الى حين مماته ــ مثــل ثيابه التى يتجــر فيهــا ، فصارت كأنها جزء من أجزاء ذاته ، واحد مقــومات قرونته (1) . وصاروا اذا وصفوها بوصف كانوا كأنهم وصفوا النفس ذاتها ، فيقولون : فلان طاهر الثياب أو نقى الثيــاب ، وطاهــر الجيب والذيل والأردان ويريدون وصفه نفسه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق . ويقولون فى ضد ذلك : فلان دنس الثياب ، وخبيث الثياب ، وقال عنترة بنى عبس :

فشككت بالرمح الأصــم ثيــابه
ليس الكريم عــلى القنا بمحرم

وشك الثياب بالرمح ليس مما يتمدح به ، وانما المقصود شك جسده ، بل قلبه أو نفسه بالرمح . فان هذا الشك هو الذى يرديه قتيلا ، وهو الذى يثبت بسالة عنترة وحذقه فى فنون القتــال . فمعنى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) وقلبك او نفسك طهرها مــن ذميم الأخلاق ، وسيىء الملكات ، فلا تجعل للجزع والسآمة وقلة الصبر والخور وضعف الهمة وغير ذلك من امراض النفس ــ سبيلا الى نفسك . فالآية تحضه صلى الله عليه وسلم على تهذيب نفسه ، وتحريرها من قيود الصفات الذميمة ، وهو السلاح الثانى .

أما السلاح الثالث فتحرير الجوارح من المعاصى والذنوب ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

(والرجز فاهجر) . الرجز بكسر الراء وضمها فى أصل معناه العذاب ، ثم كثر استعماله فى كل ما أوجب العذاب ، وأدى اليه من المعاصى والآثام . فهو يقــول : اترك كل ما يجر الى العذاب من تلك المعاصى ، وحرر جوارحك من مقارفتها : فلا تدع سمعك ولا بصرك ولا فمك ولا يدك ولا رجلك ولا عضوا آخر من اعضائك ــ يلم بشىء منها . هذا هو السلاح الثالث من الأسلحة التى يتم بها استعداده صلى الله عليه وسلم للمضى فى دعوته ، والنجح فى مهمته ، والظفر بطلبته .

وقد استوعب الوحى فى هذه الآيات الثلاث التى لا تتجاوز بضع كلمات ــ أمهات الفضائل الانسانية . اذ ان الانسان ليس سوى عقل ونفس وجسد ، وكل فساد او صلاح يطرأ عليه ، او شر او خير يصدر منه ــ فانما مقره هذه الأشياء الثلاثة ، التى هى مقــومات وجوده ، واركان كيانه . فبقدر مايتوفر له من صلاح العقل بالعقائد الصحيحــة ، وصــلاح النفس بالآداب الرفيعة ، وصلاح البدن بهجر الآثام الوبيلة ــ تتوفر له السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة . وبقدر ماينقص من ذلك يخسر من سعادته ، ويدنو من شقاوته .

وليس معنى أمر الله له صلى الله عليه وسلم بتحرير عقله ونفسه وبدنه أنه ــ وحاشاه ــ ملوث بشىء من دنس الوثنية أو العيوب او المعاصى . اذ قد ثبت بالنقل المتواتر الذى لا ريب فيه أنه صلى الله عليه وسلم كان كاملا فى عقيدته : فلم يمارس عبادة جاهلية ، كاملا فى نفسه : فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملا فى جوارحه : فلم يقترف بها معصية قط . ومهما كان أعداؤه المشركون يوجهون اليه المطاعن والشــتائم ، فلم نسمعهم مــرة يقولون له : انك كنت بالأمس شريكا لنا فى عبادة اللات والعزى أو هبل الأعلى ، أو يقولون له : غدرت بفلان ، أو اسأت الى فــلان ، أو أستحمقت على فلان ، أو يقولون له : أنت الذى كنت تفعل كذا وكذا من المعاصى والمخازى . . لم يكونوا يقولون له شيئا من ذلك . ولو وقع منهم لنقل الينا كما نقل قولهــم له انه ســاحر ومجنون . وقد بسطنا ذلك بسطا شافيا فى كتابنــا الذى نؤلفه فى سيرة حياته صلى الله عليه وسلم . أما قوله تعالى له فى سورة الضحى : (ووجــدك ضــالا فهدى) ، فمعناه أن ربك وجدك منذ نشأتك فى ضلال ، أى حيرة من أمر هداية قومك ، وانقاذهم من دنس الشرك ومعرة الجاهليــة ، اذ كنت واقفــا من امــر هدايتهم فى مفرق طرق . لاتدرى اى طريق تسلكه الى هدايتهم ، حتى هداك ربك بالوحى الى دين الاسلام وتعاليم القرآن ، وامرك أن تسير بقومك على نوره ، وانقذك من الحيرة التى كنت فيها . هذا هــو معنى الضلال فى الآية .

تقول : واذا كان الأمر على ماذكرت من سلامته صلى الله عليه وسلم فى عقله ونفسه وجوارحه وعدم تقصيره ــ فما معنى الوحى له بتمجيد الرب ، وتطهير النفس ، وترك المعاصى ؟

فأقول : ان المراد من امره بما ذكر طلب الدوام منه على ماهو عليه ، وتذكيره بأنه صلى الله عليه وسلم مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على اداء وظيفته والقيام بمهمته : فلا يبتئس ، ولا

(1) القرونة : النفس

يحزن ، ولا ييأس ، ولا يكثر من القلق والاهتمام . وينبهه الى ان من كان مثله طاهرا من الشوائب، سليما من المعايب — لا يخسر ولا يخيب ، بل يكون له من الظهور وحسن العاقبة اوفر نصيب . وهذا كما تقول لابنك — وانت ترشحه للضرب فى البلاد من أجل كسب مال أو معال ، وقد شعرت منه بشىء من التهيب وتوقع الخيبة : « أقدم يابنى ولا تخف ، وكن أديبا فطنا أمينا مطيعا لربك ، مالكا لاربك ، وفيا لصحبك ، واصبر تر ما الله فاعل بك » . تقول له هذا وانت تعلم أن كل ماأمرته به هو من صفاته واخلاقه ، ولا تريد من توجيه الخطاب اليه بذلك الأمر الا حثه على انتظار النجاح ، وبث الطمأنينة فى نفسه للمستقبل . ومثل هذا قوله تعالى : (انا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر) ، أى أعطيناك يا محمد الخير الكثير ، فلتكن صلاتك وما تقدمه من القرابين خالصا لله ، ولا تجعل لغيره من المعبودات فيهما نصيبا . والمعنى : دم على ما انت عليه من هذا الاخلاص ، فانه قضاء للذمة ، ووفاء لحق النعمة . والا فانه صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، ولم يذبح لصنم قط ، وهذا هو معنى قوله تعالى هنا لنبيه : مجد ربك يا محمد ، وطهر نفسك ، واحم جوارحك — ان شاء الله .

ثم ان من الصفات النفسية صفتين هما أشد ما يلزم للقائم بالدعوة — اية دعوة كانت : دينية او دنيوية ، سياسية أو اجتماعية — تانك الصفتان هما الجود والصبر ، فلا يمكن قط أن ينجح داع فى دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح فيها اذا كان ملولا جزوعا ، مسترخى العزيمة محلول عروة الصبر . فكم دعوة حق اضمحلت وزالت بسبب شح القائم بها ، أو بسبب ملله وقلة صبره ، وكم دعوة بطل لا أساس لها تدرع صاحبها بالجود والسماح ، واستشعر الصبر والدأب والالحاح ، فكانت عاقبته الفوز والغلبة والنجاح .

وقل من جد فى أمر يحاوله
واستشعر الصبر الا فاز بالظفر

اعتبر ما قلناه فى الدول التى ظهرت فى ازمنة التاريخ المختلفة ، وخاصة التى ظهرت فى صدر الاسلام . فان الدولة الأموية لم تثبت ويستتب لها سلطان الا بالبذل والسخاء ، والصبر وانتظار الفرص . أما الدول الأخرى التى كانت تنافسها وتجرى معها فى ميدان واحد كالدولة الزبيرية مثلا — فانه لم يضر بها ويقطع عليها الطريق الى غايتها الا الشح والضن بالمال ، والملل وعدم انتظار الفرص .

اذا تقرر هذا فهمنا السر فى تخصيص الله هذين الخلقين بالذكر بعد ان عم فى آية (وثيابك فطهر) التى قلنا ان معناها عليك بكرائم الخصال ، ومحاسن الأخلاق ، ثم خصص فقال : **(ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر)** ، كانه يقول : واخص من بين تلك الأخلاق العطاء بلا استكثار ، والصبر على المكاره والمضار ، فقوله : (ولا تمنن تستكثر) معناه لا تعط وانت مقدر فى نفسك أن ما تعطيه كثير ، بل اعط عطاء من لايخاف الفقر ، وقدر أن ما تعطيه قليل وان كان كثيرا فى الواقع ونفس الامر ، يقال : « من الأمير على فلان » اذا أنعم عليه واصطنع عنده يدا .

وقوله : (ولربك فاصبر) معناه اصبر على أذى قومك وعرامهم ، وعدم انقيادهم لك ، لأجل ربك وتبليغ رسالاته ، وتلقين وحيه ، فان فى هذا الصبر بلوغ ما تشتهى وتحب من ايمانهم ومسارعتهم الى تصديقك . وقد قال تعالى لنبيه فى معرض الامتنان عليه بما وهبه من حسن السجايا حتى كانت سببا فى تألف العرب ، وحبهم له ، وانقيادهم الى دعوته — : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) . فلينه صلى الله عليه وسلم ورفقه ، ومكارم أخلاقه عامة ، وسخاؤه وصبره خاصة — كل ذلك مما أدبه ربه به فكان سببا لظهور دينه ، ونجاح دعوته ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . أما تأديبه له بالجود والسخاء فيكفى فى التمثيل له اعطاؤه يوما لبعض المؤلفة قلوبهم واديا مملوءا ابلا وشاء ، واما صبره وثبات قلبه فيكفى فى الدلالة عليه ما قاله صلى الله عليه وسلم فى جواب عمه أبى طالب مذ رغبه فى السكوت عن قومه ، وترك التعرض لهم فى دينهم ، وأنهم يمتعونه فى مقابل ذلك بما شاء من زهرة الحياة الدنيا وزينتها : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت دعوتهم الى دين الله » .

قوله : **(فاذا نقر فى الناقور)** . الفاء للسببية كالفاء الثانية فى قوله تعالى : (فاخرج منها فانك رجيم) ، أى لأنك رجيم . والمعنى هنا انهض يا محمد لانذار قومك متدرعا بما أمرتك به ، واصبر على أذاهم ، ولا تبال بهم ، فان أمامهم ان بقوا على كفرهم يوما شديد الهول عليهم ، و (النقر فى الناقور) هو بمعنى النفخ فى الصور ، تقول : « نقرت الرجل » . اذا صوت له بلسانك ، والنقر بالخيل ازعاجها بالصوت حثا لها على المسير ، و (الناقور) فاعول اسم الآلة التى ينقر بها او عليها فتصوت ، كالهاضوم اسم للدواء الذى يؤكل فيكون به الهضم . فالنقر كما يكون بمعنى الضرب على دف مثلا بحيث يسمع له صوت ، يكون بمعنى التصويت والنفخ فى الشىء فيسمع له صوت .

ويفهم من كلام بعض المفسرين أن النقر غير النفخ ، وهو يدل على أن النفخ فى الصور والنقر فى الناقور كليهما ليس من باب الحقيقة ، بل هو كناية عن اعلان ذلك اليوم ، والمناداة به ، وظهور أمره ، وانكشاف سره . أو هو تمثيل لبعث الخلائق وحشرهم فى صعيد واحد بحيث يحسب من رآهم أن نفخة صور او نقرة ناقور أهابت بهم وأزعجتهم الى حضرة ربهم . على أن الشرع ان كلفنا الاعتقاد بالصور والناقور فانه والحمد لله لم يكلفنا معرفتهما ، ولا كيفية النفخ فى الصور ، أو النقر على الناقور — معرفة اكتناه . وذلك رحمة بنا ، وتيسيرا للأمر علينا .

وقوله (**فذلك**) اشارة الى الوقت المفهوم من اذا ، أى فذلك الوقت أو اليوم الذى ينقر فيه فى الناقور . وقوله : (**يوم عسير**) خبر لقوله فذلك . وقوله

فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ

(يومئذ) بدل من (فذلك) الذى قلنا انه بمعنى فذلك اليوم . وفائدة هذا الابدال زيادة التقرير والتصوير فى الأذهان . وكما أكد فى الابدال من المبتدا اكد بتقرير الوصف مذ قال : (غير يسير) فانه بمعنى (عسير) . وهذا كما تقول «أنا محب لك غير مبغض» فقولك « غير مبغض » يورث الكلام فضل تأكيد . بل ربما كانت نكتة التكرير فى الآية الاشارة الى ان عسر ذلك اليوم لايصحبه يسر كما يصحب عسر الدنيا ، فهو عسر مطبق ، وهول مغلق . و **(على الكافرين)** متعلق بعسير ، أو بيسير . والعامل فى قوله (فاذا) مضمون جملة الجزاء وهى (فذلك يومئذ يوم عسير) والمعنى : يشتد الهول ويعسر الامر وقت نقر الناقور .

معنى **(ذرنى ومن خلقت)** دعنى واياه ، وكل أمره الى ، وثق أنى قادر على كفايتك همه . وهو أسلوب بليغ فى التهديد ، مثله ماسبق فى آية (وذرنى والمكذبين أولى النعمة) ، وآية (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) .

وهذا الذى يقول الله انه خلقه وسينزل به عقوبته هو الوليد بن المغيرة المخزومى ، احد عظماء قريش وذوى السؤدد والجاه والسعة فيهم . وقد ذكره تعالى بأياديه عنده فى معرض تهديده وتخويفه ، ليكون ذلك أدعى الى الكسر من نفسه ، والغض من خيلائه ، فيكف عن بعض شره وايذائه للنبى صلى الله عليه وسلم . والوحى وان نزل فى سبب خاص ، أو خوطب به واحد من الأشخاص ـ فان أسلوبه يبقى عاما متناولا كل من كان كالوليد فى معاندة الحق ، والكفر بالله ، وترك الشكر له على نعمه وسوابغ آلائه . ويقول بعض المفسرين ان الوليد هذا هو الذى آذى رسول الله وكاد له ، واضطره أن يأوى الى بيته ويتدثر بقطيفته مغموما حزينا . فان صناديد قريش لما برموا برسول الله ، وضاقت عليهم الحيل فى اسكاته ، واطفاء نور دعوته ـ لجئوا الى الوليد ، فاشار عليهم بأن يلقبوه صلى الله عليه وسلم بالساحر ، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم ان ينادوا بذلك فى مكة ، فجعلوا ينادون : ان محمدا لساحر . فلما سمع رسول الله ذلك وجم واشتد عليه الأمر ، ورجع الى بيته حزينا ، فتدثر بقطيفته ، فنزل عليه جبريل يقول : (يأيها المدثر قم فأنذر) ، وقد ذكرنا هذا آنفا مستوفى الشرح والتفسير ، الى ان قال له ربه هنا : (ذرنى) اى دعنى يامحمد بعد ان تكون انت على ما احببت لك من استجماع الكمالات الانسانية فيك (ومن خلقت) اى وعدوك الوليد الذى خلقته (وحيدا) ، اى دعنى وحدى معه ، ولا تستجش عليه الأعوان والأنصار ، فانا كافيكه وحدى ، وفى الغناء عن كل عون ونصير . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (ذرنى) . او المعنى دعنى وهذا الذى خلقته وحدى ولم يشركنى فى خلقى له شريك او مساعد . وفى ذلك تنبيه للوليد الى أن من العار عليه ان يقرن بمن تفرد بخلقه شريكا فى العبادة ، او ايقاظه الى أن من خلقه وحده قادر على أن يهلكه وحده ولا يعارضه فى اهلاكه معارض ، فيكون (وحيدا) على الوجهين حالا من فاعل (خلقت) .

او المعنى : دعنى يا محمد وهذا الذى خلقته ، فكونته فى بطن أمه وحيدا : لا رفيق له سوى رفقى ولطفى وعنايتى ، ثم ولدته أمه فكان وحيدا فريدا : لا مال له ولا ولد ، ولا حول ولامدد ، حتى اذا أسبغت عليه الآلاء ، وامددته بالأموال والأولاد والأخلاء ـ قام يكفر بى ، ويكذب رسولى ، ويعاند آياتى . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (خلقت) وهو ضمير يعود على من .

وهذا المعنى الأخير يناسب مابعده من تعداد النعم ، وتذكير الوليد انه أصبح بها كثيرا وافر العدد ، بعد أن كان وحيدا منقطع المدد . وبعد نزول هذه الآية صار يلقب الوليد بالوحيد تعييرا له ، وتهكما به . وقيل : كانوا يلقبونه بالوحيد قبل نزول الآية تكبيرا له ، وتنويها بانفراده فى الرياسة ، فلما نزلت قلبت المدح الى قدح ، وحولت التكبير الى تعيير .

ثم اخذ الكتاب فى بيان النعم والأيادى التى كانت لخالقه عليه فقال : **(وجعلت له مالا ممدودا)** ، اى مبسوطا موسعا . وقريب منه قولهم « فلان صاحب سعة ، وموسع عليه فى الرزق » ، فهو من المد بمعنى بسط الشىء وتوسيعه ، ويحتمل ان تكون من المد والامداد ، يعنى أن ماله كان كالنهر : كلما نفد منه شىء مد بآخر ، وكلما انفق نعمة أخلف الله عليه غيرها . وكان للوليد هذا بستان فى الطائف لاينقطع ثمره صيفا ولا شتاء فى نعم وأموال أخرى كانت ممتدة بين مكة والطائف . ومن ثم قال بعضهم ان امتداد ماله المفهوم من قوله (ممدودا) هو على حقيقته .

(وبنين شهودا) ، اى مقيمين معه فى بلده ، لايبرحونها ابتغاء للكسب وطلب المعاش ، لوجود اعوان يكفونهم مؤونة ذلك ، فهم دائما شهود حضور بين يدى أبيهم ، يستأنس بهم ، ولا يتنغص عيشه لفراقهم . ويشبه هذا ماقالوه فى بيت حسان رضى الله عنه :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

وانه أراد بقوله « حول قبر ابيهم » انهم ملوك أعزاء مقيمون بدار مملكتهم : لايبرحون للاكتساب ، ولا ينتجعون كالاعراب .

أو المراد بكونهم (شهودا) أنهم بلغوا من الرجولة

والكمال والنجابة مبلغا يشهدون به مع أبيهم المجامع والمحافل العامة ، فيكونون زينة لأبيهم وجمالا .

وقوله **(ومهدت له تمهيدا)** من قبيل التعميم بعد [illegible] فبعد ان ذكر من مظاهر لنعم الالهيـة [illegible] عاد ولف النعم والخيرات الدنيوية لفا فى [illegible]ده الجملة فقال (ومهدت الخ) ، أى بسطت بين يديه الدنيا بسطا ، ويسرت له تكاليف الحيـاة ومظاهر الجاه تيسيرا ، بحيث لايصعب عليه تناول ماشاء منها

و (التمهيد) فى الأصل ان تجعل الشىء او الأرض ممهدة مبسوطة ، يقال « مهد الأمر » اذا وطأه وسهله وسواه وأصلحه . ثم جعلوا يتجوزون به عـن بسطة المال والجاه . ويقول الكتاب فى ترسلاتهم : « أدام الله تأييدك وتمهيدك » يريدون ما ذكرنا .

وبدل ان يشكر الوليد لربه هذا الاحسان ، ويقابله بالطاعة والايمـان ـ عـكس الأمر وقابله بالجحـود والكفران ، فعلم قريشا ان يلقبوا رسوله بالساحر ، وينادوا عليه به فى كل ارجاء مكة . وقد اشار الوحى الى ذلك فى الآية الآتية من هذه السورة على لسـان الوليد : (ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هـذا الا قول البشر) . وقال عنه فى سورة « ن والقلم » ! (اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين) . وكان الوليد يقول لأولاده ورجال عشيرته : « لئن تبع دين محمد منـكم احد لا انفعه بشىء أبدا » ،فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الاسلام . وقد مر عن الوليد هذا خبر طويل فى سورة « ن . والقلم » وقوله تعالى فيه (ولا تطع كل حلاف مهين هماز) الى آخر الأوصـاف العشرة التى وصفه الوحى بها ـ ذلك هو شأن الله مع الوليـد فى اسداء النعم وموالاة الاحسان ، وهذه هى شنشنـة الوليد مع ربه فى الجحود والعصيان ، ومقاومة اهل الايمان . **(ثم)** أن الوليد بعد ذلك كله لا يستحى من ربه ، ولا يفـطن الى سـوء أدبه ، بل هـو **(يطمع)** ويحرص **(أن أزيد)** له من نعمى ، وأوالى عليه مـن احسانى .

يساء اليـنـا ثم يرجى ودادنا
لقد هان من يعطى مودته غصبا

ويروى أن الزيادة التى كان يطمع فيها الوليد لم تكن من جاه الدنيـا وخيراتهـا ، بل من نعيم الآخرة وبحابح جناتها . فقد كان يقول : « ان كان محمـد صادقا فما خلقت الجنة الا لى » . **(كلا !)** اى ليرتدع الوليد عن طمعه وليكفكف من غروره ،فليس هو اهلا لما طمع فيه . وقد روى أن الوليد لم يزل بعد نزول هذه الآية فى نقصان وخسار حتى افتقر ومات معدما.

(انه كان لآياتنا) حججنا على خلقنـا : مـن كتب ورسل **(عنيدا)** معاندا لها ، مكابرا فيهـا . عند عن الطريق : مال وعدل ، وعاند فلانا : جانبه وفارقه ، وعارضه بالخلاف والعصيان ، وعاند الحق : جحده ورده وهو يعرفه ، فهو معاند وعنيد . ومما رووه من عناد الوليد انه مر على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ « حم السجدة » ، وقيل بل سمعه يقرأ آية (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتـاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنـكر والبغى يعظـكم لعلـكم تذكرون) ، فرجع وقال لقريش : « والله لقد سمعت آنفا من محمد كلاما : ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن : ان له لحلاوة ، وان عليـه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى » . لا جرم أن من عرف من كلام الله مثل ما عرف الوليد وبقى مقيما على تكذيبه له ، ووصفه بأنه (أسـاطير الأولين) ، وقوله فيه (ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر) ـ كان معاندا للآيات ، خليقا بأن يكابد من العذاب أشد الصعوبات . ومن ثم قال تعالى فيه : **(سأرهقه صعودا)** ، اى سأكلفه واحمله عذابا شاقا صعبا عليه ، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد فى الجبل . و (الصعود) بضم الصـاد : مصدر صعد ، وبفتحها : العقبة فى الجبل يصعب على المرء التصعيد فيها . وقد مر فى تفسير قوله تعالى : (عذابا صعـدا) أن العـرب جعلوا صعـود المرتقى الصعب مثلا فى تكليف الأمر الشـاق الذى لايطاق ، فراجع ما قلناه فى سورة الجن .

ذكر فى الآيتين السـابقتين أن الوليد شديد العنـاد لآيات الله ، وأن الله سينزل به ما لا طاقة له به مـن العذاب . وكأن سائلا سمع ذلك فسأل : وكيف كانت حالته فى معاندة الآيات حتى استحق العذاب ؟ ثم سأل: وما هو العذاب الذى يرهقه يوم القيامة ؟ فأجيب عن الأول بقوله تعالى : **(انه فكر وقدر الخ)** ، واجيب عن الثانى بقوله بعد ذلك : (سأصليه سقر ، وما ادراك ما سقر الخ) ، فهذه الآيات والتى تليها تفصيل وشرح لما ادمجه فى آيتى (أنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا) ، وهذا كقوله تعالى فى سورة الاخلاص (الله احد ، الله الصمد) ، ثم عاد بالبيان على (الله احد) فقال : (لم يلد ولم يولد) ، وعلى (الله الصمد) فقال: (ولم يكن له كفوا أحد) ، وفى هذا الاسهـاب بعـد الايجاز ـ مافيه من البلاغة وباهر الاعجاز .

(قدر) الامر فى نفسه : هيأه ، واجال فيه رأيه ، ليبرزه الى الناس نافعا كاملا ، ومثـله (روزه) اذا اعمل الروية فى ترتيبه وتقديره ، و « زوره » بتقديم الزاى اذا أداره فى نفسه وهيأه .

وقوله **(فقتل ... ثم قتل)** يعنى قتله الله ! وهو كقولهـم : قاتله الله ! ما أشجعـه ! وأخـزاه الله ! ما اشعره ! يقـول العـرب هـذا فى معـرض التعجب والاستعظام مدحا ، وكأن الأصل فى هذا الاستعمال أن هذا الشجاع أو الشاعر بلغ فى شجاعته وشعره حدا يثير الحسد فى نفوس الناس ، فلا يملكون السنتهم من الدعاء عليـه بالقتل او الخزى ، شـأن الحاسد مـع محسوده ، ثم شاع هذا الاستعمال وصرف الى المدح والتعجب حتى صار يقوله المحب فى محبوبه ، والوالد لولده ، أما هو فى الآية فتعجب واستعظام مشـوبان بالقدح ، ولا مدح فيهما ، او يقال ان المدح فيهما وارد مورد التهكم ، فلا تضر ملاحظته فى الآية .

قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا

و (العبوس والبسور) والكلوح : تقلص عضلات الوجه عند الألم أو الحزن ، أو هم نفسي ينفعل له المرء ، وجعل بعضهم الكلوح فى الشفاه بحيث تبدو الثنايا ، والعبوس فى تقطيب الحاجبين ، والبسور أشد من العبوس .

وقوله (**يؤثر**) معناه يروى ويتناقل خلفا عن سلف .

قلنا ان الوليد على عتوه ، وشدة عناده ــ كان لايملك نفسه عن الاعجاب بالقرآن وفصاحة آياته ، حتى قال فيه قوله المأثور : « ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة الخ » . وقال لقريش يوما : سأبتار لكم ــ أى سأجرب واختبر ــ هذا الرجل الليلة ــ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ــ فجاءه فوجده يصلى ويقترىء ، فرجع اليهم واجما واله النفس ، فقالوا له : « مه » قال : « سمعت قولا حلوا أخضر مثمرا يأخذ بالقلوب » . وزار أبا بكر مرة وسأله عن القرآن ، فأسمعه شيئا منه بصوته الرقيق الحزين اختلب به لبه ، فخرج الى قريش فقال : « ياعجبا لما يقول ابن ابى كبشه أ فو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وان قوله لمن كلام الله » ، فكانت قريش يسمعون هذا واشباهه من الوليد فيخامرهم الريب فيه ، ويقولون : « والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش » ، اى لئن خرج من دينه الى دين محمد ليفعلن مثله . ثم راجعوا ابا جهل فى أمره ، وخوفوه العاقبة ان هو أسلم . فأعلن أبو جهل عظماء قريش وصناديدهم وجوب الاجتماع فى ناديهم المسمى « دار الندوة » فشهده ملؤهم وأشرافهم . وحضر الوليد ، فقال له أبو جهل : « اى عم ، ان قومك يريدون ان يجمعوا لك مالا » قال : « ولمه » قال : « يعطونك اياه ، فانك تتعرض لمحمد طالبا ما قبله » يريد أبو جهل انه يتعرض للنبى فى طلب عطية منه . وانما اراد بهذا القول أن يحمى الوليد ويغضب ، فيتجنب مجالس النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة . فقال الوليد : قد علمت قريش انى اكثرها مالا . قال أبو جهل : فقل اذن فيه قولا يعلم قومك انك منكر لما قال ، وانك كاره له . قال الوليد : فما أقول فيه ؟ قالوا : نريد قولا نقوله لوفود العرب اذا هم جاءوا الموسم ، وسألونا عن محمد : ما حقيقة أمره ؟ فاذا اختلفنا فى الجواب ، وقال بعضنا : هو شاعر ، وقال آخر : كاهن ، وقال ثالث : هو مجنون ــ استدلوا من اختلافنا على بطلان قولنا من أصله ، فهلموا نتفق على رأى واحد ، ووصف واحد . فقال بعضهم اذ ذاك : نقول كلنا : انه شاعر . فقال الوليد : لا والله ، ماهو بالشاعر ، وليس احد أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، أليس قد عرضت على الشعراء شعرهم : النابغة وعبيد بن الأبرص ، وامية بن ابى الصلت ، وغيرهم ؟ فلا يشبه كلامه كلامهم . قال آخر : نسميه الكاهن . فقال الوليد : لا والله ، ما هو بكاهن ، ولا سيما أن الكاهن يصدق تارة ويكذب أخرى ، ومحمد لا يكذب قط . قالوا : هو مجنون . فقال الوليد : المجنون يخيف الناس ، وما يخيف محمد احدا قط . فلما سمعوا هذا منه سكتوا . فقال له الوليد : فدعنى حتى أفكر فيه . فقال له ابو جهل عند ذلك : والله لا يرضى قومك حتى تقول أنت فيه قولك .

وكان من حق الوليد فى هذا الموقف انيكون ثابت القدم ، جرىء النفس ، قوى الارادة ، مؤثرا للحق على الباطل ، والثواب الباقى على العرض الزائل : فيعترف بلسانه بما اعترف به فى وجدانه ، ويشهد أن القرآن حق ، ودعوى محمد صلى الله عليه وسلم صدق . لكنه غلب عليه الجحود والعناد ، فأعلن كفره الصريح فى ذلك الناد ، وأشار الى القوم أنه سيرى لهم بشأن محمد رأيا ينقذهم به من حيرتهم ، ويهديهم الى صالح امرهم . فاشرأبت اليه عند ذاك الأعناق ، وسمرت فى وجهه الحماليق والأحداق .

وقد وصف الوحى عجر الوليد وبجره ــ فى تلك المديدة التى كان يفكر فيها ــ وصفا استوعب فيه جميع الحالات الجسمية ، والانفعالات النفسية التى تبدو عادة على كل من كلف تكليف الوليد ، وكان فى مثل منصبه . والكلام عنه مسوق للسخرية به ، والتعجيب من غفلته ، وقصور نظره ، على حد ما قيل فى مثله :

فان قيل : كم خمس وخمس لارتأى
ولظل ليلته يعد ويحسب
خمس وخمس ستة أو سبعة
قولان قالهما الخليل وثعلب

فان تعالى : (**انه**) أى الوليد حين طلب منه ان ياتى بوصف ينطبق عليه صلى الله عليه وسلم (**فكر**) لجعل يقلب وجوه الرأى فى استحضار الأوصاف والألقاب المختلفة ، (**وقدر**) أى وجعل يعمل رويته فى الترتيب والتصنيف بين تلك الألقاب واختيار الأنسب والأليق منها . ثم قاطعه الوحى معجبا من امره ، ناعيا سوء فعله ، داعيا عليه بما يشبه الاستعظام له والتفخيم ، وهو انما يريد الاستهزاء به والتبكيت ، فقال : (**فقتل كيف قدر**) أى قبحه الله

ما أشد هوسه فى أمر ذلك التقدير الذى اجتهد ان يقدره ! وفى استنباط اللقب الذى كان يحاول ان يستنبطه ! وبلغاء العرب اذا قالوا قولا فى امر ، او حكموا حكما على شخص ، وتوقعوا انكار المخاطب لما قالوا ، او استبعاده للحكم الذى حكموا — عادوا فكرروا قولهم مؤكدين مؤيدين ، ويصدرونه بحرف العطف (ثم) ، كأنهم يقولون للمنكر : مهما استغرقت من زمن فى الانكار والرد فان قولنا أو حكمنا هو الحق الذى لا ريب فيه ، فيقول شاعرهم فى اظهار حبه لمحبوبته مثلا : «الا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى»: توقع فى قوله « الا يا اسلمى » الأول الانكار عليه ، وان المنكر سوف يطيل فى لومه وعذله ، فقال : (ثم) أى بعد كل ما تقوله ايها المنكر وتسرده من كلمات اللوم والعذل أعود الى قولى الأول ، وادعو لمحبوبتى بقولى لها « اسلمى » ، وهكذا المعنى فى قوله فى المرة الثالثة : « ثمت اسلمى » .

والكتاب المنزل انما يورد خطابه موارد العرب فى خطابهم ، ويتصرف فيه تصرفهم فى مناحى تراكيبهم . فهو بعد أن دعا على الوليد لما اقترف من بشاعة التفكير والتقدير — عاد فكرر دعاءه عليه مؤكدا قاطعا على المنكر انكاره فقال : **(ثم قتل كيف قدر)** .

تركنا الوليد يفكر ويقدر ، ولنرجع اليه لنرى ماذا فعل بعد . قال تعالى : **(ثم نظر)** أى بعد أن فكر وقدر ، وظفر باللقب الذى ظنه فى زعمه أشد انطباقا على النبى من غيره — رفع بصره الى القوم المحتشدين فى النادى وجعل يدير نظره فى وجوههم . وكان نظره اليهم اولا نظرا هادئا لا عبوس معه ولا كلوح ، وانما كل ما أراد — أن يشعرهم بأنه أصاب المحز ، ووقع على الضالة المنشودة ... حتى اذا استجمع القوم ما انتشر من نفوسهم ، ورآهم قد تهيئوا لسماع كلامه — عبس وقطب حاجبيه محاولا فى ذلك استهواءهم والتأثير فيهم ، كما يفعل المنوم تنويما مغنطيسيا فى هذه الأيام . وهذا معنى قوله : **(ثم عبس وبسر)** : أى قطب حاجبيه أشد التقطيب متهيئا للكلام واعطاء الحكم القطعى .

ولما كان رأيه الذى سيبديه للقوم ، والوصف الذى اختاره له صلى الله عليه وسلم — ناشئا عن محض كبر ، وغمط للحق ، واعراض عن الايمان — عبر الكتاب عن رأيه هذا بأنه ادبار واستكبار ، فقال : **(ثم ادبر واستكبر)** ، أى ثم أبدى للقوم رأيه فيما يجب أن يلقب به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك الرأى محض ادبار ، وتول عن الحق واستكبار ، ولم يكن فيه أثر مما شعر به فى قلبه من حلاوة القرآن وطلاوته ، وقوله فيه : « انه ليس بشعر ولا بسحر ولا جنون ان هو الا كلام الله » . عرف كل هذا واقر به أولا ، حتى اذا شهد النادى ، واحتف به القوم — جحد وأنكر ، وادبر واستكبر ، فضل بذلك واضل ، واستكان لوسوسة الشيطان وزل .

والمدة التى فكر فيها الوليد وقدر ، ثم أبدى هذا الرأى المنكر — لم تكن طويلة حتى يعبر عن كل فترة من فتراتها بثم التى تفيد البعد والتراخى ، لكن القوم لما كانوا فى شوق شديد الى معرفة ما كان يقدره الوليد ويدبره من المكايد — كانت المدة بالنسبة اليهم طويلة ، فكان بين تفكيره وتقديره ، وبين نظره الى وجوههم وبين عبوسه وبسوره وبين تصريحه بما صرح به أخيرا من القول الدال على ادباره واستكباره — فترات طويلة فى نفوسهم بحيث يصح التعبير عنها بثم .

ثم فسر الوحى تلك الكلمة التى قالها الوليد للقوم ، واللقب الذى عرضه عليهم فكان به مدبرا مستكبرا — بقوله : **(فقال ان هذا)** أى ما هذا القول الذى يقوله محمد **(الا سحر يؤثر)** أى يروى مثله عن الأشوريين والبابليين ، وقدماء الهنود والمصريين ، أما رأيتموه يفرق به بين الرجل وأهله ، والوالد وولده ، والسيد وعبده ؟ ؟

ثم اكد رأيه بأنه سحر معروف فى الأمم القديمة وليس من كلام الله بقوله : **(ان هذا)** ، أى ما هذا القول **(الا قول البشر)** ، أى مثل قول البشر الذين عاشوا فى القرون الماضية ، ومارسوا السحر فى الأمم الخالية . وانظر كيف قال : (فقال ان هذا الا سحر) ولم يقل (ثم قال) — لأن قوله تفسير وبيان لادباره واستكباره المتجليين فى رأيه القائل ، فكان المقام للفاء المفسرة من دون تراخ . وكذلك قوله : (ان هذا الا قول البشر) أتى به من دون عاطف لكونه بيانا وتوكيدا .

وسياق الآيات فى استنكار قول الوليد ، واستبشاع رأيه فى اختيار ما اختاره من تلقيبه صلى الله عليه وسلم بالساحر مع ظهور كذب ذلك — يشبه قولهم فى عبارتهم المشهورة « سكت دهرا ونطق كفرا » ؛ فان الوليد أطال التفكير والتقدير ، وتفنن ما شاء فى التخيل والتصوير ، ثم لم يات فى آخر الأمر الا بالرأى الفطير ، والقول التافه الحقير . ومع هذا فان القوم المحتشدين فى النادى هتفوا له منذ سمعوا قوله ، فارتج النادى بهتافهم ، ثم تفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين من دهائه ووفور عقله ! !

قوله : **(سأصليه سقر)** لما ادمجه فى قوله : (سأرهقه صعودا) كما مرت الاشارة اليه . و (سقر) اسم من أسماء جهنم ، وهو من « سقرته الشمس » اذا لوحته ، وآلمت دماغه بحرها . و « السقرة » شدة وقع الشمس . و « الساقور » الحديدة تحمى ويكوى بها الحمار . و « اصلاؤه سقر » تعريضه لنارها ، وجعله يقاسى حرها ، والضمير يرجع الى الوليد .

وقوله : **(وما أدراك ما سقر !!)** استفهام يراد به التعجيب من هول سقر ، وأنه مهما فكر المفكر فيها لايمكنه أن يقرف من أمرها سوى ما عرفه به الوحى ، ومن ذلك أنها **(لاتبقى)** على شىء يلقى فيها الا أهلكته ، **(ولا تذر)** أى لاتدع احدا من الفجار يحاول الهرب منها الا ناشته واحتجنته .

وقوله : **(لواحة للبشر)** مؤكد لما يفهم من كلمة

أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

(سقر) ، وهو تلويح الجسم وتغييره الى سواد ، فلواحة اى مغيرة للون الجسم : فعالة من « لاحته الشمس » . ويقال فى الأكثر « لوحته الشمس » .

(والبشر) جمع بشرة ، وهى ظاهر جلد الانسان، وليس المراد به الناس الذى يكنى بهم آدم فيقال : « آدم ابو البشر » وان كان هذا المعنى هو المبادر من اللفظ . فالمعنى ان دار العذاب المسماة سقر تلفح وجوه المذنبين بها ، وتسفع جلودهم ، وتغير لون ابشارهم الى السواد من شدة ما ينزل بهم من العذاب .

ولعل السر فى قوله (لواحة للبشر) مع قوله (لا تبقي ولا تذر) الاشارة الى ان اخف حالات العذاب فى سقر لا يطاق ولا يحتمل . ومن يطيق ان يعرض جسمه على النار فيصلى حرها الى حد ان تسود بشرته ، وتمجل (١) من لذعها جلدته ؟ ؟ لا يطيق هذا احد ، فكيف به اذا عرض على سقر فى اشد احوالها ، وافظع اهوالها ؟ وهو المعبر عنه بقوله (لا تبقي ولا تذر) .

وقد فسر بعضهم (لواحة للبشر) بانها تحرق الجلود حرقا . وذهب آخرون الى ان تفسير (لواحة) بمغيرة ومسودة ومحرقة لا يتسق مع قوله قبله (لا تبقي ولا تذر) المفيد انها تهلكه اهلاكا وتمحقه محقا ، وقال ان معنى (لواحة) : لامعة ، يريد ان سقر لشدة فورانها ، وانفجار نيرانها ورميها بشرر كانه القصر ، أو الجمالات الصفر — تلوح وتظهر لانظار البشر من مسافات بعيدة ، ويكون المراد بالبشر فى الآية بنى آدم ، فهى لامعة لهم ، بارزة الى انظارهم : يرونها من غير استشراف ولا مد اعناق . فلواحة فعالة من « لاح البرق » اذا اومض ولمع . ويقولون « لوح اليه بثوبه » اذا رفع الثوب وحركه ليراه من بعد فيقبل عليه ، وهذا كما اذا أردت ان تصف بركانا عظيما ، يقذف نيرانه وحممه بشدة وعنف الى عنان السماء بحيث يرى من مسافات بعيدة — فتقول مثلا : « بركان لواح ، ترى مقذوفاته من سائر النواح » .

ثم ذكر الوحى من صفات تلك الدار ان (**عليها تسعة عشر**) وهم خزنتها الموكلون بامرها على مايعلم الله من حقيقة ذلك وسره ، كما يعلم سبحانه الحكمة فى كونهم (تسعة عشر) ، لا اقل ولا اكثر . وسيأتي فى صريح الوحى ان اولئك الخزنة من جنس الملائكة، ولكن (التسعة عشر) المذكورين هنا : هل هم تسعة عشر شخصا من الخزنة أو صنفا أو صفا أو نقيبا او زعيما ؟ الله أعلم بجميع ذلك . ولم يكلفنا البحث فيه ، بل اشار الى تعذر معرفته ، وأنه مما لاطاقة للخلق بادراكه مذ قال تعالى . (وما ادراك ما سقر؛) ولا سيما اذا كان المقصود بالخطاب فى (ما ادراك ؟) صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فيكون غيره اولى واجدر بعدم معرفته . وكل ما علينا اعتقاده هو ان تلك الدار ذات الاهوال المذكورة فى الكتاب حق ، وانها ستكون مأوى للفجار الذين كفروا بالله وجحدوا الحق فى هذه الديار .

ولما ذكر الوحى فى صفة النار أن (عليها تسعة عشر) فتح باب الجدل للمكابرين المشككين : كأبي جهل واحزابه ، فجعلوا يقولون : ما هؤلاء التسعة عشر ؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ولم يجعلوا عشرين ؟ اما لرب محمد اعوان الا تسعة عشر ؟ بل ذهبوا فى الاستهزاء بالوحى الى ابعد من هذا ، فقال ابو جهل لقريش : « ثكلتكم امهاتكم . ايعجز كل عشرة منكم ان يبطشوا بواحد من هؤلاء الخزنة التسعة عشر ؟ » فقال احدهم — وهو ابو الأشد بن اسيد الجمحى ، وكان مشهورا بالقوة والبطش — : « أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفونى انتم اثنين فقط » .

وهكذا كانوا يشاغبونه صلى الله عليه وسلم ، ويستهزئون بالوحى المنزل عليه ، ويصرفون قلوب العرب عن الاهتداء به ، واخذ العبرة منه . والنبى صلى الله عليه وسلم ثابت القلب ، مطمئن النفس ، واثق بوعد الله انه ناصره ومظهر دينه ، فكان يجيبهم من دون امتعاض ولا ارتباك بما يأمره ربه ان يقول لهم ، فاتى ابا جهل واخذ بيده فى بطحاء مكة وخوفه قائلا : (اولى لك فاولى . ثم اولى لك فاولى) ، أى يوشك أن يحل بك العقاب الالهى ، فاحذر لنفسك . فاجابه ابو جهل : « والله لاتقدر انت ولا ربك ان تفعلا بى شيئا » ، ثم مالبث أن اخذه الله بالنكال فى وقعة بدر .

وقد نزلت هذه الآيات فى صدد الرد عليهم ، وتوبيخهم على ما كان من استهزائهم ، فقال تعالى : (**وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة**) ، اى أن خزنة النار ليسوا بشرا مثلكم ايها الجاحدون ، فتصاولوهم وتقووا عليهم ، انما هم ملائكة ذوو ايد وقوة فوق قوة البشر ، فاسألوا عنها ان شئتم قوم عاد وثمود وأهل سدوم وعموراء ، فهم يخبرونكم انهم لقوا من تلك القوة ما لا قبل لهم به ، فخربت ديارهم ، وعفت آثارهم ، وكذلك هى فى جهنم ان حللتموها تطبق عليكم ، وتأخذ باكظامكم وتشبعكم عذابا ونكالا ، فلا تسألوا عن عدة هذه القوة واشكالها فليست العبرة بالعدد ، ولا تخلطوا الجد باللعب ، وتصرفوا قلوب الناس عن استماع الوحي والانتفاع بهديه .

(١) مجلت يده كنصر وفرح : نفطت وقرحت وتكون بين جلدها ولحمها ماء .

ثم عجب الوحي من حال أولئك المكذبين المستهزئين الذين لم ياخذوا من آيات القرآن عبرة وعظة ، ولم يخافوا مما خوفهم به من سقر واهوالها ، وانما كان مكان العبرة فتنة لهم ، وضلال عن الحق ، واشتغال بما لا فائدة لهم به من ظاهر القول ، فتعلقوا بكلمة (تسعة عشر) ، وتساءلوا عن هذه العدة وسببها وحكمتها : مما لو اريدوا على فهمه وتعقله ــ وهو من شئون العالم الآخروى ــ لعسر عليهم تعقله ، بل لازدادوا اشكالا ، واوغلوا بعدا عن التصديق وضلالا ، وهذا معنى قوله تعالى : **(وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا)** .

(عدتهم) ، أى عدة خزنة سقر فى قولنا عنهم انهم (تسعة عشر) ، و (فتنة) يعنى ضلالا وميلا واعراضا عن الحق . وليس المراد انه تعالى اوحى الى نبيه بذلك ليفتتن الكافرون به ، وانما كانت نتيجة الوحي بالنسبة اليهم ضلالا وكفرا بالنظر الى عنادهم فى باطلهم ، وجمودهم على ما ورثوه من تقاليد آبائهم . اما النتيجة والعاقبة بالنسبة الى غير الكافرين ــ وهم المؤمنون به عليه الصلاة والسلام ، والى أهل الكتاب الذين شموا رائحة الوحي ولهم عهد بالكتب المنزلة وأساليب الخطاب الالهى فيها ــ فان الفريقين استفادوا من الآيات المذكورة : فالذين اوتوا الكتاب « استيقنوا بها » ، اى ايقنوا صحتها ، لورود نظائر لها فى كتبهم المقدسة ، فكم فى هذه الكتب من اخبار عن العالم الآخروى ، وعالم الغيب ، وحوادث المستقبل ، ارسل فيها القول ارسالا ، واودعت من الاغراب فى الوصف والايغال فى التمثيل ضروبا وأشكالا .

ويكفى فى الاستشهاد على ذلك ما جاء فى « رؤى دانيال » من أسفار العهد القديم ، و « رؤيا يوحنا » من أسفار العهد الجديد .

وقد قال المفسرون من علماء اهل الكتاب : « انه وان يكن يوجد فى سفر دانيال حوادث غير اعتيادية فليس هذا بمستغرب لانه يعم الكتاب المقدس تقريبا » ، وقالوا فى رؤيا يوحنا : « ان معناها عويص وهي مشحونة بمسائل محيرة لا يمكن حلها قبل تتمة الف السنة ، بل ان مسألة الف السنة نفسها من جملة تلك المسائل المحيرة ، ولا يمكن أن نفهم هذه المسائل قبل وقوعها » .

وقالوا ايضا : ان كل ما جاء فى هذين السفرين من قبيل الرمز « وهو ان يشار بكلام حرفى الى معنى روحى ، والرمز كثير الوقوع فى جميع الكتابات الشرقية ولا سيما الكتاب المقدس » .

فمثال ما جاء فيه من الرمز بالأعداد الى معان غيبية أو مستقبلة « حيوانات حزقيال الاربعة التى لكل منها اربعة اوجه واربعة اجنحة واربعة جوانب » ، وملائكة رؤيا يوحنا « كانت سبعة وفى أيديهن سبع جامات وسبع ضربات » ، اما عدد اجنحتها « فكان ستا مرتبة أزواجا : فكانوا بزوج يغطون وجوههم ، لأنهم غير مستحقين ان ينظروا الى وجه الرب ، وبزوج يغطون رجليهم لأنه تعالى أجل من أن ينظر اليهما ، وبزوج يطيرون لقضاء مشيئة الههم » ، و « كان للتنين الذى رآه سبعة رءوس وسبعة تيجان وعشرة قرون » ، وهذا كالحيوان فى رؤيا دانيال « فان له عشرة قرون أيضا » .

فذكر هذه الأعداد من قبيل الرموز والأسرار ، وقد فسروا السر بقولهم « انه حقيقة روحية لايصل الانسان الى معرفتها بمجرد ذهنه ، ولا يفهمها تماما فى هذه الدنيا ، وتسمى بعض التعاليم أسرارا لما فيها من الابهام والصعوبة على الفهم » . قالوا : « ومن الأسرار غير المفهومة ما جاء فى رؤيا يوحنا من ذكر الكواكب السبعة ، والمنائر السبعة ، والمرأة المتسربلة بالقرمز » .

وقالوا ايضا فى وصف صعوبة فهم احوال عالم الغيب : « انه قد يكون فى الفردوس امور فوق افكار البشر بحيث لاتوجد لغة قادرة على أن تعبر عنها ، واذا كنا نحن معشر البشر فى دنيانا هذه لا يمكننا التعبير عن افكارنا العادية حينما تكون حاسياتنا شديدة الانفعال ، فكم بالحرى اذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزلى ، ووصف الأرواح المجردة عن المادة ، ووصف مختلف أطوارها » .

فقد تبين من هذا أن فى كتب اهل الكتاب رموزا وأسرارا عن شئون عالم الغيب يقصر الفهم دون ادراكها وتعقلها ، وان علماءهم معترفون بوجود هذه الأسرار ، وبأن لها معانى صحيحة منها ما يفهمه الراسخون فى العلم ومنها ما لا يفهمونه الا بعد وقوعه فى المستقبل أو فى العالم الأخروى . فلا بدع اذا لم يستغرب أهل الكتاب فى زمن نزول القرآن ما قاله تعالى من أن عدد خزنة سقر تسعة عشر ، كما استغرب المشركون الأصناميون ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : **(ليستيقن الذين أوتوا الكتاب)** .

ويحتمل ان يكون المراد من كونهم يستيقنون انهم يستدلون من مقاومة المشركين له صلى الله عليه وسلم ، وتألبهم عليه فى التكذيب والمشاغبة طورا ، والسخرية والاستهزاء تارة أخرى ــ أنه نبى كأنبيائهم ، مذ يرون حاله مع أولئك المشركين ، وصبره على اذاهم ، وثباته فى تبليغ أمر ربه ــ كحال أولئك الأنبياء وصبرهم وثباتهم ، فيستيقنون ويصدقون بصحة نبوته .

أما المؤمنون الخلص فان ورود الوحي بأن خزنة سقر تسعة عشر ــ لا يحيك فى نفوسهم أثرا من شبهة سوى ازدياد الايمان بالله ، والتصديق بوحيه ، وان خفيت عليهم الحكمة فيه ، ولا سيما حين يرون موافقة أهل الكتاب عليه ، واعترافهم بأن فى كتبهم مثله . وهذا معنى قوله تعالى : **(ويزداد الذين آمنوا ايمانا)** .

ويروى ان الصحابة لما سمعوا المشركين يقولون : « لايعجز كل عشرة منا أن يبطشوا بواحد من أولئك

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ

التسعة عشر » ـ قالوا لهم مستهزئين : « ويحكم ! اتقاس الملائكة بالحدادين ؟ » ، ومرادهم بالحدادين السجانون الذين يضعون الحديد فى ايدى المسجونين . وقد ذهب قولهم هذا مثلا فيقال : « لاتقاس الملائكة بالحدادين » فى التفرقة بين اثنين احدهما طيب والثانى خبيث .

ثم ان استيقان اهل الكتاب وازدياد المؤمنين ايمانا ـ يفهم منه بالضرورة ، بل يلزم منه عدم ارتياب الفريقين جميعا . ومع هذا فقد اكد الوحى استيقان الأولين وازدياد ايمان الآخرين بالتصريح بذلك اللازم : أعنى عدم الارتياب ونفيه عن الفريقين معا فقال : **(ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون)** ، اى انهم يستيقنون ويزدادون ايمانا ولا يرتابون ، كما تقول لآخر : « انى أبغضك ولا يحبك قلبى » ، فان اثبات البغض يستلزم نفى الحب . لكن العرب فى اساليب تخاطبهم اعتادوا التصريح بذلك اللازم تأكيدا للكلام ، وتقوية للحكم . على أن فى اعادته فى الآية تعريضا بأولئك الكافرين المشاغبين الذين اصبح دأبهم الارتياب بالوحى ، وتشكيك الضعفاء فيه .

وكذلك قوله تعالى : **(وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون الخ)** . فان قولهم هذا انما هو أثر من افتتانهم ، ولازم من لوازمه ، ولكنه ذكره ليصف من ذلك الافتتان ، ويروى شيئا من أقوالهم ، وليضيف الى الكافرين صنفا منهم ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، ويعنى بهم المنافقين . وفى ذلك من التفنن فى التعبير ، وزيادة التقريع والتعيير ـ مافيه ، كأنه يقول : كان من نتيجة ذكرنا لعدة الخزنة افتتان أولئك الكافرين وضلالهم ، وقولهم ـ ولا سيما المنافقين منهم ـ : **(ماذا أراد الله بهذا مثلا)** .

و (هذا) اشارة الى « تسعة عشر » فى عدة خزنة سقر ، (المثل) : القول السائر فى الناس ، المتداول على ألسنتهم ، ولا يكون الا فى أمر ذى شأن وخطر ووصف مستغرب . فالمشركون الذين سمعوا الوحى يخبر ان خزنة سقر تسعة عشر ـ تعجبوا منه واستغربوه ، وعدوه فى جملة ما يصح ان يسير مثلا بين الناس ، فقالوا : (ماذا اراد الله الخ) اى ماذا اراد بهذا القول الذى هو مثل فى الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر ، وخزنتها التسعة عشر ؟

قوله (كذلك) اشارة الى ماذكر قبل من الأمرين : افتتان الكافرين والمنافقين وارتيابهم بالوحى ، واستيقان الكتابيين والمسلمين وازديادهم ايمانا به . ولا ريب أن الأولين كانوا من فتنتهم وارتيابهم على ضلال ، وان الآخرين كانوا من استيقانهم وزيادة ايمانهم على هدى . والله تعالى يضل من يشاء من الخلق ويهدى من يشاء منهم : مثل الاضلال والهداية اللذين كانا من نصيب الفريقين المذكورين .

وليس معنى اضلال الله فريقا وهدايته فريقا : انه تعالى يجبر كل فريق منهما على تناول نصيبه من الضلالة والهدى ، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك اى السبيلين شاء من سبيلى الخير والشر ـ كلا . فان هذا الاكراه مناف للعدل الالهى بل مناف لحكمة التشريع السماوى ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية فى دلالتها على معناها : من أن العبد له ارادة واختيار هم مناط التكليف والمؤاخذة ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك النصوص ... سأل سائل عليا عليه السلام فقال : « اكان مسيرك الى الشام ـ يعنى لقتال اهلها ـ بقضاء الله وقدره ؟ » فقال له : « ويحك ! لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرا حاتما ، ولو كان ذلك كذلك ، لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . ان الله سبحانه امر عباده تخييرا ، ونهاهم تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ـ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » ا هـ .

وحضر « الواسطى » بعض الأربطة ـ جمع رباط للصوفية ـ فسمع من غنى بقول العباس بن الأحنف :

فأكثروا أو أقلوا من اساءتكم
فكل ذلك محمول على القدر

فجن واستغاث وشق الجيب وحولق واستغفر وقال : « يا قوم ، أما ترون الى العباس بن الأحنف لا يكفيه أن يجن .. حتى يكفر ، متى كانت الفضائح والذنوب والعيوب محمولة على القدر ؟ ومتى قدر الله هذه الأشياء وقد نهى عنها ؟ ولو قدرها كان قد رضى بها ، ولو رضى بها ما عاقب عليها ، ولو قدرها على عبده وعاقب عليها ، كان من الظلم الذى يقبح بالمخلوق ، فكيف بالخالق ؟ انا لله ، لعن الله الغزل اذا شبب المجانة ، ولعن المجانة اذا قرنت بما يقدح فى الديانة » .

وما زال يقول هذا وأشباهه حتى رد عليه ابو صالح الهاشمى فقال : « هون عليك يا شيخ ، فليس هذا كله على ما تظن ، القدر يأتى على كل شىء ، ويتعلق بكل شىء ، ويجرى على كل شىء ، وبكل شىء ، وهو سر الله المكتوم ، والعلم الذى يحيط بكل شىء ، وكل ما جاز أن يحيط به علم جاز أن يجرى به قدر ، واذا جاز هذا جاز أن ينشأ عنه خبر ، وما هذا التحارج والتضايق والشاعر يهزل ويجد ، ويقرب ويبعد ، ويصيب ويخطىء ، ولا يؤاخذ به الرجل الديان ، والعالم ذو البيان » اهـ .

اما النصوص التى يشبه ظاهرها ان يكون العبد مكرها لا اختيار له ، وتقول انه تعالى هو الذى يضل ويهدى – فمعناها انه تعالى يشرع امام البشر السبيلين: سبيلى الخير والشر ، ويرفع الى ابصارهم النجدين : نجدى الهدى والضلال ، ولكل فريق منهم ان يختار لنفسه مايوافق استعداده وتجره اليه ارادته وتربيته ومزاجه ووراثته وعوامل المحيط الذى يعيش فيه . وهذا الذى يختاره لنفسه منجذبا اليه بالجواذب المذكورة لا يقع الا منطبقا على ما فى علم الله وارادته ولوح تقديراته ، فلا يمكن ان يختار العبد لنفسه مالا يكون ثابتا فى العلم الازلى القديم ، وثبوت ذلك فيه لا ينفى عن العبد صفة الاختيار ولا يسلبه حرية الارادة ، لأن صفة العلم ليست سوى صفة تنكشف بها المعلومات لله تعالى ، فهى لا جبر فيها ولا اكراه . وقد ذكر ابن القيم فى كتاب « القضاء والقدر » نقلا عن الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه انه قال : « القدر علم الله » .

ولما كان مشرع السبيلين : سبيلى الخير والشر ، ورافع النجدين : نجدى الهدى والضلالة – هو الله سبحانه وتعالى ، قيل فى بعض النصوص : انه هو الذى يضل هذا ويهدى ذاك ، وهو الذى قضى وقدر على زيد بأن يعمل الخير فيكون من أهل السعادة ، وقضى وقدر على عمرو بأن يعمل الشر فيكون من أهل الشقاوة . وقضاؤه تعالى وقدره فينا خفيان عنا معشر البشر ، وانما يظهران لنا ، ويقعان تحت اعيننا ، ماثلين فى سننه الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التى بثها فى جنبات هذا العالم ، وركب بناءه عليها : فكل شخص أو امة تراعى سننه ونواميسه الحكيمة العادلة – ينساق او تنساق الى بحابح السعادة والخير ، وكل شخص او امة تدابر تلك السنن والنواميس ، وتهمل العمل بها – ينساق أو تنساق الى مواطن التعاسة والشر .

فهذه السنن والنواميس البارزة لنا هى مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هى لعمرى المرايا الصقيلة التى ينعكس عنها الى ابصارنا ما فى اللوح السماوى من حكم الله وارادته ومشيئته فى تدبير هذه الكائنات وفى سعادة البشر وشقاوتهم .

وقد قرر القرآن هذا الأصل المحكم فى مصير الأفراد والأمم فى غير ما سورة وآية من سوره وآياته . قال تعالى فى سورة الأنفال : (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين) ، وفى سورة الأحزاب (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، وفى سورة فاطر : (فهل ينظرون الا سنة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وآيات اخرى بهذا المعنى فى الفتح والاسراء والمؤمن والحجر وآل عمران والنساء .

ويظهر من سياق هذه الآيات واطلاق القول فيها ان تلك السنن محكمة لا تنسخ ، مطردة لا تتخلف ، عادلة لا تحابى ، صارمة لا تقبل شفاعة : فمن اتقاها وراعاها من اى قبيل كان ، ومن اى بلاد كان ، ومن اى دين كان – سعد وفاز . ومن استخف بها ، وأعرض عنها – شقى وخاب .

فاذا لاحظنا هذا ، ولاحظنا الآيات الناطقة بأن الايمان وحده هو مناط السعادة ، وأن الكفر وحده هو مناط الشقاوة – حكمنا بان بين هذه السنن وبين الايمان والكفر علاقة متينة ورحما ماسة ، وأن اتقاء هذه السنن ومراعاتها شعبة من شعب الايمان ، وأن الاستخفاف بها والاعراض عنها شعبة من شعب الكفر .

وهذا الموضوع لا يحتمل كلاما بأكثر مما تكلمنا ، وسر القضاء والقدر لا ينبغى الاشارة اليه بأكثر مما أشرنا . والسعيد من وفق فنظر فى ملكوت السموات والأرض فاتعظ وازدجر ، وتصفح احوال الشعوب والأمم كما أمره الله فقاس واستنتج واعتبر .

على ان المقام ربما وسع كلمة نحب الا تفوتنا عملا بما امرنا به القرآن من النظر فى الأمم وحالاتها ، ثم الاعتبار ببداياتها ونهاياتها ، فنقول :

أشرنا فى أطواء كلامنا السابق الى أن البشر قد تجذبهم الى سعادتهم او شقاوتهم « جواذب » ، وان شئت سميتها «عوامل» : من مثل الملة التى يمارسون شعائرها واحكامها ، والحكومة التى تسيطر عليهم ، والعائلة التى تربى أطفالهم ، والمدرسة التى تعلم ابناءهم ، والمحفل او النادى الذى يحتشدون فيه للحديث أو السمر او اللهو او البيع والشراء او مختلف الاعمال والمصالح – فالمراد من المحفل او النادى ما يريده علماء التربية بقولهم « جماعة الأصدقاء والمعاشرين » – والوراثة التى تنقل الى ابدانهم دم آبائهم ومزاجهم وتكوينهم الجسمانى ، كما تنقل الى نفوسهم طباع اولئك الآباء وغرائزهم واخلاقهم وتكوينهم الروحانى ، والاقليم الذى يشربون ماءه ، ويستنشقون هواءه ، ويذوقون حره وبرده ، ويقتاتون بمحصولاته . وهذا المؤثر يسميه علماء علم النفس « البيئة الجغرافية » ، ويسمون العوامل الأخرى « البيئة الاجتماعية » .

هذه « الجواذب » او « العوامل » هى التى تعمل فى تكوين الأمم ، وهى التى تعرف بها حالتها الاجتماعية ، ودرجتها فى سلم المدنية : فان صلحت تلك العوامل واستقامت ، صلحت الأمم واستقامت فى أفرادها وجماعاتها ، اذ ليست الجماعات الا فردا متكررا ، وان ساءت وفسدت ساءت أحوال الأمم ، وانحط شأنها ، وتقهقر عمرانها .

هذه الجواذب هى التى تجتذب البشر الى ملابسة الخير او مواقعة الشر ، وتقودهم من أيديهم الى مواطن السعادة ، أو مواطن الشقاوة ، وهى التى نستدل بها ، ونمشى على أثرها فى معرفة ما هو قضاء الله وقدره فى هذه الأمة ، أو تلك الأمة .

فمهما رأينا من كمال تلك العوامل وسدادها ، وثبات أمرها ، وحسن نظامها – فهناك فوز الأمة

وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣)

وفلاحها ، وتجلى حكم القضاء والقدر فيها . ومهما راينا من نقص « العوامل » وخطلها ، واضطراب امرها ، وقبح نظامها — فهناك هلاك الأمة ودمارها ، وحكم القضاء والقدر فيها .

هذه العوامل هى التى يعنى بها الأنبياء والحكماء والمشرعون والعلماء الاجتماعيون ، فيجتهدون فى اصلاحها ، وتقويم أودها ، حبا فى اصلاح اممهم ، وترقية شان شعوبهم . ولم يأل الدين الاسلامى فى النصح لابنائه بوجوب توفيرها وتنقيتها من الشوائب ، كى تبقى صالحة لسعادتهم فى دنياهم ، ونجاتهم فى اخراهم .

قد يقال : اذا كانت هذه العوامل هى مظهر قضاء الله وقدره فى البشر ، وعلى سلمها ينزلهم ربهم ويصعدهم ، ويشقيهم ويسعدهم .. فانى لنا الوصول اليها بالاصلاح والترميم ، والتغيير والتبديل ؟ وهل هذا الا افتئات على القدر ، وتداخل فى وظيفته ؟

والجواب على هذا آيات القرآن نفسها ، فانها انما امرتنا بالنظر فى احوال الأمم والاعتبار بما جرى ، لنتمسك بما كان سببا فى نجاتها وسعادتها ، لنتجنب ما كان سببا فى هلاكها وشقاوتها . ونحن فى كلتا الحالتين بالغون ما قضاه الله وقدره فينا « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وهذه الأمم المعاصرة لنا — معشر المسلمين — ارتفعت وعزت وغلبت بما كان من عنايتها بامر العوامل المذكورة . فليس الدين لديها اليوم ، ولا طرز الحكومة ، ولا نظام العائلة ، ولا نظام قوانين المدرسة والتربية العامة وسائر مقومات الاجتماع — كما كانت عليه فى عصورها الوسطى .

تقول : والاقليم والوراثة كيف يكون اصلاحهما ؟ فاما اصلاح « الاقليم » فيكون بتجفيف المستنقعات ، وغرس الأشجار ، وانشاء الغابات والحراج ، وحفر الترع ، وجر المياه النقية للشرب .

واما اصلاح « الوراثة » وتحسين حالة النسل والاخلاف ، فقد اخذ الغربيون فى الايام الاخيرة يعتنون به ، ويستفيدون مما يرشدهم اليه العلم الصحيح ، والتجربة القاطعة بشانه .

وهذا ، او ذاك ، او ذلك — مما يدخل تحت الطاقة ، ويستطيعه البشر . وقد اصبحت المكابرة فيه ضربا من الجهل والغباوة بعد مارأينا حسن اثره واضحا جليا فى الامم التى غلبت علينا ، واصبحت المتحكمة فينا .

وعجيب من مسلم أن يجرؤ على القول بان فى اصلاح الدين ، أو الحكومة ، اونظام العائلة ، اوطريقة التعليم والتأليف ، او سائر عوامل الحضارة والعمران — مخالفة للدين ، او تدخلا فى وظيفة القضاء والقدر ، وهذا الشارع الأعظم صلى الله عليه وسلم يجعل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ركنا من أركان الدين ، وليس هو فى الواقع ونفس الأمر الا مراقبة دائمة على الدين والمتدينين به ، فلا يتسرب اليه أو اليهم ماليس منه فى شيء فيفسد ويفسدون .

فالأمر والنهى اذن اصلاح ، والآمرون الناهون مصلحون . وكان بعض العارفين يقول : « ينبغى لأهل كل مذهب فى كل عصر ان يكون فيهم عالم كبير ينقح مذهبهم ، وذلك لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان » .

ومما يحسن ايراده هنا ان الشارع صلى الله عليه وسلم نبهنا الى تأثير ناموس الوراثة ، واشار الى أن فى اصلاحه اصلاحا للنسل والذرية مذ قال : «تخيروا لنطفكم ، فان العرق نزاع » ، يريد تزوجوا كرائم النساء ، فان أولادكم من زوجاتكم يرجعون فى طيب الأخلاق وقبحها الى أجدادهم من امهاتهم ، اما رجوعهم فى اخلاقهم الى اجدادهم من جهة آبائهم فبالطريق الأولى . وليس فوق هذا ارشاد وتعليم لنا فى أن نصلح شئوننا ، وعوامل اجتماعنا ، حتى ما يظن أنه مما لا يدخل تحت طاقتنا كمسألة الوراثة هذه . وقال أبو الأسود الدؤلى مخاطبا أولاده :

وأول احسانى اليكم تخيرى
لماجدة الأعراق باد عفافها

وبالجملة فان الدين والعلم والتجربة والمشاهدة اتفقت كلها — وان خالفها الجهل والتقليد والمكابرة — على ان سعادة الامم وشقاءها أمران ميسوران لها ، داخلان تحت طاقتها . وليس معنى أن الله يضلها ويهديها الا انه تعالى يمهد تحت مواقع ابصارها طريقى الهدى والضلال : فهى اذا اختارت لنفسها طريق الهداية اختارته وسلكته بمشيئة الله وارادته وسابق علمه ، واذا اختارت لنفسها طريق الضلال اختارته وسلكته ايضا بمشيئته تعالى وارادته وسابق علمه . وما احسن ما قاله نبينا صلى الله عليه وسلم : « ايها الناس ، انهما نجدان نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر احب اليكم من نجد الخير ؟ » ، ويشبه هذا ما قاله الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر : « ان الله اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا ؟ » .

واوضح السبل الموصلة الى سعادة الأمم هو اصلاحها دينها : فلا يكون فيه حشو او بدعة ، او تكليف مما لم يات به وحى ، ولا خبر صادق . ثم اصلاح بقية المقومات والعوامل التى قلنا انها هي التى تجذب بضبع الأمم الى مراقى الكمال والعزة والغلبة . كما ان أقرب الطرق التى تأخذ بالأمم توا الى هاوية الذلة والمسكنة والدمار والاضمحلال — هو ترك الدين محشوا بالبدع ، وبما لا يرضى الله ورسوله من

الآراء والتعاليم والأقوال البين سقطهـا ، الظـاهر غلطها . ومثل ذلك فى الضرر أن نترك كل قديم على قدمه من أوضاع حكوماتنا ، ونظام عائلاتنا ، وأصول التدريس والتأليف فى مدارسنا ومؤلفاتنا ، وسـائر مقومات اجتماعنا . وقد تبين فساد ذلك كله وعدم ايصاله الى بحابح الحياة السعيدة .. فان جميع ذلك سبل ضلال : بسطها الله تحت مواقع ابصارنا ، وبالغ فى تحذيرنا منها فى محكم كتابه . فما علينا الا التنكب عنها ، والاستعاذة به تعالى منها ، فنكون من الفائزين المهتدين ان شاء الله .

بعد ان ذكر الأصل الكلى فى أن سـعادة البشر وشقاوتهم امران مرتبطان بسلوك ما اشرعه الله لهم من طريقى الخير والشر ، وان ترجيحهم احد الطريقين مستمد من علم الله الازلى ومستند الى مشيئتـه القديمة ، وان ابا جهل ورفاقه المستهزئين بالوحى القائلين : « أما لرب محمد أعوان الا تسعة عشر ؟ » لم يكونوا من امرهم على بصيرة ، ولم يختاروا لأنفسهم الا اقبح الخصال ، ولم يسلكوا الا طريق الضلال ــ عاد الى توبيخهم على قولهم المـذكور الدال عـلى غباوتهم ، وفرط جهلهم بما يجب لله من التعظيم والتوقير والوقوف عند حدود الأدب ، وتنبيههم الى ان خزنة جهنم ان كانوا تسعة عشر فليس ذلك عن قلة فى جنود الله ، فان جنوده كثيرة لايعلمها الا هو .

و (الجنود) جمع جند ، وهم الأعوان والأنصار والعسكر . وقد يراد من الجنـد احيانا صنف من الخلق على حـدة . يقال « هذا جنـد من الخلق قد اقبلوا » أى طائفة من الخلق . وفى الحديث :«الأرواح جنود مجندة » . ومنه المثل « ان لله جنودا منهـا العسـل » . وربما كان المعنى الثانى هـو المراد فى الآية .

وبديهى أن جنود الله التى يستتب له بها السلطان الالهى فى ملكوته ، والقهر الربانى على ماخلق ويخلق فى عالمى دنياه وآخرته ــ ليست عسكرا حربيا ، ولا جنـدا بشريا ، وانما هى وسائط اجراء وتنفيـذ وتصرف مطلق : منها ما علمناه ووقفنا عليه بالجملة فى هذه الدار ، ومنها مالم نعلمه بعد ولم تكلف البحث عنه ، وهو غيب عنا ، ولكننا نؤمن به وبما ورد على لسان الشارع من احواله وشئونه على الوجه الذى يليق به ، وينطبق على حكمة خالقـه . ومن هـذه الجنود أو الوسائط الغيبية : الملائكة .

وكلنا معشر البشر نشعر فى انفسنا انامسخرون للقهر الالهى ، وخاضعون الى ما يراد منا فى هـذه الدار الدنيا . وقد اخبر الوحى الصادق أن لله جنودا جعلها وسائط فى تنفيذ مشيئته ، وتتميم ارادته فى خلقه . وقد سمى تلك الوسائط ملائكة . وكماقامت هذه الوسائط فى ايفاء وظيفتها فى هذه الدار ستقوم بمثل هذه الوظيفة فى الدار الأخرى على النحو الذى يريده الله تعالى ، ويناسب حال تلك النشأة .

ولماذا راى اولئك المستهزئون المكذبون تحـديد عدة خزنة جهنم بتسعة عشر امرا غريبا ، وهو شأن من شئون عالم آخر له سنن ونواميس خاصة به ، ولا يستغربون من عالمهم هـــذا ــ الذى خلقوا من طينته ــ احواله العجيبة ، وأطواره الغريبة ؟ وهـذه قواته المختلفة ، وعناصره المتعددة ، وما شاء الله من مواده ومعادنه ، وحيوانه ونباته ، وشموسه واقماره ، وثوابته وسياراته ــ ولكل منها عـــدد خـاص ، ونسب معينــة ، ومقادير محــدودة ، وتراكيب معلومة ــ فلا نسمعهم يسألون لمـاذا كانت البروج اثنى عشر ولم تكن اكثر او اقل ؟ ولماذا كانت حلقات زحل ثلاثا ولم تكن خمسا ؟ واقماره ثمانية ولم تكن عشرة ؟ والوان الشمس سبعـة ولم تـكن عشرين ؟ ولماذا كان الملح مركبا من عنصرين فقط اذا انحـلا وتفرقا ضرا وافسدا ، واذا اتحدا وتركبـا نفعـا واصلحا ؟ ولم يكن المقدار والخاصة على خلاف ذلك ؟ وهكذا مما لايكون السؤال عن سره الا ضربا من العنت والمماحكة ، وطمع المخلوق فيمـا كان من خصائص الخالق .

لقد غفل المشركون المستهزئون عن سر التشريع الالهى ، وذهلوا عن الحكمة فى انزال الوحى السماوى **(وما هى)** اى تلك الحكمة التى انزل القرآن من اجلها **(الا ذكرى)** وموعظة **(للبشر)** ، فيخافون ربهـم ، ويتحاجزون بينهم ، وتنتظم احوالهم ، ويسعـدون فى دنياهم واخراهم . ولم تكن الحكمة قط افهام البشر حقائق النشأة الأخرى ، وجعلهم يدركون احوالهـا وقوانينها بالكنه ، فان هذا غير مستطاع لهم ، وتعقله لايدخل تحت مقدورهم .

والضمير فى قوله (وما هى) يرجـع الى الآيات السابقة وما أشبهها مما فيه بعض الوصف لعـوالم الغيب ، أو انه يرجع الى الحكمة المفهومة للمخـاطب بمعونة المقام كما أشرنا اليـه فى حل الآية . وارجاع الضمير الى غير مذكور كثير فى القرآن وفى كلام العرب ومثله قول أبى نواس :

الا يا ابن الذين فنوا وماتوا
أما والله ما ماتوا لتبقـى
وما لك فاعلمن فيها مقـام
اذا استكملت آجالا ورزقا

أو أن الضـمير يرجـع الى الحكاية والشـان والقصــة ، وهـو مايسميه النحـاة ضمير الشان والقصة .

تقدم أن **(كلا)** كلمة ردع وزجر ، فالمعنى ليرتدع أولئك المستهزئون بالوحى ــ الذين اتخذوا من ذكر عدة خزنة سـقر سـبيلا الى انكارها ، والتشكيك فيها ــ عن فعلهم وسوء صنيعهم .

ثم اقسم بالقمر أن سقر حق ، وانهـا احدى الدواهى التى يمنى بها اولئك المكذبون . وقد تقـدم بيان الحكمة فى اقسام الله تعـالى ببعض مخلوقاته والسر فيه ، أما قسمه هنا بالقمر والليل والصبح ــ فلتنبيه الأنام الى ما فى خلقها من جميل الصنع ، وبديع الاحكام ، وما قارن ذلك من الرفق بهم وتقسيم

وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ

أوقاتهم ، وتقدير أعمالهم ، بما فيه كل الخير والنفع لهم .

وفي الآية ايماء الى أن الشمس والقمر مخلوقان لله ، وانهما في حركاتهما ، وإدبارهما واسفارهما ، ونشوء الليل والنهار عنهما — مسخران لأمره ، ساجدان بين يدى قدرته وقهره ، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ، ويكفروا بالاله الذى خلقهما ؟

وقوله **(اذ أدبر)** قرىء هكذا ، وقرىء ايضا (اذا دبر) و (اذا ادبر) ، ولا فرق بين دبر وادبر في المعنى : يقال : دبر النهار أو الصيف — اذا انصرم . ودبر فلان : ولى ، كأدبر . واستعماله من دون همز قليل سوى قولهم : « أمس الدابر » . فانه شائع .

يقسم تعالى بادبار الليل ، واقبال النهار . وهذا معنى **(والصبح اذا أسفر)** ، أى اضاء وتبلج ، وقال بعض أهل اللغة : ان من قرأ (دبر) بلا همز اراد انها من دبر الليل النهار اذا خلفه وأتى على أثره ، ودبر فلان فلانا اذا جاء خلفه ، فهو تعالى يقسم بالليل مذ يعقب النهار ، وبالنهار مذ يسفر عقب الليل .

وضمير **(انها)** يرجع الى سقر كما مرت الاشارة اليه ، وقوله **(الكبر)** جمع الكبرى مؤنث الاكبر ، وتجمع الكبرى على كبريات ايضا ، اى ان سقر المعدة للمكذبين احدى الدواهي الكبار والأمور العظام التى ما اعتادوا بعد رؤية امثالها ، فهى واحدة من بينهن لانظير لها في العظم والهول كما تقول : صاحبك فلان احد الرجال ، ولا تريد الا انه واحد من دهاتهم وشياطينهم .

وقوله : **(نذيرا للبشر)** . (نذيرا) اما ان تكون مصدرا غير قياسي لأنذر انذارا ونذيرا ، كما يقال اوعد ايعادا ووعيدا ، وأعولت المرأة أعوالاوعويلا ، وتعرب تمييزا . اى ان سقر احدى الكبر من جهة تخويفها وانذارها للبشر ، كقولهم : فلانة احدى النساء عفافا ، يريدون ان لها شأنا بينهن ورجحانا عليهن من جهة عفافها ، واما أن تكون اسم فاعل على غير قياس أيضا لأنذره فهو منذر ونذير كما يقال : آلمه العذاب فهو مؤلم واليم ، واوجعه الضرب فهو موجع ووجيع ، ويعرب (نذيرا) اذ ذاك حالا من (احدى الكبر) على إرادة معنى العذاب فيها لكى يصح مجىء (نذيرا) حالا منها ، والا وجب ان يقال : نذيرة ، بالتأنيث لكونه وصفا لاحدى الكبر المؤنث . وليس « نذير » مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، لأنه بمعنى اسم الفاعل لا بمعنى اسم المفعول . فالله تعالى يقسم بان سقرهي احدى البلايا او الدواهي العظام منذرة للبشر ، محذرة لهم نفسها ، وقوة بطشها . وروى عن الحسن البصري أنه قال : « والله ما أنذر الناس بشىء أدهى منها ولا بداهية اعظم منها » .

وبعد ان عم في كلمة (البشر) ، عاد فخص منهم أولئك الذين يهمهم شأن أنفسهم ، وينظرون في مستقبل أمرهم ، وهم موضع الخطاب ، ومحط الأمل ، فقال : **(لمن شاء منكم)** الخ .

وقوله **(لمن)** بدل من (للبشر) ، أى ان سقر منذرة لكم أيها البشر وخاصة **(لمن شاء منكم أن يتقدم)** فيكون سابقا الى الخير وممارسة الفضيلة فينجو ، **(أو يتأخر)** فيخلد الى الشر وممارسة الرذيلة فيهلك .

وجعل بعض المفسرين قوله **(لمن شاء)** الخ مستأنفا لا بدلا مما قبله ، على أن يكون بمعنى قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، وقال في اعرابه : (أن يتقدم أو يتأخر) مصدر مؤول مبتدأ ، وقوله : (لمن شاء منكم) خبره مقدم عليه . والمعنى الكم معشر البشر — بعد أن اعذر الوحى اليكم ، والقى من كلمات النصح والانذار ما ألقى عليكم — لم يبق الا ان تستعملوا عقولكم ، وتستفيدوا من المشيئة والاختيار الممنوحين لكم ، فتختاروا لأنفسكم من الخير والطاعة ماهو المأمول فيكم ، والأليق بكم . فان كلا من التقدم الى الخير ، والتأخر عن الشر — أمر ميسر لكم ، ممهد امامكم ، منوط بحسن اختياركم فان لم تتقدموا الى الخير كنتم الجانين على انفسكم .

وحمل الآية على هذا المعنى له تعلق كبير بآية (يضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء) الواقعة قبلها قريبا منها ، ومفسرة لها بالمعنى الذى قلناه في تفسيرها : من أن للانسان ارادة واختيارا وهما مناط التكليف والمؤاخذة ، وأن ما يوهم الجبر والاكراه محمول على أنه تعالى أشرع أمام البشر طريقى الخير والشر ، وان سلوك المرء في أحدهما مطابق لعلم الله الأزلى ، ومستمد من مشيئته القديمة .

ثم ان المعنيين اللذين قلناهما في هذه الآية يظهر أنهما يصلحان في آية سورة « التكوير » : (ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم) ، لكنى لم أرهم تعرضوا لغير المعنى الأول ، وهو أن يكون (لمن شاء) بدلا من (للعالمين) لا مستأنفا كما قالوا باحتماله هنا .

من أن آيات الوحي انذرت الانسان ، فما عليه اذن الا أن يفعل مايعن له ، من التقدم الى الخير او

التأخر عنه الى الشر ، وليكن على ثقة أنه اذا اختار الشر ومقارفة الاثم فليس بمعجز الله ، ولا بمفلت من أن يحاسبه على عمله ، ويأخذه بذنبه ، اذ (**كل نفس**) من نفوس البشر ارتكبت ذنبا أو اقترفت اثما ، هي (**بما كسبت**) ، أى ارتكبت واقترفت من ذلك الذنب والاثم (**رهينة**) ، أى مرهونة ومحبوسة يوم القيامة فى مقابل ذنبها حتى تعاقب عليه ، وأكثر المفسرين على أن (رهينة) ليست مؤنث رهين بمعنى مرهون ، لأن رهين هذا يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فلا حاجة الى أن يقال فى تأنيثه (رهينة) ، وانما هى مصدر . يقال : رهنه رهنا ورهينة كما يقال شتمه شتما وشتيمة ، والمصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، ثم أطلق المصدر على الشىء المرهون وثيقة لشىء آخر ، فيقال : فلان رهن أو رهينة أو مرتهن بجريرته كما يقال هو مسلم بها ومبسل بها ، وكله بمعنى أنه مأخوذ بها ولا فكاك منها . فنفوس البشر يوم القيامة مصبورة على معاقبتها والاقتصاص منها ، فتدخل دار العذاب غير مفكوكة (**الا أصحاب اليمين**) ، أى الا فريق السعداء . وقد مر أن أهل اليمين والميمنة عنوان يطلقه الشرع على السعداء كما يطلق أصحاب المشأمة والشمال على الأشقياء . فالسعداء هؤلاء فكوا رقابهم وخلصوها كما يخلص الراهن رهنه بأداء ماعليه من الحق ، وأصبحوا فى منجاة من العذاب على ذنوبهم : اما لأنهم لم يقترفوا ذنوبا يستحقون معها العذاب ، بأن كانوا من الصديقين أو الأبرار ، واما لأنهم اقترفوا من الذنوب مالم يبلغ بهم حد التعذيب عليها ، بأن تابوا منها توبة نصوحا فغفرها الله لهم ، أو عملوا من الصالحات ما أربى ثوابه على تلك الذنوب : كالاستشهاد فى سبيل الله ونصرة الحق ، فكان ذلك كفارة لها .

هؤلاء ينعمون (**فى جنات**) : مواطن كرامة وسعادة لا نظير لها ، ولذا نكرها ، ويكون من شأنهم فيها أنهم (**يتساءلون**) : يسأل بعضهم بعضا (**عن المجرمين**) المذنبين الذين يعهدونهم فى دار الدنيا قد كذبوا الوحى ، واعرضوا عن الحق ، وارتكبوا من الآثام والمناكر ما استحقوا به العذاب .

وتساؤل أصحاب اليمين عن المجرمين قد لايكون عن جهل بأمر مصيرهم ، وسوء منقلبهم ، وانما هو زيادة فى تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم ، وادخال الألم والحسرة على نفوسهم ، مذ يتذكرون أن أسباب النجاة كانت موفرة بين أيديهم فى دار الدنيا فأهملوها ، وسبل الأعمال الصالحة كانت ممهدة تحت مواقع ابصارهم فتنكبوها . على أن فى تساؤل السعداء هذا السؤال مايزيدهم التذاذا بنعيمهم ، ومسرة بما وفقوا اليه من العمل الصالح فى دار الدنيا فسعدوا ونجوا من العذاب .

فاذا تساءلوا عن حال المجرمين كما وصفنا ، أجابهم بعض المسئولين من رفاقهم السعداء بما كان سبق لهم من الحوار مع هؤلاء المجرمين المعذبين فيقولون لهم : كنا أشرفنا على المجرمين يوما وسألناهم عن حالهم ، قائلين لهم : (**ماسلككم فى سقر**) وما الذنب الذى أدخلكموها ؟ فالخطاب فى (ما سلككم) ، انما هو مستند الى سابق كلام مقدر قبله ، وقد حذف اختصارا واعتمادا على فهم المخاطب ، ومثله كثير فى القرآن ، وهو من أعجب أساليب اعجازه ، ولولا هذا التقدير لكان الظاهر الغيبة : على معنى أن السعداء يسأل بعضهم بعضا ما سلكهم ، أى سلك المجرمين فى سقر . ولهذا الايجاز نظائر فى أقوال العرب وأشعارهم ، من ذلك قول حاتم الطائى :

لكل امرىء نفسان : نفس كريمة
ونفس ... فيعصى نفسه ويطيعها

وأصل الشعر مع المحذوف منه هكذا (لكل امرىء نفسان : نفس كريمة ونفس لئيمة : فهو تارة يعصى نفسه الكريمة ويطيعها ، وطورا يعصى نفسه اللئيمة ويطيعها) .

فالمذكور فى الكلام تسع كلمات ، والمحذوف منه تسع أيضا بقدر ما ذكر . ومنه أيضا قول الآخر :

شهور ينقضين وما شعرنا
بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل
وأطيب مايكون من النهار

أى وأما نهارهن فأطيب الخ .

ويمكن ابقاء الخطاب فى (ما سلككم) على ظاهره . على معنى أن السعداء (يتساءلون عن المجرمين) المعذبين فيما بينهم ثم يعرجون على مقرهم من دار العذاب فيسألونهم عن حالتهم مواجهة قائلين لهم : (ماسلككم فى سقر ؟) . وفى هذا التوجيه حذف أيضا بضع كلمات كما حذف فى التوجيه الأول .

(**قالوا**) الخ ، هذا جواب المجرمين لأصحاب اليمين الذين سألوهم عن الذنب الذى أدخلهم سقر . والصلاة فى اللغة : الدعاء والدين والاستغفار ، ثم غلبت فى العبادة المعروفة ذات الركوع والسجود . فقول المجرمين انهم لم يكونوا من المصلين ـــ الأشبه أن يكون معناه لم نكن من أهل الدعاء والدين الذى يرضى الله تعالى وهو دين الاسلام . وقد مر أن الدعاء قلما يذكر فى القرآن الا مرادا به العبادة ، والله تعالى انما يحكى فى هذه الآيات عن أبى جهل وأضرابه من سادات قريش السابحين فى الشرك والضلالة وعبادة غير الله ، فهم ـــ بأن تطلب منهم فى أول الأمر الصلاة بمعنى الدين والدعاء والعبادة ـــ أجدر من أن تطلب منهم الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود . على أن هذه الصلاة لم تكن فرضت يومئذ ، وانما فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة بسنة ، وبعد بعثته باثنتى عشرة سنة ، وسورتنا هذه (يأيها المدثر) مكية ، بل من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم كما مر . فالمجرمون المخاطبون بها لم يكونوا مكلفين حين نزولها الا الصلاة بمعنى الدين والعبادة ، ويشد ذلك قول هؤلاء المجرمين عن أنفسهم أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين . والوحى فى عشر السنوات الأولى التى قضاها صلى الله عليه

ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾

وسلم فى مكة بين اظهر المشركين انما كان غرضه امرين : (١) اثبات التوحيد والعبادة لله دون المعبودات الأخرى (٢) اثبات البعث والحساب . وقول المجرمين « ما كانوا من المصلين وانهم كانوا من المكذبين بيوم الدين » يلتحم مع الغرضين المذكورين اذا فسرنا الصلاة بالدين والعبادة .

وسمى يوم القيامة « يوم الدين » ، لأن فيه يقع الجزاء والحساب والقضاء والقهر ، وكل هذا من معانى كلمة الدين . ويسمى أيضا يوم الدينونة اى الحشر والقضاء بين الناس ، والديان القهار والمجازى والقاضى . قالوا : « وكان على بن ابى طالب رضى الله عنه ديان هذه الأمة بعد نبيها » ، اى تفرد بمزية القضاء والحذق فى فصل الخصومات بعده عليه الصلاة والسلام .

ذكر المجرمون من خصالهم البشعة التى استحقوا بها دخول سقر — اربع خصال : خصلتين تتعلقان بالعقائد وهما الشرك وانكار البعث ، وخصلتين تتعلقان بالأخلاق ، وهما البخل والخوض فى الباطل .

وكان القوم فى جاهليتهم يبذرون اموالهم فى السفه والقمار ومنافسة بعضهم بعضا فيما لا يفيد ولا ينفع ولا يظهر له أثر فى مصالحهم الاجتماعية ، ولا سيما كفاية المساكين وسد جوعتهم وتخفيف الم البؤس عنهم . فهؤلاء المجرمون ما كانوا يطعمون المساكين ، وما كانوا ينفقون فيما بينهم على سد هذا الخلل ، وملافاة ذلك الشر : أعنى البؤس والفقر الذى اذا فشا فى قوم افسد اخلاقهم ، وقطع روابطهم ، وعرضهم للشر من الأمراض الجسمية والاجتماعية والسياسية . ومعضلة اوربا اليوم انما هى الفوضوية ، ولم يولدها فيهم الا استئثار حامتهم وذوى الدهاء فيهم بالأموال الطائلة ، واحتجانها عن عامتهم وسواد امتهم . وأن معظم اهتمام عقلائهم فى هذه الأيام فى تسوية هذه المشكلة ، وحل تلك المعضلة .

وانما اقتصر المجرمون من امر العناية بالمساكين على ذكر عدم اطعامهم لأن القوت اهم ما يحتاجون اليه فى قيام حياتهم ، والا فان الاسلام يأمر بمواساتهم ، والرفق بهم ، وايصال اى ضرب من ضروب الخير اليهم ، وقد مر فى سورة الحاقة شيء من هذا عند قوله تعالى : (ولا يحض على طعام المسكين) .

أما الخصلة الأخلاقية الثانية التى اعترف المجرمون بأنهم كانوا اقترفوها فى دنياهم فهى الخوض فى الباطل ، والاجتماع على الغيبة والنميمة ، والافساد فى الأرض ، وتدبير المكايد لأهل الحق ، وتأريث نار الفتن بينهم : مما يؤدى الى تسلط الأشرار ، وخراب الديار ، وسقوط جماعات البشر فى مهاوى الشقاء والبوار . فهم يعترفون بأنهم ما كانوا يجتمعون فى انديتهم للمذاكرة فيما يفيد وينفع ويصلح ، وانما كانوا يجتمعون للخوض فيما يضر ويعر ويفسد .

واصل (الخوض) الذهاب فى الماء ، ثم نقل الى الذهاب فى الكلام والأخذ بأطراف الحديث ، ثم غلب على الاكثار من باطل الكلام وما لا يفيد من الحديث . وقلما ذكر الخوض فى القرآن الا مرادا به هذا المعنى وان لم يذكر مفعوله . ومثله فى ذلك « أسمعه » فانهم يريدون أنه اسمعه ما يكره من القول وان لم يذكروا ذلك ، و « ذكره » فانهم يريدون به أحيانا أنه عابه وتكلم فى حقه بسوء وان لم يذكروا ذلك أيضا . ومنه قوله تعالى : (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وكانوا سمعوه يعيب أصنامهم .

قال المجرمون : اننا ما زلنا فى دنيانا نشرك بالله ، ونكذب بالمعاد ، ونرتكب من مساوىء الأخلاق أنكرها وابشعها ، كالقسوة على المساكين ، والانهماك فى الأباطيل **(حتى أتانا اليقين)** : العذاب الحق الذى نقاسيه اليوم ، أو المراد باليقين الموت الذى توقن به كل نفس ، وفيه ايماء الى أنهم كانوا فى غفلة عنه ، وأنهم لانهماكهم فى الباطل كانوا على شك منه .

ثم لما انهى القوم حديثهم عقبه الوحى بأن هؤلاء المجرمين المرتكبين ما ذكر من منكر الأعمال لا منقذ ينقذهم من صب سوط العذاب عليهم ، ولا وسيلة من وسائل النجاة تحول بينهم وبين انفاذ العدل الالهى فيهم . فقال : **(فما تنفعهم شفاعة الشافعين)** .

و (الشفاعة) فى المجرمين لدى الحكام : اما أن يكون الحامل عليها الكفكفة من ظلم اولئك الحكام ، وتخطيهم حدود العدل فى حكمهم ، واما أن يكون الحكم اصاب مقطعه من العدل غير أن للمحكوم عليه فى رأى الشفعاء مزية تقتضى الرفق به ، والعفو عنه . والأول لا يتصور فى جانب الألوهية ، ولا يجوز أن يقال انه تعالى جار أو ظلم فى الحكم على المجرمين ، وأن هؤلاء الشفعاء يتوسطون فى ازالة ذلك الظلم عنهم . أما الثانى — وهو عفو الحاكم عن المجرم رحمة به وشفقة عليه — فان هذا ممكن الوقوع فى جانب الالوهية بعد ان يأذن به سبحانه وتعالى (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) . ولكن هذا الفريق من المجرمين الذين وصفوا بما ذكره الوحى لا يقبل الله شفاعة الشافعين فيهم . فليعلم اذن من كان على شاكلتهم من الناس هذا الأمر ، ولا يعتمد على الشفاعة ، وانما عليهم ان يعتمدوا على التوبة والانابة الى الله ، فهى وحدها التى تنجيهم من من العذاب .

وهذا لا يمنعنا أن نقول انه ما اضر بمصالح المسلمين وافسد حالهم ، واخر عمرانهم ، واوهن عزائمهم عن العمل بأوامر القرآن والخوف من زواجره ، وجعلهم يتسامحون فيما تسامحوا به : مما أصبح أمره متعالما معروفا ، وعلى أسلات الألسنة والأقلام مذكوراً وموصوفاً — شيء مثل سوء فهمهم الشفاعات وتخدر أعصابهم بالمدد والبركات ، ونفوذ سلطة الكرامات ، بل التلعب أحيانا فى فهم الآيات البينات . فقول قائلهم : « اذا قال لى ربى يوم القيامة : ماغرك بربك الكريم ؟ أقول له غرنى كرمك يارب » — ذهاب فى فهم كلمات اللغة غير مذاهبها ، وحمل للكرم على معناه فى لغتهم لا فى لغة العرب ، والا فان معنى الكرم فى اللغة ان يبلغ المرء الكمال فى الأخلاق والسجايا . وكرم الله كماله فى صفاته القديمة التى منها العدل والحق وصدق الوعد واطراد السنن والنواميس الأزلية اطرادا عليه تقوم السموات والأرض ، ويتحقق ما فى الوحى الالهى من واجب وفرض بحيث يظهر أثر ارشاده وتعليمه فى نفوس العاملين به ، ، والسالكين فى طريقه . اما أن المراد بكرم الله الكرم الذى قد يكون فى بعض الأمراء والسادات : ترتكب اليهم كل جناية مخربة ، وتمارس بين ظهرانيهم كل رذيلة بشعة مفسدة ، ثم يعفو ذلك السيد عن صاحبها فلا يهاج ، ويحلم عليه فلا يمس بعقوبة ولا ازعاج — فان هذا غير مراد بالآية ، وليس كرمه سبحانه وتعالى هذا النوع من الكرم . نعم انه تعالى مطلق التصرف فى خلقه يحكم مايشاء ويفعل مايريد ، ولكنه سبحانه وتعالى وصف ذاته القديمة أيضا بأنه حكيم قيوم صادق الوعد والوعيد لاتتبدل سننه ، ولا تتغير نواميسه . ولا نقول هذا تعطيلا لمنطوق النصوص الأخرى الدالة على شمول عفوه سبحانه عن المذنبين ، وقبوله شفاعة بعض الشافعين ، وانما نرى ان نقف ازاء هذه النصوص وقفة تحفظ ، فلا نؤمن الا بما صح وثبت منها ، ثم نقف ازاء هذا الصحيح الثابت وقفتنا أمام المتشابه تقريبا ، فنقول : انه سبحانه وتعالى يقبل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من المقربين قبولا يدل على علو مقامهم ، وعظيم منزلتهم عند ربهم ، ويلتئم مع حكمته تعالى وعدله ، واطراد سننه ، وصدقه فى وحيه : من حيث يؤدى اتباع هذا الوحى الصادق الى قيام أمر العالم ، وانتظام شمل الأمم ، واستقرار الخير والعمل الصالح فيهم ، واستتباب العدل والحق بينهم .

واما اذا صدقنا كل مايقال ويروى بشأن الشفاعة فى المجرمين والآثمين ، والتوسط فى العفو والصفح عن المخربين المفسدين — فان الوحى السماوى الصادق يضعف اذ ذاك تأثيره فى نفوس المخاطبين ، كما وقع وشاهدنا أثره عيانا فى المسلمين . فانظر اليهم اليوم وقد أتاهم اليقين ، هل قبلت منهم معذرة ، او نفعتهم شفاعة الشافعين ؟ ؟

قوله (**فما لهم**) الخ تفريع على قوله قبله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ، أى اذا كانت السنة الالهية فى المجرمين المكذبين ماذكر من ارتهانهم بما كسبوا من أعمالهم ، وعدم قبول شفاعة الشافعين فيهم — فما بالهم يعرضون عن التذكرة يعنى عن القرآن وآياته التى أنزلت لوعظهم وتذكيرهم ، فلا يتدبرونها ، ولا يهتدون بهديها ؟

ثم وصف اعراضهم عن القرآن وتباعدهم عن استماعه ، ونفورهم ممن يدعوهم الى الانتفاع به ، فقال : هم من هذه الجهة (**كأنهم حمر**) جمع حمار ، والمراد بها حمر الوحش ، فان العرب كثيرا مايضربونها مثلا فى النفار والشرود ، ولا سيما اذا نجم لها شاخص ، أو أراد أن يقنصها قانص ، وقوله (**مستنفرة**) بكسر الفاء بمعنى أنها طلبت النفار من نفسها ، وتكلفته تكلفا ، فيكون ذلك أشد فى عدوها ، وابعد فى نفارها . ومن قرأها بفتح الفاء أراد انها قد نفرها منفر ، وحملها على العدو حامل . ثم ذكر السبب الذى دعاها الى النفار فقال : (**فرت من قسورة**) . والمشهور المتبادر من معنى (القسورة) انه الأسد ، مشتق من القسر ، وهو القهر والغلبة . يقال : ليوث قساور . ويحتمل أن يكون المراد بالقسورة جماعة الرماة الذين يتتبعون حمر الوحش والوعول لصيدها وقنصها . والمعنى الأول أشهر كما قلنا : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى : (**فرت من قسورة**) ، فقال : هو بالعربية « الأسد » : وبالفارسية « شير » ، وبالنبطية « اريا » ، وبالحبشية « قسورة » ، فالقسورة على قوله معربة وليست بعربية الأصل .

ثم وصف الوحى من حال أولئك المكذبين ماهو أشد غرابة من حالة اعراضهم عن القرآن فقال : (**بل يريد كل امرىء منهم**) الخ كأنه يقول : دع عنك ذكر اعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم وهداهم ، واستمع ماهو أعجب واغرب : ذلك انهم (يريد كل امرىء منهم) أى من أى من أولئك المعرضين (**أن يؤتى صحفا منشرة**) مكان القرآن . فيشبه حالهم أن يكونوا يعلمون أن القرآن من عند الله لكنهم يعرضون عنه ، وينفرون من سماعه ، اذ لم يؤت كل واحد منهم صحيفة خاصة به ، تنشر بين يديه ، ليؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن هذا الاقتراح والاشتراط فى تصديقهم بالقرآن وبالنبى عليه السلام اغرب من اعراضهم عن سماع القرآن ، ومن ثم عطف جملة (يريد كل امرىء منهم) على ماقبلها ببل التى تفيد الاضراب والانتقال الى ماهو أهم وأجدر بالذكر .

و (الصحف) : القراطيس التى تكتب وتتداولها أيدى الناس يقرءونها وينظرون مافيها . و (المنشرة) : المبسوطة المفتوحة تحت أبصارهم : يقال نشر الثوب ونحوه اذا بسطه ، ويقولون « صحف منشرة ، وملاء منشر » ، أى منشور ومبسوط . والملاء جمع ملاءة : الثوب المعروف ، ويقول لها العامة : ملاية .

واختلفوا فى أولئك المعرضين عن التذكرة كيف كانوا يوردون اقتراحهم بشأن الصحف المنشرة ، فروى أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : « انا لن

كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب يكتب فى السماء وينزل به الملك ساعة كتب غضا رطبا منشورا لم يطو بعد ، عنوانه : من رب العالمين الى فلان بن فلان . اتبع محمد بن عبد الله » . ويؤيد هذه الرواية آية (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) . وقيل انهم قالوا له : « ان سرك أن نتبعك فليصبح كل واحد منا فيرى عند راسه صحيفة منشورة فيها تأمينه من النار » ، يعنى أنهم يريدون أن يؤتوا ببراءة من عذاب جهنم قبل أن يعملوا العمل المنجى منها . وهــذا دأب قصار النظر الذين يطلبون النهاية فى البداية ، ويريدون بلوغ الغاية قبل تكلف المسير اليها. ولما كان فعلهم هذا دالا على مكابرتهم وفساد رأيهم زجرهم عنه بكلا ، فقــال تعالى : (كلا بل لا يخافون الآخرة) الخ .

(كلا) ، أى ليرتدعوا عن رأيهم الفاسد فى امثال هذه الاقتراحات ولا يحسبوا أن دعواهم أن يتبعوا رسولنا ، ويصدقوا وحينا ، ان هم أوتــوا الصحف المنشرة ـ تروج علينا ، فالأمر ليس كذلك ، (**بل**) هم قوم (**لايخافون الآخرة**) ، ولا يصدقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بدارى النعيــم والعذاب . وهذا هو الذى أفسدهم ، وجعلهم يعرضــون عن التذكرة والانتفاع بها . ولو انهم خافوا الآخرة لصدقوا تلك التذكرة ، وأغناهم ذلك عن الصحف المنشرة . فطلب الصحف المنشرة على الوجه الذى سبق انمـا كان خداعا وتمويها واضاعة وقت . ولشد ما نهاهم القــرآن عن اقتراح آيات وعجــائب أمثــال ذلك ، ووبخهم على تكليفه صلى الله عليه وسلم الاتيان بها ، وقال لهم : ان القرآن وما فيه من الهدى والحكمـة والارشاد هو الآية الساطعة ، والحجة القاطعــة ، على صدق محمد ، وانه مرسل من عنـد الله ، فلا ينبغى لعاقل ان يطلب من الطبيب شهادة على صحة دعواه وحذقه فى صناعة الطب من مثل انزال صحيفة من السماء ، أو تفجير ينبوع من الأرض بعد أن يكون الطبيب أقام دليلا على دعواه ، وثبتا على مهارته ـ شفاءه الأمراض ، وابراء ذوى العلل والعاهات .

وهكذا كان شأنه صلى الله عليه وسلم فى هداية الناس بالقرآن وما أودعه من الحكم والعبر ، وبمــا فطرت عليه ذاته الشريفة من الأخلاق الفاضلة ، والسجايا العالية .. كل ذلك كان أكبر آية على صدق دعوته ، وأوضح معجزة على استقامة محجته . فما بال هؤلاء القوم يقترحون عليــه الاتيان بالغرائب والعجائب ؟ أولا يعلمون أن دورها ذهب مــع أدوار الأمم القــديمة وقت أن كان السحر والشعوذة والطلسمات والكهانة ، واستخدام الجان ، وتسخير الشيطان واخراجه من بدن الانسان ـ ركنا من أركان دياناتهم ، وشعبة من شعب شرائعهم وتعاليمهم ؟ أما وقد بعث محمد صلى الله عليــه وسلم ، وأطلقت العقول من عقل الأوهام ، واستعد البشر بمجموعهم لدخول فى طور كريم من التشريع والهداية والتعليم ـ فان الوحى لم يعد يجيبهم الى كل ماكانوا يقترحون ويسألون ، بل كانوا اذا اقترحوا شيئا احالهم علـى القرآن وما فيــه من الهداية العمليـة المجربة فى استصلاح نوع الانسان . على أن الوحى لو كان يجيبهم الى اى اقتراح اقترحوه ـ وهم من العناد والمكابرة على ماكانوا عليه ـ لاقترحوا أمرا آخر وهكذا . ومن اجل ذلك رد الوحى عليهم اقتراحهم الصحف المنشرة ، فقال فى أوائل سورة الأنعام : (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) .

زجرهم اولا بقوله (كلا) عن اقتــراح امثــال الصحف المنشره ، واشار فى قوله (بل لايخافون الآخرة) الى انه لم تحملهم على اقتراح الصــحف رغبتهم فى التذكرة ، بل كان الصارف الحقيقى لهم عنها عدم خوفهم من الآخرة . ثم عاد فزجرهم عن كل اعمالهم ومجموع مزاعمهم فقال (**كلا انه تذكرة**) أى فليرتدعوا عما هم عليه من الاستخفاف بأمر الآخرة ، وعــدم الخوف منها ، واعراضهم عن التذكرة ، والتصديق بها ، وادعاء أنهم ان اجيبوا الى مقترحهم ، واعطوا الصحف المنشرة ـ آمنوا ، ليرتدعوا عن ذلك جميعه . ثم بين سبب وجوب ارتداعهم مشيرا الى أن شأن محمد والقرآن الذى أتاهم به فتلتل نفوسهم ، وارمض قلوبهم ـ فوق أوهامهم ، وفوق مايتصورون ، فقال : (انه تذكرة) ، اى أن ذلك الذى أتاهم به محمد صلى الله عليــه وسلم ، وحضهم على تصــديقه ، وترك الاعراض عنه ـ ليس سوى تذكرة لهم : تذكرهم بما يجب عليهم من الايمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، وتنذرهم ان كذبوا واستكبروا عذاب يوم عظيم . فالضمير فى قوله (انه) يرجع الى ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى والقرآن المفهــوم بمعونة المقام . وكان سبق فعبر عنه بالتذكرة لما قال : (فما لهم عن التذكرة معرضين) ، اى عن القرآن والوحى . وقد سماه فى هذه الآية تذكرة لما فيه من التذكير والانذار والتحذير .

ثم عاد أخيرا بعد مازجر المعرضين عن التذكرة زجرا عاما فأكد لهم أمر القرآن والوحى الذى اعرضوا عنه ، ملقبا له مرة ثانية بأنه تذكرة وارشــاد للبشر ، ليس له وصف سوى ذلك : فما هو ســحر يؤثر ، ولا قول البشر كما زعموا ، فلماذا يعرضون عنــه ، ويتشاءمون به ، ويرتابون فى نصحــه ، ولم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم منهم عليه اجرا ، ولاكلفهم عطاء أو منصبا يكون لأولاده من بعده ذخرا ؟ فهو محض خير لهم ، وكل نفعه عائد عليهم .

وفى ختمه السورة بقوله ان القرآن تذكرة ربط لنهايتها ببدايتها ، وتذكير بموضوعها الذى سبق فى

فاتحتها ، وهو الانذار بالقرآن مذ قال : (يأيها المدثر قم فأنذر) ، أى خوف قومك بالقرآن. فهو هنا يقول: ان ذلك الذى أمرتك بالانذار به فى أول السورة ليس سوى تذكرة بالغة للقوم ، وارشاد وموعظة لهم . وهى لعمرى كافية فى اصلاح أمرهم اذا تدبروها واتعظوا بها ، ولكن هل يرجى منهم الاتعاظ والادكار ؟ أجاب عن ذلك بقوله : **(فمن شاء ذكره)** اى فمن شاء وأحب منكم أيها المعرضون عن القرآن ، المتغافلون عن هديه — ذكره فلم ينسه ، ووضعه نصب عينيه فلم يعرض عنه . فان القرآن جدير بالاقبال عليه ، خليق بالاستضاءة بنوره ، وكل واحد منكم أيها المعرضون متمكن بتمكين الله أن يختار طريق نجاته وما به صلاح أمره ، فليختر اذن ولا يقصر . لكنهم غلبت عليهم الشقوة فلا يختارون الا الوبال ، وتغلفت قلوبهم بالغفلة فلا يذكرون الا الضلال . أما القرآن وما فيه من الخير والهدى فلم يعد فى مكنتهم اختياره وادكاره وتوجيه نفوسهم اليه (الا أن يشاء الله) ذلك منهم بقهرهم عليه ، لكنه تعالى لم تجر عادته فى شرائعه السماوية ووحيه المنزل على انبيائه — أن يقسر الناس عليه قسرا ، أو يسوقهم الى التصديق به جبرا . وانما هو تعالى يشرع لهم السبيلين : سبيلى الخير والشر ، ويرفع لهم النجدين : نجدى الهدى والضلال ، وينصب لهم المنارين : منار الحق والباطل . وعليهم هم أن يختاروا لأنفسهم : فمن شاء منهم ذكر ، واتعظ واعتبر ، ومن شاء غفل ونسى ، وكان هو الجانى المسيء . وهذا هو تفسير قوله تعالى : **(وما يذكرون الا أن يشاء الله)** .

وبهذا التفسير أن شاء الله يلتحم معنى الآية أشد الالتحام مع قوله قبله (فمن شاء ذكره) الدال على تخيير المكذبين ، وتنبيههم الى ما أودعه الله نفوسهم من المكنة والاستطاعة .

يقول تعالى : **(فمن شاء)** من أولئك المعرضين أن يذكر القرآن **(ذكره)** ، وبقى منه على بال ، فينتفع به . **(و)** لكنهم لفرط عنادهم ، ولسوء ملكتهم **(مايذكرون)** ، أى مايشاءون أن يذكروه ذكر انتفاع واستفادة **(الا أن يشاء الله)** ذلك بقهرهم عليه . وهذا لايكون منه تعالى ، لكونه مخالفا لسنته الالهية مع الأمم . وانما سنته أن يبين لهم الأمرين ، وينصب أمام أعينهم الطريقين ، فاذا سلكوا طريق الحق نجوا ، واذا سلكوا طريق الضلال خسروا وهلكوا . كما قال تعالى فى آية أخرى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

أما قهره تعالى الأمم ، واجباره لها على الايمان الذى قلنا انه لم تجر عادته به — فهو كأن يبرز للعيان وسائل الهلاك وأدوات التعذيب ، ثم يقال للمكذبين : ان لم تؤمنوا فأنتم هالكون بما ترون من هذا العذاب الواقع بكم . والتكليف على هذه الصورة لم تأت به الشرائع السماوية ، بل قال العلماء : ان معجزات الأنبياء والآيات التى تظهر على أيديهم لاتتعدى دائرة التحذير والتخويف ، كما قال تعالى : (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) . قالوا : ولا يكون من المعجزات أن يقول النبى لقومه : انظروا الى السماء ، فترون فيها مكتوبا بأحرف من نور بالقطع الكبير « فلان نبى ، ودينه هو الحق ، فاتبعوه » ثم يبقى ذلك باديا للعيان حقبة من الزمن . قالوا : هذا لايمكن أن يقع ، لأن الدعوة الى الايمان بهذه الصورة تصبح من قبيل الالجاء والاجبار ، ودعوة الأمم التى جرت بها عادة الله تعتمد على التفويض والاختيار ، ليتميز بذلك الأبرار من الفجار . ولو كتب فى السماء بأحرف من نور كما وصفنا لم يعد فى وسع أحد من الناس مهما كان عنيدا ، أو سمجا بليدا — الا الاذعان والتصديق. فقوله تعالى هنا : (وما يذكرون الا أن يشاء الله) بعد قوله : (فمن شاء ذكره) الدال على مطلق التفويض والتخيير — لاينبغى تفسيره بغير ماذكرنا . ومثله فى سورة التكوير آية (وما تشاءون الا أن يشاء الله) بعد قوله (ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) .

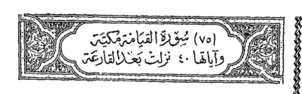
فهو تعالى يقول : ان الاستقامة يامعشر البشر داخلة تحت مشيئتكم فاستقيموا اذن . ثم قال موبخا لهم ، ناعيا عليهم سوء ملكتهم ، وفرط عنادهم : (و) لكن أنتم (ماتشاءون) الاستقامة واتباع الحق (الا أن يشاء الله) ذلك منكم بالقهر والاجبار والالجاء ، وهذا لم تجر به عادته تعالى فى الأمم ، فالويل لكم ان لم تنظروا لأنفسكم .

وان لم نقل فى تفسير هاتين الآيتين ماقلنا وقعنا من ظاهر التناقض فيهما فى جدال لاينتهى مع المبطلين المشككين ، من حيث يفتح لهم بابا الى تعطيل الشرائع ، وتهوين أمر الدين .

على أن ماقلناه فى معنى الآيتين لايخرج عما عرف فى تخاطب اهل اللغة ... تقول لابنك الذى تريد أن تسلك فى تربيته طريق الرفق واللين : « افعل يابنى ما آمرك به ، ولا عذر لك فى المخالفة فانك بحمد الله مطيق لما كلفتكه ، قادر عليه » ، فاذا خالفك ولم يعمل بمشورتك عنادا أو لجاجا تهدده فتقول : « أنا أعلم أنك لاتشاء ان تفعل ما أقول لك الا أن اشاء انا ان تفعله » ، ولست تريد فى قولك هذا أن تسلب ابنك الاختيار والارادة بالمرة ، وانما كل ما تريده تهديده من طرف خفى بأن فى طاقتك أن تكرهه على ما أردت منه بواسطة الضرب الموجع ، واللكم المتتابع مثلا . غير انك تربأ بنفسك ، وبابنك المحبوب أن تقفا معا هذا الموقف ، متربصا به الرجوع عن غيه بزاجر من نفسه .

ومن عادة القرآن أن يأتى عقب التهديد بكلمات الترقيق والترغيب ، وهذا ماكان فى الآية التى نفسرها ، فانها عقبت بقوله تعالى : **(هو)** ، أى الله **(أهل التقوى)** ، أى أهل لأن يتقى ويحذر عقابه ، فلماذا لاتتقونه أيها القوم ؟ **(وأهل المغفرة)** ، أى وأهل لأن يغفر لمن اتقاه منكم وأصلح عمله ، فلماذا لاتصلحون أعمالكم ، وتتركون اعراضكم ، وتتوبون الى ربكم ؟

هذا ما وجدناه الأتقن والأحكم فى تفسير آيات الاضلال . ونسأل الله الا يجعل علينا تبعة فيما قلنا أو نقلنا . ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو اخطأنا .



بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ

افتتحت هذه السورة بتحقيق أمر البعث ، وان الناس لا يتركهم ربهم سدى من دون حساب ، مؤكدا ذلك بالقسم حسب عادته تعالى فى الاقسام بما عظم خطره من مخلوقاته . وقد أقسم هنا بيوم القيامة على وقوع يوم القيامة . وفى ذلك تقرير له ، وتحقيق لامر وجوده . وظاهره نفى القسم ، لكن المراد بهذا النفى التوصل الى التاكيد ، وكأنه يقول : ان الأمر بين فلا احتاج الى ان اقسم عليه ، وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيد ، قال أبو مسلم : (لا) ههنا لنفى القسم ، كأنه قال : لا اقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكننى أسألك غير مقسم : أتحسب أنا لانجمع عظامك اذا تفرقت بالموت ؟ فان كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على ان نفعل ذلك اهـ .

وقيل ان (لا) نافية لمحذوف ، وليست نافية للقسم ، وان التقدير (لا) صحة لما تزعمون انه لاحساب ولا عقاب . ثم استأنف فقال : **(أقسم بيوم القيامة)** و **(بالنفس اللوامة)** انكم ستبعثون . وهذا على عادة العرب من زيادتهم (لا) قبل (أقسم) كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه فيفيد التأكيد . وقد مر فى سورة الحاقة زيادة ايضاح لذلك عند قوله تعالى : (فلا اقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) .

وجواب القسم هنا محذوف دل عليه قوله بعد : (أيحسب الانسان الخ) ، والتقدير « لتبعثن ولتحاسبن » . ثم عاد فاستفهم على وجه الانكار ان يكون الله تعالى عاجزا عن خلق الانسان ثانية فقال : **(أيحسب الانسان الخ)** .

وفى أقسام الله تعالى بالنفس اللوامة ثناء عليها وتنويه بشأنها . وقالوا : ان المراد بها النفس التى لاتزال تلوم ذاتها وان اجتهدت فى الاحسان والعمل الصالح . وقال الحسن البصرى : « ان البار لا تراه الا لائما نفسه ، وان الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه » ، قدما : أى من دون أن يعرج أو ينثنى . وقد ذكر الوحى فى سورة الفجر أختا للنفس اللوامة ، وهى النفس المطمئنة مذ قال تعالى : (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) . والنفس المطمئنة هى الثابتة فى عملها ، الموقنة بما وعد ربها . وهذه النفس على فضلها وعلو منزلتها عند ربها مذ قال لها : (ادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) ـ يوشك أن تكون أختها ـ النفس اللوامة ـ أفضل منها ، وأعلى منزلة ، لأن اللوامة لا تستقر على حال من قلقها وخوفها ان تكون قصرت فيما يجب عليها من بلوغ الكمال الدينى والأخلاقى المطلوب منها .

فالله تعالى يقسم بالنفس التى هذه حالتها ، الناصبة فى طاعة ربها ، مرغبا فى طريقتها ، وحاضا النفوس الأخرى ان تكون على مثل شاكلتها : فلا تبلغ درجة من الكمال حتى تتلع الى الدرجة التى فوقها ، ولا تمارس فضيلة أو تقوم بعمل صالح حتى تفرغ الى آخر أمثل منه . هذه النفس التى تحيا فى الدنيا مثل هذه الحياة لا يدعها خالقها من فضله ، ولا يمنعها من عدله ، فهو سوف ينقلها الى دار كرامته ، ويغمسها فى كوثر رضاه ورحمته . ولولا ذلك لكانت نفوس العجماوات والحشرات خيرا منها وأحسن عاقبة ، ويكون الخالق أشد رحمة وعناية واحسانا بهذه النفوس الهاملة ، من تلك العاملة الكاملة ، اذ انه تعالى أراح العجماوات من وخز الضمير والوجدان ، وخفف عنها عبء طلب الكمال الذى اؤتمن عليه الانسان . تعالى الله ، وتنزه عدله ، وتقدست صفاته عن مثل ذلك . وعلى هذا يكون القسم بالنفس اللوامة فى صدر تحقيق أمر يوم القيامة ـ مما يشير وينبه الى ماذكرناه من الدليل العقلى عليه . وما أحسن ما قاله بعضهم مستدلا على وجوب طاعة الله ولزوم عبادته :

هب البعث لم تأتنا رسله
وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق
ثناء العباد على المنعم

وقوله : **(أيحسب الانسان الخ)** يريد مطلق انسان من دأبه تكذيب الوحى ، وانكار البعث ، وان كانت الآية واردة فى معرض الرد على انسان خاص ، وهو عدى بن ربيعة . وقصة ذلك أن عديا هذا وختنه ـ الأخنس بن شريق ـ كانا جارين للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان جوارهما بئس الجوار ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول فيهما : «اللهم اكفنى جارى السوء »، فجلس عدى يوما الى رسول الله وطلب منه أن يحدثه

عن يوم القيامة ، فذكر له شيئا من أمره ، فقال له عدي : « أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعيني لم أصدقك يامحمد ، ولم أومن بك ولا به . أيمكن أن يجمع الله العظام ؟ » فنزل الوحي في الرد عليه ، فأقسم أولا بيوم القيامة نفسه وبالنفوس الناصبة في طاعة ربها ارادة النجاة في ذلك اليوم ، ثم قال : (أيحسب الانسان) عدي وأحزابه ممن حال الجهل بينهم وبين الاعتبار بشمول القدرة الالهية **(أن لن نجمع عظامه)** ، أي لن يقع منا جمع لعظامه بعد موته وتفرقها . **(بلى)** نجمعها . و (بلى) تقع بعد المنفي فتثبته . وفي (نجمعها) المقدر معنى القدرة ، فيكون قوله **(قادرين على أن نسوى بنانه)** حالا من فاعل (نجمع) مؤكدا القدرة التي تضمنها الجمع . كأنه يقول : نقدر على جمع عظامه مع قدرتنا فوق ذلك على تسوية بنانه و (البنان) أطراف الأصابع ، والأصابع نفسها . وأراد بذكره (تسوية البنان) أنه تعالى قادر على جمع عظام الانسان ، واعادة تركيب أعضائه كلها كما كانت أولا ، فيتمثل بشرا سويا كاملا لا ينقصه شيء حتى أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه ، ومنتهى أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه . فذكر تسوية البنان مثل في الكمال وعدم النقصان .

أو المعنى : أنه تعالى قادر على اعادة جسم الانسان الى سابق حالته بعد أن يكون قد مات وانحل تركيب اجزائه وفسد تكوين أعضائه ، حتى ألطفها حجما ، وأدقها تركيبا : وهي البنان . فهو تعالى قادر على اعادة خلق الانسان بالغا هذا الحد من الكمال في تلك الاعادة .

فالمعنى الأول يرمي الى اعادة الانسان كاملا في الأعضاء وعددها ، والثاني يرمي الى اعادته كاملا في تكوينها واستجماع شرائط قيامها بوظائفها .

وقيل : أن المراد بالبنان الأصابع نفسها لا أطرافها ، وان المراد بتسويتها جعلها مستوية قطعة واحدة ذات صفيحة جامدة كخف البعير فلا ينتفع بها ، وهو تعالى لم يجعلها كذلك ، بل جعلها تفاريق ذات أطوال متناسبة ، ومفاصل متحركة ، وأنامل ملململة ، ومواتاة تامة فيما يطلب منها من الانضمام والانفراج ، والانقباض والانبساط ، بحيث كانت نعمت الآلة للتناول ومزاولة الأعمال المختلفة . ولا كذلك البعير والحمار اللذان لا يقدران على استخدام الخف والحافر في طرق الانتفاع المختلفة كما يفعل الانسان بيده ، فيضطران الى أن يتناولا طعامهما وشرابهما بفيهما مباشرة .

ولعل المعنى الأول هو الأليق بالمقام ، لأن القصد اثبات أنه تعالى قادر على اعادة الانسان خلقا سويا يوم القيامة ، لا اثبات أنه قادر على أن يخلقه في دار الدنيا بأي صورة أرادها .

قوله **(بل يريد الخ)** اضراب عن شأن الانسان الذي وبخه عليه في الآية السابقة ، وانتقال الى ذكر شأن من شئونه أعجب ، وسريرة من سرائره أغرب . كأنه يقول : لا أرى الجهل يبلغ بالانسان الى حد انكاره قدرتنا على جمع عظامه ، ومحاسبته على سوء أعماله ، **(بل يريد)** ذلك الانسان بهذا الانكار الانطلاق من كل قيد ، والتفلت من كل سلطة ، لأجل أن يفجر **(أمامه)** ويركب في غمط الحق واقتراف الآثام رأسه ، ثم لا يقلع عن ذلك حتى يلاقي حمامه ، وتقوم عليه القيامة .

و (الفجور) : انبعاث المرء في الذنوب ، وانحرافه عن حدود الشرع وأوامره من دون أن يخامره شعور خوف أو خشية . وتعلق الظرف وهو (أمامه) به يدل على أنه مضمن معنى الدوام والتمادي والاسترسال كأنه يقول : يريد الانسان في انكاره البعث أن يفجر مصرا ومتماديا في طريقه الذي أمامه الى آخر عمره . فهاتان الكلمتان (يفجر أمامه) في افادة معنى اللجاج والاصرار مثل قولهم : « ركب رأسه » ، و «خلع عذاره» . والمعنى أنه ممعن في اساءته ، مصر على باطله لايثنيه عنه شيء ، ولا يخشى فيه أحدا .

وهذا الفاجر المتعامي عن الحق ، المتمادي في الضلالة ، كلما نصح له ناصح بالكف والارعواء ، أو خوفه بخوف من عذاب الله ومحاسبته له على أعماله يوم القيامة — **(يسأل)** ناصحه أو مخوفه سؤال سخرية واستهزاء وعنت : **(أيان يوم القيامة؟)** أي متى وقته ؟ وقريب هو أم بعيد ؟ هو يسأل الآن ، **(فاذا برق البصر ... يقول ... أين المفر)** . ففي هذه الآيات وصف لبعض أحوال ذلك اليوم ببيان ما يكون فيه من شأن ذلك السائل المنكر .

ومعنى (برق البصر) زاغ وتحير حتى لايطرف ، أو دهش فلم يعد يبصر . وأصله أن يرى الشخص البرق الشديد اللمعان ، فيخطف بصره ويدهش فلا يعود يرى . ثم استعمل في كل حيرة ودهش يعتري البصر ولو لم يكن مسببا عن رؤية البرق . ومثله في ذلك (صعق الرجل) اذا وقع مغشيا عليه . وأصله أن يقع هذا به بسبب اصابة الصاعقة له ، ثم عم استعماله في كل غشي .

(وخسف القمر) : ذهب ضوؤه وأظلم . وهذا يكون منه وقت أن يتأذن الله بخراب هذا العالم ، وتغيير نظامه ، ونسخ أحكامه ، فلا تعود الأرض أرضا ولا السماء سماء . وقد عبر الوحي عن هذا الارتكاس والاضطراب العام في العالم بقوله : (وفتحت السماء فكانت أبوابا) ، أي مفتحة الأجرام ، مفرقة الأجزاء ، وبقوله : (اذا السماء انشقت) أي تصدعت ، ووقع الأضطراب في نظامها العام ، فاختل تركيبها ، وفسد تكوينها ، وبقوله : (واذا النجوم انكدرت) ، أي تناثرت منقضة من كل جانب . يقال : انكدر علينا القوم اذا جاءونا متتابعين من كل صوب ، وبقوله : (واذا الكواكب انتثرت) أي تساقطت متفرقة في كل ناحية . فاذا كان هذا شأن السماء بمجموعها ،

وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ

والأجرام بأفرادها ــ فهل يعقل أن يبقى للقمر نوره المعهود أو يخسف ؟ وهل يتصور أن يبقى كل من القمر والشمس فى فلكه ، وعلى هيأته وشكله ، أم يتغير ؟ ان انكدار النجوم وانتثار الكواكب ، أمر يعم أجرام السماء كلها ، وفى جملتها الشمس والقمر . فهل اذا انتثر هذان الكوكبان ، وزايلا مداريهما ــ وأحدهما وهو الشمس أكبر من الآخر وهو القمر بنحو خمس وستين مليون مرة ــ لايجذب أكبرهما أصغرهما اليه ؟ واذا جذبه اليه التقيا معا فى حيز واحد بالضرورة ، وهذا معنى قوله : **(وجمع الشمس والقمر)** . وقولنا ان الشمس تجذب اليها القمر بقوة الجذب العام افتئات على الغيب ، والا فالله سبحانه وتعالى أعلم بأية قوة يجتمعان ، وكيف يكون ذلك الاجتماع ، وعلى أى شكل يقع ، فان ذلك مما لايمكن القول فيه بالرأى ، فندع أمره الى الله ، ونقتصر من الاعتقاد على ظاهر الآية : من انهما يجتمعان اجتماعا يبقى معه الانسان انسانا تام التركيب ، سليم الأعضاء ، له بصر يبرق ، ولسان ينطق . وفى ذلك الوقت الذى يبرق فيه البصر ، وتقع الأحداث الأخر **(يقول الانسان يومئذ أين المفر ؟)** ، أى الفرار المنجى من هذه الكارثة ، والمؤدى الى الراحة والأمنة . فيجاب حينئذ بما قال الله **(كلا !)** ، أى دع عنك المحال ، وطلب ما لا ينال ، اذ **(لا وزر)** ولا ملجأ تلجأ اليه ، ولا حرز يعصمك مما نزل بك من أمر الله .

و (الوزر) المعقل ، والحصن ، والمعتصم ، والملجأ . يقال : « أنت حصنى ووزرى » ، وأصل معنى الوزر فى اللغة الجبل . قالوا : كان الرجلان يكونان فى ماشيتهما ، فلا يشعران بشىء حتى تأتيهما الخيل مغيرة ، فيقول أحدهما لصاحبه : « يافلان ، الوزر الوزر ، الجبل الجبل » ، وكانوا فى الجاهلية اذا خشوا عدوا قالوا : « عليكم الوزر » ، أى عليكم الجبل التجئوا اليه ، واعتصموا به . ثم شاع استعماله فى كل حرز وحصن وملجأ يمنع ولو لم يكن جبلا .

وكأن سائلا يسأل : اذا لم يكن للناس يومئذ وزر أو ملجأ يلجأون اليه ، فهل يبقون فوضى مشتتين أم يصبح لهم مقر يستقرون فيه ، ومنتهى ينتهى حالهم اليه ؟ فلهذا قال : **(الى ربك)** ، لا الى غيره سبحانه وتعالى **(يومئذ)** يوم وقوع ما ذكر من الأحداث والكوارث **(المستقر)** ، أى الاستقرار والسكون والالتجاء فله يومئذ الأمر ، واليه الحكم ، وبه الرجاء ، ومنه ينتظر انكشاف اللأواء .

قوله : **(ينبأ الانسان الخ)** استئناف لبيان ما يقابل به الانسان بعد أن يصير أمره الى ربه . قال انه يومئذ يكشف له الغطاء عن أعماله ، فيخبر بها كلها : بالذى قدمه منها وكسبه بالفعل من خير وشر ، وبالذى أخره ، فلم يعمله ، بل نوى فعله من خير أو شر . الى هذا الحد من الانباء والاطلاع يكشف الأمر للانسان ، فهو لا ينكشف له ما فعل فقط بل مالم يفعل أيضا . وهذا هو معنى قوله : **(بما قدم وأخر)** .

ويحتمل أن يكون المراد بالذى قدمه ما فعله من الأعمال الصالحة ، وبالذى أخره ما لم يفعله منها ، وانما سوف فيه كسلا واهمالا .

أو المعنى : بما قدم بين يديه الى الآخرة من خير وشر ، وبما أخر بعد موته فتركه فى دنياه ينسج الناس على منواله بعده : من بدعة حسنة أو سيئة ، وسمعة طيبة أو قبيحة . كما قال تعالى فى آية أخرى (ونكتب ماقدموا وآثارهم) ، أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم الباقية على مر الزمان بعد مماتهم ، كما نكتب ما قدموه فى حياتهم .

ثم أضرب عن ذكر هذا النوع من انباء الانسان بأعماله ، وارتقى الى نوع منه أتم وأكمل ، فقال : **(بل الانسان على نفسه بصيرة)** ، والمراد (بالبصيرة) هنا الحجة والشاهد يشهد باثبات أمر . يقال : جوارحه بصيرة عليه ، أى شاهد وحجة عليه . ومنه « اجعلنى بصيرة عليهم » ، أى شاهدا أو رقيبا . وقال تعالى فى سورة يوسف : (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ، أى أدعو اليه تعالى حالة كونى على حجة وبينة ودليل قاطع .

ومعنى الآية أن الانسان ينبأ يوم القيامة بأعماله على أنه هو نفسه حجة شاهدة على نفسه وسوء أعمالها ، وقبح آثارها فى دنياها ، فلا حاجة فى ذلك اليوم الى ثبت آخر غيرها .

وهذه الآية بمعناها هذا تتفق مع آية الاسراء (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) : من حيث ان الانسان يوم القيامة تماط عنه غشاوات الوهم والالتباس ، فتتجلى له الحقائق كما يتجلى البدر لعيون الناس : يتجلى له ذلك ويدركه ويقتنع به فى سره **(ولو ألقى معاذيره)** ، أى ولو حمله الخجل وفرط الاستحياء على الجدل عن نفسه بالباطل ، والادلاء ببعض الأعذار الكاذبة لها ، فان الأمر مع هذا يبقى واضحا له ، وشهادة نفسه عليه أحق بالقبول من هذه المعاذير .

و المتبادر أن يكون المراد بالمعاذير الأعذار ، لكن الأعذار وأحدها عذر والمعذرة جمعها معاذر (١) لا معاذير ، ومن ثم قال بعضهم : ان (المعاذير) اسم جمع لمعذرة لا جمع لها . أما الضحاك والسدى فذهبا الى أن المعاذير فى الآية جمع معذار ، وهو الستار (٢) ، كأنه يقول ان الانسان باذعانه واقتناعه يومئذ يصبح حجة على نفسه ولو ألقى عليها ستورا كثيفة من الحججوالأعذار ، فانه لاشىء من تلكالستور يمكن أن يحول بين الانسان وبين ظهور آثار الاقتناع والاذعان عليه يوم القيامة .

ذهب القفال الى أن الكلام فى هذه الآية **(لاتحرك به لسانك لتعجل به)** متصل بالحديث المسوق فى الآيات قبلها ، وأن الخطاب فيها لذلك الجاحد الذى يفجر أمامه ، واذا خوفه مخوف بيوم القيامة أجابه مستهزئا ساخرا : (أيان يوم القيامة) ، حتى اذا جاء ذلك اليوم لم يجد مفرا الا الى الله ، ونبىء بما قدم واخر . وقد علم من آيات اخرى أن الانسان يعطى يوم القيامة صحيفة عمله ، ويقال له : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، فاذا أخذ فى قراءتها تلجلج وتكلف الاسراع فى القراءة ، لينجو من هذا الموقف المخزى ، فيقال له : (لاتحرك به) أى بعملك وتلاوته (لسانك) مريدا التفصى والتخلص منه بهذه العجلة. فانه يجب علينا بحكم الوعد والحكمة أن نجمع عملك ، ونقرأه عليك ، (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) بالاقرار والاعتراف (ثم ان علينا بيانه) بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته .

فضمير (به) وما بعده من سائر الضمائر ترجع الى عمل الانسان المسطور فى صحيفتهالمعهودة. وقوله تعالى بعد : (كلا بل تحبون العاجلة الخ) خطاب لذلك الانسان وأضرابه ، وردع لهم عما هم فيه من حب العاجلة الفانية ، وبذلك يبقى الحديث واحدا ، والسياق متصلا .

هذا قول القفال . ولكن المشهور بين المفسرين أن الخطاب فى قوله تعالى (لاتحرك) للنبى صلى الله عليه وسلم ، والضمير فى (به) والضمائر الأخرى ترجع جميعها الى القرآن . فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يصعب عليه حفظ آيات القرآن وجبريل يلقيها عليه ، فكان يحرك لسانه وشفتيه بتلاوة الآيات قبل أن يفرغ جبريل مخافة أن تتفلت منه ، وينساها حين التبليغ ، فنهى عن ذلك فى سورة طه مذ قيل له : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه) ، كما نهى فى هذه السورة أيضا فقيل له:

(لاتحرك به لسانك) أى بالقرآن والوحى الذىيلقيه عليك جبريل (لتعجل به) أى لأجل أن تعجل بأخذه وتلقفه منه . ثم علل نهيه عن التحريك بقوله **(ان علينا)** كما وعدناك ولما اقتضته حكمتنا **(جمعه)** فى صدرك حتى نثبته فيه . **(و)** ان علينا أيضا **(قرآنه)** اى قراءته ، وهذا هو معنى القرآن : مصدر قرأقراءة وقرآنا ، ثم غلب القرآن على كلام الله المودع بين دفتى المصحف . ومعنى ان علينا قراءته : ان علينا أننوفقك لقراءته ودراسته بلسانك ، فتحفظه عن ظهر قلب ثم لا تنساه . ويحتمل أن يكون (قرآنه) بمعنى جمعه ، فان (قرآن) أيضا مصدر قرأ الشىء جمعه وضم بعض أطرافه الى بعض ، (فقرآنه) اذن معطوف على (جمعه) عطف تفسير ، كأنه يقول : ان علينا جمعه وتأليف أجزائه بعضها مع بعض .

(فاذا قرأناه) عليك بواسطة جبريل فاستنصت حتى يفرغ ، واذا فرغ **(فاتبع قرآنه)** ، اى تتبع فى نفسك قراءة جبريل مصغيا ، وكن على ثقة من وعدنا لك بأنك تحفظه ويرسخ فى قلبك ، ولا تجعل قراءتك مقارنة لقراءة جبريل . فكان صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم اذا ألقى جبريل عليه الوحى أطرق واستمع، فاذا ذهب قراه فى نفسه كما علمه ربه ، فيجده محفوظا منقوشا على لوح قلبه الشريف . وكما كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه بالقرآن وجبريل يلقيه حرصا على استظهار الألفاظ ــ كان أيضا يقف فى خلال القاءجبريل القرآن عليه وقفة المتسائل المستفسر حرصا على فهم المعانى . فنهاه ربه عن ذلك أيضا ، ووعده بأنه يبين له ما أشكل عليه بعدأن يحفظ الآيات ، وترسخ ألفاظها فى نفسه . وهذا معنى قوله : **(ثم ان علينا بيانه)** ، اى تفسيره وايضاحه والكشف عن معانيه .

هذا ما عليه جمهور المفسرين فى معنى الآيات ، لكن يبقى اشكال فى وجه ارتباطها بما قبلها ، وكيف صح الانتقال من خبر المكذبين بيوم القيامة ، وأنهم سينبأون فيه بأعمالهم كلها ــ الى نهيه صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه بالقرآن تعجيلا بحفظه واستظهاره ، ثم الرجوع الى الحديث مع المكذبين بقوله : (كلا بل تحبون العاجلة) ؟

وأحسن ما قيل فى الجواب أن الآيات السابقة كانت هى نفسها السبب فى نزول هذه الآية ، أى آية نهيه صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه . فبينما كان جبريل يلقى عليه هذه السورة من أولها : (لا أقسم بيوم القيامة) آية فآية ، كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه تعجيلا الى الاستظهار والحفظ ، فأوحى اليه ربه آية (لا تحرك به لسانك) ، ولقنه اياها جبريل غضة طرية فى غضون تلقينه الآيات التى حرك بها لسانه ، ليكون ذلك أدعى الى رسوخ مضمون آية النهى فى نفسه ، وتأدبه بأدبها . ومثلوا لذلك بالمعلم يلقى على تلميذه مسائل من العلم والتلميذ يكتبها فى صحيفة له ، ثم عثر على هذه

(١) على أن بعضهم يجوز اشباع كسرة الذال فى معاذر وأشباهه لضرورة وغير ضرورة ، ولعل الذى حسن الاشباع هنا ارادة المزاوجة بكلمة (بصيرة) .

(٢) بلغة اليمن . وفسر بعضهم المعاذير بالحجج كأنه جمع معذور أو معذار بمعنى الحجة ، لكن هذا المفرد لايستعمل ، فيكون معاذير من الجموع التى لامفرد لها كالمذاكير وأخواتها .

عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾

الصحيفة بعد ذلك فوجد فى غضون مسائلها العلمية هذه الجملة « لا تلتفت يمينا ولا شمالا » ، فيتعجب المتعجب من وجود هذه الجملة محشورة بين مسألتين من العلم غريبتين عنها ، حتى اذا عرف السبب ، وأن التلميذ كان فى أثناء الالقاء يتلفت يمينا وشمالا ، فنهاه استاذه بهذا القول المثبت فى الصحيفة ــ بطل العجب. ولله ورسوله وحيه المثل الأعلى . على أن هذا المثال ان كان المفسرون فرضوه فرضا فان فى كتب المحدثين مثالا له وقع بالفعل : ذلك أن بعض علماء الحديث كان يحدث الناس ، فدخل عليه رجل صالح كثير التهجد ، فلما وقع نظره عليه استطرد قائلا : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه فى النهار » ، ثم رجع الى ماكان فى صدده من الأحاديث ، فظن بعض من كان يكتب عنه أن قوله « من كثرت الخ » حديث ، فرواه عنه . وروى الامام مسلم فى صحيحه فى باب أوقات الصلوات الخمس حديثا جاء بين احاديث الباب غريبا عنها : لا علاقة له بها ، وهو قوله : « حدثنا يحيى بن يحيى التميمى ، أخبرنا عبد الله ابن يحيى بن أبى كثير قال سمعت ابى يقول : لا يستطاع العلم براحة الجسم » اهـ . ولا بد من مناسبة عرضت للامام مسلم وهو يحدث حملته على الاستطراد الى هذا الحديث .

ثم بعد ان اتم الوحى تعليمه صلى الله عليه وسلم كيف يفعل حين القاء القرآن عليه ، وأراد العود الى الحديث مع المخاطبين ــ خاطبهم بكلام لف فيه ما كان عاتب عليه النبى عليه السلام من أجله ونهاه عن فعله ، فقال : **(كلا)** ، أى ارتدعوا أيها البشر عما أنتم عليه من العجلة فى شئونكم وحب التسرع فى الوصول الى أغراضكم ، وهذا خلق عام شامل لجميع أفرادكم ، حتى من كان منكم فى أعلى درجات الكمال ، وأعظم مراتب العصمة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه لم يخل من عجلة فى بعض حالاته .

أنتم أيها البشر المكذبون لم تكذبوا بالوحى ايثارا للحق كما تزعمون ، **(بل)** من فرط عجلتكم ، أنتم قوم **(تحبون العاجلة)** ، أى الدنيا الفانية التى بين ايديكم ، وتؤثرون ملذاتها ، **(وتذرون الآخرة)** التى لم يحن وقت مجيئها بعد ، فتدعونها وتهملونها ، معرضين عن الأعمال الصالحة المؤدية اليها ــ كل ذلك بمقتضى فطركم وطباعكم التى غرز فيها العجل .

وانت يا محمد من حرصك على الآيات الآمرة بالفضائل والكمالات ــ تعجل بتحريك لسانك بها ، وتنسى ما وعدك ربك . من أن الآخرة لك ، ولا تكون لك الا باتمام توفيقك الى حفظ القرآن ، واستظهار آياته كلها من دون نقصان .

فكلا الفريقين خلق من عجل ، لكن عجل المكذبين فى الشر والعمل السيىء والحرص المذموم ، وعجله عليه الصلاة والسلام فى الخير والعمل الصالح والحرص المحمود . ومع هذا فقد نهى صلى الله عليه وسلم عنه ، ونبه الى وجوب الثقة بالآخرة المحققة له .

وما ذكرناه من معنى الآية فى خطاب المكذبين انما يفهم منها بنص العبارة ، أما ما خوطب به صلى الله عليه وسلم فيها ، فانه يفهم بطريق التعريض والاشارة .

ولما ذكر تعالى أن البشر يؤثرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسراتها الباقية ــ وصف مايكون فى تلك النشأة الآخرة من انقسام الناس الى فريقين : أبرار وفجار ، وقال انه يكون للأولين **(وجوه يومئذ ناضرة)** حسنة جميلة من ظهور آثار النعيم وبشاشة السرور عليها ، كما قال تعالى : (ان الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) ، أى رونقه وبريقه وحسنه وبشاشته . يقال: نضر الشجر والوجه واللون اذا نعم وحسن . ونضره الله (مخففة ومشددة) كأنضره : جعله ناضرا ناعما حسنا . وفى الحديث : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها » .

ثم وصف تلك الوجوه بوصف آخر وراء النضرة والحسن فقال : **(الى ربها ناظرة)** . وقد اختلف المسلمون فى تفسير هذه الآية اختلافا مبنيا على اختلاف آخر بينهم ، وهو : هل يرى الله يوم القيامة بحاسة البصر ؟ ففريق منهم ــ وهم أهل السنة ــ قالوا : انه يرى بالفعل بحاسة البصر ، ولا مانع يمنع من هذه الرؤية ، ولا تستلزم هذه الرؤية أن يكون البارى تعالى جسما يشغل حيزا من الفراغ . فالله قادر على أن يرينا ذاته من دون أن يكون فى حيز ، ومن دون أن يكون على بعد مخصوص منا ، ومن دون أن يكون هناك نور ينعكس عنه الى ابصارنا ، وغير ذلك من الشروط التى تتوقف عليها رؤية المحسوسات فى دار الدنيا عادة . على أن الرؤية ستكون فى الآخرة ، وللآخرة سنن ونواميس خاصة بها ، وبموجبها نرى الله كفاحا (1) ويكون لنا من وراء هذه الرؤية من البهجة والغبطة والمسرة ما لا يحاكيه شىء من ملذوذات الآخرة وضروب النعيم فيها .

---

(1) عيانا ومشاهدة .

وقد استدل هذا الفريق على مذهبهم بهذه الآية، وبأحاديث صريحة في حصولها للمؤمنين يوم القيامة، حتى أن بعض هذه الأحاديث رواه أكثر من عشرين صحابيا.

قالوا: وأما قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فمعناه أن الأبصار لا تدركه تعالى ادراك احاطة واكتناه. فالنفي منصب على الادراك لا على أصل الرؤية، فهو لم يقل انه لا يبصر، وانما قال: لا يدركه البصر. وفرق بين قولك: «ما أبصرته»، وقولك: «ما أدركه بصري»: اذ ان الأول يفيد نفي الابصار البتة، والثاني يفيد نفي أن يكون البصر أدرك المبصر. فالبصر يبصره تعالى يوم القيامة، والنفس تتلذذ برؤيته، غير ان البصر لايدركه ادراك كنه واحاطة.

وقال فريق آخر من المسلمين، وهم الذين يسمون معتزلة: انه تعالى لا يرى ولا يمكن أن يرى، واستدلوا عقلا بأن للرؤية شروطا اذا توفرت كان المرئي جسما ذا حيز البتة، وهذا لايجوز في حق الذات القديمة، ونقلا بآية (لاتدركه الأبصار)، وقالوا في آية (الى ربها ناظرة): ان النظر كما جاء في لغة العرب بمعنى الرؤية والمشاهدة بالحاسة، جاء بمعنى انتظار الشيء وتوقع حصوله، وهذا المعنى كثير في كلام العرب. ومنه قوله تعالى: (أنظرونا نقتبس من نوركم)، وتقول: «انا ناظر الى فلان مايصنع بي» تريد انك تنتظر وتتوقع منه حسن الصنيع في حقك. وفي حديث انس «نظرنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شنطر الليل» وسمعت «سروية» — وهي امراة كانت تستجدي بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون الى مقايلهم — تقول: «عيينتي نويظرة الى الله واليكم»، اي منتظرة معروفكم.

فمعنى كون الوجوه (الى ربها ناظرة): انها منتظرة (1) ومتوقعة وراجية النعمة والكرامة منه تعالى وحده، غير طامحة ولا متوجهة النفس الى غيره. وأولوا حديث الرؤية بأن تعلق العلم بذاته تعالى يكون يوم القيامة تعلقا تاما، وانكشافه انكشافا لا لبس فيه.

والسلف انفسهم اختلفوا في تفسير هذه الآية، بل اختلفوا في أصل الرؤية الالهية أيضا. فقال الحسن البصري: (وجوه يومئذ ناضرة) أي حسنة (الى ربها ناظرة) أي تنظر الى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر الى الخالق اهـ.

وقال مجاهد: (الى ربها ناظرة) أي تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شيء اهـ.

وقال منصور بن المعتمر: كان اناس يتذاكرون في حديث «فيرون ربهم»، فقلت لمجاهد: ان اناسا يقولون انه يرى. قال: «يرى ولا يراه شيء».

هذا ولو كان لمثلي مقال في هذا المجال لفضلت السكوت عن هذه المسألة وامثالها مما اختلفت فيه ظواهر النصوص، ولم يلزم منه مس جانب الألوهة، ولا ينشأ عنه ضرر في الدين، ولا تعطيل في مصالح البشر. ولو قال المعتزلي لربه يوم القيامة: اني يا رب لم انف الرؤية الا تمجيدا لذاتك، وتنزيها لها عن مماثلة الحوادث، وقال السني: اني يا رب لا أعتقد أن الرؤية تمس مقام الوهتك، ولم أثبتها واعتقدها الا طمعا في القرب منك وتلذذا برؤية وجهك ... لو قال كل منهما ذلك — ما كان الله الا راضيا عنهما، ومسبلا ذيل عفوه عليهما، وساخطا من حصول التفرقة في دار الدنيا بينهما.

وياليت المسلمين اضربوا في صدرهم الأول عن الاختلاف في امثال هذه المسألة: مما كان الخلاف فيه لفظيا أو فلسفيا، أو لا تكون له نتيجة عملية، أو لا ينقض أصلا من أصول الدين. وياليتهم مذ اختلفوا لم يوغلوا، ولم يجعلوا الاختلاف سببا للتفرقة. وهذا قرآنهم يهتف من فوق رءوسهم (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء)، ونبيهم صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرأوا القرآن ما أئتلفت عليه قلوبكم، فاذا اختلفتم فيه فقوموا عنه»: اي اذا شعرتم بأن النظر في الآيات، وتقليب وجوه الاحتمال في معانيها — يؤثر في رابطتكم الدينية ... فدعوا النظر بالكلية، خشية التفرقة.

ولعمري أن إنصراف المسلمين منذ قرون عن العلم النافع، واعراضهم عن النظر فيما يهذب اخلاقهم ويرقي اجتماعهم، ويشد عرا الاخاء بينهم — هو الذي جعلهم يوغلون في مسأله الرؤيه وامثالها، ويفرغون للخوض والنزاع فيها. وبذلك تقلص ظل العمل من ديارهم، وقام مقامه الجدل في مجالسهم واسفارهم، حتى أوشكوا أن ينطبق عليهم حديث «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل وحرموا العمل».

قلنا ان فريق السعداء الأبرار تكون وجوههم يوم القيامة ناضرة بنضرة البهجة والغبطة والسرور، وانهم ينظرون الى ربهم فيريهم من ذاته، ويحلهم من منازل كرامته — ما تقر به أعينهم، ويطيب معه عيشهم. أما فريق الفجار فأمرهم على العكس، وهذا ما قاله الكتاب فيهم: **(ووجوه يومئذ باسرة)**:

---

(1) ورد الازهري ان يكون النظر هنا بمعنى الانتظار قال: لان العرب لا تقول نظرت الى الشيء بمعنى انتظرته، وانما تقول نظرت فلانا (اي من دون حرف جر)، بمعنى انتظرته. واستدل بشعر للحطيئة، ثم قال: واذا قلت نظرت اليه لم يكن الا بالعين المجردة اهـ تاج، لكن الشواهد الأخرى التي نقلها الزمخشري تثبت ان النظر بمعنى الانتظار يتعدى بالى أيضا. ومنها قول الشاعر العربي:

واذا نظرت اليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ

شديدة الكلوح والعبوس . وكأن قائلا يقول : ولماذا كان حالها هكذا يا رب ؟ فأجاب **(تظن أن يفعل بها فاقرة)** ، اى انها عبست كل هذا العبوس لما تعلم من سوء اعمالها ، وقبح آثارها فى دار الدنيا ، فهى يوم القيامة (تظن) ، اى تتوقع ويغلب على رايها (أن يفعل) وينزل (بها فاقرة) : داهية عظمى تقصم فقار ظهرها . ومن كسر فقار ظهره هلك . فالفاقرة الداهية : سميت بذلك لما ذكرنا ، وجمعها فواقر . ويقولون « عمل به الفاقرة » اى الداهية التى كسرت فقاره . فقوله تعالى : (يفعل بها فاقرة) نحا به هذا النحو من الاستعمال . والضمير فى (تظن) برجع الى الوجوه ، والمراد اصحابها . كما أن المراد بالظن التوقع والرجحان وغلبة الرأى ، اذ مادام القوم لم يقذف بهم فى الجحيم بعد ، فهم يتوقعون العفو عنهم ، ويؤملون الرفق بهم . ومنهم من فسر الظن هنا بالاعتقاد واليقين فقال : ان تلك الوجوه توقن بنزول الفاقرة بها لما كسبت من خطيئاتها ، واقترفت من سيئاتها . والظن يكون بمعنى الاستيقان ، ومنه قوله تعالى : (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) .

ردعهم أولا فى قوله : (كلا بل تحبون العاجلة الخ) عن حب الدنيا وايثارها عن الآخرة ، ووصف مايكون لفريقى الأبرار والفجار فيها . ثم عاد ثانيا فردعهم عما ردعهم عنه أولا من الحب والايثار ، ووصف لهم ما يلاقونه لحين الموت من اليأس والشدة ، مشيرا لهم فى ذلك الى أن الآخرة ، ان استغربتموها او استبعدتموها ، فان الموت بابها ، وهو من اولى مقدماتها ، فقال :

(كلا) ، اى ارتدعوا أيضا عن ايثار الدنيا على الآخرة ، واذكروا ما ينزل بكم من فادح الهول **(اذا بلغت التراقى)** . والضمير فى (بلغت) يرجع الى الروح وان لم يجر لها ذكر لدلالة السياق عليها . ومثل هذا الاضمار معهود فى كلامهم . قال حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

و (التراقى) : جمع ترقوة . والترقوتان : عظمتان تمتدتان يمينا وشمالا من ثغرة النحر الى العاتق . وبلوغ الروح التراقى : كناية عن مشارفة الموت ، وظهور اماراته . وأهل المحتضر اذ ذاك يتجلدون عادة ، ويتداعون الى الصبر على أمل مداركة الأمر ، فيقول بعضهم لبعض حول فراش مريضهم : من طبيب حاذق ترونه أصلح من فلان الذى يطببه ، فان طبيبه لم يهتد الى دائه ، ولعل فى الثانى فرجا فيوفق الى شفائه ؟ وهذا معنى قوله تعالى : **(وقيل من راق ؟)** .

و (الراقى) : اسم فاعل كقاضى ، رقاه يرقيه اذا أجرى له عملية الرقية : وهى أن يعوذ المريض بكلمات سحرية او دينية ، ثم ينفث فى وجهه أو ينفث فى يدى نفسه ، ويمرهما على جسم المريض او فى العوذة التى يكون قد كتبها وبرك عليها . ويحتمل أن يكون المراد بالراقى هو هذا المعنى ، غير انا فسرناه بالطبيب ، لأن الأمم القديمة وعرب الجاهلية منهم كان يمارس الشخص الواحد فيهم الطب والكهانة والأعمال الدينية معا ، ويكون هذا الشخص كاهنا وطبيبا ورئيس دين فى آن واحد . وقد كان من جملة وسائل الطب القديم ممارسة الرقية للمريض . فالطبيب الذى يعوده ان شاء وصف له أدوية وعقاقير ، وان شاء رقاه ، وان شاء تكهن لهم عن مصيره . حتى اذا احتضر أجرى له المراسم الدينية حسب معتقداتهم .

وما زال هذا شأن الطبابة والكهانة والدين فى الأمم القديمة حتى توزعت تلك الوظائف فى الأزمنة المتأخرة ، وقام كل بواحدة منها . ولا يبعد أن يكون عرب الجاهلية قد سموا الطبيب راقيا لذلك ، قالت الخنساء :

لكن سهام المنايا من يصبن له
لم يشفه طب ذى طب ولا راقى

قوله ، **(وظن)** ، اى المحتضر ، والمراد بالظن غلبة الرأى ، ويحتمل أن يكون المراد به اليقين **(أنه)** ، أى أن الشأن والأمر الذى نزل به هو **(الفراق)** : فراق الأهل والولد والدنيا المحبوبة .

وقوله : **(والتفت الساق بالساق)** اراد به وصف نهاية الشدة التى نزلت بالمحتضر بعد ان بلغت روحه تراقيه . والعرب تذكر الساق فى امثال مختلفة وتريد بها كلها اشتداد الأمر ، والتحرم له ، فيقولون : « كشف الأمر عن ساقه » ، و « قامت الحرب على ساق » ، و « قام فلان على ساق » ، و « قرع فلان للأمر ساقه » ، كما يقولون « ساق المريض نفسه » عند الموت ، و « سيق المريض » بالبناء للمجهول اذا شرع فى نزع الروح ، فقوله تعالى : (والتفت الساق

بالساق) كناية عن اشتداد الأمر على الميت وأهله ، فالتفت فى ساحتهم آخر خطوب الدنيا بأول خطوب الآخرة ، فكأنه جعل للدنيا والآخرة او خطوبهما سيقانا تلتف وتزدحم . وقال بعض المفسرين : المراد بالساقين فى الآية ساقا المحتضر ، وانه عند نزع الروح يضمهما ويلوى احداهما على الأخرى ، وهذا هو التفافهما ، أو المعنى انهما يلتفان فى الكفن مشدودتين فلا تفترقان .

ويخطر لى أن التفاف السوق فى الآية كناية عن تزاحم اهل المحتضر واكبابهم عليه ، والتفاف سوقهم بعضها ببعض حواليه ، كما قال ابو العلاء المعرى :

تجمــــع أهــله زمرا عليــــه
وصاحت عرسه . أودى ، فصاحوا
تكلمنــــا بأفــواه المنــايا .
من الأيام الســـنة فصــــاح

فاذا نزل بك الموت أيها الانسان ، وانتزعك من بين الأهل والصحب والخلان — فهل تدرى الى اين تقاد وتساق ؟ **(الى ربك يومئذ المساق)** ، اى سوقك وجرك من تلابيبك يكون بعد موتك الى ربك . فهو الحكم العدل ، وله وحده فى امرك القول الفصل ، فكيف لا ترتدع عن حب العاجلة ، ونسيان الآخرة ، وانت تعلم أن الأمور الى الله صائرة ؟

قوله : (فلا صدق ولا صلى الخ) احتجاج على الانسان الجاحد ، وتفصيل لما اجمله اولا : من امر عناده وتكذيبه مذ كان يقول : (أيان يوم الدين) ؟ ممهدا لنفسه سبيل الاسترسال فى الفجور . فالوحى بعد ان ذكره بأهوال يوم القيامة ، ووصف من حالته يوم يلاقى حمامه — قال : **(فلا صدق ولا صلى)** اى فهو لا (صدق) بالله ولا بوحيه ولا نبيه (ولا صلى) الى الله ، ولا دعاه ، ولا استغفره من فرط فجوره وجحوده ، وانما كان يصلى الى الطواغيت والأصنام . والأولى حمل الصلاة على هذا المعنى لا على معنى الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود لما قلناه عند قوله تعالى : (قالوا لم نك من المصلين) ، والمراد بالانسان الذى لا صدق ولا صلى ابو جهل ، فان ما وصفه من حاله وشكله هنا هو الذى كان السبب فى نزول الآية . على أن هذا الوصف والتقريع يصلحان لكل انسان صنع صنيعه ، وارتكب من الاثم منكره وشنيعه .

و (لا) الداخلة على صدق وصلى نافية مثل (ما) غير أن (ما) تدخل على الفعل من دون تكرير ، يقال : « ما صدق زيد » كما يقال « ما صدق وما صلى » ، اما (لا) فلا بد من تكرير الفعل معها ، فيقال : « لا صدق ولا صلى ، ولا قام ولا قعد » ولا يقال « لا صدق » او « لا قام » من دون تكرار ، وكلما تكررت الافعال مع (لا) راجت فى الاستعمال ، وحسن وقعها فى النفوس كقول الراجز :

تسائلنا عن بعلها اى فتى :
خب جبــــان واذا جاع بــكى
لا حطب القوم ولا القوم سـقى
ولا ركاب القوم ان ضلت بغى
ويأكل التمــر ولا يلقى النـوى
كأنه غرارة مــلأى حثــا (١)

وقوله : **(ولكن كذب وتولى)** اى ان ذلك الانسان منكر البعث ما آمن بدين الله ولا عبده ، ولكن كذب به ، وأعرض عن عبادته ، والقيام بواجب طاعته .

وكان ابو جهل ونظراؤه من صناديد قريش المكذبين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يغشون مجلسه ، ويستمعون القرآن منه ، ثم يأخذون فى التكذيب والمشاغبة والاستهزاء ، ويرجع الواحد منهم بعد انفضاض المجلس الى اهله وعشيرته متكبرا متبخترا ، مباهيا بما كان منه فى مجلس النبوة من الجحود والاباء والمكابرة والاستهزاء ، والسباب والبذاء ، والاسماع والايذاء ، ليكون له بذلك الفضل عليهم ، والمنزلة الرفيعة فيهم ، وليصرفهم عن الايمان ، وتدبر آيات القرآن ، وليوقع فى نفوسهم أن امر محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بالأمر الكريم ، ولا بالذى يستحق العناية والتعظيم .

هكذا كان شأن الواحد من هؤلاء المكذبين فى معاندة الحق ، واطفاء نور الوحى .

وكان صلى الله عليه وسلم هو والصحابة يتأذون بهم ، ويتعوذون الى الله من شرهم وتخذيلهم عن الاسلام ، وصدهم الناس عن الدخول فيه . فكان الوحى السماوى يكفيهم مؤونة اولئك المكذبين المستهزئين بوصف أطوارهم ، والكشف عن عوارهم ، واطفاء ما اوقدوه للفتنة من نارهم : بمثل ما قاله فى هذه الآيات : من انك ترى الواحد منهم شديد العناد : (فلا صدق) بالله (ولا صلى) اليه (ولكن) اذا حضر مجلس النبى وتلاوة آيات الوحى (كذب) ذلك كله (وتولى) معرضا عنه زاهدا فيه ، **(ثم)** بعد أن يجادل ويقاوم الحق جهده تراه قد **(ذهب)** راجعا **(الى أهله)** وعشيرته **(يتمطى)** فى مشيته ويتبختر كأنه عاد اليهم بكنوز كسرى وقيصر ، وهو لم يفعل سوى قول الزور والأمر المنكر .

واصل (يتمطى) يتمطط بثلاث طاءات من المط وهو المد ، والمتكبر اذا مشى متبخترا يمط أطرافه ، ويتكفأ ويرجح بذراعيه ، وهذه المشية تسمى المطيطاء ، وهى مشية بنى مخزوم فى الجاهلية وأبو جهل منهم ، وقد ورد النهى عنها فى الحديث ، وانما قلبت الطاء الثالثة فى يتمطط ألفا فقيل (يتمطى) للتخفيف ، ولهذه الكلمة نظائر فى اللغة فى الفعل الثلاثى المضاعف

---

(١) معنى (لا حطب القوم) انه كسول : لا يجمع لقومه الحطب للايقاد والطبخ و(الغرارة) الجوالق ، والحثا (التبن) .

سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

اذا جيء به من التفعل ، فتتوالى الأمثـال ، فتقلب الأخيرة الفا : فاذا جيء بظن من باب تكلم قيل : تظنن وتظنى ، وبقض : تقضض البـازى وتقضى اذا هـوى ليقع ، وبمط : تمطط وتمطى ، وهكذا .

وقيل ان (تمطى) من (المطا) وهو الظهر ، لأن الذى يمشى المطيطاء متبخترا يلوى مطاه ، ويوسع خطاه .

وبعد ان وصف الوحى من أمر ذلك المتكبر المتبختر ماقبح وسمج ـ عاد اليه فقال مخاطبا له : **(أولى لك فأولى)** . وهذه العبارة ذهبت فى لغة العـرب مذهب المثل فى التخويف والتحذير والتهديد والوعيـد . و (أولى) أفعل تفضيل من وليه الشيء : قاربه ودنا منـه ، فمعنى (أولى لك فأولى) قد وليـك الشر واوشك أن يصيبك ، فاحذر وانتبه لأمرك . وقيل ان (اولى) بمعنى احق واجدر ، اى أن العقاب أو الهلاك يا هذا اجدر بك ، وقيل انه بمعنى (ويل لك) ، وفى اعادتهـا وتكريرها فى الآية زيادة تأكيـد فى التهـديد والوعيـد ، ولا سيمـا اقتران الثانيـة بثم مذ قال : **(ثم أولى لك فأولى)** ، اى بعد كل ما تتجلد به وتقوله فى اظهار عدم الاكتراث بأمر الله والخوف من عقوبته ـ فانى أكرر عليك التحذير والتخويف ، فاحذر وانتبه لنفسك ، قبل نزول العقوبة بك . والجملة فى أصل وضعها تفيد معنى التهديد والوعيد ، وقد فهم ذلك منها أبو جهل نفسه مذ أخذ صلى الله عليه وسلم يوما بتلابيبه وقال له : « أولى لك فأولى ، ثم اولى لك فأولى » ، فقال ابو جهل : « أتوعدنى يامحمد ؟ والله ماتستطيع أنت ولا ربك فى شيئا ، والله لأنا أعز من مشى بين جبليها (١) » ، ثم لم يلبث أن قتل ببدر شر قتلة ، وتكرير (أولى لك) معهود فى كل مهمّ ، ومنه قوله :

أردت لنفسى بعض الأمـــور
فأولى لنفسى أولى لهـــا

---

(١) قوله (بين جبليها) اى بين جبلى مكة ، وهذا كما يقال عن المدينة (بين حرتيها) .

لا شيء فى القـــرآن أعجب ـ ولله معجب ـ من أساليبه فى خطاب المكذبين ، ومذاهبه فى ايراد كلمات النصح والوعظ على أسماعهم . فهو يمزج لهم مرارة التهديد والوعيد بحلاوة التبشير والترغيب ، واذا ذكر ما يفيد اليأس منهم ، عاد فذكر ما يشير الى الرجاء فيهم ، ولا يذكر آية نار او عذاب الا ذكر بعدها آية جنة أو نعيم ، واذا صدعهم بكلمات الزجر والتعنيف شفعها بكلمات الترقيق والتلطيف . وانظر هنا كيف زجر الانسان المكذب اولا بقوله : (أولى لك) ، اى الويل لك ، أو العقاب على مقربة منك ، فاحذر ايها المتكبر المتعجرف وانتبه ، ثم عاد فقال له : **(أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعـل منـه الزوجـين الذكر والأنثى : أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟)** .

ان ايراد هذه الآيات اللينة بعـد تلك الشـديدة الخشنة ليجتذب القلوب المقفلة ، ويفكك عنها عراها ويستنزل العصم (١) العاقلة من قننها وشماريخ ذراها .

ومعنى (أن يترك سدى) أن يترك هملا : لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف عملا ، ولا يخاطب بشرائع يصلح بها أمره ، ويرتقى على سلمها اجتمـاعه ، حتى يبلغ درجة الـكمال التى قدرهـا الله له ؟ كلا ، لا يحسب الانسان ذلك ، ولا يتهمن الذات الالهية بأن تدعه مـن عنايتها ، وتنسـاه من عطفها ورعايتها ، بحيث يبقى كالبهائم المرسلة : قصاراها حفظ نوعها بالتوليد وتناول الغذاء ، ثم يكون مصيرها الى الزوال والفناء . لا جرم أن نوع الانسان اكرم على الله من هذه العجماوات ، فهو يمده من وحيه وتشريعه بما يسمو به الى اعلى الدرجات ، فى هذه الحياة وبعد الممات .

اذا تمثل المرء فى ذاكرته شخصه الكريم ـ عليـه الصلاة والتسليم ـ واقفا على نشز فى برية الحجاز القاحلة ، مشرفا على تلك القبائل الخاملة الجـاهلة : التى لم تفقـه مـن أسرار الوجـود ونظام الاجتمـاع ونواميس العمران سوى ما لابد منه فى حفظ حياتها ، بل كانت حياتها أيضا عرضة للفناء والاضمحلال : من تواتر الحروب واستحرار القتال ، وهو صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم هذه الكلمة الحكيمة من وحى ربهم ، ويتلتل نفوسهم الجامدة بهذه العظة الاجتماعية مـن عظات خالقهم : (ايحسب الانسان ان يترك سدى) ؟ من دون شرع يوفر له أسباب الرغد والهناء ، ونظام يكفل له سعادة الاجتماع ودوام الارتقاء ؟ .. من أعاد الى نفسه هذه الذكرى مقرونة بجميع ملابساتها مـن

---

(١) (العصم) جمع أعصم الوعل فى يده بياض ، و (العاقلة) التى اتخذت قنن الجبال معقلا لها تمتنع فيـه عـلى صائدها ، ويضربونها مثلا لكل ما كان ممتنعا يعسر الوصول اليه .

اطوار الزمان ، واحوال المكان ، واخلاق السكان ــ علم ان محمدا صلى الله عليه وسلم رجل لا كالرجال ، وشارع الهى حكيم لم يأت له التاريخ بمثال .

وقوله : (**نطفة**) ، أى ماء قليل . (**يمنى**) : يراق ويصب . (**علقة**) : قطعة دم غليظة متجمدة . وقوله (**فخلق**) ، أى قدر الله تلك العلقة . ومعنى قدرها جعلها ذات قدر وشكل ووضع مؤد الى قيامها بوظيفتها ، وحسن الانتفاع بها . فالخلق هنا ليس معناه الايجاد من العدم ، لأنه تعلق بالعلقة وهى سابقة فى وجودها ، لكنها لم تكن مخلقة ومقدرة تقديرا ترتقى فيه فى مراتب الحياة الكاملة ، حتى كان الله تعالى هو الذى قدرها وكملها . وليس ذلك فقط بل انه تعالى بعد أن قدرها ، سواها : أى جعل أجزاءها وأعضاءها متساوية متعادلة متلائمة : بعضها مناسب لبعض ، ومواتٍ له فى عمله ، فلا يقع بينها تضاد ولا تدافع فى ايفاء وظائفها التى خلق المجموع لأجلها .

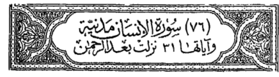
(فالخلق) بمعنى التقدير ملاحظ فيه مجموع الجسم ، وصلاحيته بجملته للغرض الذى خلق من اجله . و (التسوية) ملاحظ فيها كل عضو او جزء بالنسبة الى الجزء الآخر ، وتلاؤمه معه بحيث تؤدى كل الأجزاء أو الأعضاء وظائفها على وجه الكمال .

والضمير (**منه**) قالوا انه راجع الى الانسان ، اى انه تعالى بعد أن خلق العلقة فسواها انسانا ، خلق من الإنسان الذكور والاناث ، يعنى أن الانسان الواحد يولد له أولاد ذكور وأولاد اناث .

ويخطر لى انه راجع الى الماء القليل الذى يصب صبا ، فيفيد بذلك زيادة فى تصوير الحالة ، وتجسيم الغرابة امام عينى الانسان ، فيدرك أن الزوجين الذكر والأنثى اللذين يتكون من بينهما البشر لم يخلقا الا من مويهة حقيرة : حرارة الشمس تطيرها بخارا ، ومسحة نعل تلاشيها فلا تبقى لها آثارا .

هذا هو أصل الانسان والعرق الذى ينتمى اليه . فليتدبر الأمر ولينصف فى الجواب على هذا السؤال: (**أليس ذلك**) الاله الخالق الحكيم الذى رقى بالانسان من طور نقصه وحقارته ، الى طور كماله وسعادته ــ (**بقادر على ان يحيى الموتى ؟**) فيرقى بهم من طور التراب الذى صاروا اليه ، الى طور من الوجود والخلق اكمل يصبحون عليه ؟ بلى ! فان من قدر على خلقهم من ماء مهين ، قادر بالضرورة على اعادة خلقهم من تراب وطين ، لاسيما والاعادة أهون من البدء ، وجمع المتفرق أسهل من ايجاد المعدوم .

يروى انه صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟) اتبعها بقوله (بلى سبحانك !!) .



بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

قوله : (**هل اتى الخ**) وان كان فى صورة الاستفهام فان المراد به التقرير والتحقيق فتكون (هل) قامت فى الآية مقام (قد) نفسها . وذلك كقولك لآخر : « هل اكرمتك ؟ » والمخاطب يعرف أنك اكرمته . وانما تريد تحقيق الاكرام وتأكيد امره . كأنك تقول : « قد اكرمتك » . وكذلك الشأن فى الآية ، فان كل واحد من بنى الانسان مر عليه وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا بل كان شيئا منسيا لا يفطن له أحد ، وذلك مذ كان جرثومة فى صلب ابيه ، او جواهر فردة منبثة فى عناصر هذا الكون . أو المراد بالانسان نوع الانسان بجملته ، فانه ايضا مر عليه حين من الدهر ــ الله وحده يعلم مقداره ــ كانت هذه الكرة الأرضية خالية منه ، فلم يكن شيئا مذكورا ، بل كان شيئا منسيا مغمورا ، لايذكره ولا يعلم به الا الذى يريد أن يخلقه وهو الله تعالى .

بعد ان قرر أن الانسان مر عليه وقت لم يكن فيه موجودا اخذ يشرح كيف افاض الله عليه نعمة الوجود واختبره بالتكليف بعد أن متعه بنعمة الادراك والحواس فقال : (**انا خلقنا الانسان**) ، أى نوع الانسان ، أو كل فرد من افراده (**من نطفة**) : مويهة وهى القليل من الماء ، كما ذكر فى ختام السورة السابقة . فتكون فاتحة هذه السورة مرتبطة بخاتمة تلك ، ومقررة لمضمون ما ذكر فيها . وهذه النطفة (**امشاج**) ، أى أخلاط واحدها مشج ومَشَج ومشيج ، يقال مشج الشيئين ، ومشج بينهما اذا خلطهما ومزج أحدهما بالآخر . ووصف (النطفة) وهى مفرد بالأمشاج وهى جمع على عادة العرب فى طائفة من كلمات لغتهم هى جموع لكنهم يصفون بها المفردات اعتبارا بأجزائها : فيقولون مثلا « ثوب اخلاق » كما يقولون « ثوب خلق » ويريدون فى الأول أن الخلوقة أى البلى عمت جميع اجزائه ولم تقتصر على بعضها . اما قولهم ثوب خلق بالافراد فليس نصا فى خلوقة

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا
وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا

جميع الأجزاء ، بل يحتمل أن يكون بعض أجزائه خلقا وبعضها غير خلق . وهكذا نطفة أمشاج فانه يدل على أن كل جزء منها مشيج مزيج من طبائع مختلفة ، وعناصر متعددة .

وأمشاج البدن عناصره وطبائعه التي يتركب منها . فالآية تشير الى أن العناصر والطبائع التي يتركب منها بدن الانسان لحين اشتداده وتمام نموه كانت مخبوءة في النطفة الصغيرة والمويهة الحقيرة التي تكون منها . واذا كان الانسان قد ركب من طبائع أمشاج مختلفة فهو يورث تلك الطبائع بالضرورة أنساله وأعقابه ، فتنتقل اليهم ، وتتوزع بين أفرادهم ، على تفاوت في ذلك من حيث الكيف والكم ، والقوة والضعف ، والأحوال الأخرى . وهذا معنى قوله تعالى : (وقد خلقكم أطوارا) عند من قال من المفسرين ان المراد بالأطوار الفرائز المتباينة ، والطبائع المختلفة التي ركبت في فطر البشر .

ولماذا يارب خلقت الانسان هكذا أمشاجا ذا طبائع مختلفة ، غرستها فيه منذ كان نطفة ، ثم نقلتها الى أفراده بعد أن شبوا وكبروا وتفرقوا على وجه البسيطة ؟ قال تعالى في جواب هذا السؤال : انا خلقناه كذلك (**نبتليه**) ، أي مريدين ابتلاءه واختباره فيما نوحيه اليه من الشرائع والتعاليم ، وفيما نمهده أمامه من سبل التكاليف ، لنرى : أيكفر أم يشكر ؟ ويستقيم في سيره أم يضل ويعثر ؟ ولو لم يكن نوع الانسان مخلوقا أمشيجا من طبائع مختلفة ، وغرائز متباينة ، بل كان ذا عنصر بسيط ، وطبيعة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين — لكانت أفراده كذلك ، فيندفعون في أعمالهم ومساعيهم الى سلوك طريقة واحدة ، والتزام شاكلة فاردة ، فلا يتم الابتلاء والاختبار الذي أراده تعالى في قوله (نبتليه) ، ولا يبقى معنى للتشريع والتكليف ، بل لم يكن عالم بشرى ، ولم ينشأ عمران انساني . وربما كان هذا هو تأويل قوله تعالى في سورة هود : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) ، أي ذات صبغة في الطبائع والغرائز واحدة . لكنه تعالى لم يشأ ذلك ليتم قيام العالم الانساني ويبلغ طور كماله ، فجعلهم أمما مختلفة في الطبائع والغرائز والاستعدادات : فهم بسبب ذلك يختلفون في مساعيهم ، ويتنافسون في أعمالهم وسائر شئونهم ، (ولا يزالون) هكذا (مختلفين) اختلافا يؤدي ببعضهم الى سعادته ، وببعضهم الآخر الى شقاوته ، (الا من رحم ربك) أي لكن الموفقين ممن رحمهم الله ، وأراد لهم السعادة — يسلكون سبلها ، ويردون مشارعها . (ولذلك) أي لأجل هذا الاختلاف الذي يتوقف عليه قيام أمرهم ، ونشوء عمرانهم ، وتكامل اجتماعهم — (خلقهم) سبحانه وتعالى .

قلنا : ان الله تعالى خلق الانسان من نطفة أمشاج فكان ذا طبائع أمشاج ليتم الابتلاء والاختبار . ولكن هل يتم ذلك من دون أن يكون للمبتلى الممتحن عقل ونطق واختيار ؟ كلا ، ولذلك قال تعالى : (**فجعلناه سميعا بصيرا**) ، أي خلقناه من نطفة ذات أمشاج لأجل امتحان أمره بالتكاليف والشرائع (فجعلناه) من أجل ذلك ، ومن أجل أن تقوم الحجة عليه (سميعا) : ذا سمع يسمع به الوحي والحكمة والشرائع ، (بصيرا) : ذا بصر يبصر به الآيات والعبر ، ويسعى بنوره الى تلقي العلم والمعرفة ، وما به يقوم أمره ، وينتظم حاله . فلم يبق له — بعد أن منحناه السمع والبصر — من حجة يحتج بها ، أو عذر يتعلل به .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : (فجعلناه سميعا بصيرا) : اننا جعلناه ذا عقل وادراك يميز به الخير من الشر ، والحق من الباطل ، ويتمكن من اختيار ما به صلاحه وسعادته . وانما كان قوله : (سميعا بصيرا) دالا على ذلك ، لأن استجمام عقل الانسان ، واستجماع قواه ومداركه — انما يكون من طريق هاتين الحاستين : السمع والبصر . ولو ولد البشر صما عميا منذ أول نشأتهم على وجه البسيطة — ما كان لهم من العقل والادراك مثل ما لهم اليوم ، أو ما كانوا بشرا ، بل مخلوقا آخر له سنن لحياته ونواميس لمعيشته ... الله أعلم بها .

أهذا يارب كل ما منحته الانسان وسلحته به ارادة الابتلاء والاختبار الذي كتبته عليه مذ خلقته ؟ أم هناك شيء آخر وراء ذلك ؟ فان عقل الانسان مهما حصف ، ومداركه مهما استحكمت — تبقى معرضة للغي والزيغ مرة ، والحيرة والاضطراب مرة أخرى ؟ قال تعالى : (**انا**) فوق ما منحنا الانسان من نعمة العقل والادراك (**هديناه**) : دللناه وارشدناه وأريناه (**السبيل**) . والمراد بالسبيل جنس السبيل كأنه يقول : أشرعنا أمام عينيه السبل المختلفة مذ أوحينا اليه شرائعنا بواسطة الرسل . وقد تضمنت هذه الشرائع أمهات الفضائل والأعمال الصالحة ، وأمرناه بممارستها ، واتباع طريقها . كما أبنا له في هذه الشرائع الذنوب والآثام التي لانرضاها له ، ونهيناه عن

ايانها ، وسلوك طريقها ، انزلنا له ذلك ، ودللناه عليه .
ثم انه بعد هذا ، وبعد أن منحناه العقل ـ **(اما)** أن يكون **(شاكرا)** لنعمتنا ، فيسلك سبيل الخير والطاعة ، فيستحق رضانا ، وندخله دار كرامتنا ، **(واما)** أن يكون **(كفورا)** لأنعمنا ، فيخالف أمرنا ، ويكذب وحينا ، ويختار لنفسه سبيل الشر والفجور ـ فيستحق سخطنا ، وندخله دار عذابنا . فالله تعالى دل الانسان على سبيلى الشكر والكفر ، وعليه هو أن يختار سلوك هذا أو ذاك . وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للانسان ارادة واختيارا هما مناط التكليف .

قوله : **(انا اعتدنا الخ)** شروع فيما أعده الله يوم القيامة لكل من فريقى الشاكرين الطائعين ، والمعاندين الجاحدين . ومعنى (اعتدنا) أعددنا وهيأنا . و (السلاسل) القيود ، وقالوا انها تكون فى الأرجل . أما (الأغلال) فالأطواق من حديد أوقد ، وتكون فى الأيدى . و (السعير) النار الموقدة .

(والأبرار) جمع بر بفتح الباء ، والبر والبار من جمع فى نفسه بين الصدق والتقوى والاخلاص الى الله والاحسان الى خلقه . و (الكأس) كما تطلق على الزجاجة بشرابها تطلق على الشراب نفسه . وضمير (مزاجها) يرجع الى الكأس بالمعنى الثانى . وكل شيئين اختلطا كان أحدهما مزاجا لصاحبه ، فمزاج ذلك الشراب الذى يشرب منه الأبرار كافور . و (الكافور) طيب معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين ، وهو من أنفس الطيوب عند العرب . والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها ـ فى طيب رائحتها وفوحان شذاها ـ كالكافور .

ولما ذكر أن الأبرار يشربون شرابا هذه صفته ـ عاد فمدحه بقوله : **(عينا يشرب بها عباد الله)** . فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح ، وفى ذكرها زيادة بيان للشراب الذى يشربه أولئك الأبرار ، من حيث أنه مستمد ومستقى من تلك العين . وفعل (يشرب) يتعدى الى مفعوله بنفسه تارة فيقال يشربها ، وبالباء تارة كما فى الآية فيقال يشرب بها ، ومنه قول عنترة فى ناقته :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت
زوراء تنفر عن حياض الديلم

والدحرضان ماءان يقال لأحدهما « دحرض » . وللآخر « وسيع » فغلب دحرضا لشهرته على الآخر . يقول : ان ناقته شربت من ماء هذين الموردين ومن ثم أصبحت مائلة نافرة عن الحياض الأخرى المسماة « حياض الديلم » ، وقد اختلفوا فيها وفى سبب تسميتها بحياض الديلم اختلافا كبيرا .

وقال البصريون : الباء فى الآية وفى قول عنترة وأمثالهما زائدة كزيادتها فى قوله تعالى : (ألم يعلم بأن الله يرى) ، وفى قول الشاعر :

من الحرائر لا أرباب أخمرة
سود المحاجر لا يقرأن بالسور

وفى قولهم : « تكلم فلان بكلام حسن » ، فيجوز حذف الباء فى الكل .

و (عباد الله) هم الأبرار المذكورون ، أعاد اسمهم بهذا الوصف تكريما لهم ، وتشريفا باضافتهم اليه تعالى . و (فجر) الماء بالتشديد مبالغة فى فجر الثلاثى اذا بجسه وشق له طريقا يجرى فيه بشدة بعد أن كان محبوسا . وقوله : **(يفجرونها)** وصف للعين التى يشرب ماءها الأبرار . يقول : ان تلك العين مواتية لهم فى الانبثاق والجريان ، فهم ينتفعون بها ، ويتناولون ماءها كيفما شاءوا وأحبوا . وسيأتى لنا فى هذه السورة بيان النعيم الذى يكون للأبرار فى الجنة ، والعذاب الذى يكون للفجار فى جهنم .

كأن قائلا يقول : وبماذا استحق الأبرار منك هذا الاكرام يارب ؟ فأجاب بقوله : **(يوفون بالنذر ويخافون الخ)** ، فذكر من خلائقهم التى استحقوا بها ذلك ثلاث خصال : خوفهم يوم القيامة ، فان الخوف الحق منه يجعل المرء ينشط للطاعة ، وعمل الصالحات ، وممارسة الفضائل ، واجتناب المعاصى . وان لم يفعل لم يكن خائفا ، ولم يكن من الأبرار وان اتسم بسمتهم ، وادعى أنه مستقيم على مثل طريقتهم .

و (مستطيرا) : منتشرا فاشيا فى كل جهة . وأكثر ما يستعمل فى ما فيه نار أو نور . يقال : استطار الحريق ، واستطار الفجر والبرق .

والشر والشيب يستعار لهما اشتعال النار كثيرا ، فناسب أن يقال فيهما استطار . ويقال أيضا استطار الغبار اذا سطع وانتشر .

وذكر من خلائق أولئك الأبرار أيضا العناية بضعفاء البشر ومواساتهم ، والاجتهاد فى ايصال كل خير اليهم ، ودفع كل ضر عنهم فقال تعالى : **(ويطعمون الطعام الخ)** ، وقد قلنا ان هذا الخلق من أخص أخلاق الأبرار ، ومن ثم قال الحسن البصرى : « البر من لا يؤذى الذر » . وانما ذكر من ضروب المواساة اطعام الطعام لكونه الأصل فى قيام البنية ، وحصول الحياة ، والا فان البار لا يقتصر من عمل الخير ومعونة الضعفاء على الاطعام فقط . وسيأتى . وقد عم فى عنوان هؤلاء الضعفاء أولا فقال **(مسكينا)** ، والمسكين مشتق من السكون ، وهو الذى جعله فقره أو ضعفه أو ذله أو انقطاع اسباب الدنيا عنه ـ ساكنا قليل الحركة بحيث لا يفطن اليه فيعطى ، ولا يعتنى به فيواسى . ثم خص من هؤلاء المساكين نوعين هما أشد عرضة للضياع والتلف من سائرهم : (اليتيم) ، وهو الصغير الذى فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال ، أو المراد به هنا من فقد كافله من أب وأم وغيرهما فأصبح وحيدا بمعزل عن الناس ، فان اليتيم فى اللغة المنفرد من كل شىء حتى سموا البيت المنفرد والبلد المنفرد والرملة المنفردة يتيما لذلك . فهذا الصغير المنفرد عن الكافل فى مدرجة الهلاك والضياع ، وان العناية به بالتربية والتعليم والاطعام والالباس من سمات الأبرار ، والتفريط فى حقه واهمال أمره من صفات الفجار .

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا

ومن الضعفاء الذين خصهم القرآن بالذكر من بين المســاكين ، وحض على مواساتهم واطعامهم والعناية بهم (الأسير) ، ويعنى به من كان من غير أبناء ملتنا اذا وقع فى أيدينــا بعد حرب وقتال . أما مواســاة الأسير اذا كان من ابناء ملتنا فبالطريق الأولى . هؤلاء الأســارى ــ لمخالفتهم لنا فى الدين والقومية واللغــة احيانا ، ولانقطاعهم فى بلادنا عن الناصر والمعين ، ولمـا تأصل بيننا وبينهم من الأحقاد والعداوات ــ يصبحون عرضــــة للايذاء والتحقير والعنت . فالقرآن هتف بالمؤمنين منبها لهم ، ومحذرا من اجاعتهم وارهاقهم واساءة معاملتهم مذ قال (وأسيرا) ، أى ومن صفات الأبرار أنهم يطعمون الأسير غير المسلم ، ويرفقون به ، ولا يدعون أحدا يخلص بشر أو أذى اليه ، ولا يحملونه فوق طاقته من الأعمال .

تقول : ومن أين فهمت النهى عن الأذى والله تعالى انما أمرنا باطعامه ؟ أقول ان هذا على حد قوله تعالى : (ولا تقل لهمـا اف) . نهانا عن كلمة أف للوالدين ، فكان نهيا عن سائر ضروب الاغضاب ، وهنا نهانا عن اجاعة الأسير فكان أمرا بالمواساة العامة ونهيا عن سائر ضروب الايذاء ، لأن الأذى النفسى أشد نكاية وايلاما من الأذى الجسمى ، وليس ذكر الطعام الا مثالا . قال المفسر النيسابورى : « ثم ان الاطعام ليس بواجب على التعيين ، ولكن الواجب مواساته بأى وجه كان ، وانما عبر عن المواساة بالأطعام لأن سبب نزول الآية كان كذلك ، ولأن المقصود الأعظم من أنواع الاحســان هو الطعام الذى به قوام البدن ، يقال : « اكل فلان مال فلان اذا أتلفه بأى وجــه كان ، وان لم يكن بالأكل نفسه » اهـ .

اما أن المراد بالأسير الأسير غير المسلم فهذا ظاهر من أن المخاطبين لحين نزول هذه الآية لم يكن يقع فى أيديهم الا الأسارى من مشركى العرب . وقد نقل عن عكرمة وقتادة أنهما قالا فى تفسير هذه الآية : « لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن اليهم وان أسارى الصحابة يومئذ لأهل شرك » ، وقال الحسن البصرى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه الى بعض

[...] اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفســه . وكفى بهـذا منقبة للقرآن ، وشهادة على سمو آداب الاسلام .

وقوله : (على حبه) ، أى على حب الطعام . والمعنى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم الى ذلك الطعام فى سـد جوعتهم وجوعة عيالهم يطيبون نفسا عنه للبؤســاء ، ويؤثرونهم به على أنفسـهم .

أما الخصلة الثالثة التى استحق بها الأبرار رضاء الله وكرامته فهى الوفاء بالنذر . وأنت ترى أنه خص هذه الخصلة بالتقديم على الخصلتين الأخريين ، وليس ذلك لأن المراد بها أن ينذر المؤمن لله صيام يومين ، أو صلاة ركعتين ، أو اطعام رغيفين ، ثم يفعل ما نذره ــ ليس المراد ذلك وان كان الوفاء بما ذكرنا مطلوبا شرعا ، وانما المراد بالوفاء بالنذر الذى جعله الله من صــفات الأبرار فى قوله تعالى : (يوفون بالنذر) ــ قوة الارادة ، فلا يأخذ على نفسه عمل خير ، أو ممارسة فضيلة ، أو قياما بأمر نافع له أو لقومه دنيا وأخرى ــ الا أمضاه ووفى به . ويدخل فى ذلك الوفاء بما نذر من قربة او طاعة . اما أن الواحد منا يفكر فى عمل صــالح ينفع قومه ، ويعلن أنه يريد القيــام به والاقدام عليه ، ثم يتقاعد عنه ويفتر ، ويماطل اذا سئل عنه ويعتذر ــ فهذا هو ضعف الارادة الذى عابه القرآن فى غير ما موضع من آياته ، ولم يجعله من خصال الأبرار الذين يستحقون دخول جناته .

قال ابن جرير فى تفســيره : « والنــذر هو كل ما أوجبه الانســان على نفسه من فعل ، ومنه قول عنترة :

الشــاتمى عرضى ولم أشتمهما
والناذرين اذا لم القهما دمى » . اهـ

ولا يخفى أن سفك دم عنترة الذى نذره ابنا ضمضم ليس من القربات فى شىء . فهـذا هو النذر فى لغــة العرب ، وهذا هو طريق استعماله لحين نزول القرآن . ثم لمـا شاع استعماله فى نذر القربات والصدقات لم يعد يفهم منه الا نذر هذه الأشياء : ككثير من كلمــات اللغة الواردة فى القرآن والســنة ، اختلفت معانيهـا باختلاف الزمان (١) . وعلى المفسر المتقن ان ينتبه الى ذلك الاختلاف . وليفطن الى أن الوفاء بالنذر الذى مدحه القرآن فى هذه الآية عبارة عن قوة الارادة التى من آثارها ابراز كل عمل صالح نافع الى ساحة الوجود بعد أن جرى التصميم عليه فى ساحة الفكر ، وان لم يبرزه الفكر لم يكن موفيا بالنذر ، ولم يكن من الأبرار

---

(١) من ذلك كلمة الولى التى جاءت فى القرآن بمعنى الناصر كما فى قوله تعالى : (ألا ان أوليــاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، ثم أصبح لها فى العرف معنى آخر وهو ذو الكرامات من المشايخ . وكلمة (الصالح) التى جاءت فى القرآن بمعنى القادر على العمل كقوله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى القادرون على عمارتها ، ثم أصبح لها معنى آخر وهو المسلم الذى يصــوم ويصلى ولا يرتكب كبيرة .

(يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وقوله : **(انما نطعمكم)** الخ ليس من قول أولئك الأبرار المطعمين بألسنتهم ، بل ليس من المادح أن يخاطبوا به هؤلاء المساكين المتحلقين حول موائدهم ، وانما هو مما قاله الوحي عنهم مشيرا الى أن حالهم ناطقة بذلك . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : « أما والله ما قالوا ذلك بألسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى به عليهم ، ليرغب فى ذلك راغب » .

و **(شكورا)** مصدر شكر كالشكر والشكران ، والمعنى أنهم يواسون الفقراء والمساكين ارادة اكتساب رضاء الله بخدمة الخلق الذين هم عياله والاحسان اليهم ، لا لتحصيل غرض دنيوى أو مصلحة أو مكافأة تعود عليهم ، والا لم يكن المواسى محسنا الى المساكين ، بل محسنا الى نفسه ، ولم يكن خادما لعيال الله ، بل خادما لمصلحته ، ولا مقرضا ربه قرضا حسنا ، بل تاجرا يبغى الربح من وراء سلعته .

رووا عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة الى أهل بيت من الفقراء ، ثم تسأل الذى أرسلته بالصدقة : ما قالوا لك ؟ فان ذكر أنهم دعوا ، أخذت هى بالدعاء لهم ، ليبقى عملها الصالح خالصا لوجه الله ، لا واقعا فى مقابل عوض من دعائهم .

قوله : **(انا نخاف)** الخ هذا أيضا مما يقوله الأبرار بلسان حالهم فى السبب الذى بعثهم على اطعام المساكين ، ومواساة المستضعفين : ذكروا أولا أنهم انما أطعموهم لوجه الله ، ورغبة فى رضاه لا طمعا فى جزاء مجازى ، أو ثناء مثنى ، وقالوا هنا انهم انما أطعموهم لكونهم يخافون من أيام ربهم **(يوما عبوسا قمطريرا)** وهو يوم القيامة الذى ذكر من قبل أنهم يخافونه ، ووصفه باستطارة شره ، وفظاعة أمره ، وهذا هو الخوف الحق الذى ينفع صاحبه ، فيحمله على الرفق بالفقراء ، ومواساة الضعفاء .

وأراد من وصف اليوم (بالعبوس) شدته وعظم هوله على الخلائق ، أو أراد أن الخلائق أنفسهم يكونون من شدة الغم والقلق الذى يغشاهم فى ذلك اليوم ذوى عبوس شديد ، فنسب العبوس الى اليوم لا اليهم توسعا ، نحو قولهم : « نهاره صائم » ، وانما الصائم الشخص لا اليوم ، ونحو :

وأخو الهموم — اذا الهموم تحضرت

جنح الظلام — وساده لا يرقد

جعل الوساد لا يرقد ، وانما الذى لا يرقد صاحبه .

وقوله : **(قمطريرا)** ، أى شديدا مظلما عصيبا ، ويقولون « شر قمطرير » أى شديد ، ورجل قمطرير ، شديد العبوس ، قد قبض ما بين عينيه من فرط الغم .

هؤلاء المحسنون الأبرار ، الذين خففوا آلام المرهقين المتعبين ، وعطفوا على ذوى البؤس والعجز فى الدنيا صنيعهم ، **(فوقاهم الله)** الذى فعلوا لأجله ما فعلوا من العمل الصالح **(شر ذلك اليوم)** أى أذى ذلك اليوم العبوس الذى خافوه ، ودفع عنهم ما كانوا يحذرون من شدته وهوله ومكروهه ، **(ولقاهم)** أى ألقى عليهم مكان الشدة والرهق والعبوس الذى يغشى الفجار **(نضرة)** حسنا وبشاشة وبريقا فى وجوههم **(وسرورا)** أى فرحا وغبطة وحبورا فى نفوسهم ، **(وجزاهم)** أثابهم وكافأهم **(بما صبروا)** فى مقابل صبرهم على مرارة الطاعة والعمل الصالح والايثار بالمال **(جنة)** دخول جنة ذات شأن من الجنات التى أعدها لأهل طاعته ، **(وحريرا)** أى وأثابهم أيضا حريرا .

وفى الآية ايجاز ، آخذ بأطراف الاعجاز . ذلك أنه أشار بقوله (جنة) الى مايتمتع به أولئك الأبرار فى دار الكرامة من صنوف الثمار الشهية ، والمطاعم الهنية ، فان الجنة لا تسمى جنة الا وفيها ذلك . كما أشار بقوله (حريرا) الى ما يتمتعون به من ضروب اللبوس والزينة التى من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير . فهو تعالى قد جمع لهم فى الثواب والمكافأة بين الشعورين : الشعور بلذة الطعام ، والشعور بلذة اللباس ، وكل هذا تنازل من العناية الآلهية فى تصوير المسرات الأخروية الينا معشر البشر ، وتقريبها من متناول أذهاننا . وستأتى زيادة ايضاح لذلك .

ومن مظاهر الخفض والدعة والنعيم التى يتقلب فيها أولئك المحسنون الأبرار ما وصفهم الوحى به فى قوله : **(متكئين فيها)** أى فى الجنة **(على الأرائك)** جمع أريكة وهى السرير ترخى عليه الحجلة ، والحجلة هى ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور ، ويتخذ عادة للعرائس ، ومن ثم يفرغ الوسع فى تحسينها وتزيينها ، فاذا أريد من الحجلة الوقاية من البعوض سميت كلة ، ونسميها اليوم « ناموسية » .

ومعنى اتكائهم على الأرائك انهم جالسون عليها متمكنين . وللاتكاء معنى آخر وهو أن يجلس المرء على أحد شقيه معتمدا على وسادة أو نحوها ، وهذا المعنى هو المشهور المتبادر من الاتكاء عند الاطلاق . ولا تناسب ارادته فى الآية ، لأن الأرائك لا يتكأ عليها بهذا المعنى ، وانما يتكأ على الوسائد والنمارق ، اللهم الا اذا جعلناه من موجز الكلام ، وأن أصله هكذا « متكئين على النمارق جلوسا على الأرائك » ، فحذف « على النمارق » لدلالة « متكئين » عليها ، وحذف «جلوسا» لدلالة « على الأرائك » عليها . ويكون هذا الايجاز كقوله بعده فى صفة الأبرار أيضا أنهم **(لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا)** ، يريد أنهم لا يرون فى الجنة شمسا ولا قمرا . ولا يحسون حرا ولا زمهريرا . فمد نفى رؤيتهم للشمس ألقى فى الخلد أنهم لا يرون القمر أيضا ، كما أشعر أنهم لايحسون الحر لأن القمر والحر كليهما من متولدات الشمس ، فهى التى تنير القمر فينير علينا ، وهى التى تشع حرارتها فتشعر بها أجسامنا . أو أنه لما نفى أنهم يرون الزمهرير وهو البرد أشعر أنهم لا يرون الحر أيضا ، لأن الحر أخو

وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

البرد ، فانظر كيف استوعب بهاتين الكلمتين طائفة من المعاني . والقصد أن في الجنة نورا خاصا ليس منبعثا عن شمس ولا عن قمر ، وأن هواءها معتدل . ليس فيها شيء من حر الشمس المرمض ، ولا من برد الزمهرير المؤذي ، وهذا هو المراد بالزمهرير في قول الأكثرين ، وقال بعضهم : ان الزمهرير هنا اسم للقمر في لغة طي ، قال شاعرهم :

وليلة ظلامها قد أعتكر   قطعتها والزمهرير ماظهر

وعطف الزمهرير في الآية على الشمس ربما أشعر بأن المراد منه القمر ، فهو تعالى يقول أنهم لا يرون في الجنة شمسا ولا قمرا ، وان لهم من نورها الخاص بها ما يغنيهم عن ضياء هذين النيرين .

قوله **(ودانية)** الخ عطف على (متكئين) أو على (لا يرون) ، وكلها أوصاف للأبرار ، وأحوال من الضمير الراجع اليهم في (وجزاهم) ، وضمير (ظلالها) و (قطوفها) للجنة ، والمراد بظلالها ظلال أشجارها ، وهو كناية عن اشتباك أغصان تلك الأشجار وتهدلها من حوالي الجالسين تحتها ، والا فان الظلال أثر من آثار ضياء الشمس ، وقد ذكر آنفا أنه لا شمس في الجنة ، اللهم الا أن يكون لنور الجنة الخاص بها ظلال تتولد عنه ، و (القطوف) جمع قطف بكسر القاف : العنقود ساعة يقطف ، ومعنى **(ذللت قطوفها)** أن عناقيد ثمارها قد خلقها الله سهلة القطف ، قريبة من أيدي المتناولين ، لا يحول بينها وبينهم بعد ولا شوك .

يقال ذل الرجل ذلا بضم الذال اذا هان وحقر بعد عز ، فهو ذليل ، وذل البعير ذلا بكسر الذال : سهل « بقرة ذلول » و «ناقة ذلول » ــ ويلفظها الناس « دلول » بالدال المهملة ــ (وجعل لكم الأرض ذلولا)، وفي خطاب النحل (فاسلكي سبل ربك ذللا) ، ومنه تذليل القطوف هنا ، ويقولون : ذلل الكرم اذا دليت عناقيده ، و (الآنية) جمع اناء ، وهو الوعاء يوضع فيه الطعام والشراب . وقد فهم بعضهم من قوله : (ويطاف عليهم بآنية) أن أهل الجنة يأكلون طعامهم على الطرز الذي عليه أهل الترف اليوم : مذ يحمل الغلمان صحاف الطعام حول المائدة ، ويدنون من الآكلين واحدا واحدا ، فيتناول كل منها حاجته .

وعطف قوله : **(وأكواب)** على (آنية) يشعر أنه يريد بالآنية صحاف الطعام ، لأن الأكواب أواني الشراب ، وهي جمع كوب ، والكوب قدح مستدير الراس لا عروة له ولا خرطوم ، ونحرفه اليوم فنقول « كباية » .

ذكر أولا أن آنية الطعام من فضة ، ثم لما جاء لوصف أكواب الشراب قال : **(كانت قواريرا قواريرا)** ، و (القوارير) جمع قارورة ، وهي وعاء الزجاج المعروف . فهو يقول أن الأكواب زجاجات ، ثم قال أن تلك الزجاجات متخذة **(من فضة)** ، فكيف يكون ذلك والفضة غير الزجاج ، والمعدنان مختلفان أيما اختلاف ؟ ولمكان هذا الاشكال الذي خامر نفس السامع اكد كلمة القوارير مكررا لها ، فهو يقول : ان هذه الأكواب ــ مع كونها متخذة من فضة ــ هي قوارير هي قوارير . فالسامع يتنبه بهذا التكرار الى أن الأمر جد ، وأن الحكم عليها بأنها قوارير ليس الا لمعنى دقيق اقتضى وصفها به مع أنها في ذاتها من فضة . وبعد التأمل يدرك أنها انما سميت قوارير لكونها رقيقة شفافة شفوف القوارير ، فهي اذن قد جمعت بين بياض الفضة وحسنها وصفائها، وشفوف القوارير ورقتها ولألائها .

تقول : ولماذا اقحم كلمة (كانت) بين (أكواب) و (قوارير) وهي لو طرحت لصح المعنى ؟ أقول : (كانت) هنا هي من الكون الذي يقع بعد قوله تعالى للشيء : (كن فيكون) و « كن فكان » ، أي فيتكون ذلك الشيء ، ويحصل بمجرد تعلق مشيئة الله به . فهو اذن من عالم الارادة الالهية لا من عالم الأسباب الدنيوية . فتكون تلك الأكواب بما جمعته من صفات الابداع فوق كل ما يتصوره العقل من صنوف الأكواب التي تعاورتها الصناعة الدنيوية .

والضمير في **(قدروها تقديرا)** يصح ارجاعه الى السقاة الطائفين بالأكواب ، كما يصح أن يكون راجعا الى الشاربين المطوف عليهم بها . فالمعنى على الأول أن السقاة يقدرون الشراب الذي يقدمونه للشاربين في تلك الأكواب : بحيث لا يزيد على رغبتهم ، ولا ينقص عنها ، فيكون ذلك أهنأ لهم وأمرأ . والمعنى على الثاني أن الشاربين قدروا في نفوسهم تلك الأكواب وتصوروها على أوضاع وأشكال مختلفة ، فكانت اذا تداولوها ، رأوها طبق أمانيهم ، وعلى مثال تقديرهم .

الجنة كافور ، وأن العين التى يتناول منها شراب تلك الكأس يفجره أولئك الأبرار ، ويجرونه أنى شاءوا من الجنة. وقد ذكر هنا أن تلك العين (تسمى سلسبيلا) ، وأن مزاج الكأس التى يسقونها يكون (زنجبيلا) ، وذكرنا أيضا أن معنى كون مزاجها كافورا فوحان رائحة الكافور منها عند شربها ، ولا ينافى هذا أن يفوح منها أحيانا رائحة الزنجبيل : تفوح الرائحتان معا ، أو مرة هذه ومرة تلك .

وقيل المراد أنهم يجدون طعم الزنجبيل فى الشراب . لا أنهم يشمون شذا الزنجبيل من الشراب شما .

و (الزنجبيل) عروق نبات كالقصب تمتد فى الأرض ، ويتولد فيها عقد حريفة الطعم ، معرب « شنكبيل » بالفارسية . والعرب يستلذون طعمه كما يستلذون رائحة الكافور . قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيـ ـل باتا بفيها وأريا مشورا

يصف طعم فم محبوبته وحلاوته فى المذاق .

و (الأرى) : العسل . و (المشور) اسم مفعول من شار العسل اذا اجتناه من خليته . ومثل الزنجبيل فى استلذاذهم طعمه فى الخمر ، الفلفل . قال حسان بن ثابت :

ولقد شربت الخمر فى حانوتها
صهباء صافية كطعم الفلفل

وقال امرؤ القيس :

كأن مكاكى الجواء غدية
صبحن سلافا من رحيق مفلفل

يقول كأن طيور هذا الوادى وقت الصباح شربت رحيقا تفوح منه رائحة الفلفل ، أو يلذع اللسان لذع الفلفل ، ولذلك أكثرت الصدح والتغريد .

وسميت العين (سلسبيلا) لسهولة مساغها وانحدارها فى الحلق . وأصل المادة (سلس) تدل على اللين والسهولة والانقياد ، حتى يقولون « فى كلام فلان سلاسة » يعنون رقة وانسجاما وسهولة . ويزيدون على هذه المادة لاما فى آخرها فتدل على غاية السلاسة ، فيقولون : « سلسل » و « سلسال » يريدون بهما الماء العذب السهل الجريان فى الحلق لعذوبته وصفائه . ويزيدون عليها أيضا باء فتفيد اذ ذاك غاية الغايات فى السلاسة فيقولون : «سلسبيل» ويريدون به الماء الكثير السوغان فى الحلق . وبذلك سميت تلك العين فى الجنة سلسبيلا ، لأن ماءها هذه صفته . وهو بذكر السلسبيل دفع توهم الشعور بحرافة الزنجبيل ولذعته فى المذاق ، فكأنه يقول : ان الكأس تمزج بالزنجبيل فيشعر الشاربون بطعمه لكنهم لا يشعرون بحرافته ، فيبقى الشراب سلسبيلا سهل المساغ فى الحلق .

قوله : **(ويطوف عليهم)** ، اى ويطوف على أولئك الأبرار بالآنية والأكواب وسائر ضروب الخدمة **(ولدان)** وصفاء **(مخلدون)** من الخلود ، أى لايموتون . وقيل لا فائدة فى هذا الوصف لأن أهل الجنة كذلك . وانما هو من الخلود بمعنى أبطاء الشيب . والعرب تقول وأسنانه : أنه لمخلد ... فوصفاء الجنة مخلدون ، يعنى أنهم لايهرمون ولا يشيبون ولا يجاوزون ما هم فيه من سن الحداثة . ويقال لمثل هذا أيضا انه مقتبل الشباب ، أى لم تظهر فيه أثر كبير ، بل هو كانما يستأنف الشباب كل ساعة .

ولكن يرد على هذا القول ما أورد على سابقه ، ومن ثم جعله بعضهم من الخلد بمعنى السوار وبمعنى القرط أيضا ، يقول ان أولئك الولدان مسورون أو مقرطون .

هؤلاء الولدان **(اذا رأيتهم)** منبثين فى جنبات الجنة مجتمعين مفترقين هنا وهناك **(حسبتهم)** فى حسنهم وجمالهم وصفاء الوانهم **(لؤلؤا منثورا)** نثره ناثر تحت مواقع عينيك ، فترى حبات منه مجتمعة متلائمة ، وأخرى متفرقة متباعدة ، مما يزيدها فى النفس بهاء ورواء ، ويكسبها فى العين رونقا ولألاء ... هذا اذا خصصت فى النظر والتحديق الى ما فى الجنة من مظاهر الأنس والسرور **(واذا رأيت ثم)** ، أى واذا أحببت أن ترمى ببصرك الى ما هنالك من فخم المظاهر ومجموع المناظر ــ **(رأيت نعيما)** اى نوعا من النعيم لايوصف ولا يعهد له مثال ، **(وملكا كبيرا)** أى واسعا مستوعبا لجميع مايوفر على النفس راحتها وهناءها وسعادتها ومسراتها . وقد أجمل فى وصف الحالة التى عليها اهل النعيم فى نعيمهم ، لأنه مما لايحيط به وصف ، ويعجز أهل الدنيا ــ ماداموا فى دنياهم ــ عن تصوره ، ومعرفة حقيقته .

رجع الى ذكر طور من أطوار الأبرار فى الجنة ، وهو وصف مايفرغ على أبدانهم من ضروب الزينة واللبوس ، فقال : **(عَالِيَهُمْ ثياب)** الخ . و (عالى) اسم فاعل من علاه يعلوه اذا كان فوقه ، فالمعنى تعلوهم تلك الثياب ، وتغشى ظواهرهم (1) . و (السندس) : ضرب من نسيج البز ، وقيل : هو رقيق الديباج ، عربى أو معرب ، أما (الاستبرق) فهو غليظ الديباج ، معرب « استبره » ، والديباج : الثوب الذى سداه ولحمته حرير . وهو معرب أيضا ، و **(حلوا)** اى ألبسوا حلية ، وهى ما يزدان به الشخص من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة **(أساور)** جمع سوار : زينة معدنية كالطوق يلبس فى المعاصم والزنود ، وتلك الأساور **(من فضة)** ، وهى المعدن الأبيض المعروف . وفى سورة الكهف : (يحلون فيها من أساور من ذهب) ، وفى سورة فاطر : (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ، ولا تناقض اذ يمكن الجمع بين الصنفين فى التحلى ، أو يحلون بهذا مرة وبهذا مرة ، و (الشراب الطهور) هو البالغ

---

(1) لم يتعرض المؤلف لاعراب « عاليهم » مع حاجته الى البيان ، وقد قرىء بالرفع على انه مبتدأ خبره ثياب ، وقرىء بالنصب ــ وهو المشهور ــ فقيل : انه ظرف بمعنى فوقهم ، وهو خبر مقدم لثياب ، والجملة حال من الضمير المجرور فى عليهم وجعل ابو حيان عاليهم حالا من ذلك الضمير ، وثياب مرفوعا على الفاعلية له (انظر روح المعانى) المصحح .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ

فى نقائه من القذى والشوائب المادية ، أو المرادطهارته مما يكون فى الأشربة الدنيوية من الأضرار وسوء التأثير .

قوله : **(ان هذا كان لكم)** الخ ــ مما يقال لهم أو يقوله بعضهم لبعض فى الجنة وقت تقلبهم فى صنوف نعيمها ، أو هو خطاب مستأنف من الله ليبشر الأبرار وهم فى دار الدنيا بأن ماوصف من الثواب ، وعدد من مظاهر النعيم ــ ينتظرهم فى النشأة الثانية جزاء طاعتهم له ، وأن (سعيهم) الحسن فى التزام أوامره تعالى ، والوقوف عند حدود شرعه (مشكور) ، ومعنى كونه تعالى يشكر عليه أن يثيب عليه خير ثواب . وهذا هو معنى الشكر والحمد والرضا والعجب والحب والضحك اذا نسبت الى الله ، اذ تستحيل فى حقه تعالى أمثال هذه العوارض البشرية ، والانفعالات النفسية .

مر فى هذه الآيات أن الله تعالى قد أعد للكافرين سلاسل وأغلالا ، كما هيأ للأبرار أرائك يتكئون عليها ، وعليهم ثياب السندس والاستبرق ، وفى معاصمهم أساور الفضة ، وبين أيديهم ولدان كاللؤلؤ المنثور يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية صفاء البلور ، وقد ملئت شرابا ممزوجا بالزنجبيل والكافور .

وذكر فى مواضع أخر من القرآن وسائل مادية للذة والعذاب فوق ماذكر ههنا وأبلغ منه ، وان النفوس لتتساءل عما اذا كانت هذه الوسائل والأدوات ، وأسباب اللذوى والبلوى مادية حسية من عين مانعهده فى دنيانا هذه : فهل الأغلال الحديدية كأغلالنا قاسية سوداء تقعقع ؟ والأساور الفضية كأساورنا مدورة بيضاء تلمع ؟ والخمرة المشروبة كخمرتنا سائلة حمراء تشعشع ؟ أم أن المراد بذلك شيء آخر له حقيقة روحية غير مايفهم من ظاهر اللفظ ؟

ولعل الأسلم فى الجواب أن يقال : اننا ــ معشر المسلمين ــ نؤمن بالعالم الأخروى ، وبما وردت الأخبار الصحيحة به من وصف وسائل العذاب

أنفسنا عناء البحث عن حقيقتها ، مادامت هى ممكنة الوقوع ، وما دامت قدرة الله صالحة لخلقها واعدادها.

وهناك آخرون يجعلون هذه الوسائل والأسباب تمثيلا لآلام العذاب ومسرات النعيم بما اعتدناه فى حياتنا الدنيا من الوسائل والأدوات والأسباب ، بحيث يجعلنا هذا الوصف التمثيلى نتعقل تلك الآلام والمسرات على نحو مانتعقلها ونشعر بها عند التعرض لأسبابها ووسائلها ومثيراتها فى دار الدنيا . على أن طائفة من أبناء هذا العصر المتعلمين لم يقنعهم ما اقتصرنا عليه هنا من هذا البحث ، وتمنوا علينا أن نذكر ماهو الأحق بالقبول فى هذه العقيدة مما يلائم روح العصر ، ويلتحم مع معارف أهله وأحوالهم الثقافية والفكرية ولا يخرج به قائله عن الملة . فلمثل هؤلاء كتبنا رسالة بهذا الموضوع : موضوع « ملذات الجنة ماهى ؟ » . ربما طبعناها على حدة أو ألحقناها بهذا التفسير اذا يسر الله طبعه ونشره .

آيات هذه السورة من اولها تدور حول أقطاب ثلاثة:

١ ــ تذكير الانسان المكذب بالبعث بخلقته الأصلية ، وبأن الاله الذى خلقه كذلك ، ومتعه بالحواس والمشاعر ، وأمده بصنوف النعم ــ قادر على خلقه ثانية بعد الموت ، فكيف يصح اذن ان ينكر على الله ذلك ؟ بل كيف لايكون تعالى جديرا بأن يشكر ويطاع ؟

٢ ــ تخويف المكذبين بما أعده الله لأمثالهم من الأغلال والسعير .

٣ ــ ترغيبهم بما هيأه لهم من وسائل الغبطة والهناء ان هم شكروا وآمنوا .

وكثيرا ما كانت هذه الآيات وأمثال أمثالها معها تلقى على هؤلاء المكذبين ، فلا تحيك فى نفوسهم ، ولا يقابلونها بغير الصدود والاعراض . فكان صلى الله عليه وسلم يأخذه شيء من الوجوم والضجر ، مذ يرى تتابع أذاهم عليه ، وطول أعراضهم عنه ، وتماديهم فى تكذيب الوحى والاستهزاء به . فكان من المناسب بعد تلك الآيات البالغة فى تأثيرها ، ووقوف قريش أمامها وقفة المكذب المعاند ، ووجومه صلى الله عليه وسلم وضجره ، واستبطائه نزول العقاب الالهى بأولئك المكذبين ــ أن تشدد عزيمته ، وتفكك عن قلبه الشريف عرا الهم والضجر بمثل قوله تعالى : **(انا نحن)** ، أى لاغيرنا يامحمد الذين **(نزلنا عليك القرآن تنزيلا)** لا لبس فيه ولا ريب ، ووعدناك وأوعدنا المكذبين فيه بما وعدنا وأوعدنا ، فلا تبتئس ولا تحزن ولا تضجر : فالقرآن حق ، ووعدنا ووعيدنا صدق ، **(فاصبر)** اذن ، وانتظر **(لحكم ربك)** ، أى لحين حلول وقت حكمه وقضائه الفصل فيك وفى خصومك ، فينتقم لك منهم ، وتكون الغلبة والنصرة لك ، والعقوبة والدبرة عليهم . فاللام فى قوله (لحكم ربك) هى التى يسميها النحاة اللام الحينية . واذا أرادوك على السكوت يامحمد وترك دعوتهم الى الايمان لقاء مال يفيضونه عليك ، أو عروس من بناتهم يزفونها اليك ــ كما كانوا بالفعل يقولون ذلك

له صلى الله عليه وسلم ـ فلا تصغ اليهم ، ولا تنخدع بقولهم ، **(ولا تطع منهم آثما أو كفورا)** فيما يحاولونه منك ، ويداورونك عليه .

وقد كان أولئك المعاندون المكذبون بين منغمس فى الآثام ، متعاط للفسوق : كعتبة بن ربيعة ، فهو ينفر من الايمان به صلى الله عليه وسلم وبالوحى ، لأن ذلك يحول دون تمتعه بشهواته ، وينغص عليه حياته ـ وبين غال فى ضلاله ، شديد الشكيمة فى كفره : كأبى جهل والوليد بن المغيرة ، فهو ينفر من الاسلام واتباعه صلى الله عليه وسلم خشية مفارقة دينه وتوديع طواغيته . فقوله : **(آثما)** أشارة الى الفريق الأول ، وقوله : **(أو كفورا)** اشارة الى الفريق الثانى ، و (أو) بعد الجحد تكون بمعنى الواو . فالمعنى « ولا تطع منهم آثما ولا كفورا » .

ويروى أن عتبة كان يقول له صلى الله عليه وسلم : « ارجع عن هذا الأمر حتى ازوجك ابنتى ، فانى من أجمل قريش بنات » . وكان الوليد يقول له : « أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فانى من اكثرهم مالا » . ولهذا قال له ربه واصبر حتى يقضى الله بينك وبينهم: فيظهر امرك، ويرفع لك ذكرك، ولاتطع أولئك الآثمين الجاحدين فيما يمنونك به من صنوف الترف والنعيم ، فدع ذلك كله ولا تشغل قلبك به ، **(واذكر اسم ربك)** فصل له واعبده **(بكرة)** غدوة قبل الظهر ، **(وأصيلا)** عشيا بعد العصر ، **(ومن الليل)** ايضا **(فاسجد له)** ، أى صل له تعالى : فالسجود بمعنى الصلاة ، و (من) فى قوله : (من الليل) لافادة التبعيض ، اذ لابد من راحة له صلى الله عليه وسلم فى بعض الليل وصلاة فى بعض ، كما يكون ذلك فى النهار . ولما كان الليل مظنة غفلة النفس ، وغلبة النوم عليها ـ عاد فأكد عليه صلى الله عليه وسلم الأمر بصلاة الليل ، لكيلا يفهم من البعضية المدة القليلة منه ، بل وقتا طويلا فقال : **(وسبحه)** ، أى صل له **(ليلا)** ، أى وقتا من الليل **(طويلا)** ممتدا لايقل عن الثلث ، ولا يزيد عن الثلثين ، كما مر بيانه فى آية (قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) . فالليل الأول من قوله : (ومن الليل) مراد به مجموع ساعاته من الغروب الى الشروق ، والليل الثانى ، وهو قوله (ليلا طويلا) ، مراد به وقت وحصة منه ، ولذلك وصفه بقوله (طويلا) . ولو كان المراد به مجموع ساعات الليل ما ناسب وصفه بالطويل كما يظهر للمتأمل ، والسجود والتسبيح مراد بهما هنا الصلاة كما أشرنا ، وكثيرا ما أريد بهما ذلك فى القرآن والسنة . والأرجح أن المراد بالصلاة فى هذه الآية الصلاة التى كان يمارسها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، وكان افتراض هذه الصلوات ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة وبعد البعثة باثنتى عشرة سنة . فهو تعالى يأمر نبيه فى هذه الآيات بالصبر على المكذبين ، وانتظار حكم الله فيهم ، والاعراض عما يمنونه به ، ويعرضونه عليه : من زبارج الدنيا ، وبالاقبال على الله ، واستيعاب طرفى النهار وهزيع طويل من الليل فى عبادته والابتهال اليه .

ثم ان الخطاب فى هذه الأوامر وان كان له صلى الله عليه وسلم فان المراد به ايضا صحابته الذين كانوا اذ ذاك فى حاجة الى أن يكونوا أشداء القلوب ، أقوياء الجلد والعزيمة ، ليقووا على الجهاد وبث الدعوة والصبر على المقاومة .

وقد شرحنا فى أول سورة المزمل ما فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته بالتهجد ، وقيام الليل وتحمل مشقات العبادة من الأثر البين فى تربيتهم النفسية ، وتقويتهم البدنية ، فراجعه ان شئت .

قوله : **(ان هؤلاء الخ)** فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ، واقناط من ايمانهم به ، واتباعهم دينه ، وذلك لما فطروا عليه من حب الدنيا العاجلة ، وايثار للذائذها الناجزة : فهم يتهافتون على مابين أيديهم من هذه الشهوات ، **(ويذرون وراءهم)** أى يدعون ويطرحون خلف ظهورهم **(يوما ثقيلا)** وهو يوم القيامة الثقيل الوقع ، الشديد الوطأة على هؤلاء الجاحدين المكذبين . ومعنى طرحهم يوم القيامة وراء ظهورهم : طرحهم العمل له ، وتركهم مايؤدى الى النجاة فيه من الايمان والتصديق وممارسة الأعمال الصالحة . وفى الاشارة الى المكذبين بـ (هؤلاء) المفيد للقرب تحقير لهم ، واستصغار لشأنهم ، وان كانوا يتجلببون للناس بجلابيب الكبر والعظمة .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : انهم منهمكون فيما بين ايديهم من عاجل لذات الدنيا ، وينسون أمامهم يوما قد هيىء لهم فيه عذاب ثقيل ، وهول وبيل . فتكون (وراء) بمعنى أمام ، وكثيرا ماجاءت بهذا المعنى ، ويكون الكلام تعجيبا من حالهم ، وتعريضا بغباوتهم ، مذ تركوا الحزم ، ولم يتدبروا الخطب وهو أمامهم .

وقوله : **(نحن خلقناهم الخ)** فيه عود الى تليين الكلام لهم ، وترقيق الخطاب معهم ، وتذكيرهم بأنه تعالى هو لا غيره الذى خلقهم خلقا : أحكم فيه صنعهم، ووثق بالأعصاب ربط بعض أعضائهم ببعض ، فكانوا أقوياء أشداء معصوبى الخلق ، مجدولى البدن. وهذا معنى **(وشددنا أسرهم)** . يقال : « قد أسر هذا الرجل فأحسن اسره » بمعنى انه خلق فأحسن خلقه ، وأحكم تكوينه . ومنه قول الاخطل فى صفة افراس مجنوبة :

من كل مجتنب شديد أسره
سلس القياد تخاله مختالا

يمتن الله على هؤلاء المكذبين ، بل على سائر الخلق الجاحدين بأنه تعالى خلق أجسامهم صالحة لما يحتاجون اليه فى وجوه التصرف وممارسة الأعمال ومباشرة الاسباب .

وقوله : **(واذا شئنا الخ)** ، أى ليس خلقنا لهم شديدى الأسر هو مبلغ جهدنا ، ومنتهى طاقتنا (و) لكن نحن مع هذا (اذا شئنا) ان نهلكهم أهلكناهم ، ثم **(بدلنا أمثالهم)** ، أى بدلنا بهم امثالهم من البشر بحيث نخلق الآخرين خلقا يحكى خلق الأولين فى شدة

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

الأسر ، واتقان الصنع ، وتوثيق الأعضاء . والآية تحتمل معنيين :

١ ــ أن يكون المراد بالأمثال الذين يخلقهم مكان الأولين المكذبين ــ هم الأولون انفسهم ، مذ يبعثهم من قبورهم ، ويحييهم بعد موتهم يوم القيامة . فهو تعالى يقول للمكذبين انه تعالى كما خلقهم فى الدنيا شديدى الأسر ــ قادر على ان يخلقهم ثانية بعد الموت شديدى الأسر . ويكون مغزى الآية اقامة الحجة على اثبات البعث وامكان الحياة الثانية ، لأن من فعل الشىء مرة قادر على ان يفعله مرة أخرى .

٢ ــ أن يكون المراد أنه تعالى قادر على اهلاك المكذبين ، وأن يخلق فى دار الدنيا غيرهم أمثالهم من البشر ، لكنهم مخالفون لهم فى العمل : فيطيعون أمره ، ولا يكذبون وحيه . فهو تهديد لهم ، وحض على المسارعة الى الايمان قبل فوات الفرصة ، وتذكير بانهم ان ماتوا هم فلا يظنوا ان اولادهم ومن يأتى من بعدهم يكونون فى العناد والتكذيب أمثالهم ، بل ان صدق الوحى ، وصحة دعوى محمد عليه الصلاة والسلام ــ هى من الظهور بحيث لايخفى مكانها على احد ، اللهم الا من طمس على بصائرهم ، وهم هؤلاء المكذبون المخاطبون . فيكون المعنى فى هــذه الآية كالمعنى فى آيات : (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) ، (ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) ، (ان يشــأ يذهبــكم ويأت بخلق جديد) .

(هذه) اشارة الى السورة وما اشتملت عليــه من اللفظ الرشيق ، فى الاسلوب الأنيق ، والمعنى الدقيق ، فى الخطاب الرقيق . **(تذكرة)** ذكرى يتذكر بها الغافل ، وموعظة ينزجر بها الجاهل . **(فمن شاء)** من هؤلاء المكذبين الادكار والاتعاظ والانتفاع بهــذه السورة والمشى على نورها ــ **(اتخذ الى ربه سبيلا)** . اى أمكنه أن يتخذ من الايمان والطاعة ، واتباع الحق وتصديق محمــد عليه السلام ــ سبيلا يؤدى به الى رضوان ربه ، ودخول دار كرامته ، وذلك لما منحــه من الهداية والتذكير والدلالة على الحق فى هــــذه السورة وسائر سور القرآن مع مامتعه الله به من نور العقل وقوة الاستنتاج ونعمة الحواس . فأسباب الخلاص ميسورة ، وسبل النجــاة ممهــدة تحت مواقع ابصار العاملين ان ارادوا . غير أن غلبة العناد ، واستيلاء الجهــل عليهم ، جعلهم لا يشاءون سلوك هــذه السبل الموصــلة الى النجاة **(الا)** وقت **(أن يشاء الله)** أن يسلكوها (١) مشيئة الهيــة مقترنة بمشيئة جزئية مكسوبة لهم ، وهذا ما يعبر عنه فى اصطلاح المتكلمين بالجزء الاختيارى .

(ان الله كان عليما) بأحوال خلقه **(حكيما)** فيما يرسمه لهم من السنن والنــواميس ، وينزل عليهم من الوحى والشرائع ، ويرســل اليهم من الأنبيــاء والرسل : مما فيه صلاح حالهم ، وانتظام أمرهم ، وارتقــاء عمرانهم . وقد سبق زيادة ايضــاح لهذا البحث عند قوله تعالى فى سورة المدثر : (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) ، وقوله أيضا فيها : (فمن شاء ذكره . وما يذكرون الا أن يشاء الله) .

ثم ختمت هذه السورة ببيــان عاقبــة الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى : (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) ، فان مفهومه أن فريقا يتخذون سبيلا اليه تعالى وهم المهتدون ، وفريقا آخر لا يتخــذ ذلك السبيل اليــه تعالى وهم الظالمون ، اى الجائرون عن سبيل الايمان ، الواضعون عملهم وسعيهم فى غــير مواضعه ، وهذا هو الظلم فى أصل معناه اللغوى .

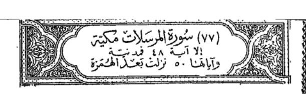
فالفريق الأول قال الله عنهم : **(يدخل من يشاء فى رحمته)** ، اى جنته ورضوانه . وعبر عن هــذا الفريق الناجى بقوله (من يشاء) للاشارة الى ساحة الاطلاق ، والى ان دخولهم الجنة يكون بمحض مشيئته تعالى لا يكرهه عليه مكره .

وقال عن الفريق الثانى وهــم الذين حــادوا عن سبيل الايمان : **(والظالمين أعد لهم عذابا أليما)** . فعل (أعد) اشتغل عن أن يعمل بكلمة (الظالمين) بضميرها وهو (لهم) ، فيقدر للظالمين فعل ناصب يفسره (أعد) مثل ان يقال : « واوعد الظالمين أعد لهم » أو « وجازى الظالمين أعد لهم »

والمعنى انه تعالى يدخل المهتدين المصدقين جنته حسب مشيئته وتفضله عليهم ، كما يدخل الظالمين المكذبين دار عذاب مؤلم ارصدها لهم .

---

(١) وذهب قوم فى تفسير هــذه الآية الى غــير هــذا فقالوا : « الا أن يشاء الله » قهرهم عليها بانزال عذاب من السماء مثلا يترصدهم من فوقهم أو تحت ارجلهم ان لم يؤمنوا ، فيؤمنــوا اذ ذاك . لكن حملهم على الايمان والجاءهم اليه بهذه الطريقة لم يرده الله ، ولم يجعله سنة من سننه الكونية فى سياسة الخلق واستصلاح أمر البشر ، لحكم واسرار يعلمها تعالى . وانما اختاروا هذا المعنى فى تفسـير الآية هروبا من عقيــدة الجبر المقوتة ، وحفظا لكلام الله من التناقض ، وصونا لاوامره تعالى من التدافع ، ولئلا يكون للناس على الله حجــة . فيدعوا العمل ، ويفســلوا المحجة . المؤلف .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾

تقدم ذكر السبب الذى من اجله يقسم الله تعالى ببعض خلقه . ومن اساليب القسم المختلفة فى القرآن هذا الأسلوب الذى افتتحت به هذه السورة .

ويشبهه القسم الذى افتتحت به سورة النازعات مذ قال تعالى : (والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) . أقسم تعالى بالكواكب تسرع فى سيرها ، وتقطع مداراتها منتقلة من برج الى برج ، وتسبح فى الأجواء سبحا حثيثا . ومنها كواكب تسبق غيرها باتمام دورتها : كالقمر والأرض ، وهذه السابقات يكون من أثرها تدبير بعض الأمور الكونية كمعرفة الحساب والفصول .

ويشبهه أيضا القسم الذى افتتحت به سورة العاديات مذ قال تعالى : (والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا) . اقسم بخيل الجهاد تعدو فيسمع لنفسها زفير ، وتقدح الحصا بحوافرها وهى عادية فيتطاير منها الشرر ، ثم تغير على العدو وقت الصباح فتثير اذ ذاك الغبار بشدة عدوها . وحينئذ تفجأ جمع العدو وتتوسطه فتفرقه شذر مذر .

وقد أراد ابن دريد أن يتشبه بالقرآن فى قسمه بالخيل فى مقصورته المشهورة ، فأقسم أولا بالنياق تحمل الحجاج الى بلد الله الحرام فقال :

اليــة باليعملات يرتمى بها النجاء بين اجواز الفلا

وبعد أن وصفها ووصفهم اقسم بالخيل تحمل الابطال الى ساحات القتال فقال :

بذاك أم بالخيل تعدو المرطى
ناشزة أكتادها قب الكلى
يحملن كل شمرى باسل
شهم الجنان خائض غمر الوغى

اقسم الله بالكواكب فى سورة النازعات تنبيها الى ما فى حركاتها ونظام سيرها فى مداراتها من المنافع والمصالح ، وانها انما خلقت لاجل هذا ، ولم تخلق لتكون آلهة تتصرف فى الأكوان كما يزعم عبدتها من الصابئة وغيرهم ، مشيرا الى ذلك بما وصفها به من الأوصاف التى لا تجتمع قط مع أوصاف الألوهة .

واقسم بالخيل فى سورة العاديات تنبيها الى فائدتها وما لها من حسن الأثر فى خدمة البشر ، معظما شأنها فى ذلك من حيث يبعث على اقتنائها ، والعناية بتربيتها ، وتكثير نسلها .

أما ما أقسم به فى فاتحة هذه السورة — سورة المرسلات — فهو الرياح . اذ ليست الكواكب ، ولا الخيل السلاهب — بأبعد أثرا ، وأطيب ثمرا — منها فى خدمة الخلق ، وتوفير مصالحهم ، وتيسير اسباب معايشهم .

على أن الثلاثة المذكورات — الخيل والرياح والكواكب — أخوات متماثلات ، فى الحركة والنشاط وقطع المسافات : الخيل على سطح الغبراء ، والكواكب فى فسيح الخضراء ، والرياح ما بينهما فى أجواز الفضاء .

وليس المراد بالرياح المقسم بها مادة الهواء الجوى الذى يحيط بالكرة الأرضية . فان توقف حياة البشر على تلقف هذا الهواء واستنشاقه — ظاهر لا يحتاج الى قسم ، ولا الى تنويه بالذكر . وانما موضع الخفاء فى فائدة الهواء — اذا هو عصف وتموج واضطرب واندفع الى مسافات بعيدة بحيث ينشأ عن اندفاعه أحيانا كثيرة تخريب وتدمير ، وبلاء مستطير — يحمل بعض السذج على سب الرياح ، واستنكار أمرها ، والتساؤل عن الحكمة فى خلقها .

وان فى هذه الرياح واضطرابها ، واختلاف مهابها — ما لا يحصى من المنافع وتدبير المصالح : من ذلك تسيير السفن فى البحار ، وسوق السحب الحافلة بالأمطار ، وتلقيح النباتات والأشجار ، وحمل البذور وتوزيعها فى الصحارى والقفار . وقد ورد فى بعض الآثار أن أمة من الأمم تذمرت من الرياح وتتابع هبوبها ، ورغبت الى نبيها أن يدعو الله بالا يجعلها تهب على بلادهم ، فوعظهم نبيهم ، وخوفهم العاقبة ، ونبههم الى ما فى الرياح العاصفة من المنافع لهم ، وأنه تعالى لم يخلقها عبثا ، ولم يرسلها سدى ... فأبوا الا الدعاء ، فدعا الله فسكنت الرياح تلك السنة ، فعقمت الزروع والنباتات فى حقولهم : فلم تعقد ثمرا ، ولم تعط محصولا سوى التبن ، حتى عادوا فانتبهوا من غفلتهم الى سوء فعلتهم ، وابتهلوا الى الله فى اغاثتهم ، وتفريج كربتهم . وسواء اصحت هذه الرواية أم لم تصح فانها تفصح من مغزى صحيح فى فائدة الرياح وشمول النفع بها للبشر .

قال تعالى : (**والمرسلات عرفا**) ، أى والرياح التى ارسلت واطلقت هابة بعد طول ركودها وسكونها . يقال : « أرسل الخيل فى الغارة » اذا سرحها وأطلق لها العنان .

وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرًا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقًا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ

وقلما ذكر القرآن اطلاق الرياح الا عبر عنه بفعل ارسل . ففى سورة فاطر : (والله الذى أرسل الرياح) ، وفى الحجر : (وأرسلنا الرياح لواقح) ، وفى الأحزاب : (فأرسلنا عليهم ريحا) ، وفى الاعراف (وهو الذى يرسل الرياح) ، وفى الروم : (ومن آياته أن يرسل الرياح) ، وفى آيات أخرى غيرها . فقوله تعالى هنا : (والمرسلات) من هذا القبيل .

أما قوله : (عرفا) فهو مثل لتتابع الرياح المرسلة ، وهبوب بعضها فى اثر بعض ، مأخوذ من عرف الفرس ، وهو اسم للشعر النابت فى محدب رقبته . يقال : « اعرورف الفرس » اذا صار ذا عرف ، « واعرورف البحر » تراكبت أمواجه ، فصارت كالعرف . و « اعرورف النخل » كثف والتف ، فأصبح كالعرف . و « جاء القوم الى فلان عرفا واحدا » اذا توجهوا اليه كوكبة واحدة . و « أصبحوا عليه كعرف الضبع » اذا تألبوا عليه .

واعراب (عرفا) على الحال من المرسلات : أى اقسم بالرياح حالة كونها متتابعة يقفو بعضها اثر بعض فى هبوبها .

وبعد أن يرسلها الله ، ويبعثها من سكونها — تأخذ فى العصف بشدة . و (العصف) شدة الهبوب ، فالريح الواحدة عاصفة ، والجمع عاصفات . وعصفها يكون بعد اطلاقها واخلاء سبيلها من دون تراخ ، ومن ثم عطفه بالفاء فقال : (**فالعاصفات عصفا**) ؛ أى الشديدات الهبوب ، السريعات المر .

هذه الرياح اذا أطلقت ، وهبت على هذه الصورة — أنشأت سحبا كثيرة تراها مبسوطة ومنشورة فى آفاق السماء . والذى نشر هذه السحائب وبسطها هنا وهناك فى فسيح السماء هو تلك الرياح العاصفة . وهذا هو معنى قوله تعالى فى صفتها : (**والناشرات نشرا**) .

وبعد أن تنشر الرياح السحب على هذه الصورة تأخذ فى تفريقها وتوزيعها على البلاد ، فتحيى مواتها ، وتخصب نباتها . والذى يفرقها ويوزعها هنا وهناك هو تلك الرياح المرسلات العاصفات الناشرات . وهذا هو معنى قوله تعالى : (**فالفارقات فرقا**) . و (الفارقات) اسم فاعل من فرق الأشياء اذا فصل أبعاضها ، وفرق الشعر بالمشط اذا سرحه . ففرق الثلاثى كفرق الرباعى .

وقيل : ان فرق فرقا للاصلاح ، (واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم) ، وفرق تفريقا للافساد ، (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) .

وما وصف الله به الرياح فى هذه الأقسام من معانى الارسال والنشر والفرق ـ تضمنته آية سورة الأعراف مذ قال تعالى : (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) . فقوله هنا (المرسلات) من (يرسل) فى تلك الآية . وقوله (الناشرات) من (نشرا) على قراءة من قرأه بالنون . ومعنى (نشرا) : متفرقة تعم جوانب الأرض ، جمع نشور كرسل فى جمع رسول ، وقوله (الفارقات) من (سقناه) . فان معنى (سقناه) يرجع الى معنى (فرقناه) ، أى أخذنا به ذات اليمين وذات الشمال لنحيى البلاد ، ونسقى العباد .

ان الأقطار التى تكثر فيها الأنهار المتدفقة ، والينابيع المتفجرة — قلما يفكر أهلوها فى أمر السحب والأمطار ، أو يشعرون بحاجة اليها مادامت أراضيهم مضمونة الرى ، مكفية المؤونة . أما أهالى البلاد الأخرى الذين حرموا الأنهار ومياه السيح ، والذين يتوقف خصب نباتهم ورى زراعاتهم على ماء المطر ، ومقدار ما ينزل منه كل سنة ، ويعلمون أن قلة الأمطار وانحباسها عنهم يعرضهم للجدب والتلف والهلاك — فهم لايكادون ينظرون الى الرياح المرسلات تهب وتنشر السحاب وتبسطه فى أطراف السموات : حتى تهتز بالفرح قلوبهم ، وتلهج بالذكر ألسنتهم . والذى يلقى هذه الذكرى والبشرى على هؤلاء الناس انما هو تلك المرسلات الموصوفة بما وصفها الله به من جميل الصنع ، وعميم النفع . وهذا معنى قوله تعالى فى ختام صفاتها : (**فالملقيات ذكرا**) ، أى فهى بعد أن تفرق السحائب ، وتوزعها هنا وهناك على البلاد ، تلقى فى قلوب سكانها أو على ألسنتهم ذكرا لمن أرسلها اليهم ، ومن بها عليهم .

والبشر — وان كانوا يذكرون الله حين يرون الرياح العواصف والسحب الحوافل — يختلف ذكرهم هذا باختلاف ايمانهم بالله وصفاته ، ومبلغ تصديقهم بوحيه ورسالاته : فمنهم قوم يكون ذكرهم (**عذرا**) لهم عند ربهم فى محو سيئاتهم ، والعفو عن خطاياهم ، لأنهم اذا ذكروا الله قرنوا ذكره بالشكر له على ما أولى من الرحمة ، وأسبغ من النعمة . ومنهم آخرون يكون ذكرهم (**نذرا**) ، أى بمثابة الانذار والتخويف لهم من سوء ما هم عليه من هذا الذكر الدال على كفرهم ، وفرط عنادهم ، اذ أنهم ينسبون حدوث هذه الرياح المرسلة ، والسحب الهاطلة — الى أصنامهم وطواغيتهم تارة ، والى الأنواء وقرانات الكواكب تارة أخرى ، ويغفلون عن الفاعل الحقيقى وهو الله تعالى .

وهكذا كان دأب أهل الجاهلية ، فانهم كانوا اذا مطروا قالوا : « مطرنا بنوء كذا » ، فنهى الشارع عنه ، وتقدم بالوعيد فيه ، ونبه فى هذه الآية اليه مذ قال : (فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا) .

و (عذرا) مصدر عذر – الثلاثى – اذا محا الاساءة ، ورفع اللوم والعتب . و (نذرا) اسم مصدر لانذر الرباعى اذا حذر وخوف . وهما فى الاعراب بدل من (ذكرا) . والتقدير : ان تلك الرياح بانشائها السحب الثقال تلقى فى نفوس الناس ذكرا . وهذا الذكر بينا يكون عذرا ماحيا ذنوب المؤمنين الموفقين – يكون أحيانا كثيرة انذارا للجاحدين المبطلين . ففى الآية تعريض بمشركى العرب ، وتقبيح لما كانوا عليه من عبادة غير الله ، والغفلة عن الشكر له على آلائه ونعمه مذ نسبوها الى غيره .

اقسم تعالى بهذه الرياح على أى شىء ؟ على أن ما أوعد به المشركين أمر لا ريب فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : **(انما توعدون)** به أيها المكذبون من مجىء يوم القيامة والثواب والعقاب – **(لواقع)** ، أى هو حق كائن لامحالة ، فلا تمتروا ولا تشكوا . فقوله : (انما توعدون الخ) جواب القسم .

وكما أقسم الله بالرياح العاصفة فى سورتنا هذه على أن ما أوعد به المكذبين واقع – أقسم أيضا بها نفسها فى سورة الذاريات بالأسلوب نفسه على أن ما أوعدهم به صادق ، فقال تعالى : (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . انما توعدون لصادق . وان الدين لواقع) .

والمعنى : أقسم بالرياح التى تذرو التراب ذروا ، ثم لا تلبث أن ينشأ عن هبوبها أثران عظيما الفائدة للبشر : سحائب حاملات فى عنان السماء من ماء المطر حملا ثقيلا ، وسفائن جاريات على سطح البحر جريا سهلا . وهذه السفائن أو مجموع هذه السفائن ، والسحائب فى مجيئها وذهابها وغدوها ورواحها تقسم فى أقطار البلاد ، أو توزع بين سكانها – أمرا عظيم الخطر ، عميم الأثر فى انتظام معايشهم ، وتوفير تكاليف حياتهم . وأى شىء مما خلقه الله أنفع للبشر من الأمطار التى تحملها السحب فتسقى بها زروعهم ، ومن ضروب الأقوات والأرزاق التى تجرى بها السفن ثم تقسمها بينهم ؟

قوله : **(فاذا النجوم الخ)** بيان وتفصيل لما اجمله فى قوله السابق : (انما توعدون) من هول يوم القيامة (لواقع) ، فهو يقع على هذه الصورة : النجوم تطمس ، والسماء تفرج الخ .

(وطموس) النجوم : ذهاب ضوئها . والطموس اذا نسب الى ما له نور : كالشمس والقمر والنجوم – كان بالمعنى المذكور ، واذا نسب الى العين كان معناه عماها وذهاب قوتها الباصرة ، واذا نسب الى القلب كان المراد ضلاله وحيرته ، واذا نسب الى المنزل أو الدار كان معناه امحاؤها وذهاب أثرها . وهو لازم متعد ، يقال : طمسته أنا ، وطمس هو بنفسه .

ووصف النجوم بذهاب ضوئها يوم القيامة لاينافى وصفها بالانكدار والانتثار فى آيتى : (واذا النجوم انكدرت) ، (واذا الكواكب انتثرت) و (انكدرت) بمعنى (انتثرت) . يقال : « انكدر فى سيره » اذا أسرع وانقض ، و « انكدر القوم على فلان » جاءوه متتابعين ، ثم انصبوا عليه ، وليس هو من لون الكدرة . فالنجوم يوم القيامة تنكدر وتتناثر ذاهبة الضوء ، فاقدة الألاء واللمعان .

وفرج (السماء) كناية عن احداث الشق بين أجزائها المتلاحمة ، يقال : «فرج الباب» اذا فتحه ، و « فرج بين الشيئين » أوسع بينهما وباعد . وهذا معنى ما جاء فى آيتى : (اذا السماء انشقت) ، (وفتحت السماء فكانت أبوابا) .

أما (نسف الجبال) فقلعها من أصلها وتفريق أجزائها : من « نسف الحب بالمنسف » اذا نفضه وذراه ، و « نسفت الريح التراب » : قلعته وفرقته هنا وهناك . وهذا معنى ما جاء فى آيات (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، (وبست الجبال بسا) ، (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) . والمعنى فى الكل أن الجبال تزحزح بشدة عن مقارها ، وتعود كالفتات المتناثر ، والسفساف (١) المتطاير .

وقد وصف الوحى فى هذه الآيات ما يطرأ على العالم يوم خرابه : من اضطراب حبله ، وانتكاث فتله ، وتبدل نظامه ، وزوال تماسكه وأحكامه . والله تعالى وحده يعلم بأية الطرق والأسباب يحصل ذلك الخراب ، فعلى المسلم أن يؤمن به ، ويكل أمر كنهه وتفصيله الى ربه .

هذا مايكون من شأن السماء والأرض فى ذلك اليوم الموعود ، أما ما يكون من شأن الخلائق يومئذ فان الأمر أهم ، والخطب اطم ، والخوف أعم . ذلك انه لا يعفى فيه أحد من السؤال والحساب حتى الرسل انفسهم عليهم السلام ، فانهم يغشون ذلك الموقف الرهيب فى وقته المعين الذى كانوا ينتظرونه : فيشهدون على أممهم ، ويبرئون أنفسهم من تبعة التفريط فى تبليغهم ، والتقصير فى امحاض النصح لهم ، وهذا معنى **(واذا الرسل اقتت)** ، واصله «وقتت» من الوقت ، وأنث الضمير باعتبار الجماعة ، اى جعل لجماعة الرسل وقت معلوم لا يتعدونه . والعرب تعاقب بين الواو والهمزة ، فيقولون : « وكد الخبر وأكده » ، و « وقت الصلاة وأقتها » . وفى الأسماء وشاح واشاح ، ووعاء واعاء ، ووكاف واكاف ، ووسادة واسادة .

وفى التأقيت معنى التأجيل ، بل يقولون أحيانا : « وقت الأمر ليوم كذا » اذا أجله اليه . فلما قال ان الرسل اقت لها ميقات تشهده فى حينه ، حسن أن يقع السؤال عن ذلك الميقات الذى اقت ، والأجل الذى ضرب ، فقال تعالى : **(لأى يوم أجلت)** تلك

(١) سفساف الدقيق ما ارتفع من غباره عند النخل ، وسفساف التراب ما رق منه .

الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً

الرسل ؟ ، وفى العدول عن « وقتت » الى (أجلت) ـ وهما بمعنى واحد ـ تفنن فى الخطاب ، وتطرئة للأسلوب ، كما ان فى الاستفهام عن ذلك اليوم المضروب موعدا لقيام الساعة ـ تفخيما لشأنه ، وتهويلا لأمره .

ثم اجاب عن هذا السؤال بأن الرسل اجلت **(ليوم الفصل)** . أى ليوم القضاء الفصل ، أو الحكم الفصل (*) ومعنى كون الحكم فى ذلك اليوم فصلا : انه لا معقب له ، ولا محاباة فيه ، بل تستقر النفوس عنده ، وتطمئن القلوب اليه ، وذلك منذ ينكشف عنها الغطاء ، فترى الحقائق عيانا ، ويصبح علمها ضروريا ، ويتحول جحودها ايمانا .

ولم يكتف بتفخيم شأن ذلك اليوم ، يوم الفصل بالاستفهام عنه ، بل عاد فنوه بشأنه ، ونبه الى عظم هوله بقوله : **(وما ادراك)** ، أى ما أعلمك ـ ايها الانسان ـ **(ما يوم الفصل ؟)** : ما كنهه ؟ واى يوم عظيم هو ؟ وعجيب منك أن تتغافل عنه ، وتلهو عن العمل له ، حتى كأنك من شدة تهاونك ، وفرط غفلتك ـ أصبحت على بينة من أمر النجاة فيه .

كلا ! فان ذلك اليوم أعظم من ان يدرى أمره انسان ، أو يحيط به عقل أو جنان .

وجواب (فاذا النجوم الخ) محذوف موكول فهمه الى فطانة السامع . والحذف على هذه الصورة من أساليب الايجاز التى امتاز بها القرآن .

وهو اما أن يقدر بمعونة آية (انما توعدون لواقع) السابقة ، والمعنى : اذا طمست النجوم وجرى كيت وكيت ، اذ ذاك تعلمون صحة الوحى الالهى ، وصدق ما وعدكم به من مجىء يوم القيامة ، فتؤخذون باجرامكم وسوء أعمالكم ، ويهتف من فوق رءوسكم : **(ويل يومئذ للمكذبين)** ، أى هلاك عظيم ، وخسار كبير فى ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود . أو يقدر الجواب بمعونة آية : (ويل يومئذ للمكذبين) اللاحقة . والمعنى : اذا طمست النجوم وجرى، كذا وكذا ، فهناك تعلمون مبلغ ضلالكم عن الحق ، واغراقكم فى الجحود ، واستحقاقكم للويل والهلاك على تكذيبكم . وعلى هذا يكون فى قوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) اشارة للجواب ودلالة عليه .

بعد أن اكد الخبر بيوم القيامة ، وانه كائن لامحالة . وبعد ان خوف المكذبين من شدة هوله وفظاعة مايقع فيه ـ عاد فحوفهم من بطش الله على اسلوب آخر فقال : **(ألم نهلك)** الأقوام **(الأولين)** الذين كانوا فى ابعد ازمنة التاريخ ، فكذبوا وحيى ، وعصوا رسلى ؟ **(ثم)** بعد ان اهلكناهم ، الم **(نتبعهم الآخرين ؟)** ؛ اى نجعل الأقوام المتأخرين عنهم فى الزمن ممن كانوا مثلهم فى التكذيب والعصيان ـ تابعين لهم فى الهلاك ، فاصابهم ما اصابهم ؟ وكان الظاهر ان يقول : « اما اهلكنا . . . ثم اتبعنا . . . ؟ » ، لكنه عدل الى المضارع احضارا للحال الماضية فى الذهن وتصويرا لها فى انفس المخاطبين ، حتى كأنهم يرون الآن مصارع الهالكين .

والمعنى أنكم ايها المكذبون بالقرآن او بمحمد عليه الصلاة والسلام تعرفون ذلك من فعلنا بالأمم الماضية ، فلماذا لا ترجعون عن تكذيبكم ؟ وتكفكفون من غرب عنادكم ؟

وما فعله تعالى بالأمم السابقة يفعله فى كل امة تسلك مسالكهم فى الجحود والعناد والاعراض عن الحق . فهو ناموس عام يأخذ بالقهر كل من قاومه ، واعترض فى سبيله . وهذاهومعنى قوله : **(كذلك)** ، اى مثل ذلك الفعل الذى فعلناه بالأولين والآخرين **(نفعل بالمجرمين)** من اخوانهم السائرين على مثل طريقتهم . وفيه تعريض بمشركى قريش ، وايقاظ لهم من غفلتهم ، وتنبيه الى أنهم ان بقوا فى غشمرتهم فسوف ينزل بهم ما نزل بغيرهم .

وقوله : **(ويل يومئذ للمكذبين)** تهديد للمجرمين الذين لا يرعوون ولا يصغون الى نداء الحق ، وتنبيه الى أنه تعالى ان اراد انفاذ مشيئته فيهم كما انفذها فيمن قبلهم ـ فان الويل والهلاك الشديد يكون من نصيبهم جزاء تكذيبهم ، فلينتبهوا للأمر ، وليحذروا من الخطر قبل وقوعه .

وجملة (ويل يومئذ للمكذبين) قد تكررت فى هذه السورة ، وتخللت آياتها عشر مرات ، كما كان فى سورة الرحمن من تكرير آية (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) ، وقد حسن التكرير فى سورة الرحمن للتقرير بالنعم المختلفة التى كان الوحى يعددها واحدة واحدة ، فكلما ذكر نعمة قرر بها ، ووبخ على الغفلة عنها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن اليك بأن منحتك الأموال ؟ ألم احسن اليك بأن انقذتك من الأهوال ؟ ألم احسن اليك بأن فعلت لأجلك كذا وكذا ؟ فيحسن منه التكرير لاختلاف مايقرر به .

وهذا التكرير فى الحض على شكر النعم فى سورة الرحمن كالتكرير فى سورتنا هذه : من حيث انها

ذكرهم بنعمة ، أو خوفهم من نقمة ـ اكد التذكير والتخويف بذكر الويل والهلاك المهيأ للمكذبين الذين استخفوابهذهالنعمة ، أو تهاونوا بتلك النقمة . فيكون ذلك رادعا للمخاطبين عن الغفلة ، وزاجرا لهم عن التمادى فى التكذيب ، وركوب الراس فى العناد .

وتكرير جملة واحدة ، واعادتها مرارا فى خلال الكلام الواحد ـ مألوف للعرب ، معهود فى خطبهم واشعارهم . فمهلهل بن ربيعة رثى اخاه كليبا بشعر قال فيه :

وهمـــام بن مرة قـد تركنـا
عليـه القشـعمان من النسور
على أن ليس عـدلا من كليب
اذا طرد اليتيـم عن الجـذور

ثم كرر قوله (على أن ليس عدلا من كليب) زهاء عشر مرات .

ولمـا حمى الحرث بن عباد من بغى مهلهل وسفكه الدماء قال ابياته المشهورة التى يقول فيها : (قربا مربط النعامة منى) ، وكرر هذه الجملة عدة مرات .

وفى هذا التكرير من هز السامع والتأثير فى نفسه ، ما لا يخفى على المتادب المتذوق من لغة العرب ، وما فيها من كل معنى عجب .

قـوله : **(ألم نخلقـكم الخ)** تذكير للمـكذبين ، وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أن من خلقهم من ماء مهين بهذه الطريقة لابد أن يكون قادرا على اعادة خلقهم للبعث والحساب . لا جرم أنه تعالى قادر ، وهو أيسر عليه ، وأن المكذبين بذلك يستحقون الويل والهلاك .

ومراده بـ **(المـاء)** المويهـة التى يتكون منهـا الانسان . و **(مهين)** على وزن فعيل ، ومعناه حقـير أو ضعيف أو قليل ، وفعله مهن فهو مهين .

و **(القرار)** الذى جعل الله فيه ذلك المـاء المهين هو الرحم ، مصدر قر بالمكان قرارا اذا ثبت وسكن ، ثم شـاع استعماله فى نفس المكان الذى يكون فيه الثبات والاستقرار . يقال : « صار الأمر الى قراره » أى الى حيث تناهى وثبت . وقال تعالى : (جعل لـكم الأرض قرارا) ، أى موضـع قرار وثبـات . و **(مكين)** فعيل من تمكن بالمكان اذا رسخت قـدمه فيه . وحق (مكين) أن يوصـف بها المـاء الذى جعـل فى القرار ، لانه هو الذى تمكن من القرار ، لا القرار نفسه ، لكنه جعل من صفته على المجاز والتوسع ، كما يقال « نهر جار » : جعلوا الجريان من صفة النهر ، والنهر الشق فى الأرض ، وانمـا الجريان من صفة المـاء . ومعنى كون المـاء مكينا فى الرحم أن يستقر فيه بوضع محكم ونظام ثابت يحفظه من الفساد والتغير ، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة حتى يصبح جنينا ، ثم يولد بشرا سويا .

ويحتمل أن يكون (مكين) صفة لقرار الذى قلنا ان المراد به الرحم . ومعنى كونه مكينا انه وضـع من جوف المرأة ومطاوى احشائها بحيث يكون صالحا لاستيداع النطفة ، مصونا مما يفسـد عليه عمله ، ويحول دون قيامه بوظيفته .

والمـاء الذى جعل فى الرحم يسـتمر بعـد أن يستقر فيـه **(الى قدر)** ، أى الى مقدار من الزمن **(معلوم)** ، أى معين محدد . وقالوا فى تلك المدة انها من ٢٧٣ يوم ـ وهى عبارة عن تسعة أشهر شمسية ـ الى ٢٨٠ يوم ، وهى عشرة اشهر من الشـهور القمرية ، أو اربعون اسبوعا .

ثم ان هـذا الترتيب فى جعـل المـاء المهين فى الرحم ، وضرب اجل معين له حتى ينضج ويختمر وينشأ خلقا سويا ، وانسانا مفكرا أحوذيا (١) ـ دال على ما للخالق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التى يستحق عليها سبحانه وتعالى أعظم مدح وأكرم ثناء . ومن ثم قال تعـالى : **(فقدرنا)** بالتخفيف ، وهو بمعنى « قدرنا » بالتشـديد . وقرىء بالتشديد أيضا ، **(فنعم القادرون)** نحن ، أى المقدرون . يقال « قَدَر الشىء » ، « وقَدَّره » بمعنى واحـد ، هو تهيئة الشىء وضم أجزائه ، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونسب وأوضاع محكمة مدبرة تبلغ بذلك الشىء درجة كماله ، وايفائه الوظيفة التى اوجد لأجلها . وهكذا الشـأن فى أمر التوليد والولادة وتكون الجنين فى الرحم وتطوره فى الأشكال المختلفة ـ كل ذلك بترتيب عجيب ، وتدبير غريب ، يشهد بسمو الحكم الالهية ، وجليل النعم الربانية ، التى يستحق مكذبها ، والممارى فيهـا ـ الويل والخسران .

وجعـل بعض المفسرين (قدرنا) بالتخفيف من القـدرة لا من التقدير . والمعنى : اننا قدرنا على ما أردنا من جعل النطفـة فى قرار مـكين الى انتهـاء الوقت الذى تستوفى فيه كمالها من التدبير وحسن التصوير ، (فنعم القادرون) : أى نعم أصـحاب القدرة نحن ، الجديرون بالحمد والثناء ، المستحقون لجميع ضروب العبادة والدعاء . فالويل للمـكذبين بقدرتنا ، الممارين بوعدنا ، ومحكم آياتنا .

قوله : (ألم نجعل ... الخ) تذكير بضرب آخر من ضروب نعم الله على الخلائق ، وعجيب صنعه فى تدبير شئونهم ، وتيسيرراحة الحياة بل الممات لهم ، بحيث يستحق المعرض عن ذلك ، والمكذب بما للرب فيه من المنة والفضل ـ الويل والخسار . من ذلك انه تعـالى جعـل الأرض التى يحيـا فيهـا البشر ويموتون صالحة لتقلبهم على ظهرها فى حيـاتهم ، ولاندماجهم فى بطنها بعد مماتهم . فهى تكفتهم وتضمهم اليها أحياء منتشرين فى أعمالهم ومختلف أشغالهم ، كما تكفتهم وتضمهـم اليها أمـواتا لا روح فيهـم ، فتحفظ عوارهم ، وتصون كرامتهم ، فلا يبقون على ظهرها أشلاء ممزعة كجيف الحيوان : تنقبض منهـا

(١) (أحوذيا) أى حاذقا ، مشمرا للأمور ، قاهرا لها : يسوقها احسن مساق بحيث لا يشذ عليه شىء منها .

وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

النفوس ، وتنتابها الكلاب والوحوش . وقد جاء هذا المعنى فى آية : (ثم اماته فاقبره) «اى أمات الله الانسان موتا مميزاً عن موت سائر أنواع الحيوان ، وذلك بأن جعل له من جوف الأرض قبرا يوارى فيه تكرمة له : فلا تتناوشه السباع ، ولا يبقى نصب أعين أهله وذويه ، فيسوء عيشهم ، وتتنغص حياتهم كلما راوه مطروحا امامهم .

و **(كفاتا)** مصدر كفت الشيء الى نفسه ضمه ، وهو الذى نصب **(أحياء وأمواتا)** على المفعولية . أما من جعل (كفاتا) اسما بمعنى الموضع الذى يكفت فيه الشيء ويضم كالوعاء والصوان ، فان (كفاتا) حينئذ لاتنصب (أحياء وأمواتا) بل ناصبهما فعل محذوف دل عليه (كفاتا) ، كأنه قال : تكفت احياء وأمواتا . ونكر (احياء وأمواتا) لتعظيم شانهما ، وانهما جميعا بلغوا فى الكثرة مبلغا لايعدون معه ولا يحصون .

ويصح أن تكون (أحياء وأمواتا) منصوبة على الحال ، فانه قال : تكفتكم حالة كونكم احياء وامواتا . اما كون الأرض تضم الأموات الى صدرها ، وتكون كفاتا لهم ــ فأمره ظاهر ، ولكن ما معنى انها تضم الأحياء اليها ؟ وكيف تكون كفاتا لهم وهم منتشرون فوق ظهرها ، متفلتون الى كل جانب من جوانبها : لا حواجز تصدهم ، ولا سدود تقوم فى وجوههم ؟ قيل فى الجواب : ان المراد بكون الأرض كفاتا للاحياء ان منازلها ومساكنها كفات لهم ، تضمهم بين جدرانها للبيتوتة والراحة والسكنى ، كما ان المقابر كفات : للاموات تضمهم بين جوانبها .

وارى أن اكتشاف ناموس الجاذبية العام الذى بموجبه تجذب الأرض اليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء ، والذى لولاه لطاروا وتبددوا شذر مذر فى الفضاء ، بسبب حركة الأرض اليومية على نفسها ، وحركتها السنوية حول الشمس بسرعة فائقة الحد ــ هذا الاكتشاف يفسر لنا معنى ما قرره الكتاب الالهى من ان الأرض كفات للأحياء مذ يكونون على ظهرها ، فانها تجذبهم اليها ، وتضمهم الى صدرها كما تفعل الأم الحنون ، فلا تدعهم يتفلتون وهم بذلك لايشعرون .

ومن النعم والآلاء ، التى ذكر الله بها المكذبين ، وحضهم على التأمل فيها والشكر عليها ــ الجبال ، مذ قال تعالى : **(وجعلنا فيها)** ، أى فى الأرض جبالا **(رواسى)** : ثوابت رواسخ ، **(شامخات)** : باذخات ، ذاهبات فى السماء صعدا . والنعمة فى هذه الجبال من حيث أنها كالأوتاد للأرض فى حفظ موازنتها ، ورسو جوانبها ، واعتدال اقطارها . فهى تقيها الاضطراب والجيشان والميدان ، كما تقى أوتاد الخيمة الخيمة من مثل ذلك . وقد كشف الوحى عن هذا المعنى فقال فى سورة النحل : (والقى فى الأرض رواسى ان تميد بكم) . ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض بما فى جوفها من الغازات المحتقنة ، والبخارات المنضغطة ، والمواد المتراكمة المشتعلة ــ دائمة الاضطراب والخفقان .

وقد يقول ارباب العلم الطبيعى فى بعض ماذهبوا اليه : ان هذه الجبال انما نشأت عن زلازل الأرض ، وتكونت من اندفاع حممها وموادها السائلة من باطنها الى ظاهرها ، فكيف تكون سببا فى ثباتها وقرارها ؟ والجواب أن اندفاع تلك المواد السائلة ، ونشوء الجبال عنها ــ لما كان سببا فى تثبيت الأرض وتسكين زلزالها واضطرابها ، كانت الجبال بهذا الاعتبار ــ لا باعتبار ذاتها وهى قائمة على وجه الأرض ــ كالأوتاد فى تثبيتها ، ومنع ميدانها . ولو بقيت المواد التى تكونت منها الجبال مستكنة فى جوف الأرض ، ولم تنبعث من باطنها ، وتتراكب جبالا على ظاهرها ــ لبقيت الأرض دائمة الاهتزاز والاضطراب ، مستمرة الحركة والميدان . فتكون الجبال اذن نعم المسكن لخفقان قلب الأرض ، المريحها من قلق بالها ، وهزة زلزالها ، وعبء اثقالها .

على ان فى خلق الجبال الشوامخ نعمة اخرى هى نشوء السحب فوقها ، وهطول الثلوج والأمطار عليها ، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والجداول والينابيع ، ثم تكثر الزروع والأشجار والمراعى وضروب النبات . فالجبال مخازن الثلوج والأمطار ، ومستودعات عامة للبركات والخيرات ، وكل بلاد تقل فيها الجبال تقل فيها الأمطار ، فيقل الزرع والخصب ، وتكثر الصحارى المرملة ، ويعم الجدب . وانظر كيف انه تعالى بعد أن ذكر نعمة الجبال الشامخات قال : **(واسقيناكم ماء فراتا)** ، أى عذبا بالغ العذوبة ــ للاشارة الى أن الحكمة فى خلق الجبال هى أن تكون مستودعات للمياه والأمطار ، ومادة للعيون والجداول والأنهار التى نستقى منها .

وقلما ذكر القرآن الجبال الا أعقبها بذكر الأنهار والينابيع . وليس ذلك الا اشارة لما قلنا : من ان الجبال الشوامخ وسائل للماء ، ومصايد لبركات السماء .

وانما قال : (واسقيناكم) ، ولم يقل :

« وسقيناكم » ـ لأن فعل « سقى » الثلاثى أكثر ما يستعمل فى الماء الذى يعطاه الانسان لشربه ، أما « أسقى » فأكثر مايستعمل لما يعطاه لشربه ولشرب ماشيته وسقى زراعته . وهذه المياه التى جاءت بها العناية الالهية علينا بواسطة الجبال انما كان النفع بها عاما شاملا لنا ولانعامنا وزروعنا وبساتيننا ، ولغسل اجسامنا وثيابنا وسائر أمتعتنا .

ووصف الماء بالفرات ، وهو الشديد العذوبة ، لأن المياه التى تتفجر من صخور الجبال تكون اعذب من المياه التى تتحلب فى السهول والأحساء (١) .

قوله : (انطلقوا الخ) خطاب للمكذبين المذكورين فى قوله : **(ويل يومئذ للمكذبين)** ، اى ان الويل يوم القيامة سيحيق بأولئك المكذبين بآيات الله ، الكافرين بنعمه ، ويقال فى ذلك اليوم لهم ـ وقد أصبحت دار العذاب تحت مواقع ابصارهم ـ **(انطلقوا)** أيها المكذبون **(الى ما)** اى عذاب **(كنتم به)** فى دار الدنيا **(تكذبون)** . وهذا العذاب الذى أمروا بالانطلاق اليه هو بالطبع عذاب جهنم ، لكنه تعالى وصف فى هذه الآية شكلا جديدا من أشكاله ، ومظهرا بدعا من مظاهره وأحواله ... فقال لهم مكررا على أسماعهم الأمر الأول : **(انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب)**. سمى العذاب ظلا تهكما واستهزاء بالمعذبين ، بدليل انه وصفه بأوصاف لا تجتمع قط مع أوصاف الظل . الذى يتفيؤه الانسان ، ويتخذه مقيلا لراحته ودعته ـ هو كالظل الذى وعد به أهل اليمين ، وهم فريق الأبرار ، مذ قال تعالى فى سورة الواقعة : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب). ومعنى كون الظل الذى يتفيؤه هذا الفريق ممدودا انه منبسط ممتد لا يتقلص من جوانبه ، ولا ينثلم من أطرافه ، ولا ينفذ اليه الحرور من اية جهة من جهاته . أما ظل فريق الفجار فهو بئس الظل . وقد وصفه أيضا فى سورة الواقعة فقال تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) . فقوله : (ظل من يحموم) ، اى من دخان اسود قاتم . ومن كانت فوقه ظلة من مثل هذا الدخان كيف يقال انه فى هناء وراحة ؟ وكيف يصح أن يسمى ماهو فيه ظلا الا على طريق التهكم والاستهزاء ؟

ذلك الظل اليحمومى الذى ذكره الوحى فى سورة الواقعة ، والذى قال انه من نصيب أصحاب الشمال ـ اعاد ذكره فى سورتنا هذه ـ المرسلات ـ وقال ان المكذبين يؤمرون يوم القيامة بالانطلاق اليه ، واصفا له بقوله : (ذى ثلاث شعب) ، يريد أن اليحموم من دخان جهنم الذى انعقد كالظلة على رءوس المكذبين لاينبسط ولا يمتد من فوقهم كما يمتد وينبسط الظل الممدود من فوق أصحاب اليمين ، بل ينخرق وينثلم ويتشعب الى ثلاث شعب أو ثلاث ذوائب ... كما هو شأن الدخان المتكاثف اذا خلى ونفسه فى الفضاء . وبديهى أنه اذ ذاك **(لا)** هو **(ظليل)** يظل من يكون تحته ، ويقيه أوار الحر كما هى عادة الظلال كلها وخاصة الظل الممدود من فوق رءوس السعداء ، **(ولا)** هو أيضا **(يغنى)** عن الجهنميين المستظلين به ويقيهم **(من اللهب)** ، أى ألسنة النار المندلعة اليهم من كل جانب . فما هذا الظل الملعون ؟ وأنى يكون للمستظل به راحة وسكون ؟

وقال أبو مسلم الأصفهانى : يحتمل أن يكون المراد من شعب الظل الثلاث أوصافه الثلاثة المذكورة بعده ، وهى أنه ليس بظليل ، وأنه لا يغنى من اللهب ، وأن ناره أو شعبه ترمى بشرر كالقصر .

وفعل (يغنى) هذا بمعنى قولهم « لايغنى عنك فلان شيئا » ، أى لا يجدى ولا ينفع ولا يفيد ، وهو يتعدى بعن ، و (عن) فى الآية مقدرة مع مجرورها كما أشرنا . و (من اللهب) متعلق بيغنى لتضمنه معنى الوقاية والحفظ كما أشرنا اليه أيضا .

وذهب قطرب الى أن اللهب هنا بمعنى العطش لا بمعنى الشواظ الذى يعلو النار ، يقال : لهب الرجل لهبا ولهبانا اذا عطش فهو لهبان . والمعنى عليه : ان ذلك الظل لا يظل من وهج الحر ، ولا ينفع فى تخفيف العطش كما هى عادة الظلال الباردة .

فهم المخاطب من اوصاف الظل فى الآية السابقة أنه ظل جهنمى ، وأن المراد به الدخان المنعقد فى سماء جهنم ، فلم يعد يتردد فى كون ضمير (انها ترمى) المؤنث ـ عائدا الى جهنم أو دار العذاب . على أنه يصح أن يرجع الضمير المذكور الى قوله (ثلاث شعب) التى قلنا ان المراد بها ذوائب اليحموم المتكاثف فى سماء تلك الدار ، فهو دخان لا كالدواخن (١) المعقودة ، وله صفات غريبة غير معهودة . من ذلك (أنها) أى شعب اليحموم وذوائبه (ترمى) على المستظلين بها من وقت الى آخر **(بشرر)** جمع شرارة ، وهى ما يتطاير من النار أثناء تلظيها ، وكل واحدة من هذا الشرر **(كالقصر)** اى كالبيت المبنى .

وقد يستعظم السامع هذا الوصف ، ويستغرب تشبيه الشرر بالقصر ، لأنه انما يفهم من القصر ـ حسب المشهور فى معناه ـ البناء العظيم المشرف ، فيقول كيف تكون الشررة الواحدة المتساقطة من ذلك الدخان أو من تلك النيران كالقصر ؟ بل ربما ذهب خياله الى قصور الملوك الباذخة ، ذات الشرف والقمم والأبراج الشامخة ، فيستغرب الوصف ، ويستبعد الأمر . ولكن القصر ان كان يطلق فى لغة العرب على هذا الضرب من المساكن الشامخة فانه يطلق على كل بيت من حجر ولو كان صغيرا لاطئا ، بل قال ابن عباس رضى الله عنهما : « ان تشبيه الشرر

---

(١) جمع حسى ، وهو سهل من الارض تستنقع مياه الامطار تحت رماله .

(١) يجمع دخان على دواخن كما يجمع عثان (اى غبار) على عواثن ، وليس لهما نظير فى هذا الجمع الشاذ .

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ

بالقصور وارد على ما هو المعتاد فى بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك ــ اى قليلة الارتفاع ــ جارية فى هيئاتها وشكلها مجرى الخيام ا هـ » . وقد لمح أبو العلاء المعرى قول ابن عباس هذا فقال يصف نارا عظيمة ويشبه شررها بالخيام :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى
ترمى بكل شرارة كطـــراف (١)

وقد فسر بعضـــهم (القصر) الذى شبهت به الشرارة ــ بجزل الحطب ، اى بالغليظ من أعواده . وكأن هذا القـــائل استبعد ان يكون المراد بالقصر البيت الحجرى لما ذكرنا آنفا ، مع أن تفسيره به من احسن التشابيه ، واشدها انطباقا على ماكان مألوفا للعرب فى ذلك العهد . وكثـــيرا ماشـــبه شعراؤهم النياق بالقصور ، قال عنترة :

فوقفت فيهـــا ناقتى فكأنهـــا
فـــدن (٢) لأقضى حاجـــة المتـــلوم

وقال امرؤ القيس :

ولمـــا أن جـــرى سمن عليهـــا
كما طينت بالفـــدن السـيـاعا (٣)

يريد أن ناقته لما سمنت كان اللحم متراكبا عليها تراكب الطين على جدران القصر .

وقال الأخطل :

كأنهـــا برج رومى يشـــيده
لز بجص وآجـــر واحجـــار

وقالوا فى وصف نياق أو أفراس : « ان وقفن فمجادل ، أو مررن فأجادل » . والمجادل القصور ، والأجادل الصقور .

ثم ذكر الكتاب لشرر جهنم تشبيهـــا آخر غير تشبيهه بالقصر فقال : **(كأنه جمالات صفر)** ، اى كأن شرر جهنم المتطاير عنهـــا (جمالات) جمـــع جمل ، وهو الحيوان المعروف ، أو هو جمع جمال كما قالوا فى رجل رجال ثم رجالات ، ومن جموع جمل ايضـــا جمالة ، وقرىء به ايضا (كأنه جمالة صفر) .

شبه الشرارات بالجمالات فى عظمها ولونها ، ثـــم فى كثرتها وانتشارها هنا وهناك : فى المرعى وفى تتابع بعضها اثر بعض وهى ســـائره فى قطارها . وهكذا الشرارات ، تنبعث الشرارة اثر الشرارة أثناء تلظى نارها ، و (الصفر) ذات اللون الأصـــفر المعروف ، أو المراد بالصفرة هنا السواد الضارب الى صفرة ، فان هذا اللون هو اللون الغالب فى الوان الابل عند العرب ، والعرب يستعملون وصف (الأصفر) فيما كان لونه كالذهب والزعفران ، وفيما كان لونه أسود كالغراب والدخان فهـــو من أسماء أو صفات الأضداد ، حتى فسر بعضهم قوله تعالى فى وصف بقرة بنى اسرائيل : (صفراء فاقع لونها) بأنها سوداء خالصة اللون .

وكما جعـــل بعض المفسرين (القصر) فى الآية بمعنى جذوع الحطب الضخمـــة لا البيوت المعروفة ، كذلك جعل بعضهم (الجمالات) جمع الجمل بمعنى القلس لا الحيوان المعروف ، والقلس حبل السفينـــة الضخم ، وقال ان الكتاب يشبه الشرر فى تتابعه وتلاحقه واتصال كل شرارة بأختها بحبـــال السفن الضخمة البالغة الغاية فى الثخانة والطول ، فشرارات نار دار العذاب ترى فى ضخامتها وتماسكها ولونها الأصفر الضارب الى السواد ــ كالقلوس ، اى حبال السفن التى هذه صفتها .

والحاصل أن الوحى الالهى شبه شرر جهنم فى كبرها ولونها بالقصور والجمال ، أو بجذوع الحطب والحبال .

ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور الحمر فى الذكر ، ولا من الجمع بينهما فى التشبيه . فانك اذا نظرت الى قرية من قرى العرب وقصورها ، اى أبياتها الصـــغيرة اللاطئة المحمرة أو المصفرة بلون طينهـــا أو ترابها أو حجارتها وهى منتشرة هنا وهناك فى جنبات السهل الأفيح ، ويتخللها أو يسرح فى كل جانب من جوانبها نياق وجمال مصفرة اللون أو مسودته ترعى وتتناول بمشافرها أوراق الشيح والقيصوم تارة هنا وطورا هنـــاك ــ اذا وقع نظرك على ذلك لمحت من بعد فى آن واحد أجساما صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء تتراءى لك من خلال الكلأ والعشب الأخضر : هـــذه البيوت هنـــا ، وهـــذه الجمال هناك فى مشهد واحـــد ، واذ ذاك لاتعود تستبعد تشبيه الشرارات الجهنميـــة بتلك الأبيات والجمالات ، ولا تســـتغرب قرنهما معا فى الذكر ، بل تستحلى ذلك وتعجب به .

وامر هذه التشابيه ، ووقعها فى النفوس ، وقربها او بعـــدها من الأذواق ــ مرجعه الألفة والاعتياد ، ومقدار تأثر الحواس والمشاعر بها . وهذا منشأ خطأ الكثيرين ــ لاســـيما الذين يجهلون أحوال العرب ، واطوار معايشها ، وأساليب حياتها ــ فى حكمهم على القرآن وبلاغته مذ يرونه يصف وصفا ، أو يطلق قولا ، أو يورد تشبيها ، أو يحكى قصة غير مألوفة لنا اليوم ، ولا مما جرينا عليه فى أساليب كلامنا ، ولا مما اعتدنا أن نشعر به فى حياتنا وأطوار اجتماعنا . ويكون السبب فى قصور حكمهم مخالفة ما نحن عليه لمـــا عند أولئك العرب المخاطبين بالقرآن ، الذى روعى

---

(١) (الطراف) : الخيمة من الجلد المدبوغ .
(٢) (الفدن) بفتحتين : القصر .
(٣) (السياع) : الطين بالتبن .

فى آياته وأساليب خطابه ما اعتادوه والفوه هم ، كما قال ابن عباس فى تشبيه شرر النار بالقصور : « انه وارد على ما هو المعتاد فى بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك ، جارية فى هيئتها وشكلها مجرى الخيام » .

ولعل ابن عباس انما قال هذا بعد ان راى ماراى من قصور الشام والعراق التى يستحلى شعراؤهم أن يشبهوها — مذ يرونها مبثوثة بين المروج — بالدر بين الزبرجد ، قال شاعرهم :

لاحت قراها بين خضرة مرجها
كالدر بين زبرجد مكنون

وجميع ما يقال فى ملذات الجنة ، وهل هى من جنس ملذات الدنيا أو أنها غيرها وقد ضربت ملذات الدنيا لها مثلا — يقال فى نار جهنم وأسباب العذاب التى فيها : أهى نيران وأسباب من جنس نار الدنيا وأسباب التعذيب التى فيها ؟ ام ان نيران الدنيا وأسباب عذابها ضربت مثلا لنار الآخرة ؟ — كل ذلك لانقطع القول فيه قطعا ، وانما نؤمن به ، ونكل أمر الكنه والحقيقة فيه الى الله تعالى. وهذا يكفى فى سلامة عقيدة المسلم ما دامت عقيدته تسير به فى طريق المخافة من تلك النار : فيمتثل امر الله ، ويمارس الطاعات ، وينتهى عما نهاه الله عنه ، ويجتنب السيئات . أما اذا لم يفعل ذلك ، ولم تنهه عقيدته عن الفحشاء والمنكر — فانه لا يفيده ، بل لا ينجيه اعتقاده فى جهنم مهما اعتقد فيها ، وفى نوع نارها ، وأفانين عذابها . اذ العبرة فى الاعتقادات الدينية لآثارها المتجلية فى الأعمال والأخلاق وطهارة النفوس ، وليست العبرة فيها لكلماتها المرددة فى الأفواه والمرقومة فى بطون الطروس .

(هذا) اشارة الى أن ما قصه علينا من خبر ذلك الظل الجهنمى (١) ، ووصف شرره العظيم — واقع وكائن لا محالة يوم القيامة ، وهو **(يوم لا ينطقون)** أى لا ينطق فيه أولئك المكذبون ، ولا يتكلمون كلاما ينفعهم ، أو يدلون بحجة تنقذهم . فليس المراد نفى النطق عنهم بجملته ، بل نفى النطق النافع المفيد . اذ أنهم يوم القيامة يتكلمون ، كما قال تعالى : **(ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)** ، و **(قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)** ، و **(ربنا أخرجنا منها)** فى نظير ذلك . وهذا كما تقول لمن تهدده : « انك ان خالفتنى وفعلت ما نهيتك عنه . . . فلا كلام ولا عذر » ، تعنى لا شىء منهما بمسموع منك ولا بمقبول ، والا فقد يكثر ذلك المذنب وقتئذ من الثرثرة ، وايراد المعذرة بعد المعذرة .

وكذلك هم يومئذ **(لا يؤذن لهم)** فى أن يعتذروا أو يدلوا بحجة عن أنفسهم . وما الفائدة فى الاذن لهم بذلك اذا كانت لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل ؟ ولكنهم مع ذلك ومع عدم الاذن لهم بالاعتذار تراهم يندفعون بسائق الطمع فى الخلاص والحرص على السلامة ، وبمقتضى الجبلة البشرية الى الاكثار من الكلام وسرد الحجج والمعاذير من دون ما فائدة كما قلنا . فقوله تعالى : **(فيعتذرون)** معطوف على (يؤذن لهم) ، ونفيه مسلط عليه. والمعنى لايكون لهم اذن ، كما لايكون منهم اعتذار . ونفى الاعتذار هنا كنفى النطق فى (لا ينطقون) من حيث أن المراد فيهما كليهما نفى النطق النافع ، ونفى الاعتذار المفيد الناجع ، والا فهم ينطقون ويعتذرون ، كما يفعل عادة المذنبون المخصومون .

وانما لم يقل (فيعتذروا) بالنصب ويجعل الفاء للتسبيب ، لأن ذلك يوهم أنهم انما لم يعتذروا لأجل أنهم لم يؤذن لهم فى الاعتذار ، وأنهم لو أذن لهم لاعتذروا العذر المسموع . وهذا غير مراد ، وانما المراد أنه لا عذر لهم كما لا اذن لهم ، فالفاء لمطلق العطف لا للتسبيب . هذا مع ما فى رفع (يعتذرون) من رعاية الفاصلة وموافقة رؤوس الآى ، وهو غرض صحيح ، فى تأليف أجزاء الكلام الفصيح .

وذهب بعض المفسرين — وهو منقول عن ابن عباس أيضا — الى ان للناس يوم القيامة مواطن ومواقيت : فقد يتكلمون ويختصمون فى موطن ، ولا يتكلمون ولا ينطقون فى موطن آخر ، وقد يؤذن لهم فيلقون معاذيرهم فى وقت ، ولا يؤذن لهم فلا يعتذرون فى وقت آخر .

و (اليوم) فى كلام العرب كثيرا ما أريد به مطلق الوقت ، لابياض النهار بعينه بين الشروق والغروب ، وذلك اذا أضافوه الى فعل لا استمرار له ، فيقولون مثلا : أزورك يوم يقدم فلان . يريدون وقت قدومه ولو كان قدومه فى الليل . وقال شاعرهم :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا
واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

أراد باليوم مطلق الزمن والوقت ، ولم يرد حصة منه معينة .

وبالجملة فان الخطب يوم القيامة شديد ، وويل المكذبين محقق أكيد ، فنسأل الله السلامة ، من ان نقف موقف حسرة أو ندامة .

(هذا) ، أى ذلك الوقت الذى لا ينطق فيه المكذبون ولا يعتذرون هو **(يوم الفصل)** ، أى يوم الحكم الفصل . ومعنى كون الحكم فصلا أنه لا شفاعة فيه ، ولا رجوع عنه ، ولا تعقيب له . أو المعنى أنه يفصل فيه بالحق بين الخلائق ، فلا يمكن لواحد منهم أن يقول : انه ظلم ، أو لحقه حيف أو بخس .

ثم زاد ذلك اليوم ايضاحا وكشفا عن حقيقة حاله فقال : **(جمعناكم)** فيه أيها الأقوام المتأخرون فى الزمن لموعدكم الذى كنا وعدناكموه فى دار الدنيا . **(و)** قد جمعنا أيضا معكم **(الأولين)** المتقدمين فى

(١) هذا على قراءة « يوم لاينطقون » بنصب يوم ، أما على قراءة الرفع فالاشارة الى وقت وقوع العذاب الذى وصفه ، ليصح الاخبار عنه بيوم . وما قاله المؤلف تلفيق من الوجهين مع تقدير متكلف . المصحح .

فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

الزمن عليكم من الأمم ، لنحكم بينكم جميعا . فهانحن أولاء قد وفينا لكم بذلك **(فان كان لكم كيد)** وحيلة تتوسلون بها الى النجاة والخلاص من عقوبتنا التى أوعدناكم بها كما كنتم تزعمون في دار الدنيا ، وتتعللون به وقت أن كانت رسلى وأنبيائى تخوفكم من هـذا اليوم وتحذركم أهواله ــ **(فكيدون)** : أى فكيدونى ، واحتالوا على ، واعملوا على الخلاص من يدى ان قدرتم . وهذا توبيخ لهم على ما كان منهم فى دار الدنيا من الكيد للأنبياء ، والتكذيب بالوحى ، وتسجيل عليهم بالخزى والعجز والاستكانة . و (الكيد) : المكر والحيلة . و(كاده) : مكر به ، واحتال عليه ، وحاربه ، وأراده بسوء . و (كاد الأمر) : احتـال له ، وحاول الوصول اليه بمختلف الطرق والأسباب .

لا جرم أن حيـلة هؤلاء الكائدين تكون يومئـذ باطلة ، وتعلاتهم داحضة زائلة ، ويكونون مستحقين للويل والهلاك ، جزاء تكذيبهم الوحى ، وعصـيانهم أمر الله .

قوله : **(ان المتقين الخ)** وارد على عادة القرآن فى تصنيف المخاطبين ، والمعاقبة بين أحوالهم ومختلف أطوارهم ، فلا يذكر حالا الا أعقبه بضده ، ولا يصف ما يكون لفريق الا أتبعه بذكر ما يكون لقسيمه : يلون الخطاب فى ذلك ، ويتفنن فيه ما شاء ، تطرئة للكلام فى الأسماع ، وبلوغا الى مايريد من احداث الرغبة أو الرهبة فى النفوس . فهو فى هذه الآيات يعدد ما هيأه لأهل طاعته فى دار الثواب من صنوف البهجة والخفض والنعيم ، بعد ما عدد مايكون للمكذبين من ضد ذلك . فقد ذكر أولا أن المكذبين سيأوون الى ظل لا كالظلال : فهو لا يقى حرا ، ولا يدفع عطشا ، ولا يجد المستظل به مما يشتهيه لراحته ودعته سوى شرر النار الهائل فى شكله العجيب فى أمره .

أما فريق (المتقين) المصدقين بالوحى ، فهم على العكس **(فى ظلال)** ممدودة عليهم ، يتقلبون تحتها فى صنوف الراحة والغبطة والجزل . وليست هى كالظلال الجهنمية التى يأوى اليها فريق المكذبين . **(و)** كذلك المتقون هم فى **(عيون)** . ومعنى كونهم فيها أنهم قريبون منها وعلى حافاتها ، بحيث لايعسر عليهم الشرب والتناول منها أى وقت أرادوا ، وليسوا هم كفريق المكذبين الذين لا يكون لهم تحت ظلهم الا شدة الحر وفرط العطش .

وذكر (العيون) هنا ربما أيد ما قاله « قطرب » من أن المراد باللهب فى قوله السابق « ولا يغنى من اللهب » : العطش . ويقال : رجل لهبان أى عطشان ، فيكون قوله هنا (فى ظلال) مقابل لقوله ثمة (ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل) ، وقوله (وعيون) مقابل قـوله (ولا يغنى من اللهب) أى العطش ، وقـوله **(وفواكه مما يشتهون)** مقابل قوله : (انها ترمى بشرر كالقصر) ، أى أن المكذبين ان كانوا لا يتساقط على رءوسهم من جوانب ظلهم وشعبه المنخرقة سوى الشرر المحرق والشواظ الموجع ، فان المتقين لهم فى ظلالهم الممدودة فوقهم فواكه وثمار تساقط عليهم ، ويتناولون من أنواعها ومختلف أصنافها ما اشتهوا وأحبوا .

ويشبه أن يكون عطف قوله (وعيون وفواكه) على قوله (فى ظلال) ــ من قبيل قول الشاعر : « وزججن الحواجب والعيـونا » ، فان التزجيج أى الترقيق يكون للحواجب ولا يكون للعيون ، والمقـام يعين أن يكون التقدير « وكحلن العيونا » ، وكذلك هنا . فان استقرار المتقين وتبوأهم انما يكون فى الظلال الممدودة من فوق رءوسهم ، ولايكون التبوؤ فى العيون الجارية ، ولا فى الفواكه اليانعة ، فيتعـين أن يكون التقدير « ان المتقين يقيمون فى ظلال ، ويشربون من عيون ، ويأكلون من فواكه » ، وهذا الحذف من لطيف ايجاز القرآن ، وعجيب ادماجه . أما على التوجيـه الأول الذى جعل فيه متعلق الجار واحدا ــ فالتقدير هكذا : ان المتقين يمرحون فى صنوف من نعيم الجنة : ظلال وعيون وفواكه . وربما كان هذا التوجيه فى تفسير الآية أعلق بالبلاغة ، وادنى الى الصواب .

وقوله تعالى : **(كلوا واشربوا هنيئـا بما كنتم تعملون)** فيه أيضا شىء من الايجاز والادماج . اذ التقدير : ان المتقين مستقرون فى تلك الظلال ، مقولا لهم : (كلوا واشربوا الخ) ، وليس المراد من ذلك أمرهم بمجرد الاكل والشرب والاقتصار على لذواهما . لأن ماكانوا يعملون من الطاعات ، ويعالجون من المشقات فى سبيل رضاء الله ــ أكرم وأكبر من أن يكافئهم ربهم عليه بالأكل والشرب وحدهما ، وانما هناك ملذات وصنوف من النعيم لا توصف ولا تحصى ، ولا يدرك كنهها كما فى الحديث القدسى « أعددت لعبـادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . . يؤمر أولئك المتقون الصالحون فى

الدار الآخرة أن يتمتعوا بها ، ويتناولوامنها ما شاءوا وأحبوا ، وهذا كما تقول لابنك المطيع وقد أسديت اليه نعما وايادى « اذهب يابنى ، كل واشرب وتمتع بهذه اللذوى جزاء برك بى وطاعتك لى » . وأنت تريد اظهار الرضا عنه ، والثناء عليه بما كان منه من الطاعة والبر ، واعطاءه الحق فى أن يكون حرا مطلق السراح يفعل ما يشاء ، بعد ذلك النصب والعناء ، ولا تريد قط أن يكون الأكل والشرب هو كل همه ومنتهى حظه من تلك النعم والأيادى التى أسبغتها عليه . وقد مر فى تفسير قوله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) فى سورة الحاقة — زيادة تفصيل وايضاح لما قلنا هنا . فراجعه ثمة ان شئت (١) .

وقوله : (**انا كذلك الخ**) ، يريد : انا كما جزينا المتقين بما ذكر من صنوف الراحة ، وأنواع الدعة والنعيم فى جنان الخلد اثابة لهم على ما كان من طاعتهم لنا فى دار الدنيا — كذلك نجزى ونثيب كل محسن متق مطيع على احسانه وتقواه وطاعتــه : لا نضيع لعامل عملا ، ولا نبخس لأحد حقا . فالويل بعد هذا لمن كذب وحينا ، وخالف أمرنا ، وعصى رسولنا .

وقــوله : (**كلوا وتمتعوا الخ**) خطاب للمكذبين الذين أنذرهم فى ختام الآية السابقة بالويل والهلاك ان هم أصروا على تكذيبهم . وليس المراد من (كلوا وتمتعوا) حقيقة الأمر بالأكل والتمتع ، وانما المراد به التهديد والوعيد. فهو يقول لهم : (كلوا) ، وارضوا من حياتكم الدنيا بتناول المطاعم والمشارب كما هو شأن البهائم التى همها علفها ، وملء كروشها ، وهى لاهية عما يراد بها ، (وتمتعوا) كيف شئتم بالملذات ، وتقمم الشهوات ، تمتعا أو زمنا (**قليلا**) ، وهو مدة أعماركم القصيرة فى دار الدنيا ، (**انكم**) أيها المكذبون (**مجرمون**) . وقد سن الله للمجرمين من قبلكم سننا لا تتبدل ونواميس لا تتخلف . وهو تعالى آخذ بكم مأخذهم ، فيمهلكم فى غفلتكم ، ويمدكم فى طغيانكم ، حتى اذا جاء موعدكم تكل بكم ، وأقر عين العــدل بالانتقام منكم .

فقوله : (كلوا وتمتعوا) يفيد التهديد والوعيد ، كمــا يفيده قولك لآخر — وقد نهيتــه عن أمر فلم ينته — : « افعل ماتشاء ثم انظر ما يحل بك » ، ولا تريد بذلك طلب الفعل منه ، بل تريد أن البلاء نازل به ان أصر على المخالفة .

ويشبه أن يكون أراد فى قوله : (كلوا وتمتعوا) التقريع والتعيير الذى أراده الشاعر فى قوله :

انى رأيت من المكارم حســبكم
أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
واذا تذوكــــرت المكارم مــرة
فى مجلس أنتم بــه فتقنعــوا

وربما أوهم مجىء قوله : (كلوا وتمتعوا) فى خطاب المجرمين بعد قوله : (كلوا واشربوا هنيئا) فى خطاب المتقين — انه خطاب للمجرمين فى دار العذاب الأخروى، كما أن خطاب المتقين يكون فى دار النعيم الأخروى . وليس الأمر كذلك ، لقوله فى خطاب المجرمين (قليلا) ، وزمنا قليلا ، فيكون ظــرفا ، وعلى كلا الاعرابين لا يناسب أن يقع هذا فى خطاب المجرمين وهم فى دار العذاب ، لان أكلهم وتمتعهم انما يوصف بالقلة فى مقداره أو فى زمنه اذا لاحظناه واقعا فى دار الدنيـا الفانية ، لا فى دار الآخرة الخالدة : التى يأكل المجرمون ويتمتعون بما فيها من طعام الزقوم وشراب الغسلين تمتعا وبيلا ، وزمنا طويلا لا آخر لهما ، ولا ينتهيان عند حد .

(**و**) من جملة صفات هؤلاء الجاحدين المكذبين الذين استحقوا الويل ، ونزول العقوبة الالهية بهم كما نزلت بالأمم قبلهم — أنهم (**اذا قيل لهم اركعوا**) ، أى اخشعوا لله تعالى ، وتواضعوا له ، ودعوا هذا الزهو والعجب والاستكبار — (**لا يركعون**) ، ولا يتواضعون ولايخشعون ، بل يصرون على زهوهم واستكبارهم . فالركوع هنا بهذا المعنى لا بمعنى التجبية والانحناء على الركبتين للصلاة . يقال : ركع الى الله اذا اطمأن اليه وخضع .

وذهب بعض المفسرين الى أن المراد به ركــوع الصلاة ، فالمعنى : اذا قيل لهؤلاء المكذبين : صلوا الى الله مــع جماعة المسلمين ، وشــاركوهم فى اخلاص العبــادة له ، واخلعوا الاصــــنام والطواغيت التى تعبدونها — أبوا واستكبروا . وأباؤهم الصــلاة لله تعالى بعد أمر النبى لهم بذلك ما هو الا تكذيب لنبيهم بما أبلغهم اياه من وجوب الركوع لله . على أن نبيهم صلى الله عليه وسلم ما كان ليأمر بالصــلاة من عند نفسه ، فامتناعهم عنها هو فى المعنى عصيان لأمر الله ، وتكذيب لخبر الله ، فكيف لا يكون هؤلاء المكذبون مستحقين للويل والعذاب ، يوم العرض والحساب ؟

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وقد أسلمت يوم فتح مكة : كيف ترين الاسلام يا هند ؟ قالت : « بأبى انت وأمى يا رســول الله ، حسن لولا ثلاث » . قال : وما هن ؟ قالت : « التجبية ، والخمار ، ورقى هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة » . والتجبية الركوع ، ويطلق على السجود أيضا ، وتعنى بالعبد الاســود سيدنا بلالا رضى الله عنــه مذ يعلو الكعبة للأذان . فأجابها صلى الله عليه وسلم بقوله : « أما التجبية فلا صلاة من دون ركوع ، وأما الخمار فهو احسن ستر ، وأما الأسود فانه نعم العبد هو » .

وكان سادات قريش يرون الركوع والسجود من أشد الأمور عليهم ، وذلك لفرط تيههم ونخوتهم ، ولذا قال بعض هؤلاء وقد أبى الاسلام : « والله لا تعلونى استى » . ويروى انه صلى الله عليه وسلم أمر وفد ثقيف بالصلاة ، فقالوا : « لاننحنى ، فانها سبة لنا » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا خير فى دين ليس فيه

(١) فى صحيفة ٣٩ من هذا الكتاب .

ركوع ولا سجود » ، على ان الاسلام انما جاء لترويض النفوس العاتية وتذليل انفتها .

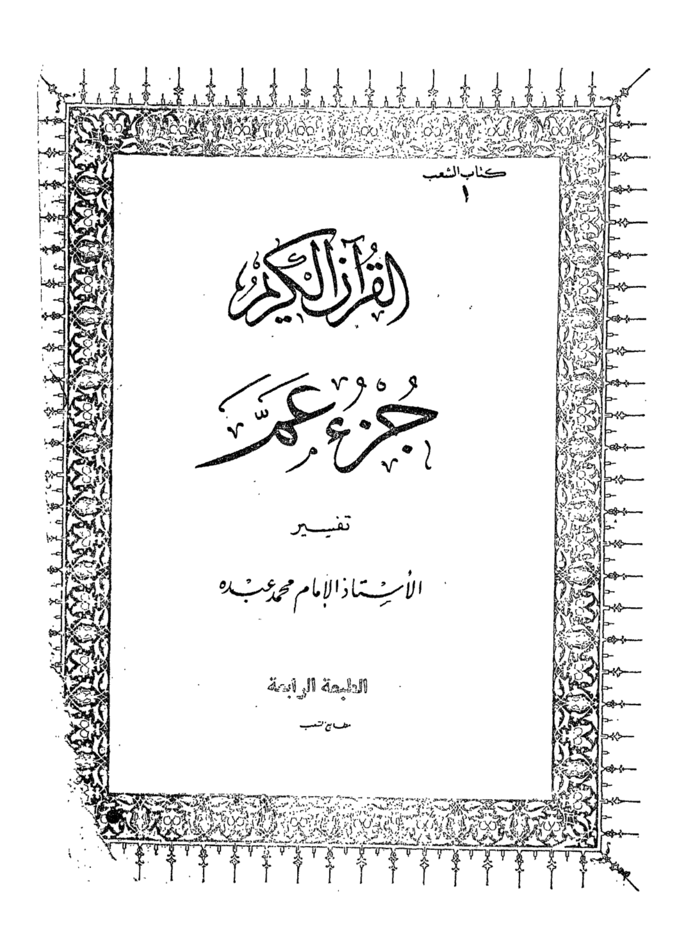
وكان نساء الجاهلية يكثرن من التبرج وابداء الزينة ، وقد اعتدن ذلك ، ولذا استعظمت السيدة هند الزامهن باستعمال الخمار ، ووجوب ترك التبرج المعتاد لما فيه من ستر المحاسن ، وكذلك استعظمت ان يطأ سيدنا بلال الكعبة بقدمه ، والعرب كانوا يجلونها كثيرا . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم أشار فى الجواب الى أن المؤمن الصالح كمثل بلال افضل من الكعبة ، لاسيما اذا كان يدعو الى الله ، والى عبادته الخالصة من شوائب الوثنية . وفى قوله هذا سد للذريعة عبادة الكعبة التى ربما كانت تخالج نفوس بعض العرب .

ثم ان هؤلاء المكذبين اذا لم يؤمنوا بهذا الوحى السماوى والحديث الالهى الذى خاطبهم به ربهم على لسان نبيهم ــ (**فبأى حديث بعده يؤمنون ؟**) ، لا حديث ولا كتاب سماوى يبلغ ما بلغه القرآن من صدق اللهجة ، ونصوع الحجة ، ووضوح المحجة . فاذا كذبوا بالقرآن ، ورغبوا عن هديه ، وزهدوا فى وعظه ونصحه ــ كانوا عن غيره أرغب ، وفى وعظه ونصحه ازهد .

وهكذا يقضى هؤلاء المجرمون اعمارهم: لا ينتفعون بحكمة ، ولا يستضيئون بنور ، ولا يستهدون بدين ، حتى يأتيهم اليقين ، وينادى عليهم يومئذ (ويل يومئذ للمكذبين) .

قال مؤلفه : فرغت من هذا التفسير بياضا صبيحة يوم الجمعة الواقع فى ٩ المحرم سنة ١٣٣٨ الموافق لليوم الثالث من اكتوبر سنة ١٩١٩ فى مدينة دمشق الشام ، وأنا بها نزيل ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

راجع التفسير الأستاذ الشيخ عطيه صقر من علماء المراقبة العامة للثقافة بالأزهر ، وراجع آيات القرآن الكريمة على الرسم العثمانى الأستاذ الشيخ عامر عثمان المدرس بمعهد القراءات وعضو لجنة مراجعة المصاحف ، وذلك تحت اشراف المراقبة العامة للثقافة الاسلامية بالأزهر الشريف



كتاب الشعب
١

القرآن الكريم

جزء عم

تفسير

الأستاذ الإمام محمد عبده

الطبعة الرابعة

مطابع الشعب

بسم الله الرحمن الرحيم

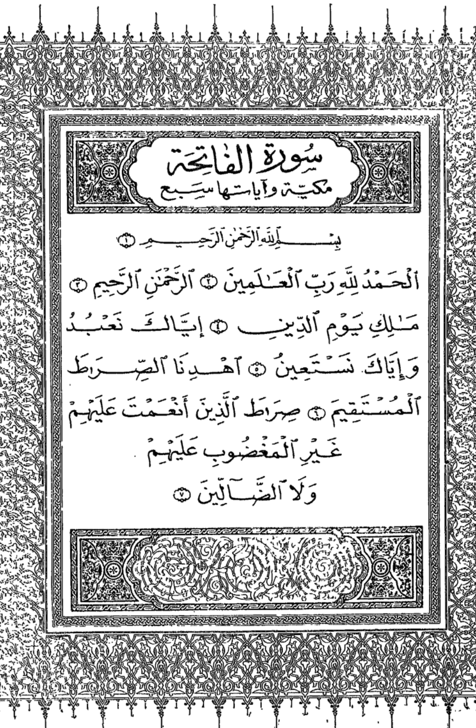
ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا . واغفر لنا ، ربنا ، انك أنت العزيز الحكيم .

فتحت لى يارب أبواب فضلك ، وعرفتنى ماشئت من أسرار قولك ، فبأى لسان أحمدك ، وبأية جارحة أشكرك .

أسألك المعونة على بيان الحق ، لارشاد المستعدين لقبوله من الخلق ، وأن تجعل الكلمة العليا لكتابك المبين ، والسلطة العظمى لهدى خاتم المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى جميع النبيين ، ومن تبعهم على الصراط المستقيم ، واقتفى أثرهم فى الصالحات والسير القويم . وأرشد اللهم هذه الامة العانية الى مافيه لها السلامة والعافية ، ولا تجعلها حربا للهادين ، ولا فتنة للضالين المضلين .

محمد عبده



سُورَةُ الفَاتِحَةِ
مكية وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

سُورَةُ النَّبَإِ
مكية وآياتها أربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ

كان غير المؤمنين يسأل بعضُهم بعضا عن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسألون غيرَهم فيقولون : هل هو رسول ؟ وماهذا الخبر الذى جاء به من دَعْوَى أنه مُرْسَلٌ من قِبَلِ اللهِ يدعو الى توحيده والى الاعتقاد باليوم الآخر وهو يوم القيامة ، يوم يُسْأَل كل عامل عما عَمِل ؟ فبَكَّتَهم الله بقوله : عن اى شىء يتساءلون ؟ ثم قال عن الخبر العظيم الذى هم فيه مختلفون : بعضُهم يُنكِرُه ، وبعضُهم يتردّد فى صحته . ثم ردعليهم الانكار والتردد بقوله : **كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون** — اى ستنكشف لهم الحقيقة ، ويرون صحة الخبر ، وتنقطع الرِّيبة فيه يوم تقوم الساعة ويُفْصَلُ بينهم . ثم ذَكَّرَهُم بدلائل قدرته وآيات رحمته فقال : **ألمْ نجعل الأرضَ مِهادا الخ** ، اى انّ مَنْ يُنْعِم على الناس هذه النِّعم العظيمة لا يُهْمِلُهُم من ارسال داعٍ الى توحيده بعد ما ضَلّوا عنه ، وهادٍ الى طريقه المستقيم ، ومُذَكِّرٍ بيوم الحساب . وليس بعظيم على صاحب هذا الاحسان أن يُرْسِلَ ذلك الرسول ، ولأنْ يُحقق ما يدعو الى الاعتقاد به من شئون اليوم الآخر ، وهى ماذكر فى قوله : **إنّ يومَ الفصْلِ الخ** .

(عَمَّ) أصله عما ، اى عن اى شىء . والابهام للتعظيم . و **(النبأ)** الخبر الذى يهتم له . و **(كلا)** للرَّدْع ونَفْيِ الزعْم الباطل . **(المِهاد)** الفِراش . وقد جعل اللهُ الأرضَ موطئا للناس والدواب يقيمون عليها ، فهى فراش لهم . و **(الأوتاد)** جمع وَتِد ، بسكون التاء وكسرها وهو معروف . وانما كانت الجبال أوتادًا لأن بروزها فى الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها ، ولأنها فى تثبيت الأرض ومنعها من الميدان والاضطراب كالاوتاد فى حفظ الخَيْمة من مثل ذلك ، كأن أقطار الأرض قد شُدَّتْ اليها ، ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما فى جوفها من المواد الدائمة الجَيَشان . و **(أزواجا)** ذكرًا وأنثى ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحِفظ النَّسْل وتكميله بالتربية . و **(السُّبات)** بضم السين الموت ، والمسبوت الميت ، من السبت وهو القطع . والنوم احد الموتين ، ونعمة الله فيه كبيرة ، فان موتَ بضْعِ ساعات فى اليوم يُريحُ القُوَى من تعبها ، ويُنَشِّطُها

سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ

من كَسَلها ، ويُعيدُ اليها ما فَقَدَ منها . ولو لم يكن النوم موتا واليقظة بعثا لم يتم هـذا التجديدُ للقوى .

(**لباس**) الجسم مايستره . والليل شبيه باللباس لأنه يستر الأشخاص بظلمته . وللناس فى هذا التّستر فوائد اللبـاس ، فكما أن اللبـاس يقى من الحر والبرد ويستر العورات عن النظر ، كذلك الليل يستتر فيه الفار من العَدُوّ أو الحيوان المفترس المطارد له ، ويختفى فيه الكامن للوثوب على ما يريد التخلص منه والنجاة من شر مُساورته .

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المـانوية تكذب

و (**المعاش**) الحياة ، فكما جعل النوم موتا جعـل اليقظة حياة . والنهـار زمن هذه الحياة ، أى جعل النهـار وقت معـاش يستيقظون فيه ويتقلبـون فى حوائجهم ومكاسبهم . و (**السبع الشداد**) الطرائق السبع ،وهى ما فيه الكواكب السبعة السيارة المشهورة . وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها ، والا فقد بنى ماهو أعظم منها وهو ما وراءها من عوالم السموات ووصفها بالشدة لأنها مُحكمَة متينة لا يؤثر فيهـا مرور الزمان . و (**الوهاج**) المتلألىء الوقاد . والسراج الوهاج هو الشمس. و(**المعصرات**) السحائب والغيـوم اذا أعصرت ، أى جاء وقت أن تعصر المـاء فيسقط منهـا المطر . و (**الثجاج**) المنصب بكثرة . و (**الحب**) يعنى به مايقتات به الناس من نحو الحنطة والشعير . و (**النبات**) مايقتات به الدواب من التبن والحشيش((**كلوا وارعوا أنعامكم**)) ((**متاعا لكم ولأنعامكم**)) . و (**الجنات**) جمع جّنة ، وهى الحديقةوالبستان فيه الشجر أو النخل . و(**ألفافا**) أى ملتفة الشجر لتقارب اغصانه وطول افنانه. و(**يوم الفصل**) هو يوم القيامة ، يظهر فيه الحق ، وينكشف الستار عن القلوب ، والالتباس عن العيون فيفصل بين الحق والباطل . و (**كان ميقاتا**) أى ينتهى اليه الناس فيجتمعون فيه ليرى كل عاقبة عمله . وكان كذلك أى قضاه الله وقدره . (**يوم ينفخ فى الصور**) بدل مـن يوم الفصل ، أو عطف بيان له . والنفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للنـاس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها الا نفخة فى بوق ، فاذا هم قيام ينظرون . وعلينا ان نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور وليس علينا ان نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور ، والبحث وراء هذا عبث لايسوغ للمسلم . و (**الافواج**) الأمم والطوائف ، اى تأتون أمما وطوائف مختلفة . (**وفتحت السماء**) أى أنه يتغير فى ذلك اليوم نظام الكون : فلا تبقى أرض على أنها تقل ولا سماء على أنهـا تظل ـ بل تكون السماء بالنسـبة الى الأرواح مفتحة الأبواب ، بل تكون أبوابا فلا يبقى علو ولا سفل ، ولا يكون مانع يمنع الارواح من السير حيث تشاء .

أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

والآخرة عالم آخر غير عالم الدنيا التى نحن فيها ، فنؤمن بما ورد بهالخبر فى وصفهولا نبحث عن حقائقه مادام الوارد غير محال . ولا شك أن امتناع السماء علينا انما هو لطبيعة اجسامنا فى هذه الحياة الدنيا . اما النشأة الأخرى فقد تكون على غير ذلك ، فتكون السماء بالنسبة الينا **أبوابا** ندخل من أيها شئنا باذن الله . وقد يكون معنى تفتح السماء ما عنى بقوله : **اذا السماء انشقت ... اذا السماء انفطرت ... يوم تشقق السماء بالغمام** ، اى انه يقع الاضطراب فى نظام الكواكب ، فيذهب التماسك بينها ، ولا يكون فيما يسمى سماء الا مسالك وأبواب لا يلتقى فيها شىء بشىء ، وذلك هو خراب الكون العلوى كما يخرب الكون السفلى .

(**وسيرت الجبال**) تمثيل لمور الأرض فى ذلك اليوم ، وان جبالها لا تكون على رسوخها المعروف اليوم ، بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعيد، فاذا لمسته لم تجد شيئا ، وذلك لتفرق اجزائها وانبثاث جواهرها .

بعد أن عدد وجوه احسانه ودلائل قدرته على ارسال رسوله وتأييده ، وذكر أن الفصل بين الرسول وبين معانديه سيكون يوم القيامة ، وذكر هوله وامتياز شئونه عن شئون أيام الدنيا — جاء الى وعيد المكذبين وبيان مايلاقونه، واخبر أن جهنم — وهى دار العذاب — قد قدرها الله مرصادا وحدا يرصدون فيه للعذاب ، وهى مرجعهم الذى ينتهون اليه ، وانهم سيقيمون فيها مددا طوالا ، مجدبين معدمين لا يجدون شيئا من النعيم والراحة ، ولا يذوقون فيها روحا ينفس عنهم حر النار ، ولا يذوقون من الشراب الا الماء الحار والصديد الذى يسيل من ابدانهم جزاء يوافق أعمالهم ، لأنهم كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ، ولذلك اقترفوا السيئات ، واتوا قبائح الأعمال ، وكذبوا بالدلائل التى أقامها الله على صدق رسله تكذيبا اشد تكذيب . وقد أحصى الله كل شىء فى كتاب علمه ، فلم يغب عنه شىء مما صدر منهم ، وسيوفيهم جزاء ما صنعوا ، وستكون كلمته العالية أن يقول لهم ذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا .

(**المآب**) المرجع . (**لابثين**) مقيمين . (**الأحقاب**) جمع حقب بضمتين ، قيل هو ثمانون سنة ، وقيل أكثر من ذلك . والمراد المدد المتطاولة ، ولا يكاد يستعمل الحقب والحقبة الا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها ، اى يلبثون فيها مددا الى غير النهاية . (**البرد**) برد الهواء ، أو هو النوم ، ورد من بعض العرب « منع البرد البرد » . (**الغساق**) من غسق يغسق اذا انصب وسال ، وهو القيح والصديد الدائم السيلان من اجساد اهل النار . (**الوفاق**) مصدر وافق ، وصف به الجزاء مبالغة . (**كذابا**) اى تكذيبا .

كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾

وهذه الصيغة فاشية فى كلام فصحاء العرب فى باب فعل ، فيقال فسر فسارا مثلا . **(كتابا)** مصدر كتب ، وهو فى موضع احصاء ، كأنه قيل أحصيناه احصاء ، او ان احصيناه فى معنى كتبناه ، لأن الاحصاء بالكتابة ، والكتابة هنا على النحو الذى يليق بتنزية الله تعالى ، وهو اعلى من كتابتنا التى نعرفها واشد منها ضبطا ، لكنا لانتكلف بالبحث عنها ، فذلك مما نؤمن به ونكل علم حقيقته الى الله . **(ان للمتقين الخ)** . بعد مابين حال المكذبين جاء بما يناله المتقون ، وانهم سيفوزون بالأجر العظيم فى الجنان التى وصفها ووصف مافيها ، وأن ذلك عطاء لهم من مالك السموات والأرض ، عظيم الرحمة والانعام الذى لايملك أحد من اهل السموات والأرض أن يخاطبه فى شأن الثواب والعقاب ، بل هو المتصرف فيه وحده فى ذلك اليوم الذى يقوم فيه الروح والخلق المقدس من عالم الغيب والملائكة صفا ، ولا يمكن لأحد ان يتكلم الا من اذن له الرحمن ونطق بالصواب .

(المفاز) : الفوز بالنعيم والثواب او مكان ذلك . **(والحدائق)** : البساتين فيها انواع الشجر المثمر . و **(الأعناب)** معروفة ، جمع عنب ، خصها بالذكر لأهميتها . و **(الكواعب)** البنات اللاتى استدارت ثديهن . و **(الأتراب)** اللاتى من سن واحدة . والتمتع بهذه البنات فى الجنة مما يتمثله الانسان فى هذه الدنيا على نحو من اللذة ولكن لاتعلم حقيقته فى الجنة . وغاية مايجب ان نصدق به انه تمتع فائق اللذة على حسب مايناسب ذلك العالم الأخروى . **(الكأس)** اناء من بلور يشرب فيه . و **(الدهاق)** المملوءة المترعة ، وادهق الحوض ملأه . و **(اللغو)** ما لا يعتد به من الكلام . و **(الكذب)** التكذيب كما سبق . واللغو والتكذيب مما تألم له انفس الصادقين بل هو من أشد الأذى لقلوبهم ، فأراد الله ازاحة ذلك عنهم . و **(الحساب)** الكافى . و **(الروح والملائكة)** من مخلوقات الله المغيبة عنا التى لا نكلف بالبحث عن حقائقها ، وقيامها واصطفافها على النحو الذى يليق بها . والذى تفيده هذه الآية الكريمة انهم — مع قربهم من الله — لا يستطيع احد منهم ان يشفع لأحد او يستمنح منحة إلا اذا أذن الله له ، ولا يأذن الا لمن علم أنه سيجاب ، وانما يكون الكلام ضربا من التكريم لمن يأذن الله له به ، يختص به من يشاء ولا أثر له فيما أراد البتة .

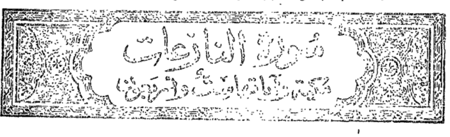
(ذلك اليوم الحق الخ) . بعد ان ذكر فى قوله : **ان يوم الفصل كان ميقاتا الخ** — ان يوم القيامة موعد يفصل فيه بين الحق والباطل ، وترفع فيه ستر الشبهة عن القلوب ،

ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩)
إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)

وبين كيف يتحول العالم فيه من حال الى حال ، وكيف ينشر الموتى ويحشرون . ثم ذكر أن دار العذاب جهنم يصير اليه أهل الجهالة والجحود فى ذلك اليوم الموعود ، وأن الفوز موعد لاهل الجنة وهم المتقون . وانزوى الكلام فى تعداد ماأعد لهم بأن ذلك سيكون لهم فى ذلك اليوم ، ووصفه بوصف آخر لم يسبق ، وهو انه يقوم فيه **الروح والملائكة صفا الخ** — عقب ذلك كله بتأكيد أن هذا اليوم حق لاريبة فى أنه يأتى لا محالة . فاذا كان هذا اليوم يوم الجزاء حقا لا ريب فيه ، ومرجعا لا مفر منه . والناس فيه فريقان : فريق بعيد عن الله مدحور مآبه النار ودار العذاب ، وفريق مآبه القرب من الله ومنازل الكرامة — فمن كانت له مشيئة صادقة فليتخذ مآبا الى ربه ، فليعمل عملا صالحا يقربه منه ويحله محال كرامته .

ثم رجع الى تهديد المخاطبين من المعاندين وتحذيرهم عاقبة عنادهم فقال : (**انا انذرناكم عذابا قريبا**) وهو ما وصفه فيما سبق وقربه لانهم يجدون منه عقب موتهم ، فان الروح متى فارقت البدن انكشف لها ما ينتظرها ، ولا تزال فى ألم منه الى أن تلاقيه يوم ينظر المرء أعماله حاضرة لديه معروضة عليه ، وعندذلك يقول الكافر ، من شدة ما يلقى وهول ما يرى : **ياليتنى كنت ترابا** ، ويتمنى أن كان جمادا لم يصب حظا من الحياة .

(**الانذار**) الاخبار بالمكروه قبل وقوعه . (**والمرء**) الانسان ذكرا كان أو انثى .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ

(**والنازعات الخ**) جاء فى الكتاب العزيز ضروب من القسم بالأزمنة والأمكنة والأشياء . والقسم انما يكون بشيء يخشى المقسم اذا حنث فى حلفه به أن يقع تحت المؤاخذة — نعوذ بالله أن يتوهم شيء من هذا فى جانب الله — وما كان الله جل شأنه ليحتاج فى تأكيد اخباره الى القسم بما هو صنع قدرته ، فليس لشيء فى الوجود قدر

اذا نسب الى قدره الذى لا تقدره القادرون ، بل لا وجود لكائن اذا قيس الى وجوده الا لانه انبسط عليه شعاع من اشعة ظهوره جل شأنه . ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الخبر الذى اختص به القرآن ، وكيف يوجد فى كلام الله ، فيجاب بأنك اذا رجعت الى جميع ما أقسم الله به وجدته أما شيئاأنكره بعض الناس او احتقره لغفلته عن فائدته ، أو ذهل عن موضع العبرة فيه ، وعمى عن حكمة الله فى خلقه ، أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق الذى قرر الله شأنه عليه ، فيقسم الله به اما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه فى نفس من يحقره ، أو تنبيه الشعور الى ما فيه عند من لا يذكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم . فمما أقسم الله به يوم القيامة او القرآن مثلا ، ذلك لتقرير أن الأول واقع لا مفر منه ، وأن الثانى كلام الله الحق الذى لا ريب فيه ، ثم يكون فى ذلك تعظيم كليهما : الاول لما يكون فيه من سعادة وشقاء ،والثانى لما فيه من الهداية والشفاءلما يعرو النفوس من الأدواء . ومن ذلك النجوم : قوم يحقرونها لانها من جملة عالم المادة ويغفلون عن حكمة الله فيها وما ناط بها من المصالح ، وآخرون يعتقدونها آلهة تتصرف فى الأكوان السفلية تصرف الرب فى المربوب ، فيقسم الله بها موصوفة بأوصاف تدل على أنها من المخلوقات التى تصرفها القدرة الالهية وليس فيها شىء من صفات الألوهية ، كما تراه فى مفتتح هذه السورة وفى سورة **اذا الشمس كورت** ، ثم تشير الى مانيط بها من المصالح كما سيرد عليك . وسترى فيما يساق اليك من هذا التفسير فى السور الآتية ما يرشدك الى تفصيل ما أجملناه هنا .

وهناك أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أن من الأديان السابقة على دين الاسلام ما ظن أهله أن هذا الكون الجسمانى وما فيه من نور وظلمة وأجرام واعراض انما هو كون مادى لم يشأ الله خلقه الا ليكون حبسا للأنفس وفتنة للارواح ، فمن طلب رضا الله فليعرض عنه ، وليبعد عن طيباته ، وليأخذ بدنه بضروب الاعنات والتعذيب وأصناف الحرمان ، وليغمض عينيه عن النظر الى شىء مما يشتمل عليه هذا الكون الفاسد فى زعمه ، اللهم الا على نية مقته والهروب منه . فاقسم الله بكثير من هذه الكائنات ليبين مقدار عنايته بها ، وأنه لا يغضبه من عباده أن يتمتعوا بما متعهم به منها متى أدركوا حكمة الله فى ذلك المتاع ووقفوا عند حدوده فى الانتفاع .

وقد افتتح الله هذه السورة بأن أقسم ببعض مخلوقاته اظهارا لعظم شأنها ، وإتقان نظامها ، وغزارة فوائدها ، وأنها مسخرة له ، خاضعة لأمره ، ليقعن مايوعدون، مما ذكر فى السورة السابقة وما يذكر فى هذه السورة ، فى يوم تعظم فيه الأهوال ، وتضطرب فيه القلوب ، وتخشع الأبصار ، ويعجب فيه المبعوثون من عودهم الى حياتهم الأولى بعد أن كانوا عظاما نخرة خالية تمر فيها الرياح ، ويتحققون حينئذ خسارهم بما أنكروا فى هذه الدنيا معادهم ، فيجابون على تعجبهم هذا بأن لا تحسبوا تلك الكرة الى الحياة صعبة على الله ، فما الأمر عنده الا صيحة واحدة فاذا الناس أحياء ظاهرون فى أرض المعاد .

(**النازعات**) من نزع عن القوس رمى عنها . و(**الغرق**) هوالاغراق فى النزع ، أى الاتيان على الغاية منه . **والنازعات غرقا** هى الكواكب تنزع عن قسى دوائرها مانراه شهبا ساقطة . و (**الناشطات نشطا**) من نشط ينشط اذا خرج من بلد الى بلد ،

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ

وهى الكواكب تفارق مداراتهـا وتنقلب من برج الى برج فتختلف أقاليمها . وهى (**السابحات سبحا**) . تتحرك فى الهواء ، وتسير فى الجواء سيرا سريعا ، وهى السيارات من كواكب وأقمار . وهى (**السابقات**) فى سبحها ، فتتم دورتها حول ماتدور عليه فى مدةأسرع مما يتمم غيرها : كالقمر يتمم دورته فى شهر قمرى ، وكالارض تتمم دورتها فى سنة شمسية ونحو ذلك من السيارات . ومنها ما لا يتمم دورته الا فى سنين ، لكن السابقات هى التى انفردت بتدبير بعض الأمور الكونية فى عالمنا الأرضى ، كما قال (**فالمدبرات أمرا**)، وليس التدبير الا ظهورالأثر، فسبق القمر علمناحساب شهوره، وله من الأثر فى السحاب والمطر ، وفى البحر من المد والجزر ، ولضيائه أيام امتلائه من الفوائد فى تصريف منافع الناس والحيوان ما لا يخفى على ذى بصيرة . وسبق الشمس فى أبراجها — على مايرى للناظر — علمنا حساب شهورها ، وسبقها الى تتميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين من جهة ، وخالف بين فصول السنة من جهة أخرى . واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان ، ونسبة التدبير اليها لأنها أسباب مانستفيده منها . والمدبر الحكيم هو الله جل شأنه .

(**الراجفة**) الأرض بمن عليها و (**الرادفة**) السماء وما فيها ، تردفها أى تتبعها فتنشق وتنتثر كواكبها . (**الواجفة**) شديدة الاضطراب . (**أبصارها خاشعة**) أى ذليلة ، واضاف الابصار الى ضمير القلوب لأنه أراد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها ، فهى كناية عنهم . (**الحافرة**) الحالة الاولى، أى الحياة بعد الموت ظنوها حياتهم الأولى . يقال رجع فلان فى حافرته أى فى طريقه التى جاء فيها . و (**النخرة**) البالية الجوفاء التى تمر فيها الرياح و(**الكرة**) الواحدة من الكر ، أى الرجوع . و(**الخاسرة**) التى يخسر أربابها ولا يربحون . و (**الزجرة**) الصيحة يراد بها النفخة الثانية يبعث بها الأموات . و (**الساهرة**) الأرض البيضاء ، سميت بذلك لان السراب يجرى فيها ، من قولهم عين ساهرة أى جارية الماء لا ينقطع جريانه منها .

(**هل أتاك الخ**) يريد الله أن يذكر نبيه بدعوة موسى لفرعون ، وأمر الله لنبيه موسى بالتلطف فى القول واللين فى الدعوة الى الحق . موافاة للحكمة ، واقامة للحجة فى الموعظة ، ثم بما كان من عاقبة الدعوة ، وعصيان فرعون ، واستنكافه عن قبولها ، وأخذ الله له ، وتنكيله به فى الدنيا والآخرة حيث اغرقه ، وفى الآخرة سيحرقه . وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعد له بالفوز كما فاز موسى . وفيه وعيد شديد

نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ

لاولئك الذين كانوا يكذبون ماجاء به من التوحيد ووجوب الايمان باليوم الآخر ، وانذار لهم بأن من أهلك فرعون فى عتوه وجبروته قادر على اهلاكهم . **(الوادى المقدس)** واد فى أسفل جبل طورسيناء من برية الشام . و **(طوى)** اما اسم لذلك الوادى ، أوهو بمعنى مرتين ، أى الوادى الذى قدس مرة بعد أخرى . و **(طغى)** جاوز الحد فى العدوان على رعيته من بنى اسرائيل ، وغلا فى الكبر والعظمة حتى ظن انه مظهر الالوهية .

هل لك الى كذا ؟ أى : هل ترغب فيه ؟ ويقال : هل لك فى كذا ؟ وهل لك الى كذا ؟ بمعنى : هل ترغب فيه وترغب اليه ؟ و **(تزكى)** أى تتزكى وتطهر من الشرك ومايتبعه من رذائل الاخلاق . وهو استفهام يقصد به العرض والطلب ، وهو أفضل أنواعه وأوفقها باللطف والادب . و **(أهديك)** أى : هل تحب أن أدلك على ربك فتؤمن به ؟ ومتى آمنت خفته وخشيته ، فان خشية الله انما تكون من العلم . قال : **انما يخشى الله من عباده العُلمـؤُا** . ومن خشى الله اتقاه ، ومن اتقاه أمن عقابه . **(فأراه الآية الكبرى)** اى لما لم يقنع بالدليل القولى أظهر له آية ودليلا يراه بعينه ، وهو انقلاب العصا حية ، ومع ذلك **كذب** الداعى **وعصى** سلطان البرهان . **(ثم أدبر)** اى ترك موسى وانقلب **(يسعى)** فى مكايدته **(فحشر)** اى جمع سحرته واعوانه وقام فيهم يقول **أنا ربكم الاعلى** ، فلا سلطان يعلو سلطانى .

ولم يزل فى عتوه حتى تبع موسى وقومه الى البحر الاحمر عند خروجهم من مصر ، فأغرقه الله فى البحر هو وجنوده ، وهو معنى قوله **(فأخذه الله نكال الآخرة والاولى)** اى أن أخذ الله لم يكن قاصرا على الاغراق فى البحر ، بل نكل به وعذبه عذاب الآخرة : وهى يوم القيامة ، والاولى : وهى هذه الدنيا . **(ان فى ذلك لعبرة)** أى موعظة **(لمن يخشى)** أى يخاف ، أى لمن له عقل يتدبر به عواقب الامور ومصائرها ، فينظر فى حوادث الماضين واحوال الحاضرين ويتعظ بها .

(ءأنتم أشد خلقا) عود الى خطاب أولئك المكذبين المغرورين لتقريعهم وتسفيه أحلامهم فى استبعاد مايوعدون به من البعث ومايتبعه ، أو استبطاء أخذ الله لهم فى هذه الدنيا ، مع انه هو الذى انشأهم وخلقهم اول مرة . فان كانوا قد غفلوا عن انه هو خالقهم فلينظروا الى السماء والى الارض ، ليعلموا أن من خلقهما وانشأهما لايصعب عليـــه

ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ

خلقهم ، ولا يسعهم انكار ان خالق السماء والارض هو الله ، فكيف ينكرون انه خالقهم وانه القادر على اعادتهم كما بدأهم ؟

(**أشد خلقا**) أصعب انشاء . (**بناها**) بيان لكيفية خلقة السماء . والبناء ضم الاجزاء المتفرقة بعضها الى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة . وهكذا صنع الله بالكواكب : وضع كلا منها على نسبة من الآخر مع مايمسك كلا فى مداره حتى كان عنها عالم واحد فى النظر سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا ، وهو معنى قوله (**رفع سمكها فسواها**) والسمك قامة كل شيء ، فقد رفع اجرامها فوق رؤوسنا (**فسواها**) عدلها بوضع كل جرم فى موضعه . (**أغطش الليل**) أظلمه . وغطش الليل أظلم ونسبة الليل الى السماء لانه يكون بمغيب كواكبها . و (**ضحاها**) نورها وضوء شمسها . قال تعالى : **والشمس وضحاها** أى ضوؤها . وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهييء الارض للسكنى ، وهو معنى قوله : (**والارض بعد ذلك**) تسوية السماء على الوجه السابق وابراز الاضواء (**دحاها**) أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى ، وذلك بأن (**اخرج منها ماءها**) بتفجير البنابيع والعيون والانهار ، (**ومرعاها**) أى رعيها ، وهو النبات الذى يأكل منه الناس والدواب . وتثبيت الجبال وجعلها مانعة من اضطراب الارض من تتمة التمهيد واعداد الارض لسكنى الاحياء ، وهو متأخر عن الاستعداد الاول لانبات النبات وان كان بروز الجبال سابقا على ذلك . وقد جعل الله ذلك كله ليتمتع به الناس والانعام ، أفلا يكون صانع ذلك كله هو صانعكم ؟ أفلا يكون خالقكم وواهبكم مابه تحيون ، ورافع السماء فوقكم ، وممهد الأرض تحتكم ، قادرا على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبركم هذا التدبير ، ووفر لكم هذا الخير الكثير ؟

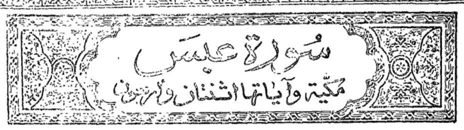
(**فاذا جاءت الخ**) لما تبين أنه القادر على نشر الاموات ، كما قدر على خلق الاكوان ، تبين صدق ماأوحى به الى نبيه من أن ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين لابد منه . فاذا جاءت طامته الكبرى التى تفوق كل طامة ، ووقت مجيئها هو ذلك اليوم الذى تعرض فيه الاعمال على العاملين ، فيتذكر كل سعيه وعمله ، يوم يظهر الله فيه الجحيم ودار العذاب للعيان ، فيراها كل من له بصر . فى ذلك اليوم يوزع الجزاء على الأعمال . (**فاما من طغى**) وجاوز حدود الله المضروبة فى أحكامه ، وفضل لذائذ الحياة

هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

الدنيا على ثواب الآخرة ، فدار العذاب مأواه ومستقره . وأما من عرف بسطة السلطان الالهى ، فخاف ذلك الجلال الرفيع ، وزجر نفسه عن هواها الباطل الذى يميل بها الى اتباع الشهوات ، فالجنة مأواه . فعلى هذا يكون جواب **اذا** محذوفا للايجاز ، دل عليه التقسيم فى قوله **فاما من طغى** ، وتقديره وزع الجزاء على العمل ، فاما الخ .

(الطامة الكبرى) الداهية التى تطم على الدواهى ، أى تغلب وتعلو . **(مقام ربه)** يراد منه جلاله وعظمته ، والا فهو منزه عن المقام والقيام . **(المأوى)** فى الموضعين هو المستقر والمقام . والتعريف اشارة الى أنه معلوم لاشبهة فيه . **(يسألونك عن الساعة الخ)** كان أهل العناد من قريش يعنتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال عن وقت الساعة ومتى يقيمها الله ، فكان النبى يردد فى نفسه مايقولون ويتمنى لو أمكن الجواب عما يسألون ، كما هو شأن الحريص على الهداية ، الجاهد فى الاقناع . فنهاه الله عن تمنى مالا يرجى ، وجاء بالنهى فى صورة الاستفهام الانكارى حيث قال : **فيم انت من ذكراها ؟** أى : ماهذه الذكرى الدائمة ؟ لست فى شىء منها ، أى لاحاجة لك بها ، فان علم ذلك ينتهى الى ربك . وانما شأنك أن تنذر من يخافها ، فتنبهه من غفلته حتى يستعد لما يلقاه يومها . أما هؤلاء المعاندون فدعهم فانهم لايعقلون، ولا تنشغل بالجواب عما يسألون. فاذا جاءت الساعة ذهبت صورة كل زمان مضى من اذهانهم ، سواء طال أو قصر ، فحسبوا انهم لم يلبثوا من يوم خلقوا الى يوم بعثوا الا عشية أو ضحاها ، أى طرفا من أطراف النهار ، لانهارا كاملا ، وذلك لمفاجأتها لهم على غير استعداد لتوقعها .

(الساعة) ساعة يبعث الناس ، وهى يوم القيامة . **(أيان مرساها)** أى متى ارساؤها أى اقامتها ، ومتى حصولها . **(فيم أنت)** أى : فى أى شىء أنت من مداومة تذكرها؟ أو: فى أى شىء انت من ذكرها لهم واخبارهم بوقتها ؟ أى : لست فى شىء من هذا . أى ليس من شأنك أن تذكر لهم من خبرها شيئا سوى أنك تنذر من يخافها . و **(العشية)** طرف النهار من آخره ، و **(الضحى)** طرفه من أوله . واضافة الضحى الى ضمير العشية اشارة الى أن العشية والضحى من يوم واحد . فهم يحسبون انهم لم يلبثوا الا بعض يوم واحد ، كما قال لم يلبثوا الا ساعة من نهار . واللبث الاقامة .



بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾

نزلت هذه السورة فى ابن أم مكتوم ، وهو ابن خال خديجة رضى الله عنها . قيل اسمه عمرو بن قيس ، وقيل عبد الله بن عمرو ، وقيل عبد الله بن شريح بن مالك . والاول أشهر ، كما جاء فى جامع الاصول . وأم مكتوم لقب امه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية .

وكان أعمى . قيل ولد كذلك ، وقيل عمى بعد بصر . وهو من المهاجرين الاولين ، واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يصلى بالناس مرارا ، وكان يؤذن بعد بلال . اتى الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعه صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم ، فقال ابن ام مكتوم : يارسول الله ، اقرئنى وعلمنى مما علمك الله . وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالقوم ، فكره الرسول قطعه لكلامه ، فظهرت الكراهة فى وجهه فعبس وأعرض عنه ، فنزلت الآيات .

يذكر الله نبيه ، فى صورة عتاب ، بأن ضعف ذلك الاعمى وفقره لايصح أن يكون حاملا على كراهة كلامه والاعراض عنه ، فانه حى القلب ذكى الفؤاد ، اذا سمع الحكمة وعاها ، فيتطهر بها من أوضار الآثام وتصفو بها نفسه من كدر الوساوس ، أو يذكر بها ويتعظ فتنفعه العظة فى مستقبل أمره ، فلا يقع فى مأثم . اما أولئك الاغنياء الاقوياء فأكثرهم الجحدة الاغبياء ، فلا ينبغى الانصراف اليهم ، والتصدى لهم لمجرد الطمع فى اقبالهم على الامر يرجون فيه فيتبعهم غيرهم ، فان قوة الانسان فى حياة قلبه وذكاء لبه ، والاذعان للحق اذا ظهر ، والانقياد للدليل اذا بهر . أما المال والنشب والعصبة والنسب والحشم والاعوان والاكاليل والتيجان فهى عوارى تغدو وترتحل ، وتقر حينا ثم تنتقل ، فكأنه يقول : يا أيها النبى ، ان اقبلت فاقبل على العقل الذكى ، والقلب النقى . واياك أن تنصرف عنه الى ذى الجاه القوى والمكان العلى : فذلك انسان بنفسه ، حى بطبعه ، وهذا غائب عن حسه ، معدوم بذاته ، موجود بجسمه . وفى ذلك من تأديب الله لامة محمد صلى الله عليه وسلم ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الامم — هداهم الله .

(**العبوس**) معروف المعنى . (**وتولى**) أعرض (**أن جاءه**) أى لاجل ان جاءه ، أى كان عبوسه وأعراضه لاجل أن الاعمى جاءه وقطع كلامه . (**وما يدريك**) اى واى شىء يعرفك بحال هذا الاعمى ، وانه مستعد لان يتطهر بما تعلمه من احكام الله (**أو يذكر**) منها ماغفل عنه ، فيتعظ بوعظك (**فتنفعه**) هذه (**الذكرى**) وتلك الموعظة ؟

فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾

وذكر خبر العبوس والتولى بالحكاية عن الغائب ليلفته الى النظر فى العمل فى ذاته صادرا من أى شخص نسب اليه ، ثم أقبل عليه بالخطاب بعد هذا الاستدعاء تشديدا فى العتاب .

ثم بعد ذلك حصر شأنه فى تلك الحادثة فى أمرين ذكرهما بقوله (أما من استغنى الخ) أى أن ماصدر منك كان هكذا على التفصيل الذى سيذكر (أما من استغنى) بماله وثروته عن سماع القرآن (**فأنت له تصدى**) أى تتعرض بالاقبال عليه ، مع أنك رسول وما عليك الا البلاغ . فان كان المغرور قد ظن فى ماله غنى عن هداية الله ، ورضى لنفسه أن يبقى فى دنس الكفر ، فما عليك عيب فى بقائه كذلك ، والا يتطهر من درن الغرور ووسخ الجهالة . (**وأما من جاءك يسعى**) اليك طالبا للهداية ، (وهو يخشى) الله ويخاف من الغواية ، وما دفعه اليك الا حبه لان يتطهر من الجهل ، ويستضيء بضياء العلم ، وخوفه الوقوع فى ظلمات الضلالة ـ فأنت تتلهى عنه وتتغافل عن اجابته الى طلبته .

ثم أراد أن يبين أن الهداية التى يسوقها الله الى البشر على ألسن الرسل ليست مما يحتال لتقريره فى النفوس وايجاده فى القلوب ، وانما هى تذكرة تنبه الغافل الى ماغرز الله فى فطرته من الخير ، وأودعه غريزته من وجدان معرفة الخالق فى الخافة . فمن صد عنها فانما هو معاند مقاوم لما يدعوه اليه سره ، وتنزع به اليه نفسه . فما عليك الا أن تبلغ ماعرفت عن ربك لتذكر به الناسى وتنبه الغافل . أما أن تحابى القوى المعاند ظنا منك أن مداجاته ترده عن عناده ، فذلك ليس من عملك ، فذكر ان نفعت الذكرى .

(**كلا**) حرف ردع للزجر عن التصدى للمستغنى والتلهى عن المستهدى . وعلل الزجر بقوله (**أنها**) أى الهداية المودعة فى الكتب الالهية وأجلها القرآن ، والضمير فى (**من شاء ذكره**) يعود الى الله تعالى ، لان أعظم الهداية ان يذكر وحده لاشريك له ، ولظهور الدليل وشعور الوجدان لايتوقف ذكره ومعرفته سبحانه الا على مشيئة الذاكر بعد التذكير ، فمتى وردت التذكرة نبهت وجدانه ، ولايمنعه عن الاهتداء الا عدم المشيئة بالعناد . ثم قال تلك الهداية (**فى صحف مكرمة**) ، وهى صحف الكتب الالهية . (**مرفوعة**) أى عالية شريفة (**مطهرة**) من النقص والضلالة (**بأيدى سفرة**) جمع سافر ، وهو من يسفر بين الناس بالصلح والسلام ، وهم الملائكة أو الانبياء عليهم الصلاة والسلام . ومعنى كون الكتب بأيدى الملائكة ، أن الملائكة هم الواسطة فى حملها الى الانبياء . ومعنى كونها بأيدى الانبياء ، أنها تنزل بالوحى عليهم وهم يبلغونها للناس ، وكل من الملائكة والانبياء يصح اطلاق اسم السفير عليه ، كما صح اطلاق اسم الرسول على كل منهما . و (**البررة**) جمع بار ، وهو صانع البر والخير .

ثم أراد أن يزيدنا بيانا ، ويوضح لنا أن معرفة الله وتوحيده ليسا من العقائد التى يلزم ان تنشأ فى القلوب ، بل هما مركوزتان فى الجبلة ولا تحتاجان الا الى التذكير . فاذا

كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا

ذكرت النفس ذكرت ، ولا يمنعها عن الاعتراف والاقرار الا منازعة الهوى . فاذا خالفت سلطانه لم يكن بينها وبين الاقرار الا أن تشاءه فقال (**قتل الانسان ما أكفره**) دعاءعلى الانسان بأشنع دعواتهم على ماهو المعروف فى لسانهم وهو كناية عن قبح حاله ، وانه قد بلغ منه مبلغا لا يستحق معه ان يبقى حيا . ومنشأ الشناعة ومناطها نسيانه لما يتقلب فيه من النعم ، وذهوله عن مسديها حتى اذا ذكر به فهو يعرض عن الذكرى . فما اشد كفره باحسان من غمره فى نعمته من مبدأ ايجاده الى ساعة معاده ! انظر من أى شيء خلقه (من نطفة) أى ماء لاحياة فيه (**فقدره**) فقد أنشأ بدنه من ذلك الماءفى اطوار مختلفة ، كما بينه فى آيات اخر ، وقدره بمقداره ، فأتم خلقه بأعضاء متناسبة تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيـه من القوى ما يمكنـه من استعمال تلك الاعضـاء وتصريفها فيما خلقت له ، وجعل كل ذلك بمقدار محـدود على حسب ما يقتضيه كمال نوعه . ثم بعد أن عدره هذا التقدير ، وأكمل بدنه على هذا المقياس الخاص بنوعه ، وهبه العقل الذى يقود تلك القوى عند تصريفها للاعضاء ، وبالعقل قد يسره سبيل الخير، واوضح له جادة الرشاد (**ثم اماته**) فلم يتركه كما يميت سائر الحيوان ، لكنه قد تفضل عليه (**فأقبره**) أى جعل له قبرا يوارى فيه تكرمة له ، ولم يجعل فى غريزة الانسان أن يترك ميته مطروحا على الارض جزرا للسباع .

هذا ما يراه الانسان من نعم ربه عليـه فى نفسه . ولا ريب ان سليم الفطرة لا يحتاج فى الاذعان به الا الى مجرد التذكير . ثم أن الله سبحانه أتبع هذه النعم المرئية الدالة على قدرته ووحدانيته بأمر البعث والنشور ، وجاء به كأنه من المشهودات التى ينبغى للانسان ان يعتبر بها ليشير الى أن الحياة الآخرة مما ركز الشعور به فى الطباع كذلك ، وان لم يدرك كنهه ولم يوقف على تفصيل حقيقته . وقوله (**اذا شاء أنشره**) أى أنه ينشره ويبعثه بعد موته واقباره فى الوقت الذى يريد أن يبعثه فيه .

ثم أخذ يؤكد مادل عليه قوله (**قتل الانسان ماأكفره**) فقال (**كلا**) أى حقا ان الانسان قد بلغ فى كفره بالنعمة الالهية مبلغا يقضى بالعجب ، فانه بعد مارأى فى نفسه مما عددناه من آيات ربه ، وبعد أن مضى على نوعه تلك السنون الطوال فى الارض ، وهو ينقلب فى أدوار واطوار يشاهد فيها من جلائل الاثار مايحرك الانظار ، ويسير بها الى الصواب من الاراء والصحيح من الافكار ــ بعد هذا كله لايزال اذا ذكر لايذكر ، واذا انعم عليه لايشكر، فهو الى الآن لم يقض ماأمره الله به : سواء كان الامر بالالهام وهداية الفطر بما أشهده فى نفسه من دلائل القدرة وعلائم الاحسان والنعمة ، أو كان بالوحى على ألسنة الانبياء والمرسلين . فان الله لم يدع الانسان منذ زمان طويل سدى ، ولم يهمله من ارسال الهداة أثر الهداة . غير أن الانسان ــ فى ضلاله وانقياده للاهواء الفاسدة ــ لم يقض شيئا مما أمره الله به . وكيف يكون قد قضى شيئا من ذلك وهو لايزال فى غفلة عنه ، يدعو معه غيره ، ويشرك فى الاستعانة سواه ، ويأتى من فظائع الاعمال مالا يرضاه ؟

فان زعم الانسان أنه لم يشهد خلق نفسه ، ورمى عينيه بالعمى عما فى بدنه ، وعقله

لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ

بالغباوة عما فى ذاته ، وعما كان من أمرها فى بدايتها ونهايتها ، وعلل هواه فى الغواية بأن شيئا مما فى خلقه لايقوم دليلا على وحدانية خالقه وانفراده بالاحسان اليه ، لانه لم يشهد تلك النشأة ــ ان خطر ذلك ببال أحد من أفرادالانسان (**فلينظر**) الى ما بين يديه من أقرب الاشياء اليه : (**الى طعامه**) الذى يقيم بنيته ، ويجد لذته ، ويحفظ به منته ــ ماذا صنعنا فى احداثه وتهيئته لأن يكون غــذاء صالحا ؟ (**انا صببنا الماء**) من المــزن (**صبا**) شديدا ظاهرا ، (**ثم**) بعد أن كانت الارض رتقا متماسكة الاجزاء شققناها شقــا مرئيــا مشهودا ، كمــا تراه فى الأرض بعد الرى ، أو شققنــاها بالــكراب عــلى البقر بأيدى الانســـان . والكراب قلب الارض للحرث وشق الارض ســـواء كان بالحرث أو بغيره ليدخل الهواء والضياء فى جوفها ،فيحلل اجزاءها ويهيئها لتغذية النبات ، فينبت فيها . وقيل المراد شق الارض بالنبات،كأنه قال:ثم شققنا الارض شقا بالنبات . ثم فصل النبات فقال (**فانبتنا فيها حبا الخ**) ولا بأس به أيضا. ولما كان مرجع كل موجود الى مصدر الوجود ، وهو الذى سبب الاسباب ، وقدر الافعال ، واقدر عليها ، كان اسناد الصب والشق اليه صحيحاعلى كل حال كاسناد الانبات. و (**الحب**) كل ماحصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما (**والقضب**) الرطبة وهــو ماأكل مــن النبات غضا . وسمى قضبا لانه يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى . (**والزيتون والنخل**) معروفان لكل عربى . (**والحدائق**) جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الاشجار المثمرة عليها حوائط تحيط بها و (**غلبا**) جمع غلباء بالمد أى ضخمة عظيمة . وعظم الحدائق بكثرة أشجارها والتفافها . وقد يكون العظم فى نفس الاشجار بأن تكون كل شجــرة غليظة عظيمة . وذكر الحدائق بوصفها ذلك لبيان أن النعمة فيما تشتمل عليه الحدائق برمته . فالنعمة فى الاشجار بجملتها لافى ثمرها خاصة . فمن أخشابها ماينفع للاحراق فى تدبير الطعام ، ومن أوراقها ماتأكله الحيــوانات . ومن النعمة فى الحدائق أنواع النبات مما يأكله الناس وترعاه الماشية . وانما تدخل ثمار الاشجار فى الفاكهة تبعا ، ثم خصص الفاكهة بالذكر بعد ذلك لانها مما يتمتع به الانسان خاصة فقال (**وفاكهة**) ثم ذكر الاب لانه مما ينفع الحيوان خاصة بقوله (**وأبا**) . والابّ المرعى لانه يؤب أى يؤم وينتجع .

روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سئل عن الأب فقال : « أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به » . وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال : « كل هــذا قد عرفنا فما الأب ؟ » ثم رفض عصــا كانت بيده ــ أى كسرها غضبا على نفسه ــ وقال : « هذا لعمر الله التكلف . وما عليك يا ابن أم عمر أن لاتدرى ما الأب » . ثم قال : « اتبعوا ماتبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه » .

اذا سمعت هذه الروايات فلا تظن أن سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، ولكنه يريد أن يعلمك أن الذى عليك من حيث أنت مؤمن انما هو فهم جملة المعنى . فالمطلوب منك فى هذه الآيات هو ان تعلم أن الله يمن عليك بنعم اسداها اليك فى نفسك ، وتقويم حياتك ، وجعلها متاعا لك ولانعامك . فاذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمه لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره ، بل الواجب على أهل الجد والعزيمة أن يعنبروا بتعداد النعم، وأن يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل .

هكذا كان شأن الصحابة رضى الله عنهم ، ثم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الألفاظ وجعلوها شغلا شاغلا لايهمهم الا التشدق بتصريفها وتأويلها وتحميلها مالا تحتمله ، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر ، وأعضاءهم معطلة عن العمل الصالح والشكر .

(متاعا لكم) : اما مفعول له ، أى فعل ذلك تمتيعا لكم ، أو مصدر حذف فعله وجرد من الزوائد ، أى متعكم بذلك متاعا . والمعنى على كل حال أن فيما عدده مايأكله وينتفع به الانسان ، ومنه مايأكله الحيوان . والأنعام : الماشية ، وكل ماينتفع به الانسان من الحيوان .

(الصخ) : الضرب بالحديد على الحديد ، والعصا الصلبة على شيء مصمت . وصخ الصخرة وصخيخها صوتها اذا ضربتها بحجر أو غيره . **والصاخة** ههنا ــ كالقارعة فى سورتها ــ هى الحادثة العظمى التى عبر عنها بالطامة الكبرى ، يكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض . ولكون هذه الحادثة تأتى بذلك الصوت المفزع سميت صاخة وقارعة ، أو انها سميت صاخة لأنها بما تاتى به من ذلك الصوت تصخ الآذان أى تصمها . يقال صخ الصوت الاذن يصخها صخا فلا تسمع النفوس شيئا فى ذلك الوقت الا ما تنادى به ، وتدعى الى الحياة والنشور .

وهذه الاسماء كلها أسماء للقيامة العظمى ، يوم ينكشف للارواح مشهد الجبروت الأعظم ، فيشغل كل نفس مايصيبها من هيبة الجلال الالهى ، وتود لو نجت بنفسها ، فهى تفر من كل من تتوهم أنه يتعلق بها ويطلب معونتها على ماهو فيه ، فيتوارى كل امرىء من اخيه ، بل من امه وابيه ، بل من صاحبته التى هى ألصق الناس به ، وقد يبذل فى الدفاع عنها حياته لو مكن من ذلك ، ويفر من بنيه وكان فى الدنيا يفديهم بماله وروحه ــ ذلك كله لان لكل واحد مما يجد من الرعب ، وما يرهب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب **شأنا يغنيه** ، أى يكفى لصرف جميع قواه ، فليس عنده فضل فكر وقوة يمد بها غيره .

وجواب **اذا** فى قوله **(فاذا جاءت الصاخة)** محذوف ، ليذهب الفكر فيه مذاهبه ويستورد منه على النفس غرائبه . كأنه يقول : قتل الانسان ما اكفره بنعمة ربه : هذه نفسه لم يشرق عليها نور الوجود الا من فيض الجود ، وهذا طعامه وما يقيم حياته الى الأجل المحدود ، انما يساق اليه بتدبير الشكور الودود . ومع ذلك فقد ضربت الغفلة بينه وبين ربه حجابا ، فهو اذا ذكر لا يتذكر ،واذا عرض عليه الدليل لايتفكر ، وربما جهل قدره فشمخ واستكبر ، وظن انه القوى فلا يغلب ، والعزيز فلا

ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

يقهر . فاذا ذهبت هـذه الحياة الدنيا ، وجاءت الطامة الـكبرى فى ذلك اليوم العظيم ، فمـاذا يكون شـأن ذلك الانسـان ؟ هل يبقى فى غفلته ، وهل يجد فى نفسـه شـيئا من عظمته ؟ او فمـا اعظم اسـفه ، وما أشـد ندمه ، أو انجلت أوهامه ، وبطلت ظنونه ، أو ما يشبه ذلك مما فيه تهويل عليه أو تقريع له .

(**الوجوه المسفرة**) المضيئة المتهللة ، الضـاحكة (**المستبشرة**) التى يظهر عليها الفرح والسرور لمـا تجد من برد اليقين بأنهـا ستوفى ماوعدت به جزاء ايمانها ، وما قدمت من صـالح اعمـال وشـكر آلاء ونعم ــ تلك الوجوه هى وجوه الذين آمنـوا وعملوا الصـالحات . اما الوجوه الآخر ــ وهى التى (**عليها غبرة**) أى يعلوها الغبـار و (**ترهقها قترة**) أى يغشاها سواد ، وقد يكون الغبار والسواد على حقيقتهما تمييزا لهم بأردأ الحالات ، وقد يكون الغبـار غبار الذل ، والسواد سـواد الغم والحزن ، وهو مايقابل الاسفار والاستبشار ــ تلك الوجـوه هى وجوه (**الكفرة**) الذين لايؤمنون بالله وبما جاء به انبياؤه . (**الفجرة**) الذين قدخرجوا عن حدود شرائعه واقترفوا السيئات فى حياتهم الدنيا .

نسأل الله أن يعاملنا بلطفه ورحمته ، ويجنبنا التعرض لغضبه ونقمته .

وقوله **وجوه يومئذ** الخ ابتداء كلام لبيان حال الناس يوم يأتى الله بذلك الحادث العظيم ، حادث الانقـلاب فى نظام الـكون العـام او نظام الحياة الانسـانية فينشـأ الناس نشـأة أخرى ينكشف لهم فيها ماكان قد انبهم عليهم فى حياتهم الأولى ، ويتبين لهم من الامر ما كانوا فيه يختصمون ، ويأتيهم اليقين بما كانوا فيه يمترون .

فمن كان فى هـذه الحياة الدنيـا طالبا للحق ، نظـارا فى الدليل ، لاتحجبه عن الاعتبار غفلة ، ولا تأخذه عن الحق اذا ذكر به أنفه ، ولا تنفره منه عادة ، ولا تبـاعده منه ألفة ــ فهو لايعقد لنفسه عقيدة الا بعد تقريرها على المقدمات الصحيحة المستمدة من حكم البديهة ، ليس فيها راى فلان ، أو قيل سـابق فى زمان ، الا قول رسول كريم قامت على عصمته براهين يقبلها العقل السليم ، ويؤيدها الذكر الحكيم . ثم أخذ نفسه بالعمل على مايطابق عقيدته ، فهو كما يعتقد بالحق يعمل للحق .

من كان هذا شأنه فى حياته هذه فما الذى يلاقيه اذا جاءت الصاخة ، يوم ينكشف الحجاب ويزول الارتياب ؟.. ماكان قد أيقن به فى حياته الدنيا يشهد بالعيان انه هو ، فيطمئن الى ماعرف ، وتسكن نفسه الى ما ألف ، وما كان لايزال فى طلبه والبحث فى الادلة للوقوف عليه وأدركه الموت قبل الوصول اليه ، ظهر ماكان يطلب منه حاضرا بين يديه فيفرح به فرح المحب يلقى محبوبه ، والراغب الحريص يصـادف مرغوبه . وفى الحالين يتهلل وجهه ويسفر ويضحك ويستبشر .

وأما من احتقر عقله ، ورضى جهله ، وصرفه عن الدليل ما اخذه عن آبائه وتلقاه

عن سلفه ورؤسائه ، وشغل نفسه بالجدال والمراء فى تصحيح الأهواء والتماس الحيل لتقرير الباطل وترويج الفاسد ، كما كان يفعل أعداء الأنبياء ، ولا يزال يأتيه السفهاء لينصروا به أهواء الاغبياء ، ثم يتبع ذلك بأعمال تطابق مايهوى وتخالف ما يزعم : يزعم الغيرة على الدين ولا تجد عملا من أعماله ينطبق على أصل قرره الدين .

الدين ينهى عن الفواحش وهو يقترفها . الدين يأمر بصيانة مصالح العامة وهو يفتك بها . الدين يطالب أهله ببذل المال فى سبل الخير وهو يسلب المال ليكنزه ، فان أنفق منه شيئاصرفه فى سبل الشر . الدين يأمر بالعدل وهواظلم الظالمين. الدين يأمر بالصدق وهو يكذب ويحب الكاذبين .

من كان هذا شأنه فماذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار ، ويرتفع الستار ؟

يجد كل شيء على خلاف ما كان يعرفه . يجد الحق غير ما كان يعتقد . يجد ان الباطل هو ما كان يعتمد ، يتحقق أن ماكان يظنه من العمل خيرا لنفسه صار وبالا عليها . يرى الخبث حشو أعماله ،والخيبة حلف آماله ،فيملك الهم نفسه لشر مايتوقع. ويظهر أثر ذلك على وجهه ، فتعلوه الغبرة ، وتغشاه القترة ، لأنه من الكفرة الفجرة .

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكية وآياتها تسع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ

ابتدأ سبحانه يذكر يوم القيامة بما يكون فيه من الحوادث ، ليعظم شأنه ، ويفخم هوله . ويقول فى ذلك اليوم تعلم كل نفس ما أحضرته من أعمالها ، أى يتبين لها ماكان منها من خير أو شر ، ويذهب الالتباس الذى كان يغر المغرورين ، وينكشف الغطاء عن تلبيس المرائين، ((**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**)).

والحوادث التى تقع من أول يوم القيامة الى ساعة الحساب ــ على ماهو مذكور فى هذه السورة ــ هى : أولا ، **تكوير الشمس** . وتكويرها دهورتها وسقوطها ، وذلك عند خراب العالم الذى يعيش فيه الحى حياته الدنيا ، فان عالمه الآخر الذى ينقلب اليه لا يبقى فيه شيء من هذه الأجرام . فالشمس تسقط ويمحى ضوؤها. وثانيا : **انكدار النجوم** ، وهو تناثرها وانقضاضها حتى تذهب ويمحى لألاؤها . يقال انكدر عليهم القوم اذا جاءوا أرسالا حتى ينصبوا عليهم .

وتسيير الجبال : يكونعند الرجفة التى تزلزل الارض ، فتقطعاوصالها ، وتفصل منها أجبالها ، فتسير مقذوفة فى الفضاء ، وقد تمر على الرءوس مر السحاب . وهذه الحوادث تقع متى جاء الأجل ، واقتضت الحكمة الالهية أن تخرب الأرض ويتبدل نظام

حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾

هـذا الكون الحاضر بالنظام الذى يستقر عليه أمره بعد ذلك الاضطراب .

ولا ريب فى أنه اذا كورت الشمس وتناثرت الكواكب وأرجفت الارض حتى انفصلت عنها جبالها كان الخوف عظيما والرعب عميما .

فمن كان حيا اذ ذاك غشيه من أمر نفسه مايذهله عن أفضل ماله لديه ، فتعطل **(العشار)** وهى جمع عشراء بضم العين وفتح الشين ، وهى النياق اذا مضى على حملها عشرة اشهر حتى تلد ، وهى أكرم مال كان عند المخاطبين ، فيهملونها ويدعونها تذهب حيث شاءت ، لعظم الهول وشدة الكرب . قيل أن تعطيل العشار حقيقى ، لانه حكاية الحال فى بداية الخراب . والناس والحيوان لا يزالون أحيـاء فيصيبهم ما يصيبهم ثم يهلكون .

ويدل عليه قوله بعد ذلك **(واذا الوحوش حشرت)** وحشر الوحوش اما جمعها لاستيلاء الرعب عليها وخروجها من أجحارها وأوكارها ونسيانها ما كانت تخافه ، فتفر منه فتحشر هائمة لا يخشى بعضها بعضا ، ولا يخشى جميعها سطوة الانسان . وقبل حشر الوحوش موتها وهلاكها . يقال : اذا أجحفت السنة بالقحط والجدب وأضرت بالناس ، حشرتهم السنة ، أى أهلكتهم . وهلاكها من هول ذلك الحادث الاعظم .

وقال القرطبى : ان تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب ، والا فلا عشار ولا تعطيل . كأنه قال بعد ذكر ما سبق من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال: « وكان من هول هذه الحوادث مايصرف حاضرها عن أكرم الأشياء عليه ، حتى لو كان عنده عشار لعطلها وأهملها » .

وقد قيل فى حشر الوحوش انه جمعها يوم القيامة للحساب ـ وهو ضعيف بعيد ، لان الكلام الآن فى حوادث التخريب قبل البعث بالفعل . وأول الكلام فى البعث قوله : **واذا النفوس زوجت** . اما تسجير البحار فهو ان يفجر الزلزال ما بينهـا حتى تختلط وتعود بحرا واحدا ، وهو بمعنى الملء ، فان كل واحد منها يمتلىء حتى يفيض ويختلط بالآخر . وتسجير البحار على هذا المعنى لازم لما سبقه من تقطع أوصـال الأرض وانفصال الجبال . ويدل على رجحان هذا التأويل ظاهر قوله تعالى فى سورة الانفطار **واذا البحار فجرت** . وقد يكون تسجيرها اضرامها نارا ، فان مافى بطن الأرض من النار يظهر اذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا . أما الماء فيذهب عند ذلك بخارا ولا يبقى فى البحار الا النار . أما كون باطن الأرض يحتوى على نار فقد ورد به بعض الاخبار . ورد أن البحر غطاء جهنم ، وان لم يعرف فى صحيحها ، ولكن البحث العلمى اثبت ذلك ، ويشهد عليه غليان البراكين ـ وهى جبال النار ـ كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التى تشـق الأرض والجبال فى بعض الاطراف كما وقع فى « جاوا » من عدة سنوات ، فان آثار النـار فى بطن الارض قد ظهرت فيها ظهورا لا شبهة تطرأ عـلى الذهن بعده .

وبعد ان عـدد ما يحدث من مقدمات الفناء ، وبطلان الحياة فى الارض ، وامتناع المعيشة فيها ، اخذ يذكر مايكون بعد ذلك من البعث والنشور ، وما يأتى بعده فقال **(واذا النفوس زوجت)** ، أى زوجت الأرواح بأبدانها ، وهى النشأة الآخرة . وفى الآية مايشعر بأن النفوس كانت باقية من يوم الموت المعتاد الى يوم المعاد ، وانما تزوج بالبدن بعـد أن كانت منفـردة عنـه . وبعـد البعث يكون الشروع فى الحساب . ومنـه

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

أن يؤتى بالموءودة فتسأل بين يدى وائدها عن السبب الذى قتلت لأجله ليكون الجواب أشد وقعا على الوائد ، فانها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته . وذلك أن الواد هو دفن البنت فى صغرها حية . وكان عادة من اشنع العوائد فاشية فى العرب ايام الجاهلية . وكان لهم فى ذلك تفنن . فمنهم من كان اذا ولدت له بنت واراد أن يستحييها ولا يقتلها امسكها مهانة الى ان تقدر على الرعى ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وارسلها فى البادية ترعى له ابله . وان أراد أن يقتلها تركها حتى اذا كانت سداسية قال لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى أحمائها ، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول لها أنظرى فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالارض . وعند بعضهم كانت الوالدة اذا جاءها المخاض حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة . فاذا ولدت بنتا رمت بها فيها ، وان ولدت ابنا حبسته . فانظر الى هذه القسوة ، وغلظ القلب ، وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر أو العار — كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الاسلام قلوب العرب . فما أعظم نعمة الأسلام على الانسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة !

الصحف التى تنشر يوم القيامة بعد البعث هى صحف الأعمال . والذى يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لايرتابون فيها يوم الجزاء . ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال ، أما كون الصحف على مثال الأوراق التى نكتب عليها فى الدنيا أو على مثال الالواح أو مايشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه ، فذلك مما لم يصل علمنا اليه ، ولن يصل اليه بمجرد العقل ، ولم يرو عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فيه نص قاطع . **(وكشطت السماء)** ازالتها كما يكشط الجلد عن الذبيحة ، اى واذا السماء كشفت وطويت ولم يبق هناك شىء يسمى سماء أو غطاء . وهذا انما يكون بخلو ذلك العالم الجديد من الكواكب ، بل بخلوه مما يطلق عليه فى الدنيا اسم الاعلى والاسفل . **(والجحيم)** جهنم التى يعاقب بالعذاب فيها أهل الكفر والطغيان . **وتسعيرها** ايقادها ايقادا شديدا . والواجب على المؤمن أن يعلم ان هناك نارا للعذاب اسمها جهنم ، وانها تسعر وتوقد على المعنى الذى يريده الله ، اى أن الم من قضى عليه بالدخول فيها من أشد الآلام التى تحدث عن امساس النيران للأجسام الحية . أما كون الايقاد بالحطب أو الفحم الحجرى أو الخشبى أو ما اشبه ذلك مما هو معروف عندنا فى حياتنا هذه ، فذلك غير واجب أن يعتقد به. **(وازلاف الجنة)** ادناؤها وتقريبها من المتقين ، كقوله تعالى : **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** . والجنة دار الثواب كما هو معروف .

وقوله **(علمت نفس ما أحضرت)** جواب لجميع ماسبق من الشروط . والمقصود ، كما قدمنا ، أن ذلك يكون يوم القيامة ، وهو ممتد من تكوير الشمس وما بعده الى أن يرى اهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . وليس يلزم من ذلك أن علم النفس بما

جاءت به من أعمالها يبتدىء من أول جزء منه ، بل انما يكون بعد البعث ونشر الصحف. وقد أورد الجواب على هذا الاسلوب ، ولم يأت بافظ يفيد التعميم كقوله تعالى : **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** . وان كان المعنى مبنيا عليه ليفيد ما اراده من وجه ابلغ على ماجرت به عادتهم فى الخطاب عند ارادة التهويل ، فان التقليل فى مقام التهويل انما يؤتى به للمبالغة فى التكثير ، كما فى قوله تعـــالى : **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** . ومعناه المقصود : كم يود . وكما يقول قائل لمن سأله : كم عندك من الفرسان؟ رب فارس عندي . او : لاتعدم عندي فارسا . وهو يريد أن ماعنده من الفرســـان كثير لايحصيه ، ولا يريد أن يتزيد به .

فان قال قائل : لم جيء بذكر كشط السماء بعد ذكر البعث ونشر الصحف وشيء من الحساب ، وقبل ذكر تسعير الجحيم وازلاف الجنة — وكان من حق كشط السماء أن يذكر فى حوادث التخريب بعد انكدار النجوم ؟ قلنا : هذا يدل على أن كشط السماء ههنا لايقصد منه تخريب العالم العلوى كما قال (**يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب**) فان هذا قد تقدم فى تكوير الشمس وانكدار النجوم ، وانما يقصـــد الغطاء والحجاب الذى يعلوك فلا تبصر ماوراءه .

وقد فصل فى هذه السورة ماأجمله فى سورة ((ق)) عند بيان ماسبق الحساب ، فقد قال هناك : (**ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد**) ، وقال هنا (**اذا الشمس كورت**) الى آخر قوله : (**واذا النفوس زوجت**) . وفصل هناك فى بيان الحساب ما أجمله فى هذه السورة ، فانه اكتفى منه هنا بذكر سؤال الموءودة ونشر الصحف وكشط السماء ، وقال هناك : **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه هذا مالدى عتيد . القيا فى جهنم كل كفار عنيد** . وهو فى مقابلة قوله هنا : (**واذا الجحيم سعرت**) ، ثم ذكر ست آيات فيما يتعلق بأهل جهنم ، وقال بعدها : **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** . واتبـــع ذلك بوصف حال أهل الجنة فى آيات كثيرة ايضا — فهذا يدلك على أن كشف الغطاء هناك هو كشط السماء هنا ، وكل من السورتين تفسر الأخرى . ما أجمل هناك فصل هنا ، وما أجمل هنا فصل هناك . وانه بكشف الغطاء أو كشط السماء يظهر لكل نفس عملها ، وتقوم عليها شهودها ، فتبصر مالم تكن تبصره من قبل ، ثم ترى ما اعد لها من جنة أو نار . . فسبحان من أودع فى كتابه مايهدينا الى لبابه .

(**فلا أقسم**) عبارة من عبارات العرب فى القسم يراد بها تأكيد الخبر ، كأنه فى ثبوته وظهوره لايحتاج الى قسم . ويقال انه تؤتى بها فى القسم اذا أريد تعظيم المقسم به . كأن القائل يقول : انى لاأعظمه بالقسم ، لأنه عظيم فى نفسه . والمعنى فى كل حال على القسم . وقال تعالى : **فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمـون عظيم ، وانه لقرآن كـريم** الخ . و (**الخنس**) جمع خانسة ، من خنس اذا رجع . و (**الكنس**) جمع كانسة ، من كنس الظبى اذا استتر فى كناسه ، وهو موضع فى الشجر يأوى اليه من شدة الحر أو غـيرها . و (**الجوارى**) : جمع جارية من الجـرى . (**الخنس ، الجوارى الكنس**) . قيل هى الدرارى الخمسة وهى : عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل ، وذلك لأنها تجرى مع الشمس ، ثم ترى راجعة حتى تختفى فى ضوء الشمس. فرجوعها فى رأى العين هو خنوسها ، واختفاؤها هو كنوسها . وقيل هى الكواكب

عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ

جميعها ، فانها لاتزال جارية راجعة علينا بعدمغيبها، غائبةعنا بعد طلوعها (**وعسعس**) الليل أدبر . قال العجاج :

حتى اذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وتنفس الصبح تبلج وامتد حتى صار نهارا بينا . وأقسم بهذه الدرارى أو الكواكب جميعها لينوه بشأنها من جهة ما فى حركاتها من الدلائل على قدرة مصرفها ومقدرها ؛ وارشاد تلك الحركات الى ما ش كونها من بديع الصنع واحكام النظام ؛ مع نبهها فى القسم بما يبعدها عن مراتب الالوهية من الخنوس والكنوس تقريعا لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه اربابا . وفى الليل اذا ادبر زوال تلك الغمة التى تنمر الأحياء بانسدال الظلمة بعد ما استعادت الأبدان نشاطها ، وانتعشت من فتورها . وفى الصبح اذا تنفس بشرى الأنفس بالحياة الجديدة فى النهار الجديد ، تنطلق فيه الارادات الى تحصيل الرغبات ، وسد الحاجات ، واستدراك مافات ، والاستعداد لما هو آت .

وقوله (**انه لقول رسول كريم**) جواب القسم ، وهو المقسم عليه المراد توكيده .

وقرن لا أقسم بالفاء حيث قال : (**فلا أقسم**) ــ وهى تدل على تعلق مابعدها بما قبلها ــ يدلنا على أن الضمير فى انه لذلك الخبر المتقدم، وهو (**اذا الشمس كورت**)الخ، ويفهم منه القرآن ضمنا كأنه يقول : اذا وقعت هذه الأمور كلها كان ما ذكرت ، وذلك خبر لا ريبة فيه ، فانى أقسم الخ . وهذا أظهر من اعادة الضمير على القرآن بجملته ، لأنه لم يتقدم له ذكر حتى يقرن القسم على أنه كذلك بالفاء . و (**الرسول الكريم**) هو جبريل . وانما كان قوله لانه هو حامله الى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد وصفه بانه (**ذو قوة**) ، كما وصفه فى سورة أخرى بأنه **شديد القوى ، ذو مرة** ــ وهى الحصافة فى العقل والرأى ، والمتانة فيهما . ومكين عند ذى العرش ، أى صاحب مكانة وشرف لدى ربه سبحانه . وصاحب العرش هو الله . ومن معانى العرش الملك . وهو مطاع فى الملأ الاعلى أمين فيه . و (**ثم**) بمعنى هنالك ، أى فى العالم الالهى . وهو عالم لايعلم حقيقته الا الله وهو علام الغيوب .

(**وما صاحبكم بمجنون**) صاحبهم هو نبينا صلى الله عليه وسلم . ونفى عنه وصف الجنون لأن بعض قريش كان يرميه بذلك عند مايسمع منه غريب الخبر عن اليوم الآخر وغيره من مواضع العبر ، مما لم يكن معروفا لهم ولا مألوفا لعقولهم . والتعبير عنه بصاحبهم ابلغ فى الاستدلال عليهم ، فانه صلى الله عليه وسلم معهم من صِغَرِه الى كِبَرِه ، وما عرفوا منه الا كمال العقل والتبريز فى الفضل ، فكيف يوصف بالجنون عندما يدعى الرسالة من ربه ، وعلم شيء من غيبه باذنه ؟ (**ولقد رآه**) أى أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل بالافق الأعلى الواضح المظهر لما يرى فيه من جهة المشرق أو المغرب ، أو عند سدرة المنتهى،فذلك مما لا يفهم من هذه الآية . وهذه الرؤية بتمثل جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فى مثال يبصر ، فهو قد ظهر له وتجلى لعينيه على أنه جبريل فعرفه . (**وما هو على الغيب بضنين**) قرىء بالظاء وبالضاد .

ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

والمعنى على القراءة الأولى : وما محمد صلى الله عليه وسلم بمتهم على الغيب ، أى أنه صادق فى أخباره عن اليوم الآخر وحوادثه والوحى وما يجىء به . وكما أنه لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل . وعلى الثانية يكون المعنى أنه لايبخل بما يأتيه من الوحى ولا يقصر فى تبليغه . وسمى الوحى غيبا لانه لا يعرفه ولا يفهم حقيقته من البشر الا الذى يوحَى اليه . **(وما هو بقول شيطان رجيم)** أى لما كان صاحبكم قد عرف بصحة العقل وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدّث به من خبر الاخرة والجنة والنار والشرائع والاحكام قول شيطان رجيم ، تظنون أنه قد تبعه وخالط عقله . **(فأين تذهبون)** أى مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة ، وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ؟ ماهذا الذى يتلوه عليكم محمد صلى الله عليه وسلم **(الا ذكر للعالمين)** موعظة يتذكرون بها ماغرز الله فى طباعهم من الميل الى الخير ، وانما أنساهم ذكره ماطرأ على طباعهم من ملكات السوء التى تحدثها أمراض الاجتماع . **(وقوله لمن شاء الخ)** بدل من العالمين ، أى أنه ذكر يتذكر به من وجه ارادته لأن يستقيم على الجادة الواضحة ، جادة الحق والعدل . اما من صرف نفسه عن ذلك ولم يرد الا الاعوجاج والانحراف عن طريق الحق والصواب ، فذلك الذكر لا يؤثر فيه ولا يخرجه من غفلته . فعلى مشيئة المكلف تتوقف الهداية . ولاريب فى أن كل مكلف قد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفز (١) عزمه الى الخير ليكسبه .

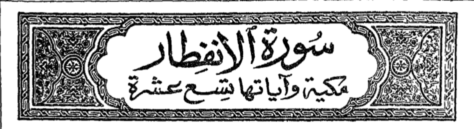
ولما كان ترتيب الذكروالانتفاع به على مشيئة العبد أن يستقيم ربما يوهم أن الانسان مستقل باختياره ، سلطان لنفسه ، وحاكم لأمره ، منقطع العلاقة فى ارادته عن سلطان الهه — استدرك لدفع هذا الوهم بقوله **(وما تشاءون الا أن يشاء الله)** ، أى أن ارادتكم انما هى له مخلوقة ، وهو الذى أودعها فيكم ، ولو شاء لسلبكم اياها ، وجعلكم من الحيوانات التى ليس لها ارادة العاقل أو أحط من ذلك بحيث لاتكون لكم ارادة بالمرة .

وأتى بالوصف لبيان العلة فى الحكم حيث قال **(رب العالمين)** ، أى أنه لما كان رب العالمين أجمعين ، وهو مانحهم كل مايتمتعون به من القوى : ارادة أو غيرها ، وهو مع ذلك صاحب السلطان الاعلى عليهم — كانت ارادتكم مستندة فى الحقيقةالىارادته ، وخاضعة لسلطانه ، فلو شاء أن يحولها الى وجه غير الذى اتجهت اليه لتحولت ، ولو شاء محوها بالمرة لمحيت .

له الأمر وهو على كل شىء قدير .

---

(١) « يحفز » من باب ضرب ، أى يسوق عزمه ويدفعه كما فى القاموس



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢

عود الى التذكير باليوم الآخر ، وبأن النفوس تشهد ماعملته فى الدنيا ، لا يغيب عنها منه شيء فى ذلك اليوم ، فتتجلى لها اعمالها فى حقيقتها : لاترى خيرا فى صورة شر ، ولا تتخيل شرا فى مثال خير كما يقع فى الدنيا لأغلب النفوس ، لأن الذى يحول بين الناس وبين فعل الخير انما هو تفضيل ماليس بخير عليه ، ولا يفضل الشخص شيئا على شيء الا اذا ظنه خيرا له . فضد الخير يتمثل للشرار فى صورة الخير فيفعلونه ، والخير يظهر لنفوسهم على انه غير خير فيتركونه . ولكن عندما تتجلى الافعال كما هى فى ذلك اليوم ، وينكشف الغطاء عن البصائر ، يعرف أهل الخير أنهم وان نجوا فهم مقصرون ، فيأسفون على ماتركوا ، ويستبشرون بثواب ماعملوا ، ويعض أهل السوء على أيديهم من الندم ، ويوقنون بسوء المنقلب ، ويتمنون لو كانوا ترابا .

ذكر الله اليوم الآخر ببعض مايحدث فيه من عظائم الامور ، كما من علينا بمثل هذا التذكير فى السورة السابقة فقال (**اذا السماء انفطرت**) اى انشقت . وجاء فى سورة الفرقان ((**ويوم تشقق السماء بالغمام**)) . وانشقاق السماء انصداع نظامها، فلا يبقى أمر مافيها من الكواكب على ماتراه اليوم ، فيخرب العالم بأسره . ولذلك عقب انشقاق السماء بما هو من لوازمه حيث قال (**واذا الكواكب انتثرت**) اى سقطت فبادت . فاذا كان ذلك، اضطربت الأرض أيضا ، وزلزلت زلزالا شديدا ، ووقع الخلل فى جميع أجزائها، فتتفجر البحار ، وتزول الحواجز بينها ، فيختلط عذبها بمالحها ، بل تفيض على الارض حتى يصير سطح الارض ماء لحظات من الزمان . وذلك قوله فى سورة التكوير ((**واذا البحار سجرت**)) ، اى ملئت وفاض منها الماء على التأويل الأول . وقد يصح اجراء ماهنا على التأويل الثانى ، وذلك انه بعد أن تفجر البحار ويفيض ماؤها تظهر النار وتأخذ مكان الماء بعد أن يتحول الى بخار ، كما اشير اليه فى السورة السابقة . واذا وقع ذلك انقلب باطن الارض الى ظاهرها ، فلا ريب فى أن تبعثر القبور (اى يظهر ماكان قد خفى فيها من بقايا أجساد الموتى) ، وبعد ذلك يكون بعث الاموات واحياؤهم فى النشأة الآخرة ، ثم تنشر الصحف وينكشف الغطاء ، فتعلم كل نفس ماقدمت من أعمال الخير وما أخرت منها بالكسل والاهمال والتسويف من يوم الى آخر ،حتى حلت الآجال . وقد يكون المعنى مافعلت من خير أو شر وماتركت منهما .

جرت العادة بأن كرم السيد يخدع العبيد : فاذا أمر تهاونوا فى الاجابة الى أمره ، واذا نهى تغافلوا عن نهيه ، وتمادوا فى لزوم مانهى عنه ، والوقوع فيما حذر منه .

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ

ويروى عن على كرم الله وجهه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه ، فنظر فاذا هو بالباب، فقال له : مالك لم تجبنى ؟ فقال : لثقتى بحلمك ، وأمنى من عقوبتك . فاستحسن جوابه وأعتقه . وقالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه .

وعلى هذه العادة اتكأ بعض من ضرب بينه وبين معنى الخطاب بحجاب ، أى حجاب، حيث قال ان الله جل شأنه قد ألهم المخاطب الجواب فلعبـــده أن يجيبه بقوله : غرنى كرمك .

ولا يخفى أن هذا تلاعب بالتأويل وتضليل للناظر فى كتاب الله اى تضليل : كيف يخطر ببال عاقل ان يقول ذلك فى معنى أبلغ الكلام ، وهو صادر فى مقام التهويل والارهاب والتخويف من الحساب وشدة العقاب ، وسد السبل واغلاق الابواب علـى أولئـك الجاحدين الذين قرعوا بهذا الخطاب ؟

ولكن اسمع مايليق بالمقام الكريم : وصف **الكريم** ليس خاصا بمعنى **الرحيم** و **الواسع العطاء** ، **المحسن الغافر للذنب** ، بل قد جاء فى القرآن وصفاً **للرزق** و **للكتاب** و **للرسول** و **للعرش** و **للمقام** و **للمدخل** و **للقول** و **للأجر** . ولا ريب أنه فى كل مقام يفيد المعنى الذى يناسبه . والاصل فى معنى الكرم الكمال فى الوصف والبعد عن النقص . ولقد فسروا الكريم بالعظيم فى قوله تعالى ((**رب العرش الكريم**)) فى سورة المؤمنين،وهو الانسب بمقام الخطاب فى سورتنا هذه . فكأنه يقول ماغرك بربك العلى العظيم الذى قد علا فى ذاته وصفاته عن كل مايوهم نقصا أو عيبا . فهل يمكن للرب العلى البالغ الغاية فى الكمال أن يترك عبيده سدى ، وأن يهمل فعالهم فلا يعاقب شريرا ولا يثيب خيّرا ، ولا يعدّ لهم مايردعهم عن القبيح ولا مايهزهم الى الحَسَن ؟ كلا ، ان اللائق بعلوه وسموه وكرم مقامه العلى ، أن يفيض نعمه على أهل الصالحات ، ويصب نقمه على مجترحى السيئات : تفضلا منه على الاولين ، وحكمة فائقة فى التنكيل بالآخرين .

ولئن سُلِّم أن معنى **الكريم** ، الجواد الواسع العطاء فياض النعم ، فلا يصح أن يدخل فيه معنى العفو والمغفرة ، والخطاب خطاب تقريع . ولكن فيه اشارة الى معنى رفيع يليق بكتاب الله ، ذلك أنه خاطب ((**ييا أيها الانسان**)) ، ولم يقل أيها المخلوق أو العبد . وفى الانسان معنى العاقل المتفكر ، الذى أوتى من قوة العقل وبسطة القدرة فى العمل مالا حد له ينتهى اليه ، حتى صار بذلك أفضل المخلوقات وأكملها ، ونال بفضل ما أوتيـه قوة السلطان عليها ، ولم يكن ذلك كله الا منحة من ربه الكريم الذى أحسن كل شىء خلقه .

وهذا الكريم انما يليق به أن يوفى كل مرتبة من الوجود حقها . فالانسان الذى خص بهذه المنزلة من الكرم الالهى لاينبغى أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كمـا يموت الوحش وصغار الذر ، وانما يتساوى مع بعضها فى الحياة الاولى من حيث قصر المدة وسرعة الفناء ، ولكن الذى يليق بعقله وقوة نفسه الناطقة أن تكون له حياة ابدية لاحد لها ولا فناء يأتى عليها .

ولا ريب فى أنه اذا روعى فى الكرم الالهى أن لايدعَ مستعدا الا منحه مااستعد له ، ولا

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾

يحرم قابلا مما أعد لأن يقبله ، وهو الذى ينبغى أن يراعى فيه . . . فقد ارتفع الغرور ، وازيحت الخديعة ، وحق اليقين بأنه لابد من حياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى فيها كل ذى حق حقه ، وكل عامل جزاء عمله ، لان ذلك من تمام معنى الكرم الذى ميز الانسان على غيره من أنواع الحيوان . انما تمام تمييزه بأن يجعل له حياة باقية تناسب ماوهبه من العقل والقدرة .

ويؤكد هذا المعنى — لو حمل الكريم عليه — تعقيبه وصف الكريم بقوله **(الذى خلقك فسواك)** أى أكمل لك قواك ، **(فعدلك)** أى جعلك معتدلا ، متناسب الخلق ، معتدل القامة لا كسائر البهائم . وفى قراءة **عدلك** بالتخفيف ، ومعناه صرفك عن خلقة غيرك ، فخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق ، ثم أجمل ذلك فى قوله **(فى أى صورة ماشاء ركبك)** اى ركبك فى صورة هى من أعجب الصور واتقنها واحكمها وادلها على بقائك الأبدى فى نشأة أخرى بعد هذه النشأة الاولى . وكلمة **ما** هى التى يسمونها زائدة ، ولكنها تدل على تفخيم ما اتصلت به ، فزيادتها زيادة اعراب وان لم تكن خالية عن المعنى .

ويرشد الى ان المعنى هو ماقلنا ، قوله بعد ذلك **(كلا بل تكذبون بالدين الخ)** . كلا ، أى لاشىء يغرك ويخدعك ، بل أن سعة عطاء ربك وحكمته فى كرمه تدلك وتوحى الى نفسك أنك مبعوث فى يوم آخر لثواب أو عقاب . وانما الذى يقع منك أيها الانسان هو العناد والتكذيب بالدين ، اى الجزاء ، اى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو اليه الشعور الاول ، وعن الدليل الذى تقيمه الرسل والحجة التى يأتى بها الانبياء ، مع ان الله لم يترك عملا من أعمالك الا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه .

ومن الغيب الذى يجب علينا الايمان به ما أنبأنا به فى كتابه من ان علينا حفظة يكتبون اعمالنا حسنات وسيئات ، ولكن ليس علينا ان نبحث عن حقيقة هؤلاء ، ومن أي شىء خلقوا ، وماهو عملهم فى حفظهم وكتابتهم : هل عندهم اوراق واقلام ومداد كالمعهود عندنا — وهو مايبعد فهمه — أو هناك الواح ترسم فيها الاعمال ؟ وهل الحروف والصور التى ترسم هى على نحو مانعهد ، أو انما هى ارواح تتجلى لها الاعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس الى أن يبعث الله الناس ؟ كل ذلك لانكلف العلم به ، وانما نكلف الايمان بصدق الخبر ، وتفويض الامر فى معناه الى الله . والذى يجب علينا اعتقاده من جهة مايدخل فى عملنا هو أن أعمالنا تحفظ وتحصى ، لايضيع منها نقير ولا قطمير . و **(كراما كاتبين)** اى مطهرين عن الغرض والنسيان .

ثم بعد أن ذكر مايدل على أن الغفلة عن اليوم الآخر لا موجب لها الا التكذيب والعناد، اخذ يؤكد الامر ويخبر به على القطع الذى لايدخله الريب ، فقال **(أن الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم)** . يريد أنه لاشىء فى جانب العلى الاعلى يسوغ لاحد من البشر أن

وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ

يغتر به وأن ينخدع فيه ، بل لابد من يوم يكون فيه الثواب والعقاب . ولابد أن يكون أهل الثواب فى دار النعيم ، وأهل النقمة وموضع الغضب الالهى يكونون فى الجحيم ، وهى دار العذاب . والاولون هم الابرار . و **(الأبرار)** :جمع بر بفتح الباء،وهو الموصوف بالبر بكسرها . قال بعضهم البر بالكسر الصدق ، وقال آخر هو التقوى ، وهو اجمال قد بينه الكتاب العزيز والسنة النبوية . ولا يكون الصدق ولا التقوى برا حتى يكون فيه حسن المعاملة ، وافراغ الوسع فى ايصال الخير الى الناس . فاذا خلا الوصف من ذلك لم يكن برا، ولم يكن صاحبه داخلا فى هذا الوعد الكريم .

قال الله تعالى : **(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون)** . فجعل البر منحصرا فى الايمان بما يجب الايمان به ، ثم فى بذل المال فى وجوهه، وفى الصلاة ، ثم عاد الى بذل المال بذكر الزكاة ، وبعد هذا ذكر الوفاء بالعهد ــ وهو ملاك لكثير من الفضائل ــ واتبعه بالصبر على المرض والفقر ، وكل ما يحرج فى عيش أو يؤذى فى نفس أو بدن ، والصبر فى حالة الحرب للدفاع عن الحق . ثم قال **((أولئك الذين صدقوا))** ليشير الى ان الصدق الذى يؤخذ فى معنى البر لا يكون برا ولا صدقا الا اذا جمع هذه الاوصاف والفعال المتقدمة . وكذلك قوله **((وأولئك هم المتقون))** يفيد أن التقوى هى ما جمع ذلك .

وقال فى سورة آل عمران : **((لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم))** . فلا يعد الشخص برا ولا بارا حتى يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب ، فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون الذين يظنون أنهم يدركون مقام الابرار بركعات من الخشية خاليات ، وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات، وصيحات غير لائقات بأهل المروءات من المؤمنين والمؤمنات ، ثم بصوم أيام معدودات لايجتنب فيها ايذاء كثير من المخلوقات ، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين : قام أم سقط ، ارتفع أو انحط ، ومع حرصه وطمعه وتطلعه لما فى ايدى الناس ، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم لاشىء سوى أنهم عاملون فى كسب المال وهو غير عامل ، وهم يجرون على سنة الحق وهو متمسك بسنة الباطل ، وهم متجملون بحلية العمل وهو منها عاطل ــ فهؤلاء ليسوا من الابرار ، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار و **(الفجار)** جمع فاجر . والفاجر : من يفجر أمر الله ، اى يميل عنه ويتركه(1) . والفجور كالفسق فى أنه خروج عن الحد الذى وضعه الله فى شرعه . وأوامر الله قد عرفت فى البر ، فمن لم

---

(1) قال الشاعر :

قتلتم فتى لا يفجر الله عامدا ولا يجتويه جاره حين يمحل

أى لا يفجر أمر الله ولا يميل عنه « لسان العرب » .

مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

يستجمعها فقد فجر . (**يصلونها**) اى يقاسون حر الجحيم . (**يوم الدين**) أى يوم الجزاء. ثم أكد ان هذا العذاب حَتْم وانه لا نجاة لهم منه بقوله (**وما هم عنها بغائبين**) ، أى انهم ملازمون لتلك الدار ، دار العذاب والعار .

وبعد أن أكد خبر اليوم الآخر أشد التأكيد ، وبين مايلقاه فيه المغرورون على التأبيد ، عاد يفخم أمر ذلك اليوم ويعظم شأنه فقال : (**وما ادراك ما يوم الدين**) ، أى : من الذى أعلمك أيها الانسان كُنْه ذلك اليوم ؟ أى عجيب منك ثم عجيب أن تتهاون بنبئه كأنك قد أدركت كنهه ، ووزنته فعرفت وجه الخلاص مما يلقاك فيه ! كلا ، انك لم تدرك من كنهه شيئا ، وكل ماتصورت فيه من الهول فحقيقته فوق كل ماتصورت، فانه ذلك اليوم الذى لامحاباة فيه ولا مواساة ، ولا يجد المرء مايعول عليه سوى ماقدمت يداه : يجفوه الأولياء ، ويخذله الشفعاء ، ويتبرأ منه الاقرباء . (**يوم لا تملك نفس لنفس شيئا**) فلا تحمل عنها ذنبا ، ولا تدفع عنها عتبا . (**والامر يومئذ لله**) وحده ،فلا شفيع ولا نصير، ولا وزير ، ولا مشير . وهو الذى وعد وأوعد على لسان رسله ، وهو أصدق قائل فى قوله ، وأعدل فاعل فى فعله . فلا مهرب لعامل من جزاء عمله حيث قد استأثر الله بالامر كله .

نسأل الله المعونة فى دنيانا لننال الأمن من عقابه فى أخرانا .



سورة المطففين
مكية وآياتها ست وثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ

سورة **المطففين** قيل مكية كما ذكر ، وقيل مدنية . نزلت فى حال اهل المدينة حين قَدِمها النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث كانوا أخبث الناس كيلا كما رواه البيهقى وغيره عن ابن عباس . (**والمطففون**) قد بينهم الله فى قوله (**الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون**) ، أى اذا كان لهم عند الناس حق فى شىء يكال أو يوزن ، وارادوا أخذه منهم لا يأخذونه الا تاما كاملا . ولهذا عدى (**اكتالوا**) بعلى ، فقال **اكتالوا عليهم** ولم يقل منهم لأن مايأخذونه حق على الناس يستوفونه منهم . (**واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**) ، أى اذا كان للناس حق عندهم فى مكيل أو موزون

يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ

أعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسار . ولما كان المعنى على الاعطاء ، عدى (كال) الى الضمير بدون حرف . وقد يكون على حذف الجار والايصال كما فى قوله :

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا ولقد نهيتك عن بنات الاوبر

أى جنيت لك ، والأصل كالوا لهم . والأكمؤ : جمع كمأة ، وهى مايعرف عند العامة الآن بعيش الغراب . والعساقل ضرب منه أبيض ، وقيل لونه بين البياض والحمرة . وبنات الأوبر ضرب منه كذلك ردىء الطعم . وانما سمى من يبخس الكيل فى حال ويملؤه أو يزيد عليه فى حال مطففا ، لأنه يبلغ فى كيله طفاف الكيل كسحاب أى مايقرب من ملئه ولايملأه فى الحالة الأولى . ويبلغ الطفاف أو الطفافة بالضم — وهى مافوق المكيال — فى الحالة الثانية . ولأنه يطلب الغنى بشىء طفيف ، وهو مايأخذه من البخس اذا اكتال منك ، ومن الزيادة اذا اكتال عليك .

قد ذكر الله فى هذه السورة تفصيلا لما أجمله فى السورة السابقة ، فقد جاء بنوع من أنواع الفجور ، وهو التطفيف فى المكيال . ثم جاء بنوع آخر وهو التكذيب بيوم الدين ، وبمنشأ ذلك التكذيب وهو الاعتداء وملازمة الآثام . واتبع ذلك بأثر من آثار التكذيب وهو دعوى ان آيات الله فى كتابه هى أساطير الأولين ... كل هذا بيان للفجور المؤدى بصاحبه الى الجحيم . ثم زاد مايلاقونه فى الاخرة تفصيلا من حيث ذكر أين يكون كتابهم ، وذكر حجبهم عن ربهم ، وما يقال لهم من قوارع التبكيت . وكذلك فصل فى نعيم الابرار ماأجمله فى السورة المتقدمة كما ترى .

بعد أن قال : **(ويل للمطففين)** ، أى هلاك لهم عظيم ونكال ينتظرهم ، قال : **(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم)** ، أى أن تطفيف الكيل واختلاس مال الناس بوسيلة هذا العمل مما لايصدر الا عن شخص لايظن أنه يبعث يوم القيامة ، ويحاسب على عمله . ولو ظن البعث والحساب لما طفف الكيل ولا بخس الميزان .

ولهذا تنزل حالة المطفف منزلة حال من يجهل ظنه بالحياة الآخرة ، فضلا عن اعتقاده فيها ، فيستفهم عنه ، كما قال : ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون لذلك اليوم العظيم ، أى فيه ؟ **(يوم يقوم الناس لرب العالمين)** ، أى يقفون للعرض عليه ، ويطول بهم الموقف اعظاما لجلاله واجلالا لمقامه جل شأنه .

واعتبار المطفف كأنه لايظن أنه سيبعث للقيام بين يدى ربه ، وتنزيله منزلة المنكر للبعث ، اعتبار حق لا يجادل فيه الا مغرور بالله ، أو جاهل بدينه ، بل منكر لحقيقته . وكيف يصر على ايذاء الناس والغض من حقهم من يظن بعض الظن أنه سيقوم بين يدى رب العالمين ، وخالق الخلق أجمعين ، القاهر الجبار ، ليحاسب على النقير والقطمير والحبة والذرة ؟ .

(كلا) لايقيم على ذلك الا منكر لما أوعد به ، أو متأول فيما يدفع عنه العقاب وينجيه من الحساب ، لايبعد به تأوله عن منزلة المنكر ، بل يسقطه مع صاحبه فى النار وبئس القرار .

ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ

هذا ماينذر الله به المطففين الراضين بالقليل من السحت ، فما ظنك بأولئك الذين يأكلون أموال الناس بلا كيل ولا وزن ، بل يسلبونهم ما بأيديهم ، ويغلبونهم على ثمار أعمالهم ، فيحرمونهم حق التمتع بها اعتمادا على قوة الملك أو نفوذ السلطان ، أو باستعمال طرق الحيلة ؟

فهل بعد هؤلاء من الشاكين فى يوم البعث ، فضلا عن الظانين أو الموقنين ؟ لاريب أن هؤلاء لايحسبون الا فى عداد الجاحدين المنكرين ، وان زعموا بلسانهم انهم من الموحدين المؤمنين .

يروى أن اعرابيا قال لعبد الملك ابن مروان : « سمعت ما قال الله فى المطففين » . اراد بذلك أن قد حق الوعيد على المطفف على النحو الذى سمعت من التهويل والتعظيم ، فما ظنك بنفسك وأنت تنهب وتسلب وتنتزع الأموال من أيدى أربابها بالقوة والقهر لا بالحيلة والخادعة ، استعظاما لقوتك ، وغفلة عن جبروت الله ، وتكبرا على الناس ، ولا تكتفى من ذلك بالقليل كما هو شأن المطفف ، ولا ترضى بما دون استئصال الأموال ومسح مايبقى من غبارها بأيدى أهلها ؟ ! فالويل كل الويل لك (**يوم يقوم الناس لرب العالمين**) . قرىء (**يوم يقوم**) بالفتح وبالجر . وعلى الثانى هو بدل من يوم عظيم . وعلى الأول يكون ظرفا لـ (**مبعوثون**) ، أو منصوبا على الاختصاص ، وهو ما نختاره لأن المقام له .

كلا ردع لهم عن التطفيف الذى يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب ، وضعف اعتقادهم به ، فان ذلك غرور منهم لايرجعون فيه الى سند . وذلك أنهم بعملهم هذا يعدون من الفجار . والفجار يحاسبون على أعمالهم لايغفل منها شىء ، فان لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم : خفيها وجليها ، حقيرها وعظيمها . وذلك **الكتاب** يسمى **بسجين** وهو مرقوم ، أى قد أثبت فيه العلامات الدالة على الأعمال .

ويفهم من استعمال اللفظ فى اللغة ، ومن مقابلته بكتاب الابرار الذى فى عليين ، أن فيه معنى التسفل ، كما أن فى مقابله معنى التعلى . وقد رايت فى بعض كتب أهل البحث فى اللغات أن الوحل يسمى فى اللغة الاثيوبية سنجون (بالجيم العجمية مع امالة فى حركة الواو) ، ولا يخفى ما فى معنى الوحل من التسفل . وقد يكون هذا اللفظ من استعمال عرب اليمن ، فان فيها كثيرا من الالفاظ الاثيوبية لكثرة المخالطة بينهم وبين أهل الحبشة . استعملوه فيما يقارب الوحل ، فلا يبعد أن يقال أن الكتاب فيه أى أنه مكتوب به ، أو على التصوير والتمثيل ، أى أن الاعمال ــ لخبثها ــ تصور وتمثل كأنها مكتوبة به ويكون معنى كون الوحل وما يقاربه كتابا مرقوما ، أن الاعمال بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتابا مرقوما .

وعلى أن **سجينا** اسم لما تحصى فيه الاعمال يجوز أن يكون لفظ (**كتاب**) الأول مصدرا ، أى ان كتبهم واثبات اسمائهم وأعمالهم هو فى ذلك الكتاب الذى هو كالسجل لتلك الاسماء والاعمال . ويقال كتب الله فلانا فى الأشقياء أو فى السعداء ، أى أدرج اسمه بين أسمائهم فيما قدر لهم . فكذلك يقال كتب الفجار فى سجين ، أى أودع أسماءهم فيه مقرونة الى أعمالهم .

ويجوز أن يكون كتاب بمعنى المكتوب . ومعنى كونه فى سجين أن سجينا هو سجل

مَّرۡقُومٞ ۝٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّاۖ

عام يحتوى على صحائف كثيرة : لكل فاجر صحيفة . والمجموع هو ذلك السجل العام المسمى بسجين .

(**ويل يومئذ للمكذبين**) اعادة للوعيد الأول فى قوله (**ويل للمطففين**) ، بعبارة أدل على عظم الجرم وأعم تشمل تلك الجريمة وغيرها . وذلك أنه قال فى المطففين : (**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم**) ليبين أن الاصرار على ذلك العمل القبيح يدل على ارتفاع الظن بالبعث ، ثم أعاد الوعيد بلفظ المكذبين الذى يشمل أولئك المطففين وغيرهم ، وهم الذين يكذبون بيوم الدين ، أى يوم الجزاء ، سواء كان التكذيب بجحد الخبر به مباشرة أو كان بعدم المبالاة بما يكون فيه من عقاب وعذاب .

وعدم المبالاة هو التكذيب المستبطن فى النفس الذى تجرى عليه فى أعمالها ، وان كانت لاتظهره فى أقوالها . وأعظم دليل على عدم المبالاة هو الاصرار على الجرائم ، والمداومة على اقتراف السيئات . ولهذا جعل الاعتداء والاثم مناط التكذيب فى قوله : (**وما يكذب به الا كل معتد أثيم**) ، فان من كان ميالا الى العدل فى خلائقه وأفعاله ، واقفا عندما حد الله لعباده فى شرائعه وسننه ، لايعتدى حدود النصفة ، فأيسر شىء عليه التصديق باليوم الآخر ، وهو أعون له على ما مال اليه . أما من اعتدى الحق ، وعمى عن الانصاف ، واعتاد ارتكاب الآثام واتيان مافيه الغض من حقوق الناس والاضرار بهم والاخلال بنظامهم فذلك الذى يصعب ، بل يكاد يمتنع عليه الاذعان بأخبار الآخرة ، لأنه يأبى النظر فى أدلتها وتدبر البينات القائمة على صدقها ، لأن فى ذلك قضاء على نفسه بالسفه ، وحكما عليها بالظلم — ذلك فيما مضى لها — ثم فيه تخويف لها من ارتكاب مثل عملها فيما يستقبل ، وهى جامحة طامحة . فهو لايريد الا أن يعللها بالانكار ، ويهون عليها الامر بالتفاؤل أو التعلق بالأمانى ، من نُصْرة الأولياء ، أو توسط الشفعاء .

فلذلك اذا تليت عليه الآيات المنزلة الناطقة بأصدق الخبر عما يكون فى ذلك اليوم مما لا مفر منه (**قال أساطير الأولين**) . والأساطير أحاديث لا نظام لها ، أى ذلك كلام مكرر الحكاية ، يأثره الآخر عن الأول ، والخَلَف عن السَلَف ، ولكنه ما لا ينطبق على الواقع ، فهو مما تعودت النفوس سماعه وتعودت الا تتأثر منه والا تحلى منه بطائل . فلا يستحق النظر فيه .

هكذا حال القوم : يتلى عليهم كتاب الله ، وفيه ماينعى عليهم حالهم ، ويكشف لهم مالبسوا على أنفسهم ، ويبين لهم سيئات أعمالهم ، فيقولون هذا مفهوم ولكن من ذا الذى يعمل به ؟ ولِمَ لمْ يعمل فلان وفلان حتى كنا نسلك مسلكهم ، ونستقيم على طريقهم ؟

فهؤلاء واصفون لكتاب الله بأنه أساطير الأولين ، وان لم ينطقوا باللفظ الدال على الوصف ليعللوا انفسهم بأنهم مسلمون ، وأنهم مع فجورهم ناجون .

(**كلا**) ان هذه الآيات ليست بأساطير تُسَطَّر ، وأقاصيص تُحكى ، وتُؤثَر وتُعاد

بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

وتُكَرر بدون حقيقة ولا أثر ، بل هي الحق الذى لا مِراء فيه ، عرفه منها أهل العدل المتعرضون للرحمة والفضل. وانما الذى غطى قلوب المكذبين ،وحجبها عن فهم ما جاءت به الآيات ، تلك الملكات الرديئة ، والعادات السيئة والأعمال الخبيثة التى كانوا يكسبونها .

وران على قلبه : أى ركبه وغطّاه . ومعنى رين الذنب وركوبه القلب حتى يحجبه عن الفهم هو ماذكرناه لك من أن المسيء الذى ضريت نفسه بالقبيح يسعى جهده فى البعد عن كل مايكدر صفوه ، فهو يعرض عن كل مايجد فيه تهجينا لعمله ، أو تخويفا من عاقبة فعله .

وهل يُغنيهم هذا العمىَ من الحق شيئا ؟ (**كلا**) انهم سيكونون يوم القيامة فى المكان الدون ، وموقف الهُون ، و (**انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**) . ولا يحجب عن الرب الكريم الا المخذول المرذول ، الذليل المهَين (**ثم انهم**) ــ بعد أن يطردوا عن أبواب الكرامة ــ يقذف بهم حيث لايلقون الا الأسف والندامة ، يقذف بهم فى الجحيم يصلونها ويقاسون حرها ، (**ثم يقال**) لهم (**هــذا**) هو العــذاب (**الذى كنتم به تكذبون**) ، تبكيتا لهم ، وزيادة فى التنكيل بهم ، فان أشد شيء على الانسان اذا أصابه مكروه أن يذكر ــ وهو يتألم له ــ بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها ، وأسباب التفصي عنه كانت فى مكنته فأغفلها .

(**كلا**) ردع عن التكذيب المذكور فى قوله : **هذا الذى كنتم به تكذبون** ، وانما يجب تجنبه طلبا للكرامة فى ملازمة التصديق الذى هو ضده ، فان كتاب الأبرار فى عليين الخ . وقد بينا فى السورة السابقة معنى (**الابرار**) ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات المفصلة فى السور والآيات ، فهؤلاء لايضيع عمل عامل منهم ، بل كل ماعمله فقد احصاه الله فى كتاب مرقوم ، اسمه **عليون** .

والكلام على لفظ **كتاب** الأول كالكلام عليه فيما سبق . وقد رأيت عن بعض الباحثين فى اللغات الشرقية أن لفظ علوا فى اللغة الاثيوبية (الحبشية القديمة) معناه النقش باللون الاحمر . فان لم يكن العِليّون من العُلو فمن الجائز أن اللفظ دخل فى لغة أهل اليمن وعرب الجنوب على معنى الزينة ، ثم اطلق على كل مزين لطيف . وقد يدل على ذلك تخالف البناء والوزن مع ماهو من معنى العلو . وهذه الكتب التى تكتب فيها أعمال المجرمين أو أعمال الابرار مما استأثر الله بعلم حقيقته . فسجين وعليون موجودان ، أودعهما الله أعمال الخاسرين والناجين ، وليس علينا أن نعرف انها

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

من اوراق أواخشاب أو معادناخر ، أو من أرواح غير أجسام ــ كل ذلك مما لاحاجة الى البحث فيه لاستكمال الايمان ، وقد يكشفه الله للمصطفين من عباده .

ولهذا قال (**يشهده المقربون**) . وجاء بهذه الصفة ليدل بها على انه امر محقق الثبوت ، حتى أن المقرب ليشهده شهود العيان اذا وصل من القرب الى الحد الذى يكشف له فيه ذلك الكتاب وأمثاله .

ولما كان المقصود من شهود المقربين هو ماذكرنا والله أعلم ، ظهر وجه ذكر هذه الصفة فى جانب كتاب الابرار ، وعدم ذكر مثلها فى جانب كتاب الفجار ، لان الفجار لايشهدهم الله كتبهم ولا كتب غيرهم لتسفل أرواحهم وتدنسها بأوضار الفجور ، فأنى يكون لها الاطلاع الى غيب لايدنو منه الا النفوس العالية ، والعقول الصافية .

وقيل المراد بالمقربين الملائكة ، وعليه لايظهر تخصيص كتاب الابرار بذلك ، فان كتاب الفجار مشهود لهم كذلك .

بعد أن أكد الخبر باحصاء أعمال الابرار ، وأن احصاءها فى كتاب رفيع مكرم جليل ، اخذ يفصل ماينالونه من الجزاء على البر والاحسان فقال:(**ان الابرار لفى نعيم**). والنعيم والنعمى والنعماء والنعمة كله الخفض والدعة ، ومافيه لذة وراحة وليس فيه الم وعناء ، وهو ضد البأساء والبؤسى . و (**الأرائك**) هى الأسِرّة فى الحِجال . والحجال جمع حِجْلة مثل القبة . وحجلة العروس بيت ـأى خيمة ـيزين بالثياب والاسرة والستور . وقوله: (**ينظرون**) أى يمدون أعينهم الى ماشاءوا ، لابغضى الخزى من أبصارهم . و (**نضرة النعيم**) بهجته وماؤه ورونقه . (**والرحيق**) الشراب الخالص الذى لاغش فيه ، وهو قول الزجاج ، وقيل هو أعتق الخمر وافضلها ، وقيل هو صفوتها ــ وهى معان كلها متقاربة . و (**مختوم**) ختمت أوانيه وسُدّت ، وكان ختامهاالمسكمكان الطينة . وقيل المراد من (**ختامه**) ، مقطعه بعد الشرب ، أى ان الشارب يجد منه رائحة المسك بعد ان يشربه،ولا يجد تلك الرائحة الخبيثة التىيجدها شارب الخمر . (**وفى ذلك فليتنافس المتنافسون**) ، أى فى ذلك النعيم وما تلاه يرغب الراغبون ، ويسبق بعضهم بعضا اليه بالاعمال التى تقرب منه .

وهذه الجملة معترضة ذكرها عقب انواع النعيم المتقدمة قبل أن يأتى على بقية أوصاف الرحيق ، اسراعا اليك بالترغيب فى التسابق الى ماعد من أنواع السعادة . وقد يعود اسم الاشارة فى ذلك الى الرحيق المختوم ، تمييزا له من بين أنواع النعيم السابقة بالترغيب فيه . والجملة اعتراض على كل حال . وكل نوعين اختلطا فأحدهما مزج صاحبه ومزاجه .

فبعد أن قال : (**يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك**) بيّن مايمزج بذلك الرحيق اذا رغب راغب أن يمزجه بشىء ، ودل على أن مِزاجه يكون من **التسنيم** : وهو ماء يأتى

ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾

من الاعالى واسمه التسنيم ، ليطابق الاسم مسماه ، ثم زاده بيانا بقوله : **(عيْنا يشرب بها المقربون)** . فعيْنا منصوب على الاختصاص بالمدح ، وفيه من البيان مالا يخفى . **(يشرب بها المقربون)** أى يشربون بها الرحيق مزاجا له اذا أرادوا . و **(المقربون)** هم الابرار بعينهم ، ذكرهم بهذا الوصف زيادة فى تكريمهم .

كل هذه الانواع من النعيم التى ذكرت فى الآيات مما ترغب فيه الانفس ، وتتسابق اليه الهمم ، لهذا حفّز الله بها عزائم المحسنين ليزدادوا احسانا ، وليطمع فيها الواقف على أول الطريق ، فيلزم الجادة الواضحة ، ويَدَع المعْوَجّة الملتبسة ، ويسلك سـبيل السابقين ، وليرد بها من جار على النهج ويقيمه على الصراط المستقيم .

هذا والمفهوم منها مايشبه مانحن فيه ، فما ظنك بها لو كانت أرقى ، وأكمل ، وأعلى وأفضل ، وأنه لايدانيها شىء مما نعهده فى الدنيا الا فى الاسم ، أو ضرب من الشّبَه البعيد، كما هو حقيقة أمرها والحق فى شأنها ؟!

بعـد أن ذكر ما أوعـد به **(الفجـار)** وهم أهل الجرائم ومقترفو السيئـات ، وما وعد به **(المتقون)** وهم اهل البر والاحسان ، وما سيلاقيه كل من الفريقين فى الدار الآخرة جـزاء عـلى عمـله ـ أخذ يذكر ماكان لأحد الفريقين الى الآخر فى الدنيا ، وما سيـكون مـن شـأن الآخـر مـع الفـريق الأول فى الآخـرة ، فقـال : **(ان الذين اجرموا)** وهم المعتدون الآثمة ، الذين شربت نفوسهم فى الشر ، وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق ، هؤلاءكانوا يضحكون من الذين آمنوا ، ذلك لأنهحين رحم الله هذا العالم ببعثه النبى صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم وعرفاؤهم عـلى رأى الدهماء وفى ضلال العامة ، وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها الا صـوته عليـه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يلبيه ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس اهواؤهم سبيل الحق الى قلوبهم ، فيَسُر بها الى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه .

ومن شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفـه فى المنْـزَع ، ويدعوه الى غير مايعرفه وهو أضعف منه قوة وأقل عددا . كذلك كان شأن جماعة من قريش ـ كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم ـ وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمّت البِدَع ، وتفرقت الشّيَع ، وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجهل معنى الدين ، وازهقت رُوحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق الا ظواهر لاتطابقها البواطن ، وحركات أركان لاتشايعها السرائر ، وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس الى العمل الا ماتعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والالقاب ، وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب ، وأحب كل واحد أن يحمـد بما لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل مانقص منه بتنقيص الكامل ، واستوى فى ذلك الكبير والصغير ، والامير والمأمور ، والجاهل والملقب بلقب العالم ـ اذا صار النـاس

وَإِذَا انقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ انقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُوا۟ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

الى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدرى السامعون منهم بالداعى اليه ، وانطبق عليهم نص الآية الكريمة **(واذا مروا)** بأحد من اهل الحق يغمز بعضهم بعضا هزؤا به .

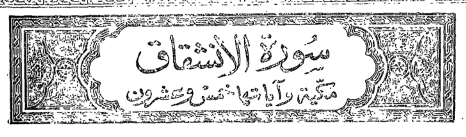
واذا انقلب هؤلاء الضالون الى أهلهم ، ورجعوا الى بيوتهم ، رجعوا اليهم فكهين ملتذين بحكاية مايعيبون به أهل الايمان ، اذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل ، كأن يقولوا : عجبا ! هذا فلان يقول لاتدعوا الا إلها واحدا ، ولا تتوجهوا بالطلب فيما بفوق طاقتكم الا الى الله وحده خالق السموات والأرض ، فأين الأولياء والشفعاء ؟ وكم فعلوا وتركوا ، وضروا ونفعوا .. وهو ينكر جميع ذلك ، كأن الناس جميعا فى ضلال وهو وحده يعرف الحق ! .. ونحو ذلك مما يعدونه فكاهة يتلذذون بحكايته .

واذا رأوا المؤمنين قالوا : ان هؤلاء لضالون ، لأنهم طرحوا ماعليه العامة وذهبوا يعيبون العقائد والاعمال المتوارثة عن الآباء والأجداد . **(وما أرسلوا)** ، أى لم يرسل المؤمنون الصادقون الداعون الى الحق لأن يكونوا **(حافظين)** عليهم ، أى على الكافرين والمبتدعين المجرمين ، أى لم يمنحهم الله تلك المزية : وهى أن يكونوا رقباء عليهم ، يعظونهم ويدعونهم الى الخير وهجر الشر ، فليسوا ملزمين بسماع دعوتهم والإصاخة لأدلتهم . فجملة **(وما أرسلوا)** هى من كلام الذين اجرموا ، جحدا لحق المؤمنين فى وعظهم وارشادهم .

ذلك ماكان من معاملة المجرمين للمؤمنين فى الدنيا : يهزءون بهم ، ويضحكون منهم ، ويجعلونهم أحاديث لهو ولغو ــ فانظر ماتكون معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة . **(فاليوم)** اى يوم الدين والجزاء **(الذين آمنوا من الكفار يضحكون)** ، لاضحك الجاهل المغرور ، بل ضحك الموقن المسرور ... ضحك من وصل به يقينه الى مشاهدة الحق فَسُرَّ به . انكشف لهم بالعيان ماكانوا يرجونه من اكرام الله لهم ، وخذلانه لاعدائهم ، فَسُرّوا بذلك وفرحوا وضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجلّت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سَفَه عقولهم وفساد أقوالهم ، فنكست أعناقهم لخزيهم وذلهم ، فما أعظم مجد المؤمنين فى ذلك اليوم ! **(على الأرائك ينظرون)** الى صنع الله بأعدائهم ، وتذليله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاء وفاقا !

فجملة **(هل ثُوّب)** متعلقة بينظرون ، ليتحققوا : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بهم فى الدنيا ؟

(وثوب) ــ مثل أتاب ــ بمعنى جازى . يقع فى الخير وفى الشر ، وأن كان قد غلب الثواب فى الخير . اى : هل جوزى الكفار الخ . ويجوز أن يكون استئنافا واستفهاما تقريريا ، كأنه خطاب للمؤمنين . اى : هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ؟ أى أنه فعل وجازاهم شر الجزاء وأنتم تعلمون ذلك . والأول أظهر كما لايخفى .



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ

انشقاق السماء مثل انفطارها الذى مر تفسيره فى سورة **(اذا السماء انفطرت)** ، وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه . وهو يكون بحادثة من الحوادث التى قد ينجر اليها سير العالم ، كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من آخر فينجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ، ويحدث من ذلك غمام وأى غمام ، يظهر فى مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع ، فتكون السماء قد تشققت بالغمام ، واختل نظامها حال ظهوره . **(وأذنت لربها)** أى استمعت لأمر ربها ، وفعلت — حين اراد انشقاقها — فعل المطواع الذى اذا أورد عليه الأمر من جهة آمره أنصت له وأذعن ، فكأنه قال امتثلت له . **(وحقت)** اى حق لها أن تمتثل ، اى يجدر بها ذلك . وهى حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع لانها مخلوقة له وهى فى قبضته ، وهو الذى يمسكها أن تزول . فاذا اراد تبديد نظامها بَدّدَه ، وما يكون لها أن تُعصّى ارادته .

ومتى فسد نظام السماء ، فتساقط من كواكبها بعضها على بعض ، أصاب الارض من ذلك أشد مايصيبها من الاضطراب : فتُدك جبالها ، وتتقطع أوصالها ، وتفقد التماسك بينها فلا يبقى لها هذا الاندماج الذى هى عليه الآن ، فتُمَد مد الاديم العكاظى كما روى عن ابن عباس ، ولا تكون الا كتلة مائرة تتساوى أعاليها وأسافلها ، وعظمت بهذا الانتفاش ، وزادت أقطار حجمها ، فهذا قوله تعالى **(واذا الأرض مدت)** . ولا ريب أن هذا المد يتبعه أن جميع مافى جوف الأرض ينقذف الى خارج ، وربما قذفته الحركة العنيفة الى مايبعد عن سطحها فتخلو الارض منه حتى لايبقى له اثر فى باطنها ، وهذا هو قوله تعالى **(والقت مافيها وتخلت)**

وهى فى ذلك كله تحت سلطان الجلال الالهى وقهره ، خاضعة لأوامره ، منقادة لمشيئته كما قال **(وأذنت لربها وحقت)** .

ولا يخفى أن الاستماع والطاعة من السماء والأرض تمثيل لكونهما فى قبضة القدرة الالهية تصرفهما فى الفناء كما تصرفت فيهما بالابتداء ، كما قال « **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين** » ، اى انه خلقهما على الوجه الذى أراد دون أن يكون منه جهد أو كد ، أو يصيبه عناء أو نَصَب ، كما يتوهم ضعفاء العقول اذا سمعوا بأن واحدا وحده يخلق هذا الخلق العظيم ، أو يدمر هذا الكون الجسيم . وكما زعم اليهود أن الله ابتدأ الخلق يوم الاحد ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش .

لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ

قال الله فى آية أخرى لافادة المعنى على الحقيقة دون تمثيل : ((**ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب**)) .

وكل قول أو فعل ينسب الى من لايصدر عنه فى المعروف ، فنسبته اليه على طريق التمثيل ، الا أن يكون هناك سبب يسوغ النسبة فى عرف الخطاب .

جاء فى هذه السورة بشرطين : أحدهما يتعلق بالسماء ، والآخر يتعلق بالارض ، وفى ضمن كل منهما ماهو من لوازمه . ولم يأت بجواب الشرطين ، بل أعقب قوله : (**واذا الأرض مدت**) الخ بقوله (**ياأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه**) .

وهو من عجائب ايجاز القرآن : حيث يظن لزوم الاطناب فيأتى الايجاز بما لايأتى به الاطناب . فان الله تعالى قد بين فى سور أخر كثيرا مما يكون يوم القيامة من الأهوال والشدائد ، وحضور الأعمال ، وشهود الجزاء ، والوقوع فى ورطة الحساب ، وما يأتى بعد ذلك من شقاء ونعيم ... فذكر الله بداية ذلك اليوم فى هذين الشرطين : انشقاق السماء ، وتصدع الأرض وانتفاشها وقذفها لما فى جوفها — وترك الجواب يذهب فيه السامع ماشاء من المذاهب ، حتى يمر بذهنه جميع ماورد من حوادث ذلك اليوم . وفى هذا من التهويل ما ربما لايفيده التطويل .

وقد يقال ان الجواب محذوف يدل عليه مايفهم من قوله **يا أيها الانسان انك كادح** الخ . كأنه قال : **اذا السماء انشقت** الخ **واذا الارض مدت** الخ — لاقى الانسان ربه فوفاه حسابه .

(**كادح**) من الكدح ، وهو العمل والسعى والكسب والخدش . والكدح عمل الانسان لنفسه من خير أو شر . ووصل الوصف بالى اذ قال **كادح الى ربك** ولم يقل لربك ليدل على أنه أراد من الكدح معنى فيه سير وانتهاء ، كأنه يقول — والله أعلم — يا أيها الانسان السادر فى غوايته ، العسادر فى عمله عن أهوائه ، الغافل عن مصيره ، الجائر عن جادة الحق فى سيره .. لاتظن أنك خالد ، وانك مقيم فيما أنت له جاهد ، وانك — ان آذيت الخلق ، وازدريت الحق ، واغتررت بالحول والقوة ، وسلمت عنانك الشهوة — ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب ، والبقاء فيما فيه تتعب وتنصب . كلا . انك مُجِدٌّ فى السير الى ربك وان كنت لاتشعر بجدك ، أو ان شعرت به لَهَوْت عنه . وكل خطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خطوة الى أجلك . فكل جَهد وتعب يحدث فى القوى أثر ضعف ، ولا يزال الضعف يتبع بعضه بعضا حتى ينتهى الى الموت الذى لا مَحيد عنه . وهناك لقاء الله ، فان الموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ، ويجلو لها وجه الحق ، فتعرف من الله ماكانت تنكره ، فقد لقيته كما يلاقى الغائب من يقدم هو عليه . وما بعد الموت من رجعة الا يوم البعث ، يوم يقوم الناس للعرض على مَالِكِ يوم الدين . كما قال : **يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية** . وهناك يرتفع الالتباس ، ويعرف كل عامل ماجر اليه عمله : (**فاما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا**) والذين يؤتون كُتُبهم بايمانهم هم الصالحون ، أهل البر

وفعلة الخير ممن ذكر الله أوصافهم وأعمالهم فى الآيات الاخر . ﴿ وينقلب الى أهله مسرورا ﴾ ، أى يرجع الى من هم من قبيله من المؤمنين الصادقين العاملين مسرورا بما لاقاه من سهولة الحساب والنجاة من العقاب . ﴿ اما الذى يؤتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ﴾ ، اى يقول : وا ثبوراه ! اى وا هلاكاه ! فهو يتمنى أن يهلك بأن يموت ويفقد الشعور بما يلقاه كقوله يا ليتنى كنت ترابا ، ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ يقاسى حر نار شديدة اللذع والاحراق . ﴿ انه كان فى أهله ﴾ وقبيله من أمثاله ﴿ مسرورا ﴾ بما كان فيه من الترف والنعيم ومعاقرة اللذات ومداعبة الشهوات . فاليوم ينعكس عليه حاله ، ويسوء مآله ، ويجد حزنا بدل سرور ، وألما مكان لذة .

والحساب اليسير السهل أن تعرض عليه أعماله فيعرف منها مايسر نسبته اليه ، وما قد يؤاخذ عليه ، ثم لايناقش ولايعترض بما يسوءه وينسق عليه .

اما الكلام فى ابتاء الكتاب باليمين أو وراء الظهر فاليك مايليق منه بكتاب الله وحكمته الباهرة : اليمين تذكر فى كتاب الله عبارة عن القوة أو اليمن والخير . قال الله تعالى فى سورة الصافات : **واقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا انكم كنتم تاتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين .**

قال صاحب الكشاف ، بعد أن ذكر شرف اليمين وما يناط بهما من الأعمال : واستعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل أتاه عن اليمين — أى من قبل الخير وناحيته — فصده عنه واضله . وقال البيضاوى : عن أقوى الوجوه وأيمنها ، أو عن الدين أو الخير . وجاء فى الكشاف أيضا : وجاء فى بعض التفاسير : من اتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق . ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات . ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب . ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحما ولم يؤد زكاة . وقال فى سورة الحاقة : **ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين** . أى لو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا . قال البيضاوى : وهو تصوير لاهلاكه بافظع مايفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، وقيل اليمين بمعنى القوة . وقال البيضاوى فى تفسير قوله **فراغ عليهم ضربا باليمين** : نقييده باليمين للدلالة على قوته ، لان قوة الآلة تستدعى قوة الفعل . فاذا استعملت اليمين لتمثيل القوة قابلتها اليسار أو الشمال فى تصوير الضعف ، وكذلك يقال فى الخير أو الشر وما يقابلهما .

ثم مما لا يحتاج الى بيان أن اليمين هنا آلة الأخذ لا آلة الاعطاء ، لانها مضافة الى ضمير العبد ، فيكون المعنى : فاما من أوتى كتابه فأخذه أو تناوله بيمينه ، فكأنه يقول : فأما من عرض عليه كتابه ، وقدم اليه سجل أعماله ، فتناوله بيمينه فأمره كيت وكيت . ومن يتناول شيئا بيمينه يكون قد توجه اليه بعزمه ، واندفع نحوه بقوة نفسه — بخلاف من يتناول ما يعطاه ويأخذه بيساره ، فان مد اليسار اليه دليل كراهته له . وأظهر فى الدلالة على الكراهة والنفور مما يعرض عليه أن يستدبره ويعرض عنه فيكون وراء ظهره .

فمعنى آية الحاقة والآية التى نحن بصددها : فأما من عرض عليه كتابه ، وقدم اليه ليأخذه ، فاندفع اليه بعزيمة نفسه لشعوره بأنه مستودع الصالحات

ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾
إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾

وسجل البر والمكرمات ، فنسأنه كذا . واما من قدّم اليه كتابه ، وعُرض عليه عمله ، فخزيت نفسه ، وخارت عزيمته ، فمد اليه يساره لعله لايستطيع ضبطه فيسقط منه فلا يرى مافيه أو يعرض عنه فيولّيه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات وسجين المخازى ، فامْرُه كَيْت وكَيْت . ويرشد الى ذلك ماورد من التفصيل فى سورة الحاقة فانه قال : **فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه انى ظننت انى ملاق حسابيه** . ودعوة الناس الى القراءة دليل الفرح والنشاط وقوة العزيمة . **وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول يا ليتنى لم أوتَ كتابيه ، ولم أدرِ ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه** . وهذا قول المخذول الكاره لما عرض عليه .

فايتاء الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على اعماله فى ذلك اليوم : فمن الناس من اذا كشف له عمله ابتهج واستبشر — وهو التناول باليمين . ومنهم من اذا تكشفت له سوابق اعماله عبس وبسر ، وأعرض عنها وادبر ، وتمنى لو لم تكشف له — وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر . وبهذا اتفق المعنيان فى الآيتين ، ولم تبق حاجة الى الجمع بين الشمال ووراء الظهر باختراع معنى لا يليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين .

(**انه ظن أن لن يحور**) ، اى رجّح فى حكمه انه لن يرجع الى ربه فيحاسبه على مايقترف من ذنبه ، أو يثيبه على الأفضل من كسبه . وفى الآية شهادة بأن المسخرين لشهواتهم وأهوائهم فى أعمالهم لايمكن ان يكونوا ظانين ، فضلا عن كونهم موقنين بأنهم يرجعون الى الله ليحاسبهم ، بل الراجح عندهم انهم لايحاسبون ، أو ان الله مُخْلِفٌ وعده ، وهذا هو الذى يُنسيهم ذكره عند كل جُرْم يجرمونه ، فهم — وان كانوا يزعمون الايمان بالله وبوعده ووعيده — يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، ويبتلون دائما بسوء الخاتمة والعياذ بالله . (**بلى**) ايجاب لما بعد النفى فى لن يحور ، أى بلى ليحورَنّ وليرْجعَنّ الى ربه ، وليحاسَبَنّ على عمله ، فيُجزى عليه : الخير بالخير ، والشر بالشر .

ثم علل ذلك بقوله : (**ان ربه كان به بصيرا**) . والبصر بالشىء تمام العلم به نشأة وغاية . والذى يخلق الانسان مستعدا لما لا يتناهى من الكمال بما وهبه من العقل الذى لايقف عند حد فى العلم ، وارسال أشعة الفهم الى أسرار الكائنات ودقائق الموجودات ، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية سائر الحيوان ، ممن لم يعط استعداده ، ولم يمد امداده ، بل تقضى حكمته فى هذا الخلق العظيم ان يجعل له حياة بعد هذه الحياة ، يستثمر فيها أعماله ، ويوافى فيها كماله .

ولو انه أسْدَى الى الانسان من المواهب ماأسْدَى ، ثم تركه بعد ذلك سُدًى ، لم يكن ذلك الا من عمل الجزاف ، الخالى من البصر والحكمة بل من العدل والانصاف .

وهذا الذى فسرنا به هو الأليق بنسق الكلام ، دون الذى سبقنا اليه بعض قُصار الأفهام .

ولتأكيد ذلك أقسم الله بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، ليدل على عظم شأنه فى وضع الكون عليها . وقد تقدم ان ((**لا اقسم**)) عبارة من عبارات القسم . **والشفق**

بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾

النهار فى رأى الزجاج ، وبقية ضـــوء الشمس والحُمْرة من غروب الشمس الى وقت العشاء الآخرة عند غيره . والنهار زمان يسعى فيه الكاسبون لتحصـــيل أرزاقهم ، والابرار يشغلونه باصلاح أحوالهم وأحوال غيرهم ، وتكميل عقولهم وأخلاقهم . ففيـه الشفق ، وهوالخوف من الاخفاق ، فيجدر أن يسمى شفقا ، وما يبقى فى الأفق من الحمرة وقليل من البياض ينذرك بليل لاتدرى مايكون فيه ، فله من مسمى الشـــفق ــ وهو الخوف ــ نصيب .

و **(وسق)** ، أى ضم وجمع . ولا يخفى عليك أن ماانتشر بالنهـار يجتمع بالليل حتى ان جناحيك اللذين تمدهما الى العمل بياض النهار تضمهما الى جنبيك للراحة سواد الليل . والغادون فى النهار يروحون بالليل . والليل يضم الامهات الى أفراخها ، ويرد السائمات الى مناخها ، وبالجملة كل مانشره النهار بالحركة يضـمه الليـل ويجمعه بالسكون . **وجعل الليل سكنا .**

واتســاق القمـر تمـامه واجتماع نوره ليلة اربع عشرة أو ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة .

ولا يخفى ما للناس من المنافع فى هذه الامور الثلاثة التى أقسم الله بها ، وما فيها من الآيات الناطقة بحكمة واضع نظامها ، فهى جديرة أن يقسم الله بها لينبه الغافلين الى ما أُودِعَ فيها . **(لتركبن)** قرىء بفتح الباء خطاب للانسان ، وبضمها خطاب للناس . **(والطبق)** عند ابن الاعرابى الحال على اختلافها . وقال الزجاج فى معنى الآية : لتركبن حالا بعد حال حتى تصيروا الى الله . والاحوال هى : الاحياء الاول ، ثم الاماتة ، ثم البعث . وقد قارب الزجاج فى تفسيره . وأصل المادة **طبق** فيها المطابقة والمســاواة . والمعنى الذى يُعَوَّل عليه لتركبن حالة بعد حالة . على ان الحالة الثانية تطابق الحالة الاولى ، اى لتكونن فى حياة أخرى تماثل هذه الحياة التى أنتم فيها وتطابقها من حيث الحس والادراك والالم واللذة على الاطلاق ، اى أنها حياة حقيقية وان خالفت فى بعـض شئونها هذه الحياة الاولى (١)

فاذا كان الله قد خلق الانسان على أن تكون له حياتان ــ وقد أقام الدليل على ذلك من طريقة تكوينه ، ثم اقسم عليه فى صادق كلامه ــ **(فما لهـم لايؤمنون واذا قرىء عليهم القرآن)** وهــو المنبِّه لسماع حـديث الفِطْرة ، الصـارف الى داعى الغريزة **(لا يسجدون)** لايستكينون ولا يخضـــعون . لاتظن ان قَرْعَ القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم : بلى قد بلغ ، وأقنع فيما بلغ ، ولكن العناد هو الذى يمنعهم عن الايمان ، ويصدهم عن الاذعان . فليس منشأ التكذيب قصـــور الدليل ، وانما هو تقصير المستدل واعراضه عن هدايته .

(١) هذا دخول على قوله تعالى : **فمالهم لا يؤمنون** . وهو بمنزلة التفسير لمعنى الفاء .

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

فالاضراب فى قوله (**بل الذين كفروا يكذبون**) يرمى الى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق . (**والله أعلم بما يوعون**) أى بما يجمعون فى صدورهم من الاعراض والجحود والحسد والبغى . (**فبشرهم بعذاب أليم**) جزاء لهم على اعراضهم عن الادلة القائمة لهم من أنفسهم ومن بين أيديهم ، واصرارهم على سيىء العمل وفاسد الاعتقاد. اما الذين أصلحوا اعتقادهم بالايمان الصادق القائم على الدليل الصحيح المستمد من الوجدان الفطرى ، واستقاموا فى عملهم على النهج الواضح فى العمل الصالح ، فلهم أجر لا ينقطع . فالاستثناء فى (**الا الذين آمنوا**) منقطع ، كأنه قال لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر الخ . ولهذا جاء قوله : (**لهم أجر**) بغير فاء . و (**غير ممنون**)أى غير مقطوع . والله أعلم .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ

(**البروج**) جمع بَرج ، يُطلق فى اللغة على الحصن ،وعلى القَصْر ، وعلى البروج الاثنى عشر التى ترى صُوَرَها فى الأشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة ، وتنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية . وهى ستة فى شمال خط الاستواء وستة أخرى فى جنوبه . فأما التى فى شماله فهى : الحَمَل والثَّور والجوزاء ، وهذه الثلاثة تقطعها الشمس فى ثلاثة أشهر ، وهى فصل الربيع : أوله عند ماتكون الشمس فى الحمل فى ٢٠ مارث أو ٢١ مارث أو ١٢ برمهات أو ١٣ برمهات ، وتنتهى عند ماتكون فى آخر الجوزاء فى ٢٠ أو ٢١ يونيـة و١٤ بؤنة ، ثم تبتدىء أشهر الصيف من ٢١ أو ٢٢ يونيه عندما تدخل الشمس فى برج السرطان ، ثم تنتقل الى الأسد ، ومن الأسد الى السنبلة ، وتكون فى نهاية هذا البرج فى ٢٢ سبتمبر وهو آخر فصل الصيف ، وبالسنبلة تتم الستة الشمالية . وأول الستة الجنوبية برج الميزان ، وبحلول الشمس فيه يبتدىء الخريف فى ٢٣ أو ٢٤ سبتمبر و١٤ توت ، ثم تنتقل منه الى العقرب ، ومن العقرب الى القوس ، وفى نهايته ينتهى الخريف . ويبتدىء الشتاء عند حلول الشمس فى برج الجَدْى فى ٢٢ أو ٢٣ ديسمبر و١٣ أو ١٤ كيهك ، ثم

تصعد منه الى الدلو ومن الدلو الى الحوت ، وهو آخر البروج الجنوبية ، وفى نهايته ينتهى الشتاء . ويبتدىء الربيع الثانى عند حلول الشمس فى الحَمَل مرة ثانية وهكذا .

وقد فسرت البروج فى الآية بالنجوم ، وبالبروج المذكورة ، وبالقصور على التشبيه . ولا ريب فى أن النجوم أبنية فخيمة عظيمة،فيصح اطلاق البروج عليها تشبيها لها بما يُبْنَى من الحصون والقصور فى الارض . **(واليوم الموعود)** هو يوم القيامة لأن الله وعد به ولما نصل اليه . **(والشاهد والمشهود)** كل ماله حس يشهد به ، وكل محس يشهد بالحس ، كما هو حقيقة معنى اللفظ .

أقسم سبحانه أولا بما فيه غيب وشهود ، وهو السماء ذات البروج : فان كواكبها مشهود نورها ، مرئى ضوؤها ، معروفة حركاتها فى طلوعها ومَغيبها بحِسّ البصر . **(والسماء)** ماعلاك مما تسميه بهذا الاسم ، وفيه البروج تشاهدها ، ولكن فيهما غيب لاتعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب ، وما أوْدَع اللهُ فيها من القُوَى ، وما اسكنها من الملك أو غيره — كل ذلك غيب لاتدركه حواسنا ، وان وصل الى الاعتقاد بشىء منه عقلنا .

ثم أقسم — جل شانه — بما هو غيب صرف ، وهو اليوم الموعود . لأنه أخبَرنا بأنه سيكون ، وعما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب ، ولكن شيئا من ذلك لايمكن أن نشهده فى حياتنا هذه .

وبعد ذلك اقسم بما هو شهادة صرفة ، وهو **الشاهد** : اى صاحب الحِس ، فانه مرئى ، **والمشهود** وهو ما وقع عليه الحس . فكأنه — جل شأنه — أقسم بالعوالم كلها — مع هذا التقسيم البديع — ليلفتك الى ما فيها من العِظَم والفخامة لتعتبر بما حضرك ، وتبذل الوسع فى درك مااستتر عنك ، وتستعد لما يستقبلك !

رُوِىَ عن الحسن فى تفسير قوله **(وشاهد ومشهود)** ، انه قال « ما من يوم الا وينادى : انى يوم جديد ، وانى على ما يُعمل فِىَّ شهيد . فاغتنمنى ، فلو غابت شمسى لم تدركنى الى يوم القيامة » .

أما المقسم عليه فمحذوف دل عليه مايذكره فى قوله **(قُتِلَ أصحابُ الأخدود الخ)** وحذفه لطوله مع تبادره للذهن عند اهل اللسان ، فكأنه قال : أقسم بهذا الكون العظيم ، وبذلك اليوم الذى يَهلك فيه مايَهلك ويقوم الناس لرب العالمين — لقد ابتُلِىَ من قبلكم من المؤمنين الموحدين ببطش أعدائهم ، واشتدادهم فى ايذائهم ، حتى خدُّوا لهم الأخاديد ، وملأوها بالنيران ، وقذفوهم فيها ، ولم تأخذهم بهم رأفة ، بل كانوا يتشفون برؤية ما يَحِلّ بالمؤمنين . وأقسم : لقد صبروا ، ولقد انتقم الله ممن أوقع بهم ، وأخذه بذنبه أخذ العزيز المقتدر . ولئن صبرتم ليوَفِّيَنَّكم أجْرَكم ، وليأخذنَّ الله أعداءكم ، ولينزلن بهم من بطشه مالا قبل لهم به — فهذا كله قد فُهِمَ من الآيات الآتية جوابا للقسم . وقد أقام مقام الجواب حكاية مثل الماضين ، ووعيده للكافرين ، وَوَعْدِه للصالحين ، وما بعد ذلك تثبيتا لقلوب المؤمنين ،وحَمْلاً لهم على الصبر والمجاهدة فى سبيله . **(الأخدود)** : الخَدّ فى الارض ، وهو الشق . وقُتِلَ أصحابه : أى أُخِذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة .

وأصحاب الأخدود ، قوم كافرون ، ذوو بأس وقوة ، أصابوا قوما مؤمنين غاظهم

ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

ايمانهم ، فحملوهم على الكفر ، واكرهوهم أن يرتدوا اليه ، فأبوا فشقوا لهم شقا فى الارض ، وحشوه بالنار ، وجاءوا بالمؤمنين واحدا واحدا والقوهم فى النار ، وهؤلاء القساة قعود على جوانب الشق حول النار يشاهدون احتراق الاجساد الحية وما تفعل بها النيران . فقوله **(النار)** بدل من الاخدود : اى أن أصحاب الاخدود ، هم أصحاب النار ذات الوقود ، اى الشديدة لها من الحطب الكثير مايشتد به لهبها . **(والقعود)** جمع قاعد : اى قاعدون حولها ينظرون الى مايصلاه المؤمنون ، لايغمضون جفنا ولا يصرفون نظرا ، حتى كأنهم يريدون أن يستثبتوا فى أذهانهم أطوار العذاب ووقائعه ليؤدوا به شهادة ، وذلك منتهى القسوة **(وما نقموا منهم)** : أى ما عابوا عليهم ، ولا كان للمؤمنين ذنب اليهم سوى أنهم آمنوا بالله **(العزيز)** ، الذى لاتغلب قوته ، ولا يفلت أحد من قدرته **(الحميد)** ، الذى يُحمد على كل حال ، وكل فعاله حسان ، حتى لو أصابك ــ وأنت مؤمن به ــ ما ظاهرُهُ النقمة ، فهو : اما تهذيب لك ليربيك بالصبر ، أو ابتلاء لقلبك ليعظم لك فيه الأجر .

أما تعيين أصحاب الأخدود ، وأنى كانوا ، ومن هم أولئك المؤمنون ، وأين كان منزلهم من الارض ؟ فقد كثرت فيه الروايات . والاشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عندما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة . وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لايبعدون عن هؤلاء فى حقيقة الوثنية . غير أن المؤمن لايحتاج فى الاعتبار واشعار الموعظة قلبه الى أن يعرف القوم والجهة ــ وخاصة الدين الذى كان عليه أولئك أو هؤلاء ــ حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات ، والاساطير المحشوة بالخرافات . وانما الذى عليه : هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا . ولو علم الله خيرا فى أكثر من ذلك لتفضل علينا به .

وقال **(الذى له مُلْكُ السموات والأرض)** ليدل على انه لامفر لأولئك الظالمين من سلطانه . وقوله **(والله على كل شىء شهيد)** ليقرر انه عليم بكل ما يكون من خلقه ، فلا تخفى عليه خافية من أفعالهم ، وهو مجازيهم عليها . **(فتنوا المؤمنين)** اى بَلَوْهُم بالأذى ، وامتحنوهم بالتعذيب ليردوهم عن دينهم . **(ولهم عذاب الحريق)** معطوف على قوله : **(فلهم عذاب جهنم)** عطف التفسير والتوضيح مع التأكد وزيادة التهويل كما تقول ــ لمن قرف ذنبا ــ ستَلْقى مايستحقه جُرْمُك ، وسَتَلْقَى حبْسا فى السجن وغِلاّ بالحديد . فالعذاب الذى اعد لهم فى جهنم هو عذاب الحريق .

لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾

والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يكفوا عن ايذائهم ، وثبتوا على كفرهم وعنادهم ، حتى أخذهم الموت ، وأوعدهم الله أن يعذبهم فى جهنم بالحريق : هم الضالون من كل قوم ، الذين يؤذون أهل الحق والدعاة اليه من كل أمة ، حرصا على ماالفوا من الباطل ، وتَشَيُّعا للذى وجدوا علىه أنفسهم وآباءهم الأقربين على غير بصيرة ولا استشارة للعقل الصحيح . **(البطش)** : الأخذ بالعنف . وقوله : **(ان بطش ربك)** الخ ، تعظيم لأمر الله ، جل ذكره ، بما فيه وعيد لأعدائه وتعزية لأوليائه . فذكر شدة بطشه ليرهب قريشا ومن معها ويُعَزِّى النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وبرهن على سعة القدرة بقوله انه هو الذى بدأ الخلق ، وهو الذى يعيده ، وهو فى كل يوم يبدىء خلقا من نبات وحيوان وغيرهما ، ثم اذا هَلَكَ أعاد الله خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس فى اليوم الآخر على النحو الذى يعلمه ، ثم هو **الغفور** لمن يرجع اليه بالتوبة . وهو **الودود** لمن خلصت نفسه له بالمحبة . و **(ذو العرش)** اى صاحب العظمة والسلطان . و **(المجيد)** السامى الرفيع . وأصل المجد فى كلام العرب : الشرف الواسع . **(فعال)** خبر لمبتدأ محذوف ، وهو من صيغ المبالغة أى انه كثير الفعل لما يريده ، فلا يريد شيئا الا فعله طبق ارادته . فاذا أراد اهلاك الجاحدين الماحكين ، ونصر اهل الحق الصادقين ، لم يُعجزه ذلك . وأين هؤلاء ممن سبقهم ممن كانوا أضل منهم ، واشد قوة . **(هل أتاك حديث الجنود)** ؟ أى هل بلغك قصص أولئك الجنود ، وأولى البأس من الاشداء الاقوياء ، مثل فرعون وقومه وثمود وأبطالها ؟ فقد كانوا اشد بأسا وأعظم قوة من قومك ، ومع ذلك فقد أخذهم الله بذنوبهم ــ وهكذا كل من تعلق بالباطل سقط به الباطل فى الدمار .

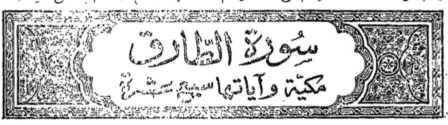
وثمود قبيلة عظيمة من بائدة العرب لايعرف من أخبارها ــ على الحقيقة ــ الا ماقص الله علينا منها . وقد أرسل الله اليها نبيه صالحا فكفرت به ، واستمرت فى تمردها على الحق والعدل حتى اهلكها الله بظلمها . فقوله : **هل أتاك حديث الجنود** استئناف قول فى ذكر عِبَرٍ ماضية لو نظر فيها العاقل لاهتدى الى سُنَنِ الله فى خلقه . فهل نظر منكرو أمره عليه الصلاة والسلام فى سِيَرِ من قبلهم ، والتفتوا ببصائرهم الى حال من تقدمهم ، ثم اقبلوا على مايذكرهم به ، فان وجدوا خيرا قبلوه وان وجدوا شرا نبذوه ؟ . لا . لم يكن منهم شىء من ذلك ، بل انحصر أمر أولئك الذين كفروا فى التكذيب ، اى أنهم غرقوا فى شهوة التكذيب فغمرهم التكذيب والولوع به حتى لم يدع لعقلهم مجالا لنظر ، او متسعا لتدبُّر ، ولا يزالون فى تلك الغَمْرة حتى يؤخذوا على غِرة . **(والله من ورائهم محيط)** تمثيل لحالهم مع القهر الالهى ، وأنهم فى قبضة

بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

العزة لايفلتون منها ولا يفوتون الله ولا يعجزونه ، كما لا يفوت الشيء مايحيط به . (**بل هو قرآن مجيد**) : أى شريف ، رفعه على غيره علو أساليبه ، وخلوص ما فيه للحق الذى لايشوبه باطل .

واتيانه بالجملة مصحوبة بحرف الاضراب يشير الى ما اشعر به استغراقهم فى التكذيب من التماسهم العذر فى عدم الايمان به من أنه أساطير الأولين ، وان ماجاء به بدعة فى الدين لم يعرفها آباؤهم السابقون . فدفع ذلك بقوله : بل هو ، الخ .

واللوح المحفوظ : شيء أخبر الله به ، وأنه أودعه كتابه ولم يعرّفنا حقيقته . فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود ، وأن الله قد حفظ فيه كتابه ايمانا بالغيب . وأمّا دَعْوَى أنه جرم مخصوص فى سماء معينة ، ووصفه بما جاء فى روايات مختلفة ، فهو مما لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغى أن يدخل فى عقائد أهل اليقين من المؤمنين . وما أجدرنا — لو أردنا التأويل — بأن نأخذ بما قيل من أن اللوح المحفوظ ، هو لوح الوجود الحق ، ومعانى القرآن وقضاياه الشريفة : لما كانت لايأتيها الباطل ولا يدانيها الخطأ ، كانت ثابتة فى لوح الواقع المحفوظ الذى لاحق الا ماوافقه ، ولا باطل الا ما خالفه ، ولا باقى الا ما رسم فيه ، ولا ضائع الا مالم ينطبق عليه .



سُورَةُ الطَّارِقِ
مكيّة وآياتها سبع عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾

(**والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب**) . يقسم سبحانه بالسماء — وقد قلنا أنها كل ماعلانا — فهو قَسَمٌ بالعالم العلوى وما فيه . ثم خصص بعض مافى ذلك العالم السماوى وأقسم بالطارق . والطارق عندهم : كل ماأتاك ليلا .

ولما كان اللفظ عاما ، والمقسم به كائن معين ، وشيء خاص مما يصدق عليه الطارق — أراد أن يبين ماقصد منه بما يدل على تفخيم أمره ، وتعظيم شأنه . فقال (**وما أدراك ما الطارق**) ؟ وهو استفهام يقصد به — فى عُرْف خطابهم — تعظيم المستفهم عنه ، كأنه — فى فخامة شأنه — مما لاتمكن احاطة الادراك به . فيقال وما الذى يدريك ماهو كذا ؟

(**والنجم الثاقب**) جنس النجم الذى يثقب ضوؤه الظلماء ، كأن الظلام جلدأسود

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾
يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ

والنجم يثقبه ، وانما عظم الله أمره لما فيه من الهداية الحسية والمعنوية والشئون الأخرى التى يعلمها الله ويعلمها الراسخون فى علوم اسراره فى خليقته . وانما سُمِّيَ النجم الثاقب بالطارق ، لأنه لا يظهر الا ليلا ، وضوء الشمس فى النهار يخفيه (إنْ كل نفس لَمَّا عليها حافظ) قرىء (لَمَّا) بالتشديد و (لَمَا) بالتخفيف . والمشددة بمعنى الا ، و ((ان)) معها تكون نافية . والمخففة مركبة من اللام وما الزائدة فى الاعراب ، و ((ان)) كانت لمعنى التأكيد ، وتكون ((ان)) مخففة من أن . وعلى كلتا القراءتين فالمعنى أن كل نفس عليها حافظ ورقيب يراقبها فى جميع أطوار وجودها حتى تنتهى الى اجلها ، وذلك الحافظ الرقيب هو الله ، وهذا هو المقسم عليه .

فالله جل شأنه يقسم لنا ان كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، وليس فى النفوس نفس اهملت من رعاية ذلك الرقيب المدبر لشئونها . فاذا ارتاب مرتاب فى ذلك (فلينظر الانسان مِمَّ خُلق الخ) فقوله : فلينظر الانسان ، بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها زيادة فى التأكيد .

ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذى لاتصوير فيه ولا تقدير للآلاتالتى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها . ثم ان هذا السائل ينشأ خلقا كاملا كالانسان ، مملوءا بالحياة والعقل والادراك ، نادرا على القيام بخلافته فى الارض .

فهذا التصوير والتقدير ، وانشاء الاعضاء والآلات البدنية ، وايداع كل عضو من القوة مابه يتمكن من تادية عمله فى البدن ، ثم منح قوة الادراك والعقل – كل هذا لايمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره ، وهو الله جل شأنه .

ويجوز ان يكون قوله فلينظر الانسان مم خلق – من قبيل التفريع على ما ثبت فى القضية الأولى . كأنه يقول فاذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب ، فمن الواجب على الانسان ان لايهمل نفسه ، وأن يتفكر فى خلقه ، وكيف كان ابتداء نشوئه ليصل بذلك الى أن الذى انشاه أول مرة قادر على أن يعيده ، فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والاخلاق ، ويَعْدِل بها عن سبل الشر ، فان عين الرقيب لا تغفل عنها فى حال من الاحوال .

و (الصُّلْب) هو كل عظم من الظهر فيه فقار . ويعبر عنه فى كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه اطلاقا لاسم الجزء على الكل . و (الترائب) موضع القلادة من الصدر ، وكُنِّيَ بالصُّلْب عن الرجل ، وبالترائب عن المرأة . أى أن ذلك الماء الدافق انما يكون مادة لخلق الانسان اذا خرج من بين الرجل والمرأة ، ووقع فى المحل الذى جرت عادة الله أن يخلقه فيه ، وهو رَحِمُ المرأة . فقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) وصف لابد من ذكره لبيان أن الانسان انما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه .

بعد مالفت الانسان ووجه نظره الى بدء نشأته ليعلم أنه فى اطوار خلقته ومدة بقائه فى قبضة مدبِّر حفيظ عليه – ساقه الى نتيجة أخرى لذلك النظر يسهل الوصول اليها بعد احكامه ، وهى أن الذى قدر على خلقه من الماء الدافق الذىلاصورة

لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

فيه ولا تقدير ولا مثال فيه للشخص المخلوق ، قادر على أن يرجع هذا الشخص بعد موته ، بل هذا أسهل وأيسر لسبق مثال الشخص وتقدم صورته فى الخلق الاول ، فقال سبحانه **(انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر)** فهذه الآية استئناف كلام لبيان نتيجة من نتائج النظر السابق ، أى أعلم — بعد ماأحكمت نظرك — أن الله قادر على ارجاعك واعادتك الى الحياة فى ذلك اليوم يوم القيامة . وهواليوم الذى تُبْلَى فيه السرائر ، وتتصفح الضمائر ، ويظهر الطيب والخبيث ، فلا يبقى فى سريرة سر ، بل تنقلب كل خفيةالى الجهر ، فلا يكون جدال ولا حِجاج ، ولايستطيع المسىء ان يقول قد كنت مُحْسِنا ، ولا يبقى لذوى الاعمال الا انتظار الجزاء على ما قدموا : فإما حلول عقاب ، وإما مصير الى حُسْنِ ثواب ، ولا تكون لأحدٍ قوة على الافلات مما قدر له جزاء لعمله ان كان مسيئا ، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حُتِّمَ عليه أن يقع فيه . وهذا هو معنى ترتيب قوله **(فما له من قوة ولا ناصر)** على قوله **(يوم تبلى السرائر)** .

بعد أن أكد سبحانه بالقسم الأول أن على الأنفس رقيبا ، واستدل عليه ، وذلك اثبات للالوهية ، وتقرير لاحاطة علم الله وقدرته بالأنفس فى جميع أطوارها وهو الركن الاول من أركان عقائد الدين . وبعد أن بين قدرته على اعادة الانسان بعد موته ، وهو اثبات لليوم الآخر الذى هو الركن الثانى — جاء بنا الى الركن الثالث من اركان عقائد الدين ، وهو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فابتدأ الكلام فيه بقسم ايضا لشدة نزاع الجاحدين فيها حيث قال **(والسماء ذات الرجع الخ)** .

ان الله يقسم بالأمر له مزية يعرفها المخاطب اعظاما لتلك المزية . لهذا قال : **(والسماء ذات الرَّجْع)** . الرَّجْع فى لسان العرب هو الماء . وامتع شىء ينتظره المخاطبون من السماءهو الماء ، ماء المطر . ومن فسر الرجعبالمطر لم يبعد عن المعنى ، **(والصَّدْع)** النبات ، لأنه يصدع الارض ، أى يشقها ، وأفضل ماتميل اليه الأنفس من الارض نباتها .

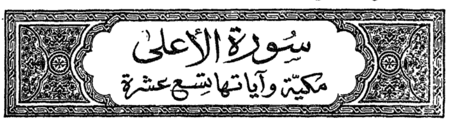
اقسم بالسماء التى تفيض عليكم بمائها ، والارض التى تقيم معاشكم بنباتها ، ان هذا القول الذى جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول فصل ، أى حق واضح لامجال للريب فيه ، فلا تشتبك فيه الظنون ، ولا تتلاحم الاوهام ، ولا يعود اليه نقض ، وهو لذلك جِد الجَد فلا يكون هزلا .

بعد أن بين الاركان الثلاثة لعقائد الدين : وهى الالوهية والمعاد والرسالة — اخذ يذكرنا بحال الجاحدين للحق المحاربين له بقوله **(انهم يكيدون كيدا)** . الكيد : المكر ، فاذا أسند الى الله للمشاكلة — كما فى هذه الآية — اريدَ منه لازمه ، وهو الوصول بالعامل الى عاقبة عمله من حيث لا يشعر بها . وقد يكون المكر والكيد ايقاع المكروه على غِرّة ،

فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

وأخذ المكور به من حيث لا يعلم كيف أخذ ، فيكون استعماله فى جانب الحق على الحقيقة لأن الله يمهل الحائدين عن أمره الصادين عن سبيله ، ثم يأخذهم وهم نائمون على فراش الامن ، وهذا هو مايعبر عنه فى اللغة بالمكر . وان كان فى جانب المخلوق يحتاج الى حيلة لأنه لا قوة له على مثل هذا الا بالحيلة ، وفى جانب الخالق يتبرأ من الحيلة لأنه ــ جل شأنه ــ له الحول كله والقوة جميعها .

يقول ــ والله أعلم ــ ان الذين يحرصون على ماكانوا عليه ، ولا يستمعون قولك فيما تدعوهم اليه ، ويزينون للناس مشايعتهم على أهوائهم ، ويموهون الأباطيل ليخدعوا بها عقولهم ــ أولئك قوم ماكرون خادعون لايريدون بك ولا بمن ينخدع لهم الا السوء . غير أنى قد قضيت بأن لا مفر لهم من عاقبة أمرهم ، ولا محيد لهم عما تؤدى اليه سيئات اعمالهم ، فيصيبهم العقاب من حيث لايشعرون . فلا يحزنك ماترى منهم ، ولا تستبطىء حلول النكال بهم ، بل **مَهِّلْهُمْ** . أى لاتستعجل عقابهم . **وأمهلهم** بمعنى مهلهم ، فهو بدل منه للتأكيد ، أوتكرير بلفظ آخر للتأكيدكذلك . و **(رُوَيْدًا)** أى قليلا. وفى ذلك وعيد شديد لهم بأن مايصيبهم قريب ، سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبى صلى الله عليه وسلم ، بل لكل داع الى الحق الذى جاء به ، أنه سيبلغ من النجاح مايستحقه عمله ، وان المناوئين له هم الخاسرون .



سورة الأعلى
مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾

(سبح اسم ربك الأعلى) . اسم الله فى مثل هذه الآية هو مايعرف به ، والله انما يعرف لنا بصفاته ، فلا تعرفه اذهاننا الا بأنه العالم القادر الحكيم الى آخر مادلنا عليه النظر فى خلقه ، وهدانا اليه الوجدان السليم فى وصفه . وهذا هو الاسم الذى يوصف بأنه ذو الجلال والاكرام فى قراءة من قرأ فى سورة الرحمن ((**تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام**)) . والاسم بهذا المعنى (مايعرف به المسمى) هو الوجه فى قوله تعالى ((**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**)) . فان الوجه يعرف به صاحبه ، بل لا يكاد يعرف صاحب الوجه الا بوجهه . والاسم بهذا المعنى هو المذكور فى قوله تعالى ((**وعلم آدم الأسماء كلها**)) أى رسوم الاشياء وماتعرف الاشياء به .

فاسم الله هو مايمكن لأذهاننا أن تتوجه اليه به . والله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم ، أى

وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾
فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾

تنزيهه عن أن يكون فيه مالا يليق به من شبه المخلوقات ، أو ظهوره فى واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكا أو ولدا أو ماينحو هذا النحو ، فلا نوجه عقولنا اليه الا بأنه خالق كل شيء ، المحيط علمه بدقائق الموجودات .

كما قال (**الذى خلق فسوّى**) فعليناأن نعرفه بأنهخلق الكائنات وأوجدها وسواها، اى وضع خلقها على نظام كامل لا تفاوت فيه ولا اضطراب ، كما تراه فيما يظهر لك من خلق السموات والأرض . وانه (**الذى قدّر فهدَى**) ، اى قدر لكل حى مايصلحه مدةبقائه وهداه اليه ، وعرّفه وجه الانتفاع بما فيه منفعة له ووجه الهرب مما يخشى غائلته . وانه (**الذى أخرج المرعى**) ، أى أنبت النبات جميعه . وممامن نَبْت ينبُت الا وهو يصلح ان يكون مرعى لحيوان ما من الاجناس الحية . ثم بعد ان انبت النبات (**جعله غثاء احوى**) والغثاء هو الهشيم ، أو الهالك البالى ، والأحوى الذى يميل لونه الى السواد .

ذكر بعد الخلق التسوية ، وبعد تقدير المصالح وتحديدها الهداية ، والتسوية والهداية كمالان للخلق والتقدير . واتبع اخراج المرعى بجعله غثاء أحوى . وجعله غثاء ، انما هو افناؤه واماتته وازالة الحياة عنه .

وكان يلوح للذهن أن يعقب اخراج النبات بذكر كمال من كمالات وجوده : كالنضرة والخضرة والترعرع وماأشبه ذلك ... جاء الأسلوب على هذا الوجهلأن الخلق الأول عام فى الاجسام الفانية وفى العوالم الباقية : كعوالم ماوراء هذه الخليقة الدنيا، فكلهمن خلقه ، وكله قد سوّاه ووضعه على أكمل نظام فى الدنيا وفيما وراءها . والتقدير لمصالح الاحياء عام شامل لما للانسان ــ بل ولما لغيره ــ من عالم الملك ونحوه . فلتلك العوالم الروحية حياة ، ولحياتها شئون مقدّرة قدّرها مُبْدعُها . وهداية الانسان انما هى لروحه الباقية التى لاتفنى ، وكذلك هداية الأرواح العالية من سكان تلك العوالم التى لا نعرف منهـا الا ماهدانا اليه الوحْى وقليلا ماارشدنا اليه العقل ، هداية باق الى شئون باقية الى ان يشاء الله فحق ان يتبع الخلق بالتسوية التى لاتفارقه ولا نهاية لها ، وتقدير المصالح لكل حى بالهداية التى منها مالا نهاية له كهداية الانسان وما يشبهه . أما النبات فانما يعقب نموه وبلوغه الغاية منه اليبس والجفاف وصيرورته هشيما باليا . وهو فى هذه الحالة لايخلو من المنفعة فانه قد يكون طعاما لكثير من انواع الحيوان ، وهـو هشيم متغير اللون ، فكأنه قال الذى احكم كل شيء صنعه : ما يبقى وما يفنى .

فنحن مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بانه القادر العالم الحكيم الذى شهدت بصفاته هذه آثاره فى خلقه التى ذكرها فى وصف نفسه فى قوله **الذى خلق فسوّى** الخ ، وان لاندخل فى هذه الصفات معنى مما لايليق به كما ادخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء له أو عرفوه بما يشبه به خلقه . وانما توَجّه الينا الامر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات ليرشدنا الى أن مبلغ جهدنا ومنتهى ماتصل اليه عقولنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها . أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن تتوجه عقولنا اليها الا بما نلحظ من هذه الصفات التى تقوم عليها الدلائل ، وترشد اليها الآيات ، لهذا أمرنا بتسبيح اسمه تكليفا لنا بما يسعه طوقنا . والله أعلم .

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن

بعد أن امر الله نبيه بتسبيح اسمه ، وعلّم امته المأمورة بأمر الله له كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذى تسبحه — على نحو ماذكرنا — وعد نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سيقرئه من كتابه مافيه تنزيه الله وتبيين مااوجب أن يعرف من صفاته ومافيه تشريع لأحكامه ، ووعده بأنّ مايقرئه اياه لاينساه فقال **(سنقرئك فلا تنسى)** اى سننزل عليك كتابا تقرأه ولا تنسى منه شيئا بعد نزوله عليك . ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم ربما يُوهم انّ قدرَة الله لاتسع تغييرء ، وأن ذلك خارج عن ارادته جل شأنه، جاء بالاستثناء فى قوله : **(الا ماشاء الله)** . فانه اذا أراد انْ يُنسيك شيئا لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو الى نفى النسيان رأسا . وقالوا ان ذلك — كما يقول الرجل لصاحبه « أنت سهيمى فيما أملك الا ماشاء الله » — لايقصد استثناء شىء . وهو من استعمال القلة فى معنى النفى . وعلى ذلك جاء الاستثناء فى قوله تعالى فى سورة هود **« واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ »** ، اى غير مقطوع .

فالاستثناء فى مثل هذا التنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم من الله وسعة جود لابتحتيم عليه وايجاب، وانه لو أراد ان يسلب ماوهب لم يمنعه من ذلك مانع . وما ورد من انه صلى الله عليه وسلم نسى شيئا كان يذكره ، فذلك — ان صح — فهو فى غير ماانزل الله عليه من الكتاب والاحكام التى أمر بتبليغها . وكل مايقال غير ذلك فهو من مدحلات الملحدين التى جازت على عقول المغفلين فلوثوا بها ماطهّره الله ، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، ويؤمن بكتاب الله ، أن يتعلق بشىء من ذلك .

وقوله **(انه يعلم الجهر ومايخفى)** تأكيد للوعد مع الاستثناء : أى أن الذى وعدك بأنه سيقرئك وانه سيحفظك ماتقرأ فلا تنساه ، عالم بالجهر والسر فلا يفوته شىء مما يكون فى نفسك ، وهو مالك قلبك وعقلك وخافى سرك ، وفى قدرته أن يحفظ عليك ماوهبك وان كان ذلك من خفيات رُوحك ، ولو شاء لسلبه ولن تستطيع دفعه لانك لاتستطيع أن تخفى عنه شيئا .

ولما كان فى الوعد بالاقراء الوعد بتشريع الاحكام كما ذكرنا ، وقد يكون فى الاحكام مايصعب على المخاطَبين احتماله — اردف ذلك الوعد بما يزيده حلاوة فى ذوق النفس فقال **(ونيسرك لليسرى)** : اي نوفقك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ولا يصعب على العقول فهمها .

بعدما وعده بذلك الفصل العظيم ، اخذ يأمره بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم ، وتوجيههم الى ماهو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى والاستعداد لامتثال اوامره والتزام أحكامه، فقال **(فذكر ان نفعت الذكرى)** وأشار بقوله **(ان نفعت الذكرى)** الى ماعليه حال اهل الباطل القائمين على ماوَرثوا عن آبائهم ، والى جمودهم وصلابة جهلهم ، وأن الذكرى ربما لاتنجح فيهم .

قالوا «وذلك كما تقول للواعظ عظ الكاسين ان سمعوا منك» . وليس الشرط قيدا فى الأمر ، فقد اجمع أهل الدين — سلفهم وخلفهم — على أن الامر بالتذكير عام ، نفعت

يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ

الذكرى أم لم تنفع . وعمله صلى الله عليه وسلم شاهد على ذلك . ولذلك أردف هذا الامر بقوله (**سيذكر من يخشى**) فالذكرى نافعة حتما فى فريق من الناس ، وهو الذى يخشى الله ، ويخشى عاقبة الجحود والعناد مع ظهور الدليل ووضوح وجه الحق . وانما يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها الأشقى الذى غلبه شقاؤه ، وحق عليه الخذلان باعراضه عن النور الساطع والبرهان القاطع . وهذا الفريق ــ الذى لايخلو منه زمن ــ سيلقى من الله جزاءه ، كما قال (**الذى يصلى النار الكبرى**) وصف النار بالكبرى لانها نار تلك الدار الآخرة ، وهى أشد ابلاما لمن يعذبون بها من هذه النـــار التى نعرفها ، فمالك اكبر من هذه .

ثم ان من شقى ولقى عذابه بتلك النار يخلد فيها ، لا ينقطع عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية . فهو لايموت فيستريح ، ولا يحيا حياة طيبة فيسعد ، فَنَفْيُ الحياة لا يناقض نفى الموت ، لأن الحياة المنفية هى الحياة التى يرغب فيها ويتمنى صاحبها أن تدوم . وحياة المعذب بتلك النار الكبرى ممقوتةعند صاحبها يتمنى لو فقدها فى كل لحظة تمر عليه ، فكأنها ليست بحياة .

اياك أن تنخدع بما يقوله أولئك الذين يلبسون لباس العلماء ، ويزعمون مزاعم السفهاء من انه لا يجب عليهم التذكير ولا النصح العام لعامة المسلمين ، لأن التذكير لا ينفع ، والنصح لا ينجع ، ويحتجون بقوله تعالى : (**فذكر ان نفعت الذكرى**) فقيد الامر بالنفع ــ فان ذلك منهم ضلال وتضليل ، لان الشرط انما ذكر لما بيناه . ولو صدق قولهم لما وجب التذكير فى وقت من الأوقات ، لانه لايخلو زمان من معاندين ، ولا يسلم قائل من جاحدين . وقد يعرف بعضهم انه انما ينطق عن هوًى ، ولكنه يدافع عن جهله ، ويحتج لكسله وجبنه ، ويحب أن يزين نفسه فى أعين الناس ، وان أوقعها فى سخط الله .

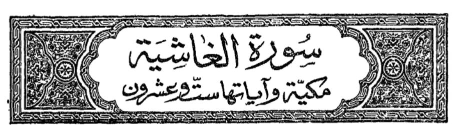
بعد أن وصل وعيد الاشقياء بذكرهم عاد الى وعد أهل الخشية بالفلاح ، فقـــال (**قد أفلح من تزكى**) . وتزكى : تطهر من دنس الرذائل ؛ ورأسها جحود الحق ، وقسوة القلب . والفلاح الفوز بالسعادة فى الدارين . وانما يناله من طهرت نفسه ، وزكا سره ، وصفا قلبه (**وذكر اسم ربه فصلى**) ، أى لاحظ بسره مايعرف من ربه بأن يحضر فى قلبه صفاته العليّة فخشع ، فصلى ههنا بمعنى خشع ولجأ الى الله ، فهـــو كقـــوله تعـــالى ((**انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم**)) . وقد يكون مع الخشوع صلاة مـــن الصلوات المكتوبة أو جميعها ، وانما عبّر عن الخشوع بالصلاة لانه لبّها والمقصود منها ، وهى بدونه شبح بلا روح .

يقول السامعون لهذا الوعد الكريم ــ ممن قست قلوبهم ، ولم يأخذوا من العبادات الا بصورها ، وظنوا أن ذلك غاية ما يطالب الله به عبـــاده ــ نحن المتطهرون ، ونحن الذاكرون ، ونحن المصلون ، فنحن المفلحون .. فيرد الله قولهم وينفى زعمهم باثبات انهم كاذبون وفى زعمهم واهمون ، ويحتج عليهم بقوله : (**بل تؤثرون الحياة الدنيا**) . ولو صح

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

قولكم لآثرتم الآخرة ، وهي خير وابقى . وايثار الحياة الدنياتقديم ملاذها والاشتغال بها والانفاق فيها مع الانصراف عما يعد للسعادة فى الدار الاخرة .

أراد الله أن يؤيد الحق الذى يوحيه الى نبيه باثبات انه هو بعينه الحق الذى ذكر فى صحف ابراهيم وموسى : فدين الله واحد ، وأمره واحد ، ووعده ووعيده واحد ، وانما تختلف صوره ، وتتعدد مظاهره . فاذا كان المخاطبون قد آمنوا بابراهيم أو بموسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت الا بما جاء فى صحفهم ، وانما هو مذكر أو محى لما مات من شرعهم . والاشارة فى هذا الى ماتضمنه قوله : **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى .**



سورة الغاشية
مكية وآياتها ست وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ

الغاشية : هى الداهية التى تغشى الناس بشدائدها وتغمرهم أهوالها . والمراد منها هنا يوم القيامة ، اى هل سمعت قصة يوم القيامة وما يقع فيه ؟ وهو استفهام لتعظيم الامر مع تقريره . **(وجوه يومئذ خاشعة)** ، أى يظهر عليها الذل والخزى النازل بأصحابها وهكذا يقال فيما بعد . أو عبّر بالوجوه عن الاشخاص ، فالذل لهم . اى اناس — يوم تغشى الغاشية — أذلاء . **(عاملة ناصبة)** وقع منها عمل فى الدنيا وأصابها فيه نصب اى تعب ، ولم تستفد من عملها سوى نصبها . فأثر الخيبة وحبوط العمل ظاهر عليها ، ولا حاجة للقول بأنها عاملة ناصبة فى ذلك اليوم نفسه ، فان عاملة ناصبة بمنزلة قوله حابطة اعمالها ، أو جعلت اعمالها هباء منثورا ، وهذا هو الذى يقع يومئذ . وانما يجب اختيار هذا المعنى لاتفاقه مع بقية الآيات فى غير هذه السورة ، ولان هذه الاية تقابل قوله فى أهل الجنة **لسعيها راضية** . وذلك السعى هو الذى كان فى الدنيا . **(تَصْلَىٰ نارا حامية)** صَلِىَ النار : قاسى حرها . وهذه الوجوه تعذب بتلك النار لان اعمالها فى

عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾

الدنيا كانت خاسرة غلب عليها الشر ، وجانبها أو قل فيها الخير . وتلك النار الحامية الحارة لانعرف كنهها ولا كيفية ايقادها ، ولكنا نؤمن بها ، وبان عمال السوء وحلفاء الباطل يصلونها . (العين) ينبوع الماء (والآنية) الشديدة الحرارة : من أنى الماء يأنى اذا سخن وبلغ فى الحرارة غايتها . فاذا عطش أهل النار عطشهم الخاص بهم فى تلك الدار ، وطلبوا مايطفىء لهب ظمئهم جىء لهم بماء من ينبوع بلغ ماؤه من الحرارة غايتها ، فهو لايطفىء لهبا ، ولا ينقع غلة ، فاذا خوت بطونهم ، وأحسوا من الجوع مايدفعهم الى طلب الطعام فـ ((ليس لهم طعام الا من ضريع)) . قال الفراء : الضريع هو نبت يقال له الشبرق ، واهل الحجاز يسمونه الضريع اذا يبس .

قالوا : وهو مرعى سوء لا تعقد عليه السائمة شحما ولا لحما ، وان لم تفارقه الى غيره ساءت حالها . والضريع ايضا القشر الذى على العظم تحت اللحم ، وقيل هو جلد على الضلع ، وعلى كل حال فهو طعام ردىء ((لايسمن ولا يغنى من جوع)) : أى اذا طلب أهل النار الطعام ليدفعوا به ما يصيبهم من ألم الجوع الذى يلائم عالمهم الأخروى وحياتهم فى تلك الدار الباقية ، قدم اليهم من الطعام مالا يدفع جوعا ولا يفيد سمنا ، أى ماليس له أثر من آثار الطعام .

وسمى الله ذلك الطعام بالضريع تشبيها له به، والا فذلك العالم عالم الآخرة ليس فيه نمو أبدان ، ولا تحلل مواد على نحو مايكون للاحياء فى هذه الحياة الدنيا ، بل ذلك عالم خلود وبقاء، واللذائذ فيه لذائذ سعادة ، والآلام فيه آلام شقاء . فكل ما يقع فى ذلك العالم فانما بينه وبين ما يقع فى عالمنا وجوه متشابهة لا وحدة مجانسة .

وقد جاء فى الكتاب الكريم فى الحاقة ((ولا طعام الا من غسلين)) . والغسلين ماشأنه أن يغسل عن الابدان كالقيح والصديد ونحوهما . وفى سورة الواقعة ((ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم)) الى آخر الايات . وفى الدخان ((أن شجرت الزقوم طعام الاثيم)) . وفى الصافات ((أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . أنا جعلناها فتنة للظالمين . انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون)) .

فهذا كله يدل على أن طعام أهل النار شىء يوافق النشأة الآخرة . وقد عبر الله عنه بالعبارات المختلفة ، وكلها مما يصور فى اذهاننا بشاعته وخبثه لتنفر منه نفوسنا ، وتطلب كل وسيلة للفرار منه ، فتبتعد بذلك عن العقائد الفاسدة والاعمال الخاسرة .

ولما وفى المكذبين حقهم من الوصف ، أقبل على أهل الاخلاص والصدق يقر أعينهم بما سيلقون ذلك اليوم من فضله . (ناعمة) ذات بهجة وحسن، كما قال ((تعرف فى وجوههم نضرة النعيم)) . ولا تكون كذلك الا اذا كانت متنعمة فرحة بما لاقت من جزاء سعيها فى الدنيا ، فهى لسعيها راضية على ضد ماعليه تلك العاملة الناصبة .

و (الجنة) هى دار النعيم فى الآخرة ، وسميت بهذا الاسم من الاجتنان ، وهو الستر

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

لتكاثف اشجارها وتظليلها بالتفاف اغصانها . ووصفها بالعلو لان خير الاماكن ماكان رفيعا . أو هي عالية رفيعة في أوصافها ومزاياها، كما سيذكر ذلك في قوله (لاتسمع فيها لاغية)، أي لاتسمع تلك الوجوه ، أي أولئك المخلصون الذين عبّر عنهم بالوجوه ، أو لا تسمع أنت — أيها المخاطَب في تلك الجنة — لغوا ، أي كلاما لا يعتد به ، ولا شتما ، ولا سبا ، ولا فحشا ، ولا باطلا — كل ذلك مما يصح أن يطلق عليه اسم اللغو لانه قول لا فائدة فيه .

وانما عجل بهذا الوصف الشريف عقب ذكر الجنة قبل ذكر بقية انواع النعيم لدفع مايسبق الى الاذهان عند ذكر الجنة ونعيمها من أحوال أهل الترف والمولعين بالشهوات من تمضية الاوقات في اللهو ، والقول اللغو ، واطلاق الالسن عن قيد الادب ، فيجعلون من متممات النعيم قذائف الهجر والفحش . . . فقد سارع الى تنزيه نعيم أهل الجنة عما هو من لوازم نعيم غيرهم في الدنيا . وفي ذلك تنبيه المؤمنين الى إنه لايليق بهم ان يكونوا من أهل اللغو مهما فاض عليهم النعيم ، واتسعت لهم النعمة ، بل ذلك مما يتنزهون عنه حتى اذا رفعت عنهم التكاليف ، ووصلوا الى فضاء الرحمة الذي لا سخط فيه ولا نقمة . فنعيمهم ينبغي أن يكون نعيم أهل الفضل والجد ، لا نعيم أهل الجهل والحمق .

فاعتبر بهذه الحكمة ، ثم انظر كيف قدم من الاوصاف للجنة وضروب نعيمها ماهو روحاني يليق بأرباب النفوس العالية والمقامات الرفيعة في العرفان وكمال الوجدان — فذكر الرضا بالسعي ، ولذته فوق اللذائذ ، فانه لا لذة تفوق عند العامل لذة سروره بعمله ، ثم اتبعه بالتنزه عن اللغو ومالا فائدة فيه ، وهو اسمى ما يطلب الكامل أن يحيا به . ثم جاء بعد ذلك بما له شبه باللذائذ الجسمانية المعهودة لنا في هذه الحياة فقال : (**فيها عين جارية**) ، أي ينبوع ماء جار ، والماء الجاري — اذا كان من الينابيع — يكون في العادة باردا صافيا ، لهذا وصف العين بالجارية ، ثم في منظر الماء الجاري من مسرة النفس ما هو معلوم .

و (**السرر**) : جمع سرير ، وهو معروف : مايجلس أو ينام عليه . وأفضل السرر ماكان مرفوعا عن الارض كما هو معروف . فكأن تلك السرر توضع لاهل النعيم على مقربة من العين الجارية فيجلسون عليها وبجانبهم (**أكواب موضوعة**) على جانب العين ، فاذا أرادوا التمتع بلذيذ الشراب تناولوا بها من الماء . والاكواب : جمع كوب ، وهو الكوز الذي لا عروة له «مايعرف في لسان العامة بالكباية» . ثم في الجنة — غير السرر التي توضع على جوانب العيون — (**نمارق مصفوفة**) . والنمارق : جمع نمرقة — بضم النون وكسرها — وهي الوسادة «المسماة في عرف العامة مسندا ومخدة» وسواء كانت هذه النمارق مصفوفة فوق الاسرة أو في جوانب المساكن . (**وزرابي مبثوثة**) الزرابي : البسط ، وقيل البسط التي فيها خمل .

وروى عن المؤرج انه قال في هذه الآية « أو زرابي النبت اذا اصفر واحمر ، وفيه خضرة وقد ازرب » . فلما رأوا الالوان في البسط والفرش شبهوها بزرابي النبت .

وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ

ومبثوثة : أى مبسوطة أو مفرقة هنا وهناك ، كما تراه فى بيوت أهل النعمة ــ كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهة واللذة ، والا فنعيم تلك الدار الاخرة مما لايشبهه فى هذه الدار نعيم .

فهل آن لهؤلاء الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله ووعده ووعيده ان يعتبروا بهذا الترتيب الالهى ، وان يقدموا الاحسان فى العمل حتى يبلغوا فيه غاية يرضون سعيهم عندها ، وأن يبدأوا بتنزيه أقوالهم عن اللغو ، وأنفسهم عن اللهو بما تلهو به الحيوانات من طعام وشراب ؟.. ثم بعد أن يلبسوا من الفضائل أفضل حللها ، يتناولون من نعمة الله مايرفههم ، ويطيب عيشهم ، ويتمتعون بذلك المتاع الحسن . هل آن لهم أن يتدبروا كتابهم ، وان يرجعوا الى سيرة نبيهم ، فينهضوا الى طلب ما أعد الله لهم ، ولا يرتكسوا فيما أركس الله فيه الامم قبلهم ؟

عرفت ان الكلام مسوق من اوله لتقرير امور الاخرة ، ومايكون من شأن الناس يوم القيامة ، وفى المخاطبين منكرون جاحدون ، أو مقرون غافلون لاينظرون فى عملهم الى ماهم عليه هاجمون ــ فأراد الله اقامة الحجة على أولئك ، وتنبيه هؤلاء بتوجيه نظرهم الى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وما يقع تحت بصرهم من الخلق ، فقال (**أفلا ينظرون الى الأبل الخ**) . وانما خص الابل لانها افضل دواب العرب ، واعمها نفعا . ولانها على الحقيقة ، خلق عجيب ، فانها ــ على شدتها وعظم قوتها ــ تنقاد للضعيف ، ولا تمانع الصغير . ثم فى تركيبها ما أعدها لحمل الاثقال ونقلها الى البلاد الشاحطة . ثم هى تبرك لتحمل عن قرب ويسر . ثم تنهض بما تحمل ، مع صبر على السير والعطش والجوع ، واكتفائها من المرعى بمالايكاد يرعاه سائر البهائم . وفيها غير ذلك من المزايا التى لايماثلها فيها حيوان آخر ، وليس اختصاص الأبل لعظم جثتها حتى يرد الفيل . والفيل ــ وان كان فيه بعض مزايا الأبل ــ فهو لايدر اللبن ، ولا يؤكل لحمه ، ولا يسهل قياده سهولة قياد الأبل .

ورفع السماء : أمساك مافوقك من شموس وأقمار ونجوم ، كل منها فى مداره ، لايختل سيره ، ولا يفسد نظامه . **ونصب الجبال** : اقامتها علما للسائر وملجأ من الجائر . وهى ، فى الأغلب ، نزهة للناظر . **وسطح الأرض** : تمهيدها وتوطئتها ليتيسر للناس أن يقيموا عليها ويمشوا فى مناكبها .

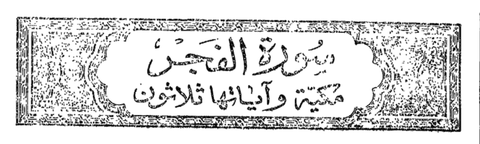
وانما حسن ذكر الجمال مع السماء والجبال والأرض لأن هذه الجملة من المخلوقات هى مايقع تحت نظر العرب فى أوديتهم وبواديهم ، فحسن أن ينتظمها الذكر كما انتظمها النظر . فلو نظر الجاحدون والغافلون فيما تحت نظرهم من هذه الأشياء ، وكيف قامت ــ كل على حاله التى هو عليها ــ لعلموا أنها صنعة لاتوجد ولا تحفظ الا بموجد لها وحافظ ، وهو الله جل شأنه ، وأن القادر على خلق هذه الكائنات وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة ، قادر على أن يرجع الناس الى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله .

وكما أن الله خلق ذلك كله ، والناس لايعلمون طريقة خلقه ، وانما يعرفون منه

إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

ماشاهدوه ، كذلك ينشىء الله ماينشىء فى ذلك اليوم ، وهم لايعرفون طريقة انشائه ، وانما يرون مايرون فيه كما يرون اليوم مايرون فى هذه المخلوقات ، فاذا كان الأمر ظاهرا جليا ، وما هى الا نظرة فتهجم عليهم العبرة (**فذكر انما أنت مذكر**) . ان الفطرة سائقة بنفسها الى الاعتقاد بصانع قادر ، وهى ميسرة بذاتها الى الأذعان بأنه قادر على انشائها فى خلق آخر ترى فيه شقاء أو نعيما . وانما قد تتحكم الغفلات ، وتغلب الأهواء ، فتحتاج النفوس الى مذكر يردها الى ماكان عساه تنساق اليه غرائزها ، لهذا سمى الله هذا النوع من الاستدلال تذكيرا . وقوله : **انما أنت مذكر** ، تحديد للامر الذى بعث الله لاجله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو تذكير الناس بما نسوه من أمر ربهم . وليس فى سلطانه ، عليه السلام ، أن يخلق الاعتقاد فيهم ، ولا من المفروض عليه أن يقوم رقيبا على قلوبهم . كما قال (**لست عليهم بمصيطر**) . وقال : **وما أنت عليهم بجبار** . والمسيطر : المتسلط . قال بعض المولعين بالنسخ والتغيير ان هذه الآية نسخت بآيات الجهاد ، كأن الجهاد شرع فى الاسلام لقهر النفوس على الاعتقاد . وخفى على القائل ان القهر لايحدث ايمانا ، وأن الاكراه لا أثر له فى الدين ، وأن الجهاد ينقطع وجوبه متى خضع المحارب لأداء الجزية مع بقائه على دينه — ان كان يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا — فى رأى الاكثر . ومن البديهى انه لاحاجة الى القول بالنسخ ، فان النبى عليه السلام ليس بمسيطر على قلوب الناس سواء كان محاربا لهم أو مسالما .

وقد يشعر نفى السيطرة بأن الناس جميعا مختارون ، وهم سواء فيما هم به مجزيون ، فحبل كل على غاربه يذهب الى حيث شاء من المذاهب ، ومع ما شاء من الأهواء . فقال الله رفعا لخاطر السوء : (**الا من تولى الخ**) . أى أنك وان كنت داعيا، وليس لك سلطان على ماتعقد قلوبهم ، فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرائرهم .. فمن تولى منهم ، وأعرض عن الذكرى المسوقة اليه (**وكفر**) : أى جحد الحق المعروض عليه ، فالله تعالى يعذبه العذاب الاكبر فى الآخرة ، وقد يضم الى عذاب الآخرة عذاب الدنيا . فكلمة (**الا**) بمعنى لكن وفيها الاستثناء من عموم الاحوال التى أفادها نفى السيطرة . ثم أكد ذلك الحكم — وهو تعذيب الله لمن تولى وكفر — بقوله : (**ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم**) . أى لا مفر للمعرضين ولا خلاص لهم من الويل الذى أوعدوا به ، فانهم راجعون الينا ، وقد حق القول منا فى عقابهم ، فنحن نحاسبهم على ماكسبت قلوبهم . والاياب : الرجوع — كما رأيت — والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾

كثر خلاف المفسرين والرواة فى معنى كل من **الفجر وليال عشر** الى آخر ما أقسم به . وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ، ثم يأتى فى الليالى العشر بما لايلائمه . وغالب ذلك يجرى على خلاف ماعودنا الله فى نسق كتابه الكريم ، وقد جرت سنة الكتاب بانه اذا اريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه : كيوم القيامة فى **لا أقسم بيوم القيامة** ، وكاليوم الموعود فى سورة **والسماء ذات البروج** ، وكليلة القدر فى سورتها . فاذا أطلق الزمن ولم يقيد ، كان المراد مايعمه معنى الاسم ، كما سبق فى قوله : **والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس** . فالفجر ههنا ــ على هذا ــ هو جنس ذلك الوقت المعروف الذى يظهر فيه بياض النهار فى جلد الليل الاسود ، وينبعث الضياء طاردا الظلام ، وهو وقت تنفس الصبح ، وهو معهود فى كل يوم فصح أن يعرف بالالف واللام .

والمراد ــ والله أعلم ــ من **ليال عشر** ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، وهى مايكون ضوء القمر فيهامطاردا لظلام الليل الى أن تغلبه الظلمة . فكأنه وضع التناسب على شىء من التقابل ، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ، ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء الى الليل . وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ثم لا يزال الظلام يغالبه الى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه .

ولما كانت هذه الليالى العشر غير متعينة فى كل شهر ذكرها منكرة ، وذلك أن ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب أول الظلمة فى أول ليلة من الشهر ، وقد يكون ضئيلا يغيب ضوؤه فى الشفق فلا يعد شيئا . فالليالى العشر تبتدىء تارة من أول ليلة وأخرى من الليلة الثانية ، لذلك نكرها على أنها ليال عشر من كل شهر . (**والشفع والوتر**) : أى الزوج والفرد من هذه الليالى أيضا . فهو يقسم بها على الجملة ، ثم يقسم بما حوته من زوج وفرد .

ثم بعد أن أقسم بضروب من أوقات الضياء ، أقسم بالليل مرادا منه الظلمة ، وكثيرا مايطلق اسم الليل وتراد ظلمته . وسريان الظلمة ودخولها على المبصرات حتى تسترها أمر معروف عند المخاطبين . ولما كان ظلام الليل واختلاط قطعة عظيمة منه بضوء القمر فى الليلة الواحدة مقصودا الى تفخيم أمره بالقسم ، خص الليالى التى يظهر فيها ضوء القمر مع تغلب الظلام فيها بعشر فقط ، والا فقد يكون ظلام فى أكثر من عشر من الشهر لكن زمنه قليل لايليق ذكره بمقام التفخيم .

وفى الفجر وتفريجه كربة الليل من جهة وتنبيه العامل الى استقبال عمله بالنهار من جهة أخرى . وفى ليالى القمر واستمالتها الأنفس للسمر ، وتيسير السير فى السفر

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ

ـ خصوصا أيام الحر ، وهى أغلب أيام الحياة فى بلاد العرب ـ ثم فى قصر مدة بقاء القمر ، وانتظار هجوم الظلمة ، وابتغاء الغنيمة مع الاستعداد للسكون عندما يرخى الظلام ستاره ـ فى كل ذلك رغبات للانفس ورهبات ، وللهواجس غدوات وروحات وللامانى فيها دبيب ووثبات ، فهو جدير أن يقسم به . كما قال **(هل فى ذلك قسم لذى حجر)** . الحجر ، بكسر الحاء ، العقل ، والاستفهام للتقرير وتفخيم أمر المقسم به .

وليس فى هذه السورة قسم بالضوء الخالص كبياض النهار ، وما يكون فى ليالى القمر عند امتلائه ، بل ذلك سيجىء فى قوله : **(والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها)** فليتنبه الى هذه الدقائق حتى لايفوت العقل مافيها من الحقائق . وقد وقع هذا القسم فى هذه السورة ، بعد قوله فى آخر السورة السابقة **(ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم)** وقبل قوله فى هذه السورة : **(الم تر كيف فعل ربك بعاد الخ)** . فكان جوابه مفهوما لايحتاج الى ذكر ، وفى تركه ارسال لنفس القارىء فى تأمل مامضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما فيتمكن المعنى منه فضل تمكن ، والجواب أن ناصية المكذبين لبيدى ، ولئن أمهلتهم فان أهملهم ولآخذنهم أخذى الامم قبلهم .

(عاد) جيل من العرب العاربة أو البائدة ، يقول النسابون أنه من ولد عوص بن إرَم ابن سام بن نوح عليه السلام ، وسواء صح النسب أم لم يصح ، فقد كان ذلك الجيل معروفا باسم **عاد** ، ويلقب أيضا **بإرَم** ، وبقى مشهورا عند العرب بذلك . و **(ذات العماد)** وصف لإرَم التى هى قبيلة عاد نفسها . ومعنى ذات العماد : سكان الخيام حِلا وارتحالا ، أو ذات العماد الرفيعة والقوة المنيعة . عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة . وكانت منازلهم بالرمال والاحقاف الى حضرموت . وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغا لم يصل اليه سواها فى عهدها ولذلك قال : **(التى لم يخلق مثلها فى البلاد)** . والاستفهام فى **الم تر كيف فعل ربك بعاد** للتذكير والتقرير . وقد بين الله كيف فعل بهم فى سور أخرى من القرآن ، فقد جاء فى سوره الحاقة **((وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما))** والصرصر : الباردة . والعاتية : الشديدة الهبوب ، لابركة فيها . والحسوم المتتابعات المشائيم .

وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصوير ارم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله ، فاذا وقع اليك شىء من كتبهم ، ونظرت فى هذا الموضع منها ، فَتَخَطَّ ببصرك ماتجده فى وصف إرَم ، واياك أن تنظر فيه .

وثمود قبيلة من العرب البائدة كذلك ، من ولد كاثر « وهو المسمّى فى التوراة جاثر» ابن إرم بن سام . وإرم هو المعروف فى التوراة بآرام ، هكذا يذكر النسابون ، وسواء صح النسب أم لم يصح ، فثمود معروفة عند العرب باسمها ، ومنزلها بالحِجْر بين الشام والحجاز . **(الذين جابوا الصخر بالواد)** : أى قطعوا الصخر ونحتوه ، كما قال تعالى : **وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين** . فقد أنعم الله عليهم بالقوة والعقل

ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

حتى صنعوا لأنفسهم بيوتا من الصخر بذلك الوادى الذى كانوا يقيمون فيه . وقد يصح ما قال بعضهم أن معنى **جابوا الصخر بالواد** ، انهم قطعوا الصخر ، واتخذوا منه واديا يخزنون فيه الماء لمنافعهم . ولا يفعل ذلك الا أهل القوة والفهم من الامم .

(وفرعون) هو حاكم مصر الذى كان فى عهد موسى عليه السلام . وللمفسرين فى الأوتاد اختلاف كبير ، واظهر أقوالهم ملاءمة للحقيقة أن الأوتاد المبانى العظيمة الثابتة . وما أجمل التعبير عما ترك المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ! فانها هى الاهرام ، ومنظرها فى عين الرائى منظر الوتد الضخم المغروز فى الارض ، بل ان شكل هياكلهم العظيمة فى اقسامها شكل الاوتاد المقلوبة : يبتدىء القسم عريضا ، وينتهى بادق مما ابتدأ . وهذه هى الاوتاد التى يصح نسبتها الى فرعون على أنها معهودة للمخاطبين.

(الذين طغوا فى البلاد) : صفة للمذكورين جميعا من عاد ومابعدها . ومعنى طغياتهم فى البلاد أن كل قوم من هذه الاقوام طغوا فى بلدهم . والطغيان تجاوز القدر المعروف فى العمل أو غيره ، وهو هنا سوء استعمال السلطان والقوة ، والخروج بهما عن حد القصد والمعدلة ، والاسراف فى هضم الحقوق اغترارا بعظم القدرة .

من أوتى القوة فسخرها لسلطان الشهوة فتناول ماليس له ، ومنع الحق أهله ، فقد عمل على تبديد نظام الجماعة ، وتقطيع روابط الالفة بينهم ، وحمل كل نفس على اتخاذ الاثرة قاعدة عملها ، ومصدر سيرها فى سعيها ،فيكثر الفساد ، اذ لا معنى للفساد فى شىء الا اختلال نظامه وهلاك قوامه . ومتى تحكمت الأثرة فى أنفس قوم ، وغفل كل واحد منهم عن ارتباط وجوده بوجود الآخر ، عمل بعضهم لاهلاك بعض ، وانتهى الامر بهم الى الانمحاء من سجل الامم القائمة ... لهذا قال: **(فاكثروا فيها الفساد)** بعد أن قال: **الذين طغوا فى البلاد** . ثم جاء بعد ذكر كثرة الفساد بعاقبتها التى لامفر للامم منها فقال :

(فصب عليهم ربك سوط عذاب) . والسوط لفظ شاع استعماله فى الجلد المضفور الذى يُضرب به ، وان كان فى الاصل اسما للخلط والمزج . وقد شبه الله مايصبه عليهم من ضروب العذاب التى ذكرها فى كتابه فى مواضع اخر بالسوط لان السوط يضرب به فى العقوبات . والله تعالى انما ينزل العذاب بالامم عقوبة لها على مايفرط منها . وصب السوط : انزاله بشدة مع توالى ضرباته بلا انقطاع .

(المرصاد) : المكان الذى يقوم به الرصد ، وهو القوم الذين يرصدون ، أى يرقبون بالخير أو الشر . والكلام على التمثيل : اى أن ربك القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده لايفوته من شئونهم شىء ، ثم هو مجازى كل عامل بعمله فلا يفلته احد . فلا يظنن اهل الطغيان الذين يكثرون فى الارض الفساد أن يتفلتوا من الله وعقابه . والجملة تأكيد لجواب القسم المفهوم من سابق الكلام ولاحقه ـ على ماسبق تقديره ـ أو هى تعليل لتعذيب الله من ذكر من الامم بسبب طغيانهم وافسادهم فى أمورهم .

هذا شأن ربك لايفوته من شئون عباده نقير ولا قطمير ، ولايهمل امة تعدت فى أعمالها حدود شرائعه القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر . كما أن الراصد القائم

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ

على الطريق ليأخذ من يمر به بما يريده من خير أو شر ، لايفرط فيما رصد له . فاذا اردت ان تعرف شأن الانسان وغفلته وسوء ظنه بربه ، فهو مايتلى عليك ، وبهذا البيان تعرف موقع الفاء فى قوله (**فأما الانسان**) الخ ، كأنه قال هذا شأن ربك ، وسيتلى عليك شأن الانسان عقب ماتلوت من شأن ربك . الابتلاء : الاختبار . ويقال بلاه يبلوه وابتلاه يبتليه بالخير والشر ليظهر مالديه من شكر وكفر . وقوله (**فأكرمه ونعمه**) بيان لاثر الابتلاء ، كما أن قوله فيما بعد (**فقدر عليه رزقه**) : اى ضيقه عليه ، بيان لاثر الابتلاء فى الاية الآتية وبقية الالفاظ مفهومة المعنى .

وحاصل ماذكر الله من شأن الانسان فى هاتين الآيتين : انه ـ اذا انعم الله عليه وأوسع له فى الرزق ـ ظن أن الله قد اصطفاه لذلك ورفعه على من سواه وجنبه منازل العقوبة ، فيذهب مع هواه فيفعل مايشتهى ، ولا يبالى اكان مايصنع خيرا ام شرا فيطغى ويفسد فى الارض . وقد عبر عن هذا الظن الفاسد والغرور المهلك بقوله (**فيقول ربى أكرمن**) . اى أن الله أكرمنى بنعمته ، ومن يكرمه الله لايؤاخذه على عمل يعمله . واذا امتحنه الله بالفقر فضيّق عليه الرزق ، وربما كان ذلك من الله لا عن اهانة له ولا ارادة لاذلاله ، بل ليمحّص قلبه بالاخلاص له ، وليظهر قوة صبره ، بل لتزهر تلك القوى الجليلة التى قد تكون كامنة فيه ، كما تظهر آيات ذلك فى كثير من ارباب العزائم وذوى الاعمال العظائم ، فان الفقر لايزيدهم الا شكرا ، ولا تزداد قواهم به الا شحذا . فاذا امتحن الله الاغلب من البشر بالفقر ، لم يستعمل صحيح الفكر ، ولم يعتصم بالصبر ، بل ذهب يقول أن ربى قد أهانن . ومن أهانه الله ، وصغرت قيمته عنده ، لم تكن لله عناية بعمله ، فكيف يؤاخذه بما يصدر منه من شر أو يكافئه على مايصنع من خير ؟ فلاشكره يُكافأ باحسان ، ولا كفره يُجازى بعقوبة ، فينطلق لذلك يكسب عيشه بأية وسيلة عنت له ، لايقف عند حد ، ولا تحجزه شريعة فيلتقى مع الجبارين فى سبيل واحدة : سبيل الفجور وبخس الحقوق وافساد نظام العامة .

وانت ترى أن أحوال الناس الى اليوم لاتزال كما ذكر الله فى هذه الآية الكريمة . فان أرباب السلطة والقوة يظنون انهم فى أمن من عقاب الله ، ولا يعرفون شيئا من شرعه يمنعهم عملا مما تسوق اليه شهواتهم . وانما يذكرون الله بالسنتهم ، ولا يعرفون له سلطانا على قلوبهم . والفقراء الاذلاء قد صغرت نفوسهم عند انفسهم ، فهم لايبالون بما يفعلون ، واذا ذكروا الله فانما هى حروف واصوات لاتمتاز فى منفعتها عن اصوات بقية العجماوات .

تلك حالة الانسان الذى لم يُمتّعه الله بعقل سليم ودين صحيح . أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل والدين ، فاولئك الذين ترتقى الى مثل حالهم مرتبة الانسان ، فيفارقون تلك الغرائز الحيوانية الاولى ، ويعلُون الى المقام الذى لاتذهلهم فيه القوة ، ولا يشغلهم فيه الفقر عن مراعاة الحدود المعروفة فيما هو حق لهم أو عليهم . ومعنى هذه الآية يميل الى قوله تعالى ((**ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين**)).

تعلم ان المخاطَبين بهذه الآية كانوا يزعمون أنهم على شىء من دين ابراهيم ، أو انهم

رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا

كانوا يدّعون أن لهم دينا يأمرهم وينهاهم ويقربهم الى الله زلفى ، فاذا سمعوا هذا التهديد وذلك الوعيد ، وراوا فى الخطاب ماينعى عليهم فساد غرائزهم ، همت نفوسهم بمدافعة مايفجعهم من ذلك ، وأخذت توسوس لهم بأن هذا الكلام انما ينطبق على أناس ممن سواهم،اما هم فهم لم يزالوا من الشاكرين الذاكرين غير الغافلين ــ فالله يرد عليهم زعمهم ويقيم لهم دليلا واضحا على كذب ماتحدثهم به انفسهم . ويقول **(كلا بل لاتكرمون اليتيم)** الخ ، اى لو كان غنيكم لم يُعْمِه الطغيان ، وفقيركم لم يطمس بصيرته الهوان ، وكنتم لاتزالون على الحال التى يرتقى اليها الانسان لشعرت نفوسكم بما عسى يتمتع فيه اليتيم ، فعنيتم باكرامه ، فان الذى يفقد اباه معرض لفساد طبيعته اذا أهملت تربيته ، ولم يُعامل بما فيه اكرامه وما فيه رفع نفسه عن دنايا الامور وسفاسفها ، ولو كنتم على ما تحدثكم به انفسكم من الصلاح لوجدتم النعمة تحرك قلوبكم الى التعاون على طعام المسكين الذى لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله .

والتحاض : تفاعل من الحَض ، وهو الحث والترغيب ، وربما بسطنا القول فى حكمة الله جل شانه فى العناية بشأن اليتيم والاكثار فى كتابه الكريم من ذكره ، والحث على اصلاح امره فى محل آخر ان شاء الله .

واذا لم تكرموا اليتيم ، ولم يوُصِ بعضكم بعضا بطعام المسكين ، فقد كذَبَت مزاعمُكم فى انكم من قوم صالحين . وانما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالاطعام ، فيقول ولم تطعموا المسكين ، ليصرح لك بالبيان الجلى أن أفراد الامة متكافلون ، وانه يجب ان يكون لبعضهم على بعض عطف بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع التزام كل لما يأمر به وابتعاده عما ينهى عنه .

ثم ان اهمالكم أمر اليتيم ، وخلو قلوبكم من الرحمة للمسكين ، لم يكن عن زهد فى لذائذ الحياة الدنيا ، كما هو شأن بعض من يسأم الحياة ولا يكون له همّ الا التخلص من متاعبها فيعكف على شأن نفسه ، وينخزل من العالم ، ولا يهتم بشئونهم ، بل انكم مع ذلك **(تأكلون التراث أكلا لما)** . والتراث : الميراث . واللم : الشديد كما ذهب اليه جمهور اللغويين . ولا حاجة الى تفسيره بمعنى الجمع ، ثم ارتكاب التأويل ، اى انكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم ، وتتشددون فى أكله حتى تحرموا صاحب الحق من حقه . **(وتحبون المال)** مطلقا ميراثا أو غيره **(حبا جما)** اى كثيرا . ولو كنتم ممن لم يبال بالدنيا واهلها لتركتم ما يترك الاموات لأيتامهم وفقراء أهلهم ، ولما شاركتموهم فى شىء لا كَسْبَ لكم فيه ولا دَخْلَ لأعمالكم فى تحصيله ، ولما ازداد حُبكم فى المال الى الحد الذى انتم عليه . فشرهكم الى المال ، وقرمكم الى اللذات ، وانصراف انفسكم الى التمتع بها ، وشعوركم بمقدار الحاجة الى المال فى تقويم شئونكم ، ثم قسوة قلوبكم ، وشلل وُجدانكم الى حد لا يألم لحال المسكين ، ولا ينظر الى ما تجر اليه الاستهانة بشئون اليتامى من فساد أخلاقهم وتعطيل قواهم ، وانتشار العدوى منهم الى معاشريهم وما يصيب الامة من ذلك ــ كل هذا منكم دليل على أن ما تزعمونه من اعتقادكم بالله يأمركم وينهاكم ، وأن

دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ

لكم دينا يعقلكم — زعم باطل . واذا غششتم أنفسكم بدعوى انكم تتذكرون الزواجر وتراعون الاوامر مع بقائكم على ما وصف من حالكم ،فانما ذلك منكم مقال لا تصدقه فعال .

(**الدك**) الهدم ، وكسر الحائط والجبل . و ((**دكا دكا**)) : أى دكا متتابعا ، و (**صفا صفا**) أى صفوفا متعددة (وجيء يومئذ بجهنم) هو كقوله تعالى ((**وبرزت الجحيم لمن يرى**)) . أى كشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، فكأنها كانت بعيدة وجاءت اليهم . اما اسناد المجيء الى الله في قوله : (**وجاء ربك والملك**) ، ففيه راى السلف رضي الله عنهم ، وهو أن ذلك مجيء نؤمن به ولا نطلب معناه ،ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الالهي في ذلك اليوم ، وهو الافضل . وفيه مذهب الخلف . وهو انه على تقدير ، وجاء أمر ربك ، أو انه من قبيل التمثيل لتجلي السطوة الالهية على القلوب كما تتجلى أبهة الملك للأعين اذا جاء فى جيوشه ومواكبه — ولله المثل الاعلى — والتذكر : استحضار ماكان منسيا . والذكرى تطلق ويراد منها العظة والعبرة ، قال الله تعالى ((**أن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**)) ولا يلزم من حضور ما كان منسيا أن تحصل العبرة ، فان العبرة انما تكون حيث ينفع الاعتبار ، فلذلك قال : (**يومئذ يتذكر الانسان**) ، أى عند ذلك تذهب الغفلة ويذكر الانسان الغافل ما كان منه أيام غفلته ، ولكن لا تكون له ذكرى أى عظة فينتفع بها . و (**قدمت لحياتى**) أى قدمت عملا ينفعنى فى حياتى الحقيقية وهى الحياة الآخرة .

قرىء **يعذب** ويوثق مبنيا للمجهول : أى يومئذ لا يصاب أحد بعذاب مثل العذاب الذى يصيب ذلك الانسان الذى ابطره الغنى وافسده الفقر ، ولا يحبس أحد حبسه ، فان الوثاق معناه الشد والربط كما يكون بالسلاسل والاغلال . وقرىء الفعلان بالبناء للفاعل ، أى لا يقع من المعذبين وصانعى العذاب مثل العذاب الذى يقع على ذلك الانسان ، فالمعنى واحد فى الوجهين .

ومعنى الآيات الكريمة أن ما يزعمه الاغنياء الجبارون والفقراء الخاسرون من أنهم لربهم ذاكرون — مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء ، وامتلائها بحب المال ، وفيضانها بالميل الى الشهوات — زعم لا حقيقة له ، وانما يتذكرون ربهم على الحقيقة فى ذلك اليوم العظيم عند ما يشهدون الهول ، ويعوزهم الحول ، ويظهر لهم مكانهم من العذاب والنكال . ولكن ليس فى هذا التذكر موعظة تحمل على العمل النافع . فان تلك الدار دارجزاء لا دار اعمال ،وانما يبقى لأولئك الخاسرين الحسرة والندامة ، ويقول قائلهم : (**ياليتنى قدمت لحياتى**) . وتكرر ذكر اليوم فى قوله اولا (**اذا دكت الارض**) وقوله (**وجيء يومئذ بجهنم**) وقوله (**يومئذ يتذكر الانسان**) وقوله (**فيومئذ لا يعذب الخ**) .. ليقوى عندك استحضار دك الارض ، وظهور الجلال الالهى . ثم أن التنوين فى **يومئذ** الاولى نائب عن دكت الأرض ومجيء ربك والملك ، وفى **يومئذ يتذكر** نائب عن ذلك وعن مجيء جهنم ، وفى **يومئذ** الثالثة (**فيومئذ لا يعذب الخ**) ينوب

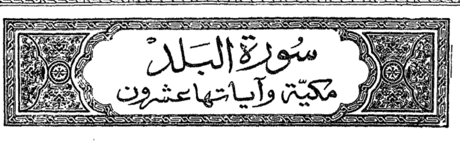
لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

التنوين عما تقدم وعما تضمنه قوله : **يقول يا ليتنى قدمت لحياتى** .

فكأنه قال : وجىء يوم تدك الارض ويجىء ربك والملك صفا صفا بجهنم يوم تدك الارض ويأتى ربك ويجاء بجهنم يتذكر الانسان الخ . فيوم تهدم الأرض ، ويأتى ربك ، ويجاء بجهنم ، ويتذكر الانسان ،ويقول (**ياليتنى قدمت لحياتى ــ لايعذب عذابه احد الخ**) . ولا يخفى مافى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ووجدان يشعر .

بعد ان ذكر حال الانسان وقد خلى وطبعه وحرصه وجشعه ، واستولت عليه رغبات جسمه ، وخرجت به عن سلطان العقل وحكمه ، ثم ذكر عاقبته وما يصير اليه فى الحياة الاخرى ــ انتقل بنا الى ذكرالانسان اذا ارتقى عنذلك الطبع ، وترفع عن مراتع الحيوانية ، واستعلى برغائبه الى المطامح الروحانية ، فكان فى الغنى شاكرا : لا يتناول الا الحق ، ولا يمنع صاحب الحق حقا ، ويعنى بحال اليتيم ، ويطعم المسكين، ويحمل غيره على الاقتداء به فيما هو خير له ولمن حوله ، وكان فى الفقر صابرا : لا يمد يده الى ما ليس من حقه ، ولا يأتى الدنية ، ولا يطلب لغيره الرزية ، ولا يغفل ــ مع فقره ــ شأن اليتيم ، ولا يغفل عما يألم له المسكين .. فاذا لم تمكنه المعونة بالمال امكنته المساعدة بالمقال . وبهذا يستحق وصف المطمئن ــ فانه راكن الى ربه فى جميع أمره ، واقف عند شرعه ، ثابت القدم بمعرفة الحق والسلوك فى سبيله : لا تزعزعه الشهوات ، ولا تضطرب به الرغبات ، ويستحق أن يخاطب باسم النفس التى هى روح تنزع الى ما يليق بالروح ، ولا ينادى باسم الانسان الذى يشير الى ما فى تكوينه من النزعة الحيوانية ، لانه لم يسلطها عليه ، بل استخدمها لتكميل نفسه وارجاعها الى معهدها المقدس ، فكانت جديرة بجوار ربها ، وهى راضية بعملها فى الدنيا وبمرجعها فى الآخرة ، لانها لم تكن قط ساخطة : لا هى تسخط عملها فى غناها ، ولا تسخط حالها فى فقرها ، ولا تسخط صنيع ربها بها . وهى مرضية لأن من كانوا معها فى الدنيا راضون عنها لحسن صنعها ، والله راض عنها لصلاح عملها ــ فقال سبحانه : (**ياايتها النفس المطمئنة**) . ومفاجأة السامع بهذا النداء ضرب من ضروب ايجاز القرآن التى لا تخطر لبشر على بال ؛ فان التقى الخائف الذى يخاف مقام ربه ــ اذا سمع ذلك الوعيد المتقدم ــ أخذت الرهبة نفسه ، وافعمت الخشية قلبه . فبينا هو كذلك اذ ينقذه هذا النداء ، ويصعد به الى اكرم فناء ، ويصفه بالمطمئن ليذهب عنه الخوف ، وبالراضى المرضى ليبعد عنه خشية الغضب . أما الشقى فقد يلهو بأنه ليس وحده فى الشقاء ، بل الناس فى كل ما يوعد به سواء ، فيفجعه نداء الابرار بأوصاف الخيار الى قرب الجوار فتبغته الدهشة وتفزعه الوحشة .

الرجوع الى الله تمثيل للكرامة عنده ، والا فالله معنا حيث كنا . والدخول فى عباده أن تكون منهم . والعباد الذين يستحقون نسبة الاختصاص به ، هم العباد المكرمون . والجنة معروفة .



بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ

(لا أقسم) عبارة من عبارات القسم والتأكيد فى لسان العرب ، كما تقدم ذكره فى تفسير قوله تعالى : **فلا أقسم بالخنس** فى سورة **كورت** ، و **(البلد)** المشار اليه هو مكة لان السورة مكية ، ولما يدل عليه قوله : **(وأنت حل بهذا البلد)** . والحل : هو الحلال . والخطاب للنبى عليه السلام ، ومعنى كونه حلا ، انه قد استحل لاهل مكة : استحلوا ايذاءه واعناته ومطاردته ، واستباحوا منه حرمة الامن فى ذلك البلد الامين حتى اضطروه الى الهجرة . **(ووالد وما ولد)** عطف على هذا البلد داخل فى المقسم به . والمراد منه : اى والد وأى مولود من الانسان والحيوان والنبات ، كما يرشد اليه التنكير ، وكما هو مختار ابن جرير وجمع من المحققين : **(لقد خلقنا الانسان فى كبد)** هذا هو الخبر المقصود تأكيده بالقسم المتقدم ، والكبد : المشقة والتعب . قال لبيد :

ياعين هل بكيت أربد اذ قمنا وقام الخصوم فى كبد

اى فى شدة الامر وعظم الخطب . ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد .

أقسم بمكة لتفخيم شأنها ، وصرح بذكرها — على طريق الاشارة اليها مرتين — لزيادة التفخيم ، وأتى بجملة **(وأنت حل بهذا البلد)** واعترض بها بين العاطف والمعطوف ليفيد أن مكة عظيم شأنها جليل قدرها فى جميع الاحوال ، حتى فى هذه الحالة التى لم يرع اهلها فى معاملتك تلك الحرمة التى خصها الله بها . وفى هذا من تنبيههم وايقاظهم من غفلتهم ، وتقريعهم على ما حطوا من منزلة بلدهم ما فيه .

ثم أقسم بوالد ما وما ولد ليلفت نظرنا الى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود — وهو طور التوالد — والى مافيه من بالغ الحكمة واتقان الصنع ، والى مايعانيه الوالد والمولود فى ابداء النشء وتكميل الناشىء وابلاغه حده من النمو المقدر له .

فاذا تصورت فى النبات كم تعانى البزرة فى اطوار النمو : من مقاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر الى أن تستقيم شجرة ذات فروع واغصان ، وتستعد الى أن تلد بزرة أو بزورا أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها — اذا أحضرت ذلك فى ذهنك ، والتفت الى ما فوق النبات من الحيوان والانسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ماهو أعظم ، ووجدت من المكابدة

أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝

والعنــاء الذى يلاقيـه كل منهمـا فى سبيل حفظ الأنـواع ، واستبقاء جمـال الكون بصورها ماهو أشد وأجسم .

انظر كيف أشار سبحانه فى القسم الى التمهيد الى المقسم عليه ، فكان القسم توكيدا للخبر بصيغته ، وتأكيدا له وبرهانا عليه باشارته . فان الانسان نوع من أنواع الوالد والمولود ، فحق له أن يخلق فى كبد وكد ونصب ... لاتغفل عن موضع قوله : **وأنت حل بهذا البلد** . فانه ــ مع ما فيه من تقريع المستحلين لحرمته صلى الله عليه وسلم ــ يشتمل على بيان أن ما يصيبه من ذلك فهو من شأن الانسان ، وقد قدر على كل مولود منه . وفيه من تسليته صلى الله عليه وسلم عن ذلك الايذاء ماهو ظاهر . ثم أنه جمع بين البلد المعظم والوالد والولد ــ مع الاعتراض بتلك الجملة ــ ليشير الى أن مكة على مابها من عمل أهلها ستلد من الامر العظيم مايكون أكليلا لمجد النوع الانسانى ، وهو دين الاسلام الذى جاء به عليه الصلاة والسلام ، وأن العناء الذى يلاقيه من اختصه الله بوحيه انما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده ، والمولود فى بلوغ الغاية من سير نموه . وفيه من الوعد باتمام نوره مافيه .

ربما تقول : ان كون الانسان مخلوقا فى كبد وتعب أمر مشهود وشىء معروف معهود ، فما الحاجة الى تأكيد الاخبار به ؟ فنقول لك فى الجواب : أن هذا الخبر انما ورد لتسلية الناصب وحمله على الصبر ــ كما يدل عليه قوله بعد ذلك : **وتواصوا بالصبر** ــ وتنبيه المغرور الجاهل .

اما الأول ، فانه اذا غلبه التعب ، وقهرته المشقة فى القصد الذى وجه عزيمته اليه ، احاطت به الآلام فيتمثل له بين عينيه شخص من شقائه يخيل له ــ وهو فى حمى الضجر ــ أن هذا العدو يطارده وحده ، فيتمنى أن يكون له حظ غيره ممن سبقه أو ممن هم معه . فهو ــ على هذه الحالة ــ فى أشد الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الانسان فى أى فرد من أفراده خلق فى كبد . وانما يتفاوت الناس فيما ينصبون له .

وطعم الموت فى شىء حقير كطعم الموت فى شىء عظيم

وأما الثانى ، فهو الذى يشعر بقوة فى بدنه يستطيع أن يصارع بها الاقران ، ويقارع بها الانداد ، أو يحس بعزة فى سلطانه ورفعة فى مكانه وبسطة فى جاهه ، أو ينظر الى مالديه من وفره المال وغزارة الغنى ، فيشمخ بأنفه ، ويظن أنه واحد فى صنفه ، وان الناس من دونه ليسوا منه الا كما يكون العابد من معبوده : فكبيرهم يجب عنده أن يستذل ، وصغيرهم يستعبد ويسترذل . ويخيل له ــ فى حاله هذه ــ انه أعلى من أن تتناوله يد القدر ، أو تدنو منه غادية الدهر .

فهذا المفتون بقوته ، أو السكران بسلطنه ، أو المأخوذ بثروته ، فى أشد مايكون من الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الانسان خلق فى كبد . فاذا رجع الى نفسه ورأى انه فى عناء من تصريف قواه فى عمله ، بل وفى أكله وشربه وحماية اهله فى سربه ، تمثلت له الحقيقة من ضعفه ، ورجع الى الحق اذا ذكر به من أهله .

ولما كان هذا القسم الأخير ــ وهو قسم المفتونين بما اصابوا من النعم ــ هو الاجدر بأن يقصد بالخطاب ، ويعنى بالتذكير ، قال الله عقب الخبر : **(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد)** . اى أيظن ــ مع ماهو فيه من العناء من مبلاده الى ساعة عناده ــ انه قد

أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ

بلغ من القوة أو العزة أو المنعة الى حيث لا يقدر عليه . فالضمير فى (**أيحسب**) عائد على الانسان باعتبار تحققه فى بعض افراده من هذا الصنف الذى ذكرناه . ماأجهله لو ظن ذلك ! فان الذى نشأ فى وجوده ضعيفا ، يحتاج فى أصغر امره الى المعين ، وتملك ناصيته تلك اليد التى أنشأته ، وتأخذه تلك القدرة التى أبدعته . (**يقول**) : أى الانسان (**أهلكت**) أى انفقت (**مالا لبدا**) : اى كثيرا . اعاد الضمير على الانسان باعتبار صنف آخر من افراده ، وهم أولئك الاغنياء البخلاء المراءون الذين يكنزون اموالهم ولا ينفقونها الا على شهواتهم وفى توفير لذاتهم ، ثم اذا حملوا على عمل من اعمال الخير قالوا اننا ننفق كثيرا من اموالنا فى أعمال غير التى تدعوننا اليها . افيحسب هؤلاء الأغنياء ان لم يرهم احد ، وان سرائرهم تخفى على المشرف فى ضمائرهم ؟ (**الم نجعل له عينين**) فهو اذا أبصر فانما يبصر بنعمتنا عليه فيهما (**ولسانا وشفتين**) فهو اذا تكلم فانما يتكلم بما وهبناه من لدنا ؟ حتى قوله الذى يرائى فيه اذ يقول أهلكت مالا لبدا . (**وهديناه النجدين**) . النجد مشهور فى الطريق المرتفعة . والمراد بهما هنا طريقا الخير والشر . وانما سماهما نجدين ليشير الى ان فى كل منهما وعورة وصعوبة مسلك — فليس الشر باهون من الخير كما يظن — والى انهما واضحان جليان لايخفى واحد منهما على سالك ، اى اودعنا فى فطرته التمييز بين الخير والشر ، واقمنا له من وجدانه وعقله أعلاما تدله عليهما ، ثم وهبناه الاختيار .. فاليه ان يختار اى الطريقين شاء .

وقد ورد فى الحديث مايشير الى ماترمى اليه هذه الآية من أن الله تعالى لم يجعل الشر احب الى أنفسنا من الخير — كما يزعمه بعض اهل النظر فى الأخلاق الانسانية — فالذى وهب الانسان هذه الآلات ، واودع باطنه تلك القوى ، لايمكن للانسان أن يفلت من قدرته ، ولا يجوز أن يخفى عليه شىء من سريرته .

اقتحم الامر : دخل فيه بشدة . **والعقبة** : الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها ، لكن الله تعالى فسر لنا المراد بالعقبة هنا حيث قال : (**وما أدريك ماالعقبة فك رقبة الخ**) فأراد منها الطريق التى يصعب سلوكها الى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة . وانما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ، ومغالبة الشهوة لسالكها . **وفك الرقبة** : عتقها ، أو المعاونة عليه . وقد ورد فى فضل العتق مابلغ معناه حد التواتر ، فضلا عما ورد فى الكتاب ، وهو يرشد الى ميل الاسلام الى الحرية وجفوته للأسر والعبودية . **والمسغبة** : المجاعة ، والسغب : هو الجوع . وفسره ابو حيان بالجوع العام . **والمقربة** : القرابة فى النسب . يقال هو ذو قرابتى وذو مقربتى ، بمعنى أن نسبى يتصل بنسبه . **والمسكين ذو المتربة** : هو الفقير الشديد الفقر اللاصق بالتراب . يقال : ترب ، اى افتقر . ويقال : فقر مدقع أو فقير مدقع ، بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهى التراب . **والذين تواصوا بالصبر** ، هم الصابرون على مايصيبهم وعما يفوتهم فى سبيل الله ،

إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ

الذين — مع صبرهم — ينصح بعضهم بعضا بالتزام الصبر ، فهم صابرون واعوان لاخوانهم على الصبر . **والمرحمة** : وجدان الرحمة بالناس مع ظهور اثر ذلك فى مسامحتهم وفى معاونة المحتاجين منهم .

بعد أن أخبر الله جل شانه بأن الانسان قد خلق فى كبد ، لام الجاهل المغرور على استغراقه فى غروره حتى كانه يظن أن لن يقدر عليه أحد ، مع ان ماهو فيه من المكابدة كان كافيا لايقاظه من غفلته واعترافه بعجزه . وبعد أن وبخ المرائين الذين ينفقون أموالهم طلبا للشهرة وحبا فى الأحدوثة ، وقرعهم على افتخارهم بما يصنعون مع خلو بواطنهم من حسن النية — أراد ان يبين لهؤلاء وأولئك أنه سبحانه مصدر لأفضل مايتمتعون به من البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر والنفع والضر ، فهو مهدى ذلك اليهم ، وهو القادر على سلبه منهم . وما أعجز من يفقد بصره ونطقه وعقله !

ثم أن واهب هذه القوى لاتخفى عليه أعمالها ، وهو الحافظ لكونها . فمحاولة الظهور بخلاف ماتكنه السرائر ضرب من الغفلة والعبث بالنفس على الحقيقة . ثم هو قد ادرج فى ذلك البيان وجه المنة بهذه النعمة . وكان على الانسان — بعد ماوهب التمييز بين الحسن والقبيح والخير والشر ، وبعد مامنح من تلك القوى التى سبق ذكرها — أن يشكر تلك النعم ، ويختار طريق الخير ، ويرجح سبيل السعادة ، فيصعد فيهما الى حيث يلقى غايتها . وكان عليه أن يندفع فى تلك السبيل ، ويهجم عليها بكل قوته ، وذلك بأن يفيض على الناس بشىء مما أفاض الله عليه . وأفضل ذلك أن يعين على تحرير الأرقاء من البشر ، أو يواسى الأيتام من اقاربه فى أيام العوز وعزة الطعام ، أو يطعم المساكين الذين لاوسيلة لهم الى كسب مايقيمون به حياتهم من الضعفاء والعجزة ، أو لبيان أنواع الخير . والقصد انما هو الى التحلى بالخلق الذى يصدر عنه أحد هذه الأفعال . ثم مع ذلك يكون صحيح الايمان صادق السر مع ربه ، صبورا على أذى الناس وما يصيبه من المكاره فى سبيل الدعوة الى الحق أو المحافظة عليه ، رحيما بعباد الله ، مواسيا لهم ، مساعدا لهم عند نزول الشدائد بهم ، ثم يكون مع هذا حريصا على أن يكونوا مثله فى الصبر والمرحمة فيحملهم على ذلك بقوله وفعله .

هذه هى الطريقة التى كان من حق العقل ان يرشد اليها ، لكن الانسان قد خدعه غروره ، فلم يقتحم هذه العقبة ، كما قال سبحانه : **فلا اقتحم العقبة** الخ ، بل اقتحم تلك العقبة الاخرى : عقبة الحرص على المال ، والتكبر بالقوة والثروة . وهى عند أهل الحق أوعر العقبتين ، فهى مثار الحسد ومزدحم الخصام مع مقاومة العقل الصحيح والذوق السليم . غير أن الحيوانية وحضور لذاتها هى التى تسهل سلوكها مع مافيها من الهلكة .

قال المفسرون أن قوله تعالى (**أيحسب أن لن يقدر عليه أحد**) نزل فى أبى الأشد اسيد بن كلدة الجمحى ، وكان مغترا بقوته البدنية . كما يقولون ان قوله (**يقول أهلكت مالا لبدا**) جاء فى الحارث بن نوفل ، وكان يقول : أهلكت مالا لبدا فى الكفارات منذ أطعت محمدا .

وقد يجوز أن يكون فى الآيات اشارة الى تلك الحوادث الحاضرة وقت النزول غير أن معناها على الحقيقة عام كما رأيت .

مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

أما ماقيل من أن (لا) اذا دخلت على الماضى وجب تكرارها ولم تكرر فى الآية ، فذلك لايلتفت اليه ، لان الكتاب نفسه حجة فى الفصاحة . وقد ورد فى كلامهم عدم تكرارها . وقال ابو مسلم — للتخلص من مخالفة القاعدة فى تكرار لا — : ان (لا) فى الآية مخفف الا التى للتخصيص،كانه قيل فهلا اقتحم العقبة ، ولكن ورد عليه‌انه لم يعرف تخفيف الا التحضيضية أيضا . فالحق الرجوع الى ماقلنا .

وأما التعبير بالماضى فى **اقتحم وفى ثم كان** ، فلأن الكلام فيما وقع مـــن نوع الانســـان منذ نشأته ، وأن الحيوانية غلبته فصرفته الى سبيل غير التى كان يقوده اليها عقله ، الا من هدى الله ، وهم الذين ذكرهم بقوله : **(ثم كان من الذين آمنوا الخ)** . أى ان الانسان — فى ذلك الصنف الأغلب من أفراده — لم يكن من الذين آمنـوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . **(أولئك أصحاب الميمنة)** الاشارة فى أولئك الى الذين آمنوا وتواصوا الخ . ومعنى اصحابة الميمنة انهم من أهل اليمين . وأهل اليمين — فى لسان الدين الاسلامى — عنوان السعداء .

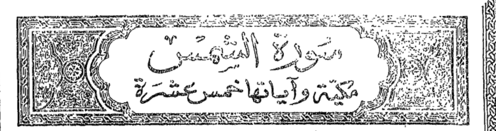
(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) الذين تمر عليهم آيات الله — سواء كانت كونية : كالآيات التى ذكرت فى هذه السورة من خلقة الانسان فى كبد ، ومـن تمتعه بقواه الظاهرة والباطنة ، او سائر الآيات الأخر فى خلق الانسان وما بين يديه من سائر الموجودات ، ولا يعتبرون بها ، أم كانت آيات قولية‌واردة على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام : كالقرآن الذى هو آية الآيات للدين الاسلامى — تمر عليهم هذه الآيات ولا يرتقون من النظر فيها الى معرفة الصراط الذى يجب أن يستقيموا عليه فى الاعتقاد والعمل ... هؤلاء أصحاب المشأمة : اى من أهـل الشمال . وأهـل الشمال — فى لسان الدين — هم الأشقياء .

فكانه قال : والذين كفروا بآياتنا هم الأشقياء . وقد تكون الميمنـة والمشأمة مـن اليمن والشؤم ، فأولئك ميامين على أنفسهم ، وهؤلاء مشائيم .

(عليهم نار مؤصدة) : اى مطبقة عليهم ، من آصدت الباب اذا أغلقته فى لغـة قريش . وقرأ بعض السبعة موصده بدون همز ، من اوصدته . واغلاق النار عليهم عبارة عن تخليدهم فيها ، وسد سبيل الخلاص منها .. وهؤلاء الذين وجه اليهم هذا الوعيد هم الذين ذكر حالهم فى قوله : **فلا اقتحم العقبة الخ** ، فان مانسبه اليهم فى تلك الآيات السابقة انما هو عارض يلحق الكفر بآيات الله الباهرة وآية من آياته (١)

---

(١) آية من آياته : أى علامة من علامات الكفر .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾

(والشمس وضحاها) . ضحى الشمس : ضوؤها . يقسم بالشمس نفسها ، سواء ظهرت أو غابت ، لانها خلق عظيم ، ويقسم بضوئهالانه مبعث الحياة ، ومجلى الهداية في عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حيا أو تبصر ناميا ، أو هل كنت تجد نفسك لولا ضياء الشمس جل مبدعة ؟ **(والقمر اذا تلاها)** يقسم بالقمر اذا تلا الشمس ، وذلك في الليالى البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر الى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه ، أو قربه من الامتلاء ، اذ يضيء الليل كله من غروب الشمس الى الفجر . وهو قسم فى الحقيقة بالضياء فى طور آخر من أطواره ، وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

وقال الحسن والفراء : تلاها تبعها فى كل وقت ، لانه يستضيء منها ، فهو يتلوها لذلك . ولكن التقييد بقوله : **(اذا تلاها)** ، يدل على أن القسم متعلق بالقمر وهو فى حالة خاصة ، فهو مقسم به على طور خاص ، وهو ماذكرناه . ثم عاد الى القسم بالضياء تحت عنوان آخر فقال : **(والنهار اذا جلاها)** . أى والنهار اذا جلى الشمس ، أى أظهرها . ولا يخفى ان النهار هو وقت انتشار ضوء الشمس من وقت شروقها أو قربه الى وقت غروبها . . . كل ذلك للاشارة الى تعظيم امر الضياء ، واعظام قدر النعمة فيه ، والفات اذهاننا الى انه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وقوله : **(اذا جلاها)** بيان للحالة التى ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة ، والآية الظاهرة ، وهى حالة الصحو .

أما يوم الغيم الذى لاتظهر فيه الشمس ، فحاله معك اشبه بحال الليل الذى يقسم به فى قوله : **(والليل اذا يغشاها)** .

بعد أن أقسم بالضياء تحت أسماء مختلفة ، أقسم بالليل فى حالة واحدة ، وهى حالة مايغشى الشمس ، أى يعرض دون ضوئها فيحجبه عن الابصار ، وذلك فى ليالى الظلمة الحالكة التى لا اثر لضوء الشمس فيها : لا مباشرة كما فى النهار ، ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها . وهذه الليالى هى قليلة كما لايخفى ، فان اغلب ليالى الشهر لاتخلو من ضوء القمر فى أول الليل او فى آخره او فى جميعه وهو ضوء مستفاد من الشمس ، وانما هى ليلة أو ليلتان وبعض ليال أخر . ولقلة أوقات الظلمة عبر فى جانبها بالمضارع المفيد للحاق الشيء وعروضه متأخرا عما هو أصل فى نفسه . أما النهار فانه يجلى الشمس دائما من أوله الى آخره ، وذلك شأن له فى ذاته ، ولا ينفك

عنه الا لعارض كالغيم أو الكسوف قليل العروض ، ولهذا عبر فى جانبه بالماضى المفيد لوقوع المعنى من فاعله بدون افادة انه مما ينفك عنه .

وأقسم بالظلمة هنا ــ كما اقسم بها فى سورة والفجر ــ لانه أمر يهولك ويدخل عليك فيه من انقباض النفس عن الحركة ، واضطرارها للوقوف عن العمل ، وركونها الى السكون ، مالا تجد عنه مفرا . فهذا سلطان من الخوف مبهم لاتحيط بأسبابه ولا بتفصيل أطواره ، فهو أشبه بالجلال الالهى يأخذك من جميع اطرافك وأنت لاتدرى من أين أخذك ! وهو مظهر من مظاهره . ثم فى هذا السكون من راحة الجسم والعقل وتعويض مافقداه بالتعب بياض النهار مالا تحصى فوائده ، فلذلك أقسم الله به ليوجه نظرنا الى مافيه من ذلك كله .

(والسماء وما بناها) . السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك . وأنت انما تتصور ــ عند سماعك لفظ السماء ــ هذا الكون الذى فوقك : فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها وتتحرك فى مداراتها ، هذا هو السماء . وقد بناه الله : أى رفعه ، وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك ، وشد هذه الكواكب بعضها الى بعض برباط الجاذبية العامة ، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به .

والذى بنى السماء هو الله جل شأنه . غير انه لما كان الخطاب موجها الى قوم لايعرفون الله بصفاته الجليلة ، وكان مرمى الخطاب أن ينظروا فى هذا الكون العظيم نظرة من يطلب للأثر مؤثرا ما ، وللمسبب سببا ما ، لينتقلوا من ذلك الى معرفة الله تعالى ــ عبر عن نفسه ، جل شأنه ، بما التى هى الغاية فى الابهام . على أن من وما بالنسبة الى الله سواء ، لان من للعاقل الذى يعرفه المتخاطبون ، وما لغير العاقل كذلك . والله جل شأنه لايطلق عليه العاقل ولا غير العاقل بذلك المعنى ، وانما هو عالم يعلو تصوره على منال العقول ، فيعبر عنه بكل لفظ يفيد الذات الموجودة مع مزاعاة التنزيه . **(وطحا الارض)** : وطاها وجعلها فراشا ، كما قال : **الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء** . وليس فى ذلك دليل على أن الارض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين . والذى طحاها هو الله .

بعد أن أقسم الله بالضياء والظلمة ، اقسم بالسماء وما فيها من الكواكب جملة ، وبالذى بناها وجعلها مصدرا للضياء لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب من أجزاء ذلك البناء ، وبالأرض والذى جعلها لنا فراشا وجعلها مصدرا للظلمة ، فانها هى التى يحجب بعض اجزائها ضوء الشمس عن البعض الآخر فيظهر الظلام فى هذا الآخر .

ولما لم يذكر فى جانب السماء سوى البناء ــ وهو ربط بعض أجرامها ببعض ــ ولم يذكر ايجاد كل جرم ؛ لأن هذا البناء الظاهر هو الذى تفهمه عقول المخاطبين ، وفيه منافعهم من انتشار الضياء وقيام أعلام الهداية ــ اقتصر فى جانب الأرض بذكر الطحو ، وهو التمهيد وفيه منافع الناس من سكنى الارض والانتفاع بما يوجد على ظهرها من نبات وحيوان !

بعد هذا اقسم بالنفس الانسانية والذى **(سواها)** : اى عدلها بأن ركب فيها قواها الباطنة والظاهرة ، وحدد لكل قوة وظيفة تؤديها ، والف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى ، لهذا فرع على التسوية قوله

فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ

(**فالهمها فجورها وتقواها**) . فان تمام التسوية أن وهبها العقل الذى يميز بين الخير والشر . والفجور : اتيان ماينتهى بالنفس الى الخسران والهلكة . والتقوى : اتيان مايحفظ النفس من سوء العاقبة .

والأعمال التى بها تشقى النفوس معروفة لذوى العقول كالأعمال التى بها تسعد . فهذه الآية فى معناها كآية **وهديناه النجدين** . فقد منح الله النفوس قوة التمييز ، كما وهبها قوة الاختيار : فمن رجح طريق الخير افلح ، ومن رجح طريق الشر خاب . ولهذا استطرد عقب ذكر الالهام بقوله : (**قد أفلح من زكاها**) : أى قد ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها حتى بلغ بها ماهى مستعدة له من كمال القوى العقلية والعملية ، وأثمرت بذلك ثمراتها الطيبة له ولمن حوله من الناس . (**وقد خاب من دساها**) . التدسية : النقص والاخفاء . ومن سلك سبيل الشر ، وطاوع داعى الشهوة البهيمية ، فقد فعل مايفعل سائر البهائم ، فلم يظهر عمل القوة العاقلة التى خص بها الانسان ، فاندرج صاحب تلك النفس فى عداد سائر الحيوان دون الانسان ، وبذلك يختفى من بين العقلاء ، ويذهب امتيازه الذى كرم الله به نوعه . وهل تكون خيبة أعظم ، وخسران اكبر من هذا المسخ الذى يجلبه الشخص على نفسه بسوء عمله ؟ فما أجمل هذا التعبير ! وما احواه للمعانى الرفيعة ! ثم هل التفت الى مافى التزكية مما يناسب النور والسماء ؟ ! وما فى التدسية مما يلائم الظلمة والأرض ؟ ! وجواب القسم محذوف ــ مثله فى سورة البروج ــ وأقام الدليل عليه بما جاء فى قوله : (**كذبت ثمود بطغواها**) . وهذا من ضروب الايجاز التى اختص بها القرآن دون سائر الكلام . وسنذكر ذلك الجواب بعد تفسير الدليل عليه .

ثمود قوم من العرب البائدة ، بعث الله اليهم نبيا اسمه صالح عليه السلام ، ولما سأله قومه آية على صدقه جعل الله آيته فى ناقته . وقد جاء فى كتابنا العزيز أن هذه الآية هى أن جعل لها شربا تختص به ، ولهم شرب يختصون به فى يوم معلوم ، وأن تأكل فى أرض الله ولا يمسها أحد بسوء ، فاذا مسوها بسوء ، أخذهم العذاب . فالآية ــ فى الحقيقة ــ هى أخذهم بالعذاب اذا مسوها بالسوء .

قال فى سورة هود (**وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى ارض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب**) . وقال فى سورة الشعراء : (**قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم**) . وكان على القوم جميعا أن يرعوا أمر الله فى هذه الناقة فلا يدعوا أحدا يصيبها بالأذى . ولكنهم طغوا وخرجوا عما يرشد اليه العقل الصحيح ، فكذبوا صالحا عليه السلام . فهذا قوله : (**كذبت ثمود بطغواها**) : أى كذبت بنبيها بسبب طغيانها وبغيها ، ثم انبعث واحد من هذه القبيلة ــ سماه المفسرون ، ولا حاجة بنا الى تسميته لأنه يجب علينا أن نقف عندما وقف عنده الكتاب ــ وكان ذلك المنبعث أشقى القبيلة لأنه تحرش للشر من دونهم ، وانطلق ينحر الناقة . فهذا قوله تعالى (**اذ انبعث اشقاها**) . أى أن التكذيب كان عند ذلك ، أى كان ذلك علامة التكذيب الظاهرة ، فانه كذب صالحا

أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

فى وعيده بالعذاب ، وانبعث يهلك الناقة . ولما سكت القوم وتركوه يفعل ، كانوا مكذبين مثله (**فقال لهم رسول الله**) صالح : احذروا واتقوا (**ناقة الله**) التى جعلها آية نبيه . (**وسقياها**) : أى شربها الذى اختصها الله به فى يومها ، فلا تؤذوا الناقة ، ولا تتعدوا عليها فى شربها ويوم شربها (**فكذبوه**) فيما جاء به ، ولم يسمع ذلك التقى ذلك التحذير ، ولم يصغ الى الانذار (**فعقروها**) . العاقر لها ذلك المعتدى الذى لقبه بأشقاها . ولكنهم لما سكتوا عنه ، ولم يمنعوه ، ورضوا بفعله، سبب العقر اليهم جميعا ، فلذلك عمتهم النقمة (**فدمدم عليهم ربهم بذنبهم**) : أى أطبق عليهم العذاب . وقال بعضهم : الدمدمة ، اهلاك فى استئصال . وقيل : الدمدمة التدمير . (**فسواها**) أى سوى القبيلة ـ وهى ثمود ـ فى العقوبة ، فلم يفلت منها أحد . أو المعنى سواها بالأرض ، أى دمر مساكنها على ساكنيها . (**ولا يخاف عقباها**) أى أن الله فى عزته وجبروته أهلك هؤلاء المكذبين ولا يخاف عاقبة أهلاكهم لأنه لاهو ظالم فيخيفه الحق ، ولا هو ضعيف فيتناوله المكروه ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فى هذا الذى سمعته فى خبر ثمود مايدلك على جواب القسم ، كأنه قال (**والشمس وضحاها**) الخ : لينزلن بالمكذبين منكم مثل مانزل بثمود ، اذ كذبت نبيها فأصابها العذاب ، فلستم بأشد بأسا منها ، ولا شقيكم أشد بطشا من شقيها .

ولقد صدق الله وعده فأهلك من أهلك منهم فى واقعة بدر بأيدى المؤمنين ، ثم لم يزل العذاب والخزى ينزل بالمكذبين من أهل مكة ومن حولهم ، بالقتل تارة ، والابعاد أخرى ، حتى لم يبق فى جزيرة العرب مكذب . ولو استمرت الدعوة على ماكانت عليه من نشأتها أيام الصحابة رضى الله عنهم ، لم يبق فى الأرض مكذب ـ والله أعلم .



سورة الليل
مكية وآياتها واحدة وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ

(**والليل اذا يغشى**) يبتدىء فى هذه السورة بأن يقسم بالليل ، وهو الظلمة ، لأنها

ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ

الانسب بما ختمت به السورة السابقة من الدمدمة وأطباق العذاب ، ولأنها أليق بما عليه سعى اغلب الناس الذى سيذكر فى قوله : **ان سعيكم لشتى** . والتعبير فى الغشيان بالمضارع لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور الذى هو أكمل مظاهر الوجود ، حتى عبر به عن الوجود نفسه . أما (**تجلى النهار**) فهو لازم له ، لهذا عبر عنه بالماضى ، كما سبق بيانه . (**وما خلق الذكر والأنثى**) . الذى خلق الذكر والأنثى هو الله سبحانه ، وعبر عنه بما الفاتا لنظر المخاطبين اليه من حيث هو سبب موجود فقط ، حتى لايبادر منكر الالوهية الى الانصراف عن الخطاب بمجرد الشعور بأن المتكلم يذكر له من صفات الله العلية مالا يعتقده ــ كما أشرنا اليه فى تفسير السورة السابقة ــ وانما اقسم بذاته بهذا العنوان لما فيه من الاشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، والاشارة الى الابداع فى الصنع . اذ لايعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى فى الحيوان يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لاشعور لها بما تفعل كما يزعم بعض الجاحدين ، فان الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة الى كون الذكر أو كون الأنثى . فتكوين الولد من عناصر واحدة ــ تارة ذكرا وتارة أنثى ــ دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع !

(**ان سعيكم لشتى**) . هذا هو جواب القسم . يؤكد بالقسم السابق ماتضمنه هذا الخبر من أن سعى الناس مختلف مفترق فى صفته ونوعه . فمنه الحسن ، ومنه القبيح ، ومنه المفيد ، ومنه الضار ، ومنه ماينقيه الاخلاص ، ومنه مايعكره الرياء وطلب المكافأة عليه من الناس ولو بحسن الثناء على فاعله ، ومنه الاعطاء ، ومنه المنع ، ومنه التكذيب بالحسنى ، ومنه التصديق بها ، ومنه التقوى ، ومنه الفجور . ومفترق فى عاقبته : فمنه مايشقى به الساعى ، ومنه مايسعد به . ثم فصل ذلك التفرق فى النوع والعاقبة بقوله : (**فأما من أعطى الخ**) .

فان خطر لك سؤال : كيف نقسم سبحانه على أن سعى الناس شىء مختلف ، مع ان هذه القضية بديهية ، لان جميع من يفهم الخطاب يعلم أن مساعى الناس وأعمالهم مختلفة متنوعة الى هذه الانواع التى ذكرت ، ومثل هذا الخبر البديهى لايحتاج الى تأكيد ، بل الاخبار به غير مفيد ! .. فانى اجيبك أولا بأن المقسم عليه هو الاجمال والتفصيل معا . ولاشك فى أن الوعد على الاعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى بالتيسير لليسرى ، والوعيد على البخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى بالتيسير للعسرى ــ يحتاج الى تأكيد ، فيكون التأكيد لمجموع الأخبار لا للأول منها فقط . وثانيا بما أشرنا اليه فى بيان معنى شتى من ان الافتراق واقع فى أنواع الأفعال وصفاتها، وواقع فى عاقبتها وما يعود منها على فاعلها .

ولما كان فعلة الشر انما اختاروا طريقه لاعتقادهم أن اتيانه أفضل عائدة عليهم من تجنبه ، وانه لايفضى بهم الى مايكرهون ، كانوا كأنهم اعتقدوا بوحدة العاقبة فى سعيهم وسعى مخالفيهم من أهل الخير ، فاحتاج الأمر الى ان يؤكد لهم الخبر بأن السعى مختلف فى الغاية والعاقبة كما هو مختلف فى الصفة والنوع . وهذا هو الذى يشعر به وصل التفصيل بالفاء ، فان التفصيل سيق لبيان عاقبة كل قبيل من السعى ، فوصله بالفاء يفيد أنه كان شيئا داخلا فيما سبقه .

ثم كيف تزعم بداهة الخبر باختلاف الاعمال فى الصفة ، مع أن البخيل

مثلا انما يمسك الفضل من ماله ولا ينفقه فى أعمال البر ، وهو يعتقد أنه لم يمنع حقا ، وانه وفى حق الحق ، لأن فى توفير المال صون النفس عن الحاجة وتمتيعها بالكرامة وعلو المنزلة ، وهو أمر مطلوب لأهل العقل ، فهو ـ باعتقاده هذا ـ قد أدخل عمله فى جنس أعمال المقتصدين وأهل الوقار والكرامة ؟ . . وكذلك الحاسد مثلا يرى ما يصنعه فى طلب الوسائل لازالة نعمة محسوده من باب السعى فى ازالة المنكر والدفاع عن حق النفس أو للعامة . وهو بهذه العقيدة يدرج عمله فى أعمال المجاهدين فى انكار المنكر وحمل الناس على المعروف .

وهكذا يمكنك أن تخلص بنظرك فى باطن كل مقترف لرذيلة فتجده يمثلها بمثال الفضيلة ، فقد اختلط عليه وصف مساعيه بوصف مساعى غيره . وأنت ترى أغلب الناس على هذه الحال ، فكانوا فى أشد الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الاعمال والمساعى شتى مختلفة كل الاختلاف ، أو منزلين منزلة من يحتاج الى ذلك لتلبيسهم على أنفسهم .

(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) . أعطى المال لسد حاجة المسكين ، أو اغاثة المعدم الكريم ، أو للاعانة على النفع العميم . **(واتقى)** أى خاف من الشر وايصال الأذى الى الناس ، فحمى نفسه من ذلك ، أو كره الفواحش ماظهر منها وما بطن ، فوقى نفسه من ارتكاب شىء منها . **(وصدق بالحسنى)** : أى بالخصلة التى هى أحسن من غيرها . أى صدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ، وبالفرق بين الفضيلة والرذيلة وبين العمل الطيب والخبيث ، واعتقد بأن هناك خيرا وشرا ، وان من مزايا الانسان أن يفعل الخير ويتجنب الشر . فان التصديق بذلك هو مصدر الصالحات بلا ريب ، وهو مقدم فى الترتيب الوجودى على بذل المال فى سبيل الحق والرحمة وعلى اتقاء المفاسد والخطايا ، ولكنه قدم هذين فى الذكر عليه للاهتمام بهما ، ولانهما الدليلان على تحققه حقيقة ، ولانهما ثمرته الدانية .

وكثير من الناس يظن نفسه مصدقا بفضل الخير على الشر ، وأن الخير أولى بالانسان . ولكن هذا التصديق قد يكون سرابا فى النفس خيله الوهم وصوره التقليد الأعمى ، ثم لا يصدر عنه الأثر الذى يليق به ، بل تجد صاحبه ردىء الملكة ، قسىّ القلب ، بعيدا عن الحق ، قريبا من الباطل ، بخيلا فى الخير ، مسرفا فى الشر . ولا تجد له مع ذلك كلاما الا فى الفضيلة وحسن جزائها والرذيلة وسوء عاقبتها . فهو ـ كما يقول بعض الادباء ـ « يحسن وصف الفضيلة وحروفها تئن من لوكها بفمه ووخزها بسن قلمه » .

فالتصديق بالحسنى لا يعد تصديقا ، ولا ينظر الله اليه ، ولا يجود كرمه بالوعد عليه الا اذا صدر عنه أثره الذى لا ينفك عنه : وهو بذل المال واتقاء مفاسد الأعمال . ومن فعل ذلك يسره الله لليسرى : أى هيأه لأيسر الخطتين وأسهلهما فى أصل الفطرة ، وهى خطة تكميل النفس وانمائها بالكمال الى ان تبلغ المقام الذى تجد فيه سعادتها . وانما كانت هذه الخطة هى اليسرى والأسهل لتوفر الدواعى اليها وكثرة البواعث عليها ، فان الانسان انما يمتاز عن غيره من سائر الحيوان الأعجم بالتفكير فى الأعمال ، وتقدير ثمراتها ، ووزن نتائجها .

وحاجة كل انسان الى أن يعينه غيره ظاهرة كذلك بسذاجة الفطرة ، فاحساسه بحاجة غيره واندفاعه الى سدها ، مما تنبه اليه الفطرة ، فأولى ان تنبهه الفطرة الى

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝

ان لايلحق الأذى بمن لم يؤذه ، وان لايأتى من القبائح شيئا لظهور ضررها بالناس .. فهو مدفوع الى ذلك كله بأصل فطرته الانسانية ، لكنه يحتاج — فى الاستقامة على هذه الطريقة — الى صحة عقل ينظر بنفسه فيما يختار ، ويميز بنظره فيما يسمع بين ماينبغى أن يتبع وما يجب أن يدفع . فاذا حصل الشخص ذلك وظهرت آثاره فى أعماله ، سهل الله له ماهو مسوق اليه بأصل فطرته ، وهو تكميل نفسه لتسعد بمزاياها فى الدنيا والآخرة ، وذلك لجرى سنة الله فى خلقه بأن كل عمل من أعمال العاقل يفتح له باب بصيرة فى نوع ذلك العمل ، ويكون مبدأ عادة للنفس تأنس بملابستها . ففاعل الخير للخير يذوق لذته ، ويجد حلاوته ، فتزيد فيه رغبته وتشتد اليه عزيمته ، وهذا هو التيسير الالهى !

(وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) . أى أن من أمسك ماله أو انفقه فى شهواته ولذاته ولم ينفقه فى الطرق التى بيناها ، فانه يعد باخلا .. على خلاف مايعتقد كثير من الناس من أن البخيل هو الذى لايتمتع بماله فى التلذذ بمأكله ومشربه وملبسه ، فهذا بمجرده لايعد بخلا : لا شرعا ولا فى اصطلاح علماء تهذيب الاخلاق . وانما البخيل هو الذى لايبذل ماله فى سبيل الخير — خصت أو عمت — وأن انفق جميع أمواله فى لذاته ولذات أمثاله ، أو هو الذى لايعطى الحق فيما يطالبه به الحق . ومنفعة العامة ، والمرحمة للخاصة من أعظم انواع الحق **(واستغنى)** أى عد نفسه غنيا عن الناس بما لديه من المال ، فلا يرى له حاجة اليهم ، فلذلك لايجد المرحمة فى قلبه لضعفائهم فيبذل ماله لدفع ضرورتهم ، ولا يحس بأنه عضو من جماعتهم فينفق من ماله فيما يعود بالمنفعة عليهم ، ولايبالى بما يصيبهم من فساد أو سلامة فهو لايتقى شرا بفعله فيهم ، فيكون شريرا فاحشا . فمعنى **استغنى** يقابل معنى **اتقى** فى جميع مشتملاته .

وأمثال هؤلاء المستغنين — الذين لايحسون بوجود الناس الا عند حاجتهم اليهم — كثيرون فيما بيننا ، بل هم الاكثر ، بل لاتكاد تجد بين المسلمين سواهم . فان الكلمة العامة فى افواه جميعهم « نحن مالنا » « وانا مالى » و « دع الخلق للخالق » ونحو ذلك مما يطول سرده . **(وكذب بالحسنى)** أى كذب بثبوت الفضيلة ، وبأنها أصل من أصول الانسانية ، وركن من اركان وجودها ، فلا يعرف الا مايلذ له ويمتعه فى حاضره ، ولا يبالى بما عدا ذلك ... ضر غيره أو نفعه . وهذا التكذيب هو الأصل فى البخل والاستغناء بمعناهما السابق ، لان من صدق بالحسنى — ذلك الضرب من التصديق الذى سبق بيانه — لايمكن أن يبخل ولا أن يستغنى بالمعنى الذى سبق ذكره .

ويدخل فى المكذبين بالحسنى اولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم ولكن لايظهر اثرها فى أعمالهم ، فهم مكذبون رغم أنوفهم ، والله يعدهم مكذبين مهما لبسوا على انفسهم . وهذا هو السر فى تقديم ذكر البخل والاستغناء على التكذيب بالحسنى ، لانهما أثرها وثمرتها ، فاذا ظهرا فى عمل الانسان ثبت تكذيبه بالحسنى . ومن كانت حاله هذه فقد مرنت نفسه على الشر ، وتعودت على الخبث ، واستشرى فيها الفساد ، فيسهل الله له — على حسب ماجرت به سنته سبحانه — تلك الخطة العسرى . وهى الخطة التى يحط فيها الانسان من نفسه ، ويغض من حقها ، وينزل بها الى حضيض البهيمية ، ويغمسها فى أوحال الخطيئة . وهى أعسر الخطتين على الانسان لأنه لايجد

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾
فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى

معينا عليها لا من فطرته ولا من الناس .

ولو اتفق ان جماعة او قوما فسدت اخلاقهم جميعا ، ووجد كل منهم فيمن حولهمن يعينه على الشر ، سلط الله عليهم من غيرهم من ينزل العقاب بهم جميعـــا ، فيسلبهم ما آتاهم الله من نعمة ، ويضعهم تحت نير المذلة ، كما نشاهده ويقع تحت نظرنا كل يوم . فلا ريب أن هذه الخطة هي أعسر الخطتين ، ولكن كاسب الشر معان عليها لتعود نفسه على مقارفة ماهو منها بسبيل .

(وما يغنى عنه ماله اذا تردى) . ما استفهاميـــة : اى وماذا يفيـــده ماله اذا تردى وهلك ، سواء كان بالموت الذى يدركه عند أجله فهو يقبل على عذاب اليم ، أو تردى فى مغبات بخله وسيئات أعماله بان حل الانتقام به فى الحياة الدنيا ، فانه لايجـــد من الناس منجدا ولا من رحمة الله مغيثا .. فماذا يفيده ماله ؟

ولما كان هنا موضع أن يقول قائل : كيف يخلق الله الناس ويكلهم الى أهوائهم ، ثم يعـــاقبهم على ماتجرهم اليه ؟ أو أن يقول اذا كان الله هو واهب تلك القوى والآلات البدنية فكل ماكان من متناولهاوانساقت اليه فهى مسيرة اليه بمقتضىغريزتها ، فكيف يؤاخذ الله على فعل فاعل أطلق الله له الارادةفىعمله وأعطاه القدرة عليه ؟... لما كانذلك مما يقال فى جميع الأزمان ، قال الله : **(ان علينا للهدى)** . أى اننا خلقنـــا الانســـان وجعلنا من جوهر انسانيته العقل والاختيار ، والهمناه التمييز بالعقل بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، ثم بعثنا له من كملة أفراده الانبياء ، وشرعنا لهم الاحـكام ، وبينا لهم العقائد تعليما له وارشادا . فهذا هو مايقتضيه خلق الانسان من حيث هـــو انسان . ثم بعد ذلك هو مختار : فأما أن يسلك مسلك الخير فيسلم ويسعد ، وإما أن يذهب مذهب الشر فيعطب ويشقى .

ومن هذا نفهم معنى **علينا** ، فليس فيه أن ذلك واجب عليه كما يظنه بعض السفهاء ، بل معناه اننا حيث أردنا أن نخلق الانسان نوعا ممتازا عن سائر أنواع الحيوان ، كان لابد فى ارادتنا هذه أن نضع فى جوهره مايميزه وهو العقل ، وأن نضع له شريعة تعليمية حتى يعد بذلك نوعا ممتازا عن غيره من الانواع .

(وان لنـا للآخرة والأولى) : أى نحن المالـــكون الحيـــاة الدنيـــا ، وهى الأولى ، والحياة الآخرة . وانما قدم الآخرة فى الذكر ـــ مع أنها الآخرة فى الوجود ـــ ليبادر الى تأكيد وجودها .

واذا كان ملك الحياتين لله كان هديه هو الذى يجب اتباعه فيهما ، لان المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيه . فما مكنك منه بهداه ، وأرشدك اليه من ذلك فلا تحـد عنه . ولهذا المعنى تراه رتب علىالقضيتين **(ان علينا للهدى)** **(وان لنا للآخرة والأولى)**

قوله **(فأنذرتكم نارا تلظى)** : أى لرحمتنا بكم ، وعلمنا الكامل بمصالحكم ، أسدينا اليكم الهدى ، فأنذرناكم نارا تلتهب . وتلك النار أعدت فى الآخرة لمن سيذكره الله بعد ، وهى نار يجب علينا الايمان بها ، ولكن لاينبغى لنا البحث فى حقيقتها لأنها من أمور الآخرة

التى استأثر الله بعلم حقائقها . وانما هى عذاب أليم لمن يصلاها . (**لايصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى**) . يصلاها : يعذب فيها . والاشقى : من هو أشد شقاء من غيره . ومن كذب : من وقع منه تكذيب ما . وتولى : اعرض عن وجهة الحق وانصرف ولم يعد اليها بالتوبة والندم . (**وسيجنبها الأتقى**) : اى أن أشد الناس تقوى هو الذى لايدخل هذه النار بالمرة ، ولا يمسه لهبها .

واعلم ان الناس أقسام: منهم الأبرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين ما بعد بهم عن الفواحش ظاهرها وباطنها ، ودفعهم الى محاسن الاعمال جليلها وصغيرها ، فلم يقارفوا خطيئة ، ولم يقصروا فى خير .

ومنهم الذين يلون هؤلاء ، وهم من تغلبهم الشهوة أحيانا فيقعون فى الذنب ، أو يقصرون فى الواجب ، ثم يثوب اليهم رشدهم فيتوبون ويندمون . وهذان القسمان يدخلون فى الأتقى ، وهم الذين ذكرهم الله فى سورة آل عمران فى قوله : ((**وسارعوا الى مغفرة**)) الخ .

ومنهم من يخلط بين الخير والشر فيعتقد بالله مثلا ويقترف بعض السيئات لكنه يصر عليها ولا يتوب عنها ، فهذا الاصرار منه يدل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد كما يرشد اليه العقل . لأن البديهة تأبى أن يصدق الشخص بسوء عاقبة أمر تمام التصديق ثم يصر على اتيانه دون أسف ولا ندم . وكما تدل عليه السنة ، فقد ورد فى الصحيح : لايزنى الزانى وهو مؤمن ، ولايسرق السارق وهو مؤمن . ومعناه ان صورة الوعيد ، وصورة الأمر الالهى تذهب عن ذهن المخالف ، ويوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه فى النفس وتغلب عليها . فهذا الفاسق المصر يدخل فى الاشقى ، وهو صنف من أصنافه ، لأنه كذب ضربا ما من التكذيب وتولى فلم يرجع بالتوبة .

ومنهم الكافرون الجاحدون ، وهم صنف آخر من الاشقى .

فالنار التى وصفها الله يدخلها الفاسقون من المؤمنين تحت عنوان مكذبين متولين ضربا من التكذيب والتولى ، تغليظا عليهم ، ولكنهم لايخلدون فيها . ويدخلها الكافرون الجاحدون وهم فيها خالدون ، وينجو منها الأتقى بصنفيه : الأبرار والخالطين التائبين .

وانما صح دخول المصرّ فى الأشقى لأن الخالط التائب لهشقاء ، وكفى بالندم ومحاسبة النفس شقاء عظيما لمن يعرف قدره . وصح دخول الخالطين التائبين فى قسم الأتقى لانهم أعظم تقوى من المصرين . وفى المصرين على بعض السيئات شىء من التقوى يصدهم عن بعضها كما هو ظاهر . فالخالط التائب والمؤمن المصر على خطيئة ــ اذا لم تحط به خطيئاته ــ كل منهما يشارك صاحبه ويفارقه ، وبذلك اكتسب كل صاحبه وصفه: الخالط التائب له شقاء بالندم والاسف فيشارك المصر فى ضرب من الشقاء ، ويكون المصر أشقى منه . والمصر فيه شىء من التقوى بالايمان فيشارك التائب فى التقوى ، ولكن التائب أتقى منه .

وما أجمل ماقاله الامام الغزالى فى مثل هذا ! وانا نأتى بعبارته قال : ((كل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثا عليه . فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها . فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان . وهو المراد بقوله عليه السلام : لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن .

« وما أراد به نفى الايمان الذى يرجع الى علوم المكاشفة : كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فان ذلك لاينافيه الزنا والمعاصى . وانما أراد به نفى الايمان بكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت. كما اذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله. فاذا تناوله ، يقال تناوله وهو غير مؤمن ، لابمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله انه سم مهلك . فان العالم بالسم لايتناوله أصلا .

« فالعاصى بالضرورة ناقص الايمان ، وليس الايمان بابا واحدا ، بل هو نيف وسبعون بابا : أعلاها شهادة أن لا اله الا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل : الانسان ليس موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا : أعلاها القلب والروح ، وأدناها اماطة الاذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب ، مقلوم الاظفار ، نقى البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها ، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها .

« وهذا مثال مطابق . فالايمان كالانسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية ، كفقد الروح . والذى ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة ، هو كانسان مقطوع الأطراف ، مفقوء العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح.

« وكما ان من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له الا أصل الايمان ، وهو مقصر فى الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان فى مقدمة قدوم ملك الموت وورده . فكل ايمان لم يثبت فى اليقين أصله ، ولم تنتشر فى الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة » ا هـ .

أفلا يجدر بمثل هذا أن يدخل فى الأشقى الذى كذب وتولى هذا النوع من التكذيب والتولى ؟

ثم ذكر الأتقى بأفضل مزاياه فقال : **(الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى)** الأتقى بقسميه ــ سواء كان محسنا بارا ، أو كان ظالما لنفسه تائبا ــ يعطى من ماله فى سبيل الله ومرحمة الفقراء لا لغرض آخر سوى أنه يريد أن يتزكى ، وأن تنمو نفسه وتتدرج فى قوتها الروحية حتى تبلغ أشدها فى الحياة الروحانية ، فتستوى على عرش الانسانية تستخدم قواها الجسدانية فيما خلقت لاجله . فهو لا ينفق شيئا من ماله رئاء الناس يطلب به مدحتهم ــ اللهم الا أن تكون هفوة من غير الابرار ــ وينفق من ماله وليس لاحد عنده يد سابقة يحب أن يجازيه بها ، أى ينفق من ماله على شخص ، وليس لذلك الشخص عنده نعمة يريد مكافأته عليها .

أما أعطاء المال على وجه المكافأة ، فهو ضرب من المعاملة والتجارة الدنيوية لايتفاضل به الناس فى الخير ، وانما يريد المحسن والخالط بما ينفق وجه ربه الأعلى . أى يرغب مرضاته .

والعبارة معروفة فى تخاطب العرب ، يقال : فعلت كذا أبتغى وجه فلان ، أى لم يحملنى على الفعل الا اجلاله وقصد مرضاته وخيفة الوقوع فيما يغضبه ، ولذلك

إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

اتبع الآية بقوله : (**ولسوف يرضى**) . اى سوف يرضى الله عن ذلك الأتقى الطالب بصنعه رضاه .

يجوز للتقى أن يعطى من ماله لمكافأة نعمة عليه لأحد من الناس ، لكن ذلك لايكون اثرا من آثار التقوى . بل الذى يعد من آثار التقوى ، هو بذل المال فى سبيل الخير ، كما قدمنا .

وقد يعرض لبعض الافراد من قسم الاتقى أن يرائى فى انفاق ماينفق من ماله لكنه يرجع فيندم ويتوب ، والتوبة تعود على العمل بالاخلاص ، وتبعث على العود الى الانفاق مع خلوص النية فيه لله تعالى ، فيصدق عليه أنه يؤتى ماله يتزكى الخ . والاستثناء فى قوله **الا ابتغاء وجه ربه الأعلى** ، منقطع كما ترى . والتعبير بسوف لافادة أن الرضا يحتاج الى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال لان يبلغ العبد درجة الرضا الالهى .

وبتفسير الاتقى والاشقى على النحو الذى سمعته تبطل تلك الاشكالات التىأوردها المفسرون فى الحصر . وما أشكل عليهم الا تقيدهم بالعادة فى استعمال الفاظ كذب وتولى ، وتحكيمهم عاداتهم واصطلاحاتهم التى وضعوها من عند أنفسهم لانفسهم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله . ثم أنهم يوردون ههنا اسبابا للنزول ، وان الآيات نزلت فى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه لانه اشترى من أرقاء المسلمين ضعفاء واعتقهم من ماله لا يبتغى فى ذلك الا وجه الله . ورووا غير ذلك وقالوا ان الاشقى هو أمية بن خلف . وقيل غير ذلك ، ومتى وجد شىء من ذلك فى الصحيح لم يمنعنا من التصديق به مانع ، ولكن معنى الآيات لايزال عاما ــ كما رايت ــ والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

(**والضحى**) الضحى هو ضوء الشمس فى شباب النهار . (**والليل اذا سجى**) أى سكن وسكون الليل هو ماتجده من سكون أهله ، وانقطاع الاحياء عن الحركة فيه . ولما كان السَجْو أو السُّجُو من لوازم الظلمة جاء فيه بالماضى ، كالتجلى فى النهار بخلاف الغشيان فى الليل ، فانه مما يعرض له فى الاوقات القليلة يغشى فيها الضياء

كما سبق . أما الضياء فيملك أغلب أجزاء الزمن . **(ماودعك ربك وما قلى)** أى ماتركك ربك وما أبغضك . وقرىء ودعك بالتخفيف ، وهى كذلك بمعنى تركك . يقال قلاه يقلاه ، وقلاه يقليه ، كرماه يرميه اى كرهه وابغضه . **(وللآخرة خير لك من الأولى)** أى ولنهاية أمرك خير لك من بدايته . **(ولسوف يعطيك ربك)** من توارد الوحى عليك بما فيه ارشاد لك ولقومك ، ومن ظهور دينك ، وعلو كلمتك ، واسعاد قومك بما تُشَرِّع لهم ، واعلائك واعلائهم على الامم فى الدنيا والآخرة . **(فترضى)** بما تراه من تلك النعم التى ليس وراءها مطلب لطالب .

اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه السورة هو حصول فترة فى توالى الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم ، فظن او توهم أو قيل أن الله قد تركه وقلاه ، ثم اختلفت فيمن ظن أو توهم أو قال . ولا حاجة لنا بذكر ما اختلف فيه . فان من المحقق ــ وهو الذى يرشد اليه أسلوب السورة الشريفة ــ ان الله أراد أن يلقى الطمأنينة فى نفسه عليه السلام بتأكيد تلك الاخبار التى ذكرها واحدا بعد الآخر ، وأن يستدل له على ان هذه الاخبار لاريب فيها بما سبق من فضل الله عليه . فالذى يعطف عليه بعنايته فيما سبق لايزال يؤيده بتلك العناية فيما يلحق . ثم أنه رتب على سبوغ تلك النعم امره لشخصه الكريم بتلك الاوامر التى جاءت فى قوله : **(فأما اليتيم)** الخ .

وليس فى نسق السورة مايشير الى ان المشركين أو غيرهم بغَرضٍ من الخطاب .. ومن أين كان للمشركين أن يعلموا فَتْرَة الوحى فيقولوا أو يطعنوا ، ولكن ذلك كان شوق النبى صلى الله عليه وسلم الى مثل ما راى وما فهم عن الله ، وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه . وكل شوق يصحبه قلق ، وكل قلق يشوبه خوف . وهو صلى الله عليه وسلم بشر يعلو به عن البشر الوحى وحده كما ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة من الكتاب نحو قوله : **(قل انما أنا بشر مثلكم يُوحَىٰ الىَّ)** الخ .

وقد جاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم حزن لفترة الوحى حزنا غدا منه مرارا كى يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، ولكن كان يمنعه تَمَثُّل المَلَك له واخباره بأنه رسول الله حقا كما يأتى ذكره فى سورة **((اقرأ باسم ربك))** ... فذلك هو القلق والفزع الذى يحتاج الى ما به تكون الطمأنينة ، فآتاه الله ما كان فى شوق اليه ، وثبّته بالوحى ، وبَشّره أن تلك الفَتْرة لم تكن عن ترك ولا عن قِلًى ، واقسم له على ذلك ،وأشار فى القسم الى أن ماكان من سطوع الوحى على قلبه اول مرة بمنزلة الضحىَ ، تقوى به الحياة وتنمو به الناميات ، وماعرض بعد ذلك فهو بمنزلة الليل اذا سكن لتستريح فيه القوى وتستعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل .

ومن المعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم لاقى من الوحى شدة فى أول امره حتى جاء الى خديجة رضى الله عنها ترجف بوادره كما هو معروف فى حديث الصحيحين وغيره ، فكانت فَتْرة الوحى لتثبيته عليه السلام وتَقْوِيَة نفسه على احتمال مايتوالى منه حتى تتم به حكمة الله تعالى فى ارسائه الى الخلق . ولهذا قال له : **(وللآخرة خير لك من الأولى)** ، أى ان كرة الوحى ثانية سيكمل بها الدين ، وتتم بها نعمة الله على أهله. وأين بداية الوحى من نهايته ؟ وأين الاجمال الذى جاء فى قوله **(اقرأ باسم ربك الذى خلق)** الخ ، من تفصيل العقائد والاحكام الذى جاء فى مَثانِي القرآن ؟ ثم زاد الأمر

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ

تأكيدا بقوله (**ولسوف يعطيك ربك فترضى**) على مابيناه ، كأنه عليه السلام كان يجد في نفسه ان للامر تتمة لم تأت بعد . وكان في الفترة ابطاء بتلك التتمة ، وهو شغف بحصولها ، فلم تكن نفسه راضية دون أن يبلغ ماأعده له من اكمال دينه ، فأكد له الوعد بأنه سيعطيه مما تتطلع نفسه اليه ، ولا يزال يعطيه حتى يرضى . ويعلن عباده المؤمنين بقوله تعالى ((**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا**)) . وقد كان ذلك في اكثر من عشرين سنة ، فاستعمال حرف التسويف لذلك .

وللمفسرين هنا كلام في الشفاعة وفي تكريم آل بيت النبوة حشروه في التفسير حشرا، واكثره بعيد عن روح الدين الذي جاء به القرآن ، والأليق به كتب المذاهب التي ساء بها حال المسلمين وتفرقت بسببها كلمتهم .

(**ألم يجدك يتيما فآوى**) التعبير بلم يجدك ووجدك على متعارف الخطاب في لسان العرب : أي لم تكن كذلك وكنت كذلك . وأصل المعنى في وجدت، فلانا كريما مثلا أنني لم أكن اعرف منه الكرم فعرفته . وذلك لايكون في جانب الله تعالى لكنه استعمل في الاخبار بالكرم ونحوه . أو المعنى ألم يعلم يتمك وضلالك الخ . والاستفهام على كل حال للتقرير ، اى انك كنت كذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم يتيما لان والده توفي في المدينة وهو حمل في بطن امه ، فلما وضعته عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب وقلب مرضعه حليمة على يتمه ، وكفله جده خير كفالة ، ثم مات جده وهو في سن ثماني سنين فكفله عمه أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب . وكان شديد العناية به في صغره ، عظيم المحبة له في كبره ، ومازال يحميه وينصره بعد أن اكرمه الله بالنبوة حتى قبض . وتجرأت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت عمه حتى اضطرته الى الهجرة الى المدينة ، فذلك ايواء الله لنبيه وهو يتيم .

(**ووجدك ضالا فهدى**) نشأ صلى الله عليه وسلم موحدا لم يسجد لصنم ، وطاهر الخلق لم يقترف فاحشة حتى عرف بين قومه بالامين . فضلال الشرك وضلال الهوى في العمل كانا بعيدين عن ذاته الكريمة ، يرهبان الدنو من نفسه القويمة . نزهه الله عنهما من أول أمره ليعلي منزلته عند من يرسل اليهم ، فيسمعوا قوله ، ويهتدوا بهديه . ولكن للضلال أنواع اخر : منها اشتباه المآخذ على النفس حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغي أن تختار .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم فساد دين قومه من مشركي العرب ، ولكن كان بين يديه دين النصرانية على ما كان عليه أهله ، ودين اليهودية . وكلاهما دين توحيد ، وفي كليهما شريعة لنبي . فهل في اختيار احد الدينين مصلحة له ولقومه ؟ وهل في الدعوة الى مايختار منهما فلاح لنفسه ولشعبه وهو عليه السلام أمي لا يقرأ الكتب ، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الاحكام والشرائع ؟ كيف كان يصلح ذلك واهل كل من الدينين لم يكونوا في حالهم أرشد من قومه ؟ فكان شيء من الشرك يشوب عقائدهم، وكثير من السيئات والجرائم تدنس أعمالهم . وحجتهم على الاقامة عليها ما ينسبونه

الى دينهم من نص أو تأويل .

وأعظم أنواع الضلال كانت الحيرة فى أمر العرب انفسهم ، يراهم صلى الله عليه وسلم فى سخافة عقائدهم وضعف بصائرهم باستيلاء الاوهام عليهم ، وفساد أعمالهم، وشؤم تلك الاعمال فى أحوالهم ، وتفرق كلمتهم ، وتفانيهم بتسافك الدماء ، واشرافهم على الهلاك باستعباد الغرباء لهم ، وتحكم الاجانب فيهم . الحبشة ثم الفرس من جانب ، والرومان من جانب آخر . ثم هم فى غفلة عن مصيرهم ، ينفرون من الذل ويمدون أيديهم الى أسبابه ، ويفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه .

فما العمل فى تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم ؟ واى طريق ينبغى أن تسلك فى ايقاظهم من سُباتهم ؟ ومن أى الابواب يمكن أن يدخل الى قلوبهم ؟ ما أشدها حَيرة على الصِّدِّيقين ! وما أعظمها ظلمة تغشى السالكين من أهل الصدق واليقين،الى أن يكشفها الله بالنور المبين ! وهى حَيْرة لم يكمل الحظ من شرفها الا للنبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

فهذا هو الذى عناه الله بالضلال فى هذه الآية الكريمة . وما أعظم الهداية فى ذلك الضلال ! وما أجدره بالكُمَّل من الرجال !

وبعد هذا وهذا من اهتدى الى الله وعرف انه خالق الخلق كلهم ، وانه وحده المستحق للعبادة دون أحد منهم . هل يدرى بنفسه بغير وحى الهى كيف يعبده ؟ وبأى وصف يصفه ويمجِّده ؟ والناس من حوله قد شبهوه بخلقه ، وقاسوه على ما يعرفون من صُنعه . أفلا يحار الموحِّد كيف يصف ربه ، وبأى الوسائل يطلب قُرْبَهُ ؟

كل هذه الضروب من الحيرة كانت من حظه عليه الصلاة والسلام قبل أن تطلع عليه شمس النبوة . وللخلاص منها كان يطلب الخلوة بغار حراء ، ويتلمَّس هداية ربه فى جوانب قلبه الى أن سطع عليه نور الوحْى فانتشله من هذا كله ، واختار له دينا قويما ، وعلَّمه كيف يُرشدُ قومَه ، وسَنَّ له الطريق فى تخليصهم وتخليص العالم مما كان فيه من فساد العقل وسوء العمل ، وهداه الى وصف ذاته بما يليق بذاته . واى نعمة اكبر واجَلّ من هذه النعمة ؟ !

هذا هو معنى قوله (**ووجدك ضالا فهدى**) ، وهو معنى قوله فى سورة الشورى « **وكذلك أوحينا اليك رُوحا من أمرنا ما كنتَ تدرِى ما الكتابُ ولا الايمانُ ولكن جعلناه نورا نهدِى به من نشاءُ من عبادِنا وإنكَ لتَهْدِى الى صراط مستقيم ، صراطِ اللهِ الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصيرُ الامور** » .

وليس فى وصف النبى عليه السلام بالضال على هذا المعنى شَيْن له أو حَطٌّ من شأنه ، بل هذا هو فخره عليه السلام واكليل مَجْده : لم يكن عالما فعلَّمه الله ، ولم يكن مطَّلِعًا الى الغيب فأَطْلَعَه الله . وبهــذا التفسير تستغنى عن خَلْط المفسرين فى التأويل .

(**ووجدك عائلا فأغنَى**) العائل الفقير . وقد كان صلى الله عليه وسلم فقيرا لم يترك له والده من الميراث الا ناقة وجارية ، فأغناه الله بما ربحه فى التجارة ، وبما وَهَبَتْه خديجة من مالها . فمن آواك فى يُتْمِك ، وهداك من ضَلالك ، وأغناك من فقرك — لا يتركك فى مستقبل أمرك .

من ذاق مرارة الضيق فى نفسه فاجْدَرُ به أن يستشعرها فى غيره فيمنحه ما كان

هو بصدد ان يستمنحه . كان صلى الله عليه وسلم يتيما فباعدَ الله عنــه ذُل اليُتْم وآواه . فما أجدره عليه السلام بأن يكرم كل يتيم شكرا لله على نعمته !

لهذا قال الله (**فأما اليتيم فلا تقهر**) اى فلا تذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ، وهَذِّبْهُ بمكارم الاخلاق ليكون عضوا فى جماعتك ينفعها وتنتفع به ، ولا تُفْسِدُه التذليل والهوان فيكون جُرثومة فساد يتعَدَّى اذاها الى كل من يخالطها من امتك .

ولو علم الناس ما فى اهمال تربية الأيتام من الفساد فى الامة لقدروا عنـابة الله بامرهم فى كتابه قَدرها ، ولبَذَلوا من سعيهم ومن مالهم فى اصلاح حال الايتـــام كل ما استطاعوا . ولو أحَسّ كل واحد بأن الموت قريب منه ، وانه هدف لنبله لا يدرى متى يأخذه عن ولده فيتركه : اما غنيا يأكل ماله الأوصياء ، أو فقيرا يستذله الأدنياء — لتسابقوا الى تقويم امر اليتيم تسابقهم الى اللذة والنعيم .

كان صلى الله عليه وسلم حيران فأنقذه الله من حَيْرته . فمن حق رعاية هــذه النعمة أن يَرْأَف بالحائرين . لهذا قال الله له (**وأما السائل فلا تنهر**) . والسائل هو المستفهم عما لا يعلم ، وليس هو طالب الصدقة (١) ، فان هذا اللفظ لم يرد فى كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين ، بل جرت سنة الكتاب المبين على ذكرهما بوصفهما . ثم انه لا معنى لجَعْله مقابلا لقوله (**ووجدك ضالاً**) بل كان من حقه أن يكون مقابلا لقــوله (**ووجدك عائلاً**) على أنه لا يصح أن يكون مقابلا لهذا ايضا لان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن سائلا قط . ومعنى **لا تنهر** لا تزجر ، اى لا تزجر سائلا مستفهما مسترشدا ، وان ضَعُفَ عقله وعَظُمَ جهْله ، فقد ذُقْتَ من أَلَم الحَيْرة ما يَعْطِفك على المتحيِّرين ، طُلّاب الارشاد فى العلم والدين . وقد اخترعوا احاديث فى السائل لا أصل لها ويتنزه صلى الله عليه وسلم عن أن تنسب اليه .

من عادة البخلاء أن يكتمــوا مالهم لتقــوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذْل ، فلا تجــدهم الا شاكين من القِلّ . اما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لِمَا أفاض عليهم من رزقه . فلهـــذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل واطعام الفقراء واعانة المحتاجين .

فهذا هو قوله (**وأما بنعمة ربك فحدث**) اى انك لمـا عرفت بنفسك ما يـكون فيه الفقير فاوسع فى البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فان هذا من الفخفخة التى يتنزّه عنها النبى صلى الله عليه وسلم . ولم يُعْرَف عنه فى امتثال هذا الامر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض ، ولكن الذى عُرِفَ عنه انه كان يُنفِقُ ما عنده ويَبيتُ طاويا .

وقد يقال ان المراد من النعمة النبوة . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله (**ووجدك عائلا**) ، فتكون النعمة بمعنى الغِنَى ، ولو كانت بمعنى النبوة لكانت مقابلة لقوله (**ووجدك ضالا**) ، وقد علمتَ الحق فى مقابله . والله أعلم .

---

(١) علمنا أن الاستاذ الامام رجع فعدل عن رأيه هذا فى تفسير معنى (**السائل**) د

سورة الشرح
مكية وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

(الم نشرح لك صدرك) . الشرح التوسعة والبسط وعظم الصدر من الجسم ، كان عند العرب دليل القوة وعظم المنة ، وكثيرا ما يفتخر مفتخرهم بعظم صدره ، ولهم الحق لانه يعطى الاحشاء فسحة للنمو مع الراحة . والقوى قاهر لما ينتابه ، فهو فى مسرة وحضور رأى دائما ، لا يضيق ذرعه بأمر . ولذلك كنوا بشرح الصدر عن المسرة وانبساط النفس الى الفعل والقول .

وقد شرح الله صدر نبيه باخراجه من تلك الحيرة التى كان يضيق لها صدره بما كان يلاقيه فى سبيله من جمود قومه وعنادهم ، فكان يلتمس الطريق لهدايتهم ، فعلمه الله كيف يسلك الى نفوسهم ، وهداه بالوحى الى الدين الذى ينقذهم به من الهلكة التى كانوا أشرفوا عليها .

وقد كان ما يهمه من أمرهم حملا ثقيلا عليه ، فوضعه الله عنه ، وأراحه من ثقله بقيادة الله له فى سبيل نجاتهم ، وتعهده بالوحى كلما التبس عليه أمر أو ضاق عليه مذهب .

فبهذه الهداية التى تكفل له بها قد وضع عنه ذلك العبء الثقيل كما قال **(ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك)** والوزر هو الحمل . وانقاض الظهر أن يحدث فيه صوت الانتقاض والانفكاك . ونقيض الظهر الصوت الذى يحدث فيه لثقل الحمل وهو معروف . والكلام على التمثيل ، فان ما كان يحمله عليه السلام من ثقل الاهتمام بشأن قومه ، وضيق المذاهب بين يديه قبل تواتر الوحى عليه بالارشاد ، لم يكن ثقلا حسيا ينقض منه الظهر ، ولكنه كان همّا نفسيا يفوق ألمه ألم ذلك الثقل الحسى الممثل به . فعبر عن الهم الذى تبخع به النفوس بالحمل الذى تقصم له الظهور .

هداه الله الى انقاذ امة — بل امم كثيرة — من رق الأوهام وفساد الاحلام ، ورجع بهم الى الفطرة السليمة : حرية العقل والارادة والاصابة فى معرفة الحق ومعرفة من يقصد بالعبادة ، فاتحدت كلمتهم فى الاعتقاد بالاله الواحد ، فاستخلصوا حياة كانت فى مخالب الموت كما قال ((**وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها**)) . فمن كان هذا عمله فأى ذكر أرفع من ذكره ؟ وأى شأن أعلى من شأنه ؟ هذا الى ما فرض الله من الاقرار بنبوته والاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته وجعلها شرطا فى دخول جنته . فهذا هو قوله تعالى : **(ورفعنا لك ذكرك)** . والاتيان بالجار والمجرور « لك وعنك » وتقديمه

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦

على المفعول فى الآيات الثلاث لزيادة التقرير والاسراع بالتبشير .

هذا الذى منحناه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر — بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب فى أول السير — كان على ماجرت به سنتنا فى هذا النوع من خليقتنا ، وهو **أن مع العسر يسرا** . ولهذا وصل العبارة بالفاء التى لبيان السبب فى قوله : **(فان مع العسر يسرا)** . **الـ** فى العسر للاستغراق ، ولكنه استغراق المعهود عند المخاطَبين من افراده أو انواعه . فهو العسر الذى يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو وقلة الوسائل الى المطلوب ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف . فهذه الانواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل مامن شأنه أن يُعد لذلك فى معروف العقل ،واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ماتلاقيه عند الصدمة الاولى — فلا ريب فى أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبى صلى الله عليه وسلم ، فان ضيق الامر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه اللهماهو اكبر من ذلك ، وهو الوحىوالنبوة . ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئا من عزمه ، بل مازال يلتمس الغِنَى فى الفقر ، والقوة فى الضعْف ، حتى اوتى من ذلك مازعزع أركان الأكاسرة والقياصرة ، وترك منه لأمته ماتمنعت به اعصارا طوالا . وما كان أحقها بأن تتمتع بهذا الميراث الكريم لو بقيت أمة له حقيقة كما هى أمة له اسما ! ولكنها قطعت النسب بينها وبين مُوَرِّثُها فسلبها الله ماترك لها من ميراث واعطاه أعداءها : شأن الله مع من لا يشعر بشرف بيته ومكانه من حسبه ، وانما بقيت لها القاب واسماء كما يبقى للسفهاء من آبائهم الأغنياء .

وكان فى هذه الآية عبرة لهذه الامة وكان عليها أن تعرف أن مع العسر يسرا ، وأن وعد الله فى ذلك حق ، وأن تقتدى بنبيها فى طلب الوسائل للخلاص مما هى فيه وعندها كتاب الله وحده هداية للمهتدى وقدوة للمقتدى .

ولما كانت القضية موضعا للريب — خصوصا عند من أخذ الضيق بخناقه — أكدت بأن . ولما كان الشك يزداد — بل قد ينتهى الى الانكار فى بعض أنواع العسر — استأنف القضية نفسها ، واعادها بلفظها فقال : **(ان مع العسر يسرا)** ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقتها .

قد تقع أمم أو اشخاص فى ضرب من ضروب العُسر من نوع ماسبق ، ثم يجدون الضعف من هممهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه ، فيدوم لهم العُسر ، وقد يموتون وتنشأ فيه أعقابهم . فأين اليُسر الذى يصحب العُسر عند هؤلاء ؟

ومن ضروب العُسر مايختلف نوعه عن المعهود ، كالمرض الطويل المفْضِى الى الموت ، وكالزمانة التى تصحب الزمن من أول حياته الى مماته ، فأى يُسر جاء معَ عُسرها ؟

فجاءت هذه الآية المستأنفة لرفع هذا الإشتباه فى عموم السُّنَّة الالهية . وذلك أن أولئك الذين استعملوا ما وهبهم الله من القُوَى للخلاص مما ينزل بهم — اذا كان مما يمكن كشفه — لاريب فى كشف العُسر عنهم بنوع من أنواع اليُسر ، كما وقع للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

أما الآخرون الذين لابصيرة عندهم فى تصريف تلك المواهب الالهية ، بل يطلبون أن ينتهوا الى الغايات بغير بدايات ، وأن يصلوا الى المقصد بغير وسيلة ، فلا يستعملون عقولهم ولا عزائمهم فى دفع مايَحِلّ بهم ، وليس لهم ثقة بربهم فيعملوا معتمدين عليه — هؤلاء يحسون بالألم حينا ، ثم تخنس نفوسهم وتقبع فى جُحْر من الاستكانة ، وتستقر فيها طمأنينة الرضى بما غَمَرَها من الضُر فتسلب الاحساس به . ثم اذا طال بها الزمن فيه تحول الألم الى لذة بالمعتاد . ولا عجب من تحول الالم الى لذة ، فانك تراه فى شارب الدخان مثلا يألم لأول مرة ، بل قد يأخذه الدوار وأشد آلام الصداع ، ثم لايلبث أن يكون عادة مرغوبة يألم أشد الألم لتركها .

ومن هذا تجد الأمم التى تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد الفت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتمل غيره ، ولاتزال تَحِنّ اليه . وكلما طلب ابعادها عنه اندفعت بالاقبال عليه . فهذا نوع من اليسر وان كان أشأم من العسر ، ولكن أليست النفس راضية به مطمئنة اليه ؟

اما المرض الطويل الممتد الى الموت ، والزمانة مما لايمكن كشفه ، فلَكَ أن تقول انه لايدخل فى أنواع العسر التى شملها استغراق العهد . فان الاستغراق للعسر والضيق المعهودين وهما مايمر بالخاطر اذا وقع الحديث على العسر أو الضيق ، وذلك هوالانواع التى ذكرناها فى تفسير الآية السابقة (**فان مع العسر يسرا**) .

وبالجملة فالعسر الداخل فى الاستغراق ، هو كل ماتجد النفس ألم الوقوع فيه ، وتنزع الى طلب المخلاص منه بالوسائل التى سَنّها الله لذلك الخلاص . ولا ريب فى أن كل عسر من هذا القبيل فمعه يسر يسوقه الله الى العامل الآمل العاقل جزاء عمله لتحقيق أمله واستعماله لموهبة عقله .

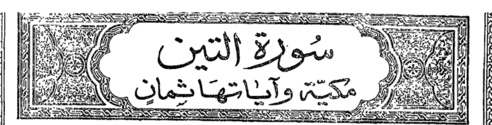
أما مثل الزمانة والمرض الطويل فيدخلان فى نحو قوله: (**فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون**) . وكذلك يقال فى عارض يعرض للامة اذا حُمّ هلاكها كزلزال ونحوه ، والله أعلم .

وتنكير اليسر لان الذى يأتى بعد العسر أى نوع من أنواعه لايختص بيسر معين — والتعبير بالمعيّة لتوثيق الامل بأنه لابد منه كأنه معه .

اذا علمت أن مع العسر يسرا ، فاعلم أن مع التعب فى العمل النافع راحة (**فاذا فرغت**) من عمل من اعمالك النافعة لك ولأمتك (**فانصب**) : اى خذ فى عمل آخر واتعب فيه ، فانك تجد لذة الراحة عقب النَّصَب بما تجنيه من ثمرة العمل (**والى ربك فارغب**) . أى لاترغب الى أحد فى استثمار أعمالك الا الى الله وحده .

والسورة مكية عند الجمهور ، بل زعم بعضهم أنها تتمة لسورة الضحى . وعلى هذا تكون المِنّة بشرح الصدر مبنية على عود الوَحْى ، والتبشير بما جاء فى سورة الضحى .

وقال البقاعى انها مدنية بناء على مايفهم من التقرير بشرح الصدر وما بعده . وهذا انما كان بعد ظهور القوة ، وبعد أن فتح الله على المسلمين مافتح عليهم ، وأكمل لهم النعمة بغلبة حقهم على باطل عدوهم ، والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ

(هذا البلد الامين) هو مكة المشرفة ، ولقبه بالامين لان الله حرّم فيه القتل والاعدام، حتى للاشجار والنبات ماعدا بعض أنواع منه استثنيت لحاجة الناس اليها ، فهو بلد مامون الغائلة لايخافه من يَحِلّه . والقسم به للتنويه بقدره خصوصا وهو مبعث نور الاسلام .

(وطور سينين) هو الجبل الذى كلم الله موسى صلى الله عليه وسلم عليه . ويقال له طور سَيْناء بفتح السين وكسرها ، وقرىء سينين بفتح السين،وهى لغة بكر وتميم . ويقال ان سينين والياسين والفسلين وامثال هذا الوزن من لغة أهل اليمن وعرب الجنوب .

وسينين قيل اسم للبقعة التى بجوار الجبل ، وقال الاخفش سينين جُمع بمعنى شجر واحدته سينة ، وقيل غير ذلك . والقَسَم به لرفع ذكره والتذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى ولقومه ، وما كان بعد ذلك من سَن الشريعة المُوسَوِيّة وانزال التوراة .

(والتين) قيل جبل دمشق ، ويُسَمَّى طور تينا ، لأنه منبت التين . وقيل ان التين هو مسجد دمشق . وقيل هو مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودى . وقيل هو موضع الكوفة لأنه كان منزلا لنوح عليه السلام . وقيل جبل ما بين حلوان وهمذان . والقَسَم به للتذكير بأمر نوح وما اهلك الله به أهل الفجور والفساد وانجى الله المؤمنين الصالحين . وأما على أنه جبل فى دمشق أو مسجدها فلا نفهم للاقسام به حكمة ، بل يكون مما لايعلمه الا الله .

(والزيتون) قيل هو طور زيتا ، وهو جبل ببيت المقدس . وقيل هو بيت المقدس نفسه ، وسماه بالزيتون لكثرة شجر الزيتون فيما حوله .

وبالجملة فعلى هذه الأقوال يكون التين والزيتون كنايتين عن مواضع ، وليس المقصود هو الإقسام بالأشجار نفسها ، وانما كُنِّيَ بها عن مغارسها .

وقال قليل من المفسرين ان الإقسام هو بالنوعين لذاتهما التين والزيتون . قالوا لكثرة فوائدهما . ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الامين وحكمة جمعهما معهما فى نسق واحد غير مفهومة . ولهذا رُجِّح انهما موضعان ، وقد يُرَجَّح انهما النوعان من الشجر . ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا ، بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى احوال البشر .

قال صاحب هذا القول : ان الله تعالى اراد ان يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل ، من أول نشأته الى يوم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم . فالتين

ٱلْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝

اشارة الى عهد الانسان الاول ، فانه كان يستظل فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين . وعند ما بدت له ولزوجته سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين .

والزيتون اشارة الى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك لانه بعد ان فسد البشر ، واهلك الله من اهلك منه بالطوفان ، ونَجّى نوحا فى سفينته ، واستقرت السفينة — نظر نوح الى ماحوله فراى المياه لاتزال تغطى وجه الأرض ، فأرسل بعض الطيور لعله يأتى اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيرا آخر فرجع اليه يحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وسر وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد اذن للارض أن تُعمَّر . ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى مُحِىَ عمرانها بالطوفان . . . فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والاقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة ، وهى من أكبر ما يذكر به من الحوادث .

وطور سينين اشارة الى عهد الشريعة الموسَوِيّة وظهور نور التوحيد فى العالم بعد ما تدنست جوانب الارض بالوثنية . وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم الى التمسك بتلك الشريعة الى أن كان آخرهم عيسى صلى الله عليه وسلم جاء مخلصا لروحها مما عرض عليه من البدع .

ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما اصاب من قبلهم من الاختلاف فى الدين وحجب نوره بالبدع ، واخفاء معناه بالتأويل ، واحداث ماليس منه بسبيل . فَمَنَّ الله على البَشَر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ، ويفصل بين ما سبق من أطوار الانسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة ، واليه أشار بذكر البلد الأمين .

وعلى هذا القول الذى فصلنا بيانه يتناسب القَسَم والمقسَم عليه كما سترى .

(لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم) . التقويم : التعديل ، وكثيرا ما يطلق المصدر ويراد منه اثره ، أى فى احسن اعتدال وأفضل قوام .

فيقسم جل شانه انه قوَّم الانسان أفضل تقويم ، ورَكَّبه أحسن تركيب ، وأكد ذلك لان الناس بغفلتهم عما كرَّمهم الله به من العقل ، كانهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات : يفعلون كما تفعل ، لا يمنعهم حياء ، ولا تردهم حِشمة ، خصوصا وقد قال بعضهم : ان الانسان خلق ميالا الى الشر . فيقول الله سبحانه — تبيينا لفساد هذه المزاعم — انه فَطَرَ الانسان أحسنَ فِطْرة نفسا وبَدَنا ، وكرَّمه بالعقل الذى ساد به على العوالم الأرضية ، واطلع به على ماشاء الله من العوالم السماوية .

وقد كان الانسان فى سذاجته بعيدا عن الأثرة ، حى القلب بالتراحم — كما تراه فى حال الاطفال — فعاش سعيدا ، وعاش افراده فى نعيم الطمأنينة . . . كان ذلك زمنا ما — وهو العهد الاول — وما اشبهه بثمرة التين تؤكل كلها ، ولا يرمى منها شىء .

والانسان كان صلاحا كله ، لم يشذ عن الجماعة منه فرد . تلك كانت أيام القناعة بما تيسر من العيش ، وشدة الاحساس بحاجة كل فرد الى الآخر فى تحصيله وفى دفع العوادى عن النفس .

تنبَّهت الشهوات بعد ذلك ، وتخالفت الرغبات ، فنبت الحَسَد والحِقْد ، وتبِعَه التقاطع والتقاتل ، واستشرَى الفساد بالانفس حتى صارت الأمانة عند بعض الحيوان أفضل منها عند الانسان ، فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذى كان لها بمقتضى

ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾

الفطرة . وقد كان ذلك ــ ولا يزال ــ حال أكثر الناس .

فهذا قوله : **(ثم رددناه أسفل سافلين)** . اى صـيّرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ، لان الحيوان المفترس مثلا انما يصدر فى عمله عن بفطرته التى فُطر عليها : لم ينزل عن مقامه ، ولم ينحط عن منزلته فى الوجـود . أما الانسان فانه باهماله عقله ، وجهله بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة اخوانه ، ينقلب أرذل من سائر أنواع الحى . ولكثر ما قلت « اذا فسد الانسان فلا تسل عما يصدر عنه من هَذَيان أو عدوان » .

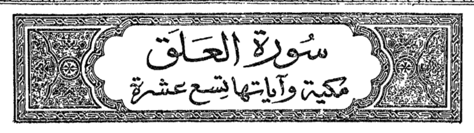
ثم ان الذين ارتدوا الى أسفل سافلين ، منهم من هلك فى زمن نوح أو فى ازمـان اخر ، ومنهم من سيَهْلك ــ وهم فى تلك المنزله من الخِسة ــ فتـدوم لهم كذلك فى الحياة الاخرى . وللسافلين فيها منازل العذاب والخزْى والهُون .

(الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) . استثنى الله المؤمنـين الذين يؤمنون بموجد الكائنات ، وبأن الله قد وضع شريعة للخير والشر ، وميـز بينهما ، وانه يجزى القائم على الشريعة باتيان الخير وتجنب الشر بالسعادة ، فلذلك يَدلّون على ايمانهم بالاعمال الصالحة ــ وهى معروفة عند عامة البشر ــ وجماعهـا العدل والاحسان . . . فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الانسانية واستبقوا لأنفسهم ذلك الاعتدال الفطرى فلهم أجر الكرامة فى الدنيا ، فاذا جاءهم الموت امتد بهم النعيم الى الآخرة فأجرهم غير ممنون اى غير مقطوع .

هؤلاء المؤمنون هم الأنبياء واتباع الأنبياء ، ومن هداهم الله الى دين الحق من كل امة ، وهم الذين أكرم الله بهم النوع البَشرىّ ، واستبقى بهم منزلته السامية فى عالمه ، وما تراه فى الأمم من آثار باقية فانما هو من آثار هِمَمِهِم .

فاذا كنت ترى ذلك أيها الانسان **(فما يكذبك بعد بالدين)** ؟ الدين ههنا هو خلوص السريرة للحق ، وقيام النفس بصالح العمل . وهو ماكان يدعو اليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه الأنبياء ، وهو استفهام إنكارى اى لايوجد سبب يحملك على التكذيب بالدين بعد أن عرفت أن الانسان قد خلق كريما ، وأن الذي يحفظ كرامته انمـا هم المؤمنون الصالحون وهم أهل الدين الصحيح .

(أليس الله بأحكم الحاكمين) . اى هل تنكر أن الله احكم مَنْ حَكَمَ ودَبَّرَ ؟ وهـو استفهام انكارى مآله ان الله أعلى المدبرين حكمة . ولهذا وضع الدين لهـذا النوع الانسانى ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعدها الله له بأصل خلقته ، ثم هو ينحدر عنها الى المنازل السفلى بجهله وسوء تصريفه لهواه ، لذلك أرسل الأنبياء عليهم السلام من نوح ومن بعده الى محمد صلى الله عليه وسلم . . . وبهذا يكون التفريع بالفاء ظاهرا . وقد فسر الدين بالجزاء يوم القيامة ، وبينوا معنى الفاء بأنه اذا كان الله خلق الانسان ، وابتدأ خلقه بلا مثال ، أفلا يقدر على اعادته ؟ . . وأنت تراه بعيدا من المعنى بُعْدا سحيقا . وأسلوب السورة ظاهر فى المعنى الذى بيناه ــ والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾

صح فى الأخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم أول ماتمثل له المَلَكُ الذى يَتَلَقَّى عنه الوحْىَ قال له الملك : اقرأ . قال رسول الله :فقلت : ما أنا بقارىء ! قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجَهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء ! فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء ! فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، فقال **(اقرأ باسم ربك الذى خلق)** حتى بلغ **(مالم يعلم)**.

قال الراوى : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة . والحديث طويل ، وفيه أن الوحْىَ قد فَتَرَ فَتْرة بعد ذلك حَزَن لها النبى صلى الله عليه وسلم حُزنا غَدَا منه مرارا كَىْ يَتَرَدَّى من رؤوس شواهق الجبال. ولكن كان يمنعه تمثل المَلَكِ له واخباره بأنه رسول الله حقا . وفى هذا دلالة على أن **(اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم)** هو أول خطاب الٰهى وُجِّه الى النبى صلى الله عليه وسلم .

أما بقية السورة فهو متأخر النزول قطعا ،ومافيه من ذكر أحوال المكذبين يدل على انه انما نزل بعد شيوع خبر البعثة ، وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لايذائه عليه السلام . ثم هذا لاينافى أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هى أم الكتاب كما بيناه فى تفسيرها .

ترى من سياق القصة التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى — كن قارئا باسم الله — من قبيل الأمر التكوينى . فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئا ولا كاتبا ، ولذلك كرر القول مرارا « ما أنا بقارىء » ! وبعد ذلك جاء الأمر الالٰهى بأن يكون قارئا ، وان لم يكن كاتبا ، فانه سينزل عليه كتاب يقرؤه وان كان لا يكتبه .

ولذلك وصف الرب بالذى خلق ، أى الذى أوجد الكائنات . فالمتصف بالصفات التى يظهر أثر المتصف بها فى ابداع الكائنات التى لا يحيط بها الوصف ، قادر أن يوجد فيك القراءة ، وان لم يسبق لك تعلمها ، لانك لم تكن تدرى ما الكتاب ، فكأن الله يقول : كن قارئا بقدرتى وبارادتى . وانما عَبَّرَ بالاسم لأنه — كما سبق فى سورة سبح — دالٌّ على ماتعرف به الذات .

وخلق القراءة يلفتك الى الذات وصفاتها جميعا ، لان القراءة علم فى نفس حية ، فهى تخطر ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وارادته .

اما اذا حملنا الأمر على التكليف ، وقلنا أن المعنى انك مأمور — اذا قرأت أن تقرأ باسم

عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦

الله ، وهو خلاف المتبادر ـ فيكون معنى ذلك هو مابيناه فى معنى ((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) فى تفسير الفاتحة ، أى اذا قرأت فاقرأ دائما على أن تكون قراءتك عملا تنفذه لله لا لغيره ، فلو فرض انه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ، ولم يذكر الاسم ، فهو قارىء باسم الله . وانما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير فى بداية كل عمل الى أن يرجع الى الله فى ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه .

والعلق : الدم الجامد ، وهى حالة الجنين فى الأيام الاولى لخلقه . ومن كان قادرا على أن يخلق من الدم الجامد انسانا ـ وهو الحى الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الارضية ، ويسخرها لخدمته ـ يقدر أن يجعل من الانسان الكامل ـ مثل النبى صلى الله عليه وسلم ـ قارئا وان لم يسبق له تعلم القراءة .

جاء بهذه الآية بعد سابقتها ليزيد المعنى تأكيدا . كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارىء : ايقن أنك قد صرت قارئا باذن ربك الذى أوجد الكائنات ـ وما القراءة الا واحدة منها ـ والذى انشأ الانسان خلقا كاملا (١) من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة وانما القراءة صفة عارضة على ذلك الانسان الكامل فهى أوْلى بسهولة الايجاد .

ولما كانت القراءة من الملكات التى لاتكيسبها النفس الا بالتكرار والتعود على ماجرت به العادة فى الناس ، ناب تكرار الأمر الالهى عن تكرار المقروء فى تصييرها ملكة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلهذا كرر الامر بقوله : **(اقرأ وربك الاكرم)** . وجملة وربك الخ ، استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يُرتَجَى منه الاعطاء ، فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ـ نعمة القراءة ـ من بحر كرمه .

ثم أراد أن يزيده اطمئنانا بهذه الموهبة الجديدة فوصف مانحها بأنه **(الذى علّم بالقلم)** أى أفهَمَ الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلم آلة جامدة لاحياة فيها ولا من شأنها فى ذاتها الافهام . فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، الاّ يجعل منك قارئا مبينا ، وتاليا معلّما ، وانت انسان كامل ؟

ثم اراد أن يقطع الشبهة من نفسه ، ويُبْعِد عنه استغراب أنْ يقرأ ـ ولم يكن قارئا ـ فقال : **(علم الانسان مالم يعلم)** . اى أن الذى صدّر أمرَه بأن تكون قارئا وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيُبلّغُك فيها مبلغا لم يبلغه سواك ، هو الذى علم الانسان جميع ماهو متمتع به من العلم ، وكان فى بدء خلقه لايعلم شيئا . فهل يستغرب من هذا المعلم الذى ابتدأ العلم للانسان ـ ولم يكن سبق له علم بالمرة ـ أن يعلّمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ، ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها ؟! .

ثم انه لايوجد بيان أبرع ، ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات . فان لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه الى النهوض الى تمزيق تلك الحجب التى حَجَبت عن ابصارهم نور العلم ، وكسر تلك الابواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها فى ظلمات من الجهل . وان لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ... فلا أرشدهم الله أبدا !

هذه الآيات دلت على أن الله خلق العالم ، وعلى أن لاينْسُبَ الخلق الى غيره ـ كما

(١) والذى انشأ الخ معطوف على الذى أوجد الكائنات .

أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن

ترشد اليه الآية الأولى ــ وأنه خلق الانسان الحى الناطق مما لاحياة فيه ولا نطق ولا شكل ولا صورة ، وعلّمه أفضلَ عِلْمٍ ، وهو الكتابة ، ووهبه العِلْمَ ولم يكن يعلم شيئا . فكل شيء للانسان فهو منه ومن هباته . فما أعجب مايكون من الانسان بعد ذلك من غفلته عن ذلك كله لمجرد أن يحس من نفسه الغِنَى عن غيره !

ولهذا ناسب أن يؤتى بعد تلك الآيات المتقدمات بما نزل بعدها بسنين كثيرة من قوله **(كلا ان الانسان ليطغى)** . كلا كلمة زجر تفيد فى الأغلب أن مابعدها مخالف لأثر ماقبلها . أى ما أسخف عقل الانسان ! فانه مع ظهور أمره ، وشدة فقره فى نفسه ، وظهور أن الله مالك كل شيء عنده ، يطغى ويخرج عن الحد الذى يجب عليه أن يقف عنده ، فيستكبرعن الخشوع لربه ، ويتطاول بالأذى على خلقه ، وذلك **(أن رآه استغنى)** اى متى أحس من نفسه قدرة وثروة يعد نفسه بهما فوق مَن دونَه من الناس ، فلا يرى أنه معهم أعضاء جماعة واحدة ، يحتاج كل الى الآخر فى استدامة الأمن واستكمال السعادة . والاستغناء بهذا المعنى ، هو الرذيلة . وهو المذكور فى قوله ((**وأما من بخل واستغنى**)) فى سورة الليل .

اما الغِنَى والقوة فى أيدى الأتقياء، فهما أعظم وسائل الخير ، وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية . ولكن الأتقياء يرشدهم فى تصريف ثروتهم وقوتهم العلم والدين الصحيحان ، والأغلب من عامة الناس يصرفهم الهَوَى والشهوة ، لهذا أطلق الانسان باعتبار الأغلب من أفراده وهم الذين يستغنون بالمعنى السابق .

ولما كان المغرور يظن أنه فى سوء عمله انما يصنع ماهو من حقه ، ضاعف له التأكيد ، فقال **(انه ليطغى)** : اى انه باستغنائه يخرج عن حده قطعا . ثم بيّن انه واهم فى طغيانه، كاذب فى زعمه انه مَلَكَ ناصيةَ القوة والقدرة لأن مافى يده عارية ، وليست نفسه بباقية ، ولا لها من الله واقية ــ فقال : **(ان الى ربك الرجعى)** أى المرجع . أى ان المرجع الى الله وحده دون غيره ، فهو مالكَك ومالكُ ماتملِكه ، وهو الذى ينتزع رُوحك فتخرج من هذه الحياة الدنيا الى حياة ينكشف عنك فيها غطاء الغرور ، وتظهر فى مظهر ذلك ، وتُحاسَب على ما أتيته أيام عزك .

بعد ذلك جاء الله لنا بمَثَلٍ من أمثلة الطغيان ، وذكره على طريقة الاستغراب والتبشيع . ثم أعقب ذكره بالوعيد والتهديد ، فقال : **(أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى)** . كلمة ارأيت صارت تستعمل فى معنى اخبرنى . على أنها لا يُقْصَد بها فى مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقى ، ولكن يُقْصَد بها انكار الحالة المستَخْبَر عنها وتقبيحها ، كما فى قوله : **أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم الخ** . فكأنه يقول ما أسخف عقل هذا الذى يطغى به الكِبْر فينهىَ عبدا من عبيد الله عن صلاته ! خصوصا وهو فى حالة ادائها .

اما قوله : **(أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى)** . فمعناه أخبرنى عن حاله ان

كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ

كان ذلك الطاغي على الهُدَى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة : أفما كان ذلك خيرا له وأفضل ؟ !

وقوله : **(أرأيت ان كذب وتولى)** . اى نبئني عن حاله ان كذب وتولى . أى كذب بما جاء به النبيون ، أو كذب بثبوت الفضيلة وأصل الفرق بين الخير والشر والصالح والطالح . **(وتولى)** : اى أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ، ويصيبه من عذاب الله مالا قبل له باحتماله ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت فى تفسير المعنى ، وهو من الايجاز المحمود بعد مادل على المحذوف بقوله : **(ألم يعلم بأن الله يرى)** ؟ . اى أجَهِلَ أن الله يطلع على أمره : فان كان تقيا على الهُدَى أحسن جزاءه وأن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته ؟

ثم ان مايطيل به المفسرون فى المفعول الثانى لفعل ارايت الأولى ومفعوليها فى الثانية والثالثة ، فهو مما لامعنى له ، لأن القرآن قدوة فى التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول اصلا بمعنى أخبرنى . والجملة المستَخْبَرُ عن مضمونها تسد مسد المفاعيل .

(كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) كلمة **كلا** صدعٌ بالزجر جديد ، اى لا يستمر به غروره وجهله وطغيانه . فانى أقسم لئن لم ينته عن هذا الطغيان ، وان لم يكف عن نهى المصلى عن صلاته **(لنسفعا بناصيته)** : أى لنأخذن بها . والناصية شعر الجبهة ، أو الجبهة نفسها . قال المبرد : السفع الجذب بشدة ، وسفع بناصية فرسه : جذبه . قال عمرو بن معدى كرب :

قوم اذا كثر الصياح رأيتهم ... مابين مُلْجِم مُهْرِه او سافع

والأخذ بالناصية هنا مَثَلٌ فى القهر والاذلال والتعذيب والنكال . **(ناصية كاذبة خاطئة)** أعاد الناصية على طريق البدل مع وصفها بالوصفين التابعين لها لزيادة التشنيع بها ، وهى كاذبة لغرورها بقوتها مع انها فى قبضة خالقها فهى تزعم مالا حقيقة له ، وخاطئة لأنها طغت عن حدها ، وعتت عن امر ربها ، واساءت الى الصالحين من قومها . ونسبة الكذب والخطيئة الى الناصية ، مع أن الكاذب والمخطىء صاحبها ، لان الناصية مظهر الغرور والكبرياء كما هو معروف . **(فليدع ناديه)** النادى : المجلس الذى يجتمع فيه القوم ، ويطلق على القوم أنفسهم . أى فليجمع أمثاله ممن ينتَدِى معهم ليمنع المصلين المخلصين ، ويؤذى اهل الحق الصادقين ، فان فعل فقد تعرَّض لقهرنا وتنكيلنا .

(سندع الزبانية) الزبانية فى أصل اللغة : الشرط وأعوان الولاة . قيل أنه جمع لاواحد له . وقال ابو عبيدة : واحده زِبنية بكسر فسكون كعفرية . وقال الكسائى : واحده زِبْنِي بالكسر كانسى . وقال عيسى بن عمر : واحده زابن . وقد تطلق العرب هذا الاسم على من اشتد بطشه ، وان لم يكن من أعوان الولاة . قال :

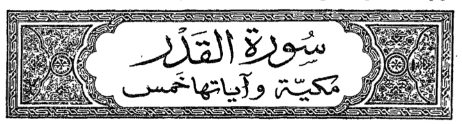
مطاعيمَ فى القُصْوى مطاعينُ فى الوغىَ ... زبانيـة غُلْب عظام حلومها

أى سندعو له من جنودنا القوى المتين الذى لاقِبَلَ له بمغالبته فيهلكه فى الدنيا

ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾

أو يُرْديه فى النار فى الآخرة وهو صاغر . (**كلا لاتطعه واسجد واقترب**) كلا ، زجر عن الاصغاء لقول الطاغى ، فلا تُطع الطاغى اذا نهاك عن عبادة ربك ، واسجد له واقترب : أى تقرب اليه بالعبادة ، ولا تبعد عنه بتركها .

ذكر الصلاة فى السورة لا يدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة . فقد كان للنبى وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة . جاء فى الخبر أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا يُصَلِّىَ عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبى صلى‌الله عليه وسلم فقال : لو فعل لأخذته الملائكة . وفيه نزلت الآيات ، ولا مانع من أن يكون فى الآيات إشارة اليه ولكنها عامة فى كل وقت وزمن كما ترى . والخطاب فيها مَوَجَّه الى من يخاطَب لا الى شخص النبى صلى الله عليه وسلم . والله اعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ

(**انا أنزلناه فى ليلة القدر**) . قال الله تعالى فى مفتتح سورة الدخان ، وهى سوره قصد فى مفتتحها الى ذكر الزمن الذى نزل فيه القرآن كهذه السورة : « **حم والكتاب المبين انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذِرين . فيها يُفْرقُ كلُ أمرٍ حكيم أمرًا من عندنا انا كنا مُرسِلين رحمةً من ربكَ انه هو السميعُ العليم** الخ » . وقال فى سورة البقرة : « **شهرُ رمضانَ الذى أنزل فيه القرآنُ هدًى للناسِ وبيناتٍ من الهُدَى والفرقان** » .
هذه هى المواضع من ذكر تنزيل القرآن التى جيء فيها بالاشارة الى زمن نزوله .

قال الشعبى : المراد من نحو أنزلناه وأنزل فيه القرآن الابتداء بانزاله ، خصوصا والقرآن كله ، والجملة منه وانْ قَصُرَت ، كل ذلك يُسمَّى قرآنا ويُسمَىَ كتابا . فالضمير فى أنزلناه فى هذه السورة عائد الى القرآن كالضمير فى أنزلناه العائد الى الكتاب المبين فى آية الدخان المتقدمة . والمراد بانزاله الابتداء بانزال شيء منه . وهو المعنِى من قوله « **شهرُ رمضانَ الذى أُنزل فيه القرآنُ** » أى ابتديء فيه انزاله ، أى أن أول ما نزل منه نزل فى شهر رمضان .

وقد جاء فى آية الدخان وفى هذه السورة « **سورة القدْر** » أن الله نَزَّل القرآنَ ليلا لا نهارا ، وانه سُمِّىَ ههنا الليلة التى نزل فيها ليلة القدْر ، ووصفها فى آية الدخان بالمباركة .
وقد بيّن سبب الانزال فى آية الدخان بقوله « **انا كنا منذِرين** » . اى اننا اذ خلقنا الانسان

نوعا ممتازا بطبيعته، يفارق سائر الحيوان بفطرته، محتاجا الى التعليم والارشاد بغريزته ـ قد كتبنا على أنفسنا أن نتعهده بالانذار على ألسنة الرسل ، فانزلنا القرآن لانذار الناس بما سيلاقون جزاء لاعمالهم ، ولما تعقد عليه قلوبهم ـ ثوابا أو عقابا ـ في حياة أخرى بعد هذه الحياة . ثم بيّن بركة الليلة بقوله : ((**فيها يُفرَق كل أمرٍ حكيم**)) . أى يُفصَل فيها كلُ حُكم من أحكام الدين ، ولا يقرر فيها من الأحكام الا ما كان حكيما يقف بك عند الحق ، ويبعدُ بك عن الباطل ، وينصرف بك عما فيه شقاؤك وفناؤك الى ما فيه سعادتك وبقاؤك . ثم حقق له الصفة بقوله ((**أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربكَ انه هو السميعُ العليمُ**)) .

اذا كان الأمر من عند الحكيم العليم الذى من شأنه ارسال الرسل رحمة بعباده ـ وقد سمع توسل نبيه اليه فى هدايتهم ـ فلا ريب تكون الحكمة أوله وآخره وباطنه وظاهره . ولاشك أن ابتداء نزول القرآن كان فرقا بين الحق والباطل ، وكل ماجاء منه كان كذلك . ثم توالىَ النزول بعد الليلة الأولى بما هو من نوع مانزل فيها ، كما قال : **انا كنا مرسلين رحمةً منْ ربكَ** . فصح أن يُنسَب اليها انه يُفرَق فيها كل امر حكيم ، لأن كل ماجاء فيها كان أمرا حكيما فُرّقَ به بين الحق والباطل ، وبداية لما يكون بعده من مثله ، كما صدق قوله : ((**شهرُ رمضانَ الذى أنزلَ فيه القرآنُ هُدًى للناسِ وبينات من الهُدَى والفرقان**)) مع انه لايكون بينة وفارقا بين الحق والباطل الا ماظهر للناس منه ، وهو مانزل وبُلِّغَ اليهم بالفعل ، أو كان بسبيل أنْ يُبلَّغ . فليس الامر الحكيم الذى يُفرّق فى الليلة المباركة الا أمر الدين والاحكام الذى سمّاه فى ((**البقرة**)) ((**هدًى للناس وبيناتٍ منَ الهُدَى والفرقان**)) .

وهذه الليلة المباركة هى بعينها ليلة القدر ، فهى ليلة من شهر رمضان بلا شك ، كما يصرح به نص آية البقرة مع ماينضم اليه من هذه الآيات . وكل تأويل يخرج عن ذلك فهو بعيد عن معنى النص ، بل لا يقبله الا من يقول : ان الالفاظ العربية لاتدل على معانيها . . ثم الاخبار الصحيحة متضافرة على انها فى شهر رمضان ولا نعيّنها من بين لياليه ، فقد اختلفت فيها الروايات اختلافا عظيما ، وكتاب الله لم يَعيّنها ، وما ورد فى الاحاديث من ذكرها انما قُصِدَ به حث المؤمنين على احيائها بالعبادة شكرا لله تعالى على ماهداهم بهذا الدين الذى ابتدأ الله افاضته فيهم فى اثنائها ، ولهم أن يعبدوا الله فيها افرادا وجماعات : فمن رُجّحَ عنده خبر فى ليلة أحياها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق فعليه أن يشكر الله بالفراغ اليه بالعبادة فى الشهر كله . وهذا هو السر فى عدم تعيينها ، وتشير اليه آية البقرة ، فانها تجعل الشهر كله ظرفا لنزول القرآن ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه .

فهى ليلة عبادة وخشوع وتذكر لنعمة الحق والدين فلا تكون ليلة زَهْو ولَهْو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء يتسابق اليها المنافقون ، ويَتَحدّثُ انفسَهم بالبُعْد عنها المخلصون ، كما جرى عليه عمل المسلمين فى هذه الايام ـ فان كل ماحفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لاينظر الله اليه ، ويسمعون شيئا من كتاب الله لاينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه ، بل أن اصغوا اليه فانما يَصْغَوْن لنغمة تاليه ، ثم يسمعون من الأقوال مالم يصح خبره ولم يُحْمَد فى الآخرين ولا الأولين

أثره . ولهم خيالات فى ليلة القدر لاتليق بعقول الأطفال فضلا عن الراشدين من الرجال .

ثم سُمِّيَت ليلة القدْر : اما بمعنى ليلة التقدير لان الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخُطة لنبيه فى دعوة الناس الى ماينقذهم مما كانوا فيه ، واما بمعنى العظمة والشرف من قولهم : فلان له قَدْر ، اى له شرف وعظمة ، لأن الله قد أعلى فيهـا منزلة نبيـه وشرفه وعظمه بالرسالة . وقد جاء بما فيه الاشارة ، بل التصريح ، بأنها ليلة جليلة بجلالة ماوقع فيها من انزال القرآن ، فقال : **(وما أدراك ماليلة القدر)** . اى وما الذى يُعْلِمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها ؟ **(ليلة القدر خيرٌ منْ ألف شهر)** فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدال على أن شرَفها ليس مما تسهل احاطة العـلم به . ثم قال أنها خير من الف شهر ، لأنه قد مضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يتخبطون فى ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نورُ الهدَى خيرٌ من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف فى التفضيل عنـد النص ، وتفوِّض الأمرَ فى تحديد مافضِّلَتْ عليه الليلة بألف شهر الى الله تعالى ، فهو الذى يعلم سبب ذلك ، ولم يبينه لنا . ولك أن تجرى الكلام على عادتهم فى التخاطب ، وذلك فى الكتاب كثير ، ومنه الاستفهام الواقع فى هذه السورة **(وما أدراك ما ليلةُ القدْر)** ؟ فانه جار على عادتهم فى الخطاب . والا فالعليـم الخبير لايقع منه أن يستفهم عن شىء فيكون التحديد بالألف لامفهوم له ، بل الغرض منه التكثير ، وأن أقل عدد تفضله هو ألف شهر .

ثم ان درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة ، فاذا قلت اخفاء الصدقة خير من اظهارها لم تعين درجة الأفضلية ، وهى درجات فوق درجات . وقد جاء فى الكتاب فى واقعة واحدة — هى واقعة بدر — أن الله أمَدَّ المؤمنين بألفٍ من الملائكة أو بثـلاثة آلاف او بخمسة آلاف كما تراه فى الأنفال وآل عمران . فالعدد هناك لامفهوم له كما هو ظاهر فهى ليلة خير من الدهر ان شاء الله .

ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال : **(تَنَزَّل الملائكة والرُّوحُ فيها)** . يخبر جلّ شأنه أن أول عهد للنبى صلى الله عليه وسلم بشهود الملائكة ، كان فى تلك الليلة : تَنَزَّلَت من عالمها الروحانى الذى لايحدُّه حدٌّ ولا يُحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم .

والرُّوح هو الذى يتمثل له مُبلِّغا للوحى ، وهو الذى سُمِّىَ فى القرآن بجبريل . وانما تظهر الملائكة والروح **(باذن ربهم)** أى انما تتجلى الملائكة على تلك النفس الكاملة بعد أن هيأها الله لقبول تجليها ، وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم .. فذلك فضل الله يختص به من يشاء ، واختصاصه هو اذنه ومشيئته . ثم أن هذا الاذن مبدؤه الأوامر والأحكام لأن الله يُجلِّى الملائكة على النفوس لايحاء مايريده منها ، ولهذا قال : **(من كل أمر)** اى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد ابلاغه الى عباده فيكون الاذن مبتدئا من الأمر على هذا المعنى . والأمر ههنا هو الامر فى قوله: **فيها يُفْرَقُ كلُ أمرٍ حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين** . فالكلام فى الرسالة والاوامر والاحكام

لا فى شىء آخر سواها ، ولهذا قال بعضهم : ان ((من)) ههنا بمعنى الباء ، أى بكل أمر، ولا حاجة اليه لما قلنا . وانما عبّر بالمضارع فى قوله : **تَنَزَّلُ الملائكة** ، وقوله : **فيها يُفْرَق كل أمرٍ حكيم** ، مع أن المعنى ماض « لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن » لوجهين : الاول لاستحضار الماضى لعظمته على نحو مافى قوله ((**وزُلْزِلوا حتى يقولَ الرسولُ**)) فان المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصويرا . قال تأبط شرا :

الا من مبلغ فتيـــان فهـــم	بمالاقيت عند رحى بطان (١)
وأنى قد لقيت الغول تهوى	بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لهـا : كلانا نضو أين	أخو سفر فخلى لى مـكانى
فشدت شدة نحوى فأهوى	لها كفى بمصقـول يمـانى
فأضربها بلا دهش فخـرت	صريعا لليـــدين وللجـران

والشاهد فى قوله : فأهوى وقوله فاضربها فى حكاية الماضى . والثـانى لأن مبـدأ النزول كان فيها ، ولكن بقية الكتاب ، وما فيه من تفصيل الاوامر والاحكام ، كان فيما بعد . فكأنه يُشير الى أن ماابتدأ فيها يستمر فى مستقبـل الزمان حتى يكمل الدين .

(**سلام هى حتى مطلع الفجر**) : أى أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذًى . والاخبار عنها بالسلام نفسه ــ وهو الامْنَ والسلامة ــ للمبالغة فى أنه لم يَشُبْها كدر ، بل فرّج الله فيها عن نبيه كل كُرْبة ، وفتح له فيها سُبُلَ الهداية والارشاد فَأَنَالَه بذلك ماكان يتطلع اليه الأيام والشهور الطوال .

أما ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التى يُفْرَق فيها كلُ أمرٍ حكيم هى ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التى تفرق فيها هى الأرزاق والاعمار . وكذلك مايقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر ــ فهو من الجراءة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشىء من ذلك مالم يرد به خبر متـواتر عـن المعصوم صلى الله عليه وسلم . ومثل ذلك لم يرد لاضطراب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها ، ومثلها لايصح الأخذ به فى باب العقائد . ومثل ذلك يقال فى بيت العزة ونزول القرآن فيه جملة واحدة فى تلك الليلة ، فانه لايجوز أن يدخل فى عقائد الدين لعدم تواتر خبره عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه والاكنا من الذين ((**إنْ يتبعون الاّ الظن**)) . نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون فى هذه المصيبة : مصيبة الخلط بين مايصح الاعتقاد به من غيب الله ويُعد من عقائد الدين ، وبين مايظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر أن تقع فيها مثلهم ــ والله أعلم .

---

(١) رحى بطان : محل بالبادية . والسهب : الفلاة . والصحصحان : المستوى من الارض . ونضو أين : أى مهزول من الاعياء والتعب . والابيات من أكاذيب العرب المعروفة فى الحكاية عن الغول ووصف مايكون منها .



بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ

هذه السورة مدنية على أرجح الاقوال .

كان الكثير الأغلب من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشركين من العرب فى ظلام من الجهل بما يجب الاعتقاد به والعمل عليه من شرائع أنبيائهم وسَلَفهم ، وذلك لاعتمادهم — فيما يعتقدون وما يعملون — على تقليد آبائهم .

وقد كان فيمن تقدم منهم من أدخل على الشرائع كثيرا مما ليس منها : إما بسوء الفهم ، وإما للعناد لإفحام الخَصْم ، وإما باستحسان عقولهم ضروبا من البدع يتوهمونها مؤيدة للدين مفَخِّمَة لأمره ، وهى من أشد الاشياء ضررا بالدين . ثم جاء من بعدهم يزيد على ماوضعوه الى انّ خفىَ الحق فى ظلام الباطل ، ولم يزالوا كذلك الى انّ جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذت صيحته تشق تلك القبور ، ويده الكريمة ترفع تلك الستور ، فيسّرى شعاع من ضوء الحق الذى جاء به من خلال تلك الحجب الىماوراءها من أعماق الضمائر،فإذا أحسوا ببصيصه فَرِحَ به طُلاّب الحقائق فى تلك الظُلَم ، وأزاحوا عن أبصارهم غِطاء الشُبْهَة ، ومثلوا بين يدى الداعى صلى الله عليه وسلم مُلبِّين دعوته طالبين هدايته .

أما أهل العناد منهم فيقع الزلزال فى اعتقادهم ، ويضعف حبل تقليدهم ، ولكنهم يثبتون فى ضلالهم ، ويقولون لانفسهم ولاخوانهم : هذا الذى يقوله الداعى ليس بالشىء الجديد ، ولم يترك الاول شيئا للاخر . وجميع مايدعونا اليه كان معروفا لنا ، مذكورا فى كتبنا ، واردا فى قول أسلافنا ، ولو لم يأتِ به لعرفناه واهتدينا اليه مما عندنا . ولكن مانحن فيه خير مما يدعو اليه . وينسجون من أوهامهم مايبيعونه على الجُهّال ، كما هى عادة أمثالهم فى كل زمان .

ففى الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الجاحدين الذين يجدون لامع الحق فيعرفونه ، ثم يُغمِضون عيونهم عن النظر اليه — نزلت هذه السورة ، فيقول الله : **(لم يكن الذين كفروا)** وجحدوا نبوتك بعنادهم .بعد ماتبيّنوا الحق منها . **(من أهل الكتاب)** اليهود والنصارى والصابئين الذين عرفوك وسمعوا أدِلّتك وشَهِدوا آياتك — لم يكونوا هم **(والمشركين)** أى وثنِيىّ العرب ، **(منفكين)** عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ماقلّدوا فيه آباءهم ،لايعرفون من الحق شيئا **(حتى تأتيهم البيّنة)** : أى الحجة القاطعة

يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

المثبتة للمدعى ، وهى هنا النبى صلى الله عليه وسلم . فمجيئه هو الذى أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم ، وتمكن من عوائدهم ، حتى اخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئا معروفا لهم يصلون اليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق ان يتبع ، فان ماهم فيه أجمل وابدع ، ومتابعة الاباء فيه أشهى الى النفوس وأمتع .

تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى **(رسول من الله)** محمد صلى الله عليه وسلم **(يتلو صحفا مطهرة)** هى صحف القرآن وهى مطهرة من الخلط وحشو المدلسين، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا. وتلاوتها : تلاوة مافيها. تقول حفظت الصحيفة او حفظت المصحف ، والمعنى حفظت مافيه . والنبى صلى الله عليه وسلم ــ وان كان أميا ــ فقد كان يتلو الكلام المكتوب فى تلك الصحف ، هذه الصحف **(فيها كتب قيمة)** . القيمة المستقيمة التى لاعوج فيها. واستقامة الكتب : اشتمالها على الحق الذى لايميل الى باطل **((لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد))** .

والكتب التى فى صحف القرآن ومصاحفه اما ان تكون هى ماصح من كتب الاولين : كموسى وعيسى وغيرهما ، مما حكاه الله فى كتابه عنهم ، فانه لم يأت منها الا بما هو قويم سليم . وقد ترك حكاية مالبس فيه الملبسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه ، ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من اهل الكتاب سبيلا الى انكار الحق ، وانما فضلوا عليه سواه ــ أو هى سور القرآن، فان كل سورة من سوره كتاب قويم . فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هى كتب قيمة .

ولما كان لسائل ان يسأل : اذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين قد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ماعرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذى جاءهم ؟ أجاب الحق بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذى لايختلف وجهه بما أوحى الله به الى انبيائهم ، وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم فى معرفة سبيله حتى لاينحرفوا عنه ، فاذا عرض لأحدهم شبهة رجع فى كشفها الى العارف بمعانى الكتب ، ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ، ويحافظوا عليها حتى لايضللهم فيها مضلل .. لكن هذه البينة لم تفدهم شيئا ، فانهم اختلفوا فى التأويل ، وتفرقوا فى المذاهب ، حتى صار أهل كل مذهب يبطل ماعند أهل المذهب الآخر ، وكان ذلك بغيا منهم ، واستمرارا فى المراء ، واصرارا على ماقاد اليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى : **(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءتهم البينة)** على ألسنة أنبيائهم .

فهكذا كان شأنهم فى النبى صلى الله عليه وسلم : جحدوا بينته ــ كما جحدوا بينة أنبيائهم ــ بتفرقهم فيها ، وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها. فان كان هذا شأن أهل الكتاب فى بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق فى الجهالة، وأسلس قيادا للهوى منهم؟

يقول الله عن أهل الكتاب : **(وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)** . الواو فى قوله : وما أمروا الخ

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ

للحال ومعنى (**امروا**) : اى بلغت اليهم اوامر ، ووضعت لهم شرائع وأحكام .

والدين هو اذعانُ النفسِ لإلهها مع الخضوع له وامتثالِ أوامره فيما يُطلب منها ، واخلاص الدين لله تنقيته من أن يُشركَه فيه شيء بلا واسطة ، ولا مال ، ولا كرامة ، ولا جاه . والحنفاء : جمع حنيف ، وهو من يتبع ابراهيم عليه السلام أو من يكون على مثاله . والأصل فى معنى الحنيف المائل المنحرف .

ولما كان الناس فى زمن ابراهيم على وَثَنِيّة واحدة ، وفارقهم ابراهيم الى التوحيد وَحْدَه قِيلَ فيه : حنيف ، اى مائل عن الناس كافة .

ولما كان العرب قبل النبوة يزعمون انهم على دين ابراهيم لقّبُوا بالحنفاء ، مع ماخلطوا فى دينهم ، وأدخلوا عليه من عقائد الوثنية وعوائدها ، وخفَى هذا على كثيرٍ من الناس فظنوا أن الحنيفَ معناه الوَثَنِيّ ، وليس الأمرُ كما يظنون .

واقامة الصلاة : الاتيان بها لاحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع ، لا أنْ نكونَ مجرّد حركات ظاهرة ، فان ذلك ليس من الصلاة فى شيء البَتّة . وايتاء الزكاة : صرفها فى مصارفها التى عيّنَها الله . وهذا هو دين الكُتُبُ القيّمة ، أو دين الامة القيّمة المستقيمة .

ومعنى الآية أن اهل الكتاب قد افترقوا ، ولعنت كل فرقة اختها ، وكان افتراقهم فى العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع انهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الاحكام الا لاجل أن يعبدوا الله ، ويُخلصوا له عقائدهم واعمالهم ، فلا يأخذونها الا عنه مباشره لايقلّدون فيها اباً ولا رئيساً ، وانما يُحَصّلون من العلم مايُؤَهّلهم لفهمها ، مائلين فى ذلك عما عليه أهل الضلال من الأمم الأخرى ، وأن يخشعوا لله فى صلاتهم ، وأن يَصِلوا عباد الله بزكاتهم . فاذا كان هذا هو الأصل الذى يرجع اليه فى الاوامر ، فما كان عليهم الا أن يجعلوه نُصْبَ اعينهم ، فيردّوا اليه كل مايَعرض لهم من المسائل ، ويَحلّوا به كل مايعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكّم الاخلاصُ فى الأنفس تسلط الانصاف عليها فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طُرُقَها الفُرْقَة .

هذا مانعاه الله من حال أهل الكتاب . فما نقول فى حالنا ؟ افما ينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء اعمالنا فى افتراقنا فى الدين ، وأن صرنا فيه شيعا ، وملأناه محدَثات وبدعا؟!

بهذا الذى تقدم عرفت ان الذين كفروا هم الذين انكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عند دعوتهم الى قبول ماجاء به ، وأن (**من**) فى قوله : (**من أهل الكتاب**) للتبعيض ، وأن معنى لم يكونوا مُنْفَكّين ، أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم فيقع الزلزال فى عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحْضَة التى كانوا فيها حتى تأتيهم البينة .

ويجوز أن يكون المراد من الذين كفروا - والله أعلم - أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عند ماجاءهم ، ولم ينظروا فى دليله ، أو أعرضوا عنه - بعد ماعرفوا دليله - سواء كانوا من مشركى العرب أو من اهل الكتاب ، وأن آمنوا بعد ذلك وصدقوا .

فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا

فأراد الله أنْ يذكّر مِنّته على من آمن من هؤلاء ، فبيّن أن الذين كفروا — أى جحدوا ماأوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركى العرب — لم يكونوا براجعين عن كفرهم وجحودهم هذا حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ماكانوا عليه من الكفر فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم فى ارسال رسوله اليهم!

وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه فى معنى الذين كفروا وانفكاكهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى حتى ، وبطل جميع مايهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد عن الرأى السديد ، فصَعَّبوا من القرآن سهلَهُ ، وحَرَموا من فهمه أهلَه .

(نار جهنم) : هى دار العذاب فى الآخرة ، وهى نار يجب علينا الايمان بها ، والتصديق بأن العذاب فيها أشد من العذاب فى نار الدنيا ، كما يجب علينا أن لانبحث فى حقيقتها ، ولا بم تنقد ، ولا أين يكون موضعها ، فذلك مما لايمكن لعقولنا أن تصل اليه ، وليس بمحال عقلى حتى نحتاج فيه الى تأويل . **(خالدين فيها)** : أى لايخرجون منها أبدا . **(أولئك)** هؤلاء الذين كفروا وجحدوا الحق ، بعد ماعرضت عليهم حجته ، وظهرت لهم حقيقته **(هم شر البَرِيّة)** : أى شر الخليقة . أى هم أقبح وأسوأ ماخلق الله حالا لأن منكر الحق بعد معرفته ، وقيام الدليل عليه ، منكر فى الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك الى غيره . **(الذين آمنوا)** هم الذين سطع لهم نور الدليل ، فاهتدوا به ، وأذعنوا لما دل عليه ، فصدقوا من جاء به ، وهو النبى صلى الله عليه وسلم **(وعملوا الصالحات)** لأن اذعانهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق ملكت الحق قيادهم فعملوا الأعمال الصالحة : من بذل النفس فى سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال فى أعمال البِرّ مع القيام بفرائض العبادات ، والاخلاص فى سائر ضروب المعاملات . **(أولئك هم خير البَرِيّة)** : أى هؤلاء المؤمنون الصالحون المحسنون هم أفضل الخليقة ، لأنهم بمتابعة الحق — عند معرفته بالدليل القائم عليه — قد حققوا لأنفسهم معنى الانسانية التى شرفهم الله بها ، وبالعمل الصالح قد حفظوا نظام الفضيلة الذى جعله الله قوام الوجود الانسانى ، وهَدَوا غيرهم بحُسْن الأُسْوَة الى مثل ماهُدُوا اليه من الخير والسعادة ، فمن يكون أفضل منهم ؟!

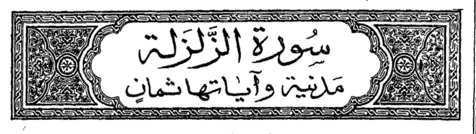
(جنات عدن تجرى من تحتها الانهار) : الجنات هى مغارس الأشجار النضرة . والعدن : الاقامة ، والانهار : جمع نهر ، وهو جدول الماء العظيم .

والمراد منها ههنا دار النعيم فى الحياة الآخرة ، وهى كذلك مما يجب علينا الاعتقاد به ، وأن النعيم واللذة فيها أكمل وأوفر من جميع لذائذ الدنيا ، وأنها دار خلد : أى أن من دخلها من أهلها لايخرج منها أبدا . وهو معنى **(خالدين فيها أبدا)** . ولا يجوز لنا البحث فى حقيقتها ولا أين موضعها ، ولا كيفية التمتع فيها ، فان ذلك لايعلمه الا

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨

الله (**رضى الله عنهم**) لانهم لم يخرجوا عن حدود شريعته ، ولم يهملوا العمل بسنته . ورضا الله : تفضله واحسانه . (**ورضوا عنه**) لأنهم يحمدون صنيعه فيهم ، واحسانه اليهم بسعادة الدارين . فانهم ــ بحسن يقينهم ــ يرتاحون الى امتثال مايأمر به فى الدنيا ، فهم راضون عنه . ثم اذا ذهبوا الى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله مالا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله فى كل حال . (**ذلك لمن خشى ربه**) : أى هذا الجزاء الحسن ، وهذا الرضا ، انما هو لمن كان قلبه بيُتا لخشيةِ ربهِ والخوف منه .

أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذى وقع ، ولا يزال يقع ، فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك ــ وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة ، وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الاحكام ،وأداء بعض العبادات :كحركات الصلاة ،وامساك الصوم ... مجردهذا يكفى فى نيل ما أعَدّ الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وان كانت قلوبُهم حشْوُها الحسد والحِقْد والكبرياء والرياء ، وأفواهِهم مِلْؤُها الكَذِب والنميمة والافتراء ، وتهز أعطافهم رياح العُجْب والخُيَلاء ، وسرائرهم مسكن العبودية والرِّق للامراء ــ بل ولمن دون الأمراء ــ خالية من أقل مراتب الخشوع والاخلاص لرب الارض والسماء ! كلا .. لاينالون حسن الجزاء . فان خشية ربهم لم تَحِل قلوبَهم ، ولهذا لم تهذّبْ من نفوسهم ، ولا يكون ذلك الجزاء الا لمن خشىَ ربّه ، وأشعر خوفه قلبَه .. والله أعلم .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ

(**سورة الزلزلة**) من السور المدنية . وهى سورة ارهاب وترغيب . قيل : أنهـا نزلت لإزالة ماوقع فى نفوس كثير من المؤمنين من أن الخير القليل لاينظر الله اليـه ، ولا يُجازى عليه . وكذلك الصغائر من الذنوب ليست بشيء يلام عليه : كالكذبة والنظرة ونحو ذلك . فأزال شُبْهتَهم ، وكشفَ عنهم وهْمَهُم ، وعرّفهَم أنّ لاشىءَ من عمل الانسان يفوته : فالخير يُجازَى بالخير مهما صَغُرَ ، والشر يَلقَى جزاءه من الشر مهما نزر .

(**اذا زلزلت الأرض زلزالها**) : أى أصاب الأرض ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرائع المدهش . وهو كقوله : ((**يأيها الناس اتقوا ربكم أن زلزلة الساعة شىء عظيم**)) . (**وأخرجت الأرض أثقالها**) : أى أنهـا ــ لشدة الزلزال والاضطراب ــ تشققت وثار

أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

باطنها ، فقذفت بما في جوفها من الاثقال : من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك مما يكون في باطن الأرض .

ومثاله المشهور مايُرَى الآن في الأراضى التى فيها البراكين « جبال النار » . فان الزلزال يحدث والأرض تنشق وتقذف بما فيها من نيران ومعادن ومياه ونحو ذلك ، وهو كقوله تعالى **« واذا الأرض مُدَّتْ . وألقت مافيها وتخلَّتْ »** .

(وقال الانسان مالها) ؟ من يكون من الانسان شاهدا لهذا الزلزال يَجِدُهُ مخالفا فى الشدة لجميع ماسبقه من أمثاله ، ولا يجد من عقله مايهديه الى معرفة سببه ويُصيبُه الدهَش .. فيقول : مالهذه الأرض ؟ ! وما الذى وقع لها فوق ماجرت به العادة ؟ **(يومئذ تحدث أخبارها)** . يومئذ بدل من اذاً . أى فى ذلك الوقت ـ وقت الزلزال ـ تحدثك الأرض أحاديثها . وتحديث الأرض تمثيل ، كما قال الطبرى وجماعة غيره ، اى أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب ، وما لم يُعْهَد من الخراب يعلم السائل ويفهمه الخبر ، وأن مايراه لم يكن ـ لسبب من الأسباب التى وضعتها السُّنَّة الالهية ـ حال استقرار نظام الكون ، بل ذلك **(بـ)** سبب **(أنَّ ربك أوْحَىَ لها)** . يقال : أوحَى له واليه وَوَحَى له واليه ، والمعنى واحد .

اى أن مايكون للارض يومئذ انما هو بأمر الَهى خاص .. قال لها : كونى خرابا ، كما قال لها ـ عند ايجادها ـ كونى أرضا . فهذا أمر من الأوامر التكوينية التى هى **كن** ، فيكون ماصدر به أمر **كن** .

والأوامر التكوينية عبارة عن تعلق القدرة الالهية بما هو أثر لها . وكثيرا ماتكون الأوامر الالهية التكوينية بأسباب كتكوين الانسان والحيوان والنبات ، فان كل كائن منها انما كان بتكوين الله . وقوله له : **كن** ، فيكون . ولكنه وضع لذلك أسبابا من التناسل والتوالد ، ولامانع من أن يكون خراب الأرض فى آخر عمرها بسبب من الأسباب التى تهدم بناءها وتجعلها هباء منثورا . ومعنى اختصاصه هذه الحالة باسم الوحى ، لأنها تأتى على خلاف ماعهد من أول نشأة الأرض .

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالهم) . يوم يقع ذلك الخراب العظيم لهذا العالم الأرضى ، وتبدل الأرض غير الأرض ـ كما جاء فى الآية الاخرى ـ يظهر ذلك الكون الجديد : كون ذلك اليوم الآخر والحياة الأخرى ، فيصدُرُ الناسُ ـ بعد بعثهم ـ أشتاتا متفرقين مختلفين . يقال : صَدَرَ عن المدينة ، اى سافر منها . اى يذهب الناس على اختلافهم : شَقِيُّهُم وسعيدُهُم ، محْسِنُهُم ومُسيئهم ، لِيُرَوْا أعمالهم . يروا ـ بضم الياء ـ أى ليريهم الله جزاء أعمالهم . يقال : عاش فلان حتى راى عمله ، أى جَنَى ثمرة ماقَدَّم . وفى قراءة ليروا ـ بفتح الياء ـ أى ليُبْصِروا بأنفسهم أعمالَهم ، اى ماأُعِدَّ لهم جزاءعليها . **(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره)** . الذرة : النملة الصغيرة ، وهى مثل فى الصِّغَر . وقيل : الذر هو الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس اذا دخلت من نافذة . ومثقال الذَّرَّة وزنها ، اى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فانه يراه

خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨

ويجد جزاءه : لا فرق فى ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم الى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون فى الشقاء .

والآيات التى تنطق بحبوط أعمال الكفار وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ماذكرنا . اى ان عملا من أعمالهم لايُنَجِّيهم من عذاب الكفر وان خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم على بقية السيئات الأخرى . اما عذاب الكفر نفسه فلايخفف عنهم منه شىء ، كيف لا ؟ والله جل شأنه يقول : ((**وَنَضَعُ الموازينَ القسْطَ ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا . وانْ كان مثقالَ حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسِبين**)) . فقوله : فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا ، اصرح قول فى ان الكافر والمؤمن فى ذلك سواء ، وأن كُلاًّ يُوَفَّى يوم القيامة جزاءه .

وقد ورد أن حاتما يُخَفَّفُ عنه لكرمه ، وانّ أبا لَهَبٍ يُخَفَّفُ عنه لسروره بولادة النبى صلى الله عليه وسلم . وما نقله بعضهم من الاجماع على أن الكافر لاتنفعه فى الآخرة حسنة ، ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من ائمة السَّلَف رضىَ الله عنهم .

على أن كلمة الاجماع كثيرا مايتخذها الجُهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وحَجَرًا يلقِمُونَه أفواه المتكلمين ، وهم لايعرفون للاجماع الذى تقوم به الحجة معنىً . فبئس مايصنعون ! (**ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**) لافرق فى ذلك بين المؤمن والكافر . فالمؤمنون يرون جزاء ماعملوا من شر اذا لم يكونوا تابوا عنه ، وليس الجزاء منحصرا فى العقاب فى دار العذاب : فمنه مايكون كذلك ، وهو الجزاء على الكبائر وترك الفرائض اذا لم تَمْحها التوبة الصحيحة ، ومنه مايكون بنقص فى درجة الكرامة : كجزاء الصغائر ، فانها ــ وان لم تُدْخِلك النار ــ ولكنها تريك منزلتك أحط من منزلة مَنْ تَنَزَّهَ عنها . وهذا شر تراه يقابل الشر الذى صنعته ــ والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢

(**والعاديات ضبحا**) . العاديات : جمع عادية ، من العَدْوِ ، وهو الجَرْي . والضَّبْح : صوت أنفاس الخيل عند جريها .

يقسم جل شأنه بالخيل التى تَعْدُو وتَجْرى ، وهى من شدة الجَرْي تَضْبَحُ ضَبْحًا ، ويسمع لها زفير شديد .

فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ

(فالموريات قدحا) . الموريات : جمع مورية من الايراء ، وهو أخراج النار بنحو الزناد . والقدح : هو الضرب لاخراج النار ، كضرب الزناد بالحَجَر .

يذكر سبحانه وصفا من أوصاف الخيل العاديات يحصل لها عند العدو ، ولذلك رتبه بالفاء . وهومايكون من اخراجها النار بحوافرها اثناءالجَرْى . اى يقسم بالعاديات التى يتطاير الشرر من حوافرها عند عَدْوها وهى تقدح بحوافرها الأرض قدحا .

(فالمغيرات صبحا) . المغيرات : جمع مغيرة ، من أغار على العَدُوّ اذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلبَ ماله . وهو وصف عَرَض للخيل من الغاية التى اجْرِيَت لها ، اى أنها تَعْدو ويشتد عَدْوُها حتى يخرج الشرر من حوافرها لتهجم على عَدُوٍّ وقت الصباح ــ وهو وقت المفاجأة ــ لأخذ العَدُوّ وهو على غير اهبة .

(فأثَرْنَ به نقعا) . الاثارة : التهييج وتحريك الغبار . والنَّقْع : الغُبار . والفعل معطوف على وصف المغيرات ، لأنه فى معنى الفعل . كأنه قال فاللاتى أغَرْن صبحا فأثرن فى وقت الصبح غبارا لشدة عَدْوِهن .

(فوسَطْنَ به جَمْعا) . اى فتوسطن ودخلن فى وسط جمع من الأعداء ففرقنه وشتتنه .

اقسم بالخيل متصفة بصفاتها التى ذكرها ، آتية بالاعمال التى سردها ، لينوه بشأنها ويُعْلِي من قدرها فى نفوس المؤمنين اهل العمل والجد ليُعْنوا بِقَنِيَّتها وتدريبها على الكَرّ والفَرّ ، وليحملهم انفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والاغارة بها ليكون كل واحد منهم مستَعِدًّا فى اى وقت كان لأن يكون جزءا من قوة الأمة اذا اضطرت الى صَدّ عَدُوٍّ ، أو بعثها باعث على كسر شوكته .

وكان فى هذه الآيات القارعات ، وفى تخصيص الخيل بالذكر فى قوله : **« وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرهبونَ به عَدُوَّ الله وعدُوَّكم »** ، وفيما ورد من الاحاديث التى لاتكاد تُحْصَر ــ مايحمل كل فرد من رجال المسلمين على ان يكون فى مُقدِّمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل ، ويبعث القادرين منهم على قِنْيَة الخيل على التنافس فى عقائلها ، وان يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون اتقانا .

أفليس من أعجب العجب أن ترى أمَّةً هذا كتابُها قد أهملت شأن الخيل والفروسية الى أن صار يشار الى راكبها بينهم بالهُزْؤ والسُخْرِيَة ، واخذت كرام الخيل تهجر بلادهم الى بلاد اخرى ؟ !

أليس من أغرب مايستغرب أن أناسا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم ، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل ، وأبعدهم عن صفات الرجولة ، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشارُ اليهم بالبَنَان ــ عندما كنت أكلمه فى منافع بعض العلوم وفوائدها فى علم الدين ــ أن قال : « اذا كان كل مايفيد فى الدين نُعَلِّمُه لطلبة العِلْم كان علينا اذن أن نعلمَهم ركوب الخيل » ؟ !

يقول ذلك ليفحِمْنِي ، وتقوم له الحُجَّة علىّ ، كأن تعليم ركوب الخيل مما لايليق ، ولا ينبغى لطلبة العلم . وهم يقولون ان العلماء ورثة الانبياء . فهل هذه الأعمال وهذه

ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ

العقائد تتفق مع الايمان بهذا الكتاب ؟ أنْصِفْ ثم اُحكم .

يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التى رفع ذكرها ليؤكد الخبر الذى جاء فى قوله : (**ان الانسانَ لربهِ لكنود**) الكنود : هو الكفور . يقال : كند النعمة ، كَفَرَها ولم يشكرْها . ورُوِىَ عن النبىصلى الله عليه وسلم « الكنودالذى يأكل وحدهويضرب عبده ويمنع رِفْدَه » . كأنه بذلك لايَعطِى مما أنعم الله به عليه ، ولا يرأف بعباد الله كما رأف الله به ، فهو كافر بنعمة ربه .

غير أن الآية عامة ، والمراد منها ذكر حالة من حالات الانسان التى تلازمه فى أغلب أفراده ، الا الذين يُرَوِّضُون انفسهم على الفضائل . وهى حقيقة لاريب فيها لأن فى طبع الانسان أن يستغرق فيما حضره فيصعب عليه أن يجعل نُصْبَ عينَيْه شيئا من ماضيه ، أو مما عساه يستقبله ، فتحيط به الغفلة . فهو اذا غمرته من الله نعمةغمرته بها غفلة ، وادخلت الى قلبه ضربا من قسوة ، وأحدثت فى طبعه شَوْبا من جفوة .

وأكّد الله هذا الخبر لزعم كثير من أهل الكنود أنهم شاكرون ، فأكّد لهم الخبـــر ليرجعوا الى انفسهم ، ويمتحنوا أعمالهم ليتبيّن لهم أن الغرور هو الذى غشهم فى معرفة حالهم ، فيفزعوا الى الله بالشكر ، ولا يكونالشكر الا بالبذل فى الحق الذى يبقى أثره ، ويجمل عند العقلاء ذكره . ثم يزيد الأمر تأكيدا بقوله : (**وانه على ذلك لشهيد**) : أى وان الانسان لشهيد على كنوده وكفره لنعمة ربه ، لانه يفخر بالقسوة على مَنْ دُونَه وبقوة الحيلة على مَنْ فَوْقَه ، وبكثرة مافى يده من المال مع الحِذْق فىتوفيره ، وقلمايفتخر بالمرحَمَـة وكثرة البذْل والحِـذْق فى اختيـار المواضع ــ اللهــم الا أن يريدَ غشـــا للسامع ــ وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود ، لأن مايفتخر به ليس من حق شكر النعمة ، بل من آيات كفرها .

(**وانه لحب الخير لشديد**) الخير : هو المال مثله فى قوله تعالى « **كُتِبَ عليكم اذا حضرَ احدَكم الموتُ إنْ ترك خيرًا الوَصِيّة** » . وزعم عِكرَمة أنّ الخير ــ حيث وقع فى القرآن ــ هو المال . وليس يصح فى بعض المواضع . والشديد : القوى . ويقال : هو شديد لهذاالأمر ، وقوى له ، اذا كانمطيقا له قادرا علىضبطه . قال ذلكالزمخشرى .

وأطلق الحب ، وأراد به الكسب ، لأن كسب شىء والسعْى فى تحصيله انما يكون كما ينبغى اذا كان منشؤه حبه . فقوة الانسان واقتداره على تحصيل المال وتوفيره انما جاءت له من شدة محبته له ، لهذا جعل الشدة وقوة الاحتمال لحب المال ، وهى فى الحقيقة لكسْبه .. لكن اذا عرض له سبيل لفعل ماهو خير على الحقيقة ، والنهوض بأمر مما طلبه الله منه ، تراه يَضْعُف وتتضاءل قوته حتى لايستطيع أن يخْطُوَ خُطْوَة فى ذلك السبيل الا مَن رَحِمَ ربُّكَ . وقد فسر الشديد بالبخيل . والمعنى على ذلك : وانه لبخيل شحيح بسبب حبه للمال .

(**أفَلَا يعلمُ اذا بُعْثِرَ مافى القبورِ وحُصِّلَ مافى الصدور**) . بَعْثَرة ما فى القبـــور : اخراج موتاها منها . وتحصيل مافى الصدور : اظهاره وابرازه ، بحيث لايبقى سبيل الى اخفائه . ومفعول يعلم محذوف ، حذف لتجول الفكرة فى استحضاره ، ولو ذكر

مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

فربما مرّ على اللسان دون الالتفات اليه . أمّا وقد حُذف فلا تجد النفس محيصا عن البحث عنه حتى يتم الكلام ويُفهم . وقد دل عليه ببعثرة مافى القبور وتحصيل مافى الصدور . أى أفلا يعلم الكنود الحريص مايكون حاله فى الحياة الأخرى يوم تكشف السرائر ؟ أفلا يعلم ظهور ماكان يخفى من قسوة وتَحيُّل ؟ أفلا يعلم أنه سيحاسَب عليه ؟ أفلا يعلم أنه سيوَفّى جزاء ماكفر نعمة ربه ؟ !

(ان ربهم بهم يومئذ لخبير) . ان الله خبير بهم يومئذ ــ وفى هذا اليوم كذلك ــ ولكنه كُنِّىَ عن مُجازاتهم على ماكسبوا بالخبرة بهم . كما تقول فى تهديد شخص أو وعيده سأعرف لك عملك هذا مع انك تعرفه الآن قطعا . وانما عرفانه الآتى هو ظهور أثر المعرفة ، كما قال تعالى ((**سنكتُب ماقالوا**)) . مع أن الكتب حاصل منه الآن ، والله أعلم .



سورة القارعة
مكية وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ

(القارعة) اسم من أسماء القيامة : كالحاقة والصاخة والطامة والغاشية . وهى قارعة لأنها تقرع القلوب بهولها . **(ما القارعة)** ؟ استفهام عن حقيقتها قُصِدَ به تهويل أمرها ، كأنها ــ لشدة مايكون فيها ، مما تفزع له النفوس ، وتدهَش له العقول ــ يَصْعُب تصوّرها . **(وما أدراك ما القارعة)** ؟ أى : اى شىء يعرّفك بها ؟ زيادة فى تعظيم تلك الحادثة العظيمة ، كأن لاشىءَ يحيط بها ويفيدك برسمها . ثم أخذ يعرّفها بزمانها وما يحدث للناس فيه ، فقال : **(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث)** الفراش : هو ذلك الطير الذى تراه يترامى على ضوء السراج ليلا . وهو مَثَلٌ فى الحَيْرة والجهل بالعاقبة . والناس من هوْل ذلك اليوم يكونون منتشرين حَيَارى هائمين لايدرون ماذا يصنعون ، ولا مايصنع بهم . وقال فى آية اخرى ((**كأنهم جرادٌ منتشر**)) .

(وتكون الجبال كالعهن المنفوش) العِهْن : هو الصوف . والمنفوش : الذى نفشته بيدك أو بآلة اخرى ففرّقت شَعْراته بعضها عن بعض ، فهو على حالة يطير مع اضعف

كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾

ريح . والجبال لتفتتها وتفرّق أجزائها ، لم تبق لها الا صورة الصوف المنفوش لاتلبث أن تتطاير وتذهب .

ومن المعلوم أن ذلك هو اليوم الذى تبتدىء فيه الحياة الآخرة وفيها تعرف مقادير الأعمال وما تستحقه من الجزاء **(فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية)** . ثقل ميزانك : أى كان لك قَدْر وقيمة ، كانك اذا وُضِعْت فى كفة ميزان كان لها بك رجحان .

وانما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة والفضائل الراجحة ، فهؤلاء يجزوّن بالنعيم الدائم . ولا ريب فى أن معيشتهم فيه تكون معيشة تمتّع ولذة وهى التى تُسَمَّىَ العيشة الراضية الهنيئة .

(وأما من خفت موازينه فامه هاوية) . خف ميزانك : سقطت قيمتك ، فكانك لستَ بشىء حتى لو وُضِعْت فى كفة ميزان لم ترّجح بك عن أختها .

ومن كان فى هذه الحياة الدنيا كثير الشر قليل الخير ، لم يبلغ بنفسه منازل الإخلاص لله فى القول والعمل ، ولم يرتفع بها عن دنايا الأمور وسفاسفها ، ولم ينزل عقله عن الاشراك ، ولم يَطهِّر قلبه عن رذائل الأخلاق .. فذلك كان فى الناس أخا للعدم والفناء ! فماذا يكون فى الآخرة ؟ لاريب أنه لايكون شيئا . فلا وزن له ، ولا ترجح به كفة ميزان لو وضع فيها . وهذا المعنى قد صَرّح به فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الكهف : ((**فحَبِطَتْ أعمالُهم فلانُقيمُ لهم يومَ القيامةِ وَزْنا**)) . وبهذا صح نسّبة الثقل والخفة الى الموازين بأجمعها .

اما لو كان المعنى على ماقالوه فهو مالا تدل عليه العبارة ، وكان من حق التعبير : من رجحت كفة أعماله ، وخفت كفة أعماله . فاذا أرادوا ارجاع لفظ الآية الى مافهموه احتاجوا الى تأويل كثير كما هو ظاهر . وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم ، انما يكون على حسب مايَعلَمُ لا على طريقة مانَعلَم . فعلينا أن نفوّض الأمر فيه اليه سبحانه مع الايمان به .

ومن عجيب ماقاله بعض المفسرين « انه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض ، ولا يعلم ماهيته الا الله » ! فماذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه الى الله ؟ والكلام فيه جراءة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم . ولم يرد فى الكتاب الا كلمة الميزان . وقد عرفت مايمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد ، وما عدا ذلك فعِلْمه الى الله سبحانه .

وقد قالوا : أن منكر الميزان بالمعنى المعروف لايكفر ، خصوصا اذا كان القائل به يحدد له لسانا وكفتين ! مع أن البشر قد اخترعوا من الموازين ماهو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون ... أفيَأبىَ الحكيم الخبير الا استعمال ذلك الميزان الخَشِن الناقص الذى هَدَى العلمُ عقولَ البشر الى ماهو أدق منه ؟ ! أيَأبىَ عالم الغيب والشهادة أن يستعمل فى وزن المعانى والمعقولات الا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة؟!

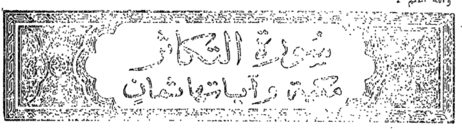
فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

على أن جميع ما اخترع البَشر وما يخترعون — مهما دق ولطف — انما هو معيار للأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة . وهلا يكون الأليق بالمقام الالهى ان يكون ميزان المعانى المعقولة لديه أسْمَى وأعلى من ان يكون على نمطِ مايستعمله البشر مهما ارتقت المعارف وسَمت بهم العلوم ؟

وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أنْ يجترئ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يَزِنُ اللهُ به الأعمال يوم القيامة ، هو الميزان الذى تستعمله القبائل التى لم تزل فى مهد الانسانية الأولى : ميزان ضعفاء العقول ، قصار الانظار الذين لا يعرفون قيمة للايمان بالغيب ولا لحياء العقل من الله ، واطراقه عن ان ينظر الى ماتشامخ من غيوب الله تعالى علمهُ وتعاظمت قدرتهُ ؟

عليك أيها المؤمن المطمئن الى مايخبر الله به أنْ توقن أن الله يَزِنُ الأعمال ويميز لكل عمل مِقداره . ولا تسأل كيف يَزِن ، ولا كيف يُقدِّر ، فهو اعلم بغيبه . والله يعلم وأنتم لاتعلمون .

(فأمه هاوية) : أى مرجعه الذى يأوى اليه ، كما يأوى الولد الى أمه — هاوية : أى مهواة سحيقة يهوى فيها . وسُمِّيت هاوية مع أنها يُهوَى فيها ، كما سُميت العيشة راضية مع أنها يُرضَى بها . (وما أدراك ماهيه) ؟ أى : ما الذى يخبرك ما هى تلك الهاوية وأى شىء تكون ؟ (نار حامية) : هى نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل . والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ

(ألهاكم التكاثر) . ألهاه يُلهيه : اى شغله حتى صرف ذهنه عن سوى ما التَهَى به . واذا أُلْهِيتَ بشىء ، فأنت به غافل عما سواه . والتكاثر : هو التباهى بالكثرة . يقول كل للآخر : أنا أكثر منك ولدا . أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك رجال حرب وضرب ، وما يشبه ذلك من ضروب التفاخر .

يقول قد شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الانصار أو الأشياع ، وصرفكم ذلك عن الجد فى العمل . فكنتم فى لَهْوٍ بالقول عن الفعل ، وفى غفلة بالغرور والاعجاب بالآباء والأعوان عن صرف القُوَى فى القيام بما فُرِض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهلكم

ودينكم ، واستمر بكم ذلك (حتى زرتم المقابر) . أي حتى هلكتم وصرتم من أهل القبور .. انتهيتم الى هذه الغاية وانتم تظنون أنكم فائزون .

(كلا) ارتدعوا عن مثل هذا الدأب الباطل ، فانه لا فوز بالتكاثر ، وانما الفوز بحقيقة التناصر والتضافر على الحق ، و (سوف تعلمون) مصيركم اذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح ينفعكم فيما يطالبكم به الجد الصادق والأوامر الالهيـــة .

ولما كانت عواقب اللهو انما تأتى بعد امهال من الله وطول مدة فى الأغلب ، عبـّـر بسوف .. ولما كانت الغفلة شديدة ، وتمكن اللهو فى النفوس قد وَضع على القلوب حجابا كثيفا يحول دون البصائر والابصار ــ أعاد الخبر التأكيد بقوله : (ثم كلا سوف تعلمون) . واتى بحرف العطف (ثم) ــ مع ان الجُمَل المؤكدة لا توصَل بحروف العطف ــ ليفيدك أنه خبر جديد بمعناه جيء به بعد الخبر الاول لا مجرد اعادة لفظ .

وقد يكون معنى التكاثر التغالب فى الكثرة ، اى طلب كل واحد ان يكون أكثر من الآخر مالا أو رجالا ، والسعى الى ذلك لمجرد المغالبة لا يبغى الساعى فى سعيه الا ان يكون ماله أكثر من مال الآخر ، وأن يكون عضده أقوى من عضده لينال بذلك لذة التعلى والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الاغلب من طلاب الثروة والقوة . ولا ينظر الدائب منهم فى عمله الى تلك الغاية الرفيعة : غاية الباذل مما يكسب فى سبل الخير أو النهوض بالقوة الى نُصرة الحق وحمل المبطلين على معرفته والتوجه اليــه ، ثم المحافظة بعــد ذلك عليه . وهو معنى مقبول ذهب اليه بعض المفسرين وهو يتفق كل الاتفــاق مع مايفهم من لفظ (ألهاكم) فان الذى يلهى الناس عن الحق فى كل حال ويصرف وجوههم عنه الى الباطل ، هو طمع كل واحد منهم فى أن يكون أكثر من الاخر مالا أو عدد رجال ليعلو عليه ويستخدمه لسلطانه بقدر مايدخل فى امكانه . أما التفاخر بالأقوال فانمــا يُلهيهم فى بعض الاحوال .

جرت سنة الغافلين اذا نُبِّهوا والذاهلين اذا ذُكِّروا بعــواقب ماهم فيه أن يُحدِّثوا أنفسهم بأنهم يعلمون ذلك ، وانهم يفعلون مايفعلون عن يقظة وارشاد بصيرة ، وانهم محيطون بما ينشأ عن فعالهم ، ويسلون أنفسهم بذلك ليستمروا فى لهْوهم ــ فحاربَ الله هذه الهواجس ، وقاتلَ هذه الخواطر بقوله (كلا لو تعلمون علم اليقين) أى ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم بدعوى أنكم تعلمون عاقبة ماأنتم فيــه من اللهو بالتكاثر . فان هذا الذى تسمونه عِلْماً ليس على الحقيقة بعِلْم . وانمــا هــو وهْمٌ وظنٌ لا يلبث أن يتغير مهما استحكم عقده من قلوبكم لانه لا يطابق واقعا .

والجدير بان يُسَمَّى عِلْماً هو علم اليقين ، أى العِلْم الذى هو من أفراد اليقين . واليقين هو الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان او دليل صحيح مقدماته بديهية او منتهية الى البديهيات بحيث يستحيل تغيّره . والنفس اذا ملكت هذا النوع من العِلْم مَلَكَ هو ارادتها وعاد المصرِّفُ لها فى شئونها . فلو تعلمون هذا العلم لرفعكم عن هذا التكاثر ، ودفعكم الى السعى فيما تصلح به ظواهركم ، وتخلص به لله سرائركم ، وتتحد به فى تأييد الحق هِمَمكم لان التحقق من سوء العاقبة ينأى بالنفس عما يُفضِى اليها ، ويدفعها الى طلب ما هو

تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ

احسن منها . فجواب **لو** محذوف حذف ليطلبه العقل من الشرط وما سبقه ليستحكم فيه فضل استحكام .

ثم استأنف القول لذكر بعض ماينتهى اليه هذا اللهو — وهو عذاب الآخرة بعد خزى الدنيا — ولو كان اليقين به حاصلا ما أقدمت النفس الموقنة به على عمل أوعد الله بذلك العذاب عليه فقال (**لترون الجحيم**) . أى ان دار العذاب التى لا يمنعكم الآن تصورها عن اللهو بالباطل — مع انها جزاء من يلهو به عن الحق — هى ثابتة لا ريب فيها ولترونها بأعينكم ، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى اذهانكم فتكون مُنَبِّهةً لكم الى ماهو خير لكم مما تلهون به .

ولما كان الكثير من الناس يظن أنه يعتقد بالآخرة وما فيها من عذاب ونكال ، ومع ذلك يرتكب السيئات ويقترف المنكرات ، وهو فى ذلك يُمَنِّى نفسه بأنه ممن يعفوَ الله عنهم فيزحزحه عن النار بمجرد نسبته الى دين وتجلببه بلقب من القابه : كان يسمِّى نفسه مسلما وهو يخالف أحكام القرآن ، أو من أمة محمد وهو يعمل أعمال أعداء محمد صلى الله عليه وسلم ... لما كانت هذه الظنون مما يسرع الى النفوس — أبطلها الله بتأكيد الخبر وتكريره فقال (**ثم لترونها عين اليقين**) أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه . وعلم العيان والمشاهدة من أفراد اليقين ، يُسمَّىَ عين اليقين لانه هو الذى تنتهى اليه جميع العلوم اليقينية لان العلم البرهانى ان لم ينته الى علم عيانى لايعد يقينا .

فالعيانى هو ذات اليقين ، وبقية العلوم تضاف اليه متى استوفيت شرائطها . وكُنِّىَ برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها ، وهى كناية شائعة فى الكتاب العزيز .

فاذا كان اللاهون بالتفاخر لابد أن يصلوا نار الجحيم — الىأى دين أو الى أى شخص كانت نسبتهم — فلم يبق عليهم الا أن يتقوا الله فى أنفسهم وينتهوا عما يُقذف بهم فى ذلك العذاب الاليم ، وينظروا الى ماهم فيه من نعمة فيرعوا حق الله فيها ، ويستعملوها فيما أمر الله أن تستعمل فيه ، ولا يكتفوا منها بالتمتع باللذات ثم التفاخر بها . ولقد زاد الأمر عليهم تشديدا بقوله (**ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم**) . أى ان هذا النعيم الذى تتفاخرون به وتعدونه مما يباهى به بعضكم بعضا ، هو مما لابد أن تسألوا عنه : ماذا صنعتم به ؟ هل اديتم حق الله فيه ، وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به ؟ فان لم تكن الحقوق أدِّيتْ ولم تكن الأحكام روعيَت كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء . نسأل الله أن يوفقنا لرعاية أحكامه فيما أنعم به علينا .

بقى أن يقال : ان هذا خطاب موجه الى الأحياء ليعتبروا ، فكيف جيء فيه بصيغة الماضى فى قوله : **زرتم المقابر** . مع ان الحى لم يزرها بعد . وهو ماحمل أبا مُسْلِمٍ على أن يقول : ان هذا خطاب من الله للناس فى الآخرة للتقريع ... مع أن قوله (**ثم لتسئلن يومئذ**) يدافع هذا المعنىَ . وحمل غير أبى مُسْلِّم على الرجوع الى اسباب ذكرها المفسرون وقالوا : انها نزلت فى قبيلتين من الأنصار تفاخروا وتكاثروا بأحيائهم . فلما كثرت احدى القبيلتين الأخرى لجأت الاخرى الى الاموات وقالت : هلموا بنا الى المقابر لِنَعُدَّ مَنْ كان من رجالنا ونشيرُ الى قبورهم .

ولايخفى أن التكاثر ليس خاصا بالرجال ، بل يشمل المال . واللفظ والخطاب عامان . ولابد أن يكون المعنَى على العموم ، وتلك الحَيرة التى حاروها لا داعىَ اليها . فقد جرت سنة الكتاب العزيز أن يخاطب الحاضر بما كان من الغائب متى كان

لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

الحاضر يَحتَذِي حذْوَ الغائب وكان للجميع جامعة تضمهم . والله يخاطبُ جمهورَ المتْرَفين أو المنَعَّمين من الناس ويذكر عملَ مَن سَلَف منهم كما قال لبني اسرائيل يخاطبُهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ((**واذ انجيناكم مِنْ آلِ فرعونَ يسومونكم سوءَ العذاب**)) الى آخر الآيات وفيها ((**ثم اتخذتُم العِجْلَ**)) الخ ، مع أن الذى وقع له ومنه ماذكر فى الآيات أسلافُهم . وذلك كما تقول لأعقاب الظالمين ((لازلتم تظلمون الناس حتى أكلكم الظلم وأهلكم فَفَنيتم وأراح الله الناسَ منكم)) ، مع أن الذى هلك واستراحت الناس منه أسلافُهم . وهو ضربٌ من التعبير يريد الله به أن يُحمِّل تَبعةَ الناس بعضهم على بعض حتى لايدعَ احدُهم أخاه يأتى منكرا يفشو فيفسد به أمرَ جماعتهم . والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾

(**العصر**) هو الزمان الذى تقع فيه حركات الناس وأعمالهم : اى الدهر كما قال ابن عباس . أو هو الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر .

وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا فى شئونهم ، وقد يكون فى حديثهم مالا يليق أو مايؤذى به بعضهم بعضا فيتوهَّم الناس أن الوقت مذموم ، فأقسم الله به لِيُنَبِّهك الى أن الزمان فى نفسه ليس مما يُذَم ويُسَب كما اعتاد الناس أن يقولوا : زمان مشئومٌ . ووقت نحسٌ ، ودهرٌ سوءٍ وما يُشبه ذلك بل هو عادٍ للحسنات كما هو عادٍ للسيئات . وهو ظرف لشئون الله الجليلة من خلْقٍ ورزقٍ وأعزازٍ واذلال وخفض ورفع فكيف يُذَم فى ذاته . وانما قد يُذَم مايقع فيه من الافاعيل المقوتة . يُقْسمُ الله بالزمان مطلقا أو بذلك الوقت المخصوص (**ان الانسانَ لفى خُسْر**) الى آخر السورة ليؤكد بالقَسَم تلك القضية : وهى ان جميع من يُطلق عليه اسمُ الانسان ممن هو معهود للمخاطَبين ـــ وهو الانسان العاقل البالغ ـــ خاسر فى أعماله ضربا من الخُسران الاَّمَنْ يستثنيهم . فأعمال الانسان هى مصدر شقائه لا الزمان ولا المكان . وتصوير الاستغراق بما قدمت لاينافى الشمول والعموم كما رأيت . . . فان هذا هو الفرق بين الاستغراق بكل والاستغراق بأل ، فالاستغراق بأل انما هو لما عُهِدَ عند المخاطَبين من الافراد يخطر بالبال عند ذكر الاسم مقرونا بها . ولو قيل كل انسان فى خسر الا الذين آمنوا لم يصح لأن من

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

الانسان الصبى الذى لايميز وهـو لاخسران له ولا ربح . و (**الذين آمنوا**) هم الذين صدّقوا بأصل الخير والشر ــ كما قال : **وصدّق بالحسنى** ــ واعتقدوا اعتقادا صحيحا بالفرق بين الفضيلة والرذيلة ، وبأن لأنفسهم وللعالم حاكمـا يرضى ويغضب ، ويُثيب ويُعاقب ، وان لهم جزاء على أعمالهم : الخير بالخير والشر بالشر . ثم كان تصديقهم هذا بالغا من انفسهم حد أن يملك ارادتهم فلا يعملون الا مايوافق اعتقاداتهم ، فهم يعملون الصالحات : وهى الأعمال التى عُدّدت بالتفصيل فى القرآن . وجماعها أن تكون نافعـا لنفسك ، ولأهلك ، ولقومك ، وللناس أجمعين ، بعيدا من أن تضر أحدا الا لكف ضرر أعظم منه . ومن تلك الأعمال الدعوة الى الحق والوصية بالصبر ، لكنه اراد تخصيص هذين الامرين بالذكر لأنهما حِفاظ كل خير ، ورأس كل أمر .

و (**الحق**) : هو ماتقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة ، وهوماأرشد اليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه انفسهم ، ويُمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضا عليه بأن يدعو كل صاحبه الى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التى لاينازع فيها العقل ، ولا يختلف فيهـا النقـل ، وأن يبعُدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات التى لاقرارللنفوس عليها ولا دليل يَهدي اليها ، ولا يكون ذلك الا باعمال الفكر واجادة النظر فى الأكوان حتى تستطيع النفس دفع مايُرَد عليها من باطل الأوهام . وهذا اطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق فى النظر ، لا الذهاب مع الطيش والانخداع للعادة والوهم .

ومن لم يأخذ نفسه بحَمل الناس على الحق الصحيح بعد انّ يعـرفه ، فهـو مـن الخاسرين ، كما ترى فى الآية بالنص الصريح الذى لايقبل التأويل .

و (**الصبر**) : قوة للنفس على احتمال المشقّة فى العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحِرْمان من اللذة ، ان كان فى نيلها مايخالف حقا ، أو مالا تأذن به الشريعة الصحيحة التى لااختلاف فيها ، واحتمال الآلام اذا عَرَضت المصائب بدون جَزَع ولا خـروج فى دفعها عن حدود الحق والشرع .

فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن تُوصِي غيرك بالصبر ، وتحمـله عـلى تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة التى هى أم الفضائل بأسرها. ولا يمكنك حمله على ذلك حتى تكون بنفسك متَحَلّيا بها ، والا دخلت فيمن يقول ولا يفعل كما يقول ، فلم تكن ممن يعمل الصالحات .

ترى السورة قد شملت بحكمها جميع أفراد المكلفين : سواء بَلَغتْهم دعوة نبى ، فآمن بها من آمن ، وعمل الصالح ، ووصّى بالحق والصبر ، فنجا ، وأعرض عنها من أعرض فخسر ــ أم لم تبلغْهم دعوة : فمنهم من صدق بأصل الخير والشر كمـا قلنـا ، وآثر الفضيلة على الرذيلة ففاز ، ومنهم من أساء العمل فخسر الخسران الذى يناسبه .

ثم تراها لم تدع شيئا الا احرزته فى عبارتها الموجزة ، حتى قال الشافعى رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوَسِعَتْهم . أو قال: لو لم ينزل من القرآن سواها لكفت الناس.

ولجلالة ماجمعت رُوِيَ أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة **(والعصر)** ثم يسلم أحدهما على الآخر . ذلك ليذكِّر كل منهما صاحبه بما يجب ان يكون عليه ، فاذا رأى منه شيئا ينبغي أن ينبّه اليه فعليه أن يذكّره له (١)



سورة الهمزة
مكية وآياتها تسع

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ

(الهمزة اللمزة) : هو الذى يطعن فى أعراض الناس، وبغض منهم ، ويحقّر من أعمالهم وصفاتهم ، وينسب اليهم السيئات ، تلذذا بالحطّ منهم ، واظهارا لترفّعه عليهم . أصله من الهمز واللمز ، بمعنى الطعن والكسر ، ثم صار عُرْفا لُغَويا فيما ذكرنا .

ويقال ان الهمز يكون بالعين والشدق واليد حركات تشير الى التحقير والهزء ، واللمز يكون باللسان . وبناء الصفة على فعلة يفيد كثرة وقوع الفعل وجريانه مَجْرَى العادة ، وذلك هو حال **(الذى جمع مالا وعدده)** : أى أن الذى يحمله على الحط من أقدار الناس هو جمعه المال وتعديده ، أى عَدّه مرة بعد أخرى شَغَفا به وتلذذا باحصائه ، لأنه لايرى عِزا ولا شرفا ولا مَجدا فى سواه ، فكلما نظر الى كثرة ماعنده منه انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة بحيث يكون كل ذى فضل ومَزِيّة دونه . فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه ثم لايخشى أن تصيبَه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العِرْض ، لأن غروره بالمال أنساه الموت ، وصرف عنه ذكرى المآل فهو **(يحسب أن ماله أخلده)** : أى يظن أن ماعنده من المال قد حفظ له حياته التى هو فيها ، وأرصدها عليه ، فهو لايفارقها الى حياة أخرى يعاقب فيها على ماكسب من سيىء الأعمال .

---

(١) وقد كتبنا تفسيرا لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد أن طبع فى مطبعة جريدة المنار ، وهوماكنا القيناه درسا فى مدينة الجزائر فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ هـ . وفيه تفصيل طويل لما اجملناه فى هذا التفسير المختصر . فمن أراد بيانا اوسع وتفصيلا أبدع فليطلب ذلك التفسير ، فهو ــ فيما اعلم ــ غير مسبوق بنظير .

فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

يُوعد الله مَن هذه صفاته بالوَيل والهلاك والنكال فى قوله (**ويل لكل همزة لمزة**) الخ. ثم يصرح بذلك ويفصِّله فى دفع وَهْمِه ان المال يُغْنِي عنه من الله شيئا ، وانه يحفظ عليه ماهو فيه أبدا حيث يقول : (**كلا**) . فليرتدع عن هذا الظن (**لينبذن فى الحطمة**) : أى ليلقيَنّ فيها مُحَقَّرًا مُصَغَّرًا . وكلمة النبذ تفيد التحقير والتصغير .

(**وما أدراك ما الحطمة**) ؟ يُستفهم عنها لتعظيم أمرها واكبار هَوْلِها ، كأنها مما لايحيط به العرفان . فمن ذا الذى يُعلِمك بمقدار مآلها الا الذى أوجدها وأعدها لأهلها ؟ . . هى (**نار الله الموقدة**) : أى النار التى لاتُنْسَب الاّ اليه سبحانه ، لانه هو منشئها فى عالم لايعلمه سواه ، وهى ملتهبة التهابا لايدرك كُنْهَهُ غيره سبحانه ، ولا يمكننا الوقوف على حقيقة تلك النار ، وانما الذى نعرفه أن للعذاب بها ألماً أشد من ألم الأحراق بنار الدنيا . ولذلك وصفها بوصف ليس من أوصاف نيران الدنيا ، فقال : (**التى تطلع على الأفئدة**) .

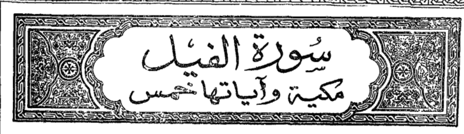
ولا يخفى عليك أن الفؤاد انما يطلق على القلب اذا لوحظ أنه بمعنًى موضع الوُجدان والشعور ، فكأنه قال التى تعلو مشاعرهم ومداركهم ومواطن الوُجدان من نفوسهم ، أى أن سلطان هذه النار على قوَى الوُجدان والشعور التى هى مواطن النيات والمقاصد ومساكن الفضائل والرذائل .

وقد قيل : أن معنى الاطلاع ههنا المعرفة والعلم ، أى أن هذه النار تعرف مافى الأفئدة فتأخذ من تعرفهم أهلا لها من أهل الوُجدان الخبيث .

والنار التى تعرف من يستحق العذاب بها لاتكون من النيران المعروفة لنا فى الدنيا بالضرورة . وعلى كل لايخلو الكلام – على هذا التأويل الثانى – من التمثيل والتجوز .

ثم قال : (**انها عليهم مؤصدة**) : أى مُطْبَقة ، لامَخْلَص لهم منها . (**فى عمد ممددة**) ، العَمَد جمع عمود ، وهو معروف . والمُمَدَّدة : المطوّلة ، أى أن اطباقها عليهم واغلاقها فى عَمَدٍ طويلة تُمَد على أبوابها بعد أن تؤصد . وهو تصوير لشدة الأطباق واحكامه ، وتأكيد لليأس من الخلاص .

أما كون العَمَد كعَمَدِنا ، فذلك مما لايمكن معرفته ، لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا – كما هو معلوم – فلا وجه للبحث فيه . وذلك يكون عند نزول العذاب . . . يجد المعذَّب أنه لامَخْلَص له مما هو فيه : سواء خلَص بعد ذلك ان كان من المؤمنين الخاطئين ، أم لم يخلص أن كان من الذين احاطت بهم خطيئاتهم فكانوا من الهالكين . نعوذ بالله من غضبه ونسأله أن يحفظنا من نقمه .



بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم

(ألم تر) : أى ألم تنظر ، أو ألم تعلم **(كيف فعل ربك)** : أى الحالة التى وقع عليها عمل الله الذى يتولى أمرك **(بأصحاب الفيل)** ؟ وهو الحيوان المعروف . وبين تلك الحالة التى وقع عليها الفعل الالهى بقوله : **(ألم يجعل كيدهم فى تضليل)** ؟ الكيد : هو تدبير السوء . **والتضليل** : التضييع . والهمزة فى **ألم تر وألم يجعل** للتقرير . أى أنك ترى ماكان عليه فعل الله بأولئك القوم ، وذلك أنه ضيّع تدبيرَهم ، وخيّب سعيَهم ، **(وأرسل عليهم طيرا أبابيل)** . **الأبابيل** : الفِرَق والجماعات يتْبَع بعضها بعضا : من طير أو خيْل مثلا . والطير : هو مايطير فى الهواء ، سواء كان صغيرا أو كبيرا ، وسواء كان مرئيا لك أم غير مرئى . **والسجيل** : الطين المتحَجِّر ــ وأصل الكلمة فارسية دخلت فى العربية ــ أى حجارة من طين متحَجِّر . **والعصف** : ورق الزرع . **والمأكول** : الذى أكله الدود أو السوس ، أو أكل الدواب بعضه ، وتناثر من بين أسنانها بعضه .

السورة الكريمة تعلمنا أن الله سبحانه يريد أن يُذَكِّر نبيه ، ومن تبلغه رسالته ، بعمل عظيم من أعماله الدالة على عِظَم قدرته ، وأن كل قُدْرة دونها . فهى خاضعة لسلطانها ، وأنه القاهر فوق عباده لايمنعهم منه عزة ، ولا تتعاصى عليه منهم قوة ... ذلك العمل العظيم : هو أن قوما أرادوا أن يتعززوا بفيلهم ليغلبوا بعض عباده على امرهم ، ويصلوا اليهم بِشَرٍّ وأذًى ، فأهلكهم الله ، وَرَدَّ كيدَهم ، وأبطل تدبيرَهم بعد أن كانوا فى ثقة بعَدَدِهم وعُدَدِهم ، فلم يُفدْهم ذلك شيئا .

وكان يمكننا أن نكتفى بذلك المعنى من الآيات ، ولا نزيد عليه أدنى تفصيل . وهو كاف فى الاعتبار والعظة ، كما اكتفينا بذلك فى أصحاب الأخدود ... لكن فى هذه السورة يجوز لنا التفصيل ، لأن واقعة الفيل فى ذاتها ــ كما ورد فى هذه الآيات ــ معروفة متواترة الرواية ، حتى أنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث . . فيقولون : وُلِدَ عام الفيل ، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل . ونحو ذلك .

وما تواتر من الواقعة ، هو أن قائدا حبشيا ــ ممن كانوا قد غلبوا على اليَمَنْ ــ اراد أن يعتدى على الكعبة المشَرّفة ويهدِمَها ليمنع العربَ من الحَجّ اليها ، أو ليقْهرَهم

بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

ويذلهم ، فتوجه بجيش جرّار الى مكة لذلك ، واستصحب معه فيلاً او فيلة كثيرة زيادة في الارهاب وحشر الخوف الى القلوب . ولم يزل سائرا يغلب من يلاقيه حتى وصل الى المغمس بالقرب من مكة ، ثم ارسل الى أهل مكة يخبرهم انه لم يأت لحربهم ، وانما أتى لهدم البيت . ففزعوا منه ، وانطلقوا الى شعف الجبال ينتظرون ماهو فاعل .

وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة . . . قال عكرمة : وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : أن أول ماروئيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم مايندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط . فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين ، وأصيب الحبشي ، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء .

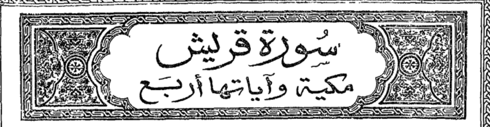
هذا مااتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على افراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بافساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في اهلاك من يريد اهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير — الذي يسمونه الآن بالمكروب — لايخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لايحصي عددها الا بارئها . . ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين ، على أن يكون الطير في ضخامة رءوس الجبال ، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها . . . فلله جند من كل شيء .

وفي كل شيء له آية   تدل على انه الواحد

وليس في الكون قوة الا وهي خاضعة لقوته . فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه من الطير مايوصل اليه مادة الجدري أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة . وهي نعمة من الله غمر بها اهل حرمه — على وثنيتهم — حفظا لبيته حتى يرسل من يحميه بقوة دينه — صلى الله عليه وسلم . . . وأن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه .

هذا مايصح الاعتماد عليه في تفسير السورة ، وما عدا ذلك فهو مما لايصح قبوله الا بتأويل ، أن صحت روايته . . . ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل — وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما — ويهلك بحيوان صغير لايظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر . لاريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر !!



بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣

(**قريش**) اسم للقبائل العربية من ولد النّضْر بن كِنانة ، كما قال القُرْطبيّ وعليه الفقهاء . أو من ولد فِهْر بن مالك بن النضر بن كنانة ، على ماقال الزبير بن بكار انه قول جميع النسابين .

والايلاف : من معنى الألفة والائتلاف . وفيه معنَى أَنِسَ شئ الى آخر ، وتعلّقه به . وسلامته عن النفور منه .

وكانت لقريش رحلتان : احداهما الى اليمن زمن الشتاء ، والأخرى الى الشام فى فصل الصيف .. يذهب التجار فيهما للكَسْب ، واجتلاب الربْح ، والاستكثار من الرزق . وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب ، محترمة فى نفوسهم ، لانهم سكان مكة وجيران بيت الله ، فكانوا يذهبون آمنين ويعودون سالمين ، لايمسُّهم السُّوء ، على كثْرَةِ ماكان بين العرب من النّهْب والسّلْب .

فكان احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التى كانت تَحْتَمِى بها قريش فى أسْفار أرباب التجارة منها .. ولهذا أَلِفَتْ نفوسُهم تلك الأسْفار ، وتعلّقت بالرحيل لاستدرار مادة الرزق .

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت جرمته عندهم ، واستطالت الأيدى بالتّعدّى على سُفّارِهم ــ لَنَفِروا من تلك الرحلات ، وكرِهتها نفوسُهم ، فَقَلّتْ وسائل الكسْب بينهم ، لأنّ أرضَهم ليست بذات زَرع ، وما هُم بأهلِ صناعة مشهورة يحتاج الناس اليها فيأتونهم ــ وهم فى عُقْر ديارهم ــ ليأخذوا منها ... فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخير .

وهذا الاجلال ــ الذى ملك نفوس العرب من البيْت الحرام ــ انما هو من تسخير رب البيْتِ سبحانه . وقد حَفِظَ حُرْمَتَه بِرَدِّ الحبشة الذين ارادوا هَدْمَه واهلاكهم قبل أن ينْقضُوا منه حَجَرًا ، بل قبل أن يدنوا منه ، بل زاد ذلك فى اجلاله لتدوم أُلْفَتهم للاسْفار والتّرحُّل فى الصيف والشتاء .

فعليهم ان (**يعبدوا رب هذا البيت**) الذى حماه ، ومَكّنَ منزلته من النفوس . وقد (**أطعمهم**) بذلك ، وأوسَعَ لهم من الرزقِ .. ولولا ذلك لكانوا فى جوع وضَنْكِ عَيْش .

(**وآمنهم**) من التّعدّى وتطاوُلِ الأيْدِى الى أموالهم وارواحِهم .. ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان . فاذا كانوا يعرفون أن هذا كله انما هو فضل رب هذا البيت ،

ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

فلم يتوسلون اليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ، مع أنه لافضل لأحد ممن يوسطونه فى شىء من النعمة التى هم فيها : نعمة الأمن ـ وهى أكبر نعمة ـ ونعمة الرزق وكفاية الحاجة ؟ من الحق أن يفردوه بالتعظيم ، ويخصّوه بالاخلاص .

لهذا المعنى الذى بيناه ذهب بعض المفسرين الى أن هذه السورة متعلقة بالتى قبلها ، وأن اللام فى قوله : **لايلاف قريش** ، متعلقة بقوله : **فجعلهم كعصف مأكول** . أى أنه أرسل الجماعات من الطير على أصحاب الفيل ترميهم بالحجارة حتى أصيبوا بمرض الجدرى أو الحصبة وهلكوا به .. فعل ذلك كله لايلاف قريش رحلة الشتاء .

وهو وجيه ولا يُنَافِيه الفصل بالبسملة ، وكونها سورة مستقلة ، لأنه لامانع من أن تكون سورة مستقلة متعلقة باخرى . والفصل انما هو لاظهار العناية بما احتوت عليه كل من السورتين ، حتى أن كل جملة مما حَوَتا يصح أن تقصد لذاتها .

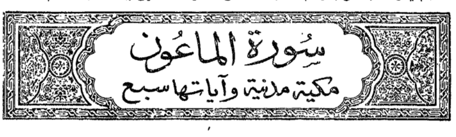
وما تضمنته سورة قريش جدير بالعناية ، لأن الخطاب والتذكير كان لهم ، وهم قومه صلى الله عليه وسلم ، والسامعون لدعوته .. فحق أن يفصل مايختص بهم عما قبله بفاصل يلفت الذهن اليه ، وان كان مرتبطا به .

وبعضهم يقول : أن اللام متعلقة بمحذوف . اى اعجبوا لايلاف قريش وما فيه من عِظَم النعمة ، وهو من اجلال العرب للبيت ، وذلك من فضل ربه .. ومع ذلك يعظمون غيره ويتوسلون اليه بسِوَاه ، فان لم تكن هناك نعمة سِوَى هذه النعمة فليعبدوه ويخلصوا له لأجلها .

وهذا خلاف لا يَهِمُّ طالب العِظة والاعتبار . فوجه التذكير ظاهر : ايلافهم رحلة الشتاء بدل من ايلاف قريش . وأفراد الرحلة مع اضافتها الى منعدد مما يُعَرَّف مثله فى كلام العرب . قال شاعرهم : « حمامة بطن الواديين تَرنَّمِى » . ولم يقل بطنَى الواديين . وقال آخر :

كلوا فى بعض بطنكم تعفُّوا فان زمانَكم زمنٌ خميص

ولم يقل فى أبعاض بطونكم . وبقية المعنى ظاهر مما سبق بيانه ، والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ

(أرأيت) ههنا بمعنى : هل عرفته وعلمت من هو على التحقيق ؟ . والدين هو

ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ فَوَيۡلٌ

ماوراء المحسوس من الشئون الالهية التى لاتحيط بها النفس الا من وجه معرفة آثارها فى الكون المشهود ، ومنها ارسال الرسل المؤيدين بالادلة القاطعة الدالة على أنهم يبلغون عن مدبر الكون ماتصلح به شئون عباده ، وان للناس حياة أخرى يُجازَى فيها كلٌّ بعمله . وكثير من الناس ــ بل الأغلب فيهم ــ يقولون انهم يعتقدون بالدين ويصدقون بالله وبما جاء به رسله وبالحياة الآخرة ، وينتحلون لأنفسهم المزايا على غيرهم ، ويظنون أنهم المصطفون ، وأن من يُخالفهم قد حَقّتْ عليه كلمة الشقاء ، ويكتفون فى الدلالة على هذه الدعوى ببعض أعمال رسمها الدين ــ وان لم يكن لها أثر فى قلوبهم ــ كالصلاة وما يشابهها مما لاينقِص مالا ولا يُجشِّم مَشَقّة .

والجمهور الأعظم من النصارى واليهود والمشركين ــ ممن كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم ــ كانوا يظنون أنهم يصدقون بالدين ولا يُكذّبون به ، وغرّتهم صَلاتهم وصِيامُهم ، مع أنهم كانوا فى أبعد طريق عن حقيقة دينهم . . . يشهد بذلك ماكان بينهم من التنافس فى الباطل ، واستعباد قويّهم لضعيفهم ، وبُخل غنيّهم بالمعروف يُفيض به على فقيرهم . ومع ذلك كان كل فريق منهم يَعُدّ نفســه صـاحب الحَظْوة عند الله ، ويحسب كل من خالفه فى مسقط النقمة .

فأراد الله ــ جل شأنه ــ أن يُعلمنا من هو المكذّب بالدين ، ومن تعريف المكذب به يُعْرَفُ المصَدّق به على الحقيقة . . فبدأ الكلام بقوله : **(أرأيت الذى يكذب بالدين)** ؟ على طريقة الاستفهام لينبّه السامع الى أن الأمر خفى على المحجوب عن نفسه ، المغرور بأوهامه . والخطاب لكل من يفهم الخطاب ، أى هل تبينت من هو المكذّب بالدين ؟ ان لم تكن تبينته **(فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم ولا يَحُضّ على طعام المسكين)** ، هذا هــو المكذب بالدين . . فالفاء واقعة فى جواب الشرط الذى دل عليه الكلام . **(ويَدُعُّ اليتيم)** : اى يدفعه ويزجره زجرا عنيفا اذا جاء يطلب منه حاجة ، احتقارا له ، وتكبّرا عليه لفقده النصير وخُلُوّ ظهره من المُجير . واليتيم مظهر الضعف وممثّل الحاجة ، فالمستهين به مستهين بكل ضعيف ، محتقر لكل محتاج .

فالمعنى أن المكذّب بالدين هو الذى يغْمِط حق غيره تعززا بقوته . . فكل ظالم منتهك لحرمات الحقوق مكذب بالدين ، متى كان ذلك له دَيْدَنا ، وسواء كان ظُلْمه لقليل من الناس أو كثير .

والحَضّ على طعام المسكين : الحَثّ عليه ، ودعوة الناس اليه . والذى لايحض على اطعام المساكين لايُطعمُهم فى العادة . . فقوله : **(ولا يحض على طعام المسكين)** كناية عن الذى لايجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج الى القُوت الذى لايستطيع له كسْبا . وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قُوتِ يومه ، بل هـذا هو المُلحِف الذى يجوز الاعراض عنه وتأديبه بمنعه مايَطْلب .

وانما جاء بالكناية ليفيدك أنه اذا عَرَضَت حاجةُ المِسكين ولم تجد ماتعطيه ، فعليك ان تطلب من الناس أن يُعطوه . وفيه حَثٌّ للمصدّقين بالدين على اغاثة الفقراء ولـو بجمع المال من غيرهم . وهى طريقة الجمعيات الخيرية ، فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية ، وبنحو قوله فى سورة الفجر ((**كلا بل لاتكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعـام المسكين**)) . ونعمَتِ الطريقة هى لاعانة الفقراء وسَدّ شىء من حاجات المساكين .

لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝

فالمكذب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كبرًا وعتوًا ، والذى يبخل بماله على الفقراء ، ويبخل بسعيه عند الأغنياء لاغاثة أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ماينقذهم من الضرورة ، ويقوم لهم بالكفاف من العيش .

وسواء كان المحتقر للحقوق البخيل بالمال والسعى مصليًا أم غير مصل ، فصلاته لاتنفعه ، ولا تخرجه من صف المكذبين بالدين ، لأن المصدق بشىء لاتطاوعه نفسه بالخروج عن حد ماصدّق به .. فلو صدّق بالدين لعرف ان صلاته انما هى عنوان الخشوع للقاهر الذى لايجوز لأحد أن يشاركه فى عظمته ، الذى خلق الخلق ، وحدّد حدود الحق ، وفرض على الأقوياء الرحمة والعدل فى الضعفاء ... فمن لم تذكّره صلاته بهذا الذى فرض عليه فهو كاذب فى قوله ، مُرَاءٍ فى ظاهر عمله ..

ولهذا جاء سبحانه بالتفريع على تعريف المكذب بالدين فى قوله **(فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)** : أى اذا عرفت أن المكذب هوالذى أقفر قلبه من الرحمة، واجدب من العدل والمكرمة . فويل لأولئك الذين يَصَلّون ، ويؤدون مايسمّى صلاة فى عرفهم من الأقوال والافعال ، وهم مع ذلك ساهون عن صلاتهم ، أى غافلة قلوبهم عما يقولون وما يفعلون .. فهو يركع فى ذهول عن ركوعه ، ويسجد فى لهو عن سجوده ، وانما هى حركات تشبه الخطوات التى يخطوها فى الطريق : ينقل قدمه من خطوة الى أخرى ، ولا يلاحظ فى كل خطوة ذلك التعبيد الذى قصده بمشيه .

فهو يدخل فى الصلاة بنيّة انها مطلوبة منه ، ثم يمضى فيها بلا شعور بالقصد مما يفعل ، وانما تجرى الأقوال ، وتتابع الحركات على حسب العادة ، بلا استحضار للمعانى فى القلوب .

ثم هم ساهون عن حقيقة الصلاة والحكمة التى فرضها الله لها وهى اخضاع القوى لواهب القوى .. وهل يجتمع الخضوع له والخروج عن اوامره فيما فرض ان يراعى من حقوق عباده ؟ ولذلك قال فى وصفهم : **(الذين هم يراءون)** . اى يفعلون مايُرَى للناس فقط ، ولا يستشعرون من روح العبادة ما أوجب الله على النفوس أن تستشعره.

ثم أعاد ذكر الوصف الذى يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال : **(ويمنعون الماعون)** . والماعون : كل مايستعان به .. فأولئك الذين يُصَلّون ولا يأتون من الاعمال الا مايُرَى للناس ، مما لايكلفهم بذل شىء من مالهم ، ولا يخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم او نقصا يلمّ بجاههم ، ثم يمنعون الناس معونتهم ، ولا ينهضون بباعث الرحمة الى سد حاجتهم ، وتوفير مايكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم - أولئك لاتنفعهم صلاتهم ، ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين : لافرق فى ذلك بين من وسَمُوا انفسهم بسِمَة الاسلام أو غيره .. فان حكم الله واحد لا محاباة فيه للاسماء المنتحلة التى لاقيمة لها الا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع .

فخاصة المصدق بالدين - التى تميّزه عمن سواه من المكذبين - هى العدل والمرحمة وبذل المعروف للناس . وخاصة المكذب - التى يمتاز بها عن المصدقين - هى احتقار حقوق الضعفاء ، وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة ، وحب الاثرة بالمال ، والتعزز بالقوة ، ومنع المعروف عمن يستحقه من الناس .

ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فهل تجد نصا أصرح من هذا فى تعريف التصديق بالدين ، وبيان الصفات التى يُعرف بها ، وفى شرح التكذيب بالدين وتفصيل لوازمه ومايتميز به عن التصديق ؟ ..

فهل للمسلمين – اى الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به – أنْ يقيسوا أحوالهم ، ومايجدونه من أنفسهم بمـا يتلونه فى هـذه السـورة الشريفة ؟ ليعرفوا هل هم من قِسْم المكذبين أو المصدقين ، وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة الذى لا أثر له الا فى ظواهر أعضائهم ، وبهذا الجوع الذى يسمونه صياما ، ولا أثر له الا فى عبوس وجوههم وبذاءة ألسِنَتِهم وضَياع أوقاتهم فى اللهو والبطالة .. وليرجعوا الى الحق من دينهم فيقيموا الصلاة ويُحبوا صورتَها بالخشوع وتطامن القوى الانسانية لِقوةِ العَلِىّ الأعلى . فلا يخرجون من الصلاة الا وهم ذاكرون أنهم عبيـدٌ له يلتمسون رضاه فى رعاية حقوق براياه .. ويجعلوا من الصوم مؤدّبا الشهوة ، ومُهذّبا للرغبة ، ورادعا للنفس عن الأثَرَة : فلا يكون فى صومِهِم الا الخيرَ لأنفسِهم ولقومِهِم ، ثم يؤدوا الزكاة المفروضة ، ولا يبخلوا بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة ؟ .

أفلا يتدبرون القرآن أمْ على قلوبٍ أقفالها ؟ .. أفلا ينظرون الى مانزل بهم مـن الضعْف والذِّلة ، وتسلّطِ الأمَمِ عليهمْ ، وانتقاصِها أرضَهم من كل جانب ... فيعلموا أن هذا هو عقابُ الله للمكذبين ، فيطلبوا النجاة من هذا كله بأخذ سبيل المصدقين ، وينزعوا عن الانخداع بما سوّلته لهم أوهام بعض من يَدّعِى العِلْمُ منهم ؟ .. فان العَيَان قد كذّبهم واظهر انَ سُنَّةَ اللهِ فى الخلْق لاتتبدّل ، وأن صورة الانتساب الى دين لاتغْنِى عن اتباع هديِه الصحيح الذى يدلّ عليه النص بعد التواتر فى النقل واجادة التدبر من العقل .



سُورة الكوثر
مكية وآياتها ثلاث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ

كان المستهزئون من قريش – كالعاص بن وائل ، وعُقْبة بن ابى مُعَيط ، وأبى لهب وامثالهم – اذا رأوْا أبناء النبى صلى الله عليه وسلم يموتون يقولون : بُتِرَ محمد . أى لم يبق له ذِكرٌ فى أولاده من بعده ، ويَعُدُّون ذلك عيبا يلمزون به ، وينفّرون به الناس من اتّباعه . وكانوا اذا رأوْا ضعفَ المسلمين وفقرِهم وقلتِهم يستخِفون بهم ، ويُهوِّنون أمرَهم ، ويَعدّون ذلك مغْمَزًا فى الدين ، ويأخذون القِلّة والضعف دليلا على أنالدينَ ليس

بحق ، ولو كان حقا لنشأ مع الغِنَى والقوة ... شأن السفهاء مع الحق فى كل زمان أو مكان غَلَبَ فيه الجهل .

وكان المنافقون اذا رأوْا ما فيه المؤمنون من الشدّة والبأساء يُمَنُّونَ انفسَهم بغلبة اخوانهم القدماء من الجاحدين ، وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددِهم وخُلُوِّ أيديهم من المال . وكان الضعفاء — من حديثى العهد بالاسلام من المؤمنين — تمرُّ بنفوسهم خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الضّيق ...

فأراد الله سبحانه أن يُمَحِّصَ من نفوس هؤلاء ويكْبِت الآخرين ، فأكّد الخَبَرَ لنبيِّه ان مايخيله النظر القصير قليلا هو الكثير البالغ الغاية فى الكثرة ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز ، وأنّ مُتّبِعَه هو الظافر ، وأنّ عَدُوَّه هو الخائب الابْتر الذى يُمْحَى ذِكْرُه ، ويُعْفَى أثَرُه — فقال : **(انا أعطيناك الكوثر)** . الكوثر : صيغة مبالغة من الكثرة . ومعناه الشيء البالغ من الكثرة حد الافراط .

قيل لاعرابية رجع ابنها من السفر : بم رجع ابنك ؟ قالت : بكوثر . وقال الكميت :

وأنت كثير ياابن مروان طيب   وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

وقد اختلف فى معنى الكوثراختلافا كثيرا . ولكن تعريفاللفظ يدل على أن المقصود به كان امرا معهودا للسامعين تذهب اذهانهم اليه عند سماعه — وان كانوا لم يعهدوا وصفه بأنه أكثر الكثير — وهو الذى كان يستقله اعداؤه .

والذى أعطيه النبى صلى الله عليه وسلم — وكان معروفا لسامعى الكتاب — هو النبوة ، والدين الحق والهدى ، ومافيه سعادة الدارين الدنيا والآخرة . ولهذا فانيأذكر لك ماقاله جمع من الأئمة .

فقال أبو بكر بن عياش ويمان بن وثاب : الكوثر هم أصحابه واشياعه صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة .

وقال الحسين بن الفضل :هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع.وقيل : هو الاسلام. وقال هلال : هو التوحيد . وقال عكرمة : هو النبوة . وقال جعفر الصادق : هو نور قلبه صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو العلم والحكمة . وقال ابن كيسان : هو الايثار « أى ايثاره عليه السلام غيره بالمنفعة على نفسه » . وقيل : هو الفضائل الكثيرة التى وهبه الله اياها .

وذهب جماعة من الائمة الى أنه الخير الكثير ، والنعم الدنيوية والأخروية من فضائل وفواضل . وهو مارواه ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد ،وهو المشهورعن ابن عباس. وأخرج البخارى وابن جرير والحاكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال : الكوثر الخير الذى أعطاه الله تعالى اياه . قال ابو بشر . قلت لسعيد فان ناسا يزعمونأنهنهر فى الجنة قال : النهر الذى فى الجنةمنالخيرالذىأعطاه الله عزوجل اياهعليه الصلاة والسلام . ويروى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه ايضا .

فاذا جرينا على أن الكوثر هو النبوة أو العلم والحكمة ، أو نور القلب — وهو الهدى والرشاد — كان المعنى أن الذى أعطيناك من هذه المواهب هو الكثير الذى لايكثره شيء ، وان استقله الضعفاء ، او استخف به الاعداء . وأى كثير يعد كثيرا بالنسبة الى الهدى والرشاد ومعرفة طريق السعادة ؟

أليس الهُدَى منبع القوة والعزة ، وهو الذى يحفظهما بعد حصولهما ؟ اذ القوة والمال — اذا لم تكن معهما الهداية التى تقيم صاحبها على الطريق المستقيم — لابقاء لهما ، ومصيرهما الى الزوال ، ومصير كثرتهما الى قِلّة . كما قال سيدنا على رضى الله عنه : « العلم يحفظك وأنت تحفظ المال » . ولا سبيل الى حفظ المال الا بالعلم . والجهل والضلال مضيِّعة كل شيء من جاهٍ أو مال .

وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣

وعلى أن الكوثر هو الخير الدنيوى والأخروى يكون المراد : أن هؤلاء المستعجلين بالسيئة يظنون انك فى قِلٍّ وضَعْف ، وأن أغنياءهم وأقوياءهم فى عز ونعمة ، ولا يعلمون أننا قد أعطيناك من الخير الذى يعظم فى نفوسهم مما يعرفون ، ومن الخير المدّخر لك فى الغيب مما لايُدركون ، شيئا كثيرا لاتُحَد كثرته .

وأما أن هناك نهرا فى الجنة اسمه الكوثر ، وأن الله أعطاه نبيه .. فلا يفهم من معنى الآية ، بل الذى يدل عليه سياق السورة وموضع نزولها ، هو الذى بيناه من أحد القولين . والأول ـ وهو النبوة وما فى معناها ـ أرجح .

أما الاعتقاد بوجود هذا النهر فى الجنة ، فموقوف على تواتر الأخبار التى وردت به . وقد ذهب جماعة الى أنها متواترة المعنى ، فيجب الاعتقاد بوجود النهر على وجه عام دون تفصيل أوصافه لكثرة الخلاف فيها .

ولكن التواتر لايصح أن يكون برأى جماعة أو برأى آخرين . فحدّ التواتر هو ماتراه فى القرآن : تعرفه طبقة عن طبقة يؤمن تواطؤ كل منها على الكذب الى أن وصل اليك لاتنكره فرقة من فرق المسلمين قاطبة ـ فهذا التواتر هو الذى يوجب اليقين . وليس الأمر كذلك فى أحاديث النهر ، فانها ـ وأن كثرت طرقها ـ لم تبلغ هذا المبلغ ، فلا يصدق عليها اسم المتواتر .. خصوصا وانه يظن بالرواة سهولة التصديق فى مثل هذا الخبر لما فيه من غرابة الكرامة وجمال الوصف ، فيسهل على كل راوٍ الميل الى تصديق مايقال له . وهذا يُخِل بشرط التواتر ، لأن أول شرط فيه أن لايكون فى الطبقات رائحة التشيّع للمَرْوِى .

وبالجملة فخبر وجود النهر من الأخبار الغيبية لايجوز الاعتقاد به الا بعد التيقّن انه ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم . فاذا وصلت فيه الى اليقين الذى لايجوز عندك تبدله ، وكان عِلْمُكَ بصدوره عنه ـ عليه السلام ـ كعِلْمِكَ بوجود مكة أو المدينة قبل أن تراهما ، فاعتقد به ، والا ففوِّض الأمر الى الله ، وقل لا أعلم . والله أعلم .

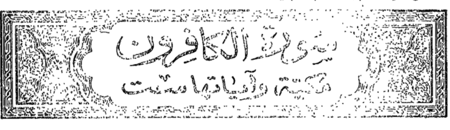
بعد أن أكّد الله لنبيّه الخبر بأن الذى أعطاه هو الكوثر الذى لايُسْتَقَل عَدَدُه ولا يُنْتقَص قَدْرُه ، وان مايَعُدُّونه كثيرا وعظيما فهو بالنسبة اليه قليل وحقير ـ طالبه بالشكر على ذلك . وأفضل الشكر الاخلاص لله فى العبادة لايشرك فى التوسل اليه ولا فى الخشوع القلبى له أحدا سواه ، ثم بذل المال للفقراء والمساكين . ولهذا فَرَّع على الخبر قوله : ﴿ **فَصَلِّ لربك وانحر** ﴾ : اى فاجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك مما هو نُسُكٌ لك لله وحده ، فانه هو مربّيك ومُسْبِغ النِّعَم عليك دون سواه ، كما قال تعالى « **قل إِنَّ صلاتى ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لله ربِّ العالمِينَ لاشريكَ له وبذلك أُمِرْتُ ، وانا أولُ المسلمين** » .

نوّه الله بقدْرِ ما أعطاه ثم أمَرَه بالشكر عليه . وبعد ذلك استأنف الكلمة لذكر حال أعدائه ومُبْغِضِيه ووعيدِهم بما سيُصيبُهم فى أنفسِهم وأموالهم فقال : ﴿ **انّ شانِئَكَ هو الأبتر** ﴾ . **الشانىء** معناه المُبْغِضُ . **والأبتر** : هو المقطوع الذى لايبقى أثَرَه ، ولا يَحسُن من بعده ذكره . شَبَّهَ بقاء الذِّكْر الحَسَن ، واستمرار الأثر الجميل بِذَنَب الحيوان لأنه يتْبعَه ، وهو زينة له . وشَبّه الحِرْمان من ذلك بِبَتْرِ الذَّنَب وقطعِه ، لأنّ البَتْرَ شاع فى هذا المعنى وان كان أصله القطع مطلقا .

وشانِئُه صلى الله عليه وسلم لم يكنْ يَشْنَؤُه لشخصِه ، لأنَّ شخْصَه كان مُحَبَّباً الى

النفوس — كما دل عليه تنزيله على الرسول — وانما كان الشانئون يشنئون ويمقتون ماجاء به من الهدى ، فهؤلاء هم الباقون في الضلال ، الخابطون في ظلام الجهل ، فلا ريب في فساد أمرهم ، وانقطاع أثرهم . وقد حقق الله هذا الوعيد في شانئيه في زمنه — صلى الله عليه وسلم — من العرب وغيرهم . فقد جرّهم الخذلان الى غاية الخسران . ولم يبق لهم الا سوء الذكر لبعضهم ، والنسيان التام لبقيتهم .. بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن اهتدى بهديه ، فانّ ذكرهم لايزال رفيعا ، وأثرهم لايزال باقيا في نفوس الصالحين .

وممن يشنأ ما جاء به صلى الله عليه وسلم ، ويدخل فيما يتضمنه معنى الأبتر ، أولئك الذين يتركون كتاب الله الذي جاء به ، ويتمسكون بالظنون واقوال غير المعصومين دون نظر الى ماتجر اليه من الانحراف عن سبيل هداية الدين القويم ، ويجعلون الدين شيعا وفرقا بعد أن صرح الكتاب بقوله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شىء » . ثم يعملون على ترويج ما ابتدعوا او ابتدعه أسلافهم بالدين من البدع ، وبيع العبادات ، واتخاذ الوسائط والشفعاء ، مما زحزحهم الى ما وراء الصراط المستقيم . فاذا ذكّروا بالقرآن اعرضوا عنه ، ولوّوا رؤوسهم ، وذكروا لك من قول القائلين مايصادمون به كتاب الله ، ويظنون انهم به يؤمنون . فلا عجب أنْ ترى الغضب الالهى يتبعهم في كل مكان ، ويقذفهم من ذلة الى مسكنة ، ومن متالف الى مهلكة ، وهم لايشعرون ، بل ينظرون الى مايحل بهم وهم ضاحكون لاهون ساخرون . نعوذ بالله من الخذلان ، ونستعين به على تقرير الايمان .



بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)

(الكافر) : هو المعاند الجاحد الذي اذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه ، واذا سمع الحرف من كلمته سد أذنيه .. ذلك الذي لايبحث في دليل بعد عرضه عليه ، ولا يذعن لحجة اذا اخترقت فؤاده ، بل يدفع جميع ذلك حبا فيما وجد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله ، واستمساكا بما استمسك به الى تقليد من سلفه . فهذا الصنف هو الذي قال الله فيه : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

بعض هذا الصنف — بل الغالب من أفراده — يقول للداعي الى الحق ، أو يحدث نفسه ليلهيها عن فهمه : الام يدعونا ؟ أالى الله ؟ فنحن نعتقد به . أالى توحيده ؟ فنحن نوحده . وغاية مافي الامر نتخذ شفعاء اليه نسأله بحقهم عنده ، أو بمكانتهم لديه .

وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

أإلى عبادته ؟ فنحن نركع ونسجد له ! وغاية ما ... زيادة على ذلك — أننا نعظم أولياءه وأهل الشفاعة عنده ونتوسل اليهم ليوصلونا اليه .

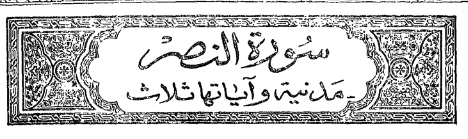
هذه وساوسهم وهذه أمانيهم ، فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ماعليه الداعي الى الحق صلى الله عليه وسلم بأصرح مايمكن أن يصرح به فقال له : (**قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون**) : أى ان الاله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده ، لأنكم انما تعبدون ذلك الذى يتخذ الشفعاء أو الولد ، أو الذى يظهر فى شخص ، أو يتجلى فى صورة معينة ، أو نحو ذلك مما تزعمون . وانما أعبد الها منزها عن جميع ماتصفون به الهكم . (**ولا أنتم عابدون ما أعبد**) أى انكم لستم بعابدين الهى الذى أدعو اليه ، كما تزعمون . فانكم زعمتم أن الذى تعبدونه تتقرب اليه بتعظيم الوسائط لديه فتوسلتم بها اليه ، وتعتقدون أنه يقبل توسلاتها عنده . فهذا الذى تعبدونه ليس الذى أعبد ، ولهذا لاتعبدون ماأعبده ، بل تعصونه وتخالفون أمره .

ثم لما كانوا يظنون أن عباداتهم التى يؤدونها أمام شفعائهم ، أو فى المعابد التى أقاموها لهم وبأسمائهم ، أو يؤدونها لله فى المعابد الخاصة به ، أو فى خلواتهم — وهم على اعتقادهم بالشفعاء — عبادة لله خالصة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لايفضلهم فى شىء .. نفى أن تكون عبادته مماثلة لعباداتهم ، وأن تكون عباداتهم مماثلة لعبادته فقال : (**ولا أنا عابد ماعبدتم**) . فما هذه مصدرية ، وليست بالموصولة مثل التى تقدمت ، أى ولا أنا بعابد عبادتكم . (**ولا أنتم عابدون ما أعبد**) : أى ، ولا أنتم عابدون عبادتى .

فمفاد الجملتين الاوليين الاختلاف التام فى المعبود . ومفاد الجملتين الاخريين تمام الاختلاف فى العبادة : فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، لان معبودى ذلك الاله الواحد المنزه عن الند والشفيع ، المتعالى عن الظهور فى شخص معين أو المحاباة لشعب أو واحد بعينه ، الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ فهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه . والذى تعبدونه على خلاف ذلك .. وعبادتى مخلصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك ، مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى فلاتسمى على الحقيقة عبادة ، فأين هى من عبادتى ؟ (**لكم دينكم**) دينكم مختص بكم لايتعداكم الى ، فلا تظنوا أنى عليه أو على شىء منه . (**ولى دين**) أى دينى هو دين خاص بى ، وهو الذى أدعوا اليه ، ولا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

ولا يخفى أن هذا المعنى الذى بيناه ، هو مايهدى اليه أسلوب السورة الشريفة — خصوصا هذه الآية الاخيرة ((**لكم دينكم ولى دين**)) — فانها صريحة فى أن المراد نفى الخلط المزعوم . ومادلت عليه السورة هو مادلت عليه آية ((**ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء**)) أى لاعلاقة بينك وبينهم لافى المعبود ولا فى العبادة

وأما ماقيل من غير ذلك ، فان صح شىء مما ورد فيه ، فاحمله على معناه مستقلا عن معنى السورة ، ولا تغتر بكل مايقال . فأفضل ماتفهم هو أقرب مايفهم . والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ

الخطاب الذى يَرِدُ فى كتاب الله مفردا ، تارة يكون للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة كقوله : ((**يأيها النبىُّ لِمَ تحرِّمُ ماأحلَّ اللهُ لكَ تبتغى مَرْضَاةَ أزواجك**)) ، وقد يكون لكل من يفهم الخطاب كقوله : ((**أرأيتَ الذى ينهَى عبدًا اذا صلَّى أرأيتَ إنْ كان علَى الهُدَى أوْ أمرَ بالتقوى**)) وكقوله : ((**أرأيتَ الذى يُكذِّبُ بالدين**)) . وقد يكون خطابا له عليه السلام مقصودا به نفسه الشريفةمع من معه من أصحابه والمخلصين مِنْ أمته . ومن هذا الأخير ماجاء من الخطاب فى سورة النصر .

كان المؤمنون أيام قلَّتِهم وفقْرِهم وكثرة عدد عَدُوِّهم وقوته واشتداده عليهم ومضايقته لهم ، يَمُرُّ الضَّجَرُ بنفوسهم ، ويأخذ الحَزَنُ منها مأخذَه . وكان صلى الله عليه وسلم يَحْزَنُ ويَضِيقُ صَدْرُه لما يكذِّبه قومُه — والحقُّ يسْطَعُ نورَه وهم يَعْمَوْنَ عنه — حتى قال الله له : ((**فَلعلَّكَ تاركٌ بعضَ مايُوحَى إليكَ وضائقٌ به صدرُكَ أنْ يقولوا لولا أُنزِلَ عليه كنزٌ أوْ جاءَ معَهُ مَلَكٌ إنما أنتَ نذيرٌ واللهُ علَى كلِّ شىءٍ وكيل**)) . (سورة هود) . وقال له : ((**قد نعلمُ أنهُ ليحزُنُكَ الذى يقولون فإنهم لا يكذبُونَكَ ولكنَّ الظالمين بآياتِ اللهِ يجحدون**)) . وقال بعد ذلك ((**وإنْ كانَ كَبُرَ عليْكَ إعْرَاضُهُمْ فإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تبتغِيَ نَفَقاً فى الأرضِ أوْ سُلَّماً فى السماءِ فتأتيَهُم بآيةٍ ولوْ شاء اللهُ لجمَعَهُم على الهُدَى فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلين**)) .

وجاء فى غير ذلك من آيات الكتاب مايدل على أن النبىَّ صلى الله عليهوسلم وأصحابه كانوا يضْجَرون ويَقْلَقون لِشدَّةِ ماكانوا يلْقَون . ولا يَخْفَى مافى القلق والضجر من استبطاء نَصْرِ اللهِ للحق الذى بعثَ به نبيَّه ، بل فيه شىء من السَّهْوِ عن وعد الله بتأييد دينه . وليس ذلك من النقص الذى يُعاب به صلى الله عليه وسلم ، فإنَّ كلَّ مخلوقٍ لايعلمُ مِنْ غيْبِ اللهِ مايَعلَمُ الله ، لابد أنْ يَمَسَّه هذا الضجر ، ويُصيبَه هذا القَلَقُ ، وتأخذه الشِّدَّة بهذا النِّسيان ، حتى يكون الكمال لله وحده . قال : ((**وَزُلزِلوا حتى يقولَ الرسُولُ والذين آمنوا معهُ متَى نصْرُ اللهِ**)) .

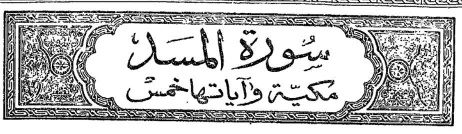
ولكن الله جَلَّ شأنه قد يَعُدَّه على أقرب المقربين اليه ، كما قالوا حسنات الأبرار سيئات المقربين . وقد يراه النبى صلى الله عليه وسلم — اذا رجع الى نفسه ، وخرج من غَمْرة الشِّدَّة — ذنْباً يتوبُ إلى اللهِ ويستغفِرُه مِنْه . ولهذا ورَدَ له الأمر الالهى

يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

بالاستغفار مما كان منه من حُزْنٍ وضَجَر فى أوقات الشِّدَّة ... ورد له ذلك الأمر فى صورة البشارة بقرب مجىء الفتح والنصر حيث قال : **(اذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح)** . فعبّر باذا المفيدة لتحقق وقوع مايضاف اليه ، اى عند ماترى نصرُ اللهِ لدينه الحق على الباطل ، ويفتحُ اللهُ بينك وبين قومِك ، فيجعل لك الغَلَبَةَ عليهم ، ويُضْعِفُ امرَهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة **(ورأيتَ الناسَ)** عند ذلك **(يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ)** وهو دينك الذى جئتَهم به لزوال ذلك الغِطاء الذى كان يَحُولُ بينهم وبيْنَه ، وهو غِطاء قوة الباطل فيقبلون عليه **(أفواجا)** : اى طوائف وجماعات لا آحادا كما كان ذلك فى بدء الأمر أيام الشدة .

اذا حصل ذلك كله ــ وهو لاريب حاصل ــ **(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)** : أى فنَزِّهْ ربك عن أنْ يُهمِلَ الحق ويَدَعَهُ للباطل يأكلَه ، وعن أن يَخْلُفَ وعْده فى تأييده ، وليكن هذا التنزيه بواسطة حَمْدِهِ والثناءِ عليه بانه القادر الذى لايَغْلبُه غالب ، والحكيم الذى اذا أَمْهَلَ الكافرين ليمتَحِنَ قلوبَ المؤمنين ، فلن يُضيعَ أجرَ العاملين ، ولا يُصْلِحُ عمل المفسدين ، والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين **(واستَغْفِرْهُ)** : اى اسأله أن يغفرَ لك ولاصحابك ماكان من القلق والضجر والحزن لتأخرِ زمنَ النصْرِ والفتْح . والاستغفار انما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبة من القلق انما تكون بتكميل الثقة بوعد الله وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد . وهو ــ وان كان مما يَشُقُّ على نفوس البَشَر ــ ولكن الله عَلِمَ أنَّ نفسَ نَبيِّه صلى الله عليه وسلم قد تبلغ ذلك الكمال ، فلذلك أمَرَه به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام ، والله يتقبل ذلك منهم . **(انه كان توّاباً)** أى أنه سبحانه لايزال يُوصَف بأنه كثير القبول للتوبة لأنه ربٌّ يُرَبِّي النفوسَ بالمِحَن ، فاذا وجدت الضَّعْفَ انهضَها الى طلب القوة ، وشدَّدَ همَمها بحُسْنِ الوَعْدِ . ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال ، وهى فى كل منزلةٍ تتوبُ عن التى قَبْلَها ، وهو سبحانه يقبَلُ تَوْبَتَها فهو التواب الرحيم .

وكأنَّ اللهَ يقول اذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف ، وزال موجب الحَزن . فلم يبق الا تسبيح الله وشكرِه ، والنزوع اليه عما كان من خواطر النفس ، فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين مادامو على تلك الكثرة فى ذلك الاخلاص . ومن هذا أخذ النبى صلى الله عليه وسلم أنَّ الأمْرَ قد تمَّ ، ولم يبقَ له إلاّ أنْ يسيرَ إلى رَبِّه فقال ــ فيما رُوى عنه ــ « انه قد نُعِيَتْ اليه نفسُه » والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ

(أبو لهب) : هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب عَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان من أشد الناس عداوة له . وصح فى الخبر أنه لما نزل قوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى بطون قريش ، فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير ، حتى جعل الرجل ، اذا لم يذهبْ ، يُرسِلُ رسولا لينظر ما الخبر . وكان فى المجتمعين أبو لهب ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو اخبرتكم أن خَيْلا بالوادى تُريد أن تغيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ قالوا : نعم ، ماجَرَّبْنا عليك الا صِدْقا . قال : فانى نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٌ شديد . فقال أبو لهب : « تَبًّا لكَ سَائِرَ الأيام ! أَلِهذَا جَمَعْتَنا ؟ » . وكان أبو لهب يَتْبَعُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى بعض غَدَوَاتِهِ الى القبائل يدعوها الى الله ، فاذا قال رسول الله : « انى رسول الله اليكم » يُكَذِّبُه عَمُّهُ ويَنْهَى الناسَ عن تصديقه ، وكانت امرأته ـ أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وعمة معاوية رضى الله عنه ـ تسعى عند القوم بالنميمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتفسد عليه قلوب القوم والعشيرة . والساعى بالنميمة يُلَقَّبُ بحامِلِ الحَطَب ، كما قال الراجز :

ان بنى الأدرم حمالو الحطب هم الوشاة فى الرضاء والغضب

وفى كلامهم كثير من الشواهد على ذلك .

ولُقِّبَ عبد العُزَّى بأبى لهب لتلَهُّبِ وجْنَتَيْهِ واشراقهما ، كما زعموا . وقد أنزل الله فيه وفى زوجته هذه السورة ليكون مثلا يُعْتَبَرُ به من يُعادِى ما أنزلَ اللهُ على نبيِّه مُطاوعةً لِهَوَاه ، وايثارا لما أَلِفَهُ من العقائد والعوائد والأعمال ، واغترارا بما عنده من الأموال وبمالَهُ من الصَّوْلَةِ أَوْ مِنَ المنْزِلة فى قلوب الرجال . قال تعالى : (تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ) . تبت يدا فلان : اىْ خَسِرَ أَوْ هَلَكَ . والجملة الأولى (تَبَّتْ يَدا أبى لهب) دعاء عليه بأن يخسر أو يهلك .

ولما كانت اليد هى آلة العمل والبطش ، فاذا هلكت وانقطعت أو خسرت ، كان الشخص كأنه معدوم هالك ـ عَدَّ العرب خسرانَها كنايةً عن خسران الشخص نفسه ، وهلاكها كنايةً عن هلاكِه . فاذا دُعِيَ عليه بخسران يديه فقد دعِيَ عليه بخسرانِه . ولذلك قال بعد الجملة الدعائية : (وتَبَّ) اى وَهَلَكَ أَوْ خَسِرَ هو اىْ أبو لهب ، اى أن ما دعَى به عليه لم يكن لمجرد نكايته واظهار مقته وشدة الغضب عليه ـ كما جرت به سُنَّة العرب فى كلامهم ـ بل هذا دعاءٌ فيه ماتعرفهُ العربُ ، وفيه ـ مع ذلك ـ أنه

وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥

بأمر واقع ، فانّ أبالهب قد هَلَكَ أوْ خَسِرَ بالفعل . والواو فى قوله : (وَتَبَّ) للاستئناف اى وهو قد تبّ .

ثم استأنف الكلام بغير حرف لبيان أن ماكان يتعزز به من المال والجاه لم يكن مما يفديه ، ويخلّصه من الخسران .. فقال . (ما أغنى عنه ماله وما كسب) : اى لم يفده ماله ولا عمله الذى كان يأتيه فى معاداة النبى صلى الله عليه وسلم طلبا للعلو والظهور (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) . لهب النار : هو ماسطع منها عند اشتعالها وتَوَقُّدها . اراد بوصفها هذا أنها نار شديدة الحرارة . والمراد من هذه النارنارالآخره التى لايعلم حقيقتها الا الله ، وسيعذب فيها أبو لهب جزاء ماكان يأتيه من العناد والمجَاحَدَة ، وسيصلاهامعهامرأته أم جميل ، كما قال الله (وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ) ، فامرأته معطوفة على ضمير أبى لهب . (وحَمَّالَةَ الحَطَبِ) ، نُصِبَ على فِعل محذوف قُصِدَ به التخصيص بالذم : أى وأمرأته ــ تلك النمامة الواشيةالتى تؤجّجُ النارَبيْن الناس بنميمتها كأنها تحمل الحطب لتحرق مابينهم من الصلات .

ولزيادة التبشيع فى التصوير قال : (فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) : أى فى عنقها حبل من الليف ، أى أنها ــ فى تكليف نفسها المشقة الفادحة للافساد بين الناس ، وتأريث نيران العداوة بينهم ــ بمنزلة حامل الحطب الذى فى عنقه حبل خشن يشد به ماحَمَلَهُ الى عنقه حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها أمرأة تحمل الحطب ، وفى عنقها حبل من الليف تشد به الحطب الى كاهلها حتى تكاد تختنق به .

وقد علمتَ مما أشرنا اليه سابقا أن الله لم يَعْن بسَبِّ أبى لهب بلقبه المعروف به عند قومه لمجرد عداوته للنبى صلى الله عليه وسلم . ولو كان كذلك لذَكَرَ الكتاب مثل عُقْبة بن أبى معيط ، والعاص بن وائل وغيرهم من أكابر أعدائه ــ ممن كَنَّىٰ عنهم أحيانا بأوصافهم ، ولم يذكرهم ــ وانما خَصَّ أبا لهب بالذكْر لأنه قد اشتهرَ بالتكذيب وتأثر النبى فى حركاته ليحبطَ مساعيه ، ويَصُدَّ الناسَ عن الاقبال عليه . فكأنه بذلك صار مُمَثّلا للصادّ عن الحَق ، المنفّرِ للناس من فَهْمِ ما أنزل الله على نبيّه ، المُحَوِّلْ لهم عن الاصغاء الى الكلِمِ الطيّب وتناول ماضمنته من الهُدَى والدلالة على نهْجِ النجاة .

فما تضمنه الدعاء من النكاية ، وما جاء به الوعيد من سوء العاقبة ، يلاقى كل مُحوّل للناس عن تَدَبُّرِ كتاب الله وفهم ماجاء فيه من عِبَرٍ وأحكام . فجميع أولئك الذين يقولون لك أنكَ مهما بلغتَ من العلم لايمكنك أن تعرّف عن الله من كتابه ولا من كلام نبيّه شيئا من الأحكام والعقائد ، ولاَ يجوز لك أن تستند فى تقرير حكم الى آيات الكتاب ولا الى الصحيح من السُّنَّة ، وانما الواجب عليك أن ترجع الى قول فلان ورأى فلانٍ ، وأن وصلت من معرفة لغة الكتاب والسُّنّة الى اعْلَىَ غاية ... أولئك هم آباء لَهَب لاتُغْنِى عنهم أموالُهُم ولا اعمالُهُم شيئا ، وسَيَصْلَوْن مَايَصْلَى . وكل امرأة تَنِمّ بين الناس لتُفَرِّقَ كلمَتَهم ، وتذهبَ بهم مذاهبَ السوء ، فهى ممثلة فى هذا المِثال ، نازل بها ذلك النّكال ــ نسأل الله العافية ، ونحمَدُه على هِدايتِهِ الواقية .



بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ

(سورة الاخلاص) . وهى سورة **(قل هو الله احد)** تشتمل على أَهَمِّ الأركان التى قامت عليها رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى ثلاثة : الأول توحيد الله وتنزيهه . والثانى تقرير الحدود العامة للاعمال ببيان الصالحات وما يقابلها ، وذلك هو الشريعة . والثالث أحوال النفس بعد الموت من البَعْث ومُلاقاة الجزاء من ثواب وعقـاب .

وأول هذه الأركان هو التوحيـد والتنزيه لاخراج العـرب وغيرهم من الشرك والتشبيه ، وهو ركن الأركان ، وأول مأمور به من أصول الايمان .. فيصح أن يكون الأمر بتبليغ مافى هذه السورة صادرا من الحق جل شانه تحقيقا لأمر رسالته صلى الله عليه وسلم ، ولارشاد الناس الى مايجب ان يعتقدوه فى جانب الله .

ولا حاجةَ الى أن يسألَ بعضُ العرب النبيَّ صلى الله عليه وسلم : ماهو نسب الله ؟ حتى تنزل السورة جوابا لهذا السؤال . وانما حاجةُ القوم ـ بل العالم الانسانى ـ كانت ماسَّة الى بعثةِ النبي صلى الله عليه وسلم لدعوةِ المشركين من العرب وأهل الكتاب فى سورة واحدة وتعريفِهم باللهِ فى أوجزِ عبارة وأجْزَلِها .

ولِمَا بيَّنَّا لايُستغرَبُ ماورد فى الخبرِ من أنهـا تعْدِلُ ثلثُ القـرآن ، لأن من عرف معناها حق المعرفة ، وأدرك ما أشارتْ اليه إدْراكَ صاحبُ البصيرة المستنيرة ـ لم يكن بقية ماجاء فى التوحيد والتنزيه عنده الا تفصيلا لِمَا عَلِم ، وشرْحا لِمَا حَصَل .

(قل هو) : أى الخبر الحق المؤيَّد بالبرهان الذى لايرتاب فيه . وهو مايعبـر عنه النحويون بالقصة أو الحديث **(الله أحد)** . الأحد : هو الواحد الذى لاكثرة فى ذاته فهو ليس بمرَكَّب من جواهر مختلفة ، فليس بمَادِّىّ ، ولا هو من اصول متعددة غيـر مادِّية ، كما يزعم بعض أرباب الاديان ـ من أنه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة اصول تعتبر واحدا وهى متعددة ـ سواء عُقِل ذلك أم لم يُعقَل .. فان الله برىء منه ، لان العقلاء أجمعت على أن موجد العالم ـ وهو الله ـ واجب الوجود . ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وَحدة الذات ، لأن التعَدّد فى الذات مسـتلزم لافتقار المجموع الى الأجزاء ، فلا يكون المجموع ـ المسمَّىَ بالله أو مُوجد العالم ـ واجب الوجود .

وكذلك الأفراد نفسها لايكون كل واحد واجب الوجود لانه يختلف عن الآخر بمُمَيِّزه ، وذلك المميِّز غير مايشتركان فيه من الوجود ، فيكون كل منهما مرَكَّبا ،

وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

والمركّب غير واجب كما ذكرنا . فلم يبق الا أن يكون واجب الوجود واحدا ـ فالله أحـد .

ثم ان جميع مايصل اليه عقلنا وحواسنا من هذا العالم يدخل فى نظام واحد يرتبط بعضه ببعض تمام الارتباط ، وهو يدل على أن موجده واحد ، وتعدد الاصول فيه من مخترعات الأوهام ، فيجب أن يخلص العقل منها .

ونكر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد لا بأنه لا واحد سواه . فان الوحدة تكون لكل واحد ، تقول : لا أحد فى الدار بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذى كان يزعمه المخاطَبون هو التعدّد فى ذاته ، فأراد نفى ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف مايعتقد به أهل الأصلين من المجوس ، وما يعتقده القائلون بالثلاثة منهم ومن غيرهم . (**الله الصمد**) . الصمد : هو السيد الذى يُصمَد اليه ويُقصَد فى الحوائج .. قال الشاعر :

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وهذه القضية (**الله الصمد**) من الكلمات الجامعة التى تملأ النفس مما قصد بها دون جهد ولا تعب .. لان تعريف الصمد ـ مع العلم بأن لفظ الجلالة معرفة ـ صيّر الجملة معرفة الطرفين . وهى تُفيد الحَصْر ، كما تقول : زيدٌ العالِم ـ اذا كان مخاطبك يعتقد أن غيرَه يشاركه فى العِلم ـ فتدفع ظنه بذلك ، تريد أنه لاعالم سواه .

فهذه الآية تقول لك : ان حاجةَ مافى الوجود لاتتوجه الى غيره ، وان محتاجا لايجوز له أن يتوجه فى طلب حاجته الى سواه . فقد افادتنا أن جميع المسبَّبات تنتهى اليه ، وجميع مايَسرِى فيها من الوجود فهو من ايجاده ، وأن صاحبَ الاختيار ، كالانسان ، اذا أراد أن يحصل مسبّبا من سبب ، فعليه أن يبحث عن طريقةِ ارتباطه به ـ على حسب ما امره الله بالبحث والنظر والتدبّر فى مخلوقاته ـ ليعلمَ كيف يَسرِى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب الى المسبَّبات ، ثم يذهب بها حتى يسندها الى مبدئها ، وهو الأمر الالهى .

هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ، ويظهر فيه اثر الكسْب وعمل الارادة والقوَى الممنوحة البشرية . أما ماهو وراء ذلك مما لادخل للارادة فيه ، فعلى صاحب الحاجة أن لايتوجه فى المعونة عليها ـ بعد الأخذ بالأسباب ـ الا الى الله وحده ، فهو المستأثر بالعمل فيما وراءِ ماجعل لك فيه عملا .

وقوله : **الصمد** يشعر بأنه الذى ينتهى اليه الطلبمباشرة بدونواسطة ولا شفيع ، وهو فى ذلك يدعو الى مايخالف عقيدة مشركِى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء . وكثير من اهل الاديان الأُخَر يعتقدون بان لرؤسائهم منزلةً عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغياتهم ، فيلجأون اليهم أحياءً أو أمواتا ، ويقومون بين أيديهم أو عند قبورِهم خاشعين خاضعين ، كما يخشعون لله بل أشد خشية .

ثم هو الصمد فى تحديد الحدود العامة للاعمال ، ووضع أصول الشرائع . فلابد أن يرد الى ما انزل جميع مايقع الاختلاف فيه ، وليس من المباح أن يرجعَ الى قول غيرِه متى نطقَ صريحَ كتابِه بخلافِه .

وعلى الناس كافة أن يرجعوا الى الكتاب ، فاذا لم يكونوا عارفين به رجعوا الى العارف وطالبوه بالدليل منه . وعليهم ان يهتمُّوا بأن يعرفوا منه أصول مايعتقدون وما يعملون ، فان لم يفعلوا اختلفت الآراء ، وحَجَبَتِ المذاهب كتابَ الله ، فدَرِس معناه ، وذهبت الحكمة من انزاله عبثا لتعلق الناس بقول غير المعصوم ، وعماهُم عن هَدْيِ المعصوم ، فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة ، وانما يعملون بما يقول لهم زعماؤهم الذين لايجدون دليلا على امتيازهم بالزعامة ، فيكونون مستمسكين بما لم يُنَزِّلْ به الله سلطانا فيسقطون فى مهاوِى الشقاء الدنيَوى والأُخْرَوى .

(لم يلد ولم يـولد) يُنَزِّه الله عن أن يَلِدَ أحدا ، ويُشير الى فساد رأى القائلين بأن له ابنـا أو بنـات ـــ وهم مشركو العرب والهنـد والنصارى وغيرهم ـــ ويبيِّن لهم أن الأبنية تستلزم الولادة ـــ والتعبير بالانبثاق ونحوه لايغير المعنى ـــ والولادة انما تـكون من الحى الذى له مِزاج ، وماله مِزاج فهو مركَّب ونهايته الى انحلال وفَناء . وهو ـــ جل شأنه ـــ منزَّه عن ذلك .

وقوله : **(لم يولد)** يُصرِّح ببطلان مايزعمه بعض أرباب الاديان من أن ابْنًا لله يكون الّها ويُعبَد عبادة الالّه ، ويُقصَد فيما يُقْصَد فيه الالّه .. بل لايستحى الغالون منهم ، أن يعبِّروا عن والدته « بأُمِّ اللهِ القادرة » . فان المولود حادث ، ولا يكون الا بمزاج ، وهو لا يَسْلَم من عاقبةِ الفناء . ودعوى أنه أزلِيٌّ مع أبيه مما لايمكن تَعقُّله ولاتُغيِّر من حقيقة الامر شيئا .

فاذا أراد أحد من هؤلاء أن يدّعِي التنزيه ، فما عليه الا أن يقلع عن هـذه الالفاظ والنسَب ويقول كما نقول : الله أحد الله الصمدُ لم يَلِد ولم يُولد **(ولم يكن له كفوا أحد)** الكفؤ : معناه المكافىء والمماثل فى العمل والقدْرة . وهو نَفْى لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نِدًّا فى أفعاله يعاكسه فى اعماله ، على نحو ما يعتقد بعض الوثنيين فى الشيطان مثلا .. فقد نَفَى بهذه السورة جميع أنواع الاشراك ، وقرر جميع أصـول التوحيـد والتنزيه .

وأصل تركيب الآية ولم يكن أحدٌ كفؤا له . ولكن قدَّمَ المجرور لأن الحـديث عن الله ، وأشد الاهتمام انما هو بتنزيهه ، فقدَّمَ ضميره مع الجار فى حيِّز الكون المَنْفِيّ ، ثم قَدَّم المَنْفِيَّ نفسَه ـــ وهو الكفؤ ـــ لان العناية موجهة الى نفيه ، وأخَّرَ من سلبت عنه المكافأة لأنه لم يُؤْتَ به فى الكلام الا لقَصدِ تعميم النَّفْى فقط .. والا فقد كان يكفي أن يقالَ وليس له كفؤ . ولكن العبارة على مافى الآية أبيَنُ وأجْمَل .. والله أعلم

وقد قال الله فى تفصيل ما أجملته هذه السـورة : **« وقالوا اتخـذَ الرحمنُ ولدًا لقد جئتُم شيئا إدًّا . تكادُ السمواتُ يتفطَّرْنَ منه وتنشَقُّ الأرضُ وَتخِرُّ الجبالُ هَـدًّا أَنْ دعوْا للرحمنِ وَلدًا وما ينبغِي للرحمنِ أَنْ يتخذَ ولدًا . إنْ كلُّ مَنْ فى السمواتِ والأرضِ إلاّ آتِ الرحمنِ عبْدًا . لقد أحصاهم وعدَّهُم عَدًّا . وكلهُم آتيهِ يومَ القيامةِ فرْدًا »**. وقال : **« وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولدًا سبحانَه بل عبادٌ مُكرَمون لايَسْبِقونَه بالقولِ وهم بأمرِهِ يعملون »** وقال : **« وجعلوا بينَه وبيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا ولقد عَلِمَتِ الجِنَّـةُ انهـم لمحْضَرون سبحانَ اللهِ عما يَصِفون »** .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾

(الفلق) . قيل : هو الصبح . وربُّه : هو الله الذى وضع نظام الكواكب على أن يكون فى الأرض ليلٌ يغمرُ الارضَ بظلمته ، ثم يكون صبحٌ فيفلقُ هـذا الظلام ويُفرِّجُ كربَه عن الأنام .

وقال جمعٌ من المفسرين : ان الفَلَقَ هو الموجود الممكن كله . وربُّه هو خالقُه الذى شقَّ ظلمةَ العَدَم عنه . ومن كان ربُّ الوجودِ كلِّه ، أو ربُّ الصبح ، ولا يمكن أن يأتى بالصبح سواه ــ فهو جدير بأن يُتَعوَّذَ به ويُلجَأ اليه وحده دون سواه **(من شر ماخلق)** : اى من كل شرٍ وأذًى يُصيبُك من اي شيءٍ خَلَقَه .

ان الله خلقَ الخَلْقَ لِما لا نعلمُه من الحكمة ، وقد يقفنا على حكمته فى بعض خلقه . وقد خلق كل مخلوق ليصيبَ من الوجودِ الحظَّ الذى قدَّرَهُ له ، ووهَبه كل ما يتم به ذلك الحظ المقدَّر . فكل مخلوقٍ فهو خيرٌ فى نفسه لانه اخذ مكانَه مِنَ الوجود ، وهو الحق الذى لا يمكن ان يُزَحزَحَ عنه . وانما الشرور التى تعرِضُ أمورٌ نِسْبيَّة ، فما هو شر بالنسبة اليك خيرٌ لكائن آخر .

يأكُلُكَ السبُعُ فتألَمُ وتموتُ ، ويَحزُنُ لك الاقارب والأصدقاء ، ويُحرَم سعيَك الاولاد والفقراء ــ فكل ذلك أذًى وشرٌّ بالنسبة اليك واليهم ، ولكنه خيرٌ بالنِّسْبَةِ الى السبُع ، وتكميلٌ لِحظِّه . ولهـذا أضاف الشرَّ الى ما خلق لأنَّ الشرَّ انما يأتى بمراعاة تلك الاضافة .

اما افعال الله فى نفسها فكلٌ منها خيرٌ فى نفسه ، كما بيَّنَّا . وهذا هو الذى يصحح الاستعاذةَ باللهِ منه ، والاستعانةَ به على أن يخلِّصَك من اذاه . فأنت تلجأ الى الله أن يَقيكَ الوقوعَ فى نُسْبَة مع مخلوقٍ آخر يُصيبُك أذًى فى تلك النِّسْبة ، كأنْ لايُخْلِى بينك وبين الأسد ، أو لا يَدَعُه ينتَبِه اليك ، أو يقدِّرُك على دَفْعِه .. وهكذا .

ثم خَصَّصَ بعض ما خَلَق لكثرة ما يقعُ الشرُّ فيه مع غَلَبَةِ الضَّعف عن دفعه ، فقال : **(ومن شر غاسق اذا وقب)** . اصل المعنى فى مادة غسق السيلان والانصباب ، وأصل الوقب النقرة فى الجبل ونحوه . ووقب بمعنى دخل دخولا لم يترك شيئًا الا مَرَّ به .

والمراد من الغاسق هنا الليل ، ووقب أى دخل وغمر كل شيء ، كأنما انصب عليه ، واشتدت ظُلْمته . فانه فى هذه الحالة مُخَوِّف موضع لأن يُدهِمَكَ وأنت لا تدرى كيف تَخلُص منه : فان كنتَ بصددِ سفرٍ ضلَلْتَ الطريقَ ولا تدرى كيف تهتدِى ، وان كنتَ فى خصـامٍ مع عدوٍّ فقـد يكونُ الظلام أشـدَّ أعوانه عليـك . ولا حاجة

لتعديد مافى الظلام من اطوار الشر ، فذلك مما لايكاد يَخْفَى على أحد من البَشر . فكان جديرا أن يخصّ بالاستعاذة من شرِّه بربه سبحانه ، فهو القادر على الكفاية منه .

ثم خص مخلوقات اخر لظهور ضررها وعُسْر الاحتياط منه ، فلابد من الفزع الى الله ، والاستنجادبقدرته الشاملةعلى دفع شرِّها ، فقال : **(ومن شر النفاثات فى العقد)** .

(العقد) : ماتعرفه فى الخيط والحبْل ، جمع عُقْدة ، ثم تستعمل العقدة فى كل مارُبط وأُحكِمَ ربْطه . ولذلك سمَّى الله الارتباط الشرعى بين الزوجين عُقْدةَ النكاح ، وسمىّ الايجاب والقبول فى البيع ونحوه عَقْدًا ، ونسميه عُقْدَةً أيضا .

(والنّفْث) : النفخ الخفيف أو النفخ مع شىء من الريق . والنفاثة من صيغ المبالغة ، كالعلاّمة والفهّامة . ويُستعمل كذلك للذّكر والأنثىَ . **(والنفاثات)** جمعه . والمراد بهم هنا النمامون ، المقطّعون لروابط الألفة ، المحرّقون لها بما يُلْقون عليها من ضِرام نمائمهم . وانما جاءت العبارة كما فى الآية لأن الله جل شأنه أراد انْ يُشبّهَهُم بأولئك السّحَرَة المشَعْوِذِين الذين اذا ارادوا أن يُحلوا عُقْدَة المحبة بين المرء وزوجه — مثلا فيما يُوهِمُون به العامّة — عَقَدُوا عُقَدَةً ، ثم نَفَثُوا فيها وحلّوها ليكون ذلك حَلا للعقدة التى بين الزوجين .

والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السّحْر ، لانها تحوّل مابين الصديقين من محبة الى عداوة بوسيلة خَفِيّة كاذبة . والنميمة تضلّل وُجْدانالصديقين كما يضلل الليل مَنْ يَسِيرُ فيه بظُلْمَتِهِ ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق اذا وَقَب . ولا يسهل على احد أن يحتاط للتحفظ من النمام ، فانه يذكر عنك مايذكر لصاحبك ، وانت لاتعلم ماذا يقول ولا مايمكن ان يقول . واذا جاءك فربّما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لايكاد يُمكنك تكذيبه ، فلابد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه ، وهى قوة الله .

وقد رووا ههنا احاديث فى انَ النبىَ صلى الله عليه وسلم سَحَرَهُ لَبِيْدُ بن الأعصم وأثَّرَ سحْرَه فيه حتى كان يُخَيَّلُ له انه يفعل الشىءَ وهو لايفعله ، أو يأتى شيئا وهو لايأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأُخْرِجت مواد السّحْر من بئر وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نَزَلَ به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السّحْر فى نفسه عليه السلام ، حتى يصل به الأمر الى أن يظن انه يفعل شيئا وهو لايفعله ، ليس من قَبِيل تأثير الأمراض فى الابدان ، ولا من قَبِيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية ، بل هو ماسٌّ بالعقل ، آخِذٌ بالروح ، وهو مما يُصَدِّق قولَ المشركين فيه : ((**أنْ تَتَّبِعُونَ الاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا**)) . وليس المسحور عندهم الاَّ من خولط فى عقله ، وخُيِّل له ان شيئا يقع وهو لايقع ، فيُخيّل اليه انه يُوحَى اليه ولا يُوحَى اليه .

وقد قال كثير من المقلدين الذين لايعقلون ماهى النبوة ولا مايجب لها : ان الخبر بتأثير السّحْر فى النفس الشريفة قد صَحّ فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بِدَع المبتدعين لأنه ضَرْبٌ من انكار السّحْر ، وقد جاء القرآن بصحة السّحْر .

فانظر كيفَ ينْقلِبُ الدينُ الصحيح ، والحق الصريح فى نظر المقلد بِدْعة ! نعوذ بالله ! يحتج بالقرآن على ثبوت السّحْر ، ويعرض عن القرآن فى نفيهِ السحر عنه صلى

الله عليه وسلم وعَدّه من افتراء المشركين عليه ، ويُؤَوّل فى هذه ولا يُؤَوّل فى تلك ! مع أن الذى قَصَدَه المشركون ظاهر ، لانهم كانوا يقولون : ان الشيطان يلابسُهُ عليه السلام ، وملابسَةُ الشيطان تُعرَف بالسحر عندهم ، وضَرْبٌ من ضُروبه . وهو بعينه أثر السِّحْر الذى نُسِبَ الى لَبيْد ، فانه قد خالطَ عقلَه وادراكَه فى زعمهم .

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثْبِتُه وعدم الاعتقاد بما يَنْفيه . وقد جاء بنَفْى السِّحْر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السِّحر له الى المشركين أعدائه ، ووَبَّخَهُم على زَعْمِهم هذا . فاذن هو ليس بمَسْحُور قطعا .

وأما الحديث ــ على فرض صحته ــ فهو آحاد ، والآحاد لايؤخذ بها فى باب العقائد . وعصمة النبىُّ من تأثير السِّحر فى عقلِه عقيدة من العقائد لايُؤخَذ فى نفيها عنه الا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون .

على أن الحديثَ الذى يصلُ الينا منَ طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده . أما من قامت له الادلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة . وعلى أى حال فلنا ، بل علينا ، أنْ نفوِّضَ الأمرَ فى الحديث ولا نُحَكِّمه فى عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل . فانه اذا خولطَ النبىّ فى عقلِه ــ كما زعموا ــ جاز عليه أن يظن أنه بَلَّغ شيئا وهو لم يُبَلِّغْه ، أو ان شيئا نزلَ عليه وهو لم ينزل عليه . والأمر ظاهرلايحتاج الى بيان ... ثم أن نَفْىَ السِّحر عنهلايستلزم نَفْىَ السِّحر مطلقا . فربما جاز أن يصيبَ السِّحر غيرَه بالجُنون نفسَه ، ولكن من المحال أنْ يصيبَه لانّ الله عَصَمَهُ منه .

ما أَضَر المحب الجاهل ! وما أشدَّ خطرَه على من يظن أنه يحبه ! نعوذ بالله من الخذلان .

على أن نافى السِّحر بالمرة لا يجوز أنْ يُعَدّ مُبتدعا لان الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون فى قوله : **آمن الرســـول** الآية ، وفى غيرها من الآيات . ووردت الأوامــر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما ، ولم يأت فى شىء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الايمان بثبوته أو وقوعه على الوجه الذى يعتقد به الوثنيُّون فى كل مِلّة . بل الذى ورد فى الصحيح ، هو أنّ تَعَلُّمَ السِّحْرَ كُفْرٌ . فقد طُلِبَ منا لِمَ لاننظر بالمرة فيما يُعْرَف عند الناس بالسِّحْر ويُسَمَّىٰ باسمه .

وجاء ذِكْرُ السِّحر فى القرآن فى مواضع مختلفة ، وليس من الواجب أن نفهمَ منــه مايَفْهَمُ هؤلاء العُميان . فان السِّحْر فى اللغة معناه صرف الشىء عن حقيقته . قال الفراء فى قوله تعالى ((**فأنّىٰ تُسْحَرُون**)) : اى أنّىٰ تؤْفكون وتُصْرَفون . سَحَرَهُ وأَفِكَهُ بمعنى واحد .

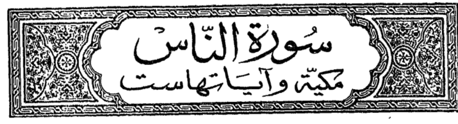
وماذا علينا لو فهمنا من السحر الذى يفرق بين المرء وزوجه ، تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التى تَصْرِف الزوجَ عن زوجتِه والزوجَةَ عن زوجها ؟ وهل يَبْعُد أن يكون مثل هذه الطرق مما يُتَعَلَّمُ وتُطلَبُ له الاساتذة ، ونحن نرى أن كُتُبا أُلِّفَتْ ودروســا تُلْقَىٰ لتعليم اساليب التفريق بين الناس لمن يُريد أنْ يــكونَ من عمّــال السياسة فى بعض الحكومات ؟

وقد يكون ذِكْر المرء وزوجه من قَبِيل التمثيل ، واظهار الأمر فى أقبح صُورة : أى بَلَغَ مِنْ أمرِ مايتعلمونه من ضروب الحِيَل وطُرُق الافساد ، أن يتمكنوا به من التفريق

بين المرء وزوجه . وسياق الآية لاياباه ، وذكر الشياطين لايمنعنا من ذلك بعد ان سَمَّىَ الله خبثاء الأنس المنافقين بالشياطين . قال : ((**واذا خَلَوْا إِلىَ شياطينِهم**)) . وقال : ((**شياطينَ الإنْسِ والجِنِّ يُوحِي بعضُهُم إلىَ بعض**)) . وسِحْر سَحَرَة فرعون كان ضربا من الحِيلَة ، ولذلك قال : ((**يُخَيَّلُ اليهِ مِنْ سِحْرِهِم أنّها تَسْعَىَ**)) وما قال انها تسْعَى بِسحرهم . قال يونس : تقول العرب ماسَحَرَكَ عن وجه كذا ، اى ماصَرَفكَ عنه ؟

ولو كان هؤلاء يُقدِّرون الكتابَ قَدْرَه ، ويعرفون من اللغة مايكفى لعاقل ان يتكلم ، ماهَذَرُوا هذا الهَذَرَ ، ولا وَصَمُوا الاسلامَ بهذه الوَصْمَة .. وكيفَ يصحّ أن تكونَ هذه السورة نزلت فِى سِحْرِ النبى صلى الله عليه وسلم مع انها مكية ــ فى قول عطاء والحسن وجابر وفى رواية ابن كريب عن ابن عباس ــ وما يزعمونه من السّحر انما وقع فى المدينة؟! لكن من تَعَوَّدَ القولَ بالمُحال لايمكن الكلام معه بحال .. نعوذ بالله من الخبال .

(**ومنْ شَرِّ حاسِدٍ اذاَ حَسَد**) الحاسد الذى يتمنّىَ زوال نِعمـــة محســوده ، ولا يَرضَى انْ تتجدد له نعمة . وهو ــ اذا حســد ، اىْ انفذَ حَسَدَه وحقّقه بالسَّعْى والجِدّ فى ازالة النعمة مَن يحسدَه ــ من اشدخلق الله اذىً ، ومن اخفاهم حِيلَةً ، وادقهم وسيلة . وليس فى طاقة محسوده ارضاؤه بوجه من الوجوه ، ولا فى استطاعته الوقوف على مايُدَبِّرُه من المكايد . فلاملجأ منه الاّ إلىَ الله وحده ، فهو القادرعلى كَفِّ اذاه ، واحباط سعيه . وقانا الله شَرَّ الحاسدين ، وكَفّ عنا كيد الكائدين . والله اعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ

هذه السوره مكية ــ كالسورة التى قبلها فى قول من ذكرنا ــ ولا عَلاقة لها بسحر ولا بما هو من ناحيته . وانما هى امر الهى بالاستعاذة بالله والالتجاء اليه والاستعانة به على دفع شر عظيم يُشْبِه الشرور التى ذُكِرَت فى الآية المتقدمة ، ولكنه شر قد يسهو عنه الناس فلا يُبالون به لأنه ياتيهم من ناحية شهواتهم ، وتَلْتَبِسُ به قواهم من حيث لايشعرون ، فيقعون به فى سيئات الاعمــال ، وهم يَحسَبُونَ انهم يُحْسِنون صُنْعا .

ولما كان من الخَفاء بحيث تَضْعُف قوه الانسان عن دفعه بسهولة احتاج الى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه ، وذلك الشر هو شر الوَسواس ، قال : (**قل اعوذ برب الناس**) اى الجأ اليه واستعين به . ورب الناس الذى يُرَبِّيهم بالنِّعَم ويؤدبهم بالنِّقَم . (**مَلِكِ الناس**) الذى يحكُمهم ويُضْبِط اعمالَهم ، ويُدَبِّر قُواهم ، ويَضَعُ لهم الشرائع ، ويُحَدِّدَ لهم الحدود العامة التى لايُبَاحُ لهم الخروج عنها . (**إلهِ الناس**) المستوّلى على قلوبهم بعظمته فلا يحيطون بكُنْهِ سلطته ، وانما يخشعون لها : يحيط بنواحى قلوبهم ولايدرون

ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى

من اى جانب يأتيهم . فهو معبودهم الحق ، وملاذهم اذا ضاق بهم الأمر .

وانما خصّ هذه الصفات ، صفات الألوهية ، بالاضافة الى الناس — مع أن الله رب كل شيء ومليك كل شيء وإله كل شيء — لأن الناس هم الذين وهموا فى صفاته وضلوا فيها عن حقيقة معانيها ، فجعلوا لهم اربابا ينسبون اليهم بعض النِّعم أو كلها ، ويلجأون اليهم فى استدرارها ، ولقبوهم بالشفعاء .. وهم الذين تخيّلوا لهم ملوكا روحانيين يظنون انهم هم الذين يُدبّرون حركاتهم ، وهم الذين يرسمون لهم حدود أعمالهم بما يؤثرون عنهم من اقوالهم ، فيعرضون عن كتاب الله الى كتبهم ، وربّما ضيّعوا الكتب الالهية فمُحِىَ أثرها اكتفاء بما يبقى فى أيديهم من مبتدعات أولئك الرؤساء .

ثم انهم لذلك يجدون فى أنفسهم خشية لرؤسائهم هؤلاء ، ويخيلون لهم منها سلطة روحية فيخنعون لهم خنوعهم للسلطان الالهى ، ولذلك عدّوا آلهة لهم ، سواء لقبوهم بهذا اللقب أم لم يلقبوهم به . فالناس هم الذين اخترعوا بأوهامهم هؤلاء الأرباب والملوك والآلهة ، فلذلك خصّهم بالذكر .

اما مايقال عن الجنّ من أنهم فعلوا مثل الناس فذلك مما لايظهر للناس ، ولهذا لم تعتبرهم ، وانما كرر ذكر الناس باللفظ الظاهر دون الضمير لتقرير الامر فضل تقرير لشدة تعلق الجمهور الاعظم من الناس بخيالاتهم ، وتمسّكهم بأوهامهم ، وظنّهم انهم — لكونهم ناسا اى بشرًا ، عُقلاء متفكرين — قد وصلوا فيما تعلقوا به الى ماهو الصحيح المنطبق على الواقع . فأراد ان ينبّه — بذكر اللفظ الدال عليهم بجانب كل صفة — الى ان الله هو ربّهم ، وهم اناس متفكرون ، ومليكهم وهم كذلك ، وإلههم وهم كذلك . وباطل ما اخترعوا لأنفسهم بعقولهم من حيث هم بشر .

فاذا لم يكن للانسان ربٌّ ، ولا مليك ، ولا إله الا الله ، فاستعذ به وحده **(من شر الوسْواس)** . اصل الوسوسة الصوت الخفىّ . وقد قيل لأصوات الحلىّ عند الحركة وسوسة . والوسْواس ههنا صفة كالثرثار ، او اسم مصدر استعمل استعمال الصفة . والمراد منه الذى يلقى الحديث فى النفس حديث السوء . **(الخناس)** : من خنس اذا رجع .

وهذه الاحاديث النفسية اذا سُلِّط عليها نظر العقل فى العواقب خفيت واضمحلت ، وسكن الموسوس عن القائها . وحديث النفس بالفواحش ، وضروب الأذى بالناس — اذا ذُكِرَ دينُ الله واحْضِرَت النفسُ مثال شرّه — ذهب ذلك الحديث هباء ، وخنس الموسوس . وكذلك اذا وسوس لك احدٌ من الناس ، وبعثك على فِعل سوء ، وذكرت ذلك وذكّرته به ، رأيته يخنس ويُمسِك عن القول الى أن يجد فرصة أخرى .

فالموسوس بالشر كثير الخنوس لأنه من ناحية الباطل لا مكنة له على مقاومة الحق اذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس الى اسوا المصائر اذا انجرّت مع الوسوسة ، وانساقت بها الى تحقيق الخاطر بالفعل . وانما ذكر الله لنا هذا الوصف **(الخناس)** لينبّهنا الى مكان الموسوس من الضعف لنلتمس السبيل الى دفعه مع الاستعانة بالله عليه ، وليدلنا على أنّ ماأصاب الناس من قِبَله انما كان من ضعف عزائمهم وعَشا بصائرهم ، ولو استعملوا قُوَاهُم فيما جعلها الله له ماتجع الوسواس فى نفوسهم ، ولا جرّهم الى سوء مصيرهم . وقد وصف الله الوسواس الخناس بقوله : **(الذى يُوسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ والناس)** . من الجنة والناس بيان للذى يوسوس أو بيان للوسواس الخناس .

يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦

فالوسوسون قسمان : قسم الجِنّة ، وهم الخلق المستترون الذين لانعرفهم ، وانما نجد فى انفسنا اثرا يُنْسَبُ اليهم . ولكل واحد من الناس شيطان ، وهى قوة نازعة الى الشر يَحْدُثُ منها فى نفسِهِ خواطرُ السوء . وانما جعل الوسوسة فى الصدور على ماعُهِدَ فى كلامِ العربِ من أن الخواطرَ فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم . وكثيرا مايقال : انّ الشكَّ يَحُوكُ فى صَدْرِه ، وما الشك الا فى نفسه وعقله .

وافاعيل العقل فى المخ وأن كان يظهر لهـا أثر فى حركات الدم ، وضربات القلب ، وضِيقِ الصَّدْر أو انبساطه . وكل ما أوردوه فى خرطوم الشيطان ، وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو القلب ونحو ذلك ــ فهو من التمثيل والتصوير . والا فليجعلوا مثل ذلك للقسم الثانى من الوسواس أو الموسوسين ــ وهم الناس ــ فان الله نَسَبَ الوسوسة اليهم على السواء ، فقال : (**مِنَ الجِنّةِ والناس**) فليكن للناس الذين يوسوسون فى صدور الناس خُرطوم وخَطْم ومِنقار يدخل فى الصدور ويوضع على اذن القلب . فاذا ذَكَرَ اللهُ خَنَسَ الخُرْطوم ، كما ذكروه فى الجِنّة ، ولكنهم يكثرون الوصف ويخترعون مايشاءون بأوهامهم فيما لايراه الناس ــ وان كانوا لايعقلونه ــ ويجترئون على الغيب فيذكرون من شئونه مااستأثر الله بعلمه ، ثم لايكفيهم ذلك حتى يخترعوا من الأحاديث مايَسْنِد أوهامَهم ، وينسبون الى السَّلَفِ مايظنون انه يُقَوِّى مزاعمَهم .

والله يشهد أن النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح برآء مماينْسَبُ اليهم من ذلك كله . وانما هو من اختراع من لم يرض لنفسه ان يقترف جريمة واحدة : جريمة الجرْأة على الغيب بوَهْمِه ، حتى يضم الى ذلك جريمةَ الكَذِبِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفِ الأمّة ... أولئك الذين اذا انْجَرَّ القولُ بهم الى مايعرفه النـاس ويُمْكِنُهُم ان يكذبوهم فيه سكتوا سكوت البُكم ، ولجأوا الى سلاحهم الذى يشرعونه فى وجـوه الجبناء ، وقالوا : هكذا مذهب اهل السُّنّة ، كأنّ السُّنَّة عِندَهم مذهب جُسمانى مَحْض لاشائبة من الرُّوحانية فيه ، وافتروا على اهلِ السُّنّة ــ وهم السلفِ ــ مالا يعرفونه .

وماذا عليهم لو أخذوا السُّنّة والكتاب ، ونظروا الى الدين جُملةً ، وفسروا بعض نصوصِهِ ببعض كما هو الواجب على المسلم الذى يؤمن بالكتاب كله ، وليس من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؟ . نعوذ بالله من الوَسْواس الخنّاسِ الذى يُوَسْوِسُ فى صدورِ الناسِ مِنَ الجِنّةِ والناسِ . والله أعلم .

قال مؤلفه الامام حفظه الله انه فرغ منه منتصف الساعة السادسة بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ من اغسطس سنة ١٩٠٣ فى مدينة جنيف من بلاد سويسرا



راجعه على الرسم العثمانى
الشيخ عامر السيد عثمان
عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف
تحت اشراف مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر

مطابع الشعب

